

دوستويفسكى

الأخوة كارامازوف

رواية فى مجلدين

المجلد الثانى

دار «رادوغا»
موسكو



ترجمة د . سامى الدروبى
مراجعة د . ابو بكر يوسف

Федор Достоевский

БРАТЬЯ КАРАМАЗОВЫ

в 2-х томах
Том II. Части 3 и 4
(Главы 7—12)

на арабском языке

المجلد الثانى : الجزء الثالث والجزء الرابع (الفصول ٧ — ١٢) .

© حقوق المراجعة والمقدمة والتعليقات والرسوم محفوظة لدار

«رادوغا» ، ١٩٨٨ طبع فى الاتحاد السوفييتى

Д $\frac{4702010100-636}{031(01)-88}$ 072-88

ISBN 5-05-001733-5
ISBN 5-05-001735-1

الجزء الثالث

الباب السابع

أليوشا

١

رائحة الجثة

اعدّ جثمان الراهب الكاهن الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة . وقد جرت العادة ، كما هو معروف ، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك . يقول كتاب الطقوس فى هذا الصدد : «اذا نادى الرب راهبا اليه ، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلكه بماء فاتر ، بعد أن يرسم اشارة الصليب باسفنجة على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه ، وهذا كل شيء .» . وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه . فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة ، وكفنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها فى صورة صليب ، كما تأمر الطقوس بذلك . ووضع على رأسه بعدئذ قلنسوة مزينة بصليب ذى ثمانية أفرع ، تاركاً القلنسوة تسفر عن الوجه ، مغطياً الوجه ببرقع أسود ؛ ووضع صورة المخلّص بين يدى المتوفى . حتى

اذا انتهى تكفين الجثمان على هذا النحو سجّي عند الصباح في تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل . وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار في الصومعة (الحجرة الكبيرة الاولى التي اعتاد الشيخ الراحل ان يستقبل فيها الرهبان والزوار الدنيويين) . واذ أن المتوفى في رتبة الراهب الكاهن ، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة ان يقرأوا أمام رفاته الانجيل لا المزامير . فشرع الأب يوسف في القراءة بعد قداس الجنازة فورا . أما الأب بائيسى الذى اعرب عن رغبته في ان يقرأ أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان في تلك الآونة مشغولا جداً ومهموما جدا (مثلما كان الأب رئيس الدير) من شيء شاذ ، ونعني به ذلك الاضطراب الشديد ، الخارق ، «غير اللائق» ، المشوب بنوع من انتظار محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التي هرعت من المدينة ومن فنادق الدير . كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى ورئيس الدير الى بذل جميع جهودهما في سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة . وبعد ان طلع النهار تماماً أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأنهم كانوا ينتظرون هذه اللحظة عمداً آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء الفوري التي لا بد في اعتقادهم من أن تقع بلا ابطاء . في تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً . ولم يكن جميع الوافدين من المدينة ينتمون الى عامة الناس . وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب ، بدا للأب

بائيسى أن هذا التوقع فيه شيء من الغواية الأكيدة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذه الغواية منذ زمن طويل ، الا أنها في الواقع فاقت كل توقعات الأب بائيسى . فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم «ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يُفهم صدورها عن دنيويين ولكنها لا تليق بنا نحن الرهبان» . وكان هؤلاء لا يسمعون له كثيرا ، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسى قلقاً . ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها اذا أردنا الصدق) ، رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه التي يرى فيها باطلاً وطيشاً ، كان هو نفسه يحس في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذى يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك . على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيرا ، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكا غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمة . من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في صومعة الشيخ الراحل ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك القادم من مكان بعيد والذى طالت اقامته في الدير . لقد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائيسى ، رغم أن هناك أشخاصا آخرين كانوا مشبوهين مثلهما أيضا . وكان راهب أوبدورسك يتميز من كل المهتاجين بكثرة ذهابه وايابه . فهو يُرى في كل مكان مستطلعاً سائلاً او مصغياً او هامساً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً وفيه شيء يشبه ان يكون حنقاً لأن الحادث الذى يتوقع الناس أن يحدث قد تأخر حدوثه كثيراً . أما راكيتين فقد عُلم فيما بعد أنه ان جاء الى الدير

فى ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة خوخلاكوفا هى التى طلبت منه ذلك . ان هذه المرأة التى تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع والتى كان مجيئها الى الدير غير مقبول ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وقد أسرعت توفد راكيتين موصية اياه بأن يلاحظ كل شىء وأن ينبئها حالاً ، فى رسالة يبعث بها اليها كل نصف ساعة ، **بكل ما قد يحدث** . كانت السيدة خوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد كان راكيتين بارعا فى الحظوة برضى الناس حاذقا فى اتخاذ المظاهر التى تطابق رغباتهم متى وجد فى ذلك مصلحة له . بدأ النهار صاحيا مضيئا . والكثير من الحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور المتواجدة بالقرب من الهيكل والمنتشرة فى اراضى الدير كلها . وحين طاف الأب بائيسى فى انحاء الدير ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة ، منذ الليل على كل حال . فما ان خطر بباله هذا حتى لمحه فى ركن ناء قرب السياج جالساً على حجر قبر راهب مات منذ سنين وعُرف اثناء حياته بمجاورته . كان أليوشا قد أدار ظهره للدير واتجه بوجهه نحو السياج ، وكأنه يختبئ وراء شاهدة القبر . فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا وهو يبكى بكاء مراً وان يكن صامتاً ، وأن جسمه كان يهزه الانتحاب ووجهه مدفون بين راحتيه . لبث الأب بائيسى واقفاً قربه بضع لحظات . وقال له أخيرا بصوت متأثر :

— هدىء روعك يا بنى ، كفى يا صديقى . ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكى . أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التى وهب **له** أن يعرفها ؟ أنسيت أين

هو فى هذه اللحظة ؟ هلاّ فكرت فى هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسى وجهه محتنقاً بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه فى يديه من جديد . قال الأب بائيسى مفكراً :

— قد تكون على حق مع ذلك ! ابك فى سلام لأن المسيح هو الذى يرسل اليك هذه الدموع .

ثم أضاف يخاطب نفسه : «ستساهم انتحاباتك المؤثرة فى تهدئة روعك ، وستبعث الفرح فى قلبك الطيب» . ثم ابتعد ممتلىء النفس عطفاً على أليوشا وحبا له . والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر الى الفتى . كان الوقت ينقضى ، وكانت صلوات الجنازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر . وحل الأب بائيسى محل الأب يوسف قرب التابوت ، واخذ فى قراءة الانجيل . ولكن قبل ان تدق الساعة الثالثة بعد الظهر وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق . وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفا مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل المثيرة التى رافقته قد ظلت حية الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت . وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بى : اننى لأكاد أشعر بالقرف حين أتكلم عن هذا الحادث الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الأمر طبيعى ويمكن فهمه جدا ؛ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتما لولا أنه قد أحدث تأثيرا قوياً جدا — فى اتجاه محدد تحديدا معينا — فى نفس وقلب البطل الرئيسى ، وان **يكن البطل المقبل** ، الذى تدور عليه

أحداث هذه القصة ، أعنى أليوشا . لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطرابا رهيبا ، والى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى تأثر بالحادث ، قد صار ثابتا منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد .

وهأناذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشيخ — وهى حجرة الاستقبال — فان أحد الاشخاص الحاضرين سأل الا يُستحسن فتح النوافذ . ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسؤال عابر وهو لا يركز عليه ، قد ظل بغير جواب ولم يكد ينتبه اليه أحد . والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق غير أسف ان لم تكن ابتسامة ساخرة ازاء ما يتصف به صاحب السؤال من قلة الايمان وشدة الطيش لأن ما يُنتظر هو نقيض هذا تماما . ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداء من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها فى أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين ما يعنّ لهم غير أن الظاهرة قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى المنسك على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة . وفى نهاية الأمر ، بعد فترة قصيرة من الزمن انتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضطرابا فى الناس ، المؤمنين منهم وغير المؤمنين على السواء . لقد

ابتهج غير المؤمنين . وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضاً ، لأن الانسان «يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار» كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه . وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفة فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فتئت تشتد بعد ذلك . عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصوره فى أى ظرف آخر من الظروف . وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، متسائلين كيف امكن للاضطراب ان يبلغ هذا المدى آنذاك . كثيرا ما حدث فى الماضى أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن شيوخا قد ماتوا أتقياء أنقياء ، ثم لوحظ مع ذلك صدور رائحة تفسخ من توابيتهم المتواضعة ، كما يحدث هذا لجميع الموتى ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً . صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا فى الدير بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك فى نفوس الرهبان أثرا غامضا ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التى تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدّرون أن مزيدا من المجد سيتحقق فى المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين فى الساعة التى

يشاء فيها الله ذلك . فهكذا كان شأن القديس أيوب مثلاً ، الذى عاش مائة وخمس سنين والذى بقيت ذكراه حيةً فى ديرنا . لقد كان ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التى كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، فى السنين العشر الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الذين زاروا الدير لاول مرة الى هذا القبر ، مشيرين بكلام يحمل معانى السر الى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما لمح الأب بائيسى ، فى الصباح ، أليوشا) . وعدا ذلك الراهب الذى توفى منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيرا ، وخلّف فى الدير ذكرى كهذه الذكرى . انه الشيخ العظيم الراهب الكاهن الأب فارسونوفى الذى خلفه الأب زوسيما ، والذى كان يعده جميع الحجاج الذين يزورون الدير متنبئاً . ان الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ، وأنه دفن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه . حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته كان ينشر روائح عطرة . ومع ذلك ، رغم هذه الذكريات الموحية ، فان من العسير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الرهبان فى ذلك اليوم الى أن يقفوا موقفا يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسيما . أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة ، ولكنها تعمل جميعا فى آن واحد وفى اتجاه واحد . ويحسن أن نذكر ، من بين هذه الأسباب ، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد بدعة مشئومة ، وهى عداوة

قد ترسخت عميقة فى نفوس عدد كبير من الرهبان . وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت تثيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها . فلئن عرف الشيخ الراحل كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته ، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ، رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حُسّاداً كثيرين أصبحوا اعداء ألداء شيئاً بعد شىء ، فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها . ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف سكان الدير فحسب ، بل بين العلمانيين أيضا . انه لم يسئ يوما الى أحد ، ولكن الناس كانوا يتساءلون : «لماذا يُعد قديساً عظيماً ؟» . وكان هذا السؤال كافياً بتردده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفئ جذوته . ذلكم فى رأيى هو السبب الذى جعل كثيرا من الرهبان يبتهجون ابتهاجا شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم . أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدسونه الى ذلك الحين ، فقد أحس بعضهم بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالتهم هم أنفسهم ، واهانة لحقت بهم شخصيا . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة .

منذ اللحظة التى ظهرت فيها أولى علائم التفسخ ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون صومعة المتوفى ، الهدف الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا

النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب ؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون نفسهم حتى عناء اخفاء الفرح الخبيث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شيء . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الصومعة رجال علمانيون ينتمى أكثرهم الى الأوساط المثقفة . أما أبناء الشعب فقد كانوا قليلين بين الداخلين ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار الموظفين . يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك الحاضرين لمّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحين ، فما زال الأب بائيسى يستطيع أن يتلو آيات الانجيل بلهجة واضحة ثابتة وهيئة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئا ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئا خارقا يحدث . ولكن ها هى ذى ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه . ان أصحابها يهمسون بها همسا أول الأمر ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجرأ فاذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح : «يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائما حكم البشر» . ان الذى جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علمانى متقدم فى السن

موظف من المدينة يعد على جانب كبير من التقى والورع . على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الآذان منذ وهلة طويلة . ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلا من أجل ان يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الآمال والأنكى من ذلك ان هذه الفكرة كانت ترافقها مشاعر النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحا من دقيقة الى دقيقة . وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن . «كيف أمكن أن يحدث **هذا** ؟» كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن والأسى . «لقد كان جسمه صغيرا هزيلا معروقا ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الرائحة ؟» كان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : «معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عدم رضاه» . وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائما بعد وفاة خاطئ فانها لا تحدث فى العادة الا بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة . اما وأن «تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعة» فلا بد أن نرى فى ذلك عملاً من أعمال الله واشارة آتية من السماء . ذلك برهان كان يبدو مفحماً . ولقد حاول الراهب الكاهن يوسف ، أمين مكتبة الدير الذى كان صفى الشيخ وأثيره وكان رجلا دمثاً لطيفا ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جوابا على تلك الأقوال المسيئة . قال فيما قال : «ان هذه الآراء لا يؤخذ بها فى كل مكان» وان ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وانما هو مجرد ظن .

2-1306

ففى مراكز الاورثوذكسية الصافية النقية مثل جبل آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائية على مجد القديس وانما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوى الأجساد زمنا طويلا فى الارض وبعد أن تكون قد تفسخت فى التراب تفسخاً تاماً «فاذا صارت العظام بمضى الزمن الى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلا قاطعا على أن الرب قد مجد المتوفى أما اذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذى يُبنى عليه الرأى فى جبل آثوس وهو مكان مقدس جدا حافظت فيه الاورثوذكسية فى كل الأزمان على صفائها ونقائها» . بذلك ختم الأب يوسف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت فى أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : «تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها» . وأضاف آخرون : «سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة فى زماننا هذه أفينبغى لنا أن نقلدها جميعا ؟» . وقالت طائفة ثالثة فى استهزاء : «لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان آثوس وقد نسى هؤلاء كل شىء ابان الحكم التركى وفسدت الاورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل . يضاف الى ذلك انهم لا يملكون حتى نواقيس» . انصرف الأب يوسف حزينا . ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه . وكان يرى وقد استولى عليه الاضطراب ان شيئا غير لائق يبدأ وان العصيان يرفع رأسه . وصمتت جميع الاصوات الرزينة شيئا بعد شىء على أثر هزيمة الأب يوسف حتى لقد حدث أن أولئك الذين

كانوا قد أحبوا الشيخ الراحل وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بطاعة ولطف ، ذعروا من شىء ما على حين فجأة وأصبحوا لايكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى . أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهيا وها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً : «عند موت الأب فارسونوفى لم يشعر المرء برائحة تفسخ بل كانت جثته تنتشر روائح عطرة . على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخا وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلا صالحا» . وانطلقت الألسن من عقالها فهى لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون : «كانت تعاليمه خطأ . كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا خضوع وينبوع دموع» . وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء : «كان رجلا عصريا . كان لا يؤمن بنار جهنم» وهؤلاء حساد يقولون : «لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً . كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاى مربى الكرز . كان يتلذذ بذلك . كثيرا ما كانت سيدات ترسل اليه حلوى ومربى . أيليق بناسك أن يشرب شايا ؟» وهؤلاء أشد الرهبان شماتة يقولون بقسوة : «كان متكبراً . كان يظن نفسه قديسا . كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجبا له على الآخرين» . وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة شرسة : «كان يمتهن حرمة سر الاعتراف» . ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سنا وأشدهم تقشفا وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت . كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الاذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم

أعنتها وذلك امر فظيع لأن لآرائهم تأثيرا قوياً فى الرهبان الشبان الذين لم يصلب عودهم بعد . كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من القديس سيلفستر ، يصيخ بسمعه الى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً شديداً متنهدا تنهدا عميقا ، هازاً رأسه ، قائلا لنفسه : «يبدو أن الأب فيرابونت كان على حق أمس» . وهذا هو الأب فيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار .

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً صومعته الخشبية الواقعة فى المنحل وانه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة . ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجة أنه من المجاذيب والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين ان صح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضى أياما وليالى فى الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان : «انه أقدس منا جميعا وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيرا مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك . ان له فرائضه الخاصة التى يوجبها على نفسه» لذلك كان يُترك هذا الأب وشأنه تحاشيا لاحتجاجات الرهبان واضطرابهم وكان معروفا لدى الناس أن الأب فيرابونت يكره الشيخ زوسيما . ولم تلبث الشائعة التى تقول : «ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبيعة فى تفسخ جثمان الشيخ» ، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت

الى حجرته النائية المنعزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذى زاره البارحة وخرج من عنده مذعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ . وقد ذكرت أيضا أن الأب بائيسى الذى ظل يتابع قراءة الانجيل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذى كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ما كان يجرى خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك فى قرارة نفسه الشىء الأساسى مما كان يجرى خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها . لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذا الاضطراب وراسماً مآل الاحداث فى فكره بما أوتى من بصيرة نافذة غير أن ضجة خارقة آتية من المدخل قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهى ضجة تنافى اللياقة بكل وضوح . انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب فيرابونت فى العتبة . ان عددا كبيرا من الرهبان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب فيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا فى أسفل درجات المدخل فهم يُرون من الغرفة . لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب فيرابونت وما سيفعله . ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب فيرابونت لم يجىء عبثاً وانهم ليشعرون بشىء من الارتياع رغم جرأتهم وجسارتهم . توقف الأب فيرابونت فى العتبة ورفع ذراعيه فرئيت عندئذ من تحت ذراعه اليمنى العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغيرتان الذى لم يصطبر فاجتاز درجات المدخل وراء الأب فيرابونت بدافع فضوله الشديد ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجىء حين انفتح الباب مقرقعاً . صرخ الأب فيرابونت بقوة وهو رافع ذراعيه قائلاً :

— سأطرده طردا !

وأسرع يرسم اشارات الصليب كبيرة وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار . ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب فيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً فى أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقول كلمة أو أن يجلس قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

— ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! سأطردك طردا !

هكذا كان يزأر الشيخ فيرابونت .

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزنره حبل ، وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش اما قدماه فكانتا حافيتين تماما واذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه . توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب فيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيرا وهو يلقى عليه نظرة قاسية :

— لماذا جئت الى هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ لماذا تريد ان تبث الفوضى فى الرعية الوادعة ؟

صرخ الأب فيرابنوت يقول منقلب السحنة :

— لماذا جئت ؟ تسأل لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت لأطرد ضيوفكم ، لأطرد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة فى غيابى . سأطردهم جميعا بالمكنسة .

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون أن يشعر بالخوف :

— تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه !

من ذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه قديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟

قال الأب فيرابونت مرعداً :

— أنا لست بقديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكننى لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتى كاله . الناس فى أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس . ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الناس المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت فى زوايا الجدران ؟ أما قديسكم فانه يتفسخ الآن وتلك فى نظرنا اشارة من السماء .

والحق أن فى حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فان راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان فى منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره فى اليقظة أيضا ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام . فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواء ونصحه فى الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الصلاة والصيام . وقد شُده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازين رؤوسهم استياء واستنكاراً . وكان الأب فيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد «خارقا» فى حالة من هذا النوع .

قال الشيخ بائيسى بلهجة آمرة :

— ابتعد أيها الأب ! ان الحكم لله لا للبشر وان «الاشارة الآتية الينا من السماء» يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف

فيؤولها . ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً .

واستطرد الراهب المتعصب المندفع يقول وكأنه فقد كل سيطرة له على نفسه :

— كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته . ذلك هو سبب الاشارة السماوية ، هذا واضح وضوح النهار ومن الأثم أن تخفى ذلك . كان يتنعم بالحلوى التى كانت تملأ بها جيوب السيدات اللواتى يزرنه . كان يملأ بطنه بالشاى ويحشوه بالحلوى أما عقله فقد كان يفيض كبرياء وزهوا . ذلك هو سبب عاره .

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

— أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقاك ولكنك ترسل الكلام جزافا بغير روية كشاب علمانى يعوزه النضج والتأمل والتدبر .

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل :

— اخرج من هنا يا أب ، آمرك بأن تخرج !

قال الأب فيرابونت مرتبكا بعض الارتباك ولكن دون أن يهدأ غضبه :

— سأمضى ! طيب . . . أنتم رجال علماء . أنتم بكبرياء عقلكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتى . لقد جئت الى الدير أمياً . والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين . لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصونى أنا الضعيف من دنس عقلكم . . .

ظل الأب بائيسى هادئا ينتظر التتمة بصلابة وثبات .

صمت الأب فيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على

حين فجأة واذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول مرتلا وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

— غداً ينشدون له النشيد العظيم «ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا» أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة » .

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع والأسى . ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

— ضيّعتكم الكبرياء والزهو ! ما هذا المكان الا عدم !

واستدار على عقبيه وهو يحرك ذراعه وهرول يهبط درجات السلم . ظهر التردد على الجمهور الذى كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فورا وتريث آخرون اذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحا وأن الأب بائيسى الذى شيع الأب فيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم ولكن العجوز المندفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته :

— انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس .

كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الشمس . ثم سقط ووجهه الى الارض واخذ يبكى بكاء طفل بصوت عال مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض . هرع الجميع اليه وسُمع صراخ وسُمع بكاء عطف . . . فاستولى على الجميع تهيج . وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بجرأة :

— هذا هو القديس الحق . هذا هو الصالح الحق .

واضاف آخرون يقولون بحنق شديد :

— اليه انما يجب أن تسند المشيخة .

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

— لن يقبل أن يصبح شيخا . سيرفض هو نفسه . لن يرضى أن ينضم الى هذه البدعة اللعينة . ما هو بمن سيقلد جنونهم .

لا يدرى أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ اصواته فى تلك اللحظة منادية الرهبان الى القداس . رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب فيرابونت ورسم اشارة الصليب واتجه نحو صومعته دون أن يلتفت وهو لا يزال يطلق صرخات صارت مضطربة لا اتساق فيها . تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة . وعهد الأب بائيسى الى الأب يوسف باتمام القراءة وهبط درجات السلم . ان الصرخات المحمومة التى أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيرا ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة ووقف يتساءل : «ما مصدر هذا العناء الذى يرهقنى ؟» . فما كان أشدّ دهشته حين أدرك فورا أن سبب ذلك انما هو حادث يبدو تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا فشعر من ذلك بما يشبه ألما يطعن قلبه . انه يتذكر هذا الآن . تساءل الأب بائيسى مدهوشا دهشة قوية : «هل يمكن حقا أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟» . وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه . كان يغذ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة . التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الأب بائيسى من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى فى نفسه من تبدل كبير .

هتف الأب بائيسى يسأله :

— أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

— أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق الى الأرض من جديد . لقد وقف مواربا ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه . وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه .

قال الأب بائيسى :

— الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداس .

ولكن أليوشا ظل لا يجيب . وتابع الأب بائيسى أسئلته :

— ألعلك تترك الدير ؟ أبدون أن تنبئنا ؟ أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشا يبتسم على حين فجأة ابتسامة ساخرة شائهة ويشخص ببصره الى الراهب الذى كان يسأله . ان هناك شيئاً غريبا بل غريبا جدا فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد به اليه اثناء موته مرشده الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه المحبوب . ها هو ذا يحرك يده فجأة دون أن يجيب ، كمن أصبح لا يهمه ان يتقيد بدلائل الاحترام . ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى سريعة .

ودمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة :

— ستعود ثانية .

٢

دقيقة كهذه الدقيقة

لا شك فى أن الأب بائيسى لم يخطئ حين قدر ان «ابنه العزيز» سيعود ؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التى كان عليها أليوشا . ولكن يجب علىّ أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيرا والذى ما يزال فى ريعان الشباب ، لكان ذلك الآن صعبا علىّ كل الصعوبة . اننى أستطيع طبعا أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذى ألقاه عليه الأب بائيسى «أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟» ، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : «لا ، انه لم يكن يشك !» . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقيض هذا تماما : لئن شعر بقلق فذلك لأن ايمانه كان كبيرا . لقد قلق أليوشا قلقا شديدا ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعدُ ذلك اليوم المشئوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو سئلت : «هل يمكن حقا أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشىء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟» ، لأجبت بغير تردد : «نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه» . ولكننى أرجو القارئ مع ذلك أن لا يتسرع كثيرا فيستهزئ بصفاء قلب بطلى . لست أميل من جهتى الى أن ألتمس له سماحة القارئ ، أو أن انتحل لايمانه

الساذج عذرا من شبابه أو قلة ما حصّل سابقا من تقدم فى العلوم الخ الخ ، بل أقف الموقف المضاد فأقول بغير تردد : اننى أشعر نحو خصائص قلبه باحترام كبير . صحيح أن شبابا غيره ، شبابا أشد حذرا فى اندفاعات قلبهم ، شبابا يحبون حبا حاراً ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابا يحسنون التحكم بحركات قلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعا لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابا كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى . ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع قد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأيى أنبل وأكرم من أن يكون عاجزا عن ذلك الاندفاع . وهذا يصدق خاصة على الشباب ، لأن الشاب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة . ذلك رأيى أنا على الأقل . رب أناس رصينين يعترضون قائلين : «لا يجوز أن يؤمن جميع الشباب بمثل هذه الخرافات . ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة» . وانى لأجيب هؤلاء قائلاً : لقد كان أليوشا يؤمن ايمانا مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر ببالى أن ألتمس له بسبب ذلك أعذارا .

ومع ذلك . . . مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلى أو أن ألتمس له الأعذار ، فاننى أرانى مضطرا ، رغم كل شىء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى . اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب . ان أليوشا لم ينتظر ، نافد الصبر ، ظهور ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش . انه لم يكن فى حاجة الى

ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوتا مظفرا (لا هذا على كل حال) ، ولا ليتاح لفكرة قائمة فى ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها . أبدا ! ان ما كان يعنيه فى هذا الأمر قبل كل شىء آخر ، بل ودون كل شىء آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده ، أعنى شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويبجله . ان ما فى قلبه الفتى النقى من قدرة على حب «جميع الاشياء وجميع الناس» قد تركز فى تلك الفترة ، واثناء السنة الماضية ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن والذى قد أصبح — ربما فى ذلك شىء من الخطأ — القطب الوحيد الذى يجتذب أعمق عواطفه . صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسّد فى نظره أرفع مثل أعلى انسانى ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشواق نفسه كان لا بد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتنسيه فى بعض الاحيان «جميع الاشياء وجميع الناس» (سوف يتذكر فيما بعد أنه فى ذلك اليوم الحزين قد نسى نسيانا تاما اخاه دمترى الذى كان يرغب أمس فى رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد المائتى روبل الى والد ايليوشا ، قد غاب عن ذهنه تماما) . ولكننى أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هى ما كان أليوشا فى حاجة اليه ، وانما كان أليوشا فى حاجة الى «عدالة عليا» ، وهذه العدالة العليا قد أوذيت فى نظره ايذاء شديدا . فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا . لقد كان هذا طعنة موجعة مفاجئة . ليس بالأمر المهم أن تكون هذه «العدالة» قد تترجمت فى ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعى ،

توقعاً لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب جثمان قائده الروحى الذى كان يعبده . ولكن هذه المعجزة هى ما يأمله جميع الناس فى الدير ، وحتى اولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلى عليه ، كالأب بائيسى مثلاً . لذلك لم يتردد أليوشا فى ان يعبّر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات . وقد نضج هذا التوقع فى نفسه خلال سنة كاملة عاشها فى الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة . ولكن ظمأه كان الى عدالة لا الى معجزات فقط ! وهذا هو الانسان الذى كان فى عاطفة أليوشا فوق جميع البشر فى العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط فى الخزى بدلاً من ان ينال المجد الذى يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضى الذى اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذى يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقا ؟ تلكم هى الأسئلة التى داهمت نفسه البريئة التى تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب . كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيرا . كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أى شىء خارق للطبيعة ، تلبية لما يتوقعه جميع الناس . ولكن لماذا يجلّل الشيخ بالخزى والعار ، لماذا هذا التفسخ الذى يحدث قبل الأوان ، و«يسبق الطبيعة» كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ لماذا تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا فى هذا التفسخ «اشارة» يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب فيرابونت ؟ ومن ذا الذى خوّلهم الحق فى أن يعمدوا الى استدلالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية فى هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل

فى «اللحظة التى كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون» (فى رأى أليوشا) حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة العمياء التى لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا . كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه فى العالم ، وهذا الانسان هو من جلّل بالخزى والعار الآن ، وغُضّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل . اننى أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يطرح هذه الاسئلة ، على أنه طائش العقل مخطىء الرأى ، ولكننى أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شئتم) : اننى ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه التعقل فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مناسب لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتى ، فمتى عساه ينتصر ؟ على أننى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابرا فى تلك الدقيقة الحرجة الأليمة من حياته . ولعل كلمة «عاطفة» ليست هى الكلمة المناسبة . هو «شىء» كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذى قام أمس بينه وبين اخيه ايفان والذى يعاود فكره الآن بالذات بالحاح محاصر . لست أعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أصابها أى تزعزع . . . لا . . . انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالهه ايمانا راسخا وان كان يتذمر عليه فجأة . ولكن ذلك الاحساس الغامض المؤلم الخبيث المرتبط بذكرى ذلك الحديث مع ايفان قد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ،

وأخذ يحاول الخروج الى سطح شعوره بقوة ما تنفك تتزايد . هبط المساء اثناء ذلك ، وخيّم الظلام . وهذا راكيتين الذى كان يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من المنسك الى الدير يلمح أليوشا على حين فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لا يتحرك فكأنه نائم . اقترب راكيتين منه وناداه :

— أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقا أن . . .

كذلك قال راكيتين مدهوشا ، ولكنه أمسك فجأة عن الكلام قبل أن يتم جملته . كان يريد أن يقول : «أيمكن حقا أن تصير من ذلك **الى هذه الحال** ؟» لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين ، ولكن راكيتين أدرك من حركة يسيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه . استأنف راكيتين يقول وقد أخذت الدهشة التى يعبر عنها وجهه تستحيل شيئا فشيئا الى ابتسامة ساخرة :

— ماذا بك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عنك منذ أكثر من ساعتين فى كل مكان . لقد اختفيت من هناك بغتة . فماذا تصنع هنا ؟ ما هذه السخافات ؟ أنظر الىّ على الأقل . . .

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة . لم يكن يبكى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسمات وجهه ، وكان فى عينيه حنق . على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وانما هو يحدّق الى شىء فى جانب .

قال راكيتين :

— هل تعلم أن وجهك قد تغير تماما ؟ لم يبق فيه أثر من تلك الوداعة التى كنت توصف بها . أتراك غاضبا من

3-1306

أحد ؟ هل أساء اليك أحد ؟

قال أليوشا فجأة دون أن ينظر اليه أيضا ، قال وهو يحرك يده باشارة تعبر عن التعب :

— دعنى وشأنى !

قال راكيتين :

— ياه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا الملاك ؟ طيب يا أليوشا . . . أريد أن أقول لك انك أدهشتنى . . . أقول لك هذا صادقا كل الصدق . لقد أصبحتُ منذ زمن طويل لا أُدهش من شىء هنا . على أننى كنت أظنك انسانا مثقفا . . .

أخيرا رفع أليوشا اليه عينيه ، غير أن فى نظرته الآن ذهولاً فكأنه لم يفهم جيدا ما قاله صاحبه . وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به دهشة شديدة من جديد :

— أكلُ هذا لأن صاحبك العجوز قد تفسخ ؟ أكنت تظن حقاً اذن أنه كان سيحقق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت حانق :

— كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن ! . . . أيكفيك هذا الآن ؟

— ولكننى لا أريد شيئا يا عزيزى ! عجيب ! ان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه . لك ما تشاء على كل حال . . . هأنت ذا اذن غاضب من الله ، ثائر عليه ثورة معلنة ! كموظف مستاء من أنه نُسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال ! هذا أنتم ! . . .

تفرس أليوشا فى راكيتين طويلاً ، وهو مغمض عينيه

نصف اغماض ، وومض فى عينيه برق . . . غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظا من راكيتين . ثم قال وهو يبتسم ابتسامة واهنة :

— لست ثائرا على الهى ، ولكننى «أرفض قبول الخليقة» . ذلك كل شىء .

فكر راكيتين لحظة فى هذا الجواب ثم سأله :

— ترفض ؟ ماذا تعنى ؟ ما هذا الكلام الغريب أيضا !

لم يجب أليوشا . قال راكيتين :

— كفانا كلاما فى ترهات . لنفكر فى الأمور الهامة : هل أكلت اليوم ؟

— لا أتذكر . . . يبدو أننى أكلت . . .

— تدل هيئتك على أنك فى حاجة الى استرداد قواك . ان منظرك يثير الشفقة عليك . قيل لى انك لم تنم طول الليل . أنكم قد عقدتم اجتماعا كبيرا . ثم حدث ذلك الهرج كله . . . اظن ان ما اكلته هو جزء صغير من الخبز المقدس . ان فى جيبى بعض المقانق ، حملته احتياطا حين جئت الى هنا من المدينة . ولكنك لا تأكل المقانق ، أليس كذلك ؟

— هات المقانق .

— هيه هيه . . . هذا أمر جديد . . . هذه ثورة أصولية ، ثورة بمتاريس ! هِمْ . . . ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب . . . تعال معى الى بيتى . . . أنا أيضا فى حاجة الى قليل من الفودكا . . . اننى مرهق . . . أنت لا تشرب فودكا ، أليس كذلك ؟ اللهم الا أن . .

— سأشرب فودكا .

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

— هكذا ! . . هذا كثير . . . المقانق سلمنا بها . . .

والفودكا أيضا ؟ هذه أمور عظيمة حقا . يجب أن لا تفوت الفرصة . هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين :

— لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش . بالمناسبة : لقد سافر ايفان فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكتراث :

— أعرفه .

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا لحظة قصيرة . لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أى ابطاء ، هو الزام أخلاقى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن هذه الذكرى لم تترك فى نفسه اى أثر ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته . ومع ذلك فان هذه الواقعة ستعاود ذاكرته كثيرا فيما بعد .

— لقد نعتنى أخوك اللطيف ايفان ذات مرة بقوله «تافه لبرالى لا موهبه له» . أما أنت فقد أسمعتنى فى يوم من الأيام أننى أفتقر الى «الاستقامة» . طيب ! سأرى ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) .

ثم أردف يقول بصوت عال :

— تفو ! اسمع ! لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأسا الى المدينة مجتازين الممر الضيق . . . . هِمْ ! وسأثب لحظة الى منزل السيدة خوخلاكوفا أثناء الطريق . تصور أننى قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فاذا هى تجيبنى فوراً فى

بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هذه السيدة تعشق كتابة البطاقات) : «انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجّل كالشيخ زوسيما . . . أن يصدر عنه . . . **مثل هذا السلوك** ! . . .» . هذا ما كتبته بالحرف : «السلوك» ! هى أيضا حاقدة . هذا انتم ! انتظر !

صاح راكيتين ذلك وقد توقف عن السير ، وامسك أليوشا من كتفه فأوقفه ايضا ، وحدّق اليه بعينين متفرستين :

— هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين فى تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت فى ذهنه على حين فجأة ؛ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هى فى نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد فيه رجاء :

— هل تعلم يا أليوشا أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً ؟

— نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شىء .

فقال راكيتين وهو يرتجف فى انتظار وجل :

— لنذهب الى جروشنكا ! هل توافق ؟

فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد :

— لنذهب الى جروشنكا !

كاد راكيتين أن يثب الى وراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة السريعة الهادئة مستغربة . وصاح يقول مذهولا :

— هكذا ؟ عظيم ! . .

ولكنه لم يلبث أن امسك أليوشا من ذراعه بقوة ، وأسرع

يجره على الممر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره . وسارا صامتين ، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكر ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول . غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلا :

— ما أعظم ما ستشعر به جروشنكا من سرور برؤيتك ! لسوف تكون سعيدة !

ولكنه سرعان ما صمت .

على أن راكيتين كان يجذب أليوشا الى منزل جروشنكا ليس ليسرها . ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له . ولقد كان فى تلك اللحظة يخضع لباعثين اثنين . فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم : انه يريد أن يشهد «تدنس الرجل الصالح» ، انه يريد أن يرى «سقوط» أليوشا من «القداسة الى الاثم» ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن . وأما الباعث الثانى فهو هدف مادى سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسنأتى على ذكره فيما بعد.

قال راكيتين فى سره وهو يشعر بفرح خبيث : «اذن لقد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة فى حياته . ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ، لأنها تعدنا بمنافع كثيرة» .

٣

البصلة

تقيم جروشنكا فى قلب المدينة المزدحم قرب «ميدان الكنيسة» فى منزل موروزوفا ، وهى أرملة تاجر أجّرت جروشنكا

جناحا غير كبير مبنيا من خشب فى فناء منزلها ؛ والمنزل القديم من حجر ، وهو واسع ذو طابقين ، ليس فى مظهره كثير من رواء . وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين فى السن هما أيضا ؛ وهى تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء ، والناس فى المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكنى جروشنكا فى جناحها (منذ أربع سنين) الا ارضاء لقريبها التاجر سامسونوف الذى لا يخفى رعايته لجروشنكا . والناس فى المدينة يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة ، انما أراد فى أول الأمر حين أسكن أثيرته فى منزل موروزوفا ، أن يجعلها تحت اشراف العجوز اليقظة التى كلفها بأن تراقب سلوكها . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس فى حاجة الى أن يراقب ، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا ، ولا تراها الا نادرا ، ولا تزعجها باى اشراف . لقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذى جاء فيه التاجر العجوز الى هذا المنزل بالصبية الخجول التى لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ، والتى لقيها فى مركز الاقليم وكانت عندئذ نحيلة الجسم ضعيفة البنية كثيرة الوجوم حزينة النفس . ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم . وكان الناس فى مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضى الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة والوضوح ، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيرا ، حتى فى الآونة الأخيرة التى اصبح فيها أمر «الحسناء الرائعة» التى تحولت اليها اجرافينا الكسندروفنا خلال اربع سنين ، يهم عدداً كبيراً من الاشخاص عندنا . كان يقال ان ضابطا مجهولاً قد أغراها واغواها فى السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن

هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس . وكان يُزعم أيضا أن جروشنكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمى الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت شماس عادى ، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل . المهم ان اليتيمة الحسّاسة المذلّة المسكينة قد استحالت فى غضون أربع سنين الى حسناء روسية بضة الجسم ، حمراء الخدين ، جريئة جسور ، لا تخلو من كبرياء ووقاحة ، تعرف قيمة المال ، شرهة اليه ، بخيلة حذرة فى آن واحد . وكان يقال أيضا انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيرا ، بوسائل ليست شريفة دائما . على أن هناك أمرا يجمع الناس عليه : هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى منها بشىء خلال تلك السنين الأربع . والأمر محقق لا ريب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سعوا الى الحظوة بنعمها ، ولا سيما فى السنتين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطائل ، وباءت جميع محاولاتهم بالاخفاق ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به الشابة من عزيمة صلبة وروح ساخرة . وقد عُرف أيضا أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» . ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشترى بالاشتراك مع فيدو بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملة ، أى تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت . وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت

ساقاه وأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ عام ، رجلاً أرمل يضطهد أبناءه الراشدين ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمن عليها فى أول الأمر الا بما «يسد الرمق» أو بما يوجبه «الصيام الكبير» على حد تعبير الساخرين المستهزئين ، الى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضل ما أوحته اليه من ثقة عظيمة بوفائها له . ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُّ ملامحه البخل والقسوة الشديدة . فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه — حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها فى غضون السنتين الاخيرتين — فانه لم يترك لها مالاً كثيرا ؛ ولو قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه فى هذا المجال . على أنه قد أعطاها اثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينة بذلك دهشوا جميعا . قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل : «أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره . ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقه عليك لاعالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشىء فى وصيتى بعد مماتى» . وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم واولادهم ، معاملة الخدم . أما جروشنكا فقد أبى حتى أن يأتى على ذكرها فى وصيته . هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد . ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا فى مقابل ذلك بنصائحه فى استثمار «رأس مالها الشخصى» ، ودلّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات

نافعة . فلما تعرف فيدور بافلوفتش على جروشنكا بمناسبة صفقة طارئة ، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن فى حسبانه هو نفسه الى الهيام بها هياماً افقده كل عقله تقريباً ، فان العجوز سامسونوف الذى كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته ، لم يزد على أن ضحك من ذلك . ان من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؛ ويبدو أن العجوز كان هو الانسان الوحيد الذى تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة . ولكن حين توله دمترى فيدوروفيتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا انقطع حاميها العجوز عن الضحك ؛ بل لقد نبه المرأة الشابة ناصحاً محذرا ، فقال لها بلهجة جادة قاسية : «اذا كان عليك أن تختارى بين الاثنين ، الأب وابنه ، فاختارى الأب ، ولكن على شرط ان يتعهد الوغد العجوز بزواجك وأن يهب لك مبلغا مناسبا قبل الزواج . أما النقيب فدعيه ، فلا فائدة منه .» . بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحس بوشك نهايته ، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر . ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارمازوف الأب وكارامازوف الابن ، رغم أن أشخاصا كثيرين كانوا فى ذلك الوقت على علم بالمنافسة الغريبة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة . أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا فى الدعوى (بعد الكارثة التى سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافينا ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمترى فيدوروفتش الا خوفاً ، لأنه كان قد «هدد بقتلها» . ان لجروشنكا خادمتين : احداهما طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها

وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمثابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة العجوز . وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا . انها تشغل فى الجناح ثلاث غرف أثاثها قديم من خشب الماهوجنى ، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضاً ، وهو من طراز أثاث عام ١٨٢٠ . حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيّم ، ولكن الغرف لم تُشعل فيها الأضواء بعد . كانت جروشنكا مضطجعة فى الصالون على أريكة كبيرة ثقيلة لها مسند من خشب الماهوجنى ، قد غُطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتثقبت فى عدة مواضع . ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين بيضاوين وثيرتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت رأسها ، مرتدية ثوبا من حرير أسود — كأنها تنتظر زيارة أحد — ملفعة شعرها بقلنسوة رائعة من تخريم تليق بها جدا ، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضاً قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب . واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاد صبر واكتئاب . وكان وجهها يبدو شاحبا ، وكانت عيناها تسطعان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدمها اليمنى يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار . فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد . لقد سمعاها ، وهما فى الممشى ، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع :

— من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تقول لسيدتها على الفور :

— ليس هو . هما شخصان آخران .

دمدم راكيتين يقول وهو يمسك أليوشا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

— ماذا دهاها ؟

كانت جروشنكا واقفة قرب الأريكة وهى ما تزال مذعورة بعض الشيء . ان ضفيرة كثيفة من شعرها الكستناوى قد خرجت من تحت قلنسوتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشنكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم ترفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتهما .

قالت جروشنكا :

— هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روّعتنى ! ومن هذا الذى جئتنى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك صاحت جروشنكا حين عرفت أليوشا .

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصدر الأوامر نيابة عنها :

— هلا أمرت باشعال الشموع .

— طبعا ، طبعا . . . الشموع . . . الشموع ! فينيا ، ائته بشمعة ! . . لقد أخترت اللحظة المناسبة لتجيئنى به !

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرة أخرى وهى تومىء برأسها الى أليوشا . ثم التفتت نحو المرآة ، فتناولت الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها ، وأسرعت تثبتها على رأسها . كان يبدو عليها أنها غير راضية . قال راكيتين مستاء :

— لعلنى جئت فى غير الأوان المناسب ؟

فقالت جروشنكا وهى تلتفت نحو أليوشا مبتسمة :

— كلا . . . ولكنك روّعتنى يا راكيتا ، هذا كل شيء . لا تخف منى يا عزيزى الطيب أليوشا . ليتك تعرف مدى سعادتى برؤيتك ، أنا التى لم أكن أتوقع مجيئك . أما أنت يا راكيتا فقد روعتنى منذ هنيهة ، لأننى ظننت أن ميتيا هو الذى كان يريد أن يقتحم بابى . لقد خدعته فى هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لى بانه يصدقنى ، بينما كنت أكذب عليه . ذلك أننى زعمت له اننى سأقضى السهرة كلها عند عجوزى كوزما كوزمتش أساعده فى اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل . انه يعلم أننى أذهب الى كوزما كوزمتش مرة كل أسبوع لتنظيم دفاتره ، نغلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بعداد ، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه علىّ من أرقام ، لأننى الانسان الوحيد الذى يوليه ثقته . ان ميتيا يعتقد بأننى الآن عند العجوز ، على حين أننى قابعة هنا فى انتظار رسالة . كيف سمحت لكم فينيا بالدخول ! فينيا ! فينيا ! أسرعى الى الباب الكبير ، والقى نظرة على الخارج لتتأكدى من أن النقيب لا يحوم حول المنزل . جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس علىّ . اننى أخاف منه خوفا قاتلاً !

— ليس هناك أحد يا أجرافينا الكسندروفنا ، فلقد نظرت خارج المنزل منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأننى أرتعد من الخوف أنا أيضاً .

— هل درف النوافذ مغلقة يا فينيا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا (قالت هذا واسدلت الستائر الكثيفة بنفسها) والا سيقتحم

مسكنى حين يلاحظ نوراً فى النوافذ . أننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا .

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عال رغم قلقها وخوفها ، وكان يلاحظ فيها شىء من حماسة .

سألها راكيتين :

— لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجلة معه ، فانما أنت تسيّرينه بعصا فى العادة .

— قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغى أن يجىء ميتيا الآن . ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزمتش ، لقد أحسست بذلك . لا بد أنه أختبأ فى مكان ما فى حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدنى . فهو فى هذه الحالة لن يجىء الى هنا . هذا أفضل . اما كوزما كوزمتش فقد ذهبت اليه فعلاً ، وقد رافقنى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له أننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحة أن يجىء ليصحبنى فى العودة الى بيتى . عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راكضة . أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

— لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقلنسوة رائعة هذه التى أرى . . .

— ما اشد فضولك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لأطير من هنا فما يرانى احد منكم . لقد تزينت استعدادا للحظة المناسبة .

— والى اين تطيرين ؟

— تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

— ياه ! أنت فرحة جدا . ما رأيتك على هذه الحال فى يوم من الايام . لقد تجملتْ وتزينتْ كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !

كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشنكا .

قالت له :

— ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

— وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

— أنا ؟ شهدت حفلة رقص مرة واحدة فى حياتى . حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوّج كوزما كوزمتش ابنه . كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة . على أننى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه الندرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا عزيزى اننى لا أصدق عينىّ ! كيف أمكن أن يجىء الى بيتى ؟ الحق اننى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئنى ، أعترف لك بذلك ! صحيح ان هذه اللحظة ليست مناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة . . يا عزيزى ، يا شمساً مضيئة ! اننى مذهولة . . . ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئنى به أمس ، أو أمس الأول . . . لا بأس على كل حال . . . أنا سعيدة رغم كل شىء ! . . بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيرا من المجىء أول أمس . . .

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد . كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك . كانت عيناها تسطعان ، وكانت تضحك ، ولكن بمرح فيه كثير من اللطف

والكياسة . لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى فى وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبة . . . انه لم يرها حتى الأمس الا نادراً ، وكان رأيه فيها رأياً فظيعاً . كانت ثورتها المتوحشة على كاترينا ايفانوفنا بالأمس قد هزت كيانه من الاساس ، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشة أن يرى فيها انسانا مختلفا كل الاختلاف . انه رغم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والتفرس فيها . كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسنا ملحوظا : ليس فى صوتها الآن تلك النبرات المفرطة فى اللطف المنافق كما كانت حركاتها خالية من التكلف وأصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة . هى الآن تشع طيبة ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطرابا شديدا .

قالت مدمدمة :

— رباه ! يا لها من عجائب فى يوم واحد ! اننى أتساءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة .

قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

— أأنت تجهلينه الى هذا الحد من الجهل ؟ لقد خرقت أذنىّ من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون لك فى ذلك هدف .

— كان لى هدف حقا ، ولكن لم يبق لى هدف الآن . فات الأوان فلأقدم اليكما شيئا من الطعام والشراب . لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل تعلم ذلك ؟ هلا جلست يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها . . أأنت جلست اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى

قبالتنا يا أليوشا ، مستاء من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت . انه سريع التأذى . — هذا ما أضافته ضاحكة . — لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعلك خائف منى ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبتسم ابتسامة لاهية .

قال راكيتين بصوت أجش :

— هو حزين لأنه أُغفل فى الترقيات .

— أية ترقيات ؟

— انتشرت من شيخه رائحة تفسخ .

— رائحة تفسخ ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن تقول حقارة ما . اسكت أيها الأبله !

ثم قالت لأليوشا :

— هل تسمح لى يا أليوشا بأن اقعد على ركبتيك . . هكذا ؟ قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة . ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى فى عطف وحنان . وأردفت تقول :

— سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتاى الصغير التقى . حقاً . . . هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتيك ؟ ألا تغضب ؟ اذا شئت قمتُ .

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحرك . لقد سمع قولها : «اذا شئت قمتُ» ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول . ومع ذلك لم يحس بما يمكن أن يتخيله رجل مثل راكيتين الذى كان يتأمله بشهوة . ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضحة

لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصنا تحصينا قويا من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة . ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهيبة» لا تخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسة على ركبتيه ، توقظ فى نفسه شعورا مختلفا عن ذلك الشعور كل الاختلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى خاص صادق انه ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى ، وهذا أهم شىء كان يدهشه بالرغم منه .

هتف راكيتين يقول :

— كفاك كلاماً فى ترهات . خير من هذا أن تسقينا شيئا من الشمبانيا . لقد وعدتنى بذلك ، هل تتذكرين ؟

— صحيح . وعدتك بذلك . لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لاسقينه شمبانيا يوم يجيئنى بك . هذا علاوة على شىء آخر . هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شمبانيا . فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجة التى تركها ميتيا ، اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك ، يا راكيتا ، فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر . أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً ، وهو يبذل جهدا

كبيرا فى سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :

— ما هذه اللحظة المهمة لك ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرينها ؟ هل الأمر سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :

— ليس الأمر سرا ، ثم انك على علم به .

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن أليوشا مع بقائها قاعدة على ركبتيه محيطة بذراعها عنقه ، وقالت :

— سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى فى الطريق الى هنا !

— أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا .

— هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الىّ من هناك رسولاً . ذكر لى ذلك فى رسالة تلقيتها منذ حين . فأنا أنتظر الآن هذا الرسول .

— غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

— شرح هذا يطول . يكفيك الآن ما علمت .

— و ميتيا ؟ هل يعلم بالامر ؟

— لا يعلمه طبعا . لو علم لقتلنى . ولكننى أصبحت لا أخاف منه . اننى لا أعبأ بخنجره . اسكت يا راكيتا . لا تحدثنى بعد الآن عن دمترى فيدوروفتش . لقد جعل قلبى يتألم . لا أحب الآن أن أفكر فى هذه الاشياء . احب ان افكر فى أليوشا ، اريد أن أنظر اليه . . . ابتسم لى يا ملاكى ، كن أكثر فرحاً ، شاركنى سعادتى ، ابتسم لما قلت من سخافات . . . آ . . . ها هو ذا يبتسم أخيرا . . . لقد ابتسم

لى ! ما أجمل هذه الوداعة فى نظرته . هل تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت اعتقد انك سوف تزعل منى بسبب تلك القصة التى حدثت فى ذلك اليوم عند الآنسة . لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث ! هذا صحيح . ولكننى مسرورة رغم كل شىء بما حدث . كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية . — ابتسمت جروشنكا مفكرة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شىء من القسوة — روى لى ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافى : «هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس» . لقد اسأت اليها كثيرا . هى استدعتنى وارادت أن تسيطر علىّ . كانت تظن أنها ستغرينى بفنجان من الشوكولاته . . . لا . . . لا . . . حسن ما حدث . — وابتسمت من جديد — كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت منى . . .

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

— يبدو أنها تخشى رأيك حقا يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من فرخ مثلك !

— هو فى نظرك فرخ لأنك . . . لا ضمير لك ! أما أنا فأحبه بكل نفسى . هل تصدقنى يا أليوشا اذا قلت لك اننى أحبك بكل نفسى ؟

— يا لخالعة العذار ! هذا تصريح بحب يا أليوشا ، تصريح بحب لك أنت !

— لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

— وصاحبك الضابط ؟ والرسالة الثمينة من موكرويه ؟

— هذان أمران مختلفان .

— ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة .

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

— لا تحنقنى يا راكيتا . هذان أمران مختلفان . أنا أحب أليوشا حباً آخر . صحيح أننى قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحطة عنيفة قاسية . ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعدك بمثابة ضمير لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلة : «لا بد أنه يحتقرنى انا المرأة السيئة .» ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة . لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا . ان ميتيا يعلم هذا . لقد ذكرته له . وهو يفهمنى . هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى . . . فلا أدرى فى الواقع ولا اتذكر لماذا بدأت افكر فيك ومنذ متى . . .

دخلت فينيا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كئوس ملأى .

هتف راكيتين يقول :

— وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا يا أجرافينا ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك . ومتى أفرغت هذه الكأس فسوف ترقصين — اضاف قائلا وهو يتفرس الشمبانيا — اوف ! ان الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول . ان الزجاجة فاترة والسدادة منزوعة ، والخادم العجوز قد ملأت الكئوس فى المطبخ . لا بأس . . . سنشربها على كل حال .

واقترب راكيتين من المائدة ، فتناول كأسا ، وافرغها فى جوفه دفعة واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه :

— لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم . جاء دورك يا أليوشا . ألا فلتر مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب

أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

— أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟

وتناولت جروشنكا كأسا ؛ وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامة عذبة :

— أؤثر ان لا أشرب .

فصاح راكيتين قائلاً :

— فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشنكا :

— لن أشرب أنا اذن . ثم اننى ليست بى رغبة فى الشراب . تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك اذا شئت يا راكيتا . واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا .

قال راكيتين ساخرا :

— يا للعواطف الرقيقة ! بينما ما تزالين تجلسين على ركبتيه . ان له هو عذرا على الاقل ، فقد حلت به مصيبة ، أما أنت فأى عذر يمكن ان تتحلى ؟ لقد تمرد هو على الهه وأراد أن يأكل مقانق .

— ماذا وقع له ؟

— مات شيخه هذه الليلة . . . الأب زوسيما . . . ذلك القديس .

— ماذا ؟ الشيخ زوسيما مات ؟ رباه ! لم اكن أعرف ذلك !

قالت جروشنكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب بتقى وورع . وأردفت تقول منفعلة على حين فجأة كالمذعورة :

— آه . . . يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعت تنهض ، ومضت تجلس على الأريكة .

حدّق اليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً ، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

— لا تضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين . اننى لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضا . لقد فقدت كنزا لم تملكه أنت فى يوم من الايام ، لذلك لا تستطيع أن تدينني . خير لك أن تنظر اليها : هل رأيت كم دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئت الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة وغداً شريرا . ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهرة ثمينة ، نفساً صافية محبة . . . دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية . عنك أتكلم يا أجرافينا ألكسندروفنا . لقد اعدت الحياة الى نفسى .

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقا .

قال راكيتين وهو يضحك ساخرا :

— لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تنوى أن تبلعك !

قالت جروشنكا مندفعة :

— كفى يا راكيتين . واسكتا كلاكما الآن . سأقول أنا كل شىء لا تقل شيئا يا أليوشا ، لأن أقوالك تشعرنى بالخزى والخجل . أنا فى الحق خبيثة لا طيبة كما تظن . أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب . صحيح أننى نويت فى السابق تلك النية الدنيئة وهى أن أبلعه لقمة واحدة ، ولكنك

مع ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن . . . لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا !

كانت جروشنكا تتكلم مضطربة اضطرابا شديدا .

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

— لقد فقدا كلاهما العقل . لكأنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفيين ، وما هى الا لحظة حتى يطفقا باكيين .

قالت جروشنكا :

— سوف أبكى ، نعم سوف أبكى . لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا ما حييت ! اعلم يا راكيتا اننى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة .

— أية بصلة ؟ حقا لقد فقدا العقل .

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن هزا شديدا نادرا ما يقع مثله قد هز نفسى هذين الانسانين الامر الذى يجمع بينهما . ولكن راكيتين ، السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجد عناء فى فهم عواطف الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه على جانب عظيم من الأنانية .

التفتت جروشنكا نحو أليوشا وهى تضحك ضحكة عصبية وقالت له :

— ها قد رأيت يا أليوشا أننى تباهيت أمام راكيتا بأننى قدمت بصلة . ولكننى سأتكلم معك بغير تفاخر وأقصد قصدا آخر . الأمر أمر أسطورة : هى قصة جميلة . قصتها علىّ فى طفولتى ماتريونا التى تعمل عندى اليوم طباخة . اليك القصة :

كان هناك فى الماضى امرأة عجوز شريرة جدا ؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة أمسكتها الشياطين وألقتها فى بحيرة من نار . وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر . تساءل : «ألا يمكننى أن أكتشف فضيلة أذكرها عنها للرب !» ، فاذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة فى حياتها ، فقال للرب : «لقدانتزعت من حديقتها بصلة فى ذات يوم ووهبتها لشحاذ .» فقال الرب للملاك الحارس : «خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة فى بحيرة النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب . فاذا استطعت أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هى» . أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : «تمسكى بهذه البصلة فأخرجك من النار» . وأخذ يشد بحذر ، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها . ولكن العجوز كانت شريرة جدا ، فركلتهم بقدميها وهى تصرخ : «انما يراد انقاذى أنا لا انقاذكم أنتم . هذه البصلة بصلتى انا لا بصلتكم انتم» . فما ان نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة العجوز فى البحيرة من جديد . وما تزال تحترق فى النار حتى الآن . أما الملاك فقد انصرف باكيا . اننى أحفظ هذه الأسطورة على ظهر القلب ؛ احتفظت بها لاننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة . لقد تباهيت امام راكيتا بأننى وهبت بصلة . اما لك أنت فاقول أننى ان كنت قد وهبت بصلة مرة فى حياتى فذلك **كل ما فعلته** ، وليست تتعدى فضيلتى هذه الحدود . فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة . أنا شريرة ،

شريرة جدا ، واننى لأمتلئ بشعور الخزى والعار حين أسمعك تكيل لى المديح . وهأناذا أعترف لك بكل شىء يا أليوشا : لقد بلغت من فرط الرغبة فى ان اراك عندى أننى كنت لا أعرف ما عساى فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئنى بك . ووعدته أخيرا بان أعطيه خمسة وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى . لحظة يا راكيتا !

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة ، ففتحت درجا ، وتناولت محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً .

هتف راكيتين يقول مرتبكا ارتباكا شديدا :

— ما هذا السخف ؟

— خذ المال يا راكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت علىّ لأعطيك هذا المبلغ .

ورمت اليه الورقة .

قال راكيتين بصوت أجش وبدا عليه الارتباك ولكنه حاول أن يسيطر على ارتباكه وخجله :

— لن ارفضه . انما وجد الأغبياء فى هذا العالم لمصلحة الاذكياء .

قالت جروشنكا :

— والآن اسكت يا راكيتا . ان ما سأقوله الآن لا يصلح لأذنيك . اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً . أنت لا تحبنا فما عليك الا أن تلزم الصمت .

قال راكيتين بلهجة معادية دون أن يحاول اخفاء غضبه :

— وفيم احبكما ؟

ودس الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد

أمام أليوشا . كان يقدّر ان يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علم من أليوشا ، فاذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً . كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يعارض جروشنكا رغم كل السخريات التى كانت تصبها عليه . بدا واضحاً أن لها عليه سلطانا ، ولكنه بدأ يغضب الآن . قال :

— لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان حبى ؟

— أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

— من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك حتى تعامليه هذه المعاملة ؟

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسة بصوت تداخله فى بعض اللحظات نبرات هستيرية .

— اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً . ثم اننى لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبنى **بصيغة المفرد** . اننى أمنعك أن تفعل هذا فى المستقبل . من أجاز لك أن ترفع الكلفة الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى . والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملة ، لتعلم اننى انسانة شريرة سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردت ضياعك يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أننى حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئنى بك . ما هو السبب الذى دفعنى الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شىء ، وكنت تشيح

بوجهك عنى . كنت اذا لقيتنى تغض طرفك . أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت كل من اعرفه عنك . انطبعت ملامح وجهك فى قلبى . كنت أقول لنفسى : «انه يحتقرنى . انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الىّ» . وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أننى دهشت أنا نفسى . قلت : «لماذا الخوف من هذا الصبى الغر ؟ لآكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا .» . ان نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم فى نفسى غضبا منك وحقدا عليك . صدقنى ، لا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ شيئاً فى هذه المدينة ، لن يجرؤ أحد أن يشتبه فى أجرافينا ألكسندروفنا فيسيىء فيها الظن اذا هى استقبلت رجلا فى بيتها . ليس فى حياتى الا ذلك العجوز الذى ارتبطت به وبعته نفسى . لقد جمع الشيطان بيننا . غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذى حظى بى . ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك . كنت أتهيأ لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك . فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التى دعوتنى أختك . وهذا صاحبى الذى غشنى واغوانى يبلغنى انه قادم ، وأنا أنتظر رسالة منه . هل تعلم ماذا كان هذا الرجل فى حياتى ؟ لقد جاء بى كوزما الى هنا منذ خمس سنين . كنت أعيش فى أول الأمر هاربة من الناس أخشى أن يرانى أحد وأن يسمعنى أحد . كنت هزيلة الجسم غبية العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء فى ليل ولا نهار . كنت أبقى مؤرقة مسهدة ليالى برمتها أحدث نفسى قائلة : «اين هو فى هذه الساعة ، الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىّ ويسخر منى مع امرأة أخرى . آه . . . ليتنى

أستطيع أن ألقاه يوما ! ليدفعنّ عندئذ ثمن ما جنت يداه !» . وكنت أبكى على وسادتى فى الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام . كنت أستثير ألمى عامدة لأملأ نفسى كرهاً وحقداً . كنت اصرخ فى الليل قائلة : «لسوف يرى ! لسوف يرى ! ليندمنّ على ما فعل !» . ثم أدركت فجأة عجزى . وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر منى ويضحك علىّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسينى نسيانا تاما أسقط عن سريرى على الارض وأظل أتدحرج منتحبة مرتجفة بكل جسمى حتى مطلع الفجر . فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشد ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أوذى الدنيا كلها ثم اخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة ، وسمنت . وغدوت اكثر تعقلا ماذا تظن ؟ أتغيرت نفسى ؟ لا . . . ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره يتصور ما أقاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحدث لى منذ خمس سنين ، حين كنت صبية يافعة ، أن أشد على أسنانى فى سريرى ليلاً ، وأن أستمر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : «ليدفعنّ ثمن ما جنت يداه !» . هل تسمعنى ؟ فاحكم علىّ الآن : لقد وصلتنى منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمل ، وانه يريد أن يرانى ، وانه يأمل أن يصل قريبا . صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمنى الانفعال . ثم قلت لنفسى فجأة : «سيعود ، ولن يكون عليه الا أن يصفر حتى أهرول اليه ككلب ، مجلّلة بالخزى ، مطعونة القلب ، طالبة الصفح والغفران !» . وتساءلت عندئذ : «أأكون سافلة الى هذه الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هذا الاذلال ؟» . وقد استبد بى من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ما جعلنى أصبح أخبث نفساً واميل الى الشر مما

كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات . هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنف ؟ اننى أذكر لك الحقيقة كلها . لقد اتخذت دمترى سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر . اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم علىّ ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة افكر فى قدرى ، ولن تعرف قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للآنسة يا أليوشا أن لا تأخذ علىّ المشهد الذى وقع أمس الأول . . . ما من أحد فى العالم يستطيع أن يفهم ما أعانى الآن . . . ربما أحمل خنجرى معى حين اذهب الى هناك . . . اننى لم أعزم أمرى بعد . . .

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى «يُرثى له» لم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاذا هى تنقطع عن الكلام ، وتغطى وجهها بيديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير .

نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

— لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغى لك أن تغضب منها . هل سمعت قصتها الآن ؟ على المرء أن يعامل النفس الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن لا يجعلها تتحمل هذا العناء . . .

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان يشعر بحاجته الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؛ ولئن خاطب بهذا الكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين هناك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن الكلام . قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة :

— شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الافكار ، فتريد أن تقدمها الىّ بدورك الآن يا أليوشا ، يا حبيب الله !

— لا تستهزئ يا راكيتين ، دع السخريات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض .

كذلك صاح اليوشا والدموع فى صوته . ثم تابع كلامه يقول :

— لا أقول لك هذا الكلام قاضيا بل متهماً هو شر المتهمين طراً . ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتى على الضياع ، قائلاً لنفسى فى جبن وحطة «ليكن هذا . . . ليكن هذا . . .» ، فاذا هى ، هى التى تألمت خلال خمس سنين ، تغفر كل شىء ، وتنسى كل شىء ، وتبكى ما ان سمعت لأول مرة كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ، وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأومأ اليها ، فاذا هى تغفر له على الفور ، فرحة سعيدة مستعجلة لقاءه . أما الخنجر فثق أنها لن تحمله ! لا . . . لا . . . أنا لا أساويها ، أنا لا أعدلها . لا أدرى يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبها ونبلها ، أما أنا فلست كذلك بحال من الاحوال . هذا درس تلقنته اليوم . . . ان هذه المرأة أعظم منا بالحب . . . هل كنت تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً . والا لأدركت كل شىء منذ زمن طويل . . . وتلك الأخرى التى آذتها هى أمس الأول ، يجب عليها أن تغفر لها هى أيضا ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم . . . ان هذه النفس لمّا تسترد هدوءها وطمأنينتها بعد ، فينبغى ان تدارى وأن تراعى . . . لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال . . .

صمت أليوشا منقطع الأنفاس . وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشا رغم حنقه . ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب الوديع .

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

— يا للمحامى البارع ! أتراك وقعت فى حبها ؟ يا أجرافينا ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بحبك ، وهام غراما بك . هنيئا لك بالنصر !

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظرة حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة .

— لا تكترث له يا أليوشا ، يا ملاكى . أنت ترى ما هو ، فلا داعى الى مناقشته .

كذلك قالت جروشنكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

— كنت أنوى يا ميخائيل اوسيبوفتش أن أعتذر اليك عن الكلمات الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن .

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

— أليوشا ، اجلس هنا ، بجانبى ، هكذا ، قريبا منى . قل لى يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى . . . لقد كنت قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولة أن أقرأ فى أعماق قلبى : أمازلت أحبه ؟ أضىء طريقى يا أليوشا . هذه ساعة اتخاذ القرار . اننى أكل أمرى اليك . هل يجب علىّ أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

— ولكنك غفرت له وانتهى الأمر !

فقالت جروشنكا واجمة مفكرة :

— صحيح . لقد غفرت له . ما احقر قلبى !

ثم هتفت تقول :

— اننى أشرب نخب هذا السافل الكبير ، قلبى ! وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته فى جوفها دفعة واحدة ، ثم ألقته طائراً على الأرض . تحطمت الكأس ، ورنت شظاياها . ومرة أخرى ظهر فى طرفى فمها شىء من قسوة . قالت بصوت مثقل بتهديدات غامضة وهى تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها :

— لعلنى لم أغفر له بعد . قلبى يتهيأ للمغفرة ، وسأحاول أن أقاومه . آه ، يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذى بالدموع التى سكبتها طوال خمس سنين . ان عذابى هو ما أحب . اننى أحب ألمى ، ولا أحبه هو !

قال راكيتين بصوت خفيض :

— لست أتمنى أن أكون اياه !

— لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبدا . . . أنت ستصنع لى حذاءى . ذلك ما تصلح له أنت فى أكثر تقدير . النساء اللواتى هنّ من نوعى لم يخلقن لك ، وربما لا له أيضا . . .

قال راكيتين ساخرا :

— ولا له أيضا ؟ فلمن تزينت اذن ؟

— لا تأخذ علىّ تزينى يا راكيتا ! أنت لا تعرف قلبى بعد ! سأنزع ثوبى وزينتى اذا عنّ لى هذا ، سأرميها فورا (كذلك صرخت بصوت حاد) . أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذى من أجله تزينت . من يدرى ؟ ربما وقفت امامه فقلت له :

«انظر ! انظر ماذا أصبحت !» . لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلة مصدورة بكاءة . سأجلس قربه ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له : «هيه ! ارأيت ماذا اصبحت ؟ لكن السمكة افلتت من يديك يا محترم . ان المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين !» . ربما كان هذا هو السبب فى أننى تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهى تضحك ضحكة خبيثة) . أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة . سوف أنزع ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخدده بطعنات موسى لأدمر جمالى ثم أمضى أتسول . ليس يتوقف الا علىّ أنا أن أبقى هنا فى هذا المساء ، فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك . واذا شئت رددت منذ الغد الى كوزما كوزمتش جميع الهدايا التى اهداها الىّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى اعمل طوال حياتى لأجنى رزقى عاملة بسيطة . هل تظن أننى لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ، سأفعله ؛ لا تُهجنى والا فعلته فورا ! . . أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد له لسانى استهزاء ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هستيرياً ، ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة . فنهض راكيتين من مكانه وقال :

— آن أوان الانصراف . لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير . فنهضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

— اتمضى الآن يا أليوشا ؟ اتعبث بى اذن هذا العبث ؟ لقد بثثت الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم

تتركنى لأبقى وحيدة ، وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الليلة !

قال راكيتين بصوت ساخر :

— لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغبا فى ذلك حريصا عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى .

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

— اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعرف فى يوم من الايام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم .

فقال راكيتين يسألها حانقاً :

— فما هى الاشياء الخارقة التى قالها لك ؟

— لا أعرف ، لا أعرف ماذا قال لى ، ولكن كلماته مضت الى قلبى رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً . . . لقد أخذته بى شفقة ورحمة ، كان الانسان الوحيد الذى رثى لحالى ! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد) . لقد انتظرت انساناً مثلك طوال حياتى . كنت أعلم ، كنت أحس أننى سألتقى فى يوم من أيام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لـــــى . كنت واثقة من أن أحدا سيحبنى آخر الأمر أنا أيضا ، أنا الوقحة ، لغرض آخر غير عارى . . .

سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقة ، ويميل عليها ويتناول يدها بلطف :

— ماذا فعلت من اجلك ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ، بصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء . . .

وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى . وفى تلك اللحظة

سمعت ضجة فى الممر . ان أحداً قد دخل الى البيت . نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شديداً . وأسرعت فينيا الى الغرفة تهتف فرحة لاهثة :

— سيدتى ، عزيزتى ، وصل الرسول ! لقد ارسلت من موكرويه عربة تستقلينها ، ومضى الحوذى تيموثى يبدل الخيل . هناك رسالة لك يا سيدتى ، رسالة ، رسالة . . . هـــذه هى !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم . انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة . هى بطاقة قصيرة جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين . ثم صاحت تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض بابتسامة أليمة :

— لقد صفر لى . لقد دعانى . ازحفى ايتها الكلبة الصغيرة !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيها فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول على حين فجأة :

— سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى . وداعاً وداعاً ! وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا . فقد تقرر مصيرى . اذهبوا ، انصرفوا الآن جميعا ، ولتغيبوا عن عينى الى الأبد ! . . . ان جروشنكا تبدأ حياة جديدة . لا تحمل لى حقدا ، أنت أيضا يا راكيتا . من يدرى ؟ قد أكون ذاهبة الى الموت ! آه . . . كأننى سكرى . . .

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها .

قال راكيتين بزعل :

— لا تهتم بنا الآن . . . فلننصرف قبل ان تبدأ صراخها . مللت من الدموع والصراخ . . .

انقاد أليوشا انقياداً آلياً . كانت العربة فى فناء المنزل . وخيول تُحل ، وأناس منهمكون على ضوء مصباح . وكانوا يدخلون عبر الباب المفتوح أفراساً جديدة . وما ان هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فُتحت نافذة غرفة النوم ، فاذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان :

— عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمترى تحيتى ، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة ، أنا . كرر على مسامعه هذه الكلمات عن لسانى : «وهبت جروشنكا نفسها لرجل سافل ، لا لك انت الشهم» ؛ قل له أيضا اننى أحببته ساعة ، ساعة واحدة ، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان جروشنكا هى التى تأمره بذلك .

ختمت جروشنكا كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة .

غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً :

— هِمْ . . . هِمْ . . . تغمد سكينا فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتيا ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة . يا للسادية !

لم يجب أليوشا . وكان يبدو عليه أنه لم يسمع . انه يسير الى جانب رفيقه بخطى حثيثة . ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة . شعر راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم . ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشنكا . لقد جرى كل شىء على غير ما كان يتنبأ ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق . قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

— صاحبها الضابط بولندى . على أنه ليس الآن بضابط .

لقد عمل زمناً فى ادارة الجمارك فى سيبيريا على الحدود الصينية . هو طرحٌ حقير ما فى ذلك ريب . يقال انه طرد من وظيفته . علم الآن أن جروشنكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود . . . هذه هى المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا . كأنه لم يسمع شيئا . ولم يطق راكيتين صبراً ، فقال وهو يضحك ضحكا ساخرا خبيثا :

— هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها ، هه ؟ هذه هى المعجزة التى انتظرها الناس طويلا منذ هذا الصباح . . . لقد تحققت !

قال أليوشا متألماً :

— اسكت يا راكيتين !

— أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحتقرنى الآن ؟ اترانى بعت صديقا حميما ؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا انا بيهوذا الأسخريوطى !

— أؤكد لك اننى لم أكن أفكر فى هذا الامر . أنت الذى تذكرنى به الآن .

كذلك قال أليوشا ، فغضب راكيتين فى هذه المرة غضبا كاملا ، وأعول يقول :

— شيطان يأخذكم جميعا ! انى لاتساءل ما كانت حاجتى الى الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن . امض فى سبيلك وحدك !

انعطف فجأة فسار فى شارع آخر وترك أليوشا وحيدا فى الليل . خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول .

٤

عرس قانا

حين وصل أليوشا الى المنسك كان الوقت متأخراً جداً بالنسبة الى الانظمة المتبعة فى الدير . وسمح له الراهب البواب ان يدخل من ممر خفى . كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان كل شىء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله . تسلل أليوشا وجلاً الى الصومعة التى سُجِّى فيها تابوت الشيخ . كان الأب بائيسى وحيدا فى الصومعة ما يزال يقرأ الانجيل . وكان الراهب المبتدئ بورفيرى الذى أتعبه الحديث الطويل فى الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار ، ينام فى الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيحه له شبابه . ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا . اتجه أليوشا الى الركن الذى يقع على يمين الباب ، وجثا على ركبتيه ، وأخذ يصلى . كانت نفسه طافحة ، غير أن مختلف المشاعر تختلط الآن فى نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هى تتعاقب ويطرد بعضها بعضا فى حركة مطردة هادئة . وشعر أليوشا بانفعال رفيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب فى الامر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال . انه يرى أمامه التابوت الذى يضم جثمان الراحل المحبوب ، يراه من جديد ، ولكن الشفقة الاليمة المعذّبة التى كانت تجثم على صدره طوال الصباح قد زالت . انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام شىء مقدس ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه . كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة ، فمنها يدخل

الى الغرفة هواء طرى منعش . قال أليوشا يحدث نفسه : «لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة .» غير أن فكرة رائحة التفسخ التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك الاسى كله ، والتى كانت تبدو له رهيبة فظيعة مخلة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشىء من الحرج . أخذ أليوشا يصلى صامتا . ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آلية . ان نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفئ ليحل محلها غيرها . ولكن شيئاً كاملاً صلباً مهدئاً قد ملك عليه ، وأدرك هو ذلك . وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحرارة وحماسة ، شاعرا بحاجة قوية عنيفة الى أن يشكر وان يحب . . . ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شىء آخر ، فاذا هو يغرق فى أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة . أصاخ بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائيسى ، فاذا هو ينحدر شيئا فشيئا الى وسن هادئ رفيق لأنه كان متعباً جداً .

«وفى اليوم الثالث كان عرس قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك . . ودعي أيضا يسوع وتلاميذه الى العرس . .» .

«عرس ؟ ما العرس ؟ — وثارت فى فكره زوبعة من الخواطر . — هى أيضا سعيدة . . . ذهبت الى احتفال . . . لم تحمل الخنجر . . . ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً . . . يجب أن نغفر الاقوال الطائشة ، لأنها تهدئ النفس . . . وبدونها يصبح ألم الانسان أشد من أن يطاق . . . غاب راكيتين فى زقاق . . . لسوف يغيب فى أزقة ما ظل لا يفكر الا فى الاهانات التى تناله هو . . . أما الطريق فهى عريضة مشرقة . . . مستقيمة . . .

نقية نقاء البلور . . . والشمس هى التى تسطع فى نهايتها . . . ها ؟ ماذا يقرأ الآن ؟» .

«ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر . . .»

«ها . . . نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أننى كنت لا أحب أن تفوتنى هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى . . . كانت تلك معجزة ، معجزة الهية محببة . . . لم يجىء يسوع للحزن ، بل للفرح . . . أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى . . . «الذى يحب البشر ، يحب فرحهم أيضا .» . . . ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير انقطاع . . . ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية . . . لا يستطيع الانسان أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميتيا . . . نعم يا ميتيا . . . كل ما هو حق وجميل يشيع منه الغفران الشامل . . . انه هو الذى كان يقول هذا أيضا . . . »

«قال لها يسوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تأت ساعتى بعد . قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه !»

«افعلوا . . . كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء جدا ، جدا . . . لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمر قد أعوزهم حتى لعرس . . . يؤكد المؤرخون ، أن الأهالى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة لها كانوا أفقر الناس . . . هذه امرأة عليا كانت فى العرس ، هى أم يسوع ، تشعر فى قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيته الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك فى الفرح البسيط الساذج الذى يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذى لا تألق فيه . قال لها يسوع

وهو يبتسم ابتسامة رقيقة : «لم تأت ساعتى بعد» (لا شك أنه ابتسم فى تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتهـــا وعذوبتها) . . . أجاء اذن الى الارض ليزيد الخمر فى أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد ، ولبـى رجاءها . . . آ . . . ما يزال يقرأ» .

«قال لهم يسوع املأوا الاجران ماء ، فملأوها الى فوق . ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكأ فقدموا ، فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هى بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا رئيس المتكأ العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة أولا فمتى سكروا فحينئذ الدون ، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن» .

«ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ . . . آ . . حقاً . . هو الزواج . . . هذا عرس . . . طبعا . . هؤلاء هم المدعوون . . . وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح . . ولكن أين هو اذن رئيس المتكأ ذلك الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغرفة تتسع مزيداً من الاتساع . . . من ذا الذى ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أيكون هو أيضا هنا ؟ . . . كنت أحسب أنه فى تابوته . . بلى ! انه هو بعينه . . . نهض . . . رآنى . . . ها هو ذا يقبل علىَّ . . . رباه ! . .

واقترب فعلاً من أليوشا ، الشيخ الناحل المخدَّد وجهه بغضون صغيرة . كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً . لقد اختفى التابوت . والشيخ يرتدى الملابس التى كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الاخير مع المدعوين . ان وجهه

يشرق مودة ومحبة ، وان عينيه تلتمعان . كيف أمكن أن يكون هنا ، فى هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى عرس قانا ؟ كذلك تساءل أليوشا . فسمع صوتا لطيفا يقول له من فوقه :

— نعم يا بنى ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت . لماذا تختبئ فى ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد . تعال ، وكن معنا . . .

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيما . . . لا شك أنه الشيخ ، مادام يناديه . ومدَّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا . وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلاً :

— اننا نبتهج ! نشرب الخمر الجديد . . . انه خمر فرح جديد ، فرح عظيم جدا . . . هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب ، وهذه هى الخطيبة ، وهذا هو رئيس المتكأ الحكيم جدا ، يذوق الخمر الجديد . لماذا تنظر الىَّ مدهوشاً ؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت فى هذه الحفلة . كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا . . . كيف الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بنى الطيب الوادع ، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة . ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صغيرى اللطيف الوادع ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

همس أليوشا يقول :

— أنا خائف . . . لا أجرؤ أن أنظر اليه .

— لا تخف منه . هو مخيف بعظمته التى ترفعه فوقنا ، هو مخيف بالعلو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهاية له . لقد جعل نفسه شبيهاً بنا ، وذلك حبا فينا ويشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف . وهو ينتظر

مدعوين آخرين ، وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الأبد .
انظر ها هم يجيئون بالخمر الجديد ، ها هم يحملون الأوانى . . .

كان قلب أليوشا يحترق احتراقا وقد امتلأ بشىء ما يصاقب الألم ، وانبجست من عينيه دموع حماسة . . . ومدَّ ذراعيه ، وأطلق صرخة ، واستيقظ من نومه . . .

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنافذة ما تزال مفتوحة ، وصوت الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقورا هادئا وهو يقرأ الانجيل ببطء . ولكن أليوشا لم يصغ اليه . كان قد نام على ركبتيه . والغريب أنه الآن واقف على قدميه . وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً ، فاذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة راسخة ، حتى لقد لامس بكتفه الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك . رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن الفتى كان فى حالة غريبة . وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة : تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غُطى وجهه ببرقع ، ووُضعت على صدره أيقونة ، ولُفّع رأسه بغطاء يزينه صليب ذو ثمانية أفرع . لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى أذنيه . ان أليوشا يصغى وينتظر . . . أتراه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ، استدار أليوشا وخرج من الغرفة .

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا . كانت نفسه التى تطفح حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية . هذه قبة السماء تعلوه ممتدةً فى جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمةً بنجوم تسطع أشعتها سطوعا هادئا . ان المجرة ، التى لا تكاد تُرى بعد ، تمتد من السمت الى الافق . وان

ليلة طرية هادئة صامتة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها . والأبراج البيضاء والقبب المذهبة من الكاتدرائية تبرز على قاع لازوردى . وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة فى أحواضها التى تحف بالمنزل . ان سكينة الارض تتحد بسكينة السماء ، وان سر الأرض يندمج مع سر النجوم . . . تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه .

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الأرض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة الى أن يغمرها بالقبل . كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبنَّها على الدوام ، ليحبنها أبد الدهر . . . «اسق الأرض دموعَ الفرح ، وأحبب دموعك» ، كذلك قال له صوت فى أعماق نفسه . لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكى من الحماسة ، حتى لقد كان يبكى لهذه النجوم التى تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم «يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذى ملأ نفسه» . كأن عوالم الله الكثيرة قد اتصلت فجأة بنفسه فكانت نفسه تهتز من هذا الاتصال . كان يشتهى أن يغفر كل شىء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضا لجميع الناس ، وعن كل شىء . ومرة أخرى قال صوت فى أعماق نفسه : «ان آخرين سيسألون لى اللطف» . وشعر فى الوقت نفسه باحساس واضح جدا ، احساس يشبه أن يكون جسميا ، أن شيئا ما لا يتزعزع مثل قبة السماء ينفذ الى نفسه وأن فكرة ما تبزغ فى روحه لتحكمها الى الأبد . كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة . واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجئ الذى وقع له ، اختلط بحماسته ، فاذا هو فى حالة نفسية جعلته لا

ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام . وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق «أن أحدا قد زار نفسه فى تلك اللحظة» .

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذى «أرسله الى العالم» .

الباب الثامن

ميتيا

١

كوزما سامسونوف

ان دمترى فيدوروفتش الذى «أمرت» جروشنكا ، وهى تطير نحو حياة جديدة ، بأن يُبلَّغ سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حب وهبته له ، كان يجتاز هو أيضا ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب . انه يعيش منذ يومين فى حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان فى الدماغ على حد التعبير الذى استعمله هو فيما بعد . لم يستطع أليوشا أن يعثر عليه حين بحث عنه فى الصباح ؛ ولم يتسن لأخيه ايفان أن يلتقى به فى الحانة . وقد صمت أصحاب الشقة التى كان يقيم فيها ، تنفيذا لأوامره . وظل هو خلال يومين يضرب فى الأرض على غير هدى وبغير راحة «مصارعاً قدره ساعيا الى خلاصه» ، كما صرَّح بذلك فيما بعد . حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان يرى أن ترك جروشنكا ولو للحظة بلا رقابة أمرٌ رهيب . وقد اتضح هذا الأمر فيما بعد بكل تفاصيله اما الآن فنذكر أهم وقائع هذين اليومين

الرهيبين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القاسى المفاجئ .

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً ، ولكنها فى نفس الوقت قد عذبته أحيانا بقسوة لا رحمة فيها . وأنكى ما فى الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهما واضحا . لم يكن له أى أمل فى أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة . ولو قد حاول ذلك لعاندته فى جميع الاحوال ولتركته غاضبة حانقة . كان هو يشعر بذلك شعورا كاملا . وكان يدرك أنها تجتاز هى نفسها فى تلك الساعة أزمة عصبية وأنها تتخبط فى حيرة شديدة ، فهى توشك أن تعزم أمرها دائما ثم تتردد كلَّ مرة فى آخر لحظة ؛ وكان يقدِّر بقلب متألم — وليس يخلو تقديره هذا من حق — أنها كانت فى بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها . لعله لم يكن مخطئاً فى هذا ، ولكن السبب الحقيقى للقلق الذى تعانيه جروشنكا كان يفوته . وكانت المسألة التى تعذبه انما ترتد فى الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : «اما هو ميتيا ، واما فيدور بافلوفتش» . وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية : كان ميتيا مقتنعا اقتناعا مطلقا بأن فيدور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيل فى لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه دون أن يضحى بشىء الا بثلاثة آلاف روبل . هكذا كان يفكر دمترى على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا . لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنها لا تدرى من تختار منهما ،

جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها . أما ان يعود فى القريب ذلك «الضابط» ، ذلك الرجل المشئوم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشنكا والذى كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من الاضطراب وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الأمر مرةً واحدة خلال تلك الأيام ، مهما يبد ذلك غريبا . صحيح أن جروشنكا أصبحت فى الأيام الاخيرة لا تكلمه فى هذا الأمر ، ولكن دمترى كان يعلم أن الرجل الذى أغواها قد كتب اليها ، لأنها أطلعته على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر ، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة . لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة اى اهتمام ولا اكترث لها . انه لمن العسير أن نشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيراً . لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاءً أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل . أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصةً أن يعود قريبا . هذا الى أن رسالة «الضابط» لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أمورا عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية . يجب أن نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبة بشىء من الوضوح . وكان دمترى يتذكر فيما بعد أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعته على الرسالة ، قد أظهرت

6-1306

على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من سيبريا . ولم تفض جروشنكا الى دمترى بعد ذلك بأى شىء عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك المنافس الجديد ، الى أن نسى دمترى وجوده شيئا بعد شىء . فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصدام الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكا مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل . وكان ينتظر كل لحظة على أحر من الجمر قلقاً ، أن تتخذ جروشنكا قرارها ، وكان يقدر أنها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحى او الالهام ، فتقول له ذات يوم : «خذنى ، أنا لك الى الأبد» ، وينتهى كل شىء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم . نعم . . . ليأخذنها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؛ وسوف يتزوجها ويستقر معها [1] incognito لا يعرفهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك ولا فى اى مكان . ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمترى لا ينى يحلم متحمسا بالحياة الجديدة ، الحياة «الفاضلة» («الفاضلة حتما») . لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألما قويا من الحمأة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؛ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن . كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شىء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة

[1] مجهول (باللاتينية فى الأصل) .

جديدة على أسس جديدة . ذلك كان أمله ، والى هذه الغاية انما كانت تتجه أحلامه .

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشنكا القرار الأول ، القرار **السعيد** . وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : «اغرب عنى ، فلقد اتفقت الآن مع فيدور بافلوفيتش اتفاقا نهائيا وقررت أن أتزوجه ، فلا حاجة بى اليك بعد اليوم» . ففى هذه الحالة . . . فى هذه الحالة . . . لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة . . . علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له . انه لم يعقد نيته على شىء ، ولم يفكر فى ارتكاب جريمة . كان لا يزيد على أن يراقب ويتجسس ، ويتعذب بغير انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول السعيد ، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى . على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله يتألم ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة فى طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبةً خارجية طبعا ، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال .

هب جروشنكا قالت له : «أنا لك ، خذنى» ، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها ؟ اين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التى هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش والتى كانت تتدفق عليه بلا انقطاع كل هذه السنين قد نفدت نفادا تاما . صحيح أن جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ فى نفسه . لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ،

وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عالةً عليها . كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئا ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه . لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية بمزيد من التفصيل ولا أن أحلِّلها ، وحسبى أن أقرر أن هذه كانت عاطفته ، وان هذا كان شعوره انذآك . جائز جدا ان يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفى منذ أن استولى على المبلغ الذى ائتمنته عليه كاترينا ايفانوفنا . لقد كان دمترى يقول لنفسه انذآك ، كما اعترف بهذا فيما بعد : «أنا وغد حقير فى نظر الأولى ، وسأصبح وغدا حقيرا فى نظر الثانية . اذا علمت جروشنكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلى» . ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذى يتوقف عليه مصيره ، والذى بدونه سيضيع كل شىء ولن يتحقق هدفه «آه . . . يا للشقاء !» .

سأستبق الآن القصة فأشير الى ان دمترى ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل فى أى مكان يوجد هذا المبلغ . ولن أدخل الآن فى سرد التفاصيل التى ستعرض فى حينها . غير أننى سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحا وضوحا كافيا (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى فى نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ فى مكان ما ، حتى يكون **من حقه** أن يستولى على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولا أن يردَّ الثلاثة آلاف روبل التى يدين بها لكاترينا ايفانوفنا . «والا لم أكن الا نشالا ، الا وغدا حقيرا ، لا أريد أن أبدأ

حياة جديدة وأنا وغد» . كذلك كان يقول ميتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأسا . على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردَّ المبلغ الى كاترينا ايفانوفنا . وقرر أن يفعل ذلك مهما يكن الأمر **وقبل كل شىء آخر** . وقد اختمر هذا القرار فى نفسه فى الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التى أعقبت لقاءه أليوشا مساء فى الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التى ألحقتها جروشنكا بكاترينا ايفانوفنا ، فاعترف بأنه وغد حقير وأمر أخاه بأن ينقل كلماته هذه الى كاترينا ايفانوفنا «اذا كان ذلك يمكن أن يخفف عنها» . ولقد شعر اثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، بأنه يحسن صنعاً «اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه فى سبيل أن يرد الى كاتيا مالها» . قال يخاطب عندئذ نفسه : «ألا فلأصبح قاتلا ولصا فى نظر ضحيتى وفى نظر جميع الناس ، ألا فلأُرسَل الى الاشغال الشاقة بسيبريا ، فى سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عنى أننى لم أخنها فحسب ، وانما سرقتها أيضا وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة فاضلة . لا أطيق أن تقول عنى كاتيا هذا الكلام !» . ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكز أسنانه ، وكان من حقه فعلا أن يخشى أن يصاب باحتقان فى دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل ، ما يزال يكافح . . .

والأمر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهدف الذى يسعى اليه لا يمكن تحقيقه وأنه لم يبق له الا أن ييأس ، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو لا يملك قرشاً ؟ ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقا من أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن

هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا فى حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمترى فيدوروفيتش ، والذين يجهلون كل شىء عن طريقة جنى الرزق وتحصيل المال . ان مشاريع خيالية عجيبة تغلى وتفور فى ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت فى عقله أبسط المعانى واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع هو أعجب ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذا وأعمقها ايغالا فى عالم الأوهام هى التى تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه فى ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمترى أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامى جروشنكا ، ليعرض عليه «مشروعا» ويحصل منه فورا على الثلاثة آلاف روبل سلفةً تحت الحساب . كان دمترى لا يخامره شك فى قيمة مشروعه من الناحية التجارية ، وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبل العجوز المشروع كله وليس جانبه التجارى فقط . وكان دمترى يعرف بأمر العجوز ، ولكنه لم يتعرف عليه ولم يكلمه يوما حتى ذلك الحين . وكان مقتنعا منذ زمن طويل ، على كل حال ، بأن هذا العجوز الفاسق الذى وضع احدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة» . كان يعتقد أيضا أن العجوز لن يرى أى ضير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة . وكان يرى ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال افلتت من جروشنكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل . ربما كان بعض قرائى يرون أن

حسابا كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدى حاميها ان صح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفتقر الى رقة الشعور والاشمئزاز . ولكننى أجيب على هذا بقولى أن ميتيا كان يرى أن ماضى جروشنكا قد دُفن الى الأبد . لقد كان ماضيها يوقظ فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها . لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثا جديدا وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هو نفسه بعثا جديدا ، فيصير رجلا مبرأً من كل اثم ، ولا يتميز الا بالفضائل : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه ، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة . أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشنكا الماضية التى انتهت الآن دورا مشئوما ولا شك ، بينما لم تحبه جروشنكا فى يوم من الأيام . وكان دمترى يرى أيضا ان كوزما — وهذا هو الأمر الأساسى — قد «انتهى» هو أيضا ، فلا يُحسب بعد الآن . أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيرا فى اللحظة الراهنة أن يرى فى هذا العجوز رجلاً ، فلقد كان معلوما فى المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقة بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام . صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه . فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا ؛ وأن جروشنكا ليس لها فى هذا العالم فى هذه

اللحظة صديق أشد اخلاصاً واكثر تنزهاً من هذا العجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى .

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق فى الحقول ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وطلب ان يبلغ العجوز عن مجيئه . المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، من طابقين ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء . ان الطابق الأول يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته الطاعنة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج . أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة . ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته . ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم ضيق التنفس الذى تشكو منه منذ زمن طويل . ان الطابق الأعلى الذى يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤثثة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد ثقيلة وثيرة وغير وثيرة من خشب الماهوجنى ، وُعلّقت فى سقوفها ثريات من الكرستال مجللة بأغطية ، ووضعت بين نوافذها مرايا قاتمة . ان هذه الحجرات خالية من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التى تقع فى آخر الطابق والتى تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائما بمنديل ، و «صبى» ينام على دكة فى الدهليز . وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان

تتيحان له أن يمشى ، فهو يكتفى بأن ينهض عن كرسيه من حين الى حين ليسير بمساعدة الخادم العجوز بضع خطوات فى الغرفة . وهو قاسى الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلا حتى مع هذه الخادم . فلما أُبلغ زيارة «النقيب» ، رفض أن يستقبله فى أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألحّ أن يراه ، فسأل العجوزُ الصبىَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة . فقال الغلام : «ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف» . فرفض العجوز مرة أخرى أن يستقبل الزائر . ولكن ميتيا كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفا بقلم وورقة . فها هو ذا يكتب على الورقة بخط واضح «أن القضية قضية مستعجلة تتصل بأجرافينا الكسندروفنا من كتب» ، ويرسل الورقة الى التاجر العجوز . فكّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبى بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز فى الوقت نفسه الى ابنه الأصغر آمراً اياه أن يصعد اليه فورا ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة . انه رجل طويل القامة عريض الجسم قوى قوة هرقلية ، حليق اللحية ، لباسه على طريقة ألمانية (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدى قفطانا وكانت له لحية) . ان جميع أفراد الأسرة يرتعدون خوفاً أمام الأب . ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هذا لا خوفاً من النقيب ، فانه لا تعوزه الشجاعة ، ولكن ليكون هناك شاهد اذا لزم ان يكون هناك شاهد . وها هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبى فيظهر أخيرا فى عتبة الصالون كتلةً مائجة . وربما كان ينبغى أن نسلّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول . ان الصالون الذى كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحة ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويهىء النفس للحزن ،

وهى مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجللة بأغطية ، لها نافذتان ومنصة فى القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلّد المرمر . كان ميتيا جالسا على كرسى قرب الباب ينتظر أن يتقرر مصيره وهو فى حالة عصبية شديدة . فلما ظهر العجوز فى الباب المقابل له على مسافة عشرين مترا ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هى خطى جندى . لقد كان حسن الهندام ، يرتدى بدلة معقودة الأزرار ، ويحمل بيديه قبعةً مدوَّرة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماما كما كان قبل ثلاثة أيام فى الدير عند الشيخ أثناء لقائه بفيدور بافلوفتش وأخويه . انتظره العجوز واقفا ، رصين المظهر وقور الهيئة ، وشعر ميتيا أنه تفرس فيه وفحصه بانتباه حين كان يتقدم منه . وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزميتش من تورم شديد منذ زمن . ان شفة كوزما السفلى ، وهى شفة سميكة ، تتدلى الآن تدليا . انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتا رصينا ، وأشار له الى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطىء مستندا الى ابنه مطلقا من صدره بعض الأنين . فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التى يبذلها العجوز ، بعذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة .

قال العجوز بعد أن استقر أخيرا على الكنبة :

— ماذا تريد منى يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطىء قاس ، مجزئا مقاطع كلماته ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة .

ارتعش ميتيا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فورا ، وبدأ شروحه متكلما بصوت عال وبسرعة كبيرة وعصبية شديدة ،

مكثرا من الحركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة اهتياج عظيم . فمن رآه أحس أنه أمام رجل طريقه مسدود يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق . ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل باردا هادئا رصينا مغلقا كأنه وجه تمثال .

«لا شك ان كوزما كوزميتش المحترم جدا قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف الذى سلبنى ميراثى من أمى المرحومة . . . ان المدينة كلها تلغط فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا أن يهتموا بما لا يعنيهم . . . ولا شك أنك علمت من جروشنكا — معذرةً ، أردت أن أقول اجرافينا الكساندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد . . .» بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه ، ولكنه لم يكمل فكرته فارتبك . على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى . لقد ذكر دمترى أنه استشار عن عمد منذ ثلاثة أشهر محاميا من البندر (استخدم ميتيا تعبير «عن عمد» وليس «عن قصد») . قال : «ذهبت الى بافل بافلوفتش كورنيبلودوف الشهير الذى لعلك تعرفه يا كوزما كوزميتش . . . هو انسان واسع المعرفة . . . له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة . . . انه يعرفك أيضا . . . وقد أثنى عليك ثناء عظيما . . .» هنا ارتبك ميتيا من جديد ولم يكمل فكرته أيضا ولكن انقطاع الأفكار لم يمنعه فى كل مرة من أن ينتقل الى فكرة جديدة بدون تدرج . عاد يقول أن كورنيبلودوف هذا ، بعد أن أصغى الى شروح ميتيا ، ونظر فى الأوراق التى وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ،

وانما هو مرَّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً) ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهى القرية التى كان- يجب أن تئول اليه حسب وصية أمه ، رأى أنه من الممكن أن ترفع الدعوى على العجوز النذل ، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز فى مأزق صعب . . . «لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التى تؤدى الى الهدف» ، أى أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى ستة أو سبعة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوى فى الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، أو ثمانية وعشرين ألف روبل «وحتى ثلاثين ألف روبل ، ثلاثين ألف روبل يا كوزما كوزمتش ، مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسى الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكننى آثرت أن لا أرفع دعوى ، لأننى لا أفهم فى شئون القضاء شيئا . . . فلما وصلتُ الى هذه المدينة وجدتُ الدعوى قد رفعت ضدى (هنا ارتبك ميتيا أيضا وأسرع يقفز الى موضوع آخر) . . . هل تقبل ، فى هذه الشروط ، يا كوزما كوزميتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقى عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لى فى مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ . . . انك لا تجازف بشىء على الاطلاق ، أؤكد لك ذلك صادقا ، وأحلف لك عليه بشرفى . . . بالعكس : لسوف تُردُّ اليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة . . . وانما المهم أن تتم هذه الصفقة كلها «اليوم» . اننى مستعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القبيل . . . أى اننى مستعد لكل شىء . . أعطيك الاوراق التى ستحتاج اليها ، واتنازل لك عن جميع الحقوق التى تريدها . . . نبرم

العقد فورا ، فى هذا الصباح ان أمكن . . . ثم تعطينى الثلاثة آلاف روبل . . . أنت الذى تعد أغنى رجل فى هذه المدينة . . . وبذلك تنقذنى وتهب لى فرصة تحقيق مشروع سام جدا نبيل جدا فى الواقع . . . فاننى أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته ؛ وما كان لى أن أجىء اليك لولا علمى بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً . واذا شئنا الدقة فى التعبير وجب أن نقول أن رجالا ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزميتش . فلنكن واقعيين يا كوزما كوزميتش ، لنكن واقعيين ! واذ انك أصبحت منذ زمن طويل لا تحُسب فى عداد المتصادمين ، فلم يبق هنالك الا خصمان يتنازعان . اننى أعبر عما بنفسى تعبيراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى لست بأديب . لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى . فاختر الآن : أتختارنى أنا أم تختار ذلك الشيطان ؟ كل شىء متوقف عليك منذ الآن . انك تملك فى يديك مصائر ثلاثة أشخاص ، فلتفصل فى الأمر . . اعذرنى اذا رأيتنى أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمنى ولا شك . اننى أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمنى ، فان لم تفهمنى فلن يبقى لى الا أن ألقى نفسى فى الماء ، هذا هو الأمر . . .»

قطع ميتيا حديثه الغريب الأخرق فجأة بعد أن نطق بجملته : «هذا هو الأمر» ، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردَّ على عرضه السخيف . لقد أحس على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شىء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى . خطر بباله فجأة «غريب ! كنت حين وصولى أحسُّ أن الفكرة رائعة ،

فاذا هى لا تسفر فى النهاية الا عن غباء» وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا فى الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح فى عينيه تعبير بارد برودة الثلج . فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة موئسة :

— متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالا من هذا النوع .

أحس ميتيا بساقيه تنثنيان ، وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يرثى لها :

— ولكن يا كوزما كوزميتش ، ما عسى أصير اليه فى مثل هذه الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟

— آسف . . .

لبث ميتيا جامدا ساكن النظرة ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئا من الانفراج فى عضلات وجه سامسونوف ، فارتعش . قال العجوز فى بطء :

— أنا يا سيدى لم أتعود تعاطى أعمال كهذه ، فاننى أكره الدعاوى وأمقت المحامين . . . ومع ذلك فى وسعى أن أدلك اذا شئت ، على شخص يمكنك أن تتجه اليه وتتكل عليه . . .

فدمدم ميتيا يقول :

— من هو ؟ آه . . . يا رب ! انك تردُّ الىَّ الحياة يا كوزما كوزميتش !

— ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هذه المدينة أيضا . انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب . يُلقب

بلياجافى . وهو يتفاوض منذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الغابة فى قريتك تلك نفسها تشرماشنيا ، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك . وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس فى قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفيا . وقد كتب الىَّ فى موضوع الغابة هذه مستنصحاً . يعتزم فيدور بافلوفتش الذهاب اليه . فاذا استبقتَ فيدور بافلوفتش وعرضت على لياجافى ما عرضته علىَّ الآن ، فمن الجائز أن . . .

فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة :

— ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة اليه ؛ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوَم على السعر ، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكا للقرية بأسرها ! هاهاها !

انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى حسبان العجوز ، فهز رأسه قليلا .

واستأنف ميتيا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور حماسةً :

— كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش ؟

فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :

— لا داعى الى الشكر .

— اوه ! انك لا تعلم . . . لقد أنقذتنى . . . قلبى هو الذى هدانى اليك . . . والآن ، الى ذلك القس !

— لا داعى الى الشكر .

— اننى ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضا ! لقد أسرفت فى ازعاجك ، بينما أنت مريض موجع . . أوه !

لن أنسى جميلك ما حييت . ان روسياً هو الذى يعدك بذلك ، رو . . سياً . . .

— طيب .

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شاكراً ممتناً ، ولكنه لاحظ وميضا خبيثا فى عينى العجوز فى تلك اللحظة ، فأمسك فورا ، وأرخى يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه : «لا بد ان يكون متعبا . . .» ، وهتف يقول بصوت مدوٍ :

— هذا من أجلها يا كوزما كوزمتش ، هذا فى سبيلها ! أنت تفهم أن كل ذلك من أجلها !

ثم حيّا العجوز بانحناء ، واستدار ، واتجه نحو الباب بخطى واسعة سريعة دون ان يلتفت بعد ذلك . كان ينبض حماسة . قال لنفسه : «ظننت ان كل شىء قد ضاع . ولكن ملاكى الحارس أنقذنى . فحين يدلنى رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه ، وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أننى ربحت القضية . . . ما ينبغى أن أضيع دقيقة واحدة . سأذهب الى هناك حالاً . ثم أعود قبل الليل . . . او بالليل . . . . . أصبح الأمر فى جيبى ! ذلك أن العجوز لا يمكن أن يكون قد سخر منى على كل حال !» . بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه الى بيته . ولم يكن يمكنه فى الواقع ان يتصور الا أحد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن رجل الأعمال المحنك الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا — يا له من اسم غريب ! — قد قدم له نصيحة لا شك فى فائدتها واما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه ! ويا للاسف ! فقد كان هذا الافتراض

الثانى هو الصحيح . لقد اعترف العجوز سامسونوف ضاحكا بعد وقوع الكارثة بزمن طويل أنه سخر من «النقيب» . ان سامسونوف انسان سىء الطوية قاسى القلب ساخر النفس ، كثيرا ما يخالط الكرة فى نفسه مرض . ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تنطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن مبذر «وسلة مثقوبة» من هذا النوع ؛ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التى جاء هذا «الولد الطائش الفاجر» يسأله المال باسمها من اجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدرى أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف امامه شاعرا بانثناء ساقيه هاتفا فى غباء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه فى تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه . وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا المتشرد أن يظهر فى منزله مرةً أخرى فى المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء ، والا . . .

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفا ، رغم أنه سبق أن رآه غاضبا مرات كثيرة . وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسةَ حنق شديد يرتعش منه جسمه كله . حتى اذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن ، فأمر أن يرسل اليه «المطبب» .

٢

لياجافى

كان على ميتيا ان يرحل الى لياجافى ولكنه لم يكن قد بقى معه مال لاستئجار خيول . ان فى جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقى له من سنى الثراء التى عاشها ! لكنه تذكر أن عنده فى البيت ساعة قديمة من فضة ، متعطلة منذ زمن طويل . فحملها الى تاجر ساعات يهودى ، له دكان فى السوق ، فاشتراها منه هذا التاجر بستة روبلات . هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا : «لم أكن آمل أن احصل على هذا المبلغ كله !» (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعا ، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التى يقيم فيها . ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم فى عسر ، وذلك لأنهم يحبونه كثيرا . وأبلغهم ميتيا ، وهو على ما هو عليه من حماسة ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، ببضع كلمات سريعة جدا ، «الخطة» التى عرضها للتو على سامسونوف والقرار الذى اتخذه سامسونوف ، والآمال التى أشرقت فى نفسه ، الخ . وكان هؤلاء الناس على علم سابق ببعض أسراره ، وهذا هو السبب فى أنهم كانوا يعدونه واحدا منهم ، فهو سيد لا يتكبر ولا يتعالى . فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول الاجرة بالذهاب الى محطة فولوفيا . ولكن هذا ألف واقعة ثابتة وهى : «فى عشية الحادثة ، قبل الظهر ، لم يكن ميتيا يملك قرشا واحدا ، حتى لقد اضطر ، من أجل الحصول

على شىء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود» .

اننى أذكر هنا هذا الظرف الذى لن تظهر خطورة شأنه الا فيما بعد . كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق الآمال متهلل النفس . كان يتنبأ فرحاً بأن «جميع هذه الشئون» ستسوّى أخيرا . ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفا فى بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنكا أثناء غيابه . هبها قررت فى ذلك اليوم نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا الافتراض انما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذى سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك . «يجب أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر» . كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به الى فولوفيا مسرعة وتهزه هزاً قوياً . وكان يحدث نفسه مستغرقاً فى أحلامه : «اما لياجافى هذا ، فسوف أعود به معى ، لابرام العقد» . ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من «خطط» وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخرا ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ، طريقا من الطرق التى تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثنى عشر فرسخا بل ثمانية عشر . ثم ان .قس ايلنسكى لم يكن فى بيته لأنه كان قد ذهب الى قرية مجاورة . فلما عثر عليه ميتيا أخيرا فى تلك القرية التى تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهوكة ، كان الليل قد أوشك أن يهبط . وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً فى أول الأمر ، ولكنه يقيم

الآن فى سوخوى بوسيولوك ، وانه سيبيت هذه الليلة فى بيت حارس الحراج لأن له أعمالا مرتبطة بشراء الغابة هناك . فتوسل اليه ميتيا أن يصحبه فورا الى لياجافى وأن «ينقذه» بذلك ، فتردد القس فى أول الأمر ، لكنه وافق أخيرا على أن يرافقه حتى سوخوى بوسيولوك ، وكان واضحا أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة . ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الاقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو «أكثر قليلا» . وكان طبيعيا أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته فى السير ، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطرا الى أن يماشيه شبه راكض . ان هذا الكاهن رجل ليس طاعنا فى السن وشديد الحذر . وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، وسأله بعض النصائح فى أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق . فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضنينا بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر فى الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : «لا أعلم ، مع الأسف . أنّى لى أن أعلم !» . ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه فى موضوع الميراث ، ذعر القس ، لأنه كان مرتبطا بفيدور بافلوفتش من بعض النواحى فيما يبدو ؛ ومع ذلك سأل ميتيا فى دهشة عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جورسكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء استياءً شديداً من مناداته بهذا الاسم [1] ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم

---

[1] لياجافى : يعنى هذا الأسم فى الروسية «كلب الصيد» ويطلق هذا الأسم فى عامة الناس على الرجل الواشى . **المراجع** .

جورسكين «والا فلن تفلح معه فى شىء ، بل ولن يسمع لك» . بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلا ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه . فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيّر الحديث . ولعله كان يحسن صنعا لو أفصح لميتيا عن الشك الذى راوده والشبهة التى خطرت بباله : لئن أرسله سامسونوف الى هذا الفلاح مطلقا عليه اسم لياجافى ، فمن الجائز جدا أن يكون قد فعل ذلك سخرا به وضحكا عليه ؛ ولا بد أن يكون فى الأمر شىء «يعرج» على كل حال . ولكن ميتيا لم يكن فى وقته متسع للتلبث على «مثل هذه السفاسف» . فهو يغذّ السير ويمشى بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التى قطعها ليست فرسخا ولا فرسخا ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوسيولوك . ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه . ودخل الرجلان الدار التى كان حارس الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثانى الذى يفصل الأول عنايةً وصيانةً والذى يفصله عن النصف الأول دهليز ، موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؛ ومضى الرجلان الى جورسكين رأسا وأشعلا شمعةً . كانت الغرفة مدَّفأةً تدفئة شديدة ، وعلى مائدة من خشب الصنوبر يُرى سماور منطفئ وصينية وفناجين وزجاجة «روم» فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا فودكا ، وكسرات خبز أبيض . أما لياجافى فكان مستلقياً على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان يشخر شخيراً ثقيلاً . نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال فى قلق :

— يجب ايقاظه طبعا ! ان القضية التى جئت من أجلها

ملحة ، وأنا فى عجلة من أمرى ، لأن علىَّ أن أرجع فى هذا اليوم نفسه .

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما . واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزا قويا ، ولكنه لم يظفر بشىء ؛ فحدث ميتيا نفسه «هو سكران ، فماذا عساى أصنع ؟ ما عساى أصير ؟ يا رب !» واذ بلغ الذروة من نفاد الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده من ساقيه ، ثم هز رأسه ، ثم أنهضه قليلاً وحاول ان يجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة غير واضحة . قال القس أخيرا :

— خير لك أن تنتظر ، فما هو فى حالة تمكنه من النهوض .

وقال الحارس :

— لقد ظل يشرب طول النهار .

فصاح ميتيا يقول :

— اه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتى اليه ، وفى أى ظرف يائس أنا ! . . .

قال القس :

— لا حيلة فى الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد .

— الى غد ؟ رحماك ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه . وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئا ؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة .

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

— ما أفظع ما يهيؤه الواقع للانسان من مآسي رهيبة !

وكانت قطرات من العرق تسيل على وجهه . وانتهز القس لحظة هدوء فأوضح بما يكفى من التعقل أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شىء ، لأنه لن يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد «وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه الى الصباح» .

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يباعد بين ذراعيه معبراً عن العجز قال :

— طيب يا أبى . سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ، فمتى استيقظ كلمته .

وأضاف يقول ملتفتا نحو الحارس :

— وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة هنا . سوف تتذكر دمترى كارامازوف .

ثم عاد يخاطب القس فسأله : — اما أنت يا أبى فلا أعرف الآن أين تنام أنت هنا ؟

فأجابه القس بقوله :

— أعود الى بيتى .

وأضاف يقول مومئاً الى الحارس :

— سآخذ فرسه . والآن نعمت مساءً . أرجو لك التوفيق كله .

وذلك ما كان . عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه من ميتيا . وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقا بعض القلق ، متسائلا ألا يحسن به أن يبلغ مُنعمه فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد ، قائلاً لنفسه :

«انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب منى فيمنع عنى خيراته .» أما الحارس فقد حكّ رأسه وعاد الى غرفته دون أن ينطق بكلمة . جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط عليه حزن عميق رهيب شمله كضباب كثيف . جلس محاولا أن يفكر ، ولكن أفكاره كانت تتهرب . ان الشمعة تذوب ببطء ، وهذا جدجد يغنى فى مكانٍ ما ، والهواء قد أصبح خانقا فى الغرفة المدفأة تدفئة زائدة . وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه ، والممر الذى يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح خلسةً فى المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب . . . فاذا هو يثب عن الدكة واقفا ! . . .

قال وهو يصرف بأسنانه :

— يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس فى وجهه . انه فلاح نحيل ما يزال شابا ، شديد استطالة الوجه ، مضفور الشعر الكستنائى ، لذقنه لحية طويلة رقيقة ، يرتدى قميصا من القطن وصديرة سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة . تأمل ميتيا وجهه ، فشعر بكره شديد لهذا الرجل ، وأحنقته ضفائره خاصةً ، لا يدرى لماذا ! وبدا له أنه أمر لا يطاق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذى جاء لأمر مستعجل هام ضحى فى سبيله بالكثير وترك من أجله الكثير ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزّق القلب هماً ، بينما هذا الكسلان «الذى يتوقف عليه مصيرى فى هذه الساعة يغط فى النوم ويشخر كأن شيئا لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر» . صاح ميتيا يقول : «آه . . . يا لسخرية القدر !» وطاش صوابه فهجم فجأة على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه .

ويغضب مسعور راح يهزه بكل ما أوتى من قوة ، وها هو ذا يصدمه ، بل ها هو ذا يضربه . ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعرا بعجز ويأس وهو يكرر قوله :

— يا للسخف ! يا للغباء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

— يا للذل أيضا ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب فى رأسه . وتساءل لحظة : «أأعدل ؟ أأرجع ؟» ولكنه أجاب يقول : «بل سأنتظر الى الصباح . سأبقى خصيصا ، خصيصا ! والا فلماذا قد جئت الى هنا ؟ ثم ما عساى أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! . . .»

وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك . وظل ساكنا جامدا دون أن يلاحظ النعاس الذى كان يستولى عليه شيئا بعد شىء ، ونام آخر الأمر جالسا . لا بد أنه نام على هذه الحال ساعتين أو أكثر ، فلما استيقظ كان يشعر بصداع فظيع لا يطاق ، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ . كان صدغاه يطنان طنينا ، وكان يحس بوجع فى القذال . فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك فى نهاية الأمر أن الغرفة المدفأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هى رائحة فحم محترق ، وأنه كاد يموت اختناقا . وكان السكران ما يزال يشخر فى نومه على الدكة . وكانت الشمعة التى انصهرت انصهارا تاما تهم أن تنطفئ . صرخ ميتيا وأسرع عبر الدهليز الى غرفة الحارس

مترنح الخطى . فسرعان ما استيقظ الحارس ، ولكن لم يبد عليه أنه انفعل كثيرا حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث ، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضبا . وصاح يقول مضطربا اضطرابا شديدا :

— لقد مات ، مات . . . فماذا بعد ؟

فُتح الباب ، وفتحت نافذة ، ورفعت سدادة فى مدخنة المدفأة . ومضى ميتيا فجاء بدلو ماء فأغطس فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبين لياجافى . فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئا هدوءًا يوشك أن يشتمل على احتقار ؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة : «هذا كاف» . ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً لميتيا سراجا حديديا مشتعلا . ظل ميتيا يعتنى قرابة نصف ساعة بالسكران الذى كان يستنشق غاز الفحم السام ، وظل يجدد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح . ولكنه جلس ليستريح لحظة قصيرة ، منهوك القوى ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً .

فلما استيقظ كان الوقت الساعة التاسعة تقريباً ، والشمس تسطع من خلال نافذتى الغرفة الصغيرتين ؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التى كان عليها سماور جديد وابريق فودكا جديد قد أفرغ اكثر من نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميتيا بوثبة واحدة ، وأدرك منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جديد ، وأن سكره سيكون فى هذه المرة عميقا لا برء منه ولا علاج له . ظل ميتيا يحدق الى الفلاح دقيقة

محملق العينين . أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتا ، بشىء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل والى كبرياء واحتقار فيما بدا لميتيا . قال له ميتيا :

— معذرة . . أعتقد . . لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك . . . انا الملازم دمترى كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه فى أمر ثمن أشجار الغابة . . .

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادئ وثقة كاملة مقطعا كلامه :

— أنت تكذب !

— كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !

فقال الفلاح رخوَ الفم :

— أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

— كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة . هلاَّ استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشدك ؟ ان الأب بافل ايلنسكى هو الذى جاء بى الى هنا . . . . ولقد كتبت أنت الى سامسونوف ، فأرسلنى سامسونوف اليك .

كذلك قال ميتيا لاهثا مختنقا . فعاد لياجافى يقول له مقطعا كلامه :

— أنت . . . تكـ . . . ذب .

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره .

— أرجوك ! ليس الأمر مزاحا . لعلك سكران قليلا . حاول أن تتكلم جاداً . . . افهمنى . . أو . . أو . . أصبحت لا أفهم !

— أنت صبَّاغ !

— أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى

كارامازوف ، وقد جئت أعرض عليك صفقة . . . صفقة رابحة . . . رابحة جدا لك . . . صفقة تتعلق بهذه الغابة نفسها . . .

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة . ثم قال :

— لا ! أنت الذى خرقت التزامك وتتصرف كنذل . أنت نذل ، نعم نذل !

قال ميتيا محتجا وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً :

— أؤكد لك أنك مخطىء !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض ماكرا ، وهو ما يزال يلاعب لحيته . ثم قال :

— أود أن تقول لى ما هو القانون الذى يجيز للناس أن يقترفوا النذالات . هل تسمعنى ؟ أنت نذل ، هل تفهم ؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفسه اظلاما شديدا . وعندئذ برقت فى ذهنه فكرة مفاجئة ، «كأن أحدا ضربه على جبينه» ، كما روى هو ذلك فيما بعد . لقد اتضح كل شىء فى فكره الآن . «كان ذلك الهاماً مباغتاً ، فأدركت كل شىء» . تساءل ميتيا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن يُساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شىء ، كيف أمكن أن يُساق الى وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة . . . «انه سكران ، سكران سكرا فظيعا ، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله . . . فعلام أنتظر مزيدا من الانتظار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد سخر منى وضحك علىَّ بارسالى الى هنا ؟ وماذا اذا هى . . . أثناء هذه المدة . . . قد . . . آه . يا رب ! ماذا صنعت بنفسى ؟ !» .

كان الفلاح ينظر اليه ضاحكا . فلو قد كان ميتيا فى ظرف غير هذا الظرف اذن لانقض على هذا الأبله خانقا فصرعه ، ولكنه كان يشعر فى تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل . فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة ، فيرتدى معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة . ولم يجد حارس الحراج فى الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه خمسين كوبيكا فوضعها على المنضدة ثمنا للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضا عن الازعاج . وخرج من العزبة ، فوجد نفسه فى قلب الغابة دون أن يكون هناك شىء يمكن أن يستهديه فى معرفة طريقه ؛ فسار على غير هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التى جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يمنةً أم يتجه يسرة وهو يخرج من منزل الحارس . انه لم يلاحظ الطريق حين كان يسير مع القس فى الليلة البارحة من شدة تعجله . وهو الآن لا يشعر بأية رغبة فى الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف . انه يسير فى ممر الغابة الضيق ، خاوى الرأس فاقد الأمل ، «بفكرة» ضائعة ، ولا يهمه أن يعرف الى أين كان ذاهبا . ان فى وسع طفل صغير أن يقلبه على الأرض فى تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعانى من ارهاق جسمى ونفسى معاً . ومع ذلك خرج أخيراً من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر . قال فى نفسه وهو ما يزال يسير قدماً دون أن يلوى على شىء : «كان اليأس والموت قد مرَّا بهذا المكان !» .

وأنقذه مسافرون . ان عربة تنقل تاجراً عجوزاً كانت تسير على الطريق الذى يصل بين قرى صغيرة . فلما بلغته العربة سأل حوذيها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا . وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب

ميتيا الى جانب المسافر العجوز . وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة الى محطة فولوفيا ، فلاحظ ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيلٍ تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت جوعاً ، فبينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً ، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا . حتى اذا استرد بذلك قواه ، شعر بتجدد شجاعته ، واستعاد صفاء نفسه . الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحوذى على مزيد من السرعة ، ويهىء فى الوقت نفسه «خطة» جديدة ، خطةً «لا تخطئ» فى هذه المرة ، من أجل الحصول على «هذا المبلغ اللعين» قبل نهاية ذلك اليوم . هتف يقول مشمئزا اشمئزازا عميقا : «كيف يمكن أن يهوى مصير انسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ . لأجدنَّها فى هذا اليوم نفسه !» . وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيدا مرحا ، لولا أن التفكير فى جروشنكا كان يحاصره . كان يفكر فيما الذى يمكن أن يحدث لها . كانت هذه الأفكار تطعنه فى كل لحظة كشفرة مسنونة . ووصلت العربة أخيرا ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأسا .

٣

مناجم الذهب

عن هذه الزيارة انما تحدثت جروشنكا الى راكيتين مذعورة . كان قد سرَّها ، وهى تنتظر «الرسالة» ، أن ميتيا

لم يظهر منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لا يجىء قبل رحيلها باذن الله . ولكنه ظهر على حين فجأة . والقارئ يعرف التتمة ، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما سامسونوف حالاً ، لاحصاء النقود ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجىء فى منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها . وقد سعد ميتيا بهذه التسوية ، قال لنفسه : «ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما ، فلن تذهب الى فيدور بافلوفتش» ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلا : «اللهم الا أن تكون كاذبة .» ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة . انه ينتمى الى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور «خيانتها» لهم أثناء غيابهم . ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى قلقا يائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته ، لا يلبث أن يسترد روحه حين يرى وجهها الضاحك الرقيق المرح ، فاذا هو يطرد كل شكوكه ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه فرحاً على قلة الثقة . بعد أن قام ميتيا بمرافقة جروشنكا الى منزل سامسونوف أسرع يعود الى بيته . ان هناك مسائل كثيرة بقى عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملا ثقيلا قد انزاح الآن عن صدره . غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه : «ينبغى لى أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعة ممكنة ، هل حدث شىء فى الليلة البارحة ، هل ذهبت جروشنكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟» . هكذا اشتعلت الغيرة فى قلبه المعذب من جديد ، قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته .

الغيرة ! «ليس عطيل غيوراً ، انه وَثوق» ، كذلك قال بوشكين . ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا العظيم . ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشئ عن انه **فقد ايمانه بمثله الأعلى** . ولكن عطيل ما كان له أبدا أن يرضى لنفسه هوان المرابطة فى مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب : انه أكثر ميلاً الى الثقة من أن يفعل ذلك . بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصور الخيانة . ولا كذلك الغيور الحق . لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأى خجل من ذلك . وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً . لا . . . رب رجل نبيل القلب نقىّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضى مع ذلك أن يختبئ تحت الموائد ، وأن يرشى أناسا قذرين ، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس والتنصت . وما كان لعطيل أبدا أن يذعن للخيانة — أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها — رغم أن له نفسا رقيقة بريئة كنفس طفل صغير . ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شىء الا ويمكن أن يذعن له الغيور وما من شىء الا ويمكن أن يغفره عند الحاجة . ان الغيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون مثلا على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة فى البداية طبعاً) ، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم ، شريطة أن يستطيعوا أن يقنعوا أنفسهم أن «هذه آخر مرة» وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد فى آخر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم الى منطقة نائية لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوما .

ثم لا تدوم المصالحة أكثر من ساعة طبعا ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلبثون أن يكتشفوا خصما جديدا منذ الغد ، فاذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه «الخيانة» الجديدة . رب متسائل يتساءل : ما هى قيمة حب يقتضى هذه الاحتياطات كلها ، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة . ألا ان هذا السؤال بعينه هو مالا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم ، مع أن منهم أناسا لهم نفوس سامية رفيعة . وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضا : ان ذوى العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون ، وهم مختبئون فى ركن من الأركان للتجسس والتنصت ، يستطيعون ان يفهموا تماما ، «لنبل قلوبهم» ، أنهم ينحدرون الى الخزى والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشىء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين فى أوكارهم على الأقل . ما ان رأى ميتيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول ، وحتى عاد وثوقا كريما سمحا خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى فى هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التى ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيرا مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية «وتثنيات جسدها» التى حدث عنها أخاه أليوشا ، ليست جوهر ذلك الحب . ولكن ما ان غابت جروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير .

استبدت به الغيرة اذن من جديد . وكان عليه أن يستعجل على كل حال . كان عليه قبل كل شىء أن يجد قليلا من المال لسدّ حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفدت كلها تقريباً فى تلك الرحلة ؛

والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئا حين لا يكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس . ولقد فكّر ميتيا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا ابطاء . انه يملك خراطيش ومسدسين رائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا أكثر من حرصه على الأشياء الأخرى . وكان قد تعرف منذ زمن طويل ، فى حانة «العاصمة الكبرى» ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال فى الحانة أيضا يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهو يشترى مسدسات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها ويعتز بها ويشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ . ذهب ميتيا الى هذا الموظف الشاب دون تفكير كثير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرضٍ قدره عشرة روبلات ، فسرَّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتيا رفض التخلى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلا انه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال . وافترق الرجلان صديقين . وأسرع ميتيا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى سمردياكوف . وهكذا أُلفت من جديد واقعة وهى انه قبل حدوث الحادث الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن فى جيبه كوبيك واحد ، فقرر أن يرهن فى سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص ، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات

يملك ألوف الروبلات . . . ولكننى أسبق بهذا تتمة القصة .

علم ميتيا فى منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطرابا شديدا وقلق قلقا عظيما . أصغى الى قصة سقوطه فى القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، وهموم فيدور بافلوفتش . وأُبلغ أيضا نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو فى مطلع الصباح ، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية . قال يحدث نفسه : «لا بد أن ايفان قد مرَّ بفولوفيا قبلى» . غير أن مرض سمردياكوف قد أحدث فى نفسه قلقا كبيرا . كان يحدث نفسه قائلاً : «فما العمل الآن ؟ من عساى أكلف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟» فأخذ يسائل المرأتين بالحاح : «ألم تلاحظا شيئا فى مساء أمس ؟» . وأدركت المرأتان فورا ما الذى يحاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئناه . قالتا له مؤكدتين : لم يجىء أحد . وقد أمضى ايفان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، و «جرى كل شىء على ما يجب» . وجم ميتيا مفكرا . لا بد من حراسة فى هذه الليلة أيضا . الأمر واضح . ولكن أين يرابط ؟ أيرابط هنا فى الحديقة ، أم يرابط أمام منزل سامسونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهما ، وفقا لما توجبه الظروف ، أما الآن . . . كل ما فى الأمر انه كان عليه أن ينفذ «الخطة» الجديدة ، الأكيدة فى هذه المرة ، التى رسمها فى العربة . ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله . فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن وقال يحدث نفسه : «بعد ساعة واحدة أكون قد علمت كل شىء وسوَّيت كل شىء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فورا لأبقى حتى الساعة

الحادية عشرة ، وبعد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها» . هذا ما قرر ميتيا أن ينفذه .

وأسرع الى بيته فاغتسل ومشط شعره ونظف ثيابه بالفرشاة ، وارتدى ملابسه وذهب الى السيدة خوخلاكوفا . فهناك كانت «خطته» ، واحزناه ! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة . حتى لقد راوده على حين فجأة يقينٌ عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ . رب متسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هذه المرأة التى تنتمى الى بيئته على الأقل ، ولماذا آثر أن يتجه الى سامسونوف الذى يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأى لغة يخاطبه ؟ يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التى كان لا يعرفها كثيرا على كل حال . وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية فى الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترينا ايفانوفنا . لقد كانت تتمنى أن تقطع كاترينا ايفانوفنا صلتها به لتتزوج ايفان فيدوروفتش «الشاب المثقف ، اللطيف ، الذى يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية» ، على حين أن آداب ميتيا بدت لها كريهة مقيتة . ثم ان ميتيا قد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها ذات مرة «انها كثيرة الحركة والكلام بمقدار ما هى قليلة الثقافة» . ولكن فكرة قد ومضت فى ذهنه وميض البرق ، فى الصباح ، فقال لنفسه : «ما دامت تكره أن أتزوج كاترينا ايفانوفنا وما دام هذا الزواج يثير حنقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة خوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضى هذه الثلاثة آلاف

روبل التى ستتيح لى أن افصم علاقتى بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد» . وكان ميتيا يقول لنفسه أيضا : «ان نساء المجتمع المدللات لا يبخلن بشىء فى سبيل نزواتهن . عدا ذلك فهى غنية جداً» . ان «الخطة» التى وضعها لاقتراض هذا المبلغ من السيدة خوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه فى قرية تشرماشنيا ، ولكنه لا ينوى فى هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل ؛ وانما يكون التنازل عن الحقوق ، فى هذه الخطة الجديدة ، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذى سيُتفق عليه . وكان كلما ازداد تفكيرا فى هذا المشروع ازداد حماسةً له ، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قرارا جديدا . انه يتحمس فى البداية لكل مشروع جديد من مشاريعه . ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل خوخلاكوف ، بقشعريرة فى ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد : لقد أدرك فى تلك اللحظة ، بيقين رياضى ، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها . فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك ، «اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا مخرج لى . . .» . كذلك قال ميتيا لنفسه . وكانت الساعة هى السابعة والنصف حين شدَّ الجرس .

بدا كل شىء يجرى على ما يحب ويشتهى فى أول الأمر : فما ان أُبلغت السيدة خوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بادخاله . فدُهش ميتيا من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : «لكأنها كانت

تنتظرنى» . وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره . . .

— كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شيء كان يسمح لى بأن أتنبأ بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة . ومع هذا كنت أنتظرك . فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى .

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

— حقاً ان هذا يثير الدهشة . . . ولكننى جئت من أجل قضية خطيرة ، خطيرة خطورة رهيبة . . . بالنسبة الىَّ . . . طبعا . . يا سيدتى . . . بالنسبة الىَّ وحدى . . . لذلك أسارع ف . . .

— أعرف أن السبب الذى دفعك الى المجيء سبب خطير يا دمترى فيدوروفتش . وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات وذلك الايمان الرجعى بالمعجزات (هل علمت بما جرى للشيخ زوسيما ؟) . . . وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجيء الىَّ حتما بعد كل ما جرى مع كاترينا ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن لا تجيء . هذه رياضيات . . .

— أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى . هذه حياة . . . اسمحى لى أن أبسط لك . . .

— الواقعية . . . قلتها يا دمترى فيدوروفتش ! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم ! . . . لقد تلقيت درسا قاسيا فيما يخص المعجزات . أنت لا تجهل طبعا أن الشيخ زوسيما قد مات ؟

قال ميتيا بشيء من الدهشة :

— لم أكن أعلم شيئا عن ذلك .

وطافت بخياله صورة أليوشا . قالت السيدة خوخلاكوفا :

— مات هذه الليلة . . . تصور أن . . .

قاطعها ميتيا قائلاً :

— سيدتى ، أنا لا أعرف الا شيئا واحدا : هو أننى فى وضع عصيب للغاية وأن كل شيء سينهار اذا أنت لم تساعدينى ، وسأكون أنا أول من ينهار . اغفرى لى خشونة لغتى ، ولكننى فى قلق محموم ؛ ان بى حمى حقا . .

— أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة على كل شيء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هى اليوم . كل ما قد تقوله لى الآن ، أنا أعرفه سلفاً . اننى أفكر فى مصيرك منذ زمن طويل يا دمترى فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها . . هه ! انا طبيبة نفوس ، خبيرةٌ جدا . . . صدقنى يا دمترى فيدوروفتش !

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهدا من أجل أن يبدو لطيفا محببا :

— سيدتى ، لا شك عندى فى أنك طبيبة خبيرة . ولكننى أنا أيضا مريض خبير . اننى مقتنع اقتناعا قويا بأنك ستساعدينى فى انقاء هلاك كبير ، ما دمت قد اهتممت بمصيرى ذلك الاهتمام كله . فاسمحى لى لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطة التى تجرأت أن أجيء بها اليك . . وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها اننى آمل منك . . . لقد جئت يا سيدتى من أجل أن . . .

— لا تشرح . . . هذا أمر ثانوى ! لن تكون أول شخص أساعده يا دمترى فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمى يلمسوفا . كان زوجها الذى تدمرت حالته المالية قد انهار انهيارا على حد التعبير الصادق الذى استعملته أنت منذ هنيهة .

فنصحتها بتعاطى تربية الخيول ، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهارا عظيما . هل تفهم فى شئون تربية الخيول يا دمترى فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصاب ، حتى لقد همَّ أن ينهض :

— لا يا سيدتى ، أبدا . . . لا أفهم فى هذا المجال شيئا ! أتوسل اليك يا سيدتى أن تصغى الىَّ لحظة . دعينى أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعى . ثم اننى لا أملك الا وقتا قصيرا جدا ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هسترى ، اذ حزر أنها ستقاطعه ، وأمَّل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته) . لقد جئت اليك لأننى قد بلغت ذروة اليأس ، وأردت أن أرجوك أن تسلفينى ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتى ، بشروط موثوقة تماما . وهأنذا أشرح لك الموضوع . . .

قالت السيدة خوخلاكوفا وهى تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التى همَّ بها ميتيا :

— تشرح فيما بعد ، فيما بعد . . . ستقول لى هذا كله فيما بعد . ثم اننى أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لى ، سبق أن قلت لك هذا . أنت فى حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكننى سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيرا ، لأننى أريد أن أنقذك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أطالبك فى مقابل ذلك بأن تطيعنى .

وثب ميتيا من مقعده من جديد ، قائلا بانفعال شديد :

— آه ! سيدتى ! هل يمكن أن تكونى طيبة الى هذا الحد ؟ ! آه ! لقد أنقذتنى ! يا رب ! لقد انتزعت انسانا

من ميتة عنيفة يا سيدتى ، من ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس . . . لسوف أظل شاكراً لك الى الأبد . . .

عادت السيدة خوخلاكوفا تقول ، وهى تنظر بابتسامة مشرقة الى وجه ميتيا المتحمس :

— لأعطينك أكثر كثيرا من ثلاثة آلاف روبل !

— أكثر كثيرا ؟ لست فى حاجة الى كل هذا . ليس بى حاجة الا الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتى أن أعطيك ضمانة لهذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له . ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو . . .

فقاطعته السيدة خوخلاكوفا التى كان وجهها يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

— كفى ! أنا أنفذ ما أقول . لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل . سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوف . ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمترى فيدوروفتش ؟

— مناجم الذهب يا سيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوما حتى الآن . . .

— أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك ! لقد وزنت جميع جوانب المسألة . اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض . ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : «هذا رجل نشيط فعَّال يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب» ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشيتك ، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة .

لم يملك ميتيا الا أن يسأل السيدة خوخلاكوفا مبتسماً :

— استنتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة خوخلاكوفا :

— نعم ، من مشيتك أيضا . هل تستطيع أن تنكر يا دمترى فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا . آه . . . ما أكثر ما أصبحت واقعية الآن ! فمنذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزا قويا ، أصبحت لا أؤمن الا بالواقعية ، وأصبحت أريد أن أقف حياتى على نشاط عملى . لقد شفيت . «كفى !» ، كما قال تورجينف .

— ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التى تفضلت فوعدتنى بها كريمة سخية . . .

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة :

— ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها فى جيبك منذ الآن . لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمترى فيدوروفتش ! اليك المشروع الذى ستنفذه : تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيما وتصبح من أصحاب الملايين ؛ ثم تعود الينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل ، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس ، وتقودنا نحو الخير . أمعقول أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود ؟ ستبنى عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات . . . اننا نعيش فى عصر السكك الحديدية يا دمترى فيدوروفتش . وستعلم وزارة الخزانة ، التى تتخبط فى مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك وتعتمد عليك . ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمنى من النوم ! ذلك جانب من طبيعتى لا يعرفه الناس كثيرا . . .

قاطعها ميتيا قائلا وهو يوجس قلقاً شديداً :

— سيدتى ! سيدتى ! من الممكن جداً أن أتبع

نصيحتك ، وهى نصيحة سديدة جدا فى الواقع . . . سأذهب الى مناجم الذهب هذه . . . وسأعود مرة أخرى لنتحدث فى أمرها . . . بل سنتحدث عنها مرارا كثيرة . . . أما الآن . . . فلنتكلم فى تلك الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فـ . . . آه ! ان هذا المبلغ سيخرجنى من جميع المصاعب ! ليتنى أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم . . . ذلك أننى ، كما ترين ، لا أملك وقتا . . . . حتى ولا ساعة . . .

قاطعته السيدة خوخلاكوفا تسأله بلهجة قاطعة :

— كفى ، كفى ! أجبنى : أتذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل عزمت أمرك ؟ أريد جوابا واضحا دقيقا !

— سأذهب يا سيدتى فيما بعد . سأذهب الى حيث تريدين يا سيدتى ! أما الآن . . .

صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— انتظر !

وثبت واقفة وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكثيرة ، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شىء ما .

قال ميتيا محدثا نفسه وقد كاد ينشق قلبه : «الثلاثة آلاف ! فوراً وبدون ضمانة ، بدون وصل . . . ما أنبلها ! آه ! انها امرأة رائعة ! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة . . .» .

وهتفت السيدة خوخلاكوفا تقول بحماسة عائدة اليه :

— هاك . . . هاك ما كنت أبحث عنه .

هو أيقونة صغيرة جدا من فضة ، ذات حبل ، كالأيقونات التى تحمل أحيانا تحت القميص مع الصليب .

وشرحت السيدة خوخلاكوفا قائلة فى اجلال :

— هذه الأيقونة من كييف . لقد لمست هذه الصورة

رفات القديسة فارفارا ، الشهيدة العظيمة . فاسمح لى أن أعلقها لك بنفسى ، لتباركك فى حياتك الجديدة ، ومشاريعك المقبلة .

قالت له ذلك ، ووضعت الأيقونة حول عنقه ، وجهدت أن تدسها تحت قميصه . أحنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيراً فى أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة خوخلاكوفا وهى تجلس على مقعدها فى مهابة :

— والآن هلّم الى مناجم الذهب .

قال ميتيا .

— سيدتى ! أنا متأثر جدا . . . لا أدرى كيف أشكر لك هذه العواطف الكريمة . . . ولكن ليتك تعلمين مـــدى استعجالى ! . . . ان ذلك المبلغ الذى أنتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل . . . آه . . . يا سيدتى . . . ما أطيبك ، ما أعظم عطفك علىّ ! (بهذا هتف ميتيا على حين فجأة فى حماسة) . . . اسمحى لى أن أعترف لك . . بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال . . . اننى أحب امرأة فى هذه المدينة . . . لقد خنت كاتيا . . . أقصد كاترينا ايفانوفنـــا . وا أسفاه ! كان سلوكى معها خاليا من الانسانية والشرف . . . تولهت هنا بامرأة أخرى . . . امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر . . . ولكن يستحيل علىّ أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هذه الثلاثة آلاف روبل . . .

قاطعته السيدة خوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

— دعك من كل شىء يا دمترى فيدوروفتش . دع النساء خاصةً ! مناجم الذهب ، ذلك هو هدفك بعد اليوم ، ولا

شأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً مجللاً بالمجد ، تختار حليلةً من بنات أرقى مجتمع : فتاةً عصرية ، مثقفة ، متحررة من الاراء المتخلفة . وفى ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التى يتحدث الناس عنها كثيراً فى هذه الأيام ، ستكون قد حُلّت ، وستظهر فى روسيا امرأة جديدة . . .

قال ميتيا وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى فى هيئة المتوسل :

— ولكن يا سيدتى ليس هذا ، ليس هذا ما . . .

— بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شىء سواه ! هذا هو ما تسعى اليه دون أن تعرف أنت نفسك ذلك . اننى مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة . ان نهضة المرأة ، وحتى وصولها الى الحياة السياسية فى المستقبل القريب ، هو مثلى الأعلى . ان لى ابنةً يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفوننى كثيرا فى هذا المجال . لقد كتبت فى هذا الى شيدرين . ان هذا الكاتب قد كشف لى أمورا كثيرة ، كثيرة جدا ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه فى العام الماضى كتابا لم أذكر فيه اسمى ، كتابا من سطرين : «أعانقك وأقبلك يا كاتبى تقديراً لرأيك فى المرأة العصرية . استمر !» وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : «أم» . خطر ببالى أن أوقّع : «أم عصرية» ، ولكننى اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالا اخلاقيا أعظم يا دمترى فيدوروفتش ؛ هذا عدا أن كلمة «عصرية» كان يمكن أن تذكره بمجلته «المعاصر» ، وأن توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن . . . ولكن ماذا بك ؟ يا رب !

كان ميتيا قد وثب عن مقعده . وها هو ذا يضم يديه

احداهما الى الأخرى أمامها صائحا بضراعة عاجزة :

— سيدتى ! لسوف تبكيننى اذا تأخرت مزيدا من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتنى به . . .

— ابك يا دمترى فيدوروفتش ، ابك ! ان هذه العواطف تشرفك . . . ما يزال طريقك طويلاً ! ستحسن الدموع اليك . سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً . ستجيئنى من أعماق سيبريا خصيصا لأشاركك فرحتك . . .

أعول ميتيا فجأة :

— اسمحى لى أخيراً أن أقول كلمة . أرجوك مرةً أخيرة أن تجيبينى : هل يمكننى أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم تأمرين أن أجيء لأخذه ؟

— عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

— عن الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فوعدتنى بها . . . منذ قليل . . .

— ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه . . . لا . . . أنا لا أملك هذا المبلغ .

كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا بدهشة هادئة . صعق ميتيا . وقال :

— كيف هذا ؟ حتى لقد قلت منذ هنيهة قصيرة أننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجودا فى جيبى .

— آه . . لا . . . لا شك أنك أسأت فهمى يا دمترى فيدوروفتش . انك لم تفهمنى اذا قصدت هذا . لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب . صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هذا الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب .

صاح ميتيا يقول بغباء :

— والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

— اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك اننى لا أملك مالاً . اننى الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش . حتى اننى فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام . لا ، لا ، لا أملك شيئا من المال ، واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش أننى لو كنت أملك مالاً لما أسلفتك أيضا ، أولاً لأننى لا أقرض أحداً قط ، فالدين خصام دائما ؛ واذا اقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شيء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

— آ . . . . يا للشيطان !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة .

— آى . . . . آى . . . .

كذلك صاحت السيدة خوخلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخر الصالون .

بصق ميتيا من فرط حنقه . وبخطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم . انه يسير الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه مساء فى الطريق المظلم . لماذا يلطم صدره هذا اللطم **على هذا الموضع نفسه** ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟ ذلك سر

لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم ان هذا السر ينطوى على ما هو أكبر من العار بالنسبة له ، ينطوى على هلاكه وانتحاره ، وذلك ما سيحدث حتما اذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترينا ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، «**عن هذا الموضع بعينه من صدره**» ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق . ان هذا كله سيتضح مزيدا من الاتضاح للقارئ فيما بعد . والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتعد بضع خطوات عن منزل خوخلاكوفا حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجا كطفل صغير . وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتى يديه دون أن يلاحظ ذلك . وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها .

— يارب ! كاد يقتلنى ! هلاَّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام :

— كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمةَ كوزما سامسونوف الطاعنة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة .

سألته العجوز بصوت أصبح لطيفا على حين فجأة :

— ومن أنت يا بنى ؟ لا أستطيع أن أميزك فى هذا الظلام . . .

— أنت فى خدمة كوزما كوزميتش ، أليس كذلك ؟

— هذا صحيح يا بنى ، وأنا عائدة الآن من بروخورتش . . .

ولكن لماذا لا أستطيع أن أعرفك ؟

قال ميتيا فى اضطراب شديد :

— قولى لى يا أماه : هل اجرافينا ألكسندروفنا عندكم الآن ؟ لقد أوصلتها الى منزلكم منذ قليل .

— لقد جاءت يا بنى فمكثت لحظة ثم انصرفت .

فصرخ ميتيا :

— انصرفت ؟ كيف هذا ؟ متى ذهبت ؟

— لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصَّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت .

زأر ميتيا يقول :

— أنت تكذبين ايتها العجوز اللعينة .

فصاحت المرأة تقول مذعورة :

— آى . . . آى . . .

ولكن ميتيا كان قد غاب . أسرع يركض نحو منزل آل موروزوف . كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ساعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى المطبخ مع جدتها ماتريونا الطباخة ، حين ظهر «التقيب» فجأة فى المنزل . فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع .

أعول ميتيا يسألها :

— ها . . . تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى صعقها الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

— فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟

— لا أدرى يا سيدى ، لست على علم بشىء ايها العزيز دمترى فيدوروفتش . ولو قتلتنى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا . ثم انك قد خرجت معها منذ قليل . . .

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها .

قال ميتيا :

— ولكنها عادت .

— لا ، لا ، يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ، لم تعد ، أحلف لك بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

— تكذبين ! وانى لأحزر من ذعرك وحده الى ايـن ذهبت .

وخرج من المنزل راكضا . فما كان أسعد فينيا المذعورة بأنها تخلصت منه بمثل هذه السهولة . فلقد أدركت حق الادراك أنه كان سيسومها سوء العذاب ، لولا استعجاله الشديد . على أنه قد فاجأ فينيا وماتريونا العجوز ، حين انصرافه ، بحركة لم تكن فى الحسبان : كان هناك على المائدة هاون نحاسى وفيه مدق نحاسى ، ليس كبيرا . فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسّه فى جيب سترته .

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

— رباه ! سيقتل أحدا .

٤

فى الظلام

الى أين كان يركض ؟ ذلك سؤال يُحزر جوابه : «أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف . الحيلة واضحة ، والكذب مفضوح !» . كانت هذه الأفكار تغلى فى رأس ميتيا . وتحاشى أن يمر بفناء ماريا كوندراتيفنا . قال لنفسه : «يجب أن لا تراني بحال من الاحوال . . . يجب لا أنبهها . . . والا أبلغت فوراً أننى هنا . . . لسوف تخوننى حتماً . لا شك فى أنها متواطئة معهم . وكذلك سمردياكوف . لقد اشتُروا جميعا !» . لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرَّ بالشارع الصغير متحاشيا منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع دمتريفسكايا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال غير مأهول يقع خلف المنزل . ان هذا المكان يحدّه سياج بستان مجاور من جهة ، ويحده من الجهة الأخرى السور العالى المتين الذى يحيط بحديقة فيدور بافلوفتش . واختار ميتيا لتخطى ذلك السور الموضع الذى يُروى أن اليزافيتا سمردياشايا قد تخطت السور منه فى الماضى . قال ميتيا لنفسه لا يدرى الا الله لماذا : «اذا استطاعت تلك أن تتخطاه فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟» . واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية ، فاذا هو يصبح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان . ان حمامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان ، ومنه تُرى نوافذ الدار المضاءة .

قال ميتيا يحدث نفسه : «صحيح ظنى . . . ان فى غرفة نوم العجوز نوراً . معنى هذا أنها عنده !» . ووثب بعد ذلك الى الحديقة . ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضا ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لطا متجمعا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه . ان صمتا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله . لا نأمة ، ولا نسمة . . . هدوء مطلق ، كأنما عن قصد وعمد .

«الصمت وحده يهمهم» . خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا . وقال يحدث نفسه : «آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت ! ولكن يظهر أننى لم أسمع» . وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة ، سائرا على العشب حتى يخنق كل ضجة . كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئا ، ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيخ بسمعه الى كل خطوة يخطوها . فلم يصل الى النافذة المضاءة الا بعد خمس دقائق . وتذكر أن تحت النوافذ أشجار ببلسان ورباط كثيفة تمتد أغصانها الى علو كاف . وكان الباب الذى يفضى من الحديقة الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقا ، فانتبه ميتيا الى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره . ووصل أخيرا الى الشجيرات فاختبأ وراءها حابسا أنفاسه . قال لنفسه : «يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتى ، فأخذوا يصيخون بأسماعهم . . . فليطمأنوا . . . أرجو أن لا أسعل أو أعطس . . .» .

وانتظر دقيقتين ، خافق القلب خفقانا شديدا ، حتى

لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه . ثم قال لنفسه : «ان دقات قلبى لن تهدأ ، فلا يمكننى أن أنتظر مزيدا من الانتظار» . كان ميتيا مختبئا فى ظل مجموعة الأشجار التى ينير الضوء الآتى من النافذة جانبها الأمامى . ورأى نفسه يدمدم قائلا دون أن يعرف لماذا : «ما أشد الاحمرار فى أثمار أشجار الرباط هذه !» . ثم أخذ يدنو من النافذة بخطى بطيئة لم يُسمع صوتها ، حتى اذا بلغها انتصب واقفا على رؤوس الأصابع . بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها . انها غرفة صغيرة ، تنقسم قسمين بحاجز أحمر ، كان فيدور بافلوفتش يسميه «الصينى» . قال ميتيا لنفسه : «الحاجز الصينى . . لا شك أن جروشنكا تختبىء وراءه» . وأخذ ميتيا ينعم النظر فى أبيه . كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضا ينتهى بعقد ؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب ؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذى سبق أن رآه أليوشا . قال ميتيا لنفسه : «لقد تجمل وتزين» . وكان أبوه واقفا قرب النافذة واجماً شارد اللب . وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخا بسمعه كأنما لينصت ؛ فلما لم يسمع شيئا اقترب من المائدة فصبَّ نصف قدح من الكونياك وأفرغه فى جوفه ، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه . وفكّر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى الضماد الأحمر الذى يخفى جبينه ، وأخذ ينعم النظر فى الندبات والبقع الزرق التى لم تختف بعد . قال ميتيا لنفسه : «أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد» . وفى تلك اللحظة

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة ، والتفت فجأة نحو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخارج . فما كان من ميتيا الا أن ارتمى فى الظلام بوثبة واحدة .

وقال ميتيا لنفسه : «من الجائز أيضا أن تكون مختبئة وراء الحاجز ، وربما كانت نائمة» . فما ان تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ فى قلبه . وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة . «لا شك انه يترقبها هى اذ ينظر من النافذة الى الخارج . فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً» . وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه . كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس . ووضع كوعيه أخيرا على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى . فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم .

وقال يكرر لنفسه من جديد : «وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجها آخر» . ويا للغرابة : لقد أحسّ ميتيا فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك ، بنوع من خيبة الأمل عجيب لا يُفهم ، فقال يشرح لنفسه : «ان هذا الشعور لا يرجع الى أنها ليست هنا ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه» . وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره فى تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء ، فلا تفوته شاردة ولا واردة ، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف . ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئا بعد شىء ، لأنه ليس من أمره على يقين . تساءل : «أهى هنا أم لا ؟» . واشتعل حنقه . وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد

ذراعه ، وينقر على اطار النافذة نقرات الاشارة التى اتفق العجوز عليها مع سمردياكوف وهى : نقرتان متباعدتان ، فثلاث نقرات متقاربة ، دلالةً على أن «جروشنكا قد وصلت» . فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة . فارتمى ميتيا فى الظلام . فتح فيدور بافلوفتش النافذة وأطل منها برأسه . وهمس يسأل بصوت مرتجف :

— أهذا أنت يا جروشنكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا روحى ، يا ملاكى ؟ أين أنت ؟

وكان يختنق من فرط الانفعال .

قال ميتيا لنفسه : «انه وحيد» .

واستأنف العجوز يسأل :

— أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظرا الى جميع الجهات . وها هو ذا يضيف قوله :

— تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة . تعالى فأريك المفاجأة .

قال ميتيا فى سره : «هى الظرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل» .

— ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب . . .

وكاد يبرز بكل جسمه من النافذة ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين . ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى اذن لأسرع الى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب جروشنكا . كان ميتيا يرقبه من جانب

بغير حركة . فكان وجهه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقه الرخوة ، وكان أنفه المعقوف ، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظار شبق ، كان ذلك كله يبرز فى ضوء ساطع يسقط عليه مواربا من المصباح الموجود فى الجهة اليسرى من الغرفة . فاذا بكره عنيف فظيع يغلى فى قلب ميتيا فجأة ، فيقول فى نفسه : «هذا هو ، هذا هو غريمى ، هذا هو جلادى ، هذا هو عدو حياتى !» . انها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامئ الى الانتقام ، الذى تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما فى الجناح قبل أربعة أيام جوابا على سؤال أليوشا له : «كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك ؟» . لقد أجابه يومئذ قائلا :

«لا أدرى ، أصبحت لا أدرى . قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل . أخشى أن يصبح فى نظرى كريها على حين فجأة **بوجهه المقيت فى تلك اللحظة** . اننى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينيه ، وضحكته الصغيرة المستهترة . انه يثير فىَّ تقززا جسميا . ذلك هو ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسى» .

وأصبح التقزز الجسمى الذى يحس به ميتيا لا حدود له . فاذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبه مِدقّ الهاون على حين فجأة . . .

. . . . . .

سوف يقول فيما بعد «ان الله كان ساهرا عليه فى تلك الدقيقة» . ففى تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش فى سريره الذى كان قد اضطجع عليه مريضا . كان قد لجأ

فى المساء الى استعمال الدواء الذى ذكره سمردياكوف فى حديثه مع ايفان فيدوروفتش ، أى دَلك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الفودكا ومغلىّ أعشاب قوى ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً بصوت خافت . ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضا ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوما عميقا على الفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده . أما جريجورى فقد استيقظ من نومه فى وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحقوية . فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع يرتدى ثيابه . من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه «فى فترة خطرة الى هذا الحد» . وكان سمردياكوف الذى صرعته النوبة ، راقدا بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة . ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى فاسيلفتش لنفسه وهو يلقى نظرةً عليها : «قد أضعفها الدواء» ثم خرج الى درجات الباب وهو يئن . كان لا يستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج ، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الحقوة والساق اليمنى . ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة فى المساء . ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين . وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم ، ويتجه الى الحديقة . وكان باب الحديقة مفتوحاً حقاً . ودلف الى الحديقة بصورة آلية . أتراه لاحظ شيئا يثير الانتباه أو سمع صوتا

لا يُتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة في غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؛ فتساءل : «كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا في فصل الصيف ؟» ، ولمح في تلك اللحظة نفسها شيئا غير عادى يمرق قدامه . كان هذا ظلا يتحرك في الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه . كان هناك رجل يهرب في الظلام . قال جريجورى : «رباه !» ، ثم نسى فجأة ألمه ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلك أقصر طريق ، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذى يطارده . لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط . وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره ، فوصل الى السور في اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ، ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه .

لم يخطئه حدسه ؛ عرف الرجل : انه ذلك «الشيطان الرجيم قاتل أبيه» .

زأر العجوز يقول :

— يا قاتل أبيه !

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فها هو ذا يهوى على الأرض مجندلاً . قفز ميتيا الى الحديقة من جديد ومال على العجوز الذى جندله . وكان ميتيا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلا . سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل في الممر ، أى في أبرز موضع يُرى . ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامى رأسه ، ومدَّ يده يجس الرأس .

لقد تذكر ميتيا فيما بعد ، تذكرا واضحا ، أنه شعر في تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى «التأكد تأكدا كاملا» : هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمى عليه بسبب الضربة التى أصابت يافوخه . ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة . وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلا أبيض نظيفا كان قد تزود به حين ذهب الى خوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولا بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه . فسرعان ما ابتل المنديل بالدم . فتساءل ميتيا فجأة وقد ثاب الى رشده : «رباه ! لماذا أفعل ذلك ؟ وكيف يمكننى أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا ؟» ثم اضاف يقول يائسا : «وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع فقد وقع . . . فقد نال العجوز ما يستحق !» بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ ، ثم اندفع نحو السور ، فتسلقه ، وقفز الى الشارع الضيق ، وانصرف راكضا . وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم ، فدسّه في جيب سترته الخلفى دون أن يهدئ سرعة ركضه . كان يعدو عدوا شديدا يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولسوف يتذكر عدة مارة صادفوه في الشوارع أنهم رأوا في تلك الليلة رجلا يهرب في الظلام طائش العقل . اتجه ميتيا من جديد الى منزل آل موروزوف . كانت فينيا قد أسرعت ، بعد انصرافه ، الى البواب نازار ايفانوفتش فتوسلت اليه «باسم يسوع المسيح أن لا يدع للنقيب أن يدخل المنزل مرة أخرى ، لا في هذا المساء ولا في الغد» ، فوعدها البواب بأن يلبى رجاءها ، ولكن مالكة المنزل قد استدعته اليها لسوء الحظ في هذه اللحظة في الطابق الأعلى ، فعهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه

الذى التقى به فى طريقه الى السيدة ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخرا ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن النقيب ، فلما وصل دمترى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه ، لأن ميتيا كان قد أعطاه «بقاشيش» مرات كثيرة ، وتركه يدخل ، حتى لقد أسرع يبلغه ، وهو يبتسم ابتسامة تودد ، أن «اجرافينا ألكسندروفنا ليست فى بيتها» . فسأله ميتيا وهو يتوقف :

— فأين هى يا بروخور ؟

— سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموثى قيادة الخيل .

صاح ميتيا يسأله :

— لماذا ذهبت الى هناك ؟

— لا أدرى . ضابط استدعاها وأرسل اليها عربةً تقلها .

كان ميتيا قد تركه وركض كالمجنون الى فينيا .

٥

قرار مفاجئ

كانت فينيا فى المطبخ مع جدتها ، وكانت المرأتان تستعدان للنوم . وقد اعتمدتا على يقظة نازار ايفانوفتش ، فأهملتا مرة أخرى اقفال الباب بالمفتاح . اقتحم ميتيا الغرفة ، وارتمى على فينيا ، فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجا عن طوره :

— قولى لى حالاً ، مع من هى فى موكرويه الآن ؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة . وصاحت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب :

— سأقول كل شىء يا دمترى فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن أخفى شيئا . لقد ذهبت الى لقاء ضابطها فى موكرويه .

صرخ ميتيا يسألها :

— أى ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

— الضابط الذى عرفته فى الماضى ، منذ خمس سنين . . . الضابط الذى تركها وسافر .

اعتق ميتيا عنق فينيا . ولبث أمامها لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت ، وعبَّرت نظرته عن أنه أدرك الحقيقة فوراً ، وأنه فهم كل تفاصيل الأمر وحزر كل شىء دفعة واحدة . ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها فى تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها . لقد ظلت جالسةً على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبثت ترتعش جامدةً على ذلك الوضع نفسه مادَّةً ذراعيها كأنما لتحمى نفسها . وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان الى ميتيا الذى كانت يداه حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أثناء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العرق الذى كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم ترى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى . وأوشكت فينيا أن تصاب بنوبة عصبية . وكانت العجوز الطباخة التى وثبت عن مكانها تنظر كمن غاب عن صوابه ، نصف مجنونة من شدة الهلع . وقف ميتيا دقيقة ثم تهالك بحركة آلية على كرسى قرب فينيا .

كان ميتيا لا يفكر . انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا

مذهولا . كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط .
وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشنكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها . فخلال شهر اذن ، خلال شهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر . كيف أمكنه أن لا يفكر فى هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن عرف بوجوده ؟ كان هذا السؤال يبعث فى نفسه خوفا ورعبا كأنه رأى أمامه شيئا فظيعا يجعله يشعر بقشعريرة فى ظهره .

وها هو ذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة وكياسة ، كطفل طيب لطيف ، كأنه نسى تماما أنه داهمها وقسا عليها منذ لحظات . أخذ يلقى عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل فى مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال باستعداد عظيم وسرعة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحول بصرها المذعور عن يديه الداميتين ، حتى لقد بدا عليها أنها استعجلت لتكشف له عن «الحقيقة كلها» . ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة فى أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد ايلامه ، بل عن رغبة صادقة منها فى أن تكون نافعة له . قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشنكا ، وردَّدت على مسامعه التحيات التى حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها اليه ، بغية «أن يتذكر على مدى حياته الساعة التى أحبته فيها» . فلما وصلت فينيا الى هذه التحيات ابتسم ميتيا على حين فجأة ، واحمر خداه الشاحبان . فسألته فينيا فوراً

وهى لا تحس بأى خوف من اظهار حب استطلاعها :

ـ لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا آلياً :

ـ نعم . . . صحيح .

وألقى على يديه نظرة ذاهلة . ولكنه سرعان ما نسى السؤال الذى أُلقى عليه ، وغرق فى الصمت . لقد انقضى قرابة عشرين دقيقة على وجوده هنا . ان الرعب الذى اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدا على ميتيا أن قرارا حازما لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلَّ محل ذلك الرعب .

وها هو ذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة شارد الفكر .

سألته فينيا وهى تشير الى يديه :

ـ ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة ، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها .

نظر ميتيا مرة أخرى الى يديه . ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

ـ هو دمٌ يا فينيا . . . دم انسانى . . . اللّه وحده يعرف لماذا سُفح هذا الدم . . . ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظة نظرة من يلقى عليها «فزورة») ، سور رهيب المنظر . . . وغداً ، عند الفجر ، حين «تبدأ الشمس مسيرتها» ، سيقفز ميتيا ذلك السور . . . انك لا تفهمين يا فينيا أى سور أعنى . . . لا ضير . . . ستعرفين ذلك غداً ، وستفهمين عندئذ كل شيء . . . . أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبةً فى طريق سعادتها ، سأعرف كيف

أمّحي . . . عيشى واسعدى يا فرحتى . . . لقد أحببتنى ساعة ، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك . . . تعلمين أنها كانت تنادينى ميتنكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها .

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بيوتر ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدسين رهناً . كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بيوتر ايلتش قد احتسى الشاى ، وارتدى سترته ليمضى يلعب البلياردو قليلاً فى حانة «العاصمة الكبرى» . وصل اليه ميتيا فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يخرج . فما ان رأى الشاب بقع الدم على وجهه حتى صرخ مدهوشا :

— رباه ! ماذا وقع لك ؟

أجاب ميتيا فى سرعة :

— جئت أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين . شكراً . أنا مستعجل جداً يا بيوتر ايلتش ، إسرع أرجوك .

كانت دهشة بيوتر ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدى ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التى يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها . وقد صرَّح الصبى الخادم الذى التقى بميتيا فى المدخل ، صرَّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية بيده على هذه الصورة .

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية وهى من فئة المائة روبل بأصابعه المدماة . وقد ذكر بيوتر ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم ، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت «سميكة جداً» . أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التى أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، «فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول ، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكرا باحثا عن حل لا يفلح فى الوصول اليه . وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان يجيب بأجوبة قصيرة ، غريبة . وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين» .

صاح بيوتر ايلتش يسأل من جديد وهو يتفرس فى زائره مذهولاً :

— ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله ؟ أتراك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك .

قال له ذلك وأمسكه من كوعه وقاده نحو مرآة . فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه . ودمدم يقول حانقاً :

— اللعنة ! لم يكن ينقص الا هذا . . .

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يده اليمنى الى يده اليسرى ، وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة . كان هذا المنديل (الذى استعمله ميتيا فى مسح رأس ووجه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً

10-1306

فلم يفلح ميتيا فى فضها ، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بيوتر ايلتش قائلا :

— اللعنة ! أليس عندك خرقة . . . أمسح بها ؟

— أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب ؟ ألست جريحا اذن ؟ اذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل . سأعطيك طشت ماء .

— أأغتسل ؟ طيب . . . ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك ذاهلاً وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، سائلاً بيوتر ايلتش بنظراته كأن بيوتر ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله . قال بيوتر ايلتش :

— ضع المال فى جيبك . . . أو ضعه على المائدة هنا . . . فلن يأخذه أحد .

— فى جيبى ؟ طبعا فى جيبى . . . عظيم . . .

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

— هذا كله سخيف ! . . . لا . . . يجب أن نسوِّى تلك المسألة أولاً . . . هات المسدسين . . . اليك المال . . . اننى فى حاجة ماسة الى المسدسين . . . وأنا مستعجل جداً . . . ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها .

قال ذلك ومدَّ الى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة . فقال له بيوتر ايلتش :

— لا أستطيع أن أبدلّها لك . . . أليس معك نقود صغيرة ؟

فأجابه ميتيا :

— لا . . .

نظر ميتيا الى كدسة الأوراق من جديد وجس ورقتين أخريين

أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

— لا . . . ليس عندى أوراق صغيرة . . . هى جميعاً واحدة .

قال ذلك ونظر الى بيوتر ايلتش نظرة متسائلة .

سأله الموظف الشاب :

— من أين جاءتك هذه الثروة كلها ؟

ثم أضاف يقول :

— انتظر ! سأرسل الصبى الى مخزن آل بلوتنيكوف . انهم يغلقون متجرهم فى ساعة متأخرة وربما سيبدلون لنا هذه الورقة . هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبى فى المدخل .

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الالهام المباغت :

— مخزن آل بلوتنيكوف ؟° فكرة رائعة . . .

ثم قال يخاطب الصبى الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة :

— اركض يا ميشا الى متجر آل بلوتنيكوف ، وقل لهم ان دمترى فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجىء اليكم بنفسه بعد قليل . . . وقل لهم أيضا هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولى اليهم . . . ثلاث دستات شمبانيا . . . وليحزموها كما فعلوا فى المرة الأخيرة حين سافرت الى موكرويه . . . لقد طلبت يومئذ أربع دستات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بيوتر ايلتش) . وهم يعلمون على كل حال ، يا ميشا . . . لا تهتم بشىء (هكذا استأنف كلامه مخاطبا الصبى) . . . ها نعم ! قل لهم أيضا أن يضيفوا جبنا ، وفطائر ستراسبورجية ،

وأسماكا مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ، أى شيئاً من كل ما عندهم فى مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة او مائة وعشرين روبلاً كما فى المرة السابقة . . . وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبس والسكاكر الذوابة والكمثرى ، وبطيختين أو ثلاثا أو أربعا . . . لا بل تكفى بطيخة واحدة . . . ولكن لا بد فى مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير ، وفاكهة مربية وكارامل لين ، تماما كالمرة الماضية ؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل . . . تماماً كالمرة السابقة . . . هل ستتذكر يا ميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجّه هذا السؤال الى بيوتر ايلتش).

قال بيوتر ايلتش الذى كان يصغى اليه ويلاحظه قلقا :

— لحظة ! . . . . من الأفضل أن تذهب بنفسك وتأمرهم . لا شك أن الصبى سيخطئ .

— سيخطئ ، سيخطئ طبعا ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبّلك منذ الآن شكراً لك . . . اسمع : اذا لم تخطئ فى تنفيذ المهمة ، فلك منى عشرة روبلات . هيا أسرع . . . لا تنس الشمبانيا خاصةً ، يجب أن يحضروا كثيراً من الشمبانيا . . . وكذلك من الكونياك . . . ومن الخمر . . . تماماً كالمرة السابقة . هم يعرفون ما طلبته فى المرة السابقة .

قاطعه بيوتر ايلتش قائلا وقد نفد صبره :

— هلاّ تركتنى أتكلم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسبُ الصبى أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك . وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك . اعطنى هذه الورقة . . . والآن هيّا يا ميشا ، وأسرع . . . فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصا على أن يسرع فى صرف

ميشا الذى كان ينظر محملق العينين الى الزائر الذى تلطخت يداه وتلطخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية . كان الغلام واقفا أمام ميتيا فاغر الفم دهشةً وخوفاً ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له .

فلما انصرف الغلام قال بيوتر ايلتش بلهجة جافة :

— والآن تعال اغتسل . ضع المال على المائدة أو ضعه فى جيبك . . . هكذا . . . تعال . . . اخلع عنك السترة . وساعده فى خلع السترة ، فاذا هو يصيح فجأة من جديد قائلا :

— أنظر . . . السترة أيضا ملوثة بالدم .

— ليست هى . . . الكُم وحده اتسخ قليلاً فى هذا الموضع . . . وهنا أيضاً . . . ذلك لأننى هنا انما دسست المنديل ، فنضح الدم . . . ولا بد أننى قعدت عليه عند فينيا ، فرشح الدم من الجيب .

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة . فقطب بيوتر ايلتش حاجبيه . وقال متذمراً :

— هأنت ذا دبرت أمرك ! أغلب الظن أنك اقتتلت مع أحد .

وابتدأ التنظيف . تناول بيوتر ايلتش جرةً وأخذ يسكب الماء . فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن «تصبين» يديه (كانت يداه ترتعشان ؛ تذكر بيوتر ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيصبن يديه من جديد . كان الموظف فى تلك اللحظة يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئا بعد شىء . يحسن أن نشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن وجلا .

— أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر . وادلك وجهك الآن . أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الاذن أيضا . . . هل تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى أين تريد أن تذهب ؟ أنظر : ان حاشية الكم اليمنى ملطخة بالدم .

فقال ميتيا وهو يفحص حاشية الكم :

— حقا ! انها ملطخة .

— بدِّل اذن ملابسك الداخلية .

— لا يتسع وقتى . سأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو الداخل ، فلا يُرى من تحت البدلة .

كذلك واصل ميتيا كلامه بتلك الثقة نفسها ، وهو يجفف وجهه ويديه بمنشفة ويرتدى سترته .

— قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل اقتتلت مع أحد ؟ مع من اقتتلت ؟ أفى الحانة ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك النقيب نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً ؟ (ذكر بيوتر ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمة) . من ذا ضربت اليوم . . . أم تراك قتلت أحداً ؟

— سخافات !

— سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

— دعك من هذا الأمر .

ثم استدرك يقول مبتسما :

— دست امرأة عجوزا فى الميدان .

— دست امرأة عجوزا ؟

— بل رجلا عجوزا .

كذلك صاح ميتيا ضاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش . وكان يسدد نظراته الى عينى بيوتر ايلتش .

— آه . . . اللعنة . . . . رجل عجوز . . . امرأة عجوز ! . . . أتراك قتلت أحدا ؟

— لا بل تصالحنا . تضاربنا فى أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك . حدث ذلك هناك . وافترقنا صديقين . ثم انه غبى أبله . . . لقد غفر لى وعفا عنى . . . لا بد أن يكون قد صفح عنى فى هذه الساعة . . . ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى . . . — قال ميتيا هذه الجملة الأخيرة غامزاً . . . فليذهب الأبله الى الشيطان ! هل تسمعنى يا بيوتر ايلتش ؟ فليذهب الى الشيطان ! لا أريد ان أهتم به بعـــد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة . قال بيوتر ايلتش :

— . . . ولكن أية لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ . . . وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك النقيب ؟ تقتتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقا ! ثلاث دستات شمبانيا ! ما أكثر هذا !

— برافو ! اعطنى المسدسين بسرعة . أنا مستعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع . ثم فيم الثرثرة ؟ لقد فات أوان الكلام الآن . آه ! . . . ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر .

— أموالك على المائدة . . . هناك . . . وضعتها على المائدة بنفسك . هل نسيت ؟ لكأن المال ليس له أى شأن

عندك حقا ! أما مسدساك فهاكهما . انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات فى الساعة الخامسة ، ثم اذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف . كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

— ثلاثة آلاف .

ودس الحزمة فى جيب سرواله .

— سوف تضيعها هكذا . أتراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صاح ميتيا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل :

— مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهمك المناجم يا برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا أنت مضيت باحثا عن المناجم . لقد أعطتنى أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف خوخلاكوفا ؟

— أعرفها بالنظر ، وبالسمعة أيضا . أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بيوتر ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق ما يقوله ميتيا .

— اذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعةَ طلوع الشمس حين يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحا بحمد الرب ممجداً عظمته بشبابه الخالد . اذهب اليها فاسألها ألم تعطنى ثلاثة آلاف روبل ، وسوف تعلم .

— لا أتدخل فى علاقاتك . وما دمت تؤكد ذلك جازما فلا بد أن يكون صحيحا . . . ولكنك ما ان استلمت المبلغ

حتى أخذت تلهو وتقصف وتبدد ، بدلا من أن تذهب الى سيبيريا ! . . . الى أين تنوى أن تذهب فى هذه الساعة ؟

— الى موكرويه .

— الى موكرويه ؟ ليلاً ؟

قال ميتيا فجأة :

— كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئا !

— لا تملك شيئا ؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل ؟

— لا قيمة لها عندى ! ألا فليذهب المال الى الشيطان . . . وانما أنا اتكلم عن طبع النساء . . .

طبع النساء سريع التصديق
كثير التقلب فاسد .

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافقه فى الرأى كل الموافقة .

— لا أفهمك .

— أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟

— لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك .

— روحى هى السكرى يا بيوتر ايلتش ، ولكن كفى هذا الآن . . .

— ماذا تفعل ؟ أتحشو مسدسك ؟

— نعم أحشوه .

كان ميتيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعد أن سكب بارودا من العلبة الصغيرة فى خرطوشة ، دسّ الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة فى السبطانة ، أمسكها

بين أصبعين وأخذ ينعم النظر اليها فى ضـــــــوء الشمعة .

سأله بيوتر ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :

— لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

— أتخيل . . . لو كنت تنوى أن تُسكن هذه الرصاصة فى دماغك ، أفما كنت تنظر اليها حين تحشو المسدس ؟

— أنظر اليها ؟ لماذا ؟

— ما دامت ستنفذ فى جمجمتى أنا ، فانه ليهمنى أن أرى هيئتها . . . . هذه سخافات أقولها على كل حال ، سخافات لا أكثر .

ثم أضاف يقول وهو يدخل الرّصاصة ويرسّخها بالمشاقة :

— انتهى ! ما هذا كله الا سخافات يا عزيزى بيوتر ايلتش ، سخافات لا أكثر . . . ليتك تعلم مدى ما فى هذا كله من غباء . اعطنى ورقة بسرعة !

— هذه ورقة .

— بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه . هذا يصلح على كل حال .

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وطوى الورقة أربعة أرباع ، ودسّها فى أحد جيوب صديرته . وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بها فى يده . ثم ألقى نظرة على بيوتر ايلتش ، وهو يبتسم ابتسامة حالمة . وقال :

— والآن نمضى .

— الى أين ؟ قف ! ألعلك تفكر فعلاً فى ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأله بيوتر ايلتش ، وقد اشتد قلقه .

— سخافات ! اعلم أننى أريد أن أحيا ، لأننى أحب الحياة ! اننى أحب فيبوس وضفائره الذهبية وحرارته . . . قل لى يا عزيزى بيوتر ايلتش : هل تستطيع أنت أن تمّحى ؟

— أن أمّحى ؟ ماذا تعنى ؟

— نعم أن تمّحى ، أن تزول من الدرب . أن تخلى الطريق للانسان الذى تحبه والانسان الذى تكرهه ؛ وأن تحب حتى ذلك الذى كان عليك أن تكرهه . . . أن تبتعد عن طريقهما قائلاً : «هيّا اذهبا ، وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف . . .»

— سوف . . ماذا ؟

— لا شىء ! فلنمض . . .

— أود أن أبلغ بعضهم ليمنعوك من السفر . ماذا عساك فاعلاً فى موكرويه ؟

كذلك قال بيوتر ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا . فأجابه ميتيا :

— فى موكرويه امرأة . . . امرأة . . . هأنت ذا عرفت الآن ما فيه الكفاية يا بيوتر ايلتش ! حسبك هذا !

— اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائما محبباً الى قلبى . فأنا الآن شديد القلق عليك . . .

— شكراً يا أخى ! تقول أننى متوحش . يا للمتوحشين ! ذلك ما كنت أدعيه دائماً : متوحشون ، متوحشون . . . آ . . . هذا ميشا قد عاد . كنت قد نسيته .

وصل ميشا لاهثا يحمل النقود . فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون» ، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاى ، وان كل شىء سيكون قد تم اعداده بعد

عدة لحظات . تناول ميتيا ورقة مالية بعشرة روبلات ، فمدّها الى بيوتر ايلتش ، ورمى للصبى ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها .

صاح بيوتر ايلتش :

— إياك ! لا أسمح لك بذلك فى دارى . فان ذلك نزوة سيئة . أعد هذا المال الى جيبك . ضعه هنا . . . لماذا تبدده ؟ قد تحتاج اليه فى القريب فتعود الىّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات . . . لا تدسّ جميع هذه الأوراق فى جيب السروال ، والا ضاعت منك !

— هيه يا صديقى ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً . ما رأيك ؟

— ما ذهابى أنا الى هناك ؟

— اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة . اننى فى حاجة الى شرب شىء من الشمبانيا . أود أن أشرب معك خصيصاً . اننا لم نشرب معا فى يوم من الأيام !

— لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الحانة . لقد كنت أنوى أن أذهب الى هناك .

— ليس فى وقتى متسع لأذهب الى الحانة . سنشرب عند آل بلوتنيكوف ، فى الحجرة التى وراء الدكان . سألقى عليك «فزورة» ، هل توافق ؟

— ألقها .

أخرج ميتيا من جيب صديرته الورقة التى كان قد طواها ووضعها فيها ، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب . فقرأ هذا الجملة التالية التى كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة واضحة : «اننى أعاقب نفسى لقاء حياتى كلها ، وأقبل هذا العقاب» .

قال بيوتر ايلتش بعد ان قرأ الورقة :

— أحسب حقاً أن علىّ أن أبلغ بعضهم ! سأقوم بهذا فوراً .

— لن يتسع وقتك يا عزيزى ! هلمّ نشرب .

يقع متجر آل بلوتنيكوف فى ناصية الشارع بعد بيت واحد من دار بيوتر ايلتش . انه أكبر «بقالة» فى المدينة ، وهو متجر جيد أصحابه من اغنياء التجار ؛ وفى هذا المتجر يباع كل شىء ، كما فى المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من «اقبية الاخوة بليسييف» ، فاكهة ، سيجار ، شاى ، سكر ، بن ، الخ . وفيه يعمل ثلاثة مستخدمين مقيمين ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن . لقد أصيب أقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى ليمكن القول أنها تزداد ازدهارا سنةً بعد سنة : ان السلع التى من هذا النوع لا تعدم من يشتريها فى كل زمان . كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات نقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين) ؛ وهم لم ينسوا أيضا أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون حساب ودون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التى اشتراها . وقد رُوى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشنكا ، «قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ،

ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه تماماً» . وقد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات ، ويشربون أعداداً كبيرة من الزجاجات الغالية ، مستغلين سكره . وقد روى الناس أيضا ، فى معرض السخر من ميتيا ، أنه قدم شمبانيا لفلاحين قذرين ، وأنه أشبع بنات الحى فطائر ستراسبورجية وأنواعا من الحلوى . وكان الناس يتندرون أيضا ، ولا سيما فى الحانة (ولكن لا بحضور ميتيا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، بتلك الواقعة التى ذكرها هو نفسه على رؤوس الأشهاد ، وهى أنه لم يحظ من جروشنكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا «بقبلةٍ على قدمها ، ولا شىء غير ذلك» .

حين اقترب ميتيا وبيوتر ايلتش من البقالة وجدا على بابها مركبة «ترويكا» مجهزة تماماً ، مزينة العدة بأجراس ، وعربةً مزوَّدة بسجادة . وكان الحوذى آندرى ينتظر ميتيا وكان فى الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبى كبير قد ملىء تقريباً بالسلع التى أمر بها ميتيا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه فى العربة . دهش بيوتر ايلتش ، فسأل ميتيا :

— من أين جاءت مركبة الترويكا هذه ؟

فأجابه ميتيا :

— لقد التقيت بآندرى حين كنت آتياً اليك ، فأمرته بأن ينتظرنى مع الخيول أمام البقالة . فلقد كان علىَّ أن لا أضيع وقتاً . ان تيموثى هو الذى قادنى فى المرة السابقة ، ولكنه سافر فى هذا المساء مع ساحرة ، وسبقنى . هل ستتأخر كثيراً يا آندرى ؟

أسرع آندرى يجيب :

— لن يسبقونا الا ساعة واحدة فى أكثر تقدير . بل أقل من ذلك ! . . . ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيموثى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها . لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! آنّى لهم أن يقاسوا بنا ! لن يصلوا قبلنا الا بساعة .

كذلك قال آندرى مؤكداً بحرارة . وهو رجل ما يزال شاباً ، ناحل العود ، أحمر الشعر ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه اليسرى .

— لك منى خمسون روبلاً «بقشيشا» اذا لم نتأخر أكثر من ساعة !

— اعتمد علىَّ يا دمترى فيدوروفتش . ساعة ؟ لن يسبقونا بنصف ساعة .

أخذ ميتيا يتململ ولكنه كان يصدر أوامره بشكل غريب غير منتظم فانتقل من طلب الى طلب آخر قبل انهاء الطلب الأول . فرأى بيوتر ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً أن يساعده .

قال ميتيا آمراً :

— أريد أن يكون الثمن أربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرة السابقة . أربع دستات شمبانيا ، لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة !

صرخ بيوتر ايلتش :

— قف ! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبى ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه أربعمائة روبل .

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجة متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوى الا ست زجاجات من الشمبانيا ، وأنه

يحتوى كذلك «الأشياء الضرورية جداً» كالمقبلات ، والملبس ، والحلوى ، الخ . . . أما «الغلات» الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد «دمترى فيدوروفتش بأقل من ساعة» .

قال ميتيا ملحا بحرارة :

— بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك . وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الملبس والكارامل . ان البنات هناك يعشقن الملبس والكارامل .

قاطعه بيوتر ايلتش يقول شبه غاضب :

— أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعا بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد !

وأخذ بيوتر ايلتش يساوم ، وطلب أن يرى الفاتورة ، وتململ كثيرا ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فتقرر أن لا يزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل .

ثم صاح بيوتر ايلتش يقول وقد ثاب الى رشده :

— شيطان يأخذكم ! أنا ما لى ولهذا كله ! بدِّد مالك كما تشاء ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التى تقع خلف الدكان :

— هدئ روعك يا صاحبى المدبِّر ! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا ! لنسافر معاً يا بيوتر ايلتش . أنت شاب شهم ، واننى لأحب أمثالك من الرجال .

جلس ميتيا على مقعد مضفور أمام مائدة صغيرة مغطاة بمفرش قذر للغاية . وجلس بيوتر ايلتش قبالته ، وجيئا بالشمبانيا . واقترحت عليهما محارات «من نوع فاخر وصلت مؤخرا» ، فقال بيوتر ايلتش رافضا الاقتراح فى غضب :

— دعونى من محاراتكم ، فاننى لا أحب أن آكل شيئا .

وقال ميتيا :

— لا يتسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اننى لا أشتهى أن آكل الآن شيئا .

ثم التفت يقول لبيوتر ايلتش وقد تحمس على حين فجأة :

— اسمع يا صديقى ، اننى كنت أكره كل هذه الفوضى دائما .

— ومن ذا الذى لا يشمئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا . . . ولمن ؟ لفلاحين ؟ ألا ان هذا ليثير غضب أى رجل !

— ليس هذا ما أعنيه . فانما أنا أقصد النظام الأعلى ، نظام النفس ، لقد أعوزنى دائما ذلك النظام . . . ليس فى نفسى انسجام . . . ولكن انتهى الآن كل شىء ، فعلام الندم والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! . . . لم تكن حياتى كلها الا فوضى طويلة ، وقد آن لى أن أدخل عليها شيئا من النظام . اننى أستعمل استعارات وكنايات رديئة ، هه ؟

— بل قل أنك تخرف ! . . .

قال ميتيا :

المجد للخالق فى الدنيا
المجد للخالق فى نفسى .

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة . . . لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه النقيب من لحيته !

— لماذا تتكلم عن ذلك النقيب ؟

— لماذا ؟ آه . . . ما كل شيء الا دخان ! كل شيء يتبدد ! كل شيء يزول !

— اسمع ! ان مسدسيك يقلقانى . . .

— ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفَّ عن قول هذه السخافات ! اننى أحب الحياة . . . اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأشعر بالتقزز . كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى حقير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبنى شعور بأننى حقير ولكننى راض عن نفسى . اننى أبارك الخليقة ، واننى مستعد لأن اسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بعظمته ، ولكن . . . يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين . . . هيه يا أخى العزيز ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شيء أفضل من الحياة ؟ لا شيء افضل من الحياة ، لا شيء ! المجد للحياة ، والمجد لملكتى ، ملكة الملكات !

— فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك .

وأفرغ كل من الرجلين كأساً . كان ميتيا ، المهذار المتحمس يبدو حزيناً ، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده .

— ها . . . ها هو ذا ميشا ، ها هو ذا غلامك ميشا قد دخل ! تعال الى هنا أيها الصبى الطيب ! اشرب كأسا معنا ، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً . . .

قال بيوتر ايلتش محتجاً حانقاً :

— لا داعى لذلك !

فقال ميتيا :

— اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة ! لسوف يسرنى هذا .

— آه . . .

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلَّم ثم انصرف .

قال ميتيا :

— هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأقل . . . اننى أحب المرأة ، أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض . . اننى أحس بحزن يا بيوتر ايلتش ، أحس بحزن رهيب هل تتذكر ما قاله هملت : «أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد . . . وأسفاه ! مسكين يوريك ذلك !»* لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه اللحظة بعينها يوريك . وبعد ذلك سأكون الجمجمة .

كان بيوتر ايلتش يصغى اليه صامتا ، وصمت ميتيا أيضا .

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى الركن كلباً صغيراً جميلاً طويل الشعر أسود العينين :

— لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

— هو لفارفارا ألكسييفنا ، صاحبة المتجر . نسيته هنا منذ قليل . سيكون علينا أن نذهب به اليها .

قال ميتيا حالماً :

— رأيت فى الماضى كلباً يشبهه كل الشبه . . . كان ذلك فى الكنيسة . . . ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق . . . بالمناسبة يا بيوتر ايلتش ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالا : هل اتفق لك أن سرقت فى حياتك ؟

— يا لها من فكرة !

— افهمنى ! أقصد السرقة الحقيقية . . . أن تأخذ مالا من جيب شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون

الدولة . . . هذا شيء معروف ، وأنت أيضا تسرق الدولة ، لا شك عندى فى ذلك . . .

— سحقاً لك . . .

— هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ ها ؟ . .

— سرقت فى طفولتى قطعة نقدية بعشرين كوبيكا من أمى . كان عمرى تسع سنين . أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يرانى أحد ، وأخفيتها فى قبضة يدى .

— وبعد ذلك ؟

— لا شيء . احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ، فرددتها معترفاً بالسرقة .

— ثم ؟

— جُلدت كما أستحق . ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أتراك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة :

— سرقت !

فسأله بيوتر ايلتش فى فضول :

— ماذا سرقت ؟

— سرقت عشرين كوبيكا من أبى . كان عمرى تسع سنين . ثم رددتها بعد ثلاثة أيام .

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة .

صرخ الحوذى آندرى يقول من باب المتجر :

— آن أوان السفر يا دمترى فيدوروفتش .

— هل كل شيء جاهز ؟ هيَّا بنا !

قال ميتيا ذلك ، واستولى عليه اضطراب . وأضاف يقول :

— بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة* ! كأسا من الفودكا لأندرى بسرعة ! واعطوه أيضا كأس كونياك ! . . . أما العلبة (علبة المسدسات) ، فضعوها تحت مقعدى . استودعك الله يا بيوتر ايلتش ، ما ينبغى لك ان تؤاخذنى

— ولكنك ستعود غداً ؟

— سأعود حتماً .

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

— هل تتكرم بتصفية الحساب الآن ؟

— آ . . . نعم . . . الحساب . . . طبعا !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسلَّ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم خرج مسرعا من الغرفة ، فرافقه جميع مستخدمى المتجر ، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون له انحناءً كبيراً . وكان آندرى قد أفرغ كأسا من الكونياك ، فها هو ذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر فى العربة ، انبجست فينيا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وجثت على ركبتيها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

— سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب سيدتى بسوء ، لا تنلها بأذى ! ألا ما كان أغبانى حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسيء اليه هو أيضا ، القديم . . . لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافينا ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض . . . سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما !

دمدم بيوتر ايلتش يخاطب نفسه : «آ . . . هذا بيت

القصيد فى الحكاية كلها . . . ستثير ثورة هناك . استبان الآن كل شىء . أصبح كل شىء واضحاً» . . .

ثم هتف يقول بصوت عال :

— دمترى فيدوروفتش ! أعدّ الىَّ هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمع يا دمترى ؟

فأجابه ميتيا :

— المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى . . . سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانهضى أنت يا فينيا . لا تركعى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الرجل الغبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم صاح يقول بعد أن استقر فى المركبة :

— اسمعى يا فينيا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفرى لى . اغفرى لهذا الشقى . . . على أنه يستوى أن تغفرى وأن لا تغفرى . . . لم يبق لهذا قيمة . . . هيَّا يا آندرى ، طر بسرعة .

حرك آندرى المقود ، فجلجلت الأجراس .

— استودعك الله يا بيوتر ايلتش ، لك منى آخر دمعة ! . . .

قال بيوتر ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التى أخذت تبتعد : «ليس بسكران ، ولكن ما أشد الغباء فى أقواله» . وقد أراد بيوتر ايلتش أن يبقى فى المتجر ليراقب شحن الخمور والمئونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيغشون ميتيا . ولكنه شعر بحنق على نفسه فجأة ، وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الحانة ليلعب البلياردو قليلا كما كان ينوى ذلك .

وقال فى نفسه أثناء الطريق : «انه رجل غبى ، ولكنه طيب . أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشنكا «القديم» ذاك ،

فقد سبق أن سمعت عنه . اذن عاد . . . ولكن ما يثير قلقى هو المسدسان . . . آ . . . اللعنة . . أأنا مربيه ؟ فليحل الرجلان نزاعهما . . . ولن يحدث شىء على كل حال . سيصرخان كثيرا ، وسيسكران ، وسيقتتلان ، ثم يتصالحان . ليسوا جادين ، لا هؤلاء ولا أولئك . . . كلمات جوفاء ! «سوف اتنحى عن طريقهما . . .» «اننى أعاقب نفسى . .» دعنا من هذا ! لن يفعل من ذلك شيئا . لقد ردَّد أقوالا من هذا النوع مائة مرة فى الحانة حين كان ثملا . وهو فى هذه المرة لم يشرب . «نفسى سكرى . . .» ؛ ان جميع أمثاله من القاصفين يحبون العبارات الرنانة الطنانة . أأنا مربيه أخيرا ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمى وجهه . ولكن من ذا الذى تشاجر معه ؟ سأعرف هذا فى الحانة حتما . وذلك المنديل المدمَّى ؟ . . . لقد تركه على الأرض فى غرفتى . . . ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال !»

وصل بيوتر ايلتش الى الحانة معتكر المزاج جدا ، وأخذ يلعب البلياردو فوراً . وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئا بعد شىء ، وشرع فى اللعب مرة أخرى ، وأخذ يقص فجأة على أحد ملاعبيه أن دمترى كارامازوف أصبح يملك مبلغا كبيرا من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل . وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة أيضا الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا . أصغى السامعون الى هذه الأنباء بفضول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح ، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب . حتى لقد انقطع لعب البلياردو .

— ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بيوتر ايلتش بوابل من الأسئلة . ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها خوخلاكوفا .

— أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

— ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

— لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز ، وسمعه جميع الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل . .

كان بيوتر ايلتش يصغى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة . ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن ذلك حين ذهب الى الحانة . وبدئ لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف الحديث عن ميتيا . حتى اذا انتهت اللعبة الثالثة ، أعلن بيوتر ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب . ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن يتعشى ، خلافا لما كان ينتويه . فلما وصل الى الميدان توقف لحظة ، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شىء . «سأوقظ جميع الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأنى أنا ؟ أأنا خادمهم ؟»

واتجه الى منزله معتكر المزاج . وفجأة خطرت بباله فينيا . قال لنفسه فى حسرة : «اللعنة ! ان فينيا هى الشخص الذى كان يجب أن أسأله ، ولو فعلتُ لقالت لى كل شىء !» . وشعر عندئذ برغبة قوية فى أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انعطف فجأة ، وهو فى منتصف الطريق الى داره ، فاتجه نحو منزل آل موروزوف الذى تقيم فيه جروشنكا . فلما وصل الى الباب طرقه ، فاذا بالطرقات التى ترجَّعت فى صمت الليل ترده فجأة الى الواقع ، واذا بحنقه يشتد . وعلاوة على ذلك لم يرد

أحد فقد كان سكان البيت نائمين . قال فى نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليما : «سوف أحدث فضيحة» . ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل ما أوتى من قوة فى هذه المرة . دوَّت طرقات الباب فى الشارع كله . فردَّد يقول : «لا ضير ! لسوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا !» ، بينما كان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طرقة جديدة . لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة .

٦

أنا قادم !

كان دمترى فيدوروفتش يطير الى موكرويه بسرعة عظيمة . ان المسافة تزيد قليلا على عشرين فرسخا . ومن الممكن ، بفضل سرعة عدو خيول آندرى ، قطع هذه المسافة بساعة وربع ساعة . وأنعشت السرعة ميتيا . كان الهواء عليلا باردا ، وكانت نجوم كبيرة تتلألأ فى سماء بلا سحب . فى تلك الليلة ، وربما فى تلك الساعة ، انما تهالك أليوشا على الأرض ، «حالفاً بحرارة ليحبنَّها الى الأبد» . كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل الهموم التى تعذبها ، كانت لا تنصرف فى تلك اللحظة الا الى ملكته التى يتعجل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة . حسبى أن أقرر ما يلى : ان قلبه لم يجادل لحظةً . ربما لن تصدقوا كلامى اذا قلت أن هذا الغيور لم يكن يشعر بأية عاطفة من عواطف الغيرة نحو القادم الجديد ، نحو ذلك الغريم الذى لم يكن فى

حسبانه ، نحو هذا «الضابط» الذى ظهر بتلك المفاجأة . لو جاء أى انسان آخر لأسرع ميتيا يرد بحنق غيور ، ولتلطخت يداه الرهيبتان بالدم من جديد . أما تجاه هذا الانسان الذى هو «أول رجل» فى حياة جروشنكا فان ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة ، ولا بأية عداوة ، أثناء ما كانت مركبة الترويكا تقله الى موكرويه . ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد . «الأمر واضح . انهما على حق . هو أول حب فى حياتها ، هو الرجل الذى لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنين . معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة . أما أنا ، فماذا جئت أعمل فى حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنحَّ عن طريقهما ! ثم ما قيمة هذا كله اليوم ، ما دام مصيرى قد تقرر ، ما دام كل شىء سينتهى بالنسبة الىَّ ، حتى ولو لم يكن هو هناك ، حتى ولو لم يجىء ذلك الضابط ؟»

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التى كانت تجيش فى نفسه ، لو كان قادراً على التفكير فى تلك الآونة . ولكن ميتيا لم يكن يفكر . ان القرار الذى اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أى تفكير ، فاذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتائج التى تترتب عليه ، بعد ما كشفت له عنه فينيا من أمور . ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واضطراب أليم : ان قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة الى نفسه . ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضى الذى كان يعذبه . وبدا له الأمر غريباً فى بعض اللحظات : كان قد نطق بحكم نهائى على مصيره ، كان قد كتب على ورقة قوله : «اننى أعاقب نفسى ، وأنا أقبل هذا العقاب» ، وان هذه الورقة موجودة الآن فى جيبه ، معدَّة لأن تستعمل ؛ وان مسدسه محشو ، وهو يعلم حق العلم ما الذى

سيفعله فى صباح الغد ، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية» فيدفىء الأرض من جديد بأولى أشعته . ومع ذلك . . . لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ماضيه الذى يحاصره ويعذبه . فكان يشعر بذلك متألماً : لا سبيل الى النسيان ؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمداً ويأساً . ولقد أوشك فى لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر آندرى بالتوقف ، وأن يخرج من العربة ، ويستل مسدسه المحشو ويفرغ من الأمر كله دون أن ينتظر الغد . ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفئ شرارة طائرة . وكانت مركبة الترويكا «تنهب به الأرض نهباً» ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة ، طاردةً جميع أشباح الرعب التى تملأ قلبه . أوه ! ما أشد رغبته فى أن يلقى نظرة عليها ، ولو من بعيد ، عابرةً . . . «انها فى هذه الساعة **معه** ، وسأراها هى وحبيبها الأول ، وسأتأملها ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن !» لم يشعر نحو هذه المرأة — التى لعبت فى مصيره هذا الدور الكبير — فى يوم من الأيام بمثل الحب الذى يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها فى يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة جديدة مفاجئة حتى بالنسبة له ، من عاطفة تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه فى سبيلها . هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هسترية : «سأختفى» .

العربة تعدو منذ قرابة ساعة . ميتيا صامت . وآندرى ، وهو فلاح مهذار فى العادة ، لا يتكلم أيضا ، كأنه يخاف خوفا غامضا من أن يقطع الصمت . فهو لا يزيد على أن يحرِّض بصوته أحصنته الكمت النحاف السريعى العدو . وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

— آندرى ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

فى تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمال الذى لم يكن قد ساوره قبل ذلك .

— جائز جداً ان يكونوا فى هذه الساعة راقدين يا دمترى فيدوروفتش .

قطب ميتيا حاجبيه متألما . ماذا ؟ أيجىء حاملا هذه العواطف . . . ثم يكونون نائمين نوما هادئا . . . هى أيضا . . . ربما الى جانبه ! وغلى الغضب فى قلب ميتيا .

صرخ يقول خارجا عن طوره :

— اجلد يا آندرى ! مزيدا من الاسراع ، مزيدا من الاسراع أيضا .

قال آندرى بعد صمت :

— ما أحسب أنهم ناموا . لقد أسرَّ لى تيموثى أن جمعا غفيرا قد اجتمع هناك . . .

— فى محطة العربات ؟

— بل فى نزل آل بلاستونوف ، وهو محطة عربات أيضا .

— أعرف . أتقول أنهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من هؤلاء ؟

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذى وقد أقلقه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه .

— انهم جميعا من السادة على ما قال تيموثى : اثنان منهم جاءا من المدينة ولا أدرى من هما ، واثنان من هنا كما قال تيموثى ، ثم اثنان آخران هما مسافران عابران فيما يظهر ، ثم شخص آخر أيضا اذا صح فهمى . وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى تيموثى .

— بالورق ؟

— نعم . وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا . ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن .

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية :

— اسرع ، اسرع مزيدا من الاسراع .

واستأنف آندرى كلامه بعد صمت فقال :

— قل لى يا سيدى . هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك .

— ما هو هذا الأمر ؟

— ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر . . . فيا سيدى ، ما دمت أنا أقودك الى هناك ، فان ضميرى . . . لا تؤاخذنى يا سيدى . . . اذا كنت غبيا فيما أقول . . .

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

— أنت حوذى ، أليس كذلك ؟ أنت حوذى ؟

— نعم ، حوذى . . .

— فأنت تعلم اذن ما معنى التنحى عن الطريق ، واخلائه . هل يستطيع حوذى أن يمضى الى أمام ، رافضا أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحا ؟ ليس لحوذى أن يدوس المارَّة . . . لا يجوز للمرء ان يدوس أحداً ، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره . ومن يدمر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه بنفسه بعد ذلك . . . اذا هو دمَّر حياة أحد ، فليمض . . . فلينل العقاب !

تكلم ميتيا جيّاش النفس ، شديد الاندفاع وحالته النفسية تشبه حالة هستيرية ، ورغم أن آندرى دُهش من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

— صحيح جدا ما تقوله يا سيدى دمترى فيدوروفتش . أنت على حق ، ما ينبغى لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؛ وما ينبغى له ان يدوس الحيوانات أيضا ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات اللّه ومنها الخيول مثلا . ان بعض الحوذيين لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدرى الى أين . . .

قاطعه ميتيا قائلا وهو يضحك ضحكته الصغيرة :

— لعلهم يفعلون هذا ليصلوا الى جهنم بسرعة أكبر . قل لى يا آندرى : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمترى فيدوروفتش كارامازوف سيذهب الى جهنم ؟

— لا أدرى يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت . . . اسمع يا سيدى : حين مات ابن اللّه على الصليب ، نزل رأسا الى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير . وقد تشكى الجحيم عندئذ ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك . فقال الرب للجحيم : «اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة : ستستقبلين امراء وقضاة عظاما وأغنياء ، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم» . ان هذا الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله . . .

— هذه أسطورة شعبية جميلة . أجلد الحصان الأيسر يا آندرى !

استأنف آندرى كلامه وهو يفرقع بسوطه فوق الحصان الايسر ، قال :

— أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم . أما أنت يا سيدى فنحن نعدك طفلا . . . ذلك هو رأينا نحن . . . مهما تكن عنيفا غضوبا . . . وانك لعنيف غضوب ما فى ذلك ريب . . . فان الرب سيغفر لك لأنك انسان بسيط .

— وأنت يا آندرى ، هل تغفر لى ؟

— ليس هناك ما أغفره لك يا سيدى ، فانك لم تسىء الىّ .

— انني أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟ أجبنى يا ابن الشعب !

— سيدى ! لقد بدأت أخاف . . . من أن أقودك . . . انك تتكلم كلاما غريبا جدا . . .

كان ميتيا قد أصبح لا يصغى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

— يا رب ! اقبلنى رغم حطتى ، ولكن لا تحكم علىّ . اللهم اسمح لى أن أجىء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك . . . لا تحكم علىّ ، مادمت قد حكمت على نفسى بنفسى . . . لا تحكم علىّ ، لأننى أحبك يا رب ! اللهم اننى خبيث دنىء ، ولكنى أحبك . وحتى فى الجحيم ، اذا أنت أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لـــــك بحبى الى الأبد ، ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية . . . اسمح لى أن أظل أحب ، فى هذه الحياة الدنيا ، خمس ساعات أخرى ، الى أن تطلع شمسك الدافئة . . . اننى

أحب ملكة قلبى ، ولا أملك أن أمتنع عن حبها اللهم انك ترانى كلى فى هذه اللحظة . سوف أهرع اليها ، فأرتمى عند قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتنى ، وداعاً . . . أنسى ضحيتك ، ولا تدعى لذكراى أن تعذبك يوماً !

صاح آندرى يقول وهو يومىء الى القرية بسوطه الممدود فى آخر ذراعه :

— هذه موكرويه !

فمن خلال ليل شاحب ، كانت تُرى رؤيةً ضعيفة ، كتلةً مظلمة ، هى كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة . ان سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفى نسمة . ولكن كل شىء كان الآن غارقا فى النوم . وليس يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام فى أماكن نادرة . صرخ ميتيا يقول محموماً :

— أسرع ، أسرع مزيدا من الاسراع . أنا قادم !

فقال آندرى وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذى يقع عند مدخل القرية ، والذى كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة اضاءة قوية :

— لم يناموا بعد .

فكرر ميتيا كلام الحوذى فرحاً :

— لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جريا سريعا يا آندرى ، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولى ضجة وجلبة . ألا فليعلم الجميع من الواصل ! هو أنا . . . هأناذا قادم !

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج .

استحث آندرى أحصنته المكدودة ، فوصلت العربة الى باب النزل مقرقعة قرقعة قوية ، وهنالك استوقف الحوذى أحصنته وقد أوشكت أن تموت تعباً . وثب ميتيا من العربة فى

اللحظة التى كان فيها صاحب النزل ذاهبا ليأوى الى فراشه فلما سمع قرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه الجلبة . هتف ميتيا يسأله :

— أهذا أنت يا تريفون بوريستش ؟

مال صاحب النزل الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة مجاملة ، وهو يقول :

— أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستش هذا فلاح قوى البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ، ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فورا ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً . انه يرتدى ثيابا على الزى الروسى ، فقميصه مقلوب الياقة ، وصديريته مطرزة . ورغم أنه قد جمع كثيرا من المال ، كان لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع . ان أكثر من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شباكه ، خاضعون لتسلطه . كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشترى بعض هذه الأراضى أيضا ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً . وهو أرمل له أربع بنات كبيرات ، احداهن مات عنها زوجها فهى تعيش عند أبيها مع صبيتين صغيرتين ، ويعاملها أبوها معاملة خادمة ؛ والثانية زوجة موظف من الموظفين بلغ مرتبة الناسخ ، فالداخل

الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه بين صور عائلية صورة فوتوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمى الذى يزدان كتفاه بشارات القصب° . أما البنتان الأخريان ، فهما فى أيام الاعياد الكنسية أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء مشدودة على الجسم من الخلف ، ذات أذيال طويلة على آخر «موضة» ، ولكنهما تنهضان فى الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لتكنسا الغرف ولتحملا القاذورات وتنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها . وكان تريفون بوريستش ، رغم المال الكثير الذى جمعه ، يبتهج كثيرا لكل فرصة تمكنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين . وهو يتذكر أنه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف مع جروشنكا . لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقة وصول المركبة الى الباب على هذا النحو الصاخب ، أن الفريسة ستكون سهلة من جديد .

— عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأنت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

— لحظة يا تريفون بوريستش . قل لى الأمر الأساسى أولاً : أين هى ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق اليه بنظرة نافذة :

— أجرافينا ألكسندروفنا ؟ هى هنا . . . أيضا !

— مع من ؟ مع من ؟

— مع نزلاء عابرين . . . موظف لا شك أنه من أصل بولندى . . . يظهر هذا من لهجته . . . انه هو الذى أرسل خيلاً

لتجيء بها الى هنا . . . وشخص آخر هو صاحب البولندى ، أو رفيق رحلته فحسب ، لا أدرى . . . وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية . . .

هل يقصفون ؟ هل يملكون مالا ؟

— يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم صغيرو الشأن . . .

— صغيرو الشأن ؟ والآخرون ؟

— هناك سيدان من المدينة . . . كانا عائدين من تشرنايا ، فتلبثا هنا لقضاء الليل . أحدهما شاب هو قريب السيد ميوسوف فيما يبدو ، ولكننى نسيت اسمه . . . أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضاً : انه الملاَّك ماكسيموف الذى ذهب يحج الى ديرنا فيما يدعى ، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق . . .

— أهذا كل شىء ؟

— نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء .

— اسكت يا تريفون بوريستش . شىء واحد أساسى : ما حالها هى الآن ؟

— وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم .

— أهى مرحة ؟ أهى تضحك ؟

— لا . . . انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت . حتى لقد بدا لى أنها حزينة . وكانت تمشط شعر الشاب .

— شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

— دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط . أنا لم أقصد البولندى ، بل الشاب . . . قريب ميوسوف نسيت اسمه .

— لعل اسمه كالجانوف ؟

— تماما ، كالجانوف .

— طيب ، سوف أرى . هل يلعبون بالورق ؟

— كفوا عن اللعب . لقد تناولوا الشاى ، وأمر الموظف بخمور .

— لحظة يا تريفون بوريستش ! سأحكم على الموقف بنفسى . أجبنى الآن عن الشىء الأساسى : هل فى القرية غجر ؟

— لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات . غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان . هم الآن فى روجدستفسكايا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتما .

— استدعهم حالا . ويجب كذلك ايقاظ البنات ، كما فى المرة السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستيبانيدا وايرينا . سأدفع للجوقة مائتى روبل .

— بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملها ، ولو كانوا نائمين كالأموات . ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ ؟ هؤلاء الأوغاد لا يستحقون هذه الملاطفات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمت لهم سيجاراً . هؤلاء أناس نتنون . أما البنات فهن جميعا قذرات وسخات . انى لأوثر أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله . ان بناتى نائمات الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً بقدمى اذا اقتضى الأمر ، وسأجبرهن على أن يغنين لك . لقد قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

عبثا كان تريفون بوريستش يشفق الآن على ميتيا ، اذ انه

أخفى عنه نصف دستة زجاجات شمبانيا آنذاك وحين وجد تحت المائدة ورقة بمائة روبل رفعها وشد عليها قبضته . وهكذا بقيت فى قبضته .

— تريفون بوريستش ! ألا تتذكر أننى أنفقت هنا أكثر من ألف روبل فى المرة الماضية ؟

— كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفى العزيز .

— اذن فاعلم أننى أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه . أنظر !

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل . ثم أضاف قوله :

— اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر . فاحمل هذا كله فورا الى فوق . أما ذلك الصندوق الخشبى الموجود تحت مقعد آندرى فيجب أن تنقله الى هناك أيضا ، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً . ولكن لا تنسى أن الأمر الأساسى هو البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجىء ماريا تلك ! . . .

واتجه ميتيا الى العربة فأخرج من تحت مقعده علبة المسدسين .

— سأدفع لك دينك علىَّ يا آندرى ، اليك خمسة عشر روبلاً ، أجرَ العربة ، واليك خمسين أخرى «بقشيشاً» . . . مكافأة لك على اخلاصك ، وتقديراً لاستعدادك . . . تذكر البارين كارامازوف .

قال آندرى بلهجة مترددة :

— لا أجرؤ يا بارين° . . . اننى أقبل خمسة روبلات

مكافأة ، لا أكثر من ذلك . مستحيل . . . هذا تريفون بوريستش شاهد علىَّ . اغفر لى حماقتى . . .

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره :

— ممَّ تخاف !

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقى اليه خمسة روبلات :

— أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريستش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعا على مهل دون أن يرونى . أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

ألقى تريفون بوريستش على ميتيا نظرة قلقة ، ولكنه أطاعه صاغرا فقاده فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تناخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ، ثم أدخل ميتيا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وتركه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى . غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى . كانت جالسة فى جانب على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريباً منها على الكنبة ، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة . كانت جروشنكا ممسكةً يده وكأنها تضحك ، بينما كان هو لا ينظر اليها ويناقش ماكسيموف فى امتعاض ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا ويضحك ضحكا عاليا أما هو فقد كان جالسا على الكنبة نصف مضطجع ، وكان يدخّن غليوناً . وعلى كرسى جنب الكنبة قرب الجدار ، لاحظ ميتيا رجلا آخر لا يعرفه . ان الشخص المسترخى على

الكنبة يبدو رجلاً بدين الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن بدا لميتيا أنه غاضب من أمر ما ، أما الثانى فهو طويل جداً . على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك . لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمنا أطول ، فوضع العلبة على الكومودينو ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره . رأته جروشنكا أول من رآه ، فصاحت مذعورة :

— آى . . .

٧

الصديق القديم الذى لا يمكن جحوده

تقدم ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة وبدأ كلامه بصوت قوى جدا ، بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولكنه يتلعثم عند كل كلمة :

— ايها السادة . . . أنا . . . لا . . . لا شىء . . . لا تخافوا ، لن أفعل شيئا . . . (ثم قال ملتفتا نحو جروشنكا التى مالت على كالجانوف وتشبثت بذراعه) . . . لا شىء . . . أنا . . . أنا هنا عابر كذلك . . . سأمكث حتى الصباح فقط . . . يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر أن يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة . . . فى هذه الغرفة نفسها ؟

ووجَّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخّن على الكنبة . فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شفتيه بوقار ، وأجاب بصوت قاس :

— بانى[1] ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزل حجرات أخرى .

فتدخل كالجانوف فجأة يقول :

— أهذا أنت يا دمترى فيدوروفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ؟ اجلس هنا . . . أهلاً بك !

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً :

— يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذى لا نظير له . لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام .

ومدَّ اليه يده من فوق المائدة .

قال كالجانوف ضاحكا :

— أوه ! يا لها من قبضة قوية ! لقد أوشك أن يحطِّم أصابعى .

فقالت جروشنكا مرحةً وهى تبتسم وجلة :

— هذه طريقته فى المصافحة دائماً . . .

لقد أدركت جروشنكا من النظر فى هيئته أنه لن يعمد الى شىء من العربدة . وكانت تتفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق . ان شيئا ما فى تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو وكلامه على هذا الشكل قد بدا لها غريباً .

وانبرى الملاَّك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعاذب :

— مرحباً !

فاندفع ميتيا نحوه قائلاً :

[1] «بانى» : كلمة بولونية تعنى «ياسيد» كُتبت بحروف روسية فى الأصل . المراجع .

— مرحباً ! أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها السادة ! أنا . . . (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخن الغليون ، وكان واضحا أنه يعده أهم شخص فى هذا الجمع) . . . أنا قد أسرعت الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة ، فى هذه الغرفة نفسها . . . التى أتيح لى فيها ، أنا أيضا ، أن أعبد ملكتى ! (ثم هتف يقول فى اهتياج) اغفر لى يا بانى . لقد أسرعت الى هنا وحلفت اليمين . . . أوه ! لا تخش شيئاً ، لأن هذه الليلة هى ليلتى الأخيرة ! فلنشرب أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر . ولقد حملت معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية ، لا يدرى أحد لماذا) . . . اسمح لى أيها السيد . . . اننى أريد موسيقى ، أريد صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرة الماضية . ان دودة الأرض ، ان دودة الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض . . . لسوف تختفى وتزول . . . أريد أن أستحضر فى ليلتى الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! . . .

كان ميتيا يختنق اختناقا . أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة . لبث البولندى جامداً لا يتحرك ، منقِّلا بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة . قال :

— اذا وافقت ملكتى . . .

قالت جروشنكا مقاطعة على حين فجأة :

— ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أأنا

ملكة ؟ انكما لتضحكانى ! اجلس هنا يا ميتيا . ماذا كنت تعنى حين قلت أن هذه الليلة هى آخر لياليك ؟ لا تروعنى ، أرجوك . لن تروعنى ، أليس كذلك ؟ اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك . . .

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

— أنا ؟ أنا أروعك ؟ أوه . . . اعبرا . . . اعبرا . . . لن أكون عقبةً فى طريقكما . . .

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسى وأجهش يبكى ، محولا رأسه نحو الجدار المقابل ، شاداً بيديه ظهر الكرسى كأنه يعانقه . ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه .

سألته جروشنكا بلهجة العتب :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتى الىَّ . يأخذ يقول على حين فجأة أشياء لا تُفهم ، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً فى ذات مرة . . . وها هو ذا يعيد الآن الكرة . ألا تستحى ؟ لماذا البكاء ؟

ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة ، وهى تشدد كلماتها بشىء من الحنق :

— **لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل . . . .**

قال ميتيا :

— أنا . . . أنا لا أبكى . . . هيه ! يومكم سعيد جميعا !

واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً . ليست ضحكه الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة ، ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله .

قالت جروشنكا ملحة :

— تعود ثانية . . . هلاَّ كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! انى سعيدة جدا بمجيئك يا ميتيا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعنى ؟

ثم قالت بلهجة آمرة وهى تتجه بكلامها الى جميع الحضور فى ظاهر الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الكنبة فى الواقع :

— أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فاذا كان عليه أن ينصرف ، انصرفت أنا أيضا .

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شررا .

قال «البان» وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة :

— رغبات ملكتى هى عندى قوانين .

ثم التفت الى ميتيا متحبباً متوددا وقال :

— تفضل فاجلس معنا يا سيدى !

وهمَّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقى خطاباً جديداً كما ظهر ذلك فى هيئته ، ولكنه اكتفى بأن قال :

— لنشرب ، بانى !

وضحك الجميع .

هتفت جروشنكا تقول بعصبية :

— يا رب السماء ! تصورت أنه سيلقى علينا خطاباً آخر . . .

ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

— اسمع يا ميتيا ، كفَّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك هادئاً . أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جئت بها . سيحلو لى أن أشرب شمبانيا ، لأننى أكره الخمور الأخرى . واننى ليسرنى خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتى ، فلقد كنا هنا فى

ضجر رهيب خانق . . . هل تنوى أن تقصف وأن تبدد من جديد ؟ . . خبىء أوراقك المالية هذه فى جيبك . من أين جئت بكل هذا المال ؟

وها هو ذا ميتيا الذى كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التى تجعدت والتى كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما «البانين» البولنديين ، ها هو ذا ميتيا يسرع فيدس الكدسة فى جيبه وقد استحى واحمر وجهه . وظهر عندئذ صاحب النزل حاملا على صينية زجاجة شمبانيا مفتوحة وأقداحا . فأمسك ميتيا الزجاجة ، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبَّ كالجانوف الى نجدته ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح .

صاح ميتيا بأمر صاحب النزل :

ـــ هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يقرع كأسه بكأس «البان» بعد أن دعاه الى شرب الكأس نخبَ الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كئوسهم . وسرعان ما تغير تعبير وجهه . ان الهيئة التراجيدية الفخمة التى كانت له عند دخوله قد استحالت الآن هيئة تشبه أن تكون هيئة طفل . بدا عليه الاذعان والتضاؤل . فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكّر بالكلب الصغير المذنب الذى يحس بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد . لكأنه نسى كل شىء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد ، بنوع من الاعجاب ، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً . أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها . وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ

الرجلين البولنديين أيضاً ، رغم أنه لم يدرك بعد وزنهما ، فأما البان الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغليونه خاصة . قال ميتيا لنفسه : «هل من ضير فى أن يحب الغليون !» . ولم يصدمه فى أول الأمر ما لاحظه فى وجه هذا البان الذى يقارب عمره الأربعين ، من غضون وأخاديد ، ولا ضايقه أنفه الصغير الذى يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمَّعان يضفيان على وجهه لا أدرى أى نوع من الاستخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة فى سيبريا والممشوطة مشطاً غبياً من خلف الى أمام على الصدغين . قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهناءة : «باروكة ؟ لِمَ لا ؟» . وأما البولندى الآخر الذى يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من «البان» ذى الغليون ، فقد كان ينظر الى الجمع بوقاحة مستفزّة ، ويتابع حديثهم محتفظا لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار . ان الشىء الوحيد الذى خطف بصرَ ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذى يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضا واضحا وتضادا بارزا قال ميتيا لنفسه : «لو نهض لكان طوله قريبا من مترين !» وقد اعتقد ميتيا أيضا أن «البان» الطويل لا بد أن يكون مرتبطا بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده ، فالقصير هو الذى يأمر العملاق فى أغلب الظن . وبدا ذلك كله لميتيا طبيعيا سعيدا كل السعادة . لم يبق فى الكلب الصغير أثر من خصومة أو تنافس . ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقى لموقف جروشنكا ، وللهجة الملغزة التى كانت تقول بها بعض عباراتها . فكل ما عرفه متأثرا فى قرارة قلبه أشد التأثر ، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها . وقد أصبح لا يملك نفسه اعجاباً بها وهى تحسو بضع جرعات من الشمبانيا . ولكن

الصمت الذى كان يخيِّم على الجمع لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكأن عينيه تقولان : «ما بالنا لا نفعل شيئا ؟ ما الذى يمنعكم عن الحديث أيها السادة ؟»

قال كالجانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره ، قال مشيراً الى ماكسيموف :

— انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيرا .

فحدق ميتيا الى الرجلين واحداً بعد آخر . وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيرا :

— يكذب ؟ هاً هاً . . .

— نعم ، تصور أنه يدعى أن جميع ضباطنا فى سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و١٨٣٠ ؛ هذا سخف ، أليس كذلك ؟

قال ميتيا بالغاً أوج السرور :

— بولنديات ؟

كان كالجانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا ، وكان يحزر أيضا دور «البان» البولندى ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيرا ، لانشغاله بماكسيموف وحده دون ما عداه . لقد قادته هو وماكسيموف المصادفة الى هذا النزل الذى التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن . أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك ، ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً . وقد ظل لا يبالى بها فى ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه قبل وصول ميتيا . انه فتى فى العشرين من عمره على أكثر

تقدير ، شديد الأناقة ، جميل الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان أخاذتان تعبران عن ذكاء ، وتعبران فى بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتفق ذلك مع سنه الغضة ، لا سيما وأن مظهره وحتى أقواله تُشعر فى بعض الأحيان بأنه طفل . على أن هذا لم يكن يضايقه قط ، رغم شعوره القوى به . كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربما بدا فى بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجه أبدا عن لطفه وعذوبته . وكان تعبير وجهه يتجمد فى بعض الأحيان فيكتسى شيئا يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصغى اليه ، ولكنه يكون غارقاً فى أفكاره هو ، يتابعها فى اصرار لا يحيد عنه . وهو تارة رخو متوانٍ ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب .

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة :

— تصور أننى أطوِّف هذا الرجل معى منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التى دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تتذكر ذلك حتماً . لقد اهتممت بأمره عندئذ ، وأخذته معى الى الريف . ولكنه لا ينقطع عن الكذب . انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقنى ويزعجنى . وانى أنوى أن أعيده الى داره . . .

قال البولندى ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف :

— ان هذا الرجل لم يعرف فى حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة .

كان البولندى ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه . ولكنه

يصرّ على أن ينطق بها نطقا رديئا ، فهو يشوّه الألفاظ .

أجاب ماكسيموف يقول بضحكة صغيرة :

— ولكننى تزوجت أنا نفسى امرأة بولندية .

فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلا :

— هل خدمت فى سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هل لك هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحاً ، وكان يصغى الى الحديث بنهم وشراهة :

— هذا هو الأمر ! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟ ها هأ . . .

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدرى الا الله ما هى !

قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

— لا . . . لقد أسأت فهمى . فانما أنا أقصد أولئك الفتيات البولنديات . . . وهنّ فتانات فى الواقع . . . يكفى أن ترقص احداهن مع الفارس رقصة مازوركا ، حتى تثب بعد ذلك فورا على ركبتيه ، كقطة صغيرة بيضاء . . . ويكون البان أبوها والبانى أمها حاضرين ، فلا يجدان فى ذلك بأسا ولا يحتجان . . . بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان . . . وفى الغد يمضى الفارس يطلب يد الفتاة . . . . يمضى يخطب الحسناء . . . . ها ها . . .

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً .

— بان وغد !

هكذا جمجم يقول البولندى الطويل ، الجالس على

كرسى قرب الحائط ، وأنزل احدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبهما فى الاتجاه المعاكس من جديد . لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً . يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها .

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة :

— لماذا يكون وغدا ؟ أنا لا أحب الاهانات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا :

— بانى اجريبينا ! لا بد أن هذا البان قد رأى بنات وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة !

فأمّن الرجل العملاق على كلام صاحبه قائلا :

— تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين .

قالت جروشنكا متجهمة الأسارير :

— كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب البان البولندى ذو الباروكة ، يقول بوقار :

— لست أمنعه من الكلام يا سيدتى .

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا ، ثم صمت برزانة ونشق نفساً من غليونه .

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

— معذرة ! أحسب ان «البان» على حق . ما دام ماكسيموف لم يعش فى بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد ؟ انك لم تتزوج فى بولنده مع ذلك ، هه ؟

قال ماكسيموف شارحاً :

— لا . . . وانما تزوجت فى اقليم سمولنسك . ان احد

13-1300

الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى . . . أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد . . . جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها البانى أمها ، وخالة من خالاتها ، وقريبة أخرى لها ابن كبير . لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهنّ بولنديات حقاً . . . وقد تنازل لى الفارس عنها . كان هذا الفارس فتى أخاذا . . . كان فى نيته أن يتزوجها هو نفسه فى أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء .

هتف كالجانوف يسأله :

— كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

— نعم ، كانت تعرج . وقد تآمرا كلاهما على خداعى . كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثبا جميلا ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها . .

— الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولى .

— نعم ، الى فرحتها بتزوجى . ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن كذلك البتة . فبعد زواجنا ، بل فى مساء الحفلة نفسه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذارا مؤثرا : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فانكسرت عندئذ ساقها ! هأهأ !

انطلق كالجانوف عندئذ فى ضحك كضحك الأطفال تماما ، وكاد ينقلب على الكنبة . وضحكت جروشنكا أيضا . أما ميتيا فقد شعر أنه فى ذروة الغبطة والهناءة والسعادة .

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا :

— هل تدرى أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب فى هذه المرة ! اعلم أنه تزوج مرتين . . . وهو عن زوجته الأولى

انما تحدث الآن ، أما الثانية فقد هربت . . . هل تعلم هذا ؟ وهى ما تزال حية . أكنت تجهل ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

— غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكدا بتواضع :

— بل لقد هربت فعلاً . نعم . . . حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى . وأسوأ ما فى الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمها قريتنا والأراضى التى تتبعها . قالت لى : «أنت رجل مثقف ، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك» . على هذا النحو انما تركتنى . وقد نبهنى أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتىّ كانت ساقها عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة . . . هأ هأ ! . . .

صاح كالجانوف يقول فى حماسة :

— هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب — وهذا ما يحدث له أحياناً كثيرة — فهو لا يكذب الا ليسلينا . ليس فى هذا شىء من حطة ، ليس فيه شىء من حطة ! أليس كذلك ؟ انه يعجبنى أحيانا ، هل تعلمون ؟ هو دنىء جداً ، ولكن دناءته طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً فى منفعة ، أو سعياً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعا اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض . تصوروا مثلا أنه يدعى أن جوجول انما وصفه هو فى كتابه «النفوس الميتة» . لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق . انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريوف ، فحوكم هذا الرجل «بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، فى حالة سكر ، الى الملاك ماكسيموف» .

هل تذكرون ؟ ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذى جلد بالسياط ذلك الجلد الذى يحدثنا عنه كتاب جوجول ، فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلا ! ان تشتشيكوف قد سافر فى بداية العشرينيات ، فالتاريخ اذن غير مطابق أبدا . انه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماكسيموفنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد . يستحيل ، أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولى هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن ! وتحيز له ميتيا باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً :

— ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد . . .

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

— الحق أن ما وقع لى لم يكن هو الجلد تماما ، بل كان شيئا من هذا القبيل .

— كيف هذا ؟ شىء من هذا القبيل ؟ أما أنك جُلدت وأما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل البان البولندى ذو الغليون صاحبه البولندى الطويل ، باللغة البولندية بهيئة من يشعر بالملل :

— كم الساعة الآن ؟

فرفع البولندى الطويل كتفيه . لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة .

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية :

— هل أضجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ،

فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة . أجاب البان البولندى بشىء من العصبية قائلا باللغة البولندية :

— بانى ! أنا لم أقل شيئا ، ولا أنوى أن أزعج أحداً .

فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

— طيب . اقصص الآن . مالى أراكم تسكتون جمعا على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه وقد سرَّه الاهتمام به ، وأخذ يقول بشىء من الدلال :

— ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد مَوَّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية . من ذلك أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقى نوسوف ، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقى شكفورنيف ، والاسمان مختلفان كل الاختلاف . أما فينارى فكان اسمه فعلاً فينارى ، ولكنه كان روسياً لا ايطالياً : فينارى بتروف . وكانت الآنسة فينارى فتاة أخاذة فتانة . . . ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدتين فى سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة اللامعة ! . . . وما كان أروع دورانها ! . . . ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات . لقد فتنت ألبابنا جميعا يومئذ . . .

زأر كالجانوف يسأله :

— ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاَّ قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذى يعنينا !

أجاب ماكسيموف :

— جلدونى بسبب بيرون .

فسأله ميتيا :

— اى بيرون ؟

— الكاتب الفرنسى الشهير بيرون . كنا جماعةً كبيرة فى حانة وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر . حدث ذلك فى أثناء تلك السوق نفسها . دعونى ، فما لبثت أن كلّفت لهم أبياتا شعرية لاذعة . قلت لهم : «أهذا أنت . . . بوالو ؟ يا للزى الغريب المضحك !» . فأجاب بوالو بأنه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات . . . هاها ! . . . ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم . وعندئذ أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة فى الأوساط المثقفة ، وكانت فى الحن كاوية :

أنت سافو وأنا فاوون — ذلك أمر مر
ولكن أكبر مصائبى
انك تجهلين طريق البحر .

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينوننى اهانات ليست لائقة . فاردت عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خراقة ؛ ومن أجل أن أسوّى الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا المثقفون جدا . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً فى الاكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ، فقال :

Ci-gît Piron qui ne fut rien
Pas même académicien[1]

فما كان منهم الا ان هجموا علىّ فجلدونى .

---

[1] هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئاً ذا بال حتى ولا عضواً فى الأكاديمية (بالفرنسية فى الأصل) .

— عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

— ليعاقبونى على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة الوداعة والحكمة ، قائلا :

— ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

— كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة ! لا أريد أن أسمعها بعد الآن . لقد توقعت شيئا أدعى الى البهجة وأبعث على الضحك !

فسرعان ما وجم ميتيا وكفّ عن الضحك . ونهض البان البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقعته المقادير فى صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم .

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

— ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن البان الجالس على الكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه . فصاح ميتيا يقول :

— فلنشرب أيها البان . (ثم التفت الى البولندى الاخر وتابع كلامه) . وأنت أيضاً . . . فلنشرب ، فلنشرب أيها البانى !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شمبانيا . وهتف يقول :

— فلنشرب نخب بولنده أيها البانى ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب نخب الأرض البولندية !

فأجابه البان ذو الغليون قائلا باللغة البولندية بوقار متلطف وهو يرفع كأسه :

— بكل سرور يابانى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

— والسيد الآخر أيضا . هلاَّ قلتم لى اسمه ! خذ كأسا يا سيدى .

قال السيد ذو الغليون :

— اسمه السيد فروبلفسكى .

واقترب السيد فروبلفسكى من المائدة متمايلاً ، وتناول كأسا ، ولكنه ظل واقفاً .

هتف ميتيا وهو يرفع كأسه :

— فلنشرب نخب بولنده يا بانى ! هورا !

وأفرغ الثلاثة كئوسهم . ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكئوس الثلاث من جديد . وقال :

— والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتآخى ! قالت جروشنكا :

— املأ لى أنا أيضا كأسا . أريد أن أشرب كأس روسيا .

وقال كالجانوف :

— وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال بضحكة قصيرة :

— وأنا أيضا ! اننى أحرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا . هىء هىء ! . . .

هتف ميتيا يقول :

— فلنشرب جميعا ! فلنشرب جميعا ! هات زجاجات أخرى يا ريِّس !

جىء بالزجاجات الثلاث الباقية . وملأ ميتيا الكئوس . وصاح يقول من جديد .

— نخب روسيا ! هورا !

فشرب الجميع الا البولنديين . أفرغت جروشنكا كأسها دفعةً واحدة . أما البولنديان فلم يمسَّا كأسيهما .

هتف ميتيا يقول :

— ماذا ؟ أهكذا أنتم ؟

فتناول البان فروبلفسكى كأسه ، ورفعه ، وقال بصوت عالٍ :

— اننى أشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ ! .

فهتف البان الآخر قائلا باللغة البولندية :

— عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما . فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

— ألا ما أغباكما !

فحدق البانان فى ميتيا كديكين ، وقالا له بلهجة التهديد :

— أيها . . . البان !

وكان يبدو على البان فروبلفسكى أنه خارج عن طوره ؛ وها هو ذا يصرخ قائلاً فى استياء باللغة البولندية :

— هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشنكا تقول بلهجة آمرة وهى تقرع الأرض بقدمها :

— سكوت ! كفاكم شجارا ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها . كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها . خاف ميتيا . وأسرع يقول :

— معذرة أيها البانى ! أنا المذنب . لن أكرر . يـــا فروبلفسكى ، يا بان فروبلفسكى ، لن أكرر بعد الآن .

فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج حانق :

— ليتك تسكت أنت على الأقل ! اجلس . ما أغباك !

جلس جميع الحضور ، وخيَّم الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فى حرج .

لم يدرك ميتيا شيئا عن اندفاع جروشنكا ، فاستأنف يقول :

— أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا . . ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً . . . فنسترد مرحنا وانطلاقنا ؟ . . .

قال كالجانوف باهمال ودون اكتراث :

— حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً .

فقال ماكسيموف مقترحاً :

— ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هىء هىء !

فقال ميتيا مؤيدا مستحسنا :

— لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان . . . فقال البان ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج ، قال باللغة البولندية :

— بوزنو يا سيدى .

فقال فروبلفسكى مؤمنا :

— هو على حق .

فسألت جروشنكا :

— بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنبة :

— معناها : الوقت متأخر .

فقالت جروشنكا بصوت حاد فى انزعاج :

— الوقت دائما متأخر فى نظرهم ، وكل شىء مستحيل

فى نظرهم . انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة . انهما ، الى أن جئت يا ميتيا ، لم يفعلا طوال الوقت شيئا غير الصمت ، متخذين هيئة التعالى تجاهى .

فهتف البان الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية :

— الهى ! ما قلته صحيح تماماً . لقد أصبحت حزينا منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية .

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

— أنا مستعد .

فأجابه ميتيا :

— افتح اللعب يا سيدى .

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها ورقتين بمائتى روبل ووضعهما على المائدة . وقال :

— أريد يا سيدى أن أخسر مالاً كثيراً معك . خذ الورق ، وكن أنت الخازن .

قال البان القصير بلهجة جادة مشددا كلماته :

— يجب أن نلعب بورق صاحب النزل .

فقال السيد فروبلفسكى باللغة البولندية مؤيداً :

— ذلك أفضل حقا !

قال ميتيا :

— تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! أنا فاهم . سنأخذ ورق صاحب النزل . أنتم على حق .

وقال يأمر صاحب النزل :

— هات ورقاً .

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن

البنات قد تجمعّن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد هنيهة ، ولكن العربة التى تحمل المؤن قد تأخرت . فنهض ميتيا وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة . لم يكن فى الغرفة الا ثلاث بنات . ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد . وكان ميتيا لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى لقد تساءل لماذا جاء الى هذه الغرفة . فلم يزد على أن يأمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر والكارامل ، وأن يوزّعها على البنات . وأضاف يقول متعجلا : «وقدّموا فودكا لآندرى لأننى جرحت شعوره منذ قليل» . وشعر ميتيا فى تلك اللحظة بأن أحدا يضع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذى كان قد تبعه الى الغرفة . همس يقول لميتيا :

— هل تستطيع أن تسلفنى خمسة روبلات ؟ اننى أحب أن ألعب أيضا ! هىء هىء . . .

— عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

— وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد . سأعطيك غيرها أيضاً . . .

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح :

— طيب !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى . ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغيبه . وكان البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله . وقد أصبح وجهاهما

أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة . وها هو ذا البان القصير ، الذى أشعل غليوناً جديداً ، يستعد لخلط الورق بوقار . هتف فروبلفسكى يقول :

— مكانكم يا بانى !

فقال كالجانوف :

— وأنا لن ألعب . فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا . فقال البان ذو الغليون :

— ان البان لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته . . .

سأل ميتيا متحمسا :

— كم الخزنة ؟

— يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك متوقف على المبلغ الذى تحطه .

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

— مليون !

— لا شك ان النقيب يعرف قصة البان بودفيسوتسكى . ؟

— أى بودفيسوتسكى ؟

— حدث فى ذات مرة فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال المحطوطة عند الخازن . فأقبل بودفيسوتسكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية ، فحطّ على الخزنة كلها . سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف . فقال بودفيسوتسكى : «بل اعتمادا على عهد الشرف» ، فقال الخازن «حسناً» ، وقطع ، فلمّ بودفيسوتسكى القطع الذهبية . فاذا بالخازن يقول له : «لحظة أيها البان» . وفتح الدرج وناول بودفيسوتسكى مليوناً وهو يقول له : «خذ . هذا ما ربحته» .

لقد كانت الخزنة مليوناً . قال بودفيسوتسكى متردداً : «كنت أجهل هذا» فقال له الخازن : «يا سيد بودفيسوتسكى ؛ أنت لعبت بالاعتماد على عهد الشرف . . . وأنا كذلك» . فأخذ بودفيسوتسكى المليون ودسّه فى جيبه .

هتف كالجانوف يقول :

— هذا غير صحيح !

فقال البان ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولندية :

— يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء فى صحبة أناس محترمين !

فصاح ميتيا قائلا :

— لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاستدرك يقول :

— معذرة يا بان ! ها أنا ذا أخطئ من جديد ! ان البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لعهد الشرف ، صوناً للجونور . . . أنظر كيف أتكلم البولونديةَ . . . هاهاها ! أحط عشرة روبلات على الولد .

فقال ماكسيموف وهو يضحك ضحكة صغيرة ويقدم ورقة البنت :

— وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، بنت الكوبة ، على «البانى البولندية» هىء هىء . . . .

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقترابا شديدا ، كأنه يريد أن يخفى ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب فى تعجل . ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضا .

صاح ميتيا :

— أضاعف .

وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل :

— وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل صغير !

صرخ ميتيا :

— خسرت ! **أضاعف** حطتى على السبعة .

وخسرت السبعة أيضاً .

قال كالجانوف فجأة :

— كف عن اللعب .

فعاد ميتيا يقول :

— **أضاعف** .

وظل ميتيا **يضاعف** ، وظل يخسر فى كل مرة ، ولكن الروبلات الصغيرة التى كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح .

صرخ ميتيا حانقاً :

— **أضاعف** أيضا .

فقال له «البان» ذو الغليون :

— خسرت حتى الآن مائتى روبل . فهل تريد أن تقامر بمائتى روبل دفعةً واحدة ؟

— كيف ؟ خسرت مائتى روبل ؟ لا بأس ! **أضاعف** مع ذلك ! ألعب بمائتى روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتى روبل ، وهمَّ أن يلقيهما على البنت ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليها فيغطيها . قال كالجانوف صائحا بصوت رنان :

— يكفى هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

— ماذا بك ؟

— يكفى هذا . لن أدعك تستمر .

— لماذا ؟

— هكذا ! دعهما وامض . سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب .

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم .

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة فى صوتها :

— دع اللعب يا ميتيا . ربما كان على حق . ثم انك قد خسرت ما فيه الكفاية .

نهض السيدان البولنديان من مقعديهما فى هيئة من أُهين .

قال البان القصير يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدق اليه تحديقاً قاسياً :

— أتراك تمزح ؟

وصرخ البان الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد :

— كيف تجرؤ أن تقول ذلك !

فغضبت جروشنكا وصرخت :

— لا أسمح بالصراخ هنا . لكأنكم ديكة حانقة !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد . وفجأة لفت انتباهه فى هيئة جروشنكا تعبير غريب . وفى تلك اللحظة نفسها ومضت فى ذهنه فكرة جديدة عجيبة .

بدأ البان القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً :

— سيدتى أجريبينا

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه . فقد اقترب منه ، وضرب بيده على كتفه وقال له :

— كلمتين أيها السيد النبيل !

فسأله هذا بالبولندية :

— ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

— تعال معى الى الغرفة المجاورة . وما سأقوله لك سيسرك كثيراً . سترى أن ما سأقوله لك يرضيك .

بدت الدهشة على البان القصير ، ونظر الى ميتيا فى خشية . ومع ذلك رضى أن يتبعه ، ولكنه اشترط أن يصحبه البان فروبلفسكى .

هتف ميتيا قائلا :

— حارسك ؟ فليأت هو أيضا . . . ثم ان حضوره ضرورى . هيا بنا أيها السيدان !

سألته جروشنكا قلقة :

— الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميتيا :

— سنعود بعد لحظة .

من رأى ميتيا فى تلك اللحظة أحسَّ أن فيه عزماً وجرأة وحماسة مباغتة . ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله . قاد ميتيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات وُتهيَّأ فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد . وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة صغيرة فى الركن . جلس البان ذو الغليون وميتيا متقابلين ، ووقف البان العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعا يديه وراء ظهره .

ان الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين ، ولكن كان واضحا أنهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله .

تمتم البان ذو الغليون يقول بالبولندية :

— ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها للبان ؟

— اسمع يا بانى . لن أكثر فى الكلام . خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال . . . هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق البان الى ميتيا بنظرة فاحصة ، مغرقا عينيه فى عينيه . وسأله بالبولندية :

— ثلاثة آلاف روبل يا بانى ؟

وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة .

قال له ميتيا :

— نعم ، ثلاثة آلاف ! اسمع يا بانى : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل . خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد . تخرج من هذا الباب الى الأبد . ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراءً ؟ سأجيئك به . وسآمر باعداد عربة ترويكا لك فوراً . . . وأتمنى لك سفراً سعيداً يا بانى . هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلىء ثقة . كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض . واتخذ وجه البان ذى الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم . وقال يسأل ميتيا :

— أين المال يا بانى ؟

— اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفةً ونفقات سفر . أما الباقى ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدينة ، أحلف لك بشرفى . سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) .

تبادل البولنديان نظرة . وأصبح وجه البان ذى الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل . قال ميتيا :

— بل أعطيك سبعمائة روبل ، لا خمسمائة ، كدفعة أولى . . أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى أحس بنذير سوء) . ما بك يا بانى ؟ ألا تصدقنى ؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال . ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود اليها غداً . . . ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تمتم يقول ميتيا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفا من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ . . .

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجهَ البان ذى الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتيا فى سخرية (باللغة البولندية) :

— أهذا كل ما تريده ؟ يا للعار !

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة . وبصق فروبلفسكى أيضاً .

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه ، وأدرك أن كل شىء قد ضاع ، قال :

— أنت تبصق أيها البان لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر ! ألا انكما لديكان مخصيان !

فقال البان ذو الغليون ، وقد احمر احمراراً شديداً (قال باللغة البولندية أيضا) :

— انك تهينني الى أقصى حدود الاهانة .

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام . وسار فروبلفسكى وراءه متمايلاً وتبعهما ميتيا حائراً وقد أسقط فى يده . كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه أوجس أن البولندى سيفضح الأمر . وذلك ما حدث فعلاً . فقد دخل البان ذو الغليون القاعة ، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحية ، وهتف يقول لها باللغة البولندية :

— لقد أُهنت الى أقصى حدود الاهانة يا بانى أجريبينا !

فاذا بجروشنكا تصيح فى وجهه حانقة وكأن أحدا مس لها أشد المواضع إيلاماً :

— باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروسية ! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولوندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروسية فى الماضى ، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشنكا محمرَّة الوجه غضباً .

— سيدتى أجريبينا . . .

— اسمى اجرافينا . . . أنا جروشنكا . . . تكلم بالروسية اذا كنت تريد أن أسمع لك !

جُرحت كبرياء البان فتنحنح ، وأسرع يقول فى تنفخ وفخفخة ، متعمدا تشويه الكلمات :

— أيتها البانى أجرافينا ! لقد جئت وأنا أنوى أن أنسى

الماضى وأن أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم . . .

فقاطعته جروشنكا قائلة وهى تثب من مكانها :

— جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

— نعم يا بانى ، كنت أريد أن أغفر لك . ان لى نفسا رحبة وقلباً سمحاً . ولكن سلوك خليلك قد أدهشنى . فمنذ هنيهة ، فى الغرفة المجاورة ، أراد البان ميتيا أن يعطينى ثلاثة آلاف روبل لأسافر . فبصقت فى وجهه .

صرخت جروشنكا تسأله بهستيرية :

— ماذا ؟ هل تجرأ أن يقدم لك مالا من أجلى ؟ أصحيح هذا يا ميتيا ؟ كيف جرؤت ؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى ؟

قال ميتيا فى أنين :

— أيها البانى ، أيها البانى ، انها طاهرة كملاك ، ولم أكن خليلها فى يوم من الأيام . لقد كذبتَ فى هذا الأمر . . .

زأرت جروشنكا تقول :

— كيف تجرؤ أن تدافع عنى أمامه ؟ لئن حافظتُ على طهارتى ، فاننى لم أفعل ذلك تمسكا بالفضيلة أو لأننى كنت أشعر بخوف من كوزما ، بل ليكون من حقى أن أكون متعالية معه وأن أصرخ فى وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقى تعس ! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذى عرضته عليه ؟

فصاح ميتيا يقول :

— انه لم يرفض . . . لقد رضى . . . ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطا أول هو سبعمائة روبل .

قالت جروشنكا :

— اتضح الآن كل شيء : لقد علم اننى أملك مالاً ، فأراد أن يتزوجنى !

صرخ البان يقول :

— يا بانى أجريبينا ، أنا فارس ، أنا بولندى نبيل ، لا شقى تعيس . لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لى ، ولكننى أرى الآن أمامى امرأة تختلف كل الاختلاف عن المرأة التى عرفتها ، أرى أمامى الآن امرأة راكبةً رأسها خالعةً عذارها . . .

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

— اذهب ! عد من حيث جئت ! لآمرنَّ بطردك ، فيضعوك على الباب ! ألا ما كان أشد بلاهتى حين عذبت نفسى خلال هذه السنين الخمس بسببه ! . . . لا . . . اننى لم اعذب نفسى هذا التعذيب بسببه ، وانما عذبت نفسى غضبا وحنقا ! ليس هذا هو الرجل الذى أحببته ! أوه ! انه لم يكن هكذا ! أغلب الظن أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة ؟ لقد كان ذلك صقراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكنى وينشدنى الأغانى . . الا ما كان أغبانى اذ لبثت أبكى طوال خمس سنين ، وما كان أحطنى ، وما كان أجبننى !

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد ، وغطت وجهها بيديها . وفى تلك اللحظة ، ترجعت فى الغرفة التى تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتى اجتمع شملهن أخيرا . لقد أخذن يغنين اغنية راقصة شيطانية .

فصاح فروبلفسكى على حين فجأة يقول :

— هذا محل دعارة ! يا رئيس ، اطرد هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزل يلقى على القاعة نظرات استطلاع من حين الى حين ، فلما سمع الصراخ فأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع اليهم . وقال يسأل فروبلفسكى بلهجة فظة غير متوقعة :

— هيه ! أنت ! مالك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله ؟

فزأر البان فروبلفسكى يقول له :

— وغد !

— وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاَّ قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئتك بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مغشوش ! هل تعلم أننى أستطيع أن أرسلك الى سيبريا بسبب هذا الغش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة . . .

واقترب صاحب النزل من الكنبة ، فأغطس يده بين الوسادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

— هذا ورقى ، لم يمسَّ !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

— لقد رأيته من ركنى لحظة دسَّ هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! انت وبش لا بان . . .

وقال عندئذ كالجانوف :

— وأنا فاجأت «البان» يغش مرتين .

صاحت جروشنكا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

— يا للعار ! آه . . . يا للعار ! . . . رباه ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟ . . .

وكانت جروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل .

قال ميتيا :

— لقد اشتبهت فى أنهما يغشان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت البان فروبلفسكى الى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

— مومس !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفعه ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات . وسرعان ما عاد الى القاعة لاهثا من الجهد والانفعال ، فقال للقوم :

— رميته على الأرض ! الغشاش يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع .

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحا ، واتجه الى «البان» ذى الغليون يسأله :

— هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك بشيبرا شام [1] .

فهتف تريفون بوريستش يقول :

— ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استردَّ منه المال

---

[1] تفضَّل ! (بالبولندية فى الأصل) .

الذى خسرته فى اللعب ، على الأقل . . . لقد سرقاك !

قال كالجانوف :

— أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

— وأنا اتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن أستردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما !

— مرحى ميتيا ، عظيم !

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شىء من الشر .

فاتجه البان ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق ، ولكنه لم يفقد شيئا من رصانته . ومع ذلك فانه قبل أن يخرج من القاعة ، توقف والتفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية) :

— بانى ، اذا كنت تريدين أن تتبعينى ، فتعالى ! والا . . . فوداعاً . . .

ثم اجتاز الباب برصانة مختنق الصدر غضباً وغروراً .

ذلك الرجل شخصية . فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه «البانى» ، لأنه يقدر نفسه قدراً عظيماً . أغلق ميتيا الباب خلفه .

وقال له كالجانوف ناصحاً :

— اقفل الباب عليهما بالمفتاح .

ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة . لقد سارعا هما الى اقفال الباب بالمفتاح .

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة :

— عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

٨

هذيان

ما ان مضى البولنديان حتى شمل القاعة مرحٌ عام ، وحتى بدأ احتفال يشبه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر . «أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً ، كالمرة السابقة ، هل تتذكر يا ميتيا ، يومَ تعارفنا ؟» وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان ، لأنه كان يتنبأ «بسعادته» . وكانت جروشنكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه فى كل لحظة ، قائلةً له : «اذهب اليهم ، سرٍ عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح . أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرة السابقة ، كالمرة السابقة تماماً» . كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس . وكان ميتيا يتحرك هنا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها . تجمع أفراد الجوقة فى الغرفة المجاورة . ان هذه القاعة التى تجمعوا فيها صغيرة مسرفة فى الصغر ، تقسمها الى قسمين ستارةٌ من نسيج قطنى تخفى وراءها سريراً ضخماً ذا حشوة رخوة كبيرة فوقها كدسة من وسائد . وان فى سائر الغرف الأربع الأخرى «النظيفة» سروراً على كل حال . استقرت جروشنكا أمام الباب ، حيث أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه . ذلك هو المكان الذى شغلته «فى ذلك اليوم» ، أثناء احتفالهما الأول فى الليل ، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء . ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن . ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان . وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضا تحمل المؤن والخمور . شغل ميتيا كثيـــــراً ، وراح

يتحرك هنا وهناك . كان أناسٍ من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة . لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل ، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى . ان ميتيا يحيى الوافدين الجدد ، ويعانق الأصحاب القدامى ، ويثير ذكريات سابقة ، ويفتح الزجاجات ، ويقدم الشراب لكل قادم . والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا ، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك ، ويفضلون «البنش» خاصة . أصدر ميتيا أوامره باعداد شوكولاته للبنات ، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاى والبنش . يجب أن يكون هنالك شراب للجميع . يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر . الخلاصة : قامت الدنيـــا وقعدت ، وأخذ الناس يشربون بفوضى لا يلجمهم شىء . ولكن ميتيا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح ، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة . فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً فى تلك اللحظة ، اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزّع الأوراق المالية على الحضور دون عد . ولعل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن . وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام فى هذه الليلة ، لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلاً جداً (اكتفى بكأس بنش واحد) ؛ ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه ، ولو على طريقته الخاصة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذبة لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الحفاة «سيجاراً وخمور الراين كما فعل فى المرة الماضية» ، أو أن يوزّع عليهم شيئاً من المال

خاصةً ، لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقضم ملبساً ، فيقول : «وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين ، ولأحملهن على أن يشكرن لى فى هذا الشرف ذلك ما هن به جديرات !» . وتذكر ميتيا الحوذى آندرى من جديد ، فأرسل اليه شيئا من البنش . وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع : «لقد أسأت اليه منذ قليل» . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوقة البنات ولكن مرحه اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يسير فى خلال الغرف ضاحكاً مطرباً كل شىء ، الأغانى والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنكا ، التى ثملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومىء الى كالجانوف «ما ألطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه !» ، فكان ميتيا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة ، وكان يقبل ماكسيموف فى هذه المناسبة . آه . . ما كان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشىء بعد ، وأنها كانت تتعمد تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر اليه خلسةً من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وها هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه اليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب :

— ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! أوه ! لقد خفت عندئذ خوفاً شديداً . كيف خطر ببالك أن تتنازل عنى لذلك الرجل ؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :

— لم أشأ أن أفسد سعادتك .

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه . وصرفته عنها من جديد قائلة له :

— اذهب ، اذهب ، سرّ عن نفسك لاهياً معهم . وليس لك ان تتشكى ، فسأناديك بعد قليل .

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصغاء الى الأغنيات . ولكنها لم تصرف عن ميتيا نظراتها . فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها . قالت :

— اجلس بجانبى الآن ، واقصص علىَّ كيف علمت أمس أننى هنا . من أول من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس فى سرده تسلسل كثير . والشىء الغريب أنه كان فى بعض الأحيان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه . قالت له جروشنكا :

— ما بك ؟

فأجابها :

— لا شىء . . . لقد تركت فى المدينة مريضاً . أرجو أن يشفى . . . انى لأهب من عمرى عشرة أعوام فى سبيل أن يشفى !

— لا تفكر بعد الآن فى ذلك المريض . قل لى : هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر فى غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً :

— أحب أمثالك ، المجانين قليلاً . أأنت مستعد اذن لأن تجازف بكل شىء فى سبيلى ؟ أكان فى نيتك اذن أن تنتحر من أجلى غداً يا عزيزى الطيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك ان تنتظر . . . قد أقول لك فى الغد كلمة

صغيرة . . . لا اليوم . . . بل غداً ! آ . . . لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا . . . لا أريد أن أقولها اليوم . . . اذهب ، اذهب الآن ، سلِّ نفسك !

ولكنها نادته فى لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسألته :

— مالى أراك حزيناً هذا الحزن كله ؟ اننى ألاحظ أنك مهموم .

وسدَّدت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

— نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً . مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين ، فاننى أدرك أن هناك شيئاً يعذبك . كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فعليك أن تفرح أنت أيضاً . . . تصور أننى أحب أحداً هنا . احزر من هو ؟ . . . أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتاى الصغير . . . انه ثمل ، عزيزى !

كانت تعنى كالجانوف . لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول . على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفى أن تغرقه فى النوم . وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل فى وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معيَّن واضح ، وذلك ما عبَّر عنه بقوله انه «ضجر» . وكانت أغانى البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز ، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شىء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبَّيْن ، وأخذت ستيبانيدا ، وهى امرأة قوية الجسم خلية البال ، «تعرضهما» وفى يدها هراوة ، قائلةً فى صراخ : «بحيوية يا ماريا ، والا هويت عليك بالهراوة !» وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهور الفلاحين

والفلاحات الذى يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل ! قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة : «دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة . ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فلينتهزوها !» وكان كالجانوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتعد وهو يقول : «ما أكثر الوضاعة فى هذا الفرح الشعبى ! انهم يلعبون ألعابهم الربيعية منتظرين طلوع الشمس فى الليل الصيفى» . وكانت قد آذته أغنية «جديدة» ايذاء خاصاً . هى أغنية تتردد فيها لازمة بايقاع راقص ؛ وهى تروى قصة سيد مسافر يسأل البنات .

سأل السيد البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً .

سيضربنى السيد
ولن أحبه .

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سأل الغجرى البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

ولكنه لم يعجب أكثر من السيد :

سيكون الغجرى لصاً
ولن تكون هذه هى السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندى :

سأل الجندى البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار :

سيحمل الجندى الكيس
وأنا خلفه . . .

وكان البيت الثانى بذيئاً بذاءة صريحة ، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً ، فتثير فى الجمهور حماسة عظيمة ، وتقدم أخيراً تاجر :

سأل التاجر البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

فأجبته البنات ، لأن :

التاجر سيجنى ثروة كبيرة
ويجعلنى أميرة . . .

غضب كالجانوف فصاح يقول بصوت عال :

— هذه أغنية حديثة جداً . تُرى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها فى الواقع الا متعهدو سكك حديدية ويهود . فلو سألوا البنات لاحرزوا النصر !

كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً ، وقال فجأة أنه ضجر ، وجلس على الكنبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً ، ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشنكا وهى تقود ميتيا اليه :

— أنظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أمشط شعره . ان شعره غزير كثيف ، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومةً . . .

ومالت جروشنكا على كالجانوف فى حنان ، وقبلت جبينه . ففتح كالجانوف عينيه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال : أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشنكا ضاحكة :

— انظروا عمن يسأل . ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاَّ بقيت معى بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به .

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يبتعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر . وقد شرب أيضاً فنجانين من الشوكولاته . وتلوَّن خداه ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفة وحنان . وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «سابوتيير»[1] على «لحن موسيقى معروف» . وقال شارحاً :

— لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة .

قالت جروشنكا :

— اذهب معه يا ميتيا أما أنا فسأنظر الى رقصته من هنا .

فهتف كالجانوف يقول فى سذاجة ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشنكا وهى أن ينفرد بها :

— سأمضى أنا أيضاً . اننى أريد أن أراه عن كثب حتماً .

---

[1] رقصة شعبية فرنسية تُرقص بقباقيب .

وتبعوا ماكسيموف . وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة أحد الا ميتيا . هى رقصة قوامها قفزات وتلويات ، ورفع السيقان الى فوق وجعل النعال عاليةً فى الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده فى كل مرة . استاء كالجانوف ، ولكن ميتيا قبّل الراقص قائلاً له :

— شكراً لك يا صاحبى الطيب . يخيّل الىّ أنك تعبت . أأنت تنظر الى السكاكر ؟ أتريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً ؟

— بل سيجارة .

— ألا تريد أن تشرب شيئاً ؟

— شربت خموراً . أليس عندكم سكاكر بالشوكولاته ؟

— ما أكثر ما عندنا على المائدة . اختر ما يحلو لك يا حمامتى !

— لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة . . . أريد سكاكر الشيوخ العجائز تلك ! هىء هىء ! . . .

— ليس عندنا منها يا أخى !

ومال العجوز فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً :

— قل لى : أما من سبيل . . . أليس هناك وسيلة . . . أنظر الى هذه البنية ، الى ماريا اللطيفة هذه ، هىء هىء ، كم أود لو أتعرف عليها . . اذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن . . .

— ما هذا الكلام ! كلا ، يا أخى .

— لا أريد بأحد شراً .

كذلك دمدم يقول ماكسيموف باكتئاب . فقال له ميتيا :

— طيب . . . طيب . . . هنا يا أخى غناء ورقص ،

ولكن ذلك هو كل شىء . على كل حال . . . اذا كنت تحرص هذا الحرص كله . . . عجيب ! عليك قبل كل شىء أن تأكل وتشرب وتمرح . ألعلك فى حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

— ربما أحتاج الى شىء من المال . فيما بعد .

— طيب . . .

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة . خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذى يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء . أحسن اليه الهواء الطرى . توقف وحيداً فى ركن مظلم ، واذ به يضع رأسه بين يديه فجأة . ان خواطره المتفرقة المتبعثرة ، واحساساته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! ومرقت فى ذهنه فكرة : «اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة فى رأسى ، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً ؟ أمضى فأجىء بمسدسى وأنهى الأمر فى هذا المكان نفسه ، فى هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟» ولبث يتردد دقيقة طويلة . انه منذ ساعات قليلة ، جين كانت عربة الترويكا تقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم . . . ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار أسهل منه الآن ، أسهل كثيراً ! كل شىء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قد تنازل عنها . . . أصبحت لا وجود لها . . وكان تنفيذ الحكم الذى أصدره على نفسه هيناً يسيراً . لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له ، لقضاء أعلى لا اعتراض عليه . ما كان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقى شىء يشده الى هذا العالم ويربطه به . أما الآن

فقد اختلفت الحال . ان أحد أشباح الخوف قد تبدد الآن دخاناً ! ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده او التنكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً . لقد أخرج من الغرفة كطفل ، وأقفل عليه الباب بالمفتاح ! ولن يرجع أبداً . انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؛ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ فى عينيها من ذا تحب فى الواقع . الآن انما يمكن ان تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً . . . ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! «اللهم ردَّ الحياة الى ذلك الذى صرعته قرب السور ! فلتجز عنى هذه الكأس ! اللهم انك قد صنعت معجزات لأناس غيرى كانوا مذنبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! . . . ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يمت ! لأمحونَّ عندئذ عار الاثم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض . . . لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار . . . الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد . لا ، لا ، هذا مستحيل . هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها . . يا للعذاب !» .

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل . انتزع نفسه من تأمله القاتم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأرضى ، أسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد . تساءل : «ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها ، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً» . استولت هذه الفكرة الغريبة على ميتيا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل . قال يحدث

نفسه : «أراها ، أراها أيضا ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير فى أى شىء ، أنسى كل ما عداها ، ولو ليلة واحدة ، ساعة واحدة ، دقيقة واحدة !» . وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوريستش عند مدخل الدهليز . كان تريفون بوريستش حزين الهيئة متزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه .

ـــ أتبحث عنى أنا يا تريفون بوريستش ؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه :

ـــ لا . . . لا أنت . . . ثم علام أبحث عنك ؟ ولكن . . . أين كنت ؟

ـــ مالى أراك مظلم الوجه ؟ أتراك غاضباً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تنام . كم الساعة الآن ؟

ـــ هى الثالثة أو تزيد .

ـــ سننصرف .

ـــ لا ، لا . . . فى وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا . . .

تساءل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التى كانت ترقص فيها البنات : «ما ذا حدث له ؟» . ولكن جروشنكا لم تكن هناك . لا ولا كانت فى الغرفة الزرقاء . وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً . ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فاذا هو يجدها هناك . كانت جالسةً فى ركن ، على صندوق ، مسندةً رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكى بكاءً مراً ، محاولة أن تخنق نشيجها ، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها . لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً . وقالت هامسة :

ـــ أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك ! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أأحببته

أم كنت أحب حقدى ؟ لا بل أحببته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكذب اذا زعمت اننى ما أحببت الا حقدى ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمرى حينذاك الا سبعة عشر عاما ، وكان يُظهر لى كثيرا من اللطف والأنس والوداعة ، وكان يغنى لى اغنيات وكان مرحاً . . . أم تراه لم يظهر لى فتاناً الى ذلك الحد الا لأننى كنت غبية ، الا لأننى كنت طفلة غرة ؟ . . . أما اليوم . . . رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أيضاً ، فهو لا يشبهه البتة . أنكرته حين رأيته أول وهلة . لقد كنت أتساءل طوال الطريق ، وأنا آتية الى هنا مع تيموثى : «كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ . . .» وانهارت نفسى . . . كأنما صب على رأسى سطلاً من قاذورات . تكلم كما يتكلم معلم مدرسة . اتخذ أوضاع العلماء ، واصطنع هيئة الوقار ، فأرتج علىَّ وخرست ! لم يتح لى أن أقول كلمة واحدة . حسبت فى البداية أن وجود ذلك البولندى الطويل يحرجه . كنت جالسة هناك ، أمامه ، أتساءل لماذا أصبحتُ على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له . ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هى التى أثرت فيه تأثيراً سيئاً . . . تلك المرأة التى من أجلها تركنى ثم تزوجها بعد ذلك . . . لقد بدلته تبديلاً كاملاً . . . يا للعار يا ميتيا ! انى لأشعر الآن بالعار من حياتى كلها ! لُعنت تلك السنون الخمس ، الى الأبد .

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضغطتها فى يدها مزيدا من الضغط .

— ميتيا ، حمامتى ، لا تذهب ، انتظر لحظة سأقول لك كلمة صغيرة (هكذا دمدمت تقول وهى ترفع اليه بصرها) .

اسمع . قل لى أنت : من هو الرجل الذى أحبه ؟ أننى أحب رجلاً هنا . فمن هو ذلك الرجل ؟ قل لى هذا أنت !

وأضاءت ابتسامة فى وجهها المحتقن من الدموع ، والتمعت عيناها فى الظلام . وتابعت تقول :

— منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان . وقال لى قلبى : «أيتها الغبية ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين !» لقد دخلت أنت فأضأت كل شىء . تساءلت : «ولكن ممَّ هو خائف ؟» . ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم . قلت فى سرى : «ليس خائفاً منهم مع ذلك . أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، اننى أعرف ذلك حق المعرفة . وقلت لنفسى عندئذ : «انه خائف منى ، منى أنا وحدى» ؛ اذ لا شك أن فينيا قد روت لك — أليس كذلك أيها الأحمق ؟ — كيف اننى هتفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، اننى قد أحببت ميتنكا مدة ساعة ، واننى ذاهبة الآن . . . لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتيا ، ميتيا ، كيف أمكننى أن أصدق أننى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان أغبانى ! اغفر لى يا ميتيا ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه . أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ، ووجهها ، وابتسامتها . . . ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات .

— هل ستغفر لى أننى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعا ، من فرط غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبى . . . هل تتذكر كيف حطمت فى بيتى قدحاً ،

فى ذات يوم ، بعد أن شربت ؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة . فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب «نخب قلبى الحقير !» . ميتيا ، صقرى ، لماذا لا تقبلنى ؟ لقد قبلتنى مرةً ثم أمسكت . انك تنظر الىَّ ، وتصغى الىَّ . . . ما قيمة الاصغاء الىَّ ؟ قبلنى ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبنى ! . . . لأكونن بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة . . . قبلنى أيضاً ! اضربنى ! عذبنى ! افعل بى ما شئت . . . لأننى أستحق ان تعذبنى . . . لا . . . انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن .

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة . وأردفت تقول :

— اذهب يا ميتيا ، سأشرب الآن خمراً ، أريد أن أسكر ، وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر . تبعها ميتيا . كان كالسكران . «ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ؟ دقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله» . بهذا حدَّث ميتيا نفسه . شربت جروشنكا كأسا أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها . جلست على المقعد ، فى مكانها السابق ، وهى تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة . احمرَّ خداها ، احترقت شفتاها . وفى عينيها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامح . كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك ، كأن شيئا قد لسع قلبه ، فاقترب منها . سألته :

— هل أحسست بالقبلة التى وهبتها لك حين كنت نائماً ؟ أوه ! أحس أنى سكرى . . . وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتيا ؟ ميتيا ، يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب .

— أنا ؟ أنا سكران بغير شراب . سكران بك . . . ولكننى أريد أن أسكر بالخمر أيضاً .

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأسا آخرى ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجَّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكئوس السابقة لم تحدث أثراً فكان صاحياً وأدرك هذا ادراكاً واضحا . . . شىء غريب ! أخذ كل شىء يدور فى رأسه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان . انه الآن يمشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه ، دون أن يعى . وفى قلبه كانت تضطرم طوال الوقت عاطفة كاوية ثابتة «تحرقه حرقاً كجمرة» ، كما قال فيما بعد . وكان يقترب من جروشنكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامها . . . أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تنادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منها أخذت تقبلها ثم تصرفها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لتوشك أن تجهش باكية . وكان يفرحها ويضحكها «العجوز الصغير» خاصةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) . انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبِّل يدها ، لاثماً كل أصبع من «أصابعها الصغيرة العزيزة» ، واحدةً بعد أخرى . وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته . وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كريو — كريو
العجل الصغير ، مو — مو
البطة الصغيرة ، قوا — قوا .
الأوزة الصغيرة ، جا — جا

والدجاجة تمشى فى الدهليز
منادية صغارها : تيوريو — ريو — ريو .

قالت جروشنكا :

— هلاً أعطيته شيئاً يا ميتيا ! اهد اليه هدية . انه فقير . أوه ! رباه ! يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً ، يا لهؤلاء المذلّين جميعاً ! . . . هل تعلم يا ميتيا ؟ أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم . لقد كلمنى اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت ، لن أنساها ما حييت . أما الآن فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف يغفر لى الرب . أى ضير فى أن أتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : «يا أعزائى الخاطئين ، قد عفوت عنكم منذ اليوم .» . ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم : «أيها الناس الطيبون ، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية !» . ذلك ما سأقوله لهم . أنا وحش مفترس نعم . ولكننى أريد أن أصلّى . لقد وهبت بصلة أنا أيضاً . اننى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلّى ! دعهم يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم بغير استثناء ! آه ! ما أحلى أن يحيا المرء فى هذا العالم ! نحن شريرون ، ولكن الحياة جميلة جداً . . . فينا الخير والشر ، الخير والشر فى آن واحد . . . قولوا لى أنتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟ اننى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا ، مغرقة فى السكر مزيداً

من الاغراق شيئاً بعد شىء ، الى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة .

— ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت . اذا طلبت خمراً فلا تعطنى ! لا يحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء . ان كل شىء يدور الآن أمامى ، والمدفأة أيضاً ! أريد أن أرقص . . . فلينظر الىّ الجميع ، وليعجبوا برقصى . . . أرقص جيداً . . .

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيداً وقراراً حاسماً . أخرجت منديلاً صغيراً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيدها اليمنى لتلوّح به أثناء الرقص . تحرك ميتيا هنا وهناك . صمتت البنات ، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول اشارة . وحين علم ماكسيموف بأن جروشنكا سترقص ، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته ، وأخذ يتواثب أمامها ، وطفق يدندن :

ساقاها دقيقتان ودركاها مدوران
ولكن ذيلها كالبوق

أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها ، قائلة :

— شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً . . لرؤيتى . . . ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين . . . لماذا حبستهما ؟ قل لهما أننى أريد أن أرقص . فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح ، مترنح الخطى من السكر ، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين .

— هيه ! أنتما . . . اخرجا . . . انها سترقص وهى تناديكما .

فصاح أحد «البانين» البولنديين يجيبه بالبولندية :

— شقى !

فأجابه ميتيا :

— وما أنت الا شقى حقير صغير . . . ذلك أنت !

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الحكمة :

— هلا كففتم عن اهانة بولندة ؟

— اسكت ايها الفتى الصغير ! اننى اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن بولندة كلها . ليس مختالٌ تافه كلَّ بولندة . صمتاً أيها الطفل اللطيف ، عليك أن تأكل ملبسة .

قالت جروشنكا وهى تتقدم الى أمام لترقص :

— يا للأشرار ! أليس فيهم شىء من انسانية ؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً راقصاً . رفعت جروشنكا رأسها ، وفتحت شفتيها ، وابتسمت ، ولوَّحت بمنديلها ، ثم توقفت فجأة وهى تتمايل تمايلاً قوياً فى وسط الغرفة ، وتشعر بارتباك شديد . وأنَّت تقول بصوت أليم :

— أحس بوهن . معذرة . اننى ضعيفة جداً . . . لا أستطيع . . . لا تؤاخذونى . . .

وحيَّت الجوقة بانحناء ، ثم حيَّت جميع الحضور وهى تنحنى الى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة ، وتردد قولها :

— لا تؤاخذونى . . . لا تؤاخذونى !

قالت بعض الأصوات فى الجمهور :

— أسرفت فى الشراب ، السيدة الشابة ! . . هى سكرى ، السيدة اللطيفة . . .

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

— السيدة ثملة قليلاً .

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفئ :

— ميتيا . . . خذنى من هنا . . . انقلنى من هنا .

فهرع ميتيا اليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر . قال كالجانوف لنفسه : «فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف» ، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقا الباب وراءه . وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد . وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير ، وقَبلها قبلة محمومة على الفم . دمدمت تقول بصوت ضارع :

— لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعد . . . قلتُ أننى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى . . . ارحمنـــــى ، اشفق علىَّ . . . لا تفعل شيئاً الآن ، بينما هم لا يزالون هنا . ما ينبغى هذا . . . انه هناك . . . هذا فظيع هنا . . .

قال ميتيا متعثراً فى كلامه :

— اننى أطيعك . . . لم يخطر ببالى هذا . . . أنا أمامك فى اجلال . نعم ، هذا فظيع هنا . يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير .

قالت جروشنكا بصوت رخو :

— أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة . يجب أن يجرى كل شىء بشرف بعد الآن . . . أريد أن يكون كل شىء طاهراً . . . وأن نكون شرفاء أيضاً . . . لا بهائم ، بل بشراً طيبين . . . خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ،

هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا . . . أريد أن أسافر الى مكان بعيد . . . بعيد جداً .

قال ميتيا مؤيدا وهو يشدها الى قلبه :

— بالطبع ، سنسافر . . . سأخذك . . . سأطير بك ! . . . اننى مستعد لأن أهب حياتى كلها فى سبيل سنة واحدة شريطة أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم . . .

سألته جروشنكا مندهشة :

— أى دم ؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه :

— لا شىء . . . انك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء ، ولكننى أنا لص . لقد سرقت مال كاتنكا ! . . . يا للعار ! . . . يا للعار !

— كاتنكا ؟ الآنسة ؟ لا . . . لم تسرق شيئاً ! ردَّ اليها مالها . خذ مالى أنا . . . ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك . ما حاجتنا الى المال ؟ سوف نبدده على كل حال فى القصف واللهو . ان أمثالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال . اننى لأوثر أن نحرث الأرض معاً . أريد أنا أن أعمل فى الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما . ان من واجبنا أن نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذى شرح لى ذلك . لن أكون خليلتك ، بل حليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك المخلصة . . . سأتعب وأجهد فى سبيلك . . . سوف نذهب الى الآنسة ، فننحنى لها بتحية عظيمة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا . واذا لم تغفر ، فسنرحل مع ذلك . أما المال فسترده اليها . ان عليك أن تحبنى أنا . . . لا أريد أن تحبها هى ! . . . اننى أمنعك من أن تحبها . . . والا فلأخنقنَّها . . . لأفقأنَّ عينيها بابرة طويلة . . .

— أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك فى سيبيريا أيضاً » .

— لماذا تتكلم عن سيبيريا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سيبيريا اذا كنت ترغب فى ذلك . . . يستوى الأمر عندى . . . ان فى وسعنا أن نعمل هناك كما فى أى مكان آخر . . . ان فى تلك البلاد ثلجاً كثيراً . . . وأنا أعشق أن أركب الزلاجات التى تنزلق على الثلج سريعة مجلجلةً أجراسُها . هل تسمع ؟ لكأن جرساً يرن فى مكان ما . من أين يأتى رنين هـــذا الجرس ؟ . . . لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا الى النزل . . . انقطع الصوت الآن .

وأغمضت جروشنكا عينيها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت بضع لحظات . كان جرس قد رنَّ فعلاً فى بعيد ثم صمت . مال ميتيا برأسه على صدر جروشنكا . لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى انقطاع رنينه فجأة ؛ لا ولا لاحظ أن الأغانى قد توقفت وأن الصخب الذى كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حلَّ محله فجأة صمت كصمت الموت .

وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة . قالت :

— ماذا يجرى ؟ أأنا نمت ؟ نعم . . . ذلك الجرس . . . لقد نمت وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج . . . كان الجرس يرن ، وكنت أنا نائمة . كنت مسافرة مع رجل عزيز على قلبى ، معك أنت . وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً . . . وكنت أقبلك واشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو . . . وكان الثلج يسطع . . . الثلج الباهر ، وضياء القمر . . . لكأن ذلك لم يكن على الأرض . . . واستيقظت ، فاذا أنا أراك ، يا حبيبى ، قريبا منى . . . ما أحلى هذا ! . . .

ردَّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها وصدرها ويديها :

— نعم ، قريباً منك كل القرب .

وأحس فجأة باحساس غريب : خيِّل اليه انها تنظر الى أمام ، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه ، تتطلعان الى ما وراء رأسه ، فى جمود عجيب . عبَّرت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً ، ثم عن الخوف .

ودمدمت تقول :

— ميتيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟

التفت ميتيا فاذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛ حتى لقد أحسَّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك . فنهض من مكانه بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى . فاذا هو يسمع صوتاً يقول :

— تفضل الى هنا .

كان المنادى المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع .

خرج ميتيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه . كانت القاعة ملأى بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل . لقد احتل الغرفة أشخاص جدد . شعر ميتيا برعدة تسرى فى ظهره كله فارتجف . ان ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة . ان الرجل العجوز السمين الطويل الذى يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات شارة ، هو رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش . وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائما انما هو وكيل النيابة . «انه يملك كرونومتر قيمته أربعمائة روبل . لقد أراني

فى ذات يوم» . أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذى يضع على عينيه نظارتين . . . فلم يتذكر ميتيا اسمه ، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق ان رآه : انه قاضى التحقيق الذى تخرج من «مدرسة الحقوق» ووصل الى المدينة منذ مدة غير طويلة . وهذا موظف الشرطة مافريكى مافريكفتش الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد . ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية ؟ وهذان الفلاحان ؟ . . وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجانوف وتريفون بوريستش . . .

قال ميتيا :

— ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنما تدفعه الى ذلك قوة لا سبيل الى مقاومتها :

— ف . . . هِمت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشىء من السرعة :

— كنا نريد . . . الخلاصة . . . أرجوك أن تجلس هنا ، على الكنبة . . . ثمة حاجة ملحة الى أن توضح لنا الأمر .

صرخ ميتيا خارجاً عن طوره :

— العجوز . . . والدم المسفوح . . . ف . . . هِمت !

وكأنما انهارت قواه على حين فجأة ، فتهالك على كرسى كان هناك .

فاذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا :

— آ . . . فهمت ؟ فهمت ؟ يا قاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم أبيك يتهمك !

16-1306

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه كله يرتجف .

فصاح الشاب القصير القامة :

— ولكن ليس بهذه الطريقة يا ميخائيل ماكاروفتش . يجب أن أكون أنا وحدى أول المتكلمين . . . ما كنت أتوقع منك سلوكاً كهذا السلوك .

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

— هذا هذيان . . . هذا مشهد هذيان أيها السادة . انظروا اليه . . . تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى . . . هذا هذيان ، هـذا هذيان . . .

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلاً :

— أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميخائيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن . .

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

— أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة . . .

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاً . وتدخل وكيل النيابة قائلاً شيئاً بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا . . . ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين . . .

الباب التاسع

التحقيق التمهيدي

١

البدايات الموفقة للموظف برخوتين

ان بيوتر ايلتش برخوتين الذى تركناه يطرق طرقات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب السميك لمنزل الأرملة موروزوفا ، قد توصل طبعا الى أن يحملهم على أن يفتحوا له . وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما تفق بعد من الذعر الذى أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمت أمرها على أن تنام ، من شدة اضطرابها و«كثرة أفكارها» ، حين سمعت فينيا هذا الصخب استبد بها هلع قاتل مرة أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا) . فمن غيره يمكن أن يطرق الباب «بمثل هذا العنف» ؟ . وهرعت الى البواب الذى أيقظته الضجة وهمَّ أن يفتح الباب ، فتوسلت اليه أن لا يسمح لأحد بالدخول . ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب ، فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام جداً ، قرر أن يفتح له . مضى بيوتر ايلتش رأسا الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرَّت ، من باب «تجنب الشك» ، أن يحضر البواب المقابلة . أخذ الموظف يلقى الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على

أمرٍ أساسى : هو أن دمترى فيدوروفتش حين مضى يبحث عن جروشنكا قد أخذ مدقَّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه . «كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض» . كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلى الرهيب اختراعاً على غير شعور منها . وكان بيوتر ايلتش قد رأى الدم فى يدى ميتيا بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه . ولم يكن يهمُّ بيوتر ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفَّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه ، وعلى أى شىء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك ألحَّ بيوتر ايلتش على هذه النقطة الحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام تقريباً ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن **شيئا ما** لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً . أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر : «حين رجع ، قصصت عليه كل شىء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين» ، فأجاب بأن هذا دم انسانى ، وبأنه قد قتل انسانا منذ برهة . «اعترف لى بذلك ، ثم ولّى هارباً كمجنون . وأخذت أفكر بعد انصرافه : الى أين يركض هذا الركض ؟ لا شك أنه ينوى أن يسافر الى موكرويه ليقتل مولاتى ، فاندفعت ألاحقه ، لأتوسل اليه أن لا يسىء الى مولاتى ؛ وكنت آمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن يسافر ، وكانت يداه عندئذ نظيفتين» (لقد لاحظت فينيا هذا

الأمر التفصيلى وحفظته) . وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل . وبعد أن ألقى بيوتر ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطراباً وقلقاً مما كان عند وصوله اليه .

ربما بدا أن أبسط شىء الآن هو أن يذهب بيوتر ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعا هل حدث له شىء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطة الا بعد ذلك ، مستندا الى معلومات ثابتة . وهذا ما خطر ببال بيوتر ايليتش فى أول الأمر فعلاً . ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا معرفة سطحية . فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، أن شيئا لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروى للمدينة كلها فى الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذى ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد . ليكونَ هذا فضيحة ! وبيوتر ايلتش لا يرهب شيئا فى هذا العالم كما يرهب الفضيحة ! غير ان العاطفة التى كانت تدفعه الى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن قرع الأرض بقدمه غاضبا وشتم نفسه ، أسرع يتخذ قراراً جديداً : هو أن يذهب لا الى دار فيدور بافلوفتش بل الى السيدة خوخلاكوفا . سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فاذا أجابته بالنفى ذهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شىء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؛ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بيته . واضح ان بيوتر ايليتش حين يذهب فى الساعة الحادية عشرة من الليل الى سيدة من سيدات المجتمع

لا يعرفها ، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقى عليها سؤالاً قد يبدو فى مثل هذه الظروف غريباً انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه الى فيدور بافلوفتش . غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الظرف ، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بيوتر ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يظل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شىء ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريباً . والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف «ليسيرنّ الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر» ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برَّ بيمينه ، فمضى الى آخر الشوط فعلاً .

كانت الساعة هي الحادية عشرة تماما حين دخل منزل السيدة خوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تتهيأ للنوم عادةً فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول : «اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شاءت استقبلتك ، فكل شىء رهن بارادتها» . صعد بيوتر ايلتش الى الطابق الأول . وهنالك أخذت تتعقد الأمور . رفض الخادم أن يبلغ السيدة خوخلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاها بيوتر ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة خوخلاكوفا ان الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له أن يزعجها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو

على جانب عظيم من الخطورة حقاً ! «انقلى اليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً» . بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها . انتظر بيوتر ايلتش فى الدهليز . وكانت السيدة خوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد . لقد هزتها زيارة ميتيا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداع الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفعالات من هذا النوع . فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حانقة ، أن تصرف هذا الزائر رغم أن مجىء «الموظف برخوتين» اليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً . ولكن بيوتر ايلتش عَنَدَ فى هذه المرة عناد بغل . فلما علم أن السيدة خوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلح من جديد الحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء «لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله» . وقد روى فيما بعد أنه أحس فى تلك الدقيقة أنه «يسقط فى هاوية» . تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرعت تقوم بالواجب الذى عهد اليها أن تقوم به . ذُهلت السيدة خوخلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه «حسن الهندام ، شاب ، مهذب جدا» . يجب أن نذكر هنا عابرين أن بيوتر ايلتش فتى جميل جدا ، وانه كان شاعراً بذلك . عندئذ قررت السيدة خوخلاكوفا أن تسمع له . واذ كانت بثوب المنزل ، والخفين ، فقد ألقت على كتفيها شالاً أسود . وأُدخل الموظف الى الصالون ، حيث استقُبل ميتيا قبل بضع ساعات . دخلت ربة المنزل بوجه متجهم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس : «ماذا يريد السيد منها ؟»

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

— لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصاحبنا دمترى فيدوروفتش كارامازوف . . .

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة خوخلاكوفا حنق شديد ، فهمَّت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة :

— الى متى ، الى متى أظل أُعذَّب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف تجرأت أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ، أن تجيء تضايقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة . . . متحدثاً اليها عن شخص أراد منذ ثلاثة ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان نفسه ، أن يقتلها . . . وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أننى سأقدم شكوى ضدك . . . أننى لن أسكت لك عن هذه الوقاحة . . . وأرجوك أن تخرج من مسكنى فوراً . . أنا أم . . وأنا . . أنا . . حالاً . . .

— أراد أن يقتلك ؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضاً ؟

— هل قتل اذن أحداً ؟

كذلك سألت السيدة خوخلاكوفا بحرارة . فأجابها برخوتين بصلابة :

— اذا وافقت على أن تسمعى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ، شرحت لك كل شىء فى بضع كلمات . فى هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الىَّ السيد كارامازوف ورجانى رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات . وأنا أعلم علم اليقين أنه كان فى تلك اللحظة خالى الوفاض ؛ وفى

هذا اليوم نفسه ، فى الساعة التاسعة ، رجع الىَّ ممسكاً بيديه حزمةً من أوراق مالية تقدر بألفى روبل أو بثلاثة آلاف روبل . وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون . فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابنى اجابةً واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم . . .

ظهرت على وجه السيدة خوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم . وصاحت تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

— يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز . . . أنا لم أعطه مالاً قط ، لم أعطه مالاً قط . . . آه . . . اركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضيع الوقت ! انقذ أباه ، اسرع الى نجدته ، أنقذه !

— اغفرى لى الحاحى يا سيدتى . أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالاً ، فهل ذكرياتك واضحة فى هذه النقطة ؟

— لم أعطه شيئاً ، لم أعطه كوبكاً واحداً . رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر نوايای حق قدرها . وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه . وقد هجم علىَّ ، ولكننى استطعت أن أقفز جانباً . . . وانى لأسر اليك أيضا ، لاننى قررت أن لا اكتمك شيئاً بعد الآن ، أنه قد بصق علىَّ ، هل تستطيع ان تتخيل هذا ؟ ولكن لماذا نحن واقفان ؟ اجلس . . . أرجوك . . . معذرة . . . أنا . . . لا بل اركض ، اركض بسرعة . واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعة .

— ولكن ما دام قد قتله . . .

— آ . . . نعم . . . رباه ! فماذا نفعل الآن ؟ هل فى ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلست بيوتر ايلتش وجلست أمامه . بسط لها بيوتر ايلتش ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبَّ القضية ، فى حدود ما شهده بنفسه فى ذلك اليوم على الأقل . وروى لها أيضاً أنه زار فينيا ، وما ذكرته له عن مدق الهاون . فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزَّت السيدة المضطربة هزا عنيفا فلم تستطع أن تحبس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياع والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات . . .

— تصور مع ذلك أننى أوجست بالنبوءة كلَّ شىء . لقد أُوتيت موهبة عجيبة فى التنبؤ . وما أتنبأ به يتحقق لا محالة . كم من مرة قلت لنفسى وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : «سيقتلنى هذا الرجل أخيراً فى ذات يوم .» . وذلك ما وقع . . . أقصد أنه اذا كان لم يقتلنى بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى تدخل العناية الالهية . لا شك أن الله قد حمانى ونجانى فى ذلك الحين . أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلنى لأننى كنت قد علقت فى عنقه ، هنا فى هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة . . . ولم يكن يخطر ببالى عندئذ أننى ألامس الموت ملامسة قريبة فى تلك اللحظة . اقتربت منه ، ومسسته تقريباً ، فمدَّ لى عنقه . . . يجب أن أقول لك يا بيوتر ايليتش (معذرة ، أليس اسمك بيوتر ايليتش ؟) ، يجب أن أقول لك أننى كنت لا أومن بالمعجزات حتى الآن ، ولكننى أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التى علقتها فى عنقه قد أنقذتنى بمعجزة من ميتة فظيعة ! اننى أحس بأننى متأهبة للايمان من جديد بكل شىء . . . لا شك أنك تعرف

قصة الأب زوسيما تلك ، أليس كذلك ؟ أرانى أتيه ، فلا أعرف ماذا أقول . . . تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق علىَّ . . . بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلنى . . . . واضح الآن الى أين أسرع ! ماذا يجب أن نقرر الآن ، ما الذى يجب أن نعمله ، قل لى ؟

نهض بيوتر ايليتش معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله .

— انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه . ميخائيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذى يجب ابلاغه الأمر . ما أفطنك يا بيوتر ايلتش . فكرتك رائعة ، وما كان لها أن تخطر ببالى أنا ، لو كنت فى مكانك .

قال بيوتر ايليتش ، وهو ما يزال واقفا ، محاولاً أن يتخلص بأسرع وقت من هذه المرأة المهذار التى لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

— لا سيما وأننى أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية .

تابعت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— اسمع ، اسمع ، يجب أن تجىء الىَّ حتماً لتطلعنى على ما تكون قد علمته . . . على الوقائع التى أمكن أن تعرف . . . وكذلك على العقوبة التى سيُحكم بها . أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال الىَّ حتماً ، ولو فى الساعة الثالثة من الصباح ، أو فى الساعة الرابعة ، أو حتى فى الساعة الرابعة والنصف . اطلب ايقاظى ، وليجرونى من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصررت على النوم . . . رباه ! أنَّى لى أن أرقد بعد كل هذا ؟ تراودنى فكرة : ما رأيك فى أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

— لا . . . لا داعى الى هذا . ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، ان تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحاً فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدورفتش مالاً قط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا . . . عند الاقتضاء .

صاحت السيدة خوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

— طبعا ! طبعا ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، نفاذ بصيرتك وبما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أأنت تعمل موظفا فى مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أنك تعمل فى مدينتنا . . .

وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تتكلم ، خطَّت بسرعة ، على ورقة رسائل ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

«لم أقرض دمترى فيدوروفتش كارامازوف ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) . لم أقرضه كوبكا واحداً ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبدا أبدا . أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم .

خوخلاكوفا»

ثم التفتت بقوة نحو بيوتر ايليتش فقالت له :

— اليك تصريحى . فأسرع الآن . يجب انقاذ هذا الرجل . هذا عمل نبيل تقوم به .

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز .

— ما أعظم شكرى لك ! لا تستطيع أن تتصور مدى امتنانى منك لأنك جئت الىَّ أولاً ! خسارة أننى لم أعرفك قبل

الآن ! لسوف يسعدنى فى المستقبل أن أستقبلك فى منزلى . انه ليسرنى انك تعمل هنا موظفاً دقيقاً هذه الدقة ، حصيفاً هذه الحصافة خاصةً . . . عليهم أن يقدروك حق قدرك . ويفهموك آخر الأمر . . . واعلم على كل حال أننى مستعدة من جهتى لأن أبذل كل ما فى وسعى من أجلك . . . أوه ! اننى أحب الشباب ، اننى مغرمة بالشباب حقاً ! الشبيبة فى أيامنا هذه هم قوة بلدنا الشقية روسيا ! أنتم أملها . . . هيَّا ، هيَّا ، أسرع . . .

ولكن بيوتر ايليتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لحبسته زمناً آخر . يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة خوخلاكوفا قد أحدثت فى نفسه أثراً طيباً خفَّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله فى قضية مزعجة . انكم تعلمون أن الأذواق فى هذا العالم مختلفة متنوعة . قال بيوتر ايليتش لنفسه راضياً مسروراً : «ليست متقدمة فى السن كثيراً . كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها» .

اما السيدة خوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتانا . «ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة فى شاب ، ذلك عدا آدابه الكيِّسة ومظهره اللطيف الجذاب ! تلك مزايا نادرة فى هذه الأيام ! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له . فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون» ، الخ ، الخ . وقد انتهت السيدة خوخلاكوفا من ذلك الى نسيان «الحادث الفظيع» ، ولم تتذكر الا على سريرها أنها «لمست الموت ملامسة قريبة» . فدمدمت تقول : «شىء رهيب ، شىء رهيب» ، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً هادئاً . على أننى ما كان لى أن اسهب فى ذكر هذه التفاصيل الثانوية . لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو اللقاء الذى وصفته الآن ، انما كان نقطة انطلاق

فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم . ان الناس فى مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصة الطويلة التى نكتبها عن الاخوة كارامازوف .

٢

استنفار

ان رئيس شرطتنا ميخائيل ماكاروفتش ماكاروف ، وهو مقدم محال على التقاعد ويحمل رتبة «مستشار القصر» ، رجل أرمل يمتاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة . لقد جاء الى مدينتنا منذ ثلاث سنين واستطاع أن يكسب مودة جميع الناس له ، ولا سيما لما أوتى من موهبة فذة فى «جمع وجوه المدينة بمنزله» . يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوما واحدا دون أن يستقبل فى داره عددا من الأصدقاء . كان لا يخلو بيته يوما من ضيف على العشاء ، ولو كان عدد الضيوف شخصاً أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد الى المائدة فى منزله بغير مدعوين . وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة ، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة ، حجج قد لا تخطر بالبال . ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة . ومع ذلك كانت فطائر السمك التى تقدَّم فى بيته رائعة . وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل

حال . ان الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو ، وأثثت تأثيثاً أنيقاً ، وازدانت جدرانها بصور مؤطرة باطر سوداء لخيول سباق انجليزية ، وتلكم هى كما تعلمون الزينة المألوفة التى تزين كلَّ قاعة بلياردو فى منزل رجل عازب . وكان يُلعب بالورق كلَّ مساء فى منزل ميخائيل ماكاروفتش ، وان يكن عدد اللاعبين يقتصر أحياناً على الأشخاص الجالسين على منضدة واحدة . على أن الاستقبالات التى تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا فى منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها . وكان ميخائيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، فى صحبة ابنته التى ترملت هى أيضاً منذ مدة طويلة ، وفى صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما . لم تكن الفتاتان دميمتين البتة ، وكانتا بما تنعمان به من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب المجتمع فى مدينتنا ، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً . ولم يكن ميخائيل ماكاروفتش لامع الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر . واذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التى تقف عندها صلاحياته الادارية . كان معنى بعض الاصلاحات التى تحققت فى النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيرا ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث ، فانه لم يكن يجد فى وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة . وكان يحب ان يقول عن نفسه : «ان لى أيها السادة روحَ رجل عسكرى لا رجل مدنى» . ورغم أنه كان من ملاكى الأراضى ، فان ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعى قد ظلت

غامضة مبهمة ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هى تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية . كان بيوتر ايليتش يعلم أنه سيلتقى عند رئيس الشرطة فى ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء الضيوف . ومن المصادفات أن ميخائيل ماكاروفتش كان فى ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكى الذى وصل من بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجى أكاديمية الطب). فأما النائب العام ايبوليت كيريلوفتش — وكان يسمى نائبا من قبيل المجاملة ، لأنه لم يكن فى الواقع الا وكيل نيابة — فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للاصابة بمرض السل ، متزوج امرأة سمينة عاقراً . انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحنق ، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب . يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ فى تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه فى نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر . وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتز خاصة بمقدرته فى علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتى مواهب خاصةً فى النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفى اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين . وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن رؤساءه لم يقدروه حق قدره ، أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه فى وظيفته . وكان فى ساعات حزنه ويأسه يمضى الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محاميا أمام المحاكم الجنائية . وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت

همته ، فحدّث نفسه قائلاً : «هذه قضية قد تشتهر فى روسيا كلها» . ولكن أرانى أستبق تتمة القصة .

وفى الغرفة المجاورة كان قاضى التحقيق الشاب نيقولاى بارفينوفتش نيلودوف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ شهرين من بطرسبرج ، يثرثر مع الفتاتين . لقد دُهش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين فى مساء وقوع «الجريمة» نفسه ، فى منزل أحد ممثلى السلطة التنفيذية ، كأنما هم اتفقوا على ذلك . والحق أن تعليل هذه المصادفة طبيعى جداً : ان زوجة ايبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة فى الاسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا فى الهروب من المنزل حتى لا يسمع أنينها . أما الطبيب فانه ، بحكم مهنته ، كان لا يستطيع أن يقضى سهراته الا لاعباً بالورق . أما نيقولاى بارفينوفتش نيلودوف ، فلقد كان ينوى منذ ثلاثة أيام أن يزور ميخائيل ماكاروفتش فى ذلك المساء ، وأن يجىء اليه «بما يشبه المصادفة» ، بغية أن يفاجئ بعد ذلك كبرى الفتاتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرها : وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفى الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفلة رقصٍ فى منزلها . وكان نيقولاى بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها فى تلك المناسبة ، كالاشارة الى أنها تخشى أن تعلن عن سنها ، وكالتهديد باذاعة الأمر فى المدينة كلها غداً ، الخ . ان هذا الشاب الفتان «عفريت» كبير ، حتى أن سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو . كان ينتمى من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ، وكان جمّ الكياسة رفيع المشاعر . ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات ، فقد كان

17-1306

كذلك على براءة وكان لا يخل بالمواضعات المقررة ولا يسيء الى الآداب الاجتماعية . وهو قصير القامة ، ضعيف البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة . وكان فى قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوى الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه . وكان يمتاز خاصةً بمهارته فى أن يحير القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ، وكثيرا ما كان يثير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام .

حين وصل بيوتر ايليتش الى منزل رئيس الشرطة صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر . كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذوا يتناقشون فى الحادث بحرارة ، وقوفا . لقد هرع نيقولاى بارفينوفتش من الغرفة المجاورة وهو يوشك أن يكون مستعداً للهجوم . وما كان أشدَّ ذهول بيوتر ايليتش حين علم بالنبأ الرهيب : وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قتل فى منزله فعلاً هذا المساء . . . قُتل وسُرق . وقد عرفت الجريمة فى الظروف التالية :

لا شك فى أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجورى ، كانت نائمة نوماً عميقاً فى اللحظة التى ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور . وكان يمكن أن تستمر فى نومها حتى الصباح . ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التى أطلقها سمردياكوف الذى يرقد فى الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه . انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فبهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف . وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلّفت فى نفسها أثرا مرضياً ، ولم تستطع أن تعتادها

فى يوم من الأيام . نهضت مارفا اجناتيفنا منتفضة وهى ما تزال نصف نائمة وأسرعت الى الغرفة التى يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريباً . كان الظلام حالكاً ، فلا يُرى شىء ، وانما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذى يتخبط . أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هى أيضا ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها فى السرير حين استيقظت من نومها ، فأسرعت الى السرير وأخذت تجس الغطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد . تساءلت : فالى أين ذهب ؟ وهرعت الى درجات المدخل وأخذت تناديه وجلى ، ولكنها لم تتلق جواباً بالطبع ثم خيل اليها أنها تدرك فى سكون الليل أنات مخنوقة كأنها آتية من الحديقة . فأصاخت بسمعها ، فتكررت الأنات . فأدركت أنها آتية من الحديقة فعلاً . أخذت تقول فى نفسها مضطربة : «رباه ! يشبه هذا ما حدث فى الماضى يومَ موت اليزافيتا سمردياشايا !» . وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح ، فقالت لنفسها : «لا شك أن زوجى الطيب هناك» ، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت فى هذه المرة زوجها جريجورى نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروع : «مارفا ، مارفا !» . فهمست : «نجنا من الشر يا رب !» واندفعت فى الاتجاه الذى كان يصدر عنه النداء . وهكذا اكتشفت جريجورى . ومع ذلك لم تجده قرب السور ، فى المكان الذى صُرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان . وقد عُرف فيما بعد أن جريجورى ، حين أفاق من اغمائه وثاب الى رشده ، جرَّ نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه . وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان

مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ . وكان جريجورى يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها ، قائلاً : «قتل . . . قتل أباه . . . لماذا تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! اركضى ! نادى !» . ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن اطلاق صرخاتها الوحشية . فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة ، أسرعت الى هناك تنادى فيدور بافلوفتش . نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ مشهداً فظيعاً : رأت فيدور بافلوفتش راقداً على الأرض على ظهره جثةً هامدة وكان الرداء المنزلى والقميص الأبيض مضرجين بالدم على الصدر . وأنارت الشمعة الموضوعة على الطاولة بقع الدم ووجه فيدور بافلوفيتش انارة ساطعة . بلغت مارفا اجناتفنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ الى خارج الحديقة ، ففتحت الباب الكبير ، وهرعت الى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا . كانت المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة على النافذة ، ولشدة الصرخات الحادة التى كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة . فقصت عليهما العجوز ما نزل بدارهم من شقاء بأقوال مضطربة مشوشة تقطعها صرخات حادة . ومن المصادفات أن فوما الجوّال كان يبيت فى المنزل فى تلك الليلة . فسرعان ما أوقظ من نومه ، وخفَّ الجميع الى مكان الجريمة . وتذكرت ماريا كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً حاداً رهيباً صادراً من الحديقة . لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةَ أمسك بيديه احدى ساقى ميتيا الراكب السور ، قائلاً : «يا قاتل أبيه» . قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً : «ان أحداً قد صرخ عندئذ صراخاً قوياً جداً ثم صمت فجأة» . ووصل الثلاثة الى قرب

جريجورى ، أنهضته المرأتان بمعاونة فوما ، ونقلوه الى الغرفة . وأشعلوا شمعة ولاحظوا أن سمردياكوف ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جحظت عيناه وخرج الزبد من فمه . غسلوا رأس جريجورى بماء ممزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : «أقُتل مولاه أم لا ؟» . وذهبت المرأتان عندئذ بصحبة فوما الى فيدور بافلوفتش . فلما اجتازوا الحديقة لاحظوا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم اقفال الباب بالمفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأى عذر من الأعذار . فلما رأت المرأتان وفوما هذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة السيد «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى غرفتهم ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطة بالحادث فوراً . فتولت ماريا كوندراتفنا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميخائيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأقعدهم . لقد وصلت الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بيوتر ايليتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مثل بيوتر ايليتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واستدلالاته ، بل مثول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التى ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بيوتر ايلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة يشك فى أن يكون ميتيا هو القاتل) .

وقرروا أن يتحركوا بنشاط . وعُهد الى مفوض الشرطة المساعد بأن يجد أربعة أشخاص ليكونوا شهُوداً ، وتم القيام بالتحريات الأولى فى مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقاً للأصول القضائية التى لا داعى الى وصفها هنا . وقد أصر طبيب المجلس

المحلى ، وهو طبيب مبتدئ ومتحمس ، أصرَّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضى التحقيق . وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صُرع فيدور بافلوفتش ، وكسرت جمجمته ، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل فى قتله ؟ لعله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك فى ضرب جريجورى . واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحو متسق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التى تتطلبها حالته. وأخذوا يستكشفون الأرضَ التى تجاور السور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا عناءً فى العثور على مدق الهاون النحاسى . وجدوه ملقىً وسط الممر الذى يشق الحديقة ، فى موضع يلفت الأنظار على الفور . ولم تكن الغرفة التى يرقد فيها فيدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قرب السرير . وكان ظرفاً كبيراً مصنوعاً من ورق سميك ، وقد كتب عليه ما يلى : «هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهديها الى ملاكى جروشنكا اذا هى رضيت أن تجىء» . وفى أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : «الى حمامتى» . وكان الظرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة قد فضَّ وأفرغ مما فيه : لقد سُرق المال الذى كان يضمه الظرف . واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردى اللون الذى كان يلف الظرف . وقد أحدثت أقوال بيوتر ايليتش أثراً عميقاً فى وكيل النيابة وقاضى التحقيق وهزتهما هزا قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر ؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين

بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة ودسَّها فى جيبه ، الخ ، حتى اذا قال له بيوتر ايليتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره أنه سيبلغ البعض ما عزم عليه حتى يمنعوه من انفاذه ، أجابه ميتيا بلجهة ساخرة : «لن يتسع وقتك لهذا» . معنى هذا كله أن من الواجب الوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ما عقد النية عليه . كان وكيل النيابة يردد قوله مضطرباً اضطراباً شديداً : «القضية واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار . ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون فى الجريمة . غداً أنتحر ، أما الليلة فألهو وأتسلى» . وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى . «هل تتذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التاجر اولسوفيف ليسلبه ماله ؟ انه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته ، فكَّر قبل كل شىء فى أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه بيديه تقريباً ، مثل هذا القاتل الجديد تماما» . على ان التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والاجراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتا ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، قبل ساعتين من وصولهم ، موظف الشرطة مافريكى مافريكيفتش شمرستوف الذى جاء الى المدينة فى الصباح لقبض مرتبه . أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم فى الخفاء دون أن يغيب عن بصره ، الى حين وصول السلطات . وكان على موظف الشرطة هذا أن يجمع الشهود والشرطيين والخ . نفَّذ مافريكى مافريكيفتش الأوامر التى تلقاها ،

ولزم التخفى ، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذى يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه . وفى ذلك الوقت انما التقى ميتيا بصاحب النزل فى الشرفة ، فلاحظ تغيراً غريباً فى تعبير وجهه وطريقة كلامه . وعلى هذا النحو لم يستطع أحد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون . أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها فى مكان مأمون على الفور . ولم تصل السلطات الى موكرويه الا فى الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر . استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضى التحقيق ، وحاشيتهم ، عربتى ترويكا ومركبتين . ومكث الطبيب فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح . ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردياكوف . «ان نوبات الصرع التى تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل هذه المدة مستمرة يومين ، هى حالات نادرة كل الندرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها» . كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتى من فرصة موانية وحظ نادر . وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق تذكراً واضحاً ، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما أكده الطبيب الشاب بلهجة حازمة قاطعة .

بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت ضرورية ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قصتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق .

٣

محن نفس . المحنة الأولى

كان ميتيا يتصفح وجوه محدثيه ، مجنون العينين ، ولا يفهم ما يقال له . وها هو ذا ينهض فجأة ، فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلاً بصوت قوى :

— لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى . . . كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل . لست أنا القاتل !

فما ان قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصوت ممزّق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

— أنا المذنبة ، أنا الشقية المذنبة . بسببى انما قتل ! أنا التى قدته الى ذلك من كثرة ما عذبته . . . ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً ، بدافع الشر الذى فى نفسى . . . أنا سبب كل شىء ، أنا ، أنا وحدى . أنا القاتلة فى حقيقة الأمر .

— أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ، أنت مرأة فاسقة ملعونة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة .

كذلك صاح يقول رئيس الشرطة وهو يلوّح بقبضة يده مهدداً . ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطة على السكوت ، حتى أن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً :

— لقد أحدثت فوضى يا ميخائيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء .

وقال نيقولاى بارفينوفتش مضطرباً بدوره اضطراباً شديداً :

— يجب اتخاذ اجراءات . . . حالاً . . . يجب اتخاذ اجراءات ، والا فلن نفلح أبداً .

واستأنفت جروشنكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهى ما تزال جاثية على ركبتيها :

— احكموا علينا معاً ، اعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه الاعدام !

فهتف ميتيا يقول وهو يرتمى على الأرض فيجثو الى جانب جروشنكا ويعانقها :

— جروشا ، حياتى ، روحى ، دمى ، قديستى ! لا تصدقوا ما تقوله ، انها ليست مذنبة فى شيء ، انها لا تشارك أية مشاركة فى المسئولية عن هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التى أقصيت عن الغرفة ، وأنه فى اللحظة التى ثاب فيها الى وعيه ، وجد نفسه جالساً أمام المائدة . وكان يقف الى جانبه ووراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن . وفى الجهة الاخرى من المائدة ، كان قاضى التحقيق نيقولاى بارفينوفتش الذى جلس على الكنبة ، يلح عليه أن يشرب قليلاً من الماء من الكأس الموضوعة على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً :

— اشرب ، الماء ينعشك ويهدئك . لا تخش شيئاً .

خطفت انتباهَ ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتمُ الكبيرة التى كانت فى أصابع قاضى التحقيق . ان أحد هذه الخواتم

يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع . سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من افتتان حتى أنه طوال الساعات الرهيبة التى استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم ينقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمامه هذا . والى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السهرة ، كان يجلس وكيل النيابة ؛ والى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشنكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى سترة عتيقة جدا مما يلبسه الصيادون ، وأمامه محبرة وورقة . ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق . أما رئيس الشرطة فقد كان واقفا قرب النافذة ، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجانوف الذى كان جالسا على كرسى .

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

— اشرب ماء .

فصاح ميتيا يقول ، وهو يثبت على قاضى التحقيق نظرته الجامدة جموداً رهيباً فى عينيه الجاحظتين :

— شربت يا سادتى شربت . . . والآن فاسحقونى ، اعدمونى ، قرروا مصيرى !

سأله القاضى بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح :

— أأنت تصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

— برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم العجوز الآخر ، ولكننى لم أسفح دم أبى . آه . . . لشد ما يؤسفنى ما فعلت . لقد قتلت ذلك العجوز المسكين ، صرعته . غير أنه يشق علىّ أن أصبح بسبب هذه الجناية مسئولاً عن جريمة أخرى ، جريمة

فظيعة لم أرتكبها . . . ذلك اتهام رهيب يسقط علىَّ سقوط الصاعقة ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟ من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هذا جنون . . . هذه سخافة . . . مستحيل . . .

بدأ قاضى التحقيق يقول :

— من ذا الذى قتل . . .

ولكن وكيل النيابة ايبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه ، ثم قال مخاطبا ميتيا :

— تخطىء اذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف . اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه . حتى أن الطبيب يرى أنه ليس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها .

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى وقد أشرق وجهه فرحاً :

— أهو حي ؟ اللهم انى أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التى تهبها لى ، لى أنا الخاطىء المجرم ؛ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت لدعائى . . . ذلك أن دعائى هو الذى قبل . . . لقد لبثت أدعو طوال الليل أن لا يموت .

ورسم ميتيا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يكاد يختنق انفعالاً .

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً :

— من جريجورى هذا نفسه انما حصلنا على معلومات خطيرة جدا فى شأنك . . .

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

— دقيقة واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقة واحدة ،

دقيقة واحدة ، أناشدكم الله . . . أريد أن اكلمها هى . . .

فصرخ نيقولاى بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضاً عن مقعده على حين فجأة هو أيضا :

— آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن .

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ، أمسكوا ميتيا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

— هذا يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها الا لحظة قصيرة . . . لأبلغها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، وانى لست قاتلاً ! انها خطيبتى أيها السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة فى حماسة واجلال وهو ينقل بصره على محدثيه) . أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة فى طرفة عين ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها السادة ، وكان يغسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى وتركنى الجميع . كان لى بمثابة أب !

همَّ القاضى أن يتكلم قائلاً :

— هكذا ، فأنت . . .

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطى وجهه بيديه :

— اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة . دعونى أتنفس لحظة . ان هذا الأمر قد هزنى هزاً قوياً . . . ليس يُقرع انسان كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولاى بارفينوفتش يقول له :

— عليك أن تشرب جرعة أخرى من الماء .

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك . ان فى نظرته

الآن الثقة والحماسة ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفة عين . وتغير موقفه كذلك ، فهو يتكلم بلهجة غير اللهجة التى كان يتكلم بها من قبل . هو يحس الآن انه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ، البارحة ، فى سهرة تضم علية القوم ، فكأن شيئاً لم يكن . يحسن أن نشير هنا الى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطة ، فى بداية اقامته بمدينتنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هذا المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير . وأصبح رئيس الشرطة ، منذ زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته الا من باب الأدب ، وقد لاحظ ميتيا هذا . أما وكيل النيابة فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن ميتيا قد زار زوجته ، وهى امـــــرأة عصبية ذات نزوات ، عدة زيارات مجاملة واحترام ؛ كان يذهب اليها دون أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله بكثير من البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شيئا من الاهتمام به حتى الآونة الأخيرة . واما قاضى التحقيق ، فلم تكن بينه وبين ميتيا معرفة جيدة ، واقتصر كل شىء بينهما على حديث أو حديثين تبادلا خلالهما كلاما عن جنس النساء .

قال ميتيا ضاحكا ضحكة مرحة :

— أرى يا نيقولاى بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جدا ، ولكن أحسب مع ذلك أن علىَّ أن أساعدك . أوه ! لقد عادت الحياة الىَّ أيها السادة . . . لا تؤاخذونى اذا أنا كلمتكم بغير كلفة . ثم اننى ثمل قليلاً ، أعترف لكم بذلك صراحة . أظن يا نيقولاى بارفينوفتش أننى قد سبق لى أن سُررت وشرفت بلقائك عند ميوسوف ، قريبى . . . لست أدعى المساواة بكم الآن

أيها السادة ، فأنا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة . . . هناك تهمة رهيبة تجثم علىَّ . . . طبعا . . . اذا كان جريجورى قد شهد علىَّ . . . أنا موضع شبهة خطيرة ! فظيع ! فظيع ! اننى أفهم هذا حق الفهم ، ثقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوقائع أيها السادة ! اننى مستعد . . . وسنوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، ما دمت بريئاً . . . اصغوا الىَّ ، اصغوا الىَّ ! ما دمت أعلم أننى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف نبدد سوء التفاهم فى طرفة عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه .

قال نيقولاى بارفينوفتش بلهجة رصينة :

— سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكارا قاطعا التهمة الموجهة اليك .

ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت ما يجب تسجيله .

— آ . . . أأنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب . . . اكتبوا اذا شئتم . . . أوافق على هذا . . . لا أرى فى هذا ضيراً أيها السادة . . . ولكن . . . لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى : «ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجوزاً مسكيناً ضرباً شديداً ، وهو يعترف بذلك» ثم اننى فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى أعترف بذنبى . . . ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً الى الكاتب) . . . تلك حياتى الخاصة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى . . . أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تلكم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف . . . سأبرهن لكم على هذا ، فتقتنعون

اقتناعا تاما . سوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون انتم أنفسكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين .

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب :

— هدىء نفسك يا دمترى فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك ، قبل أن نتابع الاستجواب ، أن تؤكد لى — اذا كنت توافق على ذلك — أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيراً ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما . لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم يخطىء ظنى ، أنك كنت تنوى أن تقتله . لقد صحت تقول : «كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله» .

— أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جائز أيها السادة ! نعم . . . وأسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا . . . وأسفاه ! وأسفاه !

— كنت تنوى اذن أن تقتله . فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه :

— ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة كلها تعرفها ، حتى ان الناس يتحدثون عنها فى الحانة . ومنذ بضعة أيام لا أكثر ، عبرت عنها فى الدير ، فى حجرة الشيخ زوسيما . . . وفى مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبى وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنّ فأجهز عليه . أوه ! فى وسعكم أن تجدوا ألف شاهد علىّ ، بغير عناء . صرخت بكرهى له طوال هذا الشهر . . . الناس جميعاً يشهدون . . . الوقائع متوفرة . . . الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هى

تصرخ . . . أما عواطفى أيها السادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الىّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تسألونى عن عواطفى . ان وظائفكم تخولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفى هى من شأنى أنا ؛ هى تتصل بحياتى الحميمة . . . على كل حال ، ما دمت لم أكتمها حتى الآن . . . لم أكتمها فى الحانة مثلاً ، وكنت أكاشف بها أول قادم ، فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً . أيها السادة ، اننى أدرك حق الادراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أننى سأقتله ، وها هو ذا يُقتل . فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هاهاً ! اننى أعذركم أيها السادة ، أعذركم كل العذر . أنا نفسى قد أذهلنى هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطالبكم بأن تقولوا لى الحقيقة : أين وُجد مقتولاً ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفى أية ظروف ؟ قولوا لى هذه الأمور ! (كذلك سأل بسرعة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضى التحقيق واحداً بعد آخر) .

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

— وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة ، مكسور الجمجمة .

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضع كوعيه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

— هذا فظيع أيها السادة !

وتدخل نيقولاى بارفينوفتش قائلاً :

— لنتابع الاستجواب . لأى سبب كنت تكره أباك ؟

لقد صرحت على رؤوس الأشهاد ، فيما أظن أننى أعلم ، أن الغيرة هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟

— هى الغيرة ان شئتم . ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفى منه .

— لعل هناك خصومات على مال ؟

— نعم ، نعم ، مسائل مالية .

— كان الخلاف يدور ، اذا لم يخطىء ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل هى من حقك فى الميراث ولم يدفعها لك .

قال ميتيا مستاءً :

— ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيـــراً . كان مديناً لى بأكثر من ستة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف . قلت هذا لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تساهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهيبة الى هذا المبلغ . . . فكان ذلك الظرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدَّه هو لجروشنكا ، كان فى نظرى مالاً سُرق منى . كنت أعد ذلك المبلغ حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى .

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمزه بعينه خلسة .

أسرع القاضى يقول :

— سنعود الى هذه المسألة . واسمح لى أن أسجل هذه النقطة بعينها : وهى أن ذلك المبلغ المودع فى الظرف كان فى رأيك حقاً مشروعاً لك .

— اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هذا قرينة جديدة

علىَّ ، ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى . سوف أمدكم أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون فىَّ رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عمَّا أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول حزيناً مظلم الوجه) . ان أمامكم أيها السادة انساناً صادقاً مستقيماً لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة ، ان أمامكم انسانا — لا يغب هذا عن بالكم — ان يكن قد ارتكب حقارات كثيرة ، فانه ظل دائما فى قرارة نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهراً . . . الخلاصة . . . اننى لا أحسن الافصاح عما بنفسى . . . لقد تألمت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانسانية بحث ديوجين عنه ان صح التعبير ، حاملاً مصباحاً . . . ورغم ذلك قارفت دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما نقارف جميعاً هذه الدناءات أيها السادة . . . أقصد . . . لا . . . لا كما نقارفها جميعاً ، بل كما أقارفها أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى . . . نعم ، كما أقارفها أنا وحدى . . . ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسمات وجهه على ألم) . . . نعم يا سادتى . . . كنت أكره مظهره ؛ كان فى هيئته شىء يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس ، كان فيه سخرية وكفر ، كان هذا دنيئاً ، دنيئاً جداً ! ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود .

— غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

— لا غير هذا التفكير ، ولكننى آسف لانى كرهته ذلك الكره الشديد كله .

— أأنت نادم اذن ؟

— لا ، لا يعنى ذلك أننى نادم ، لا تكتبوا هذا ! أنا نفسى ملىء بالعيوب أيها السادة ! أنا لست مثال جمال النفس ، فلم يكن من حقى اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله . . . هذا ما تستطيعون ان تكتبوه .

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد اكتأب جداً على حين فجأة . وكان وجهه قد أخذ يزداد اكفهرارا وجهامة كلما تتابع الاستجواب . وهذا مشهد لم يكن فى الحسبان يقع بغتةً فى تلك اللحظة نفسها . كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان ناءٍ ، وانما أودعوها فى الغرفة الثالثة ، وهى غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التى يجلس فيها ميتيا والقاضى الا القاعة التى قام فيها الرقص وتم فيها القصف أثناء الليل . هى غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذى رَّوعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة . وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن . كانت جروشنكا تبكى ، وها هى ذى تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها ، فاذا هى تنهض وتضم يديها احداهما الى الأخرى ، وتصيح قائلة : «يا للشقاء !» ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى عزيزها ميتيا ؛ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدّها . وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ، وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طائش العقل ، كأنه نسى الوضع الذى هو فيه . لم يُترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما قد التقت . أُمسك ميتيا بقوة . فأخذ يصارع حانقاً مسعوراً ، ولم تمكن السيطرة عليه الا بتعاون ثلاثة رجال أو أربعة . وأُمسكت

هى أيضاً ، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعيها فى لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها . حتى اذا رجع كل شىء الى الهدوء وجد ميتيا نفسه مرة أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائدة ، قبالة القاضى ، فصاح يسأل القاضى ووكيل النيابة :

— ماذا فعلتُ لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع شيئاً . . .

فحاول وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن يهدئاه . وانقضت على هذه الحال عشر دقائق . وأخيرا عاد الى الغرفة ميخائيل ماكاروفتش الذى كان قد غاب ؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد :

— أبعدناها من هنا . هى الآن تحت . هل تأذنون لى أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الانسان العاثر الحظ ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم أيها السادة ، بحضوركم . . .

فأجابه القاضى :

— لك ما تشاء يا ميخائيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى بأس ، فى هذه الحالة الخاصة .

فبدأ ميخائيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا :

— دمترى فيدوروفتش ، بنىَّ المسكين ، أصغ الىَّ . . .

كان وجهه المنفعل يعبر عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب . وتابع كلامه قائلاً :

— لقد توليت بنفسى أخذ أجرافينا ألكسندروفنا الى تحت ، وعهدت بها الى بنات صاحب النزل ؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف أصبح لا يتركها . وقد كلمتها ، وطمأنتها ، هل تسمعنى ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرىء نفسك ، فما ينبغى لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك ،

والا فقد تدلى من شدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمنى ؟ الخلاصة . . . أقنعتها ففهمت ما أقصد . انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبّل يدىَّ أنا العجـــوز ، وتضرعت الىَّ من أجلك ؛ وطالبتنى ملحةً بأن أجىء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البـــال عليها . وأريـــد يا عزيزى ، أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنك لا تخشى عليها من شىء . هدىء نفسك ، ذلك واجبك . أنا أحس بأننى مذنب فى حقها . ان لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة . هل أستطيع أن أبلغها يا دمترى فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجل الطيب يخبط فى كلامه خبط عشواء . ان ألم جروشنكا ، هذا الألم الانسانى ، قد نفذ الى قلبه رأسا ، فكان فى عينيه دموع . نهض ميتيا واندفع نحوه ، وصاح يقول :

— باذنكم يا سادتى ، باذنكم . انك يا ميخائيـــل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير . شكرا لك من أجلها . نعم ، أنا هادىء ، قل لها هذا ، وسأكون مرحاً . . . قل لها ، بما لك من طيبة وأريحية ، أننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأشتهى أن أضحك ، لعلمى بأنها فى حماية ملاك حارس مثلك . سأنهى هذا الأمر بسرعة ، حتى اذا انتهيت ، خففت اليها . فلتعتمد علىَّ ولتنتظرنى واثقة . أيها السادة (كذلك قال يخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرُّ اليكم بكل شىء ، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننا سنضحك جميعاً فى النهاية ، أليس كذلك ؟ ان هذه المرأة أيها السادة هى ملكة قلبـى ! أوه ! اسمحوا لى أن أقول لكم أننى أشعر بالحاجة الى أن افضى

اليكم بما فى قلبى . . . لأننى أرى أن أمامى أناساً لهم نفوس نبيلة انها ضيائى ومقدساتى ! آه . . . ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : «سأشاركك الاعدام !» ؟ فماذا أعطيتها أنا الذى لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديراً بهذا الحب ، أنا الانسان السىء ، بوجهى المنفِّر ، وسلوكى الأخرق ، ومظهرى الثقيل . أأنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت فى سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعنى الى الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة فى سبيلى ، هى الشماء التى لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه . فكيف لا أعبدها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لى أيها السادة ! ولكننى قد تأسيت الآن . . .

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسى ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكى ناشجاً منتحباً . ولكن دموعه فى هذه المرة كانت دموع التخفف والطمأنينة . كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه . وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلى القضاء أيضاً : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة . ورجع ميتيا اليهما بعد أن شيَّع رئيس الشرطة ، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان . وقال :

— والآن أيها السادة ، أضع نفسى تحت تصرفكم . ولكن ليتكم ترضون ان لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة . اننى أتيه فى تلك التفاصيل . أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها فى مثل هذه الحالة . يجب أن تصدقونى كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبدا الى النهاية . أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم . فهيَّا بنا أيها السادة ، هيا بنا الى القضية !

ولكن كفوا خاصة عن النبش فى نفسى ، ولا تعذبونى فى سبيل سفاسف وترهات ؛ ألقوا علىَّ أسئلةً تتصل بالقضية وحدها دون غيرها . اطلبوا وقائع ، وقائع ، ولأجيبنكم بما يرضيكم كل الارضاء . دعونا من التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب .

٤

المحنة الثانية

بدأ نيقولاى بارفينوفتش كلامه قائلاً :

— لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه . . .

كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهباوين الجاحظتين قليلاً الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين منذ حين . وتابع يقول فى حرارة :

— ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صحيح كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يكون فى امكانه أن يبرئ نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هـــذا الاستجواب . . . أنت توافقنى على هذا يا ايبوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف هذا مخاطباً وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض

الجفاف ، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :

— بدون شك .

ولنذكر مرةً واحدة والى الأبد أن نيقولاى بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا منذ زمن قصير والذى هو فى بداية عهده بمهنته ، قد شعر دفعةً واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابة عندنا ايبوليت كيريلوفتش ، فانعقدت بين الرجلين صداقة قوية . وكان على كل حال هو الانسان الوحيد المؤمن حقا بالمواهب السيكولوجية والخطابية الفذة التى ينعم بها ايبوليت كيريلوفتش «الذى ظلموه فى الخدمة» . وكان يعتقد هو أيضاً ، اعتقاداً جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذى سمع عنه فى بطرسبرج قبل أن يجىء الى مدينتنا . وكان نيقولاى بارفينوفتش ، الشاب جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذى شعر نحوه صاحبنا «المظلوم» بعاطفة صادقة . وقد اتسع وقتهما فى طريقهما الى موكرويه ، لأن تتفق آراؤهما فى هذه القضية ، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرهف الذى ينعم به نيقولاى بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التى تجول فى ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها بنصف كلمة ، باشارة خاطفة ، بحركة فى عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه .

استأنف ميتيا كلامه متحمساً :

— دعونى أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل تافهة ؛ وسأبسط لكم القضية بسرعة .

— موافق . شكراً لك . على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً ، هى

مسألة تلك الروبلات العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامسة ، من صديقك بيوتر ايلتش برخوتين ، وأودعته مسدسيك رهناً .

— صحيح أيها السادة ، نعم . . . رهنتهما ! أى شىء خارق فى هذا ؟ اننى ما ان عدت الى المدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهنت المسدسين . . . الأمر بسيط جداً .

— بعد تلك الرحلة ؟ هل تغيبت اذن ؟

— طبعا ! سافرت الى خارج المدينة ، على مسافة أربعين فرسخا من هنا . أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟

تبادل وكيل النيابة وقاضى التحقيق النظرات .

— لعلك تحسن صنعاً اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح . اسمح لى أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تغيبك ، ومتى سافرت ، وفى أية ساعة رجعت . ان جميع هذه الوقائع . . .

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

— كان ينبغى أن تسألنى عن ذلك فوراً . بل اننى لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفى منها ، وما هى الظروف التى أحاطت بها . فى صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن أقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماماً . ذلك أننى احتجت الى هذا المبلغ احتياجاً مستعجلاً على حين فجأة ، احتياجاً مستعجلاً جداً أيها السادة . . .

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

— اسمح لى أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأى

غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

— ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لماذا ومتى وكيف وأين . . . لأن أحتاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أى مبلغ آخر . . . لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تهنا فى هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! . . .

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة ، لهجة انسان قد نفد صبره ويريد ان يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

— لا تؤاخذونى أيها السادة على هذه الخشونة . ثقوا أننى أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم علىً ، واننى مدرك موقفى تمام الادراك . لا تظنوا كذلك أننى ثمل . فقد صحوت من سكرى كل الصحو . ولكن حتى لو كنت ثملاً ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكون له أى تأثير فيما سأوضحه لكم . أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

أنا إن صحوت رأيتنى غبياً
فاذا سكرت غدوت عبقرياً !

هأ هأ هأ ! ولكننى ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بى الآن أن أنكّت ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمحوا لى اذن أن احافظ على وقارى . اننى أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فأنا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيهات أن أكون لكم نداً . ان مهمتكم هى أن تراقبونى . ولا شك أنكم لن تلاطفونى وتلاعبوا بأيديكم شعرى

وتهنئونى على الحادث الذى وقع لى مع جريجورى . فليس من الجائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم علىَّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبةً لى على هذا الفعل الذى اجترحته ، ولكن دون اسقاط حقوقى المدنية . أنا لست معرَّضا للحرمان منها ، أليس كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة اننى أدرك حق الادراك الفرق بين موقفى وموقفكم . . . ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذا النوع : كم خطوة مشيت ، فى أى لحظة رفعت قدمك اليسرى ، فى أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ، على أى شىء سرت ؟ اذا أخذتم تلقون علىَّ مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذى سأقع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل الى شىء . وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمر فى الكذب ، وستغفرون لى كذبى ، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية . أحب فى الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية فى الاستجواب ، أعنى البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد «تنويم يقظة المجرم» على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهذا السؤال : «أين قتلت القتيل وسلبته ماله ؟» . هأهأ ! . . . ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو علمكم كله ، تلكم هى الحيلة الكبرى فى أسلوبكم ! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلى علىَّ أنا ! أنا نفسى خبير فى هذه الشئون ، لقد عملت أنا أيضاً فى هذا المجال . . . هأهأها ! لا تزعلوا يا سادتى ، واغفروا لى هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر اليهما

ببشاشة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذى يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكى ، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذى يقوله ! هأ هأ ! . . .

كان نيقولاى بارفينوفتش يضحك أيضاً وهو يصغى الى ميتيا ، أما وكيل النيابة فلم يضحك ولكنه كان يلاحظ ميتيا بالحاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يسجل كل كلمة من كلماته بل وأيسر حركة من حركاته ، وحتى أخف الاختلاجات فى عضلات وجهه .

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

— يجب أن تنصفنا هذا الانصاف على الأقل . ، فتعترف بأنا لم نستعمل معك هذا الاسلوب . اننا لن نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من نومك فى الصباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأساسى دفعةً واحدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضاً . — اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره . وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم . اننا جميعاً ، نحن الثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر . فليجر كل شىء بيننا كما ينبغى أن تجرى الأمور بين رجال المجتمع الراقى المثقفين الذين يثق بعضهم ببعض ، وتربطهم روابط النبالة والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعدكم خير أصدقائى فى هذه الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الاذلال ! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولاى بارفينوفتش فى وقار مؤيداً :

— بالعكس ! لقد عبَّرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات !

صاح ميتيا يقول بحماسة :

— أما التفاصيل ، أما تلك التفاصيل الزخرفية السخيفة كلها ، فلندعها وشأنها ، والا لم نعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

— أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى لن أستطيع مع ذلك أن أعدل عن سؤالى . فانه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل .

— لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليه لأسباب عدة . . . الخلاصة : لاردَّ ديناً علىَّ .

— ديناً لمن ؟

— ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لاننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لان الأمر فى الواقع هو من السفاسف التى لا قيمة لها البتة . ولئن صمتُّ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمح لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة . هذا هو مبدأي . ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردَّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردَّ له هذا الدين .

قال وكيل النيابة :

— اسمح لنا بتسجيل تصريحك .

— سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلالاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة :

— أعتقد أن من واجبى أن أنبهك أيها السيد الفاضل ، اذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقك طبعاً أن لا تجيب عن الأسئلة التى تلقى عليك ، وأننا لا نملك أن نجبرك على الاجابة اذا أنت رأيت لسبب من الأسباب ان تخفى هذه النقطة أو تلك من النقاط . هذا من شأنك . ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك الى الأذى الذى يمكن أن تلحقه بنفسك اذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة . أرجوك الآن أن تتابع كلامك .

دمدم ميتيا يقول وقد أربكته اللهجة الرصينة التى خاطبه بها وكيل النيابة :

— ولكننى يا سادتى لم أغضب . . . أنا . . أنا . . ان سامسونوف ذاك الذى ذهبت اليه حينذاك . . يا سادتى . .

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التى ذكرها ميتيا ، فان القارئ يعرفها . لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعجل انجاز هذا العرض . لذلك كان يتكلم متسرعاً . غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شىء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائما من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام ، ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته . كان يتفق له أن يصيح قائلاً فى بعض الأحيان : «أيها السادة ، لو كان الله نفسه فى مكانى لضاق صدره فى هذه الظروف !» أو «لست أرى أيها السادة ما

الفائدة من امتحان أعصابى على هذا النحو !» ، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذى كان عندئذ منطلقاً ودوداً . روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) . وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضى التحقيق ، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً . فكان من شأن الحاحهما على هذه النقطة ان أخرج ميتيا عن طوره ، لأنهما رأيا أن من الضرورى تسجيل هذه الواقعة ، دليلاً جديداً على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من التجهم شيئاً بعد شىء . وبعد أن روى قصة سفره سعياً الى لياجافى ، وقضائه ليلةً فى الكوخ الذى تملؤه غازات الفحم المحترق ، وصف عودته الى المدينة ، وأخذ يصور ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، دون أن يُطلب منه ذلك ، جميع تباريح غيرته على جروشنكا . فكان القاضيان يصغيان اليه بانتباه صامتين . وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل ، مركزًا للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش فى حديقة ماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك ، وأن سمردياكوف كان ينقل اليه أخبارا ويطلعه على ما يجرى فى منزل أبيه . هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتيا عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسى الذى شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه أمام الناس ، قد حاول أن يتغلب على الخجل والحرج حرصاً منه على أن يقول الحقيقة صادقاً . غير أن النظرات القاسية الباردة التى كان يصبها عليه قاضى التحقيق ووكيل النيابة خاصةً محدقين اليه متفرسين فيه

أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال فى سرّه حزيناً : «ان هذا الصبى الغر نيقولاى بارفينوفتش الذى بادلته منذ عدة أيام أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضى اليهما به من اعترافات نفسى . يا للعار !» . ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذى يقول : «يا قلبُ صمتاً واذعاناً وتسليماً» . وتابع يروى قصته مجاهداً متجلداً . فلما وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة خوخلاكوفا انبسطت أساريره من جديد وشاع فى نفسه المرح ، وأوشك أن يروى الحادث الذى وقع لهذه السيدة منذ حين ولا يتعلق بالقضية . وقد استوقفه القاضى عن الكلام بلطف وكياسة ، راجياً منه أن ينتقل الى «واقع أهم» . وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذى اجتاح نفسه فى الشارع ، لم يُسقط من حديثه تلك الواقعة ، وهى أنه قد خطر بباله «انه لم يبق له الا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ .» . عندئذ طلب منه القاضيان ان يتوقف عن الكلام وأسرعا يسجلان أنه «قد خطر بباله أن يذبح أحداً» ، وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج . فلما وصل من حديثه أخيراً الى اللحظة التى علم فيها فجأة ان جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزما كوزمتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً : «لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ ، فان السبب الوحيد يا سادتى هو أننى قد أعوزنى الوقت» . سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام . فكان ميتيا ينتظر ،

19-1306

عابسَ الوجه مكفهر الأسارير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته ، وهمَّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقة أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

— هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة متجهمة :

— هذا ؟ آ . . . نعم . . . طبعاً أعرفها ! أرنيها . . . بل لا داعى لأن أراها . . . اللعنة !

قال قاضى التحقيق :

— نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا .

— اللعنة ! ليس فى نيتى أن أخفى عنكم هذا فهو لا غنى عنه فى قصتى ، أليس كذلك ؟ كل ما فى الأمر أنه قد خرج من ذهنى .

— هلا تفضلت فذكرت لنا الظروف التى تسلحت فيها بهذا المدق ؟

— بكل سرور يا سادتى ، سأتفضل .

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون وأسرع يخرج من مطبخ فينيا .

— ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟

— ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وانما أخذته هكذا وركضت . . .

— ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟

غلى ميتيا حنقاً . كان يتفرس فى «الفتى الغر» مبتسما ابتسامة عداء وكره . ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزى والعار ، شيئاً بعد شىء ، من أنه ارتضى أن يصف «لأناس مثلهم» ، بمثل

هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعرَ الغيرة التى كانت تعذبه .

— مالنا ولهذا المدق اللعين ؟

— ولكن . . .

— ولكن . . كنت أريد أن أدافع عن نفسى من كلاب الشارع . . فى الظلام . . احتياطا للمفاجأة . .

— هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلاً ، أن تتسلح خوفا من الظلام ؟

— تفو ! اللعنة ! حقاً أنه ليستحيل الحديثَ معكم أيها السادة . . .

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق . ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :

— اكتب . . . اكتب حالاً : «اننى أخذت المدق على نية الذهاب فوراً الى أبى فيدور بافلوفتش . . لقتله . . لتحطيم جمجمته . .» .

ثم هتف يقول مخاطباً قاضى التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :

— أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :

— نرى أنك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التى تُلقى عليك والتى تظن أنها تافهة . ولكنها فى الواقع هامة جداً .

— رحماكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق . . . طيب !

ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون فى يده شىء . . . الحق أننى أجهل لماذا أخذته . لقد أخذته راكضاً ، هذا كل شىء . ألا تخجلون أيها السادة ؟ [1] passons ، والا فيميناً لن أحكى شيئاً بعد الآن !

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة ، وجعل رأسه فى يده . كان جالساً الى جانب بالنسبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه . وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة «ولو سيق الى الموت» .

قال فجأة وهو يجاهد فى سبيل أن لا ينفجر :

— أتعرفون أيها السادة ؟ اننى ، وأنا أصغى اليكم ، أشعر باحساس غريب . . . يذكرنى الاحساس بحلم . . . بحلم ما . . . يعاودنى فى كثير من الأحيان أثناء النوم . . . أحلم أن أحداً يطاردنى فى الليل ، فى الظلام . . . أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً . . . انه يبحث عنى ، وأحاول أنا أن اختبئ منه ، أن أغيب عن بصره . . . فألوذ وراء باب أو وراء خزانة ، فأحس بأن هذا يذلنى . . . والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئى ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابى . . . وليتمتع بهلعى زمناً أطول . . . ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم فى هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

سأله وكيل النيابة :

— أتراودك اذن أحلام من هذا النوع ؟

---

[1] دعونا من هذا . (بالفرنسية فى الأصل) .

— أى نعم . . . ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً ؟ — أجابه ميتيا مبتسماً ابتسامة ساخرة .

— لا . . . لن نسجله . الحق أنك ترى أحلاما غريبة . . .

— غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة ! أنا ذئب وأنتم الصيادون . فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضى التحقيق قائلاً له برقة ولطف :

— تخطئ أن ترى الأمور هذه الرؤية . لماذا هذا التشبيه ؟

فقال ميتيا غاضباً :

— بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهدأ قليلاً ، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

— من حقكم أن تشكوا فى مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ، ولكن حين يكون أمامكم انسان مستقيم نبيل أيها السادة ، وحين يكلمكم هذا الانسان مستسلما لأصدق اندفاعات قلبه (وأقول هذا بصراحة) فما ينبغى لكم عندئذ أيها السادة أن تشكوا فى كلامه . . . لا يحق لكم ان لا تصدقوه . . . لا يحق لكم ذلك حينذاك . . . ولكن . . .

ياقلب صمتاً واذعاناً وتسليماً !

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

— أأستأنف سرد قصتى ؟

فأجابه نيقولاى بارفينوفتش :

— طبعاً ! أرجوك أن تفعل !

٥

المحنة الثالثة

استأنف ميتيا سرد قصته بصوت كالح ، ولكنه يحاول الآن ، اكثر مما كان يحاول قبل ذلك ، أن لا يُسقط أى واقعة من الوقائع التفصيلية . روى كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ، ووصف مشيته الصامتة للاقتراب من النافذة ، عرض عرضاً دقيقاً ما جرى أثناء اللحظات التى ظل فيهـــا متربصا مراقبا وراء الشجيرات ، وصور تصويرا واضحا — وهو يفصّل كلماته — العواطف التى هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا . ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضى التحقيق يصغيان اليه فى هذه المرة بتحفظ شديد وقد ظهرت فى وجهيهما قسوة ، وأصبحت أسئلتهما قليلة . كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه . قال فى نفسه : «لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؛ فليكن ما يكون !» . حتى اذا وصل من حديثه الى **الاشارة** التى قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصلت فيفتح النافذة ، لاحظ أن قاضى التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر اى انتباه ، فكأنهما لايدركان خطورته ولا يفهمان ما هى تلك **الاشارة** التى يتحدث عنها ، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب . فلما وصل أخيرا الى اللحظة التى رأى فيها أباه يميل من على النافذة ، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك ، وأخذ يحدق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد . قال وكيل النيابة :

— هيه ، أخرجت السلاح من جيبك . . . ثم . . . ثم . . . ماذا حدث بعد ذلك ؟

— بعد ذلك ؟ قتلته . . . ضربته على يافوخه وكسرت جمجمته . . . هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً . لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بعنف متزايد .

قال نيقولاى بارفينوفتش :

— ذلك فى زعمنا نحن . طيب . فماذا فى زعمك أنت ؟

خفض ميتيا عينيه . وخيَّم صمت طويل .

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادئ :

— فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة . لا أدرى أبتهلت أمى الى الله فى تلك اللحظة ، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدى ملاك لا يُرى ؟ المهم أن الشيطان قد غُلب . ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجها نحو السور . . . ذعر أبى ، وعرفنى فجأة ، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة . . . أتذكر هذا تذكراً واضحاً . اجتزت الحديقة ، واسرعت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهـــر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور .

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه . فلاح له أنهما كانا ينظران اليه بغير اكتراث . فألمت به رعدة من غضب . وقال لهما :

— ألاحظ يا سادتى أنكم تسخرون منى !

فسأله نيقولاى بارفينوفتش :

— ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

— انكم لا تصدقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا . فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية . العجوز يرقد الآن جثةً هامدة محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن أقتله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبى لهذا الغرض ، أصرح لكم فجأة بأننى لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! . . . هذه قصيدة حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغى أن يقال هذا الكلام كله شعراً ! كيف يمكن أن يُصدَّق رجل مثلى ؟ هاهاً ! . . . انكم تسخرون منى أيها السادة !

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلا على كرسيه فقرقع الكرسى .

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا :

— هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضى الى الحديقة فى الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟

— كان مغلقا .

— مغلقا ؟ أأنت متأكد ؟

— كل التأكد . كان ذلك الباب مغلقا . ثم انه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه . . هذا . . هذا الباب . . لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول مرتعشاً ، كأن فكرةً قد ومضت فى ذهنه فجأة) . ألعلكم وجدتم ذلك الباب مفتوحا ؟

— نعم ، كان مفتوحا .

— فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أنتم ؟

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش .

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطىء ، مقطعا كلماته :

— كان الباب مفتوحا ، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضاً . تلك نقطة نعدها مفروغا منها . فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته فى الغرفة **لا من خلال النافذة** . ان هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى . لم يبق أى شك من هذه الناحية .

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة . وصاح يقول مرتبكاً :

— ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة يا سادتى . أنا . . . أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازما أن الباب ظل مغلقا أثناء وجودى فى الحديقة ، وأنه كان مغلقا أيضا حين هربت . اننى لم أتحرك من مخبئى ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت . . . من النافذة وحدها . . . اننى أتذكر جميع التفاصيل . وهبنى لا أتذكرها ، فاننى على يقين من أن الباب كان مغلقا ، لأن أحداً لم يكن يعرف **الاشارات** الا أنا وسمردياكوف ، والمتوفى طبعا ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب .

— الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة والوقار فى لحظة . كان فى نبرة سؤاله شىء من ضراعة ووجل ، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعة هامة كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى خشية شديدة أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها .

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ساخرة حانقة :

— آ . . . أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك فى هذه الحالة ؟ ذلك أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى . ان أحداً لم يُطْلَعَ على السر ، فليس يعرفه ، عدانا ، الا الله . . . ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؛ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف الا الشيطان جميع النتائج التى يسمح بالوصول اليها . هأ هأ هأ ، اطمئنوا يا سادتى سأكاشفكم به ، مخاوفكم حمقاء ! انكم لا تعرفون الانسان الذى تخاطبونه . ان أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التى تشهد عليه ! . . . نعم ! ذلك أننى أنا فارس شرف ، ولكننى لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم !

بلع وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة ، لأنه كان يحترق رغبةً فى معرفة الواقعة الجديدة . تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل ما يتصل بالاشارات التى تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال سمردياكوف ، وأوضح معنى كل طريقة من تلك الطرق المختلفة فى قرع النافذة ، ومثّلها هو نفسه بالضرب على المائدة . فسأله نيقولاى بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشارة المتفق عليها لينبىء فيدور بافلوفتش بأن «جروشنكا وصلت» ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول جروشنكا . وختم ميتيا كلامه قائلاً :

— فهأنتم أولاء اطلعتم على الأمر . هلموا اجمعوا القرائن فوق القرائن ، واستخرجوا نتائجكم .

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار .

سأله نيقولاى بارفينوفتش مرة أخرى :

— أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك

والخادم سمردياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة ؟

— لم يطلع عليها أحد غير سمردياكوف والله . لا تنسوا أن تسجلوا ان الله كان على علم بالسر . قد يكون العون الالهى ضروريا لكم أنتم أيضا فى هذه القضية .

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل . ولكن بينما كان الكاتب يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن افتراضا جديدا قد ومض فى ذهنه على حين بغتة :

— ولكن اذا كان سمردياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضا ، واذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك الى فتح الباب ، ثم . . . ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد ؛ وظل يحدّق اليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن عينى وكيل النيابة أخذتا تطرفان . ثم انفجر ميتيا يقول أخيرا :

— تريد أن تقبض على الثعلب من جديد بامساك ذيل هذا الملعون ؟ هأهأهأ ! . . . لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة ! خيِّل اليك أننى سأثب على هذا «الطُعم» الذى تمده الىَّ ، وأننى سأتبنى هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لا شك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتى قائلاً : «نعم ، نعم ، هو سمردياكوف ؛ سمردياكوف هو القاتل» أعترف بأن هذه هى فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتى .

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا . قال ميتيا :

— خطأ ! لن أتهم سمردياكوف .

— لا ولا يساورك أى شك فيه ؟

— وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشتبه فيه ؟

— لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا .

أطرق ميتيا الى الأرض . ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

— كفى مزاحاً . واليكم ما أريد أن أقوله لكم . اننى منذ البداية ، وفى اللحظة التى أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم ، فى تلك اللحظة تقريبا ، ومضت فى ذهنى هذه الفكرة : «أيكون هو سمردياكوف ؟ . . .» . ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصيح قائلاً اننى لم أسفح دم أبى ، كنت أقدر فى قرارة نفسى أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هـذا الافتراض ذهنى بعد ذلك . وفى هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنتَ تلقى علىَّ هذا السؤال ، قلت لنفسى مرة أخرى : «انه سمردياكوف !» ، ولكننى سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلاً فى سرى : «لا . . . ليس هو سمردياكوف !» . ليست هذه الجريمة من صنعه .

سأل نيقولاى بارفينوفتش محاذرا :

— هل تشتبه اذن فى شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

— لا أدرى من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر . . . ولكن لا يمكن أن يكون سمردياكوف هو القاتل .

— ما الذى يدفعك الى أن تؤكد جازماً هذا الجزم ، ملحاً هذا الالحاح ، أن القاتل ليس سمردياكوف ؟

— هو اقتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة . اننى أعتقد أنه ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جدا ، ولأنه رعديد فوق كل شىء . ليس سمردياكوف رجلا جبانا بل هو جميع أنواع الجبن فى هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى ؛ لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ، يرتجف خوفا من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدى عليه . كان يرتمى على قدمىَّ باكياً ويقبل حذاءىَّ ضارعاً الىَّ أن لا «أخيفه» . هل تسمعون ؟ «أن لاأخيفه !» ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفا معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا . هذا فرخ ممروض مصاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره . أهذا رجل ؟ لا يا سادتى ، ليس لسمردياكوف ضلع فى هذا الأمر . ثم انه لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهبها له . وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز ؟ ربما كان سمردياكوف ابن العجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

— نعرف هذه الشائعة . ولكنك أنت أيضاً ابن فيدور بافلوفتش ، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله .

— وهذا حجر آخر فى حديقتى ! انها لحقارة وحطة منكم أن تأخذوا علىَّ هذا ! ومع ذلك أنا لا أخشى غمزاتكم ولمزاتكم ! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقا أن ترموا وجهى بما أسررت به اليكم أنا نفسى ؟ أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل كان فى وسعى أن أفعل ، وقد اتهمت نفسى أمامكم بأننى أوشكت أن أصرعه ذات يوم . غير أننى لم أقتله ، فان ملاكى الحارس قد حمانى من ارتكاب هذه الجريمة . . . ولكنكم لا تعتقدون أن

عليكم أن تقيموا وزنًا لهذا الكلام . ذلك هو الشر فى موقفكم ، ذلك هو فى موقفكم ما يستحق الاحتقار ! اننى لم أقتله ، اننى لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع يا وكيل النيابة ؟ أنا لم أقتله !

كان ميتيا يوشك أن يختنق . انه لم يضطرب هـذا الاضطراب الشديد كله فى أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب . وسأل بعد صمت :

— فما الذى قاله لكم صاحبنا سمردياكوف ؟ هل يجوز لى أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجة قاسية جافة :

— من حقك أن تلقى علينا ما تشاء من أسئلة . اننى أسمع لجميع الأسئلة التى تتصل بالظروف المادية للقضية . أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التى قد تثيرها . لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذى سألتَ عنه الآن راقداً على سريره مغشيا عليه يعانى من نوبة صرع شديدة ، هى النوبة العاشرة فيما أظن ، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرَّح الطبيب الذى رافقنا صرَّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة .

— فالشيطان هو الذى قتل أبـى اذن !

بهذا هتف ميتيا ، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة : «أهو سمردياكوف أم لا ؟» .

قال نيقولاى بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

— سنعود الى هذه المسألة فيما بعد . هل يمكننى أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ،

فوافق رجال القضاء على ذلك بلطف وكياسة . وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير ، ولكن كان واضحا أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أرهقه وأهانه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة . ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابـه بتصديعه فى كل لحظة بأسئلة تتناول أمورا تافهة لا قيمة لها . من ذلك مثلا أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية ، حتى استوقفه وكيل النيابة راجيا منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور . فدهش ميتيا من هذا الالحاح ، وقال يجيبه :

— جلست . . هكذا . . راكبا . . كركوبى على حصان . . . فى كل جهة ساق .

— ومدق الهاون ؟

— مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدى .

— لا فى جيبك ؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاماً ؟ هـل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه ؟

— لا بد . . . ما دمت قد ضربت ضربة قوية . لماذا هذا السؤال ؟

— هل لك أن تجلس على هذا الكرسى بالطريقة التى جلست بها على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاعة التى اندفعتها بذراعك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادةً فى الايضاح ؟

سأل ميتيا محدثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

— أتراك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه . فاستدار ميتيا فوق

كرسيه بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ، وقال :

— انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتلته ! أأنتم راضون الآن ؟ ماذا تريدون أيضا ؟

— شكراً . هلا شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ، وماذا كان هدفك من هذا ؟ ماذا كانت نيتك ؟

— عجيب . . . هل أعرف لماذا ؟ وثبت لأنظر الى الرجل المصروع .

— لقد قفلتَ راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعانى انفعالا شديدا وكنت تريد أن تهرب . فهلاّ شرحت لنا هذا ؟

— نعم ، كنت منفعلا وكنت أريد أن أهرب .

— فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟

— لا . . . على كل حال ، لا أدرى . ولكن . . . أردت أن أسعفه ، لا أتذكر الآن .

— لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟

— بل كنت واعيا كل الوعى ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل . لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن امسح دمه بمنديلى .

— عثرنا على المنديل . هل كنت تأمل انقاذ حياة الانسان الذى صرعته ؟

— لا أدرى هل كنت آمل ذلك . لقد أردت ، بكل بساطة ، أن أعرف أهو ما يزال حيا أم لا ؟

— ها ؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حيا أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

— لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيبا . ثم هربت معتقدا أننى قتلته . وها هو ذا صحا من اغمائه . . .

قال وكيل النيابة أخيرا :

— عظيم . شكراً . ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه . هلاّ تفضلت فتابعت سرد الوقائع ؟

وأسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا — رغم أنه يتذكر تذكراً واضحاً — أن يذكر أنه انما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على العجوز جريجورى قد نطق بكلمات تعبر عن الشفقة على ذلك العجوز الذى آلمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان . ان كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور «فى لحظة كتلك اللحظة ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعانيه» ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد **الوحيد** على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات . واستخلص وكيل النيابة أن هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل حتى فى اللحظة والخ . والخ . وكان وكيل النيابة راضياً وهو يقول لنفسه : «لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه «السفاسف» ، فاذا هو يفضح نفسه» .

وتابع ميتيا سرد قصته فى عناء ومشقة ، ولكن نيقولاى بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد . سأله :

— كيف ذهبت الى الخادمة فيدوسيا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

— لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجا بالدم .

قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

— انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة فى مثل هذه الحالة .

فقال ميتيا مؤيدا كلامه بحرارة :

— لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن «يتنحى عن الطريق» ، وأن «يخلى الدرب للحبيبين السعيدين» . ولكنه أحس أنه لا يملك الآن ، كما كان يملك فى بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ، وأن يتحدث عن «ملكة قلبه» حديثا طلقاً حرا . ان شعوراً بالاشمئزاز أمام هذين الانسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، «بل يغرسانها فى لحمه غرساً كحشرات تمص دمه» ، أن شعوراً بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق فى الكلام . فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة .

— نعم قررت أن أنتحر . لم يبق ثمة ما يربطنى بالحياة ويشدنى اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه . ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده والذى أهانها فى الماضى قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً ، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى ألحقه بها . أدركت عندئذ أن كل شىء قد انتهى . . . وعدا هذا كان يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا . . . ففيم الحياة بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق فى رأسى رصاصة منذ الفجر . . .

— وبانتظار ذلك ، قررتَ أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل ؟

— نعم ، نعم ، قررت ذلك ! هلاً انتهينا من هذا أيها السادة ! لقد عزمت عزماً أكيداً على أن أنتحر فى مكان غير بعيد من هنا ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغى أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح . وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب ، ووضعتها فى جيبى . لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسى . اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم .

وأضاف يقول فجأة باحتقار :

— ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم .

ثم سلَّ من جيب صديرته ورقة ورماها على المائدة . قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمَّاها الى الملف وفقا للأصول .

— ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقظ شبهات وشكوكاً ؟

— شبهات وشكوكاً ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة . وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم . فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا . ذلك من صنع الشيطان . ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا فى زمن قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدَّق !

— ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك . . . بيديك الداميتين . . أوراقا مالية . . مبلغا ضخما . . حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبـــــل ؛

ويظهر أن خادمه الصبى قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا .

— صحيح . فعلا . أظن أننى أتذكر هذا .

قال نيقولاى بارفينوفتش بصوت رقيق جدا :

— هنا ينبثق سؤال صغير . ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال ، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المباشرة ، ولكنه لم يقاطع قاضى التحقيق .

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقـــاً الى الأرض :

— لم أمر ببيتى فعلاً !

فعاد نيقولاى بارفينوفتش يقول برفق مَنْ يزحف نحو ضحيته :

— فاسمح لى اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ ما دام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت . . .

ولكن ميتيا قاطعه قائلاً بصوت جاف :

— كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ، فرهنت مسدسىً عند برخوتين ، ثم ذهبت الى السيدة خوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا . . . أعرف القصة . كنت لا أملك قرشاً واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفا من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب . . . أنا أرفض ، نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال . لقد حزرتم . لن أتكلم ، ولن تعرفوا شيئا عن هذه النقطة .

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة . وساد صمت . واستأنف نيقولاى بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان :

— اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال .

— أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئا .

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة . . .

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة :

— وهلمَّ جرا أيها السادة ، وهلمَّ جرا ! كفى ! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة ! ثم اننى أدرك أنا نفسى خطورة هذه الظروف ، وأعلم أنها النقطة الرئيسية فى القضية ، ولكننى مع ذلك لن أتكلم .

فقال نيقولاى بارفينوفتش بلهجة عصبية :

— هى مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصا على ذلك !

رفع ميتيا عينيه ، ونظر اليهما بصلابة وثبات قائلاً :

— اسمعوا أيها السادة . كفى مزاحاً . لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة . ولكن حين بدأت قصتى هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لى فى مكان بعيد غائم ، كأنه غارق فى الضباب ، حتى لقد بلغت من السذاجة فى تلك اللحظة اننى اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على «أرض

الثقة المتبادلة» . وانى لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة . لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً . . . وها نحن أولاء نصطدم به . . . فمن المستحيل أن نستمر . هذا كل شىء . ولست ألومكم على كل حال ، فاننى أفهم حق الفهم انكم ليس فى وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف .

قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه .

— ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تتزحزح عمَّا عزمت عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، أن تذكر لنا ولو باشارة يسيرة البواعث القوية التى أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا فى ساعة خطيرة وخطرة الى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابتسم ميتيا حزيناً واجماً مفكراً .

— أنا خير مما تتصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث ، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! اننى أرفض أن أتكلم لأننى أخشى العار . ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة الىَّ على دناءة اذا قيست بها جريمة قتل أبى وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم . ذلكم هو سبب اضطرارى الى الصمت . ان الشعور بالعار يخنقنى . ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً ؟

تمتم نيقولاى بارفينوفتش يقول :

— نعم ، سنسجلها .

— ما ينبغى لكم أن تسجلوا ما قلته عن «الدناءة والعار» . لقد أوضحت الأمر لكم لأننى أملك قلباً طيباً . كان يمكننى أن أمنع عنكم هذا الايضاح . لقد قدمت اليكم هذا الايضاح بغير داعٍ الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضا ؟ ليكن أيها

السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطأطئ رأسى أمامكم .

بهذا ختم ميتيا كلامه فى احتقار واشمئزاز .

دمدم نيقولاى بارفينوفتش يسأله :

— هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التى تعنيها ؟

تجهم وجه وكيل النيابة تجهما شديدا .

— C'est fini [1] لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفاية ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ . . . أنتم لا تستحقون صراحتى ، لا أنتم ولا أحد غيركم . كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة .

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد نيقولاى بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة ايبوليت كيريليوفتش أن هذا لم ييأس بعد .

— قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيديك حين وصلت الى السيد برخوتين . كم روبلاً كان المبلغ ؟

— لا أستطيع أن أقول .

— ألم تتحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك اقترضتها من السيدة خوخلاكوفا ؟

— ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل . كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة .

— أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه ؟

---

[1] انتهى . (بالفرنسية فى الأصل) .

— ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا . على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا .

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارئ جميع تفاصيلها . وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصراً على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة . ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب «ظروف جديدة» . ولم يتحدث عن دوافعه ، بل اقتصر على الوقائع الأساسية وحدها . ولم يزعجه أحد بالاسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً فى نظر وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا .

قال نيقولاى بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

— سنتحقق من صدق أقوالك ، وسنعود اليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعا . أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى معك ، ولا سيما الأموال . . . جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن .

— المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب . . . أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل اننى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن . وما كان لى أن أتهرب طبعا ، ما دمتم تراقبوننى . اليكم المال . عدُّوه . خذوا . أحسب أن هذا كل شىء . . .

أفرغ ميتيا جيوبه أفراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات ، أخرجها من جيب صديرته . وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً .

سأله القاضى :

— أهذا كل شىء ؟

— نعم .

— لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بلوتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضفنا اليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الحوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم . . .

أجرى نيقولاى بارفينوفتش الجمع تفصيلاً ، وكان ميتيا يساعده راضياً ، وُوضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولاى بارفينوفتش الحاصل ، فقال :

— فاذا حسبنا الثمانمائة روبل التى بقيت لك ، كان معنى هذا انك كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

— ممكن .

— فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك ؟

— لهم أن يقولوا ما يشاءون .

— لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا .

— لعلنى أكدت ذلك .

— سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين . أما المال فلا تخش عليه . سنحتفظ به فى مكان مأمون ، وسيُردُّ اليك فى نهاية . . . هذا التحقيق . . . اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك . . . أما الآن . . .

قال نيقولاى بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن

لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه «مضطراً» الى أن «يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً» .

— افعلوا أيها السادة . سأقلب جيوبى ان شئتم .

وأخذ يقلب جيوبه .

— لا هكذا . لا بد من أن تخلع ملابسك .

— ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ اللعنة . . . ألا يكون نبش جيوبى أسهل من ذلك ؟ أهذا غير ممكن ؟

— غير ممكن يا دمترى فيدوروفتش . يجب أن تخلع ثيابك .

قال ميتيا عابساً مذعناً :

— كما تشاءون . ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر . . . أرجوكم . . . من يتولى التفتيش ؟

قال قاضى التحقيق وهو يحنى رأسه موافقاً :

— طبعاً وراء الستائر .

وطاف بوجهه الصغير عندئذ تعبير عن وقار خاص .

٦

وكيل النيابة يشوش ميتيا

ان ما حدث عندئذ لم يكن فى حسبان ميتيا أبداً . ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دمترى كارامازوف ! ان فى هذا اذلالاً له ، «وازدراء متعاليا» منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا

سترته . لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها . . . بل لم يكن هذا منهم رجاء ، وانما كان فى الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضع للأمر دون أن ينطق بكلمة واحدة ، كبرياء واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة وقاضى التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضا ، فقال ميتيا يحدث نفسه : «لقد دخل هؤلاء للمساعدة فى اجبارى على خلع ملابسى ، وربما لبواعث أخرى كذلك» .

سأل ميتيا بخشونة :

— هه ! هل أخلع القميص أيضا ؟

ولكن نيقولاى بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة . لقد كان مشغولاً مع وكيل النيابة بتفتيش السترة والسروال والصديرة والقبعة . وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد . قال ميتيا فى نفسه : «أصبحا لا يتحرجان من شىء ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللباقة !» وقال يسألهما بلهجة أشد خشونة وحدة :

— أسألكم مرة أخرى : أيجب أن اخلع القميص أم لا ؟

فأجابه نيقولاى بارفينوفتش قائلاً بلهجة آمرة (هذا احساس ميتيا على الأقل) :

— لا تقلق ، سنقول لك ذلك فى حينه .

كان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يتبادلان الرأى بصوت خافت . ان هناك بقع دم ، متخثرة جافة واضحة كل الوضوح ، تظهر على السترة ، ولا سيما فى الظهر وفى الحافة اليسرى . وان هناك بقع دم أخرى تُرى فى السروال أيضا . وعدا ذلك أخذ نيقولاى بارفينوفتش ، بحضور الفلاحين المكلفين ، يجس الياقة وطيات الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه

يقدِّر أن يكتشف فيها شيئاً . . . هو المال طبعاً . . . وأخطر ما في الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب . فجمجم ميتيا يقول : «اننى أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط» . لقد كانا يتبادلان الآراء بصوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده . من ذلك مثلاً أن الكاتب ، الذى كان كثير الحركة وبدت عليه الرغبة فى أن يخدم ، قد لفت انتباه نيقولاى بارفينوفتش الى القبعة التى جُست أيضا ، قائلا له : «تذكروا الكاتب جريدنكا . لقد أوفد فى هذا الصيف ليتسلم رواتب جميع موظفى الدائرة ، فلما عاد صرَّح بأنه فقد المال وهو فى حالة سكر . فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه فى شريط قبعته ! لقد صنع من أوراق المائة روبل لفات صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ، ثم خاط الشريط» . لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضية جريدنكا ، فوضعا قبعة ميتيا فى جانب وفى نيتهما ان يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضا .

ورأى نيقولاى بارفينوفتش طرف الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخاً بالدم ومقلوباً ، فهتف يقول فجأة :

— هذا دم أيضا ان لم يخطئ ظنى .

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

— نعم ، هو دم .

— دم ؟ أى دم ؟ . . . ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد شمره برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضا .

قال نيقولاى بارفينوفتش :

— سيجب أن تنزع قميصك أيضا . . . هذا أمر هام جداً لاستكمال الأدلة المادية .

فاحمر وجه ميتيا وصاح غاضباً :

— أأصبح عارياً الآن ؟

— اطمئن . . . سنرتب هذا . والآن ، أنزع جوربيك من فضلك .

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه حنق :

— أأنتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

— ما نحن فى موقف مزاح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

— ليكن . . . ما دام هذا ضرورياً . . . أنا . . .

كان يشعر بخزى لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظلون مرتدين ثيابهم . شىء غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مذنب فى حقهم . كاد يسلّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً على حين بغتة ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه . قال يحدث نفسه : «حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدى عارياً فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات من هذا النوع» . وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ، كسائر ملابسه الداخلية أيضا ، ففى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن . ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصبعيهما الكبيرتين بشعتين ، ولا سيما الأصبع الكبيرة فى قدمه اليمنى التى كان ظفرها مسطحاً تاماً فلا ينحنى الا فى نهايته . سوف يراه الجميع الآن . اجتاحه الشعور بالخزى والعار ،

ففارت نفسه ، وأصبح فظاً عن عمد . قال بعد أن نزع عن نفسه قميصه :

— ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء لا يصدكم ؟

— لا ، لا داعى الى ذلك الآن .

وسأل ميتيا بلهجة حانقة :

— هل علىَّ أن أنتظر عارياً ؟

— لا بد من ذلك . تفضل فاجلس هنا . فى امكانك أن تتدثر بغطاء السرير . . . وسأحاول أن أتدبر الأمر .

أظهر الفلاحون على ملابسه ليكونوا شهوداً . حتى اذا انتهى تحرير المحضر خرج نيقولاى بارفينوفتش . وأخذت الملابس ، وانصرف وكيل النيابة أيضا . لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحولون عنه أبصارهم . تدثر ميتيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أبداً ان يلف الغطاء على قدميه العاريتين ليحميهما . وتأخر نيقولاى بارفينوفتش عن العودة ، كأنه يريد «اطالة تعذيبى» و«يحسبنى صبياً» هكذا قال ميتيا فى سره وهو يكز بأسنانه . «وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك . . . احتقاراً فى أغلب الظن . . . واشمئزازاً من رؤية رجل عار» . وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبت جديد . فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولاى بارفينوفتش يعود اليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه . قال له القاضى بلهجة ودود طلقة :

— اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيرا .

وكان واضحاً انه سعيد بالنتائج التى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

— ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الظرف الغريب ، فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقيبته من حسن الحظ . أما ملابسك الداخلية وجوربك ففى امكانك أن تلبسها .

انفجر ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد :

— لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى . ردوا الىَّ ردائى .

— مستحيل .

— أريد ردائى أنا . شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

وظلوا يرجونه زمنا طويلا ولم يمكن رده الى الصواب الا بكثير من العناء بعد أن شرحوا له ضرورة «ضم الثياب الى مجموعة الأدلة المادية» مادامت ملطخة بالدم . و«انه لم يكن من حقهم أن يدعوا له ملابسه الخاصة ، فليس يدرى أحد ما هو المجرى الذى قد تجرى فيه القضية» . اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ يرتدى الثياب الجديدة فى تعجل ، مع محافظته على صمت متجهم عابس . واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه ، وأنه يكره أن «يستفيد» منه ؛ «ثم انه ضيق علىَّ فهو يجعلنى مضحكاً . هل علىَّ أن أظهر للناس مضحكاً . . . لتتسلوا أنتم ؟»

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول . ولكن اتضح ان السترة مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد : — اللعنة ! يستحيل عقد أزرارها . أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف اننى لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأننى أكرهت على ارتدائها كمهرج !

فدمدم قاضى التحقيق يقول :

— هو يفهم هذا ، وهو يأسف . . . لا يأسف على حرمانه من ثيابه . . . لا . . . بل يأسف لما وقع لك .

— لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطر الى البقاء هنا ؟

رجوه أن ينتقل الى «الغرفة الأخرى» من جديد . دخل ميتيا الى هناك متقبض الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى أحد . كان يحس وهو فى ثيابه المستعارة أنه مذل حتى فى نظر الفلاحين ، وفى نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسةً من خلال باب ثم أسرع ينصرف . قال ميتيا فى نفسه : «أراد أن يتأملنى وأنا فى هذا الزى المضحك» . وجلس على الكرسى الذى كان يشغله منذ قليل . كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً ، أنه يعيش كابوساً ، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة متقبض الفكين :

— هيه ، والآن ، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم الا هذا !

لم يشأ أن يخاطب نيقولاى بارفينوفتش ، لأنه أصبح بعده غير جدير بانتباهه بعد الآن . وقال يحدث نفسه : «لقد تلذذ بتأمل جوربى زمناً طويلاً جداً ، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً — يا للشقى ! — بغية أن يُظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية قذرة جداً !» .

قال نيقولاى بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله :

— سنبدأ الآن استجواب الشهود .

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

— نعم ، نعم .

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمرٍ ما . وتابع القاضى كلامه فقال :

— لقد بذلنا قصارانا يا دمترى فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك . ولكن بعد أن رفضت رفضاً خشناً أن تلبى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك ، فاننا نرى الآن . .

قاطعه ميتيا سائلاً :

— من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم ؟

كان ميتيا يتكلم كمن أفاق للتو من حالة التفكير ، مشيراً الى واحد من الخواتم الثلاثة التى تزين يد القاضى اليمنى . فسأله القاضى فى دهشة :

— خاتمى أنا ؟

— نعم ، هذا الخاتم . . . ذلك الذى يزين الأصبع الوسطى . . . ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل عنيد ذى نزوات . فأجابه نيقولاى بارفينوفتش مبتسما :

— هو ياقوت أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه فـ . . .

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب الى رشده ، واضطرب وثار على نفسه :

— لا . . لا تنزعه . . ليس يعنينى هذا . . اللعنة . . لقد دنستم نفسى أيها السادة ! هل تظنون اذن أننى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أننى قتلت أبى فعلاً ، هل تظنون اننى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هوان الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لا تعرفون دمترى كارامازوف ! ما

كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يميناً ، لو كنت مجرماً لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حيا الى الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فورا ! أنا مقتنع بهذا الآن . لقد تعلمت فى هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاما من الحياة ! أكان يمكن أن اتصرف كما تصرفت هذه الليلة ، أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ، أكنت أجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الحركات ، أكنت أستطيع أن أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أنتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقاً ؟ على أن مجرد تصورى أننى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضا قد ظل يعذبنى طوال الليل ، لا خوفا . . أبدا . . . لا خشية من عقابكم ! . . . يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك أن أفضى الى أناس مثلكم ، أناسٍ مستهزئين لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئًا ، تريدون أن أحكى لكم ، أيها المناجذ العمى ، دناءةً أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عارى ؟ أبدا . . . لن أفعل ذلك ولو أدى الى تبرئتى من اتهاماتكم . . . أبدا ، أبدا . . . انى لأوثر على هذا الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح الباب ودخل الى بيت أبى من ذلك الباب . . . انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص ؟ اننى أتيه فى مجاهل الظن والتخمين ، وألقى عناء كبيرا فى محاولة حزره . ولكن ذلك الشخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا . . . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم . . . وهو كاف ، فلا تلحوا . . . ارسلونى الى الأشغال الشاقة ، أو نفذوا فىَّ الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حنقى وغيظى بعد الآن . هأناذا أسكت . أدخلوا شهودكم .

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزما مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة . وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه ، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما ان ختم ميتيا قوله قال له بهدوء بارد ، كأنما يتحدث عن أمر بسيط جداً .

— فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئتَ على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك — وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن — على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأنا كذلك ، بالنسبة اليك وبالنسبة الينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقوال العجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته . لقد صرَّح هذا العجوز ، بعد أن أفاق من اغمائه وثاب الى وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الذى لم يكن مغلقا ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقة أثناء هروبك فى الظلام مبتعدا عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضا بعد أن ألقى نظرة الى اليسار ورأى النافذة مفتوحة ، من مكان أقرب اليه كثيرا ، لاحظ أيضا ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقا طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لدعواك . ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازما أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وانما لمحك حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافة ما ، وسط الحديقة ، راكضا نحو السور . . .

وثب ميتيا عن كرسيه حين وصل وكيل النيابة الى وسط كلامه ، وأعول يقول خارجا عن طوره :

— هذا كذب . هذا كذب دنئ ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحا ، لأن الباب كان مغلقا فى تلك اللحظة . . . انه يكذب !

— من واجبى أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جداً فى هذه النقطة ، وأن شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصرا عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مرارا كثيرة .

قال نيقولاى بارفينوفتش مؤكدا كلام زميله بشىء من الحماسة :

— أنا نفسى سألته مرارا كثيرة .

فأستأنف ميتيا كلامه صارخا :

— هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية تستهدف الايقاع بى ، أو أن يكون أوهامَ رجلٍ يهذى . لا بد أن العجوز قد رأى حلما أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه . . . فقصَّ عليكم ما رآه فى الحلم حين صحا من اغمائه . . . وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

— ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحا بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظه قبل أن يُجرح ، لحظة دخوله الحديقة .

— هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكره هو الذى يدفعه الى اتهامى . . . لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب . . . أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميتيا مختنقا .

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولاى بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :

— أره اياه .

فاذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيراً من ورق مقوَّى ، تُرى عليه ثلاثة أختام من شمع لم تمس ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ قال القاضى يسأل ميتيا :

— هل تعرف هذا ؟

فدمدم ميتيا يقول وعيناه جاحظتان :

— لا شك أنه الظرف الذى كان عند أبى . . . الظرف الذى كان يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتابة . . . هل تسمح لى بأن أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : «الى حمامتى» ، وهنا : «ثلاثة آلاف روبل» .

وصاح ميتيا :

— ثلاثة آلاف روبل . . . أرأيتم ؟

— طبعا رأينا . . . ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ . كان الظرف ممزقا ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز .

لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق . ثم صاح يقول بغتةً بكل ما أوتى من قوة :

— هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق . انه الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه العجوز الظرف . انه هو ، كل شىء واضح الآن !

— ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الظرف ، وتعرف أنه موضوع تحت الوسادة .

— بل كنت أجهل ذلك كل الجهل . لم أر هذا الظرف حتى الآن ، هذه أول مرة أراه فيها ، ولم أكن أعلم بوجوده الا من مسارّات سمردياكوف . . . كان سمردياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف . . . أما أنا فكنت لا أعرف . . .

كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس .

— عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجودا تحت وسادة المرحوم أبيك . لقد حدَّدت بنفسك أنه كان مخبأً تحت الوسادة . معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمَّن نيقولاى بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

— لقد سُجِّلت تصريحاتك فى محضر الاستجواب .

— سخف . . . جنون ! . . . لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة . . ولعله كان فى موضع آخر . لقد ذكرت الوسادة مصادفة . . . ماذا قال لكم سمردياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟ تلكم هى النقطة الرئيسية ! . . أما أنا فقد كذبت عامداً . . . كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة ، وهأنتم أولاء سوف . . . كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضا . . . يخطر بباله أن يقولها . . . لقد كان سمردياكوف وحده عارفا بالأمر ، ولم يكن يعرفه أحد سواه ! حتى أنا رفض أن يكشف لى عن المخبأ . انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار .

كذلك صاح ميتيا مضطربا اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت عباراته مفككةً غير متماسكة وهو يكررها بحرارة واهتياج :

— افهموا أخيرا واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة ! . . . لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً فى الحديقة فاقد الوعى . أصبح كل شىء واضحاً . . . قرع الباب بالاشارة المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب . . . ذلك أنه الشخص الوحيد الذى كان على علم بالاشارات التى ما كان لأبى أن يفتح لولا أن سمعها .

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شىء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته :

— يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى اليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحا من قبل ، بينما كنت أنت ما تزال فى المكان ، أعنى فى الحديقة . . .

قال ميتيا متلعثماً :

— الباب . . . الباب . . .

وسكت ، وحدَّق الى وكيل النيابة بنظرة طويلة . ثم تهالك على الكرسى كالمنهار . وساد صمت . ثم هتف يقول دون أن يعى ما يقول وهو يحدق الى الأمام :

— نعم . . الباب ! . . كان هذا شبحاً ! اللّه ضدى ! . . .

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

— أرأيت ؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمترى فيدوروفتش . هناك من جهة أولى هذه الشهادة القوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرنا ، أعنى الشهادة بأن الباب كان مفتوحا وانك هربت منه . وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يُفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات . فماذا نصدق وعلى أى شىء نستند ؟ هلاَّ قلت لى . . . فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدواناً ، أننا «أناس مستهزئون باردون مستهترون» ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفسك فى مكاننا . . . وحاول أن تفهمنا أنت أيضاً . . .

كان ميتيا مضطربا اضطرابا لا يوصف . وشحب لونه . ثم هتف يقول فجأة :

— طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلعكم على مصدر المال . . . سأكشف عن عارى ، حتى لا ألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل .

قال نيقولاى بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

— ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد . . .

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزة خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب . وكان ميتيا لا يصغى اليه على كل حال .

٧

السر الكبير الذى يحتفظ به ميتيا

يتخذ هزأة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلا أشد الانفعال :

— أيها السادة . . . أريد أن أعترف بالحقيقة كلها . . . كان هذا المبلغ **لى أنا** . . .

استطال وجها وكيل النيابة وقاضى التحقيق . لقد خاب فألهما واخفق انتظارهما ، لانهما كانا يتوقعان اعترافا يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف .

دمدم نيقولاى بارفينوفتش يقول :

— كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر . . .

— سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتى ! ليس هذا هو الموضوع الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا . . . أقصد أننى استوليت عليه ، سرقته ، نعم ، سرقته . هو مبلغ ألف وخمسمائة روبل . . . كنت أحملها دائما معى ، معى . . .

— من أين أخذتها ؟

— من عنقى ، أيها السادة ، من هذا العنق الذى ترون . . . كنت أخبئها هنا ، معلقةً بعنقى ، مخيطة فى خرقة . . . هكذا كنت أحمل عارى وخزيى منذ زمن طويل ، منذ شهر . . .

— ولكن من عند مَنْ . . . استوليت . . . على هذا المبلغ ؟

— تريدون أن تقولوا من عند مَنْ «سرقته» ، أليس كذلك ؟ سمّوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلا أننى سرقت هذا المال ، أننى «استوليت» عليه اذا كنتم تؤثرون هذا التعبير . وأنا أرى أنه سرقة . وأمس مساء ، اكتملت السرقة .

— أمس مساء ؟ ولكنك قلت أنك . . . حصلت على هذا المال منذ شهر .

— نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمئنوا ! لم أسرقه من عند أبى ، بل من عندها . دعونى أروى لكم الوقائع دون أن تقاطعونى . انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم . منذ شهر ، استدعتنى كاترينا ايفانوفنا فرخوفتسيفا ، خطيبتى السابقة . . . هل تعرفونها ؟

— كيف لا ؟

— أعلم أنكم تعرفونها . هذه انسانة ذات نفس نبيلة ،

لا يضارعها فى نبلها أحد . . . ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل . . . طويل جدا . . . وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال . . . هناك أسباب تحملها على كرهى .

سأله القاضى مندهشاً :

— كاترينا ايفانوفا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضا .

قال ميتيا :

— أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقانى حين ذكرت اسمها هنا . . . نعم ، كنت أعلم انها تكرهنى . . . منذ زمن طويل . . . منذ اليوم الأول ، فى مسكنى هناك . . . ولكن كفى ! كفى حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الاشياء ، ولا داعى الى ذكر هذه الأشياء على كل حال . . يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتنى منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتنى بأن أرسلها الى أختها والى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟) .. وأنا . . . كان تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ، كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى . . الخلاصة . . هى اللحظة التى كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها قد أحببتها هى . . . امرأة هذا اليوم . . تعلمون . . . تلك التى أودعت تحت ، جروشنكا . . فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال يومين من الاحتفال والقصف ، نصف ذلك المبلغ اللعين ، أعنى ألفا وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر . فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنقى مخيطا فى كيس . وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى

القصف هنا . وان الثمانمائة روبل التى أخذتها يا نيقولاى بارفينوفتش هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخرجتها من الكيس أمس .

— اسمح لى ! هناك شىء ليس واضحا . فى المرة الماضية ، أعنى فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة . ذلك أمر يعرفه جميع الناس .

— من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على ذلك أحداً .

— كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل .

— صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيته للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه فى كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأننى أنفقت ثلاثة آلاف روبل . واهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا . ولكننى ، مع ذلك ، لم أنفق فى الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خطت باقى المبلغ فى كيس . تلكم هى الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكثير الذى كان فى حوزتى أمس .

دمدم نيقولاى بارفينوفتش يقول :

— يشبه هذا أن يكون من المعجزات .

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا :

— اسمح لى أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم . . . أعنى : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

— لم أفض بذلك الى أحد .

— غريب . . . لم تذكره لأحد فى العالم كله ؟

— فى العالم كله . لم أذكره لأحد البتة . أؤكد لك ذلك .

— فلماذا هذا السكوت ؟ ما هى الأسباب التى دفعتك الى الاحتفاظ به سراً لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله . لقد كشفت لنا أخيرا عن سرك الذى تراه «مخزيا» الى هذا الحد فى نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس فى الواقع — اذا قيس بغيره طبعا — الا هفوة صغيرة . ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التى عهد بها اليك واؤتمنت عليها فاحتفظت بها لنفسك . . مؤقتا . . . أنا متأكد من هذا . . . انما ينبغى أن يُعد طيشاً ، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبعك . . . فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له . . وأنا أسلم بذلك . . . ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك . . . واعلم على كل حال أن كثيرا من الناس ، فى هذه المدينة ، قد حزروا ، أثناء هذا الشهر ، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتك عليها السيدة فرخوفتسيفا ، رغم أنك لم تذكر ذلك لأحد ، حتى لقد وصلت هذه الشائعة الى أسماعى ، وعلم بها ميخائيل ماكاروفتش أيضا ، فليس الأمر أمر سر اذن ، وانما هو كلام يقال ويردد فى كل مكان . . . ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة ، أثناء حديث خاص ، اذا لم يخطئ ظنى ، بأن ذلك المبلغ مصدره السيدة فرخوفتسيفا . . . لذلك استغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولى هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعى ، اهتماما خارقا وتضفى عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لا تتكلم عنه ، سراً مصحوباً بنوع من الهلع . . . ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هذا النوع عذابا كهذا العذاب ، وأن يبدو لك الاعتراف به صعبا الى هذا الحد . . . ألم تعلن

منذ قليل أنك تؤثر الأشغال الشاقة على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة . وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ، ودون كثير من التسلسل أيضاً ، وانما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجارا فى جمل مقطعة .

قال ميتيا بصوت جازم :

— ليس العار فى ألف وخمسمائة روبل بل فى أننى قسمت ثلاثة آلاف روبل واحتفظت بنصفها .

فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتياظ :

— حقا ؟ هلاَّ قلت لى أين العار فى أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزيا ان كنت تؤثر أن تصفه بهذه الصفة ؟ ان الأمر الهام هنا هو أنك استوليت على هذا المبلغ ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الانحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لنا لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميتيا يقول :

— ذلك بعينه هو لب المسألة كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب . ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة فى مثل هذه الحالة . . . وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على مدى شهر بأسره !

— كلام لا يُفهم !

— أستغرب هذا منكم . ولكننى سأشرح ما أريد قوله . اننى أسلّم بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يُفهم . فاصغوا الىَّ وتابعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف

روبل اؤتمنت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها . ان فى امكانى أن أذهب الى صاحبة المال فى الغد وأن أقول لها : «كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتنى عليها» . ليس هذا خيراً بطبيعة الحال ، وانما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؛ هو سلوك انسان لا يستطيع ان يسيطر على اندفاعاته . ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارقاً ، لن أكون لصاً . لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى اؤتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه . فلنفرض الآن فرضاً ثانياً ، فرضا أفضل من الأول أيضا . تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد . أن رأسى يدور قليلا . . . اليكم الفرض الثانى : لنفرض أننى انفقت فى القصف نصف المبلغ فقط ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ، ولنفرض أننى ذهبت اليها فى الغد حاملاً ما بقى من مال ، وقلت لها : «استردى منى المال يا كاتيا لأننى لست الا انسانا شقيا طائش العقل محموم الرأس . استردى نصف المبلغ الذى ائتمنتنى عليه ، والا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول . اننى لا أريد أن اتعرض لهذه الغواية !» . فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئتم ، أكون شيطانا وأكون شقيا ، ولكننى لن أكون لصا ، لن أكون قد أصبحت لصا حقيقيا . لأننى لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وانما كنت أحتفظ بها لنفسى . كانت ستدرك هى عندئذ أننى ما دمت أرد اليها نصف المبلغ ، فسأرد اليها النصف الثانى آخر الأمر ، فى يوم من الأيام وأننى قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتى مدخراً قرشاً فوق قرش لأجمع المال الذى أنفقته فى القصف فأرده اليها فى ذات يوم . صحيح أننى أكون فى هذه الحالة رجلاً حقيراً ، ولكننى لا أكون

لصا ؛ أكون ما شئتم ، ولكننى لا أكون سارقاً على الأقل .

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

— لنسلّم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً . اننى أظل أستغرب أن تضفى على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !

— ليس هذا الفرق زهيدا بل هو فرق رئيسى . ان أى انسان يمكن أن يكون وغدا ، ولا شك أننا جميعا أوغاد بدرجات متفاوتة . ولكن ليس كل انسان لصاً . لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً . أحسب أننى لا أجيد التعبير لأننى تعوزنى الرهافة . . . ولكن اللص أحقر الحقراء وادنأ الأوغاد . تلكم هى قناعتى العميقة ! اصغوا الىّ . لقد حملت هذا المال فى عنقى مدة أربعة أسابيع ، وكنت أستطيع فى كل لحظة أن أذهب فأرد اليها هذا المال ، فلو فعلت لما كنت وغداً حقيرا ، أما وأننى لم أستطع أن أتخذ هذا القرار ، فذلك هو الأمر الخطير ! كنت كلّ يوم أفكر فأقول لنفسى : «قرر أيها الشقى ، يجب أن ترد المال» . ولكن القرار لم يجىء ، وطالت القضية شهراً بأكمله . فما رأيكم ؟ أتعلكم ترون هذا جميلاً ؟

أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

— أعترف بأن ذلك شر . أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى أن أجحده . ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هذه الفروق ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى جوهر القضية . لانك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن سؤالى ، السبب الذى دفعك الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه فى القصف وتحتفظ بالنصف الثانى معك . ماذا كان هدفك من ذلك . وعلى

أى غرض وقفت هذه الألف وخمسمائة روبل التى احتفظت بها ؟ اننى أصرُّ على هذا السؤال يا دمترى فيدوروفتش !

صاح ميتيا وهو يلطم جبينه :

— ها . . ولكن . . هذا صحيح . . معذرة . . اننى أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر . سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون . ذلك أن العار كله يكمن هنا . اسمعوا : لقد كان العجوز ، المتوفى ، يلاحق أجرافينا ألكسندروفنا بالحاحه ولجاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة . وكنت أتخيل فى ذلك الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أتختارنى أم تختاره ، فكنت أتساءل كل يوم : «ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن تعذيبى وصارحتنى قائلة : «أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر . . . خذنى الى آخر الدنيا !» . كنت أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبى الا بضعة كوبكات ! أين لنا المال الذى نسافر به ؟ ما عساى فاعلاً حينذاك ؟ كان ذلك هو النهاية الفاشلة . لاحظوا أننى لم أكن قد عرفتها حق معرفتها فى ذلك الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى . ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، أن أحتفظ بنصف الثلاثة آلاف روبل ، وأن أخيط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلته ببرود ، بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن خطته ، انما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى . لا . . . لا . . . لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟

انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضحك صاخب . وقال نيقولاى بارفينوفتش بضحكات صغيرة :

— فى رأيى أن قرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحدة . أين فى هذا ما يشبه عاراً ؟

— اننى سرقت ، هنا الحقارة ! آه . . . يا رب ! ان عجزكم عن الفهم يروعنى ! كنت أثناء حملى هذه الألف وخمسمائة روبل فى عنقى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : «أنت لص ، أنت لص !» . وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأننى سارق ، انما كنت شرسا تلك الشراسة كلها عنيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشهر الأخير . ذلكم هو السبب فى أننى تشاجرت واقتتلت فى الحانة ، وأننى ضربت أبى . وحتى أليوشا أخى لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة فى موضوع الألف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة ! ولاحظوا أيضا أننى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس سليما لا أمسه ، كنت أستطيع أن أقول لنفسى كل يوم وكل ساعة : «لا يا دمترى فيدوروفتش ، ربما لم تكن لصاً !» . لماذا ؟ لأننى كنت أستطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد اليها هذا المال . وأمس فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت أن أفضَّ الكيس . أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى . ولكننى منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصاً لا يمكن انكار انه لص ؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة . لأننى حين مزقت الكيس قد مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : «أنا وغد . . . هذا صحيح . . . ولكننى لست لصاً» . هل تفهموننى الآن ؟

قاطعه نيقولاى بارفينوفتش :

— فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

— لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر . قلت لنفسى : «ما قيمة أن أموت شريفا أو وغداً بعد الآن ؟» . ولكننى أدركت أن الأمرين لا يستويان . . صدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عانيته فى هذه الليلة الرهيبة لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى أننى سأحكم بالأشغال الشاقة فى اللحظة التى أخذ فيها حبى ينتصر ، فى اللحظة التى انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى . . . لم يكن ذلك عذابى الأكبر . . . ولا كان يساوى ، على الأقل ، عذابى من تصور أننى فتحت ذلك الكيس اللعين ، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس ، وأصبحت بهذا لصا الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقد تهدمت الى أعمق أعماق كيانى ، أعود فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة . لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء وغداً ، وانما تعلمت أيضا أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً . . . لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو يشعر أنه انسان شريف ! . . .

كان ميتيا شاحب اللون ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام .

قال وكيل النيابة ببطء بلهجة ملطفة فيها شىء من عطف :

— بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أعتقد أن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك . . همْ . . . فمثلا : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ،

لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسانة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعمد الى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟ لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافا مليئا بالنبل ، أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؛ وانى لعلى يقين ، لمعرفتى بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض أقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى . . . خاصة وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة خوخلاكوفا أيضا ! أظن طبعا أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماما .

احمر وجه ميتيا فجأة . ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدِّق الى عينى وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع :

— هل يُعقل أن تتصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضا ، وانبرى يقول له :

— أؤكد لك أننى جاد كل الجد . لماذا تشك فى ذلك ؟

— لو قد فعلت ذلك لكان حطةً ما بعدها حطة ! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبوننى تعذيبا رهيبا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شىء . سأتيح لكم أن تروا الحقيقة الجهنمية ، فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزى ، الى أى دناءة يمكن أن ينحدر ضمير انسان . ان هذا الحل الذى ذكرته الآن قد خطر

ببالى . نعم يا سادتى ! لقد فكرت فى هذا الحل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى كاتيا من فرط حطتى وحقارتى ، أذهب اليها فأعترف لها بخيانتى ، ثم أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضنى مالا لأنفذ هذه الخيانة ، لأسدد النفقات التى كانت ستقتضيها هذه الخيانة . أطلب مالاً منها هى ، كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع غريمتها ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهانتها . ألا انك لمجنون يا وكيل النيابة !

— أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكننى أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالى عنصر الغيرة النسوية هذا اذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة فى هذه الحالة كما تقول . . . والحق أن شيئاً من هذا النوع ممكن . . .

كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة .

زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

— ان عملاً كهذا العمل يكون فيه من الحطة والدناءة ، ويبلغ من شدة ما يبعثه فى النفس من اشمئزاز ، أننى لا أستطيع أن أجد كلمات تعبر عنها ! هل تعلمون أنه كان يمكن جداً أن تعطينى ذلك المال ؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطينى ذلك المال ، بدافع الانتقام ، لتتلذذ بالثأر ، لتظهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت سآخذ منها المال ، هذا أكيد ، فأظل طول حياتى . . . أوه . . . رباه ! معذرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافى . . . وعاودتني أمس مرة أخرى . . نعم . . اننى

اتذكر هذا . . وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث . . .

— أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله نيقولاى بارفينوفتش مستطلعاً ، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله وختم كلامه يقول مظلم الوجه :

— لقد قدمت اليكم اعترافا رهيبا ، فلتقدروه حق قدره أيها السادة ، بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغى لكم أن تعترفوا بقيمته . . . والا . . . اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضمرون لى أى احترام ، ولأموتنّ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى لأناس مثلكم . لأطلقنّ عندئذ رصاصةً فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

هكذا صاح ميتيا مرَّوعا جداً . فأجاب نيقولاى بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا :

— لن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن . . سنسجل أنك كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى السيدة فرخوفتسيفا لتقترض منها هذا المبلغ . . . تلك واقعة هامة جدا بالنسبة الينا يا دمترى فيدوروفتش . . . صدقنى . . . هذه التفاصيل كلها هامة . . . ولا سيما بالنسبة اليك ، اليك أنت .

هتف ميتيا يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى متوسلاً :

— أضرع اليكم يا سادتى ! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن ، اعدلوا عنه من باب الحياء على الأقل ! لقد فتحت

لكم نفسى ، فاذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامى . آه . . . رباه !

قال ذلك وأخفى وجهه بيديه قنوطا !

فتدخل وكيل النيابة يقول :

— اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيُقرأ عليك بعد ذلك ، وستعدِّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين بما تذكره . ولكن يجب علىَّ الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : هل يُعقل فعلا أن لا يكون أحد على الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيطة فى الكيس ؟ اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً . . .

— قلت أن أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد . اذن لم تفهموا شيئا البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .

— سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعا بأنك كنت تروى أنت نفسك ، حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً فى كل مكان ، أنك قد أنفقت فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة . وحتى فى هذه المرة ، قلتَ لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضا . . .

صاح ميتيا يقول :

— الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيجىء مائتا شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود ما تشاءون .

— هأنت ذا ترى اذن . لقد سمعك جميع الناس تقول

هذا الكلام . وهم جميعا يؤكدونه اليوم . هل تفهم ماذا تعنى كلمة **جميع الناس** هذه ؟

— لا تعنى شيئا ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى . . .

— فلماذا «كذبت» على حد تعبيرك ؟ . .

— لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً . . . لأمع بالكلام عن قصف بلغ ذلك المبلغ من البذخ . . . أو لأنسى ذلك المال المخيط فى الكيس . . . نعم ، ذلك هو ، ذلك هو الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب . . . الـــى الشيطان على كل حال ! انكم تعودون فتلقون علىَّ نفس الاسئلة . لقد كذبت وكفى ! لقد كذبت مرة واحدة ولم أُرد أن أعدل عن كذبتى . هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين :

— حقا ان من الصعب أن يعرف المرء ما قد يدفع الانسان الى الكذب . ولكن قل لى : ماذا كانت أبعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقا برقبتك ؟ هل كان كبيرا ؟

— لا ، لم يكن كبيرا البتة .

— ماذا كانت أبعاده تقريباً ؟

— أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين .

— هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

— قطع الكيس ؟ يا للغباوة ! اننى لا أدرى ما الذى صارت اليه .

— عجيب ! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك ؟ لقد صرَّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع الى منزلك .

— نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب الى برخوتين . نزعته عن عنقى وأخرجت منه المال .

— فى الظلام ؟

— هل كان علىَّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس فى مثل لمح البصر .

— فى الشارع ؟ بدون مقص ؟

— نعم . تمَّ ذلك فى الميدان اذا لم يخطئْ ظنى . ما الداعى الى مقص حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها .

— ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟

— رميتها .

— أين ؟

— عجيب ! فى الميدان ! أنَّى لى أن أتذكر المكان الذى رميت فيه الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هـــذه الأسئلة ؟

— ذلك هام جدا يا دمترى فيدوروفتش . ألا تفهم أن هذه الخرقة يمكن أن تكون دليلاً مادياً لصالحك ؟ من ساعدك فى خياطة الكيس على المال ، منذ شهر ؟

— لم يساعدنى أحد . قمت بذلك وحدى .

— أأنت تعرف اذن أن تخيط ؟

— لا بد أن يعرف الجندى كيف يخيط . ثم ان هذا لا يحتاج الى اية براعة .

— أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على المال ؟

— أأنتم تسخرون منى ؟

— أبدا . ثق أننا لا نرغب فى الضحك أية رغبة يا دمترى فيدوروفتش !

— لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة . لا بد أننى لمحتها من مكان ما .

— كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

— أحلف لكم أننى لا أعرف . لعلنى قد مزقت أحد الملابس .

— هذا شىء هام . قد نعثر غداً فى منزلك على ذلك اللباس الممزق الذى انتزعت منه قطعة ، وربما كان قميصا من قمصانك . . . ما نوع نسيج تلك الخرقة ؟ أكانت من كتـــان أم كانت من قطن ؟

— أأنا أعرف ؟ لحظة . . . لا . . . لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس . . كانت الخرقة من قمـــــاش خاص . . أظن أننى خطت المال فى طاقية لصاحبة المنزل الذى أقيم فيه .

— لصاحبة المنزل الذى تقيم فيه ؟

— نعم ، اختلست هذه الطاقية من عندها .

— اختلستها ؟

— أظن أننى أتذكر فعلاً أننى فى ذات يوم أخذت طاقية من عندها . كنت فى حاجة الى خرقة ، ربما لأمسح قلمى ، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقية لا قيمة لها . . . خرقة عتيقة غُسلت وأعيد غسلها مائة مرة . . . وظلت ملقاةً فى غرفتى منذ ذلك الحين . . . فلما أردت أن أخبئ تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الخرقة وخطتها على المال . . .

— هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً ؟

— لا أدرى هل هذه الذكرى واضحة جداً . يخيَّل الىَّ أنها الطاقية . . . ولكن ما قيمة هذا !

— فى هذه الحالة ستستطيع صاحبة المنزل أن تذكر أنها افتقدت طاقية ، أليس كذلك ؟

— لا . . . أبداً . انها لم تلاحظ غياب الطاقية . تلك خرقة عتيقة غير ذات قيمة . . .

— والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخيط ؟

— أتوقف عن الكلام . أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة . كفى !

كذلك حسم ميتيا المناقشة غاضباً وقد نفد صبره .

— انه لغريب حقاً أن تنسى فى أى مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس فى الميدان !

— ليس عليكم الا أن تأمروا بكنس الميدان غداً ، فربما عثرتم عليه .

بهذا أجاب ميتيا ساخراً . ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :

— هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد . اننى لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقوننى ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول . وذلك خطئى أنا لا خطؤكم أنتم : كان علىَّ أن أصمت بدلاً من أن أفضى بذات نفسى أمامكم فى غباء وبلاهة . آه . . . لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف فكشفت لكم عن سرِّى ؟ انكم لا تزيدون على أن تضحكوا من ذلك ، أنا أقرأ هذا فى نظراتكم . أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة . فى وسعك أن تفخر بنفسك . اللعنة عليكم أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتيا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه فى يديه . وصمت وكيل النيابة وقاضى التحقيق . وبعد دقيقة ، رفع ميتيا رأسه ونظر اليهما فارغ العينين . ان قسمات وجهه تعبر فى هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه ؛ وظل جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه . وكان الوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمكن تأخير سماع الشهود مزيدا من التأخير . لقد دقت الساعة الثامنة من الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل . وهذا ميخائيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن الغرفة مرارا أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد . وان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يبدوان متعبين هما أيضا الى أقصى حدود التعب . والصباح كالح مكفهر ، والسماء تغطيها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة . وميتيا ينظر الى النافذة كالآلة .

قال ميتيا يسأل نيقولاى بارفينوفتش فجأة :

— هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

— ما شئت أن تنظر . . .

فنهض ميتيا واقترب من النافذة . المطر ينهمر على الزجاج انهمارا قويا . وأمام المنزل يُرى طريق موحل ؛ وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تُلمح الكتل السوداء البائسة ، كتل الاكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والبؤس . فكر ميتيا فجأة فى «فيبوس ذى الضفائر الذهبية» ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر . فقال فى نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : «هذا صباح كان يناسب مشروعى جدا» ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى «جلاديه» وصاح :

— أيها السادة ، أرى أننى ضعت . ولكن ماذا عنها هى ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معى ؟ انها لا شأن لها بالأمر ؛ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أمس بأنها «مسئولة عن كل شىء» . هى لم ترتكب أى خطيئة ، هى بريئة كل البراءة . لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى . . ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

— اطمئن عليها يا دمترى فيدوروفتش . ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعونا الى اقلاق الانسانة التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق فى خارج القضية نهائيا . . . وسنعمل من جهتنا كل ما فى وسعنا فى سبيلها . فلا تخش عليها شيئا !

— شكراً يا سادتى . كنت أعلم حق العلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء . لقد أزحتم عن صدرى عبئاً ثقيلاً . . . ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد .

— لم يبق لنا وقت نضيعه . يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالاً ، وهذا لا يكون الا بحضورك . لذلك . .

قاطع نيقولاى بارفينوفتش قائلاً :

— ألا يكون من الأفضل أن نحتسى فنجانا من الشاى أولاً . أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاى !

وتقرر احتساء شىء من الشاى اذا وجد شاى ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميخائيل ماكاروفتش الا لطلب الشاى ؟) . وبعد الشاى يُستأنف الاستجواب «ويتابعَ بلا كلال» . اما الافطار بمعنى كلمة الافطار ، الافطار مع «المزات» فيؤجل

الى ما بعد . واتضح أن هناك شايا مهيأً بالفعل تحت ، فجىء بالشاى الى الغرفة . رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتناول الكوب التى مدها اليه نيقولاى بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناولها واحتسى الشاى بشراهة . كان يبدو مرهقا ارهاقا غريبا . ما كان لليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه . ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الاشياء الموجودة فى الغرفة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات . قال يحدث نفسه : «لحظات ثم أهذى» .

٨

أقوال الشهود . الصبى

بدأ استجواب الشهود . ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتيا . لن نحكى اذن كيف أوضح نيقولاى بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملةً ، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؛ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية ، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم . وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التى ألقاها رجال القضاء انما دارت فى الدرجة الاولى على الثلاثة آلاف روبل : لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمترى فيدوروفتش ، فى موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، فى الشهر الماضى ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة

فحسب ، وهل كان معه فى الليلة البارحة ، فى أول سهرة القصف الثانية هذه ، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة . واحزناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له . حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه .

وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداتهم . تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أى خوف ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيها كثير من الكرامة والمهابة والوقار . وكان موجزاً فى كلامه ، متحفظا فى أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها ، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل . وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذى أُنفق فى الشهر الماضى لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه «دمترى فيدوروفتش» بلسانه نفسه ، وانه يكفى أن يُسألوا عن ذلك . وختم صاحب النزل كلامه بقوله : «لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير» .

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :

— لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل . من المؤسف اننى لم أحسب ، لأننى كنت ثملا ، ولولا ذلك . . .

كان ميتيا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلما مذعنا بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : «هياً . . . قولوا ما شئتم . . يستوى عندى كل شىء بعد الآن !»

ردَّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

— لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمترى فيدوروفتش . كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلتقطونه من الأرض . ان هؤلاء الغجر أوغاد . . . ذلك معروف . . هم لصوص خيل . . . وقد طُردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة . لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيديك . ولئن لم أعدَّ الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتح لى ذلك ، فاننى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمائة روبل ، اذا صدق النظر . . أكثر كثيراً على كل حال ! اننا قد رأينا أيضا مبالغ ضخمة فى حياتنا . . . اننا نستطيع نحن أيضا أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق المالية . . .

أما عن المبلغ الذى جاء به ميتيا فى الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن دمترى فيدوروفتش ما ان نزل من عربة الترويكا حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل .

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً :

— ما هذا يا تريفون بوريستش ؟ أأنا زعمت بمثل هذا القطع والجزم ان معى ثلاثة آلاف روبل ؟

— أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندرى . وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه . وبعد ذلك بقليل صحت تقول فى القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، أنك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى فى حسابك طبعا . ولقد سمع كلامك ستيبان وسيمون ، وسمعه بيوتر فومتش كالجانوف الذى كان الى جانبك عندئذ ،

فلعله يتذكره هو أيضا . . .

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شديداً . ان هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف فى المرة الأولى + ثلاثة آلاف فى هذه المرة = ستة آلاف فعلاً .

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفون بوريستش ، وهما ستيبان وسيمون ، واستجوب الحوذى آندرى ، واستجوب كذلك بيوتر فومتش كالجانوف . فأما الفلاحان والحوذى فقد أيّدوا تصريحات صاحب النزل بلا تردد . وقد سُجِّلت ، بوجه خاص ، التفاصيل التى أوردها آندرى عن الحديث الذى جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا : «هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، الى جهنم أم الى الجنة ، وهل سيُغفر له فى السماء أم لا» . وقد تذكر ايبوليت كيريلوفتش فى هذه المناسبة مواهبه الرفيعة فى «النفاذ السيكولوجى» ، فاستقبل ما رواه آندرى بابتسامة مفهومة ، وأمر «بضم هذا التصريح الى ملف القضية» .

واستُدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا فى وجهه التململ والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب . تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنه التقى بهما مرارا فى المجتمع . وقد بدأ كلامه بقوله «انه يجهل كل شىء عن هذه القضية ، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها» . ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا فى موضوع الألف السادس من الروبلات ، وأنه كان الى جانبه فى تلك اللحظة . فلما سئل كم كان مع ميتيا

من المال قال : «لا أعرف عن هذا شيئا» . وأكد فى مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشّا أثناء اللعب بالورق . وذكر كذلك ، بعد الحاح القضاة عليه الحاحا متكررا ، أن ميتيا قد حظى ، بعد طرد البولنديين ، برضى أجرافينا ألكسندروفنا ، وأن أجرافينا ألكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه . وقد تكلم كالجانوف عن أجرافينا ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام كأنها كانت سيدة من صفوة المجتمع ، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «جروشنكا» . ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطراره الى الادلاء بشهادته ، فان ايبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل «رواية» ميتيا . وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصُرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاضه .

واستجوب البولنديان أيضا . كانا قد استقرا للنوم فى الغرفة التى حُبسا فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كانا يقدّران أنهما سيستدعيان للادلاء بشهادتهما . تقدما نحو القضاة برصانة ووقار ، ولكن بشىء من الخوف والخشية مع ذلك وُعرف عندئذ أن البان الصغير الذى كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظف محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيبريا طبيبا بيطريا . وأن اسمه موزيالوفتش . أما البان فروبلفسكى فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر» . منذ أن دخل البولنديان الغرفة التقتا نحو ميخائيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة التى كان يلقيها عليهما نيقولاى بارفينوفتش . كان واضحا انهما يتصوران أن رئيس الشرطة ، المنتحى قليلا ، هو أرفع

الشخصيات الموجودة فى الغرفة رتبةً ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : «البان العقيد» . ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما الى نيقولاى بارفينوفتش الا بعد احتجاجات كثيرة من ميخائيل ماكاروفتش ، مصحوبة بايضاحات وتعليمات . وقد تبيَّن انهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق . عرض البان موزيالوفتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا ، مظهرا كثيرا من الحرارة والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هذا النحو أمامه . فسرعان ما ألحَّ البان موزيالوفتش على أن يُسجَّل فى المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير» . فصاح ميتيا يقول فى اهتياج ووجد :

— حقير . . . نعم . . . حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا أننى لا أعبأ بالمحضر . ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك مرة أخرى قائلاً : أنت حقير !

أمر نيقولاى بارفينوفتش بتسجيل الاهانة ، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة . دعا ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة قاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أسئلة جديدة تتناول الجانب العاطفى من القضية . وعلى وجه الاجمال ، كان فى أقوال «البانين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين لفتا خاصا ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهى محاولة ميتيا ان يتخلص من البان موزيالوفتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمنا لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقى وهو الفان وثلاثمائة روبل ، يدفعه له «منذ صباح الغد فى المدينة» . وقد ذكر البان البولندى ان ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملا فى موكرويه ، ولكنه يملكه

مخبأً فى المدينة . احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح فى المدينة . غير أن البان فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه . ففكَّر ميتيا قليلاً ، ثم وافق مقطباً ، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذى يذكره البانان البولنديان ، وقال انه كان مهتاجا أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام . وأبدى وكيل النيابة اهتماما خاصا بهذه الأقوال اذ انها توضح الآن (وذلك ما لم يفتهم الاستناد اليه الا فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التى صارت الى يدى ميتيا أو جزءا منها انما هو مخبأ فى المدينة ، وربما فى موكرويه نفسها . بذلك تبدد ذلك الظرف الذى كان غامضا بالنسبة للتحقيق ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى دعم صدق أقواله ، وان تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة . هكذا انهار الدليل الوحيد الذى كان يمكن ان يدافع عن ميتيا . فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع للبان البولندى ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ فى الغد ، أجاب ميتيا جازماً بأنه كان لا ينوى ان يعطى البولندى المبلغ مالاً سائلاً ، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه فى قرية تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة خوخلاكوفا . فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص» .

— هل تظن جادا أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلا عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقداً ؟

أجاب ميتيا قائلا بحرارة :

— طبعا كان سيقبل . ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل . ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما قبض ستة آلاف . كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو البولنديين ، فيجبر العجوز على التخلى لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا !

سُجِّلت أقوال البان موزيالوفتش طبعا ، بجميع تفاصيلها ، ثم صُرف البولنديان . ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش فى اللعب بالورق . لقد كان نيقولاى بارفينوفتش شاكرا لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدِّعهما بسفاسف وترهات ، ولا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شىء خلافا فى اللعب بين قاصفين سكارى. ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكا حلالا للبانين البولنديين .

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف . بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شديد الارتباك . كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشنكا ، لاطياً بها كأنما لتحميه . وكان جالسا بالقرب منها فى صمت ، ينفجر باكيا أحيانا ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذى مربعات ، كما روى ذلك ميخائيل ماكاروفتش فيما بعد . وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن جروشنكا اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه مرارا . اعترف العجوز دفعةً واحدة ، والدموع فى صوته ، أنه يعد نفسه مذنبا لأنه اقترض من دمترى فيدوروفتش عشرة روبلات «بسبب شدة فقره» ، وأنه مستعد لردِّها . . . فلما سأله نيقولاى بارفينوفتش هل يعلم كم كان فى يدى ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أى شخص آخر أن ينعم النظر فى

الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع أن الحزمة كانت تضم نحو «عشرين ألف روبل» .

فسأله نيقولاى بارفينوفتش مبتسما :

— هل اتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟

— هل رأيت ؟ طبعا رأيت ، ولكننى لم أر عشرين ألفا بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنت زوجتى قريتنا الصغيرة . لقد تباهت أمامى بالمبلغ الذى أُعطيته ، وأذنت لى أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد . كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التى كانت مع دمترى فيدوروفتش . كلها من فئة المائة روبل .

ولم يطيلوا استجوابه . واستدعيت أخيرا جروشنكا . كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد نيقولاى بارفينوفتش أن من الضرورى أن يقول له بضع كلمات من باب النصح . ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلا ، كأنه يريد أن يقول : «لن يحدث اضطراب !» . ان ميخائيل ماكاروفتش هو الذى أدخل جروشنكا . وقد دخلت عابسةً مقطبة ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسى أشار لها اليه نيقولاى بارفينوفتش أمامه . وكانت شاحبة الوجه جداً ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع . والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هى بداية ذلك المرض الطويل الذى أصيبت به منذ تلك الليلة . وكان من شأن هيئتها الرصينة ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادئ أن أحدثت فى نفوس الجميع أثراً طيباً . حتى لقد «فتن» بها نيقولاى بارفينوفتش بعض الشىء . فقد روى فيما بعد ، فى ندوة من

الندوات ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك . وقال أنه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا «غانية ريفية» . وقد صاح يقول ذات مرة بحرارة فى مجتمع نسوى : «ان لها آداباً عظيمة كآداب امرأة من صفوة المجتمع» ، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً فى نفوس سامعاته ، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق» ، فسرَّ هو بهذا الوصف سروراً عظيماً . حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقا ، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه . سألها نيقـــولاى بارفينوفتش ، بعد الاجراءات الشكلية وبعد بضع نصائح ، سألها مترددا بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب «ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمترى فيدوروفتش كارامازوف» ، فأجابته جروشنكا بصوت حازم رقيق :

— كان أحدَ من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله فى بيتى أثناء الشهر الأخير .

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب فى كل مرة بصراحة تامة . وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها «فى بعض الساعات» ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبته ، وانما كانت تلعب به لعبا «بدافع الخبث المنحط وحده» ، كما كانت تلعب «بالعجوز» من جهة أخرى ؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلى والضحك . أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره فى يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت . وختمت كلامها قائلةً : «ثم اننى قد كانت لى خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف . فقد

كنت لا أفكر فيهما ، لأننى كنت أنتظر وصول رجل أعده آثما فى حقى . . ومهما يكن من أمر ، فاننى أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا فى هذا الشأن ، وليس علىَّ أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة» .

أسرع نيقولاى بارفينوفتش يخضع أمام هذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشنكا عن العناصر العاطفية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل . فأيدت جروشنكا أن المال الذى أُنفق فى موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل . فلئن لم تعدَّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم .

سألها وكيل النيابة :

— هل أسرَّ اليك بهذا الرقم على انفراد أم بحضـــور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضا ، على انفراد وبحضور آخرين .

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

— هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟

فأجابت :

— بل عدة مرات .

رضى ايبوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضىً عظيما . وقد أتاحت تتمة الاستجواب ان يعرف ، عدا ذلك ، أن جروشنكا كانت على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترينا ايفانوفنا .

— ألم تسمعى أبدا ان المبلغ الذى أُنفق فى القصف فى

الشهر الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

ـــ لا ، أبدا . لم أسمع هذا فى يوم من الأيام .

ثم اتضح أن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد . وختمت جروشنكا كلامها قائلة : «وكان يأمل دائما أن يأخذ مالا من أبيه» .

هنا سألها نيقولاى بارفينوفتش على حين فجأة :

ـــ هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا متنهدة :

ـــ قال ذلك واأسفاه !

ـــ أقاله مرةً واحدة أم قاله مرارا ؟

ـــ قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما .

ـــ هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

ـــ لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل خلقه .

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة .

فصاح ميتيا يقول فجأة :

ـــ اسمحوا لى أيها السادة ! هل أستطيع أن اقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافينا ألكسندروفنا ؟

قال نيقولاى بارفينوفتش :

ـــ افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه :

ـــ أجرافينا ألكسندروفنا ، صدقينى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه . فنهضت جروشنكا ، ورسمت اشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى ايقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

ـــ الحمد لله !

ثم اضافت تقول مخاطبةً نيقولاى بارفينوفتش قبل أن تعود تجلس :

ـــ ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعبا او عنادا ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره . سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين !

قال ميتيا بصوت يهدّجه الانفعال :

ـــ شكراً أجرافينا ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى .

وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشنكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحدها ، بأنه «سرقه» من كاترينا ايفانوفنا ، وأنها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ الغد . فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترينا ايفانفنا ـــ أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى ـــ أجابت بأن ميتيا قد تكلم عن الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشهر الماضى ، وأن هذا ما فهمته هى من كلامه .

هنا انتهى استجواب جروشنكا . وأسرع نيقولاى بارفينوفتش

يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمل شيئا من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيئ لها خفرا ، فانه سوف يسعده أن . . .

فقاطعته جروشنكا تقول وهى تنحنى انحناءة توديع يسيرة :

— أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى الذهاب فى صحبة هذا الملاك العجوز الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت ، اذا أذنتم بذلك ، ريثما تقرروا مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشنكا من الغرفة . كان ميتيا هادئا ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن طمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسميا شديدا غريبا كان يغزوه شيئا بعد شىء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؛ ولم يكن قد بقى شهود يُستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة . فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، ويتمدد على صندوق كبير مغطى بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فيرى فى منامه حلما غريبا لا يتفق مع هذه الظروف فى شىء من الأشياء — رأى نفسه فى عربة تجتاز سهوبا فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطا ، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذيا . ان ميتيا يشعر ببرد . هذه أوائل شهر نوفمبر . الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما ان تلامس الأرض حتى تذوب . الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوحا بسوطه . ان له لحية صهباء طويلة جدا . ما هو بالعجوز . قد يكون فى الخمسين من عمره . انه فلاح بسيط يرتدى قفطانا فقيرا أشهب . وهذه قرية صغيرة تتراءى فى مكان قريب . ان الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها

ولم يبق منها الا هياكل محترقة . وعند مخرج القرية تصطف نساء ، تصطف كثرة من النساء انهن هزيلات هزالا رهيبا . وجوههن بلون التراب . بينهن واحدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطريق . هى امرأة بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين . وجهها مستطيل جاف . وعلى ذراعيها طفل يبكى . لا شك أن ثدييها قد نضبا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن . الطفل يبكى ، وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، مادا ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد .

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة :

— لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوذى :

— الصبى هو الذى يبكى .

فوجئ ميتيا من قول الفلاح : «الصبى» ، بدلاً من أن يقول «الطفل» . أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية . ان فى كلمة «الصبى» من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة «الطفل» .

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله :

— ولكن لماذا يبكى ؟ لماذا ذراعاه عاريتان ؟ لماذا لا يغطون جسمه ؟

قال الفلاح :

— الصبى قد تخدر من البرد ؛ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه .

عند ميتيا فظل يسأل فى غباء :

— ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

— هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ، فهن يستجدين .

قال ميتيا وكأنه لا يفلح فى أن يفهم :

— لا ، لا . قل لى : لماذا هن هنا ، تلك الامهات اللواتى احترقت دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبى يبكى ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العرى ؟ نعم ، لماذا لا يتعانقن جميعا ؛ لماذا لا يرتمى بعضهن فى أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن الطفل ؟

ان ميتيا يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة ، ولكنه يشعر بحاجة قوية الى القائها ، ويعلم أنها يجب أن تلقى . وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تشب فى قلبه ، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل ، وهو يريد أن يبكى ، ويتمنى أن يفعل شيئا ليساعدهن جميعا ، حتى يكف الصبى عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل الأسود ، وحتى لا يبكى أحد فى هذا العالم بعد اليوم . انه يريد أن يعمل شيئا على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أن يحسب حساب أى شىء ، مندفعا ذلك الاندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف .

— سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى الحياة .

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر . اشتعل قلبه مندفعا نحو ضياء ما . انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ، أن يمشى ، أن يمشى بلا توقف نحو ذلك الضياء

الجديد الذى يناديه ، أن يمشى حالاً ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !

هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الصندوق ، كأنه يصحو من غيبوبة :

— أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضىء وجهه . كان نيقولاى بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه . أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر . ولم ينتبه أى انتباه الى كلام نيقولاى بافينوفتش ، لأنه لاحظ مندهشاً أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الصندوق مهدود القوى . هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفى صوته دموع ، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم :

— من وضع وسادة تحت رأسى ؟ من عطف علىَّ هذا العطف ؟

غير أن الانسان الذى قام ببادرة العطف هذه قد ظل مجهولا . لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولاى بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار الوسادة . أحس ميتيا بتأثر شديد يرقرق الدموع فى العينين . واقترب من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاءون أن يضع توقيعه عليه .

وقال بصوت غريب :

— رأيت حلما جميلا يا سادتى .

ان قسمات وجهه قد تبدلت واكتسبت تعبيرا جديدا فيه شىء من الفرح . ان محيَّاه غارق فى ضياء مشرق .

٩

اقتياد ميتيا

حين تم توقيع المحضر التفت نيقولاى بارفينوفتش نحو ميتيا فى أبهة ، وقرأ عليه نص «قرار» يتضمن أنه فى يوم كذا ، سنة كذا ، وفى مكان كذا ، استجوب قاضى التحقيق فلانا (اى ميتيا) ؛ وحيث ان المتهم ، رغم انكاره التهم المنسوبة اليه (وتُليت كل التهم بدقة) لم يكن قادرا على أن يبرئ نفسه ، ونظراً للتهم المنسوبة اليه من الشهود (وتُليت قائمة بأسماء الشهود وشهاداتهم) ، ونظرا لظروف القضية ، فقد قرر قاضى التحقيق ، بالاستناد الى مواد قانون العقوبات (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن الفلانى حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة ، الخ . الخلاصة : أُعلم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن فى مكان ليست الاقامة فيه بالممتعة . وقد أصغى ميتيا الى قراءة هذه الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلاً :

— ليكن ما تشاءون يا سادتى . . . لست أؤاخذكم ، أنا مستعد . . . اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان فى وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم .

فشرح له نيقولاى بارفينوفتش ، فى لين ورفق ، أن مافريكى مافريكيفتش الذى كان فى المكان بما يشبه المصادفة ، هو الذى سيقتاده .

هتف ميتيا يقول فجأة فى سورة جامحة لا تقاوم ، متجها بكلامه الى جميع الحضور فى القاعة :

— لحظة أيها السادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مفترسة ، نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الاطفال الرضّع ، ولكننى أنا — أقول هذا جهارا على رؤوس الاشهاد هنا — أنذل الناس ، وأدناهم طراً . اننى أسلم بهذا . وما من يوم انقضى فى حياتى الا وحلفت فيه ، وانا الطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولاقومن عوجى ، ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ الغد . اننى أدرك اليوم أن رجالا مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن تخضعهم قوى خارجية وتوقعهم فى أحابيلها . ما كان لى أبدا ، أبدا ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصاعقة قد نزلت علىّ . وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تلطخ به شرفى أمام الناس . أريد أن أتألم ، وأن أتطهر بالألم . لأننى سأفدى نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحا أيها السادة ؟ ولكننى أؤكد لكم آخر مرة : أننى لم أسفح دم أبى ! اننى أقبل العقاب لا على قتله ، بل على أننى أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية . . . ولكننى سأكافح لدفع التهمة عن نفسى ، فاعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر الرب مصيرى . الى اللقاء أيها السادة . واغفروا لى ما ظهر منى من غضب أثناء الاستجواب . آه . . ما كان أغبانى عندئذ ! بعد بضع ثوان لن أكون الا سجينا ؛ ولآخر مرة انما يمد دمترى كارامازوف يده اليكم مصافحا مصافحة رجل حر طليق . وانى اذ أودعكم انما أودّع العالم . .

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن نيقولاى بارفينوفتش الذى كان اقرب الحضور اليه ، سحب يده فجأة بحركة تشبه أن تكون متشنجة . فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده .

دمدم نيقولاى بارفينوفتش يقول محرجا :

— لم ينته التحقيق . وسنستأنفه فى المدينة . وأنا من جهتى أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك . لقد كنت أميل دائما يا دمترى فيدوروفتش الى أن أعدك انسانا عاثر الحظ ان صح التعبير ، لا انسانا مجرما . . . ونحن جميعا مستعدون — اذا جاز لى ان انطق بلسان الآخرين أيضا — لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق فى قرارة نفسه ، لكنه ، وأسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه افراط . . .

وحين نطق القاضى بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل وضع مهابة قصوى ووقار عظيم . وأحس ميتيا فجأة ان هذا «الولد الصغير» سيمسكه من ذراعه فينتحى به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير عن «النساء» . هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة لا تناسب ظروفا كظروف هذه اللحظة يمكن ان تومض فى ذهن الانسان ، ولو كان هذا الانسان مجرما يُساق الى الاعدام ؟

سأل ميتيا :

— سادتى ، أنتم أناس طيبون انسانيون . فهل تسمحون لى بأن أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

— طبعا . . . ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة . . . أقصد . . لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود .

— لا أرى أى ضير فى أن تحضروا اللقاء .

مضى بعضهم يحضر جروشنكا . ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولاى بارفينوفتش . انحنت جروشنكا تحيى ميتيا تحية عميقة . وقالت له :

— قلتُ اننى سأكون لك الى الأبد . سأصحبك حيثما

تذهب ، مهما يكن مصيرك . استودعك اللّه ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنبا .

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها .

— اغفرى لى يا جروشنكا ، اغفرى لى أننى أحببتك . فسببت لك الضياع بهذا الحب .

أراد ميتيا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجأة وخرج من الغرفة . وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم يغب عن انظارهم . وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندرى محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان . ان مافريكى مافريكفيتش ، وهو رجل سمين قصير متورم الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارئ ما ، فهو يغضب ويصيح . وها هو ذا يدعو ميتيا الى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة فى الخشونة . قال ميتيا يحدث نفسه وهو يركب العربة : «حين كنت أسقيه خمرا فى الحانة ، كان يبدى غير ما يبدى الآن .» . وظهر تريفون بوريستش فى أسفل درجات الباب أيضا . واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس فى ميتيا .

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه :

— استودعكم اللّه أيها الناس الطيبون ! سامحونى !

فترجَّعت أصوات تقول له :

— اغفر لنا نحن أيضا .

— أستودعك اللّه أنت أيضا يا تريفون بوريستش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت . لعله كان مشغولا جدا ، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربة الثانية التى يجب أن يركبها خفيران من رجال مافريكى

24-1306

مافريكفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد . كان الفلاح القصير الذى كلف بسوق العربة يصرّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدى قفطانه ، أن الدور دور آكيم ، لا دوره هو ، فى القيام بهذه المهمة . ولكن أين آكيم ؟ ان أحداً لم يستطع العثور عليه . لقد بحثوا عنه فى كل مكان . والفلاح القصير ما يزال يصرّ ويتوسل ان ينتظروه مزيدا من الانتظار .

هتف تريفون بوريستش يقول :

ـــ ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا مافريكى مافريكفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

ـــ لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت بها خمراً ، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك .

وعاد تريفون بوريستش يخاطب مافريكى مافريكفتش :

ـــ يدهشنى يا مافريكى مافريكتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله .

تدخل ميتيا قائلا :

ـــ لماذا هذه العربة الثانية ؟ تكفينا عربة واحدة ، ألا تظن ذلك يا مافريكى مافريكفتش ؟ اننى لن أتمرد ولن أفر منك ! لا حاجة الى خفر من أجلى !

فأجابه مافريكى مافريكفتش قائلا بشراسة :

ـــ تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف ذلك بعد . أنا لست رفيقك ، واننى أمنعك من مخاطبتى بصيغة المفرد . مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمنع عن اسدائها الىّ فى المستقبل .

كان واضحا أنه يسعده أن يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه .

صمت ميتيا . وكان قد احمر احمرارا شديدا . وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد . لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشهباء مغطاة بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه . تساءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنج : «أهذه رعدة حمى ؟» . وركب مافريكى مافريكفتش العربة أخيرا . جلس فى مكانه ثقيلا ، واسترخى على راحته دافعا ميتيا الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك . الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التى عهد اليه بها .

ـــ استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى انتزع منه هذه الصيحة انتزاعا بغير ارادته . ظل تريفون بوريستش ساكنا لا يهتز ، واضعا يديه وراء ظهره . وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظرا اليه نظرة مثقلة بالكبرياء والتعالى زاخرةً بالاستنكار والاستياء .

ودوّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدرى أحد من أين :

ـــ الوداع يا دمترى فيدورفتش ، الوداع !

كان كالجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، مادّاً يده الى ميتيا ، فاتسع وقت ميتيا لان يمسك يده ويصافحه ، قائلا له :

ـــ الوداع أيها الصديق الشهم . لن أنسى كرمك ما حييت !

ولكن العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنت الجلاجل .

لقد اقتيد ميتيا .

انسحب كالجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعا رأسه فى يديه ، وأخذ يبكى . وظل يبكى زمنا طويلا ، كصبى صغير ، لا كشاب فى العشرين من عمره . لقد كان شبه مقتنع ، وأسفاه ! ، بأن ميتيا قد قتل أباه . فكان يهتف بغير ترابط فى أقواله ، وهو يشعر بحسرة مرة شبيهة باليأس والقنوط : «ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد الآن» ؟ . وبدا له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهو يتساءل قانطاً : «فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟» .

الجزء الرابع

الباب العاشر

الصبيان

١

كوليا كراسوتكين

نحن فى أول شهر نوفمبر . درجة الحرارة احدى عشرة تحت الصفر . المياه تتجمد . وقد هطل على الأرض المتجلدة فى الليل ثلج ناعم . فهذه هى الريح الجافة الحادة ، تسفعه الآن فتثيره فى الشوارع المملة من مدينتنا الصغيرة ، وخاصة على ميدان السوق . الصباح يملؤه الضباب ، ولكن الثلج الخفيف انقطع عن الهطول . انك ترى ، غيرَ بعيد من الميدان ، قرب متجر آل بلوتنيكوف ، منزلاً صغيراً ، نظيفاً جداً فى الداخل والخارج على السواء ، هو منزل أرملة الموظف كراسوتكين . ان الموظف كراسوتكين الذى كان سكرتيراً حكومياً* قد مات منذ زمن طويل . . . فقريبا يكون انقضى على موته أربع عشرة سنة ؛ ولكن أرملته ، وهى امرأة حسنة الوجه باشة الهيئة ، فى نحو الثلاثين من عمرها ، ما تزال على قيد الحياة وتعيش من ايراداتها ، فى منزلها النظيف .

وهى تعيش فيه حياة شريفة محتشمة ، لأن لها طبعاً رقيقاً حنوناً ، وان تكن على شيء من المرح . لم يكن عمرها قد تجاوز الثامنة عشرة حين مات عنها زوجها ، وهى لم تعش معه الا سنةً واحدة ، اى الزمن الذى كان لازما لانجاب ابنها . ومنذ ذلك الحين ، منذ اليوم الذى ترملت فيه ، لم تعش الا من اجل هذا الصغير ، فوقفت حياتها كلها على ابنها كوليا وحده . ولكنها ، على حبها ابنها ، خلال هذه الاعوام الأربعة عشر كلها ، حبا حنونا لا حدود له ، قد عانت من العذاب ، كما تتصورون ذلك ، اكثر كثيراً مما ذاقت من الفرح ، فهى كل يوم تقريبا ترتعد خوفاً وتموت هلعاً متى تصورت أن ابنها يمكن أن يصيبه برد ، أو أن يمرض ، او أن يرتكب تهوراً أثناء لعبه ، فيتسلق كرسياً فيسقط ، الخ . . . وحين دخل كوليا المدرسة الابتدائية ، ثم حين قُبل بعد ذلك فى المدرسة الثانوية بمدينتنا ، أسرعت أمه تدرس معه جميع العلوم لتساعده وتعاونه فى مذاكرة دروسه . وأسرعت تتعرف كذلك بمدرسيه ، بل وبنسائهم أيضا ، وتعلقت برفاق صفه ، فهى تدلّلهم وتتفانى فى بذل جميع الملاطفات لهم ، حتى لا يلحقوا بابنها أية اساءة ، حتى لا يسخروا منه أو يضربوه . وقد بلغت من ذلك أن الصبية انتهوا حقاً الى السخرية منه بسببها ، فأخذوا يناكدونه ، مطلقين عليه اسم «حبيب أمه» . ولكن الفتى عرف كيف يدافع عن نفسه . انه طفل شجاع ، «قوى قوة هائلة» ، لم تلبث شهرة قوته هذه أن ذاعت بين رفاقه ورسخت فى نفوسهم . وكان حاذقاً بارعاً ، قوى الطبع صلب الارادة جريئاً مغامراً جسوراً . وكان الى ذلك تلميذاً ناجحا متفوقاً حتى لقد كان التلاميذ يؤكدون أنه استطاع أن يتفوق فى الرياضيات وفى تاريخ العالم على الاستاذ داردانيلوف نفسه .

ولكنه رغم انه ينظر الى الآخرين من علٍ ، يعرف كيف يحافظ ، فى وضعه ، على أن يكون بسيطاً وأن يكون نعم الرفيق . ولئن كان يقبل احترام رفاقه له على أنه حق من حقوقه ، فلقد كان هذا لا يصرفه عن حسن التصرف معهم وعن التزام اللطف والكياسة فى معاملتهم . وكان يعرف خاصةً كيف يحافظ على القصد والاعتدال ، كان قادراً على ضبط نفسه عند الاقتضاء ، فهو لا يتجاوز قط ، فى علاقاته بالمسئولين ، حدوداً معينة لا يمكن احتمال تجاوزها ، ولا يُعدُّ تخطيها الا تمرداً وترديا فى الفوضوية وخروجاً على المشروعية . على أنه كان يحب كثيراً أن يتحرر بعض التحرر ، ولا يعدم أبداً فرصة تحقيق هذه الرغبة ، فينطلق فى أفعال مرحة طائشة ، كأخبث الصبية الصغار ، لا بدافع «الشيطنة» والحق يقال ، بل نشداناً للذة ابتكار شيء ما ، واحداث أثر فى النفوس ، ولفت الأنظار اليه ، وتأكيد ذاته بجرأة وجسارة ، والقيام بدور من الأدوار . وكان الفتى على جانب عظيم من الشعور بنفسه والتمسك بكبريائه ، وقد استطاع أن يسيطر على أمه سيطرة تامة ، وأن يكون له عليها سلطان كبير يشبه أن يكون طغياناً واستبداداً . وقد خضعت الأم واذعنت منذ زمن طويل ، وانما كان يؤلمها أن تتصور أن فتاها «لا يحبها كثيراً» ، وكانت لا تطيق هذه الفكرة ولا تستطيع احتمالها أبداً . كان يتراءى لها دائما أن كوليا «فاتر العاطفة» تجاهها ، وكان يتفق لها أن تبكى بكاء هستريا ، آخذةً عليه هذا الفتور ؛ وكان الفتى يكره هذه «المشاهد» ، فكلما طالبته أمه بمزيد من اظهار العاطفة ، ثبت هو ، وكأنما قصداً ، مزيداً من الثبات على جمود احساسه وبرود عاطفته . والواقع أنه لم يكن يفعل ذلك واعياً ، وانما كان يفعله على غير ارادة منه ، فتلك كانت طبيعته ولكن الام كانت على خطأ فقد كان يحبها

كثيراً ، غير انه كان يكره هذا الافراط السخيف فى اظهار المشاعر ، تلك «العواطف التى تشبه عواطف العجول» ، كما كان يقول بلغته ، لغة التلميذ .

وكان أبوه قد خلّف مكتبة خاصة . وكان كوليا يحب القراءة ، فقرأ عدداً من الكتب المودعة فى الخزانة . لم يُقلق هذا أمَّه ، غير انها كانت تستغرب أن يعكف ابنها ساعات طويلة على قراءة كتاب بدلاً من أن ينصرف الى اللعب . هكذا قرأ كوليا كتباً ما كان يمكن أن توضع بين يديه فى سنه هذه . على أن الفتى الذى كان لا يحب أن يتخطى بعض الحدود فى عبثه ، قد أخذ منذ زمن يأتى بأفعال ترعب أمه رعباً شديداً . لم يكن فى سلوكه شىء يجافى الأخلاق ، ولكنه أصبح يتلذذ بالقيام بمغامرات متهورة طائشة . من ذلك أن الأم قد ذهبت مع ابنها فى هذا الصيف نفسه ، أثناء عطلة يوليو الى قريبة من قريباتها تسكن فى مقاطعة أخرى على مسافة سبعين فرسخا من مدينتنا ، لقضاء أسبوع عندها . ان زوج هذه المرأة موظف فى السكة الحديدية ، فهو يعمل فى محطة القطار بالمنطقة (وهى أقرب المحطات من مدينتنا ، تلك المحطة نفسها التى سافر منها ايفان فيدوروفتش كارامازوف الى موسكو منذ شهر) . بدأ كوليا بأنه أخذ يدرس تجهيزات السكة الحديدية بكثير من العناية والاهتمام ، لانه رأى أن هذه المعلومات الجديدة ستتيح له أن يبهر رفاقه فى المدرسة عند عودته . وسرعان ما توثقت الصلة بينه وبين صبية آخرين فى المنطقة كان بعضهم يسكن فيما حول المحطة مباشرة وكان بعضهم الآخر يسكن فى منازل تبعد قليلاً عن المحطة . هكذا تألفت منهم عصبة عدد أفرادها ستة أولاد أو سبعة ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وبينهم اثنان من مدينتنا . وقد نظم هؤلاء

الفتيان ألعاباً ، وتخيلوا أنواعاً من العبث والهزل ، ثم اذا بهذه العصبة المرحة تخترع فى اليوم الرابع او الخامس رهاناً غبياً بروبلين على مغامرة فظيعة . ان كوليا ، وهو أصغر أفراد العصبة تقريباً ، وكان الكبار يستخفون به لهذا السبب ، قد اقترح فى ذات يوم ، من قبيل حب الظهور أو من قبيل ابراز الجسارة ، أن يرقد على وجهه فى احدى الليالى بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل جامداً على هذا الوضع أثناء مرور القطار فوقه بسرعة عند الساعة الحادية عشرة . لا شك أن كوليا قد درس صعوبات هذه المغامرة سلفاً واستنتج أن فى وسعه أن يضطجع هذا الاضطجاع بين خطى السكة الحديدية ، وأن يظل راقداً هنالك تحت عربات القطار دون أن تلامسه . ولكن ما أشد ما تحتاج اليه هذه المغامرة من هدوء أعصاب ورباطة جأش ! وكان كوليا يزعم أنه قادر على ذلك ، فهزئ منه الفتيان فى أول الأمر ، ونعتوه بأنه كذاب وبأنه متبجح ، فما زاده ذلك الا اغتياظا وعناداً ؛ وكان يحنقه خاصة أن ينظر اليه هؤلاء الفتيان الذين هم فى الخامسة عشرة من أعمارهم نظرة متعالية ، وأن يرفضوا أن يعدّوه نداً لهم ، وأن يصفوه بأنه «صغير» ، وتلك فى نظره اهانة لا تطاق ! قرر الفتيان أن يذهبوا عند هبوط الليل الى مكان يبعد عن المحطة مسافة فرسخ ، حيث يكون القطار بعد تحركه من المحطة قد أخذ يجرى سريعاً . واجتمعت العصبة . كانت الليلة غير مقمرة ، وكان الظلام دامساً . وفى الساعة المتفق عليها رقد كوليا بين خطى السكة الحديدية . وربض المتراهنون الخمسة الآخرون بين الاشجار فى أسفل المنحدر قرب الطريق ، وهم يشعرون بشىء من الانفعال فى أول الأمر ، ثم اجتاحتهم الخشية والندامة بعد ذلك . وسُمعت أخيرا من بعيد همهمة القطار الذى غادر المحطة . وسطع ضوءان

أحمران فى الليل ، وأقبل القطار العملاق يجرى مسرعا بضجة كدوى الرعد . صاح الصبيان وقد شلّهم الذعر فى مخبئهم ، يقولون لكوليا : «اركض ، اركض ، اهرب» ، ولكن كان قد فات الأوان . ووصل القطار ومرَّ فوق كوليا . ظل كوليا متمدداً بلا حراك . وهرع اليه الصبيان يحاولون انهاضه . فاذا هو ينتصب واقفاً على قدميه فجأة ، ثم يمضى يهبط المنحدر دون أن ينطق بكلمة . حتى اذا وصل الى قرب الطريق أعلن لرفاقه أنه تظاهر بالاغماء ليرعبهم . ولكن الحقيقة هى أنه قد أغمى عليه فعلاً ، كما اعترف لامه بذلك بعد مدة طويلة . ومنذ ذلك الحين اشتهر كوليا باسم «الجسور» الى الأبد . وقد عاد الصبى الى المنزل فى تلك الليلة شاحبا الى درجة البياض ، وانتابته فى الغد حمى خفيفة . ولكنه كان يشعر بسعادة ، وكان يضحك ويمزح . ولم يذع أمر هذا الحادث فوراً ، وانما ذاع بعد عودة كوليا الى مدينتنا ، فاهتزت سلطات المدرسة اهتزازاً قوياً ، وتدخلت أم كوليا لدى الادارة ضارعة اليها أن تصفح عن الولد وأن تعامله بالحسنى ، وظلت تبذل مساعيها ، الى أن تولى المعلـــــم داردانيلوف ، وهو رجل محترم مسموع الكلمة ، أمرَ الدفاع عن الصبى ، فأهملت القضية كأن شيئاً لم يحدث . ان داردانيلوف هذا ، وهو رجل عازب ليس متقدماً فى السن ، كان قد أخذ بالسيدة كراسوتكينا منذ زمن طويل ، وجرؤ على عرض الزواج عليها فى السنة الماضية بكثير من الاحترام وهو يرتعش خوفاً . ولكنها رفضت عرضه رفضاً قاطعاً ، لأنها رأت أن زواجها خيانة لابنها . ومع ذلك ظل داردانيلوف يقدِّر ، على أساس بعض العلائم الخفية ، أن عليه أن لا يفقد الأمل ، وأن الأرملة الشابة الفتانة ، ولكن المبالغة فى عفتها ووسواسها ، لا تخلو من الميل

اليه والاعجاب به . وكان من شأن تلك المغامرة المجنونة التى قام بها كوليا أن حطمت الجليد بين المعلم والأرملة ، وقد أفهم داردانيلوف ، حين شكر له توسطه فى الأمر ، أنه ليس محظوراً عليه أن يراوده أى أمل . صحيح أن ذلك قد قيل الماعاً بعيداً غامضاً ، ولكن داردانيلوف ، الرجل الطاهر الذيل المرهف الشعور هو أيضا ، كان لا يطلب أكثر من ذلك حتى يشعر بسعادة كاملة . وكان يحب كوليا ، ولكنه رأى أنه لا يليق بكرامته أن يتزلف اليه ، لذلك كان يعامله أثناء الدروس معاملة قاسية متشددة . ولسنا نبتعد عن الانصاف اذا قلنا أن كوليا نفسه كان يجافيه . لقد كان كوليا يحضِّر واجباته المدرسية بكثير من العناية ، وكان ثانى التلاميذ ترتيباً فى صفه ، وكان يجيب بلهجة جافة جداً عن جميع الأسئلة التى يلقيها عليه المعلم . وكان جميع رفاقه ، من جهة أخرى ، مقتنعين بأنه قوى فى مادة تاريخ العالم الى درجة أنه يستطيع أن ينافس أستاذه . وقد حدث فعلاً أن سأل كوليا أستاذه ذات يوم : «من بنى مدينة طروادة ؟» ، فاقتصر داردانيلوف فى الاجابة عن هذا السؤال على ذكر أمور عامة عن هجرات الشعوب وعن غموض تاريخ العصور القديمة وعن الأساطير ، ولم يقل شيئاً عمن بنى مدينة طروادة تحديداً ، أى مَنْ هم هؤلاء الأشخاص ، وعدَّ هذا السؤال لسبب ما تافهاً لا داعى اليه . وهكذا ظل التلاميذ مقتنعين بأن داردانيلوف يجهل اسم بانى طروادة . وكان كوليا قد عثر على بعض المعلومات عن تأسيس مدينة طروادة من كتاب سماراجدوف ، الذى كان أحد الكتب الموروثة عن أبيه . وأراد جميع التلاميذ أخيراً أن يعرفوا من بنى طروادة ، ولكن كراسوتكين لم يكشف عن سره ، وظل محاطا فى علمه الذى لا سبيل الى معرفته ، بهالةٍ من المهابة والاحترام .

وقد حدث تغير فى موقف كوليا من أمه بعد حادث السكة الحديدية . ان السيدة آنا فيدوروفنا (وهذا هو اسم الأرملة كراسوتكينا) قد أوشكت أن تُجن من الهلع حين علمت بالمغامرة التى قام بها ابنها ، وأصابتها نوبات عصبية عنيفة تتابعت أياماً ثم عادت تصيبها بعد هدنة قصيرة .

وارتاع كوليا من الحالة التى صارت اليها أمه . فقطع لها على نفسه عهد الشرف ليعزفنَّ بعد الآن عن هذه الأعمال ، وليمتنعنَّ فى المستقبل عن مغامرات من هذا النوع . حلف على ذلك أمام الايقونة وهو يجثو على ركبتيه ، وحلف على ذلك أيضا بذكرى أبيه ، كما طلبت أمه . وقد انفجر كوليا «الجسور» عندئذ باكياً بكاء طفل فى السادسة من عمره ، واستسلم لنوبة من «العاطفة» ، وظل الابن وأمه طوال النهار يتعانقان باكيين . ومع ذلك عاد كوليا منذ الصباح «فاتر الشعور» ، كما فى السابق ، «بارد العاطفة» ، ولكنه أصبح منذ ذلك الحين أشد صمتاً ، وأكثر تواضعاً وصرامةً ، وأطول روية . ولكن ما ان انقضت ستة أسابيع حتى اندفع كوليا فى مغامرة جديدة ، فوصل اسمه حتى الى أسماع قاضى الصلح . على أن القضية فى هذه المـــــرة كانت من نوع آخر تماماً ولم تكن أكثر من «شيطنة» مضحكة وحمقاء ، ولم يكن هو نفسه الفاعل فيها ، وانما جرفه اليها غيره . وسنشير اليها فيما بعد على كل حال . وعاشت أمه مرة أخرى فى مخاوف مستمرة ، وأحس داردانيلوف بازدياد آماله على قدر ازدياد مخاوف المرأة المسكينة . يجب أن نلاحظ هنا أن كوليا كان يدرك ويحزر الأحلام الخفية التى تراود استاذه ، فكان يحتقره احتقاراً عميقاً لهذه «العواطف» ؛ حتى لقد اتفق له فى الماضى أن أعرب عن احتقاره هذا بحضور أمه دون اية مداراة ، ملمعاً الى

انه يعرف كل المعرفة الهدف الذى يريد أن ينتهى اليه داردانيلوف . غير أنه بعد حادث السكة الحديدية قد تبدل موقفه فى هذه الناحية أيضا . فأصبح لا يسمح لنفسه بشىء من الغمز ولو كان غمزاً مستـراً ، وأخذ يتكلم عن داردانيلوف أمام أمه بمزيد من الاحترام ؛ واذ أدركت أمه ، باحساس قلبها المرهف ، الأسباب التى تدفعه الى اتخاذ هذا الموقف الجديد ، فقد شعرت بكثير من الشكر والعرفان . ولكنها كانت تحمر خجلاً ويصبح خداها كالورد لوناً كلما اتفق أن ذكر زائر غريب اسمَ داردانيلوف بحضور كوليا عَرَضاً . وكان كوليا فى تلك اللحظات ينظر من النافذة متجهم الوجه ، أو يتظاهر بأنه ينعم النظر الى حذاءيه فاحصاً حالتهما ، أو ينادى كلبه «بِرزفون» غاضباً حانقاً ، وهو كلب طويل الشعر ضخم الجسم ولكن منظره يثير الشفقة ويبعث على الرثاء ، وكان كوليا قد تبناه منذ شهر ، لكنه يخفيه فى غرفته عن رفاقه لا يعلم الا الله لماذا ! كان كوليا يسوم الكلب سوء العذاب من أجل أن يعلمه أنواعا شتى من الحيل ؛ واستطاع أخيرا أن يجعل الكلب يتعلق به تعلقاً شديداً ويكلفه كلفاً قوياً حتى أصبح الكلب يعول حزناً وكمداً حين يغادر كوليا المنزل ذاهباً الى المدرسة ؛ ويطير فرحاً وحماسة كلما عاد كوليا الى المنزل ، فمتى رأى «برزفون» صاحبه أخذ ينط ويتواثب طرباً ، وأخذ يتقرب منه ويتحبب اليه ، وراح يرقد على الأرض متظاهراً بالموت ، أى طفـق يجرى الحركات التى عُلِّمها ، وطفق ينفذها ، ولكنه لا ينفذها فى هذه المرة بأمر ، بل من تلقاء نفسه ، فى اندفاعة انفعاله وشكرانه .

بالمناسبة : لقد أغفلت أن أقول أن كوليا كراسوتكين هو بعينه ذلك الفتى الذى طعنه بمطواة فى وركه الصبىُ ايليوشا الذى

يعرفه القارئ (هو ابن النقيب المتقاعد سنيجيريف) وذلك دفاعاً عن أبيه ضدّ تلاميذ المدرسة الذين كانوا يسمونه «بالليفة» احتقاراً .

٢

الأولاد

فى ذلك الصباح الذى يملؤه الجليد والضباب من شهر نوفمبر ، كان كوليا كراسوتكين فى المنزل . اليومُ يومُ أحد ، فلا مدرسة . ودقت الساعة الحادية عشرة . ان كوليا يريد ان يخرج من المنزل حتماً «لأمر هام جداً» . ولكنه كان فى البيت عندئذ وحيداً ، وقد عُهد اليه بحراسة البيت ان صح التعبير ، لأن جميع الكبار قد اضطروا الى الغياب عن المنزل لظروف طارئة ودقيقة . ان منزل الأرملة كراسوتكينا يضم شقة أخرى من غرفتين صغيرتين ، يفصلها عن الشقة التى تشغلها صاحبة الدار دهليز . وتلك الشقة قد استأجرتها زوجة طبيب ، فهى تعيش فيها مع ابنين لها صغيرين جدا . وقد توثقت بين المرأتين ، وهما فى سن واحدة ، عرى صداقة قوية . أما الطبيب فكان قد سافر أولا الى اورنبورج منذ أكثر من سنة ، ثم سافر من هناك الى طشقند ، ثم انقطعت أخباره منذ ستة أشهر ، فلولا الصداقة التى قامت بين زوجة الطبيب والسيدة كراسوتكينا التى خففت حزنها ، لقضت هذه الزوجة المهجورة كل وقتها فى البكاء والنحيب . ومن أجل أن تبلغ زوجة الطبيب غاية سوء الحظ ، كان من الضرورى أن تبلغها خادمتها الوحيدة ، كاترينا ، فى لحظة مباغتة لم تكن فى الحسبان ،

ليلة الأحد نفسها ، أنها تتأهب لأن تضع مولودا . ذلك ما حدث . أما أن أحداً لم يلاحظ قبل تلك اللحظة حالتها ، فذلك أمر يوشك أن يكون معجزة . اضطربت زوجة الطبيب للحادث اضطراباً شديداً ، وقررت أن تنقل كاترينا ، ما دام فى الوقت متسع ، الى قابلة فى مدينتنا كانت تستقبل فى منزلها نساء فى مثل هذه الأحوال . ولما كانت تحرص كثيراً على هذه الخادمة ، فقد أسرعت تضع قرارها هذا موضع التنفيذ ، فمضت بها الى القابلة ومكثت قربها . وفى الصباح كان لا بد من الاستعانة بالسيدة كراسوتكينا نفسها التى تستطيع الاستفادة من بعض العلاقات لتأمين شىء من الحماية للخادمة التى توشك أن تلد . هكذا غابت السيدتان عن المنزل . ومن جهة أخرى ، كانت آجافيا ، خادمة السيدة كراسوتكينا ، قد ذهبت الى السوق . فبذلك وجد كوليا نفسه مكلفاً ، الى حين ، بحراسة الدار ومراقبة طفلى زوجة الطبيب ، الصبى والبنت ، اللذين بقيا وحدهما معه فى المنزل . لم يكن دور الحارس يرعب كوليا ، لا سيما وأن الكلب «برزفون» الى جانبه . ولقد أمر الكلب بأن يبقى راقداً تحت دكة فى الدهليز ، وأن يظل «ساكنا» لا يتحرك . ولذلك بالذات عندما كان كوليا يذهب ويجىء بين الغرف ، فكلما خرج الى الدهليز ، انتفض الحيوان الشهم ، وأدار وجهه الى جهة سيده ، وضرب الأرض بذيله ضربتين فرحتين ضارعتين ؛ ولكن كوليا لا يصفر له مناديا وآسفاه ، ويقتصر على أن يرشق الكلب المسكين بنظرة قاسية ، فيسرع الكلب الى التجمد على سكونه المطلوب . والواقع أن كوليا لم يكن مهتما الا بالطفلين . صحيح أن حادث كاترينا المفاجئ قد أيقظ فى نفسه احتقاراً عميقاً ، ولكنه كان يحب الصغيرين المسكينين المحرومين من أبيهما حباً كثيراً ،

وكان قد جاءهما بكتاب مسلٍ . ان ناستيا* ، وهي الكبرى ، تبلغ من عمرها ثماني سنين ، وتعرف القراءة . وان أخاها ، وهو أصغر منها بسنة ، يجد لذة عظيمة في الاستماع الى القصص التي تقرؤها له . واضح أن في وسع كوليا أن يجد لهما تسلية أدعى الى الضحك ، كأن يضعهما في صف ويلعب معهما لعبة الجنود ، أو لعبة الاختباء ، وذاك ما سبق أن فعله مراراً دون أن يشعر منه بخجل ، حتى لقد شاع في المدرسة أن كوليا كان يتسلى مع الصغيرين بتمثيل دور الحصان ، فهو يدع لهما أن يقرناه مطأطئاً رأسه ، ولكن كوليا قد فنَّد هذه التهم ، وقال أن لعبة الحصان تخل بالكرامة حقاً «في هذا العصر» اذا هو لعبها مع رفاق مثله في الثالثة عشرة من أعمارهم ، ولكنه انما يلعبها من أجل الطفلين لأنه يحبهما كثيراً ، وليس من حق أحد أن يسأله حساباً عن عواطفه . لذلك كان هذان الطفلان يعبدانه عبادة . على أن كوليا لم يكن في هذه المرة منشرح النفس للعب . لقد كان عليه أن يعنى يومئذ بقضية شخصية هامة جداً ، بل وسرية بعض الشيء . والزمن يمضي . وآجافيا التي كان يمكن أن يكل اليها أمر الطفلين لم تعد من السوق بعد . لقد قطع كوليا الدهليز عدة مرات ، ففتح باب شقة زوجة الطبيب ، وألقى نظرة قلقة على الطفلين المنهمكين في القراءة تنفيذاً لأمره . فكانا يتبسمان ابتسامة عريضة صامتة كلما ظهر لهما ، متوقعين أن يفاجئهما بشيء عجيب مضحك . ولكن كوليا كان مهموماً ولذلك لم يدخل غرفة الطفلين . فلما دقت الساعة الحادية عشرة أخيرا عزم عزماً حازماً جازماً على أن يخرج دون أن ينتظر آجافيا المنحوسة ، اذا هي لم تعد خلال عشرة دقائق ، وذلك طبعاً بعد أن يستقطع الطفلين عهداً بأن يظلا أثناء غيابه عاقلين

هادئين ، وأن لا يخافا ولا يبكيا . وعلى هذا ، ارتدى معطفه الشتوي الصغير المبطن بقطن والمزدان بياقة من تقليد فراء الثعلب ، ووضع كيسه المدرسي على كتفه . ورغم التوصيات الملحة التي تسديها اليه أمه بأن لا يخرج في «مثل هذا البرد» دون أن ينتعل خفَّي المطاط ، فانه حين اجتاز الدهليز لم يزد على أن رمى الخفين بنظرة ازدراء واحتقار فخرج وعلى قدميه جزمتان خفيفتان . فلما رآه الكلب مرتدياً ثيابه للخروج ، ضرب الأرض بذيله ضربتين ، واضطرب وتحرك ، وتقلقل وتدحرج ، حتى لقد أصدر أنينا شاكياً . ولكن كوليا رأى أن هذا الافراط في الحماسة ونفاد الصبر عند كلبه يدل على قلة الانضباط ، لذلك تركه ينتظر تحت الدكة دقيقة أخرى طويلة ، ولم يصفر له مناديا الا حين فتح الباب ، فوثب الحيوان الشهم وقد جُنَّ فرحاً ، وأخذ يقفز وينط أمام كوليا . اجتاز الفتى الدهليز ، ودخل غرفة الطفلين . انهما ما يزالان جالسين أمام مائدة صغيرة كما كانا من قبل ، ولكنهما كفَّا عن القراءة ، وكانا منهمكين في مناقشة حامية جداً . كثيرا ما كان يتفق لهما أن تختلف آراؤهما في تقدير أحداث الحياة اليومية الطريفة ، وكانت ناستيا هي التي تنتصر في هذه الخصومات دائماً ، من حيث أنها الكبرى . فاذا لم يشأ كوستيا* ان يعترف بالهزيمة ، احتكم الى كوليا كراسوتكين ، فسرعان ما يكون الرأي الذي يراه كوليا هو الحكم الأخير والقول الفصل في نظر المتخاصمين كليهما . وبدا على كوليا في هذه المرة أن الموضوع الذي يدور عليه النقاش بين «الصغيرين» يشد انتباهه ويثير اهتمامه ، فقد وقف في عتبة الباب يصغي اليهما . فلما لاحظا أنه يهتم بما يقولان تضاعفت حماستهما وحرارتهما في المناقشة .

25-1306

قالت ناستيا مزقزقة :

— مستحيل ، مستحيل أن أصدّق أن القابلات يجدن الصغار فى حقول الخضار تحت الكرنب ؛ الآن شتاء ، فلا تنبت خضار ، فكيف يمكن أن تحمل القابلة بنتاً الى كاترينا ؟

صفر كوليا يقول لنفسه :

— عجيب !

— وعلى كل حال ، اذا كانت القابلات يأخذن هؤلاء الاطفال من مكانٍ ما ، فانهن لا يأتين بهن الا الى النساء المتزوجات .

كان كوستيا يحدق الى ناستيا ، ويصغى بانتباه ، ويبدو عليه التأمل والتفكير . وقال أخيرا بصوت جازم على هدوء :

— ما انت الا غبية يا ناستيا ! كيف يمكن أن يكون لكاترينا طفل وهى غير متزوجة ؟

فقالت ناستيا متململة نافدة الصبر :

— أنت لا تفهم فى هذه الأمور شيئا ! لعل لها زوجاً ولكنه فى السجن . ولذلك كان لها طفل .

سألها كوستيا بهدوء ووقار :

— أأنت واثقة من أن زوجها فى السجن ؟

فقاطعته ناستيا فجأة وقد نسيت افتراضها الأول :

— أنا أعرف كيف حدث هذا . ليس لها زوج . أنت على حق . ولكنها كانت ترغب فى أن تتزوج ، فأخذت تفكر فى زواجها المقبل ، ففكرت ثم فكرت ، ومن كثرة ما فكرت حصلت ليس على زوج بل على طفل !

قال كوستيا المهزوم هزيمة تامة :

— اذا كان الأمر كذلك ، فهذا مختلف كل الاختلاف .

ولكن كان ينبغى أن تذكريه لى من قبل ، فانى ما كنت لأستطيع أن أحزره .

تدخل كوليا قائلا :

— هيه يا أولاد ! انكم أخطر مما كنت أتصور !

صاح كوستيا يقول :

— هه ! هل «برزفون» معك أيضا ؟

ثم ناداه وهو يصفق له بأصابعه .

بدأ كوليا يقول بوقار ورصانة وقد بدا فى وجهه الاهتمام الشديد :

— اسمعوا يا أولاد ! أنا فى وضع صعب ويجب ان تساعدونى . لا بد أن آجافيا قد كُسرت ساقها ، لأنها لم تعد حتى الآن . ذلك هو التعليل الوحيد لتأخرها . ويجب علىَّ حتماً أن أخرج . فهل تأذنون لى أن أنصرف ؟

تبادل الصغيران نظرة قلقة ، وأظلم وجهاهما بعد أن كانا حتى ذلك الحين باشين باسمين . وبدا عليهما من جهة أخرى انهما لم يفهما ما يُنتظر منهما .

— ألن ترتكبوا حماقات أثناء غيابى ؟ ألن تتسلقوا الخزانة فتكسروا أرجلكم ؟ ألن تبكوا ذعراً من الوحدة ؟

ارتسم على قسمات الطفلين كدر عميق .

— اذا وعدتمونى بأن تبقوا عقلاء ، فسوف أريكم شيئاً ، سوف أريكم مدفعاً صغيراً من البرونز يُحشى ببارود حقيقى .

فاطمأن وجها الطفلين فى الحال . وصاح كوستيا مشرق المحيا :

— ارنى هذا المدفع !

دسَّ كراسوتكين يده فى كيس المدرسة وسلَّ منه مدفعاً

صغيراً من البرونز فوضعه على المائدة .

— ها . . ها . . هذا يهمكم ! أنظروا : انه محمول على عجلات !

قال ذلك وهو يدحرج المدفع على المائـــــــدة .

وأضاف :

— ويمكن اطلاق النار منه . يُحشى خردقاً ، فتخـــرج الطلقة .

— هل يمكن القتل به أيضا ؟

— طبعا ! بهذا المدفع يمكن قتل أى انسان ، على شرط أن تحسن التصويب طبعاً .

أراهما كراسوتكين أين يجب وضع البارود ، وكيف يمكن ادخال الخردق . أراهما فتحة صغيرة فى البرونز تسمى بيت النار ، ولم ينس أن يذكر لهما أن المدفع يرتد الى وراء عند الاطلاق . أصغى اليه الصغيران بفضول شديد ، وأثار خيالهما خاصة ذلك الارتداد .

سألته ناستيا :

— هل عندك بارود أيضا ؟

— عندى .

قالت وهى تبتسم ابتسامة ضارعة وتجر كلماتها جرا :

— أرنا البارود أيضا .

فدس كراسوتكين يده فى كيسه مرةً اخرى ، فأخرج منه قارورة فيها قليل من البارود الحقيقى ، وورقة لُفَّ بها بعض الخردق . حتى لقد مضى فى الملاطفة الى حد فتح القارورة وسكب شيء من البارود فى راحة يده .

— انظروا ! ولكن يجب أن لا يكون هنا نار ، والا حدث

انفجار يدمرنا جميعا . — كذلك قال كراسوتكين ليثير خيال الصغيرين مزيداً من الاثارة .

وأخذ الطفلان يتفحصان البارود فى خشية واحترام يزيدان لذتهما . ولكن اهتمام كوستيا كان منصرفا الى الخردق خاصة . قال يسأل :

— ألا يحترق الخردق ؟

— لا ، لا يمكن ان يشتعل الخردق .

قال كوستيا متوسلاً :

— اعطنى بضع حبات من الخردق .

— سأعطيك . هاك هذه الحبات . خذها . ولكن لا ترها لامك ما لم أعد أنا ؛ والا ظنتها بارودا ، فماتت هلعاً ، وجلدتكما كليكما .

أسرعت ناستيا تقول :

— ماما لا تجلدنا قط .

— أعرف . ولكننى قلت هذا لجمال الصورة . يجب أن لا تكذبوا أبدا على أمكم ، الا هذه المرة ، بانتظار عودتى . والآن ، يا أولاد ، هل أستطيع أن انصرف ؟ ألن تبكوا جزعاً أثناء غيابى ؟

قال كوستيا بصوت رخو ، وهو يوشك أن ينفجر باكياً منذ الآن :

— سـ . . . . . بكى ! . . .

وزادت ناستيا تقول بسرعة خائفة :

— طبعاً سنبكى .

— ما أخطركم فى هذه السن يا أولاد ! يا عصافيرى الصغيرة ! سيكون علىَّ أن أبقى معكم لا أدرى الى متى ؛

والوقت يمر ملحاً الحاحاً رهيباً وأسفاه !

قال كوستيا :

— أصدر أمرك الى «برزفون» بالتظاهر بالموت .

— لا مناص . لا بد من اللجوء الى «برزفون» أيضـا !

برزفون : تعال هنا .

أصدر كوليا أوامره الى الكلب ، فأخذ الكلب ينفذ الحركات التى تعلمها . ان برزفون كلب كثيف الشعر ضخم القامة لا تستطيع أن تحدد لونه ، فهو أشهب أغبر معاً ، وهو أعور العين ، مصلوم الاذن اليسرى ، لا يدرى أحد لماذا . أخذ الكلب يصيت ويثب فرحاً ، ويتبختر ، ويمشى على قائمتيه الخلفيتين ، ويندفع ويستلقى على ظهره رافعاً قوائمه الأربع فى الهواء ويتظاهر بالموت . وانه ليقوم بهذه اللعبة الأخيرة اذا بالباب يُفتح واذا بآجافيا ، الخادمة السمينة الضخمة التى تعمل عند السيدة كراسوتكينا ، وهى امرأة مجدورة الوجه ، فى نحو الاربعين من عمرها ، اذا بها تظهر فى العتبة حاملةً بيدها كيس المؤن التى اشترتها من السوق . وقفت آجافيا ونظرت الى الكلب معجبة بينما الكيس يتدلى من طرف ذراعها اليسرى . ورغم أن كوليا كان ينتظر وصولها نافد الصبر ، فانه لم يقطع ما كان بسبيله من تمثيل حين رآها ، وترك الكلب جامداً على وضعه الساكن مدة من الوقت ثم صفر له ، فما ان سمع الكلب الصفير حتى وثب واقفاً على قوائمه ، وراح يقفز كالمجنون من شدة فرحه بأنه قام بواجبه .

قالت آجافيا بلهجة واعظ :

— هذا كلب حقاً !

فسألها كوليا بقسوة :

— لماذا تأخرت يا جنس النساء ؟

— أنا جنس النساء ؟ انظروا الى هذا الولد الخايب !

— خايب ؟

— طبعاً خايب ! ليس شأنك انت ان أتأخر أنا أم لا . ما دمت قد تأخرت فلا بد أن ذلك كان لازماً . . . — دمدمت آجافيا متذمرة ، وهى تنهمك قرب الموقد . على أنها لم تتكلم بصوت حانق أو مغتاظ . بالعكس : كان يبدو أنها تجد لذة فى مشاجرة سيدها الفتى المرح .

قال كوليا وهو ينهض عن الأريكة :

— اسمعى يا من عقلك كعقل العصافير . هل تحلفين لى بأقدس ما تقدسين فى هذا العالم ، وبشىء آخر أيضا ، على انك ستعتنين بالأولاد أثناء غيابى ، وبأنك ستراقبينهم بلا غفلة عنهم ؟ ان علىَّ أن أخرج .

فقالت آجافيا مدهوشة ضاحكة :

— وعلام أحلف ؟ لسوف أهتم بهم دون يمين أحلفها .

— بل يجب أن تحلفى على ذلك بخلاص روحك ! والا لن أخرج .

— اذن لا تخرج . هل يضيرنى أن لا تخرج ؟ ثم ان الأفضل أن تمكث فى الدار ، فالبرد فى الخارج شديد يجمّد المياه .

قال كوليا يخاطب الطفلين :

— اسمعوا يا أولاد ! ستبقى هذه المرأة معكم الى ان أعود ، او الى أن تعود أمكم التى كان يجب أن تعود منذ زمن طويل هى أيضا . وسوف تهيىء لكم فطوركم . ستطعمينهم ، أليس كذلك يا آجافيا ؟

— جائز .

— الى اللقاء يا طيورى الصغيرة . اننى أنصرف الآن مرتاح البال مطمئن الضمير .

ثم أضاف يقول لآجافيا بصوت خافت وهيئة رزينة وهو أمامها :

— أما أنت ايتها المرأة الطيبة فأرجو ان لا تقصّى عليهم ، بصدد كاترينا ، تلك القصص السخيفة التى تعودتن أن تخترعنها فى مثل هذه الاحوال . فما ينبغى افساد نفوسهم . تعال هنا يا برزفون !

قالت آجافيا متذمرة وقد فقدت فى هذه المرة صبرها :

— اذهب الى الشيطان ! يا لك من مضحك ! يحسن أن تُجلد حتى تتعلم كيف تتكلم !

٣

التلميذ

ولكن كوليا كان قد كف عن الاصغاء . ها هو ذا يستطيع الخروج أخيرا . وبعد ان اجتاز الباب الكبير ، التفت الى وراء ، وشد كتفيه ، ودمدم يقول : «اف . . . ما أشد هذا البرد !» ، وسار فى أول الأمر قُدُماً على طول الشارع ؛ ثم مال بعد قليل الى زقاق عرضانى يؤدى الى ميدان السوق ، ووقف أخيراً أمام الدار التى تقع قبل آخر دار ، فأخرج من جيبه صفارة ، فصفر بها صفيراً قوياً ، كاشارة متفق عليها . ولم يضطر ان ينتظر أكثر من دقيقة واحدة ، فها هو ذا صبى أحمر الخدين فى الحادية

عشرة من عمره ، يهرع نحوه . ان هذا الصبى يرتدى هو أيضا معطفا دافئا ، نظيفاً جداً ، بل وأنيقاً . انه الفتى سموروف ، تلميذ الصف التحضيرى (ان كوليا يسبقه صفين) ، وهو ابن موظف ذى يسار كان أهله قد حظروا عليه ان يعاشر كراسوتكين الذى اشتهر بأنه صبى متهور عنيد مستعد للقيام بأجرأ المغامرات الخطرة . واضح ان سموروف قد تسلل الى الشارع على غير علم من أهله . ان سموروف هذا — ولعل القارئ يتذكر ذلك — كان أحد عصبة الصبيان الذين رشقوا ايليوشا بالحجارة من فوق القناة منذ شهرين . وهو الذى كلم الكسى كارامازوف عن ايليوشا فى تلك المناسبة .

قال سموروف وقد لاح فى وجهه العزم :

— اننى أنتظرك منذ ساعة يا كراسوتكين .

واتجه الفتيان نحو ميدان السوق .

قال كوليا :

— تأخرت حقا . والذنب فى تأخرى ذنب بعض الظروف . قل لى : ألن تُجلد لانك جئت معى ؟

— دعك من هذا الكلام ! أتظن أننى أجلد فى البيت ؟ هل «برزفون» معك ؟

— كما ترى .

— هل تنوى اصطحابه أيضا ؟

— طبعا .

— آه . . . ليته «جوتشكا» !

— هذا مستحيل . «جوتشكا» لم يبق له وجود . لقد اختفى دون ان يخلف أثراً .

قال سموروف فجأة وهو يتوقف :

— خطرت لى فكرة . ما دام ايليوشا يزعم ان «جوتشكا»

كان كلباً طويل الشعر ، مثل «برزفون» هذا ، وكان أشهب اللون أيضا ، أفلا نستطيع أن نقول له ان هذا «جوتشكا» ؟ لعله يصدق .

— اعلم أيها التلميذ أنه ما ينبغى للمرء أن يكذب ، ولو فى سبيل الخير . هذه واحدة . أما الثانية فهى اننى أرجو خاصة أن لا تكون قد تكلمت هناك عن زيارتى .

قال سموروف :

— أبدا . ما هذا الكلام ؟ أأنا غبى الى هذه الدرجة من الغباء ؟

ثم أضاف متنهداً :

— ولكن «برزفون» لن يعزّيه . ان أباه ، النقيب ، هذه الليفة ، قد قال لنا انه سيجيئه اليوم بكلب أسود البوز من أرقى كلاب الحراسة جنساً ، وهو يعتقد أن ايليوشا سيتعزى بهذا الكلب . ولكننى أشك فى ذلك .

— وكيف حال ايليوشا ؟

— حاله سيئة جداً . أظن انه مصاب بالسل . انه لم يفقد وعيه ، ولكن تنفسه صعب . . . صعب جدا ! طلب منذ مدة أن يخرج فى نزهة ، فألبسوه ثيابه وحذاءيه ، فما سار بضع خطوات حتى تهالك . فهتف يقول لأبيه : «قلت لك مراراً يا بابا ان هذين الحذاءين غير صالحين . لقد كنت أجد مشقة فى المشى بهما حتى فى الماضى» . ظن انه سقط بسبب الحذاءين ، مع أنه سقط بسبب ضعفه . لن يعيش أكثر من أسبوع . ان الدكتور هرتسنشتوبه يراه من حين الى حين . لقد أصبحوا اغنياء من جديد . ان معهم مالاً كثيراً .

— أوغاد !

— من هم الأوغاد ؟

— الأطباء أوغاد ، هم وعلمهم كله . اننى أتكلم على وجه العموم ، ولكننى أخصص أيضا . أنا لا أؤمن بالطب . الطب لا حاجة اليه . على اننى أريد أن أدرس هذه المشكلة دارسة أدق . ولكن قل لى ما تلك النزعة العاطفية التى ظهرت لديكم ؟ يظهر ان تلاميذ الصف جميعاً يذهبون اليه ، أليس كذلك ؟

— لا ، لا الجميع . نحن عشرة تلاميذ فقط نزوره كل يوم . ليس لهذا كبير شأن .

— ان الكسى كارامازوف هو الذى يدهشنى أمره خاصةً فى هذه القصة . سيُحكم على أخيه خلال أيام لجريمة رهيبة ، ثم هو يجد من وقته متسعاً للاشتراك مع عدد من التلاميذ فى اصطناع العواطف !

— ليس هذا عواطف مزعومة . انت نفسك تذهب الآن الى ايليوشا ، تذهب اليه لتصالحه .

— لأصالحه ؟ تضحكنى هذه الكلمة ! ثم اننى لا أسمح لأحد بأن يحلّل أفعالى .

هتف سموروف يقول بحرارة :

— ما أعظم سعادة ايليوشا حين سيراك ! انه لا يتوقع زيارتك البتة . لماذا رفضت ان تجىء اليه طوال هذه المدة ؟

— يا عزيزى الفتى الطيب ، هذا شأنى أنا لا شأنك انت . انا أذهب اليه بارادتى ، لان ذلك يحلو لى . أما أنتم فتذهبون اليه مدفوعين دفعاً من الكسى كارامازوف . ذلك هو الفرق . ثم من قال لك ان فى نيتى أن أصالحه ؟ أنا لا أحب هذه الكلمة .

— كلا . نحن لا نذهب اليه بسبب كارامازوف ! لقد ذهب

التلاميذ اليه من تلقاء أنفسهم ؛ ولئن تم ذلك بصحبة كارامازوف فى أول الأمر فذلك أمر طبيعى . ليس فى سلوكنا هذا شىء من حماقة أو من عاطفية مصطنعة ! ذهب اليه واحد منا فى البداية ، ثم فعل ذلك واحد آخر ، وهكذا دواليك . وما كان أعظم ابتهاج أبيه برؤيتنا ! لسوف يُجنّ اذا مات ايليوشا . هو يدرك ان ابنه لن يعيش . وقد سعد سعادة كبيرة بتصالحنا معه . سألنا ايليوشا عن أحوالك ، ولكنه لم يضف الى ذلك شيئاً . سألنا عنك ثم صمت . أما أبوه فسوف يفقد عقله او سوف يشنق نفسه . ثم ان سلوكه كان دائما سلوك انسان مختل العقل . ولكنه رجل نبيل جدا ، ولقد أخطأنا فى الحكم عليه . ان الذنب فى ذلك هو ذنب الرجل الذى ضربه فى ذات يوم ، أقصد ذلك الرجل الذى قتل بعد ذلك أباه .

— مهما يكن من أمر فان كارامازوف هذا يظل لغزاً فى نظرى . كان فى وسعى أن أتعرف عليه منذ زمن طويل ، غير أننى أحب فى بعض الحالات أن أظهر كبريائى . على كل حال ، لقد كونت لنفسى رأيا فيه ، وما زلت فى حاجة الى التثبت من هذا الرأى والى اكماله .

قال كوليا هذا وصمت وقوراً رصيناً . ولزم سموروف الصمت أيضا . واضح انه كان يشعر نحو كوليا كراسوتكين باعجاب شديد ، وما كان له قط ان يعامله معاملة الند للند . وهو الآن يحس بفضول قوى ، لان كوليا قد ذكر انه يقوم بهذه الزيارة «بارادته» ، فلا بد ان يكون فى الأمر اذن سر . لماذا اتخذ كوليا هذا القرار فجأة ؟ ولماذا يذهب الى ايليوشا فى هذا اليوم على وجه التحديد ؟ كان الفتيان يجتازان عندئذ ميدان السوق حيث تزدحم فى هذه الساعة عربات البائعين والدواجن المعروضة للبيع . هؤلاء نساء

يقفن تحت افاريز حوانيتهن عارضات سميطاً وخيطاناً . ان الناس فى مدينتنا يطلقون ، بسذاجة ، اسم الاسواق على تجمعات الأحد هذه التى تقام بضع مرات فى السنة . وكان «برزفون» يجرى فى جميع الجهات ، ويسرح ويمرح ، راكضاً الى اليسار تارة ، والى اليمين تارة أخرى متجها الى كل موضع فيه شىء يشمه . فاذا لقى كلابا اخرى بادلها ، بسرور واضح ، حركات التودد المألوفة ، بوزاً الى بوز ، على ما تقتضيه قواعد الآداب عند الكلاب . . .

قال كوليا فجأة :

— أحب أن ارصد مشاهد الحياة الواقعية يا سموروف . هل لاحظت كيف تتعارف الكلاب بشم بعضها بعضا ؟ لا شك فى انها هنا تخضع لقانون عام من قوانين الطبيعة .

— نعم ، لقانون مضحك جداً فى رأيى .

— كلا ، ما هو بمضحك ، أنت مخطئ ، ليس فى الطبيعة ما يضحك ، رغم كل ما قد يظنه الانسان لامتلاء عقله بأوهام حمقاء ! لو كان فى وسع الكلاب أن تفكر وأن تنتقد لوجدت حتماً فى السلوك الاجتماعى لدى البشر ، سادتهم ، من الأمور المضحكة فى نظرها مثل ما نجد نحن فى سلوكها ، وربما أكثر من ذلك ! أكرر ذلك : لاننى مقتنع بأننا نرتكب من الحماقات اكثر مما ترتكب الحيوانات . تلك فكرة من راكيتين ، وهى فكرة ممتازة . أنا اشتراكى يا سموروف .

سأله سموروف :

— ما الاشتراكى ؟

— الاشتراكى من يؤمن بأن يصبح جميع البشر متساوين ، والملكية لديهم واحدة ومشتركة ، وأن يلغى الزواج ، وأن يتغير

الدين وتتغير القوانين على ما يحب كل فرد ، وهلّم جرا . . . انك لم تبلغ من النضج فى سنك هذه ما يؤهلك لأن تفهم هذه الأمور . ما أشد البرد مع ذلك !

— صحيح . يبلغ الصقيع اثنتى عشرة درجة اليوم . لقد نظر أبى فى الترمومتر منذ قليل .

— هل لاحظت يا سموروف ان المرء ، حين تهبط الحرارة فى وسط الشتاء الى خمس عشرة درجة تحت الصفر او حتى الى ثمانى عشرة درجة ، لا يشعر بالبرد مثلما يشعر به فى بداية الشتاء حين تتجمد المياه عرضا ولا تهبط الحرارة الى اكثر من اثنتى عشرة درجة تحت الصفر ، ولا يكون هنالك الا ثلج قليل ، كما هى الحال اليوم ؟ ذلك ان الناس لا يكونون قد اعتادوا البرد . كل شىء فى الانسانية عادة ، والأمر كذلك فى ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية . ان العادة هى المحرك الكبير للحياة الانسانية . انظر الى هذا الفلاح كم هو مضحك !

قال كوليا ذلك وهو يومئ الى فلاح طويل القامة يرتدى معطفا من فراء الخروف وتبدو عليه البساطة والسذاجة . كان الفلاح واقفا عند عربته مدثر اليدين بقفازين قصيرين ، وهو يضرب يديه احداهما بالاخرى نشدانا للدفء ، وقد غشت حبيبات الجليد الفضية لحيته الطويلة الشقراء .

قال كوليا بصوت متحدٍ مستفزٍ وهو يمر قرب الفلاح :

— تجلدت لحيته .

فأجابه الفلاح بلهجة هادئة وقورة :

— لست الوحيد الذى تجلدت لحيته .

قال سموروف :

— لا تسع الى مشاكسته .

— ليس فى هذا بأس . لن يزعل . هو رجل طيب . الى اللقاء ماتفى !

— الى اللقاء !

— هل اسمك اذن ماتفى فعلا ؟

— طبعاً . أكنت تجهل ذلك ؟

— لم أكن أعرف ذلك . وانما سميتك بهذا الاسم مصادفة .

— غريب . أأنت تلميذ فى المدرسة ؟

— نعم .

— ها . . . وهل يجلدونك فى المدرسة ؟

— أحيانا .

— هل الجلد مؤلم ؟

— تقريبا .

— كذلك هى الحياة .

بهذا ختم الفلاح الحوار متنهداً .

— استودعك الله يا ماتفى !

— استودعك الله . أنت غلام طيب !

وتابع الفتيان طريقهما . قال كوليا :

— هذا الفلاح لطيف محبب . اننى أحب الحديث مع سواد الناس ، ويحلو لى أن أنصفهم .

— لماذا كذبت عليه بأننا نُجلد فى المدرسة ؟

— كان لا بد من مواساته قليلا .

— مواساته ؟ لم أفهم .

— اسمع يا سموروف . أنا لا أحب كثيرا أن أُسأل حين لا يُفهم عنى فورا . هناك أمور يصعب شرحها . ان هذا الفلاح

يتصور أن التلاميذ يُجلدون فى المدرسة ، وأن الأمور يجب ان تكون كذلك . ما تلميذ لا يُجلد ؟ فلو قلت له بفظاظة اننا لا نُجلد فى المدرسة لما فهم شيئا ولأحزنه ذلك . على أنك لا تفهم هؤلاء الناس . يجب أن تجيد معاملة الشعب .

— ولكننى أتوسل اليك ان لا تتحرش بهـــم ، والا فقد تقع لنا قصة كالتى وقعت لنا فى ذلك اليوم ، مع ذلك الغبى !

— هل يخيفك هذا ؟

— لا تمزح يا كوليا . اننى أخاف ، والله ! لسوف يغضب أبى غضباً رهيباً . لقد حظروا علىَّ حظراً قاسياً أن أخرج معك .

— اطمئن . لن يقع شىء هذه المرة . صباح الخير يا ناتاشا !

كذلك صاح كوليا يحيى بائعة كانت تقف تحت افريز حانوتها . فأجابت المرأة التى تبدو شابة ، أجابت تقول بصوت حاد :

— ناتاشا ؟ أتريد أن تضحك ؟ أنا اسمى ماريا .

— ماريا ؟ هذا أحسن . استودعك الله .

— شوفوا الولد الوقح ! طوله طول البطاطسة ، ثم هو يعاكس النساء !

قال كوليا وهو يلّوح بيديه كأن المرأة هى التى تزعجه :

— طيب طيب . . . ستقصين علىَّ هذا فى يوم الاحد القادم . أنا الآن مشغول !

فصرخت ماريا تقول غاضبة :

— ليس عندى ما أقصه عليك يا متبجح ! شوفوا هذا الولد ! أنت الذى ناديتنى متحرشا بى ، بينما لم أكن أهتم

بك يا وقح ! ان السوط هو ما تستحقه أيها الولد البطال ! نحن نعرفك . . .

فانفجرت البائعات اللواتى كانت بسطاتهن قريبة من بسطتها ، انفجرت تضحك . وفجأة ، انبجس من رواق المخازن فى الميدان رجل غاضب حانق . ان هيئته تدل على انه مستخدم فى محل تجارى ، حتى انه ليس من مدينتنا ، وانما هو مار بها عرضا . هو شاب يرتدى قفطانا أزرق طويلا ، وعلى رأسه قبعة ذات حافة تخرج من تحتها خصل شعر كستناوى ، ووجهه طويل شاحب مجدور . انه يبدو مضطربا اضطرابا أهوج غبيا ، وها هو ذا يتجه رأسا نحو كوليا وهو يهدده بقبضة يده . قال له صارخا بغضب :

— انا أعرفك ، أنا أعرفك من زمن . . .

نظر اليه كوليا متفرسا فيه ، فلم يفلح فى ان يتذكر متى وأين احتك بهذا الرجل . ان مشاجراته فى الشارع مع الناس اكثر من أن يستطيع تذكرها جميعا . سأله كوليا بلهجة ساخرة :

— ها . . . تعرفنى ؟

— نعم نعم ، أعرفك أعرفك . . . — ردَّد الرجل فى غباء .

— فى هذا خير لك . أنا مستعجل الآن . استودعك الله .

فصاح المستخدم يقول :

— تعود الى وقاحاتك ؟ تعود ؟ أنا أعرفك يا وقح ! أتعود الى وقاحاتك ؟

قال كوليا وهو يتوقف عن السير ويتفرس فى الرجل :

— ليس يهمك أنت أن أكون أنا وقحا أو أن لا أكون . ليس هذا من شأنك !

— كيف ؟ ليس من شأنى ؟

— ليس من شأنك أنت على كل حال !

— من شأن مَنْ اذن ؟ ألا قلت لى !

— هو الآن من شأن تريفون نيكيتش .

— اى تريفون نيكيتش تعنى ؟ — سأل الرجل وقد بدت فى وجهه علامات دهشة بلهاء ، ولكن صوته ما يزال غاضبا . نظر اليه كوليا بوقار ، ثم سأله على حين فجأة بقسوة :

— هل ذهبت الى «كنيسة الصعود» ؟

— اية كنيسة ؟ ولماذا يجب علىَّ أن أذهب اليها ؟ كلا ، لم أذهب . — قال المستخدم متحيرا مرتبكا . فاستأنف كوليا استجوابه بلهجة أشد قسوة والحاحاً :

— هل تعرف سابانييف ؟

— اى سابانييف ؟ كلا . . . لا أعرفه .

قال كوليا يحسم الحوار :

— فليأخذك الشيطان اذن !

ثم مال فجأة الى يمين ، وانصرف بخطى سريعة ، كأنه يرفض ان ينزل الى حيث يكلم رجلاً غبياً لا يعرف حتى سابانييف. صاح المستخدم يسأله وقد ثاب الى نفسه واضطرب من جديد اضطرابا شديدا :

— انتظر ، اسمع ، اى سابانييف تعنى ؟

ثم التفت فجأة الى البائعات فسألهن وهو يتفرس فيهن بغباء :

— لماذا كلمنى عن سابانييف ؟

فانفجرت النساء تضحك .

قالت احداهن :

— هذا الولد ماكر .

فكرر المستخدم يسأل ملحا وهو يحرك يده اليمنى باشارات عريضة :

— اى سابانييف ؟ من هذا ؟

قالت احدى البائعات وكأنما قد خطرت ببالها فكرة مفاجئة :

— اغلب الظن انه سابانييف الذى كان مستخدما عند آل كوزمتشوف . . . لا يمكن الا أن يكون هو . . .

حدّق اليها المستخدم منقلب الهيئة زائغ النظرة .

وعادت امرأة ثانية تقول :

— عند آل كو . . . ز . . . متشوف ؟ ولكن ذاك لم يكن اسمه تريفون ! كان اسمه كوزما وليس تريفون . والتلميذ انما ذكر اسم تريفون نيكيتش . فليس المقصود اذن سابانييف ذاك نفسه .

فانبرت امرأة ثالثة تتدخل فى المناقشة فتقول بعد ان ظلت طول الوقت صامتة تصغى بانتباه شديد :

— بل انت مخطئة . لم يكن اسمه تريفون ولا سابانييف ، بل كان اسمه تشيجوف ، الكسى ايفانوفتش ، اتذكر ذلك جيدا : الكسى ايفانوفتش تشيجوف .

قالت بائعة رابعة تؤيد كلام الثالثة بلهجة جازمة :

— هذا صحيح . المقصود هو تشيجوف فعلا .

كان المستخدم ينقل بصره بينهن واحدةً واحدة ، وقد بدت فى وجهه امائر الحيرة والذهول . ثم صاح بيأس :

— ولكن لماذا ، لماذا القى علىَّ هذا السؤال : «هل تعرف سابانييف ؟» ؛ هلا قلتنَّ لى لماذا ألقى علىَّ هذا السؤال ايتها النساء الطيبات ! لا يعلم الا الشيطان ما الذى كان يدور فى رأسه حين كلمنى عن سابانييف . . .

فأجابته احداهن بصوت صارم :

— ما أنت الا أحمق ! ألم نقل لك ان المقصود ليس سابانييف بل تشيجوف ، الكسى ايفانوفتش تشيجوف ؟

— تشيجوف ؟ اى تشيجوف ؟ قولى لى ما دمت تعلمين !

— هو رجل طويل القامة طويل الشعر ، كانت له دكته فى السوق هذا الصيف .

— ما شأنى أنا بصاحبك تشيجوف هذا ؟ هه ؟ قلن لى ايتها النساء الطيبات !

— هل علىَّ أنا أن أعرف ما شأنك به ؟

وقالت امرأة اخرى :

— هل نعرف نحن ؟ يجب ان تعرف أنت ما الذى يريده منك ، ما دمت تصرخ هذا الصراخ ! لقد كلمك انت ولم يكلمنا نحن ، يا أهبل ! ام تراك لا تعرف الرجل ؟

— أى رجل ؟

— تشيجوف طبعا !

— شيطان يأخذ تشيجوف هذا وأنت أيضا معه ! سوف أضربه ، ذلك كل ما أقوله لكُنَّ ، لانه سخر منى .

— أأنت تضرب تشيجوف ؟

— لا ، لا ، ليس تشيجوف من سأضربه ، يا امرأة شريرة تزرع الشقاق ، وانما سأضرب الصبى . ائتينى به الى هنا ، ائتينى به حالاً ، حالاً . . . لقد سخر منى !

ضجت النساء تضحك ضحكا صاخبا . أما كوليا فكان قد ابتعد ، وهو يسير الآن مختالا اختيال المنتصرين ؛ واما سموروف الذى يسير الى جانبه فانه يلتفت من حين الى حين نحو عصبة البائعات الصائحات . ان سموروف مبتهج هو أيضا

ابتهاجا كبيرا ، ولكنه يخشى أن يجره كوليا الى قصة لا تحمد عقباها .

سأله سموروف وهو يتنبأ بالجواب :

— عن أى سابانييف كلمته ؟

— أأنا أدرى ؟ سوف يظلون يتشاجرون فى هذا الأمر حتى المساء . لشد ما أحب أن أحيِّر وان أربك الاغبياء من جميع فئات المجتمع . انظر ! هذا بليد آخر هناك ، ذلك الفلاح ، هل تراه ؟ كثيرا ما يقال : «اغبى الاغبياء غبى فرنسى» . اما أنا فأرى ان وجوه الروس تكشف أحيانا عن غباوة يحسدون عليها . أليس مكتوبا على جبين هذا الرجل مثلاً أنه بليد ؟ اننى أقصد ذلك الفلاح نفسه . ما رأيك ؟

— دعه وشأنه يا كوليا . امض بنا !

— لن أدعه وشأنه بحال من الاحوال ! اننى الآن اطلقت عنانى ! صباح الخير ايها الفلاح الطيب !

ها هو ذا الرجل المنادى ، وهو فلاح قوى البنية ، يبدو انه ثمل قليلا ، يزدان وجهه المدور الخالى من المكر بلحية متناثرة لوّحها الشيب ، ها هو ذا يرفع رأسه ببطء وينظر الى الفتى .

— طيب ، ليكن ، صباح الخير ، اذا كنت لا تعبث !

— واذا كنت أعبث ؟

— لك ما تشاء عندئذ ، اعبث قليلاً أيها الفتى . مباح للمرء أن يتسلى فى هذا العالم . ليس يسىء ذلك الى أحد .

— معذرة ايها الطيب ، لقد أردت أن أمزح .

— سيغفر الله لك .

— وهل تغفر لى أنت ؟

— من كل قلبى . امض فى سبيلك !

— يبدو لى انك فلاح ذكى .

— أذكى منك . — قال الرجل على غير توقع ، ولكن دون ان يتخلى عن هدوئه ورصانته .

فأجابه كوليا مرتبكاً :

— أشك فى ذلك .

— بلى ، بلى ! أنا أذكى منك .

— قد يكون هذا حقا .

— أرأيت ؟

— استودعك الله ايها الفلاح .

— استودعك الله .

قال كوليا مخاطبا سموروف بعد بضع لحظات من صمت :

— الفلاحون أنواع . لم اكن أتوقع فى هذه المرة أن أقع على فلاح ذكى . اننى أشعر بالسعادة كلما صادفت ذكاء لدى أبناء الشعب .

وفى بعيد ، دقت ساعة الكاتدرائية الحادية عشرة والنصف . فغذَّ الفتيان الخطى ، وقطعا بسرعة ، دون كلام تقريبا ، المسافة الكبيرة التى كانت ما تزال تفصلهما عن منزل النقيب سنيجيريف . حتى اذا صارا على بعد عشرين خطوة منه ، توقف كوليا وأمر سموروف ان يدخل قبله ليرجو كارامازوف أن يخرج الى الشارع . وقال لسموروف شارحاً :

— أريد أولا ان أتعرف به وأن أتشمم جو المكان .

فاعترض سموروف قائلاً :

— علام نأتى به الى هنا ؟ الأفضل أن تدخل رأساً ، وسوف يسعدهم كثيرا أن يروك . ما أغرب هذه الفكرة ، أن تتعرف

بالرجل على قارعة الطريق فى هذا البرد الشديد !

قال كوليا يحسم المناقشة بلهجة مستبدة (كان كوليا يحب كثيراً أن يصطنع هيئة السيطرة والتسلط فى معاملة «الصغار») :

— هناك اسباب تدفعنى الى استدعائه الى هنا الى البرد الشديد ، وأنا أعرف ماذا أفعل .

فأسرع سموروف يطيع الأمر راكضا الى المنزل .

٤

«جوتشكا»

اسند كوليا ظهره الى السياج ، مصطنعاً هيئة الوقار ، منتظراً وصول أليوشا . انه يتمنى منذ زمن طويل أن يتعرف الى أليوشا . لطالما سمع التلاميذ يتكلمون عنه ، ولكنه كان حتى الآن ، حين يسمع ما يُحكى عن أليوشا ، يتظاهر بقلة الاكتراث وبشىء من الازدراء ، حتى أنه لم يفته ، فى بعض المناسبات ، أن «ينتقد» سلوك أليوشا . الواقع أنه كان فى قرارة نفسه يرغب رغبة قوية فى أن يلقاه : ان شيئا ما ، فى التفاصيل التى تُنقل اليه دائماً عن أليوشا ، كان يحببه به ويجذبه اليه . لذلك كانت اللحظة الراهنة خطيرة : ان عليه قبل كل شىء أن يحافظ على كرامته بتأكيد استقلاله . فهو يقول لنفسه : «والا فقد يعدنى صبياً فى الثالثة عشرة ، فيكلمنى كما يكلم سائر هؤلاء الصبية الصغار . لماذا يعاشرهم معاشرة أصدقاء ؟ سوف ألقى عليه هذا السؤال فى أول فرصة . ان ما يضايقنى خاصةً هو أننى قصير

القامة الى هذا الحد . ان توزيكوف أصغر منى سناً وأطول منى قامةً . ولكن محياى ينم عن ذكاء . أنا دميم ، أعرف ذلك ؛ ان وجهى ليس وسيماً ، ولكنه يعبِّر عن ذكاء . ينبغى لى ، من جهة أخرى ، أن أحرص على أن لا أسرف فى الافصاح عن نفسى والاعراب عن مشاعرى . لو وثبت الى عنقه ، فمن عسى يظننى ؟ أوه ! يا للخزى اذا هو ظنَّ . . .» .

كذلك كان كوليا فريسة اضطراب شديد ، رغم كل ما كان يبذله من جهود فى سبيل أن يصطنع هيئة الهدوء وقلة المبالاة . وكان قصر قامته خاصةً هو الذى يقلقه أكثر مما يقلقه وجهه «المحروم من الوسامة» . نعم ، قصر قامته . لقد رسم منذ العام الماضى ، على الجدار ، فى بيته ، خطاً بقلم الرصاص ، يشير الى طول قامته ؛ وهو منذ ذلك الحين حتى الآن ، يقف تحت هذا الخط كل شهرين ، مهموم القلب ، قلق البال ، ليعرف هل زاد طوله أم هو لم يزد . ومن المؤسف أن طوله كان لا يزداد الا ببطء . فكان ذلك يملأ نفسه فى بعض اللحظات كمداً ويأساً . والحق أن قسمات وجهه لم تكن «محرومة من الوسامة» ، بل لقد كانت لطيفة محببة . ان وجهه أبيض شاحب نمش بعض الشىء . وان عينيه الشهباوين صغيرتان ولكنهما تفيضان حياة ونشاطاً ، وتنظران نظرات جريئة ، ويلتمع فيهما لهيب من العاطفة فى بعض الأحيان . وان وجنتيه عريضتان قليلاً ، وشفتيه صغيرتان دقيقتان ، ولكنهما فى مقابل ذلك حمراوان جداً . أما أنفه فقد كان دقيقاً كذلك ، وكان أقنى . فكان كوليا اذا نظر الى وجهه فى المرآة ، أشاح عن صورته مشمئزاً وهو يدمدم : «أنف أفطس ، أفطس تماماً» — ويبتعد عن المرآة مغيظا . وكان يتساءل فى بعض الأحيان ، وقد راوده الشك حتى فى هذا : «هل لى حقاً وجه

ذكى ؟» . يجب أن لا نظن مع ذلك ان همَّ قامته ووجهه كان يستغرق كل فكره . فان الأمر لم يكن كذلك قط . فمهما تكن اللحظات التى كان يقضيها منفرداً بالمرآة قاسية ، فقد كان ينساها بسرعة ، ثم لا تخطر بباله فترات طويلة «وانما تشغله عنها الأفكار والحياة الواقعية شغلاً كاملاً» ، على حد التعبير الذى كان يحلو له ان يعرِّف به نشاطه وعمله .

لم يلبث أليوشا أن ظهر ، فاتجه الى كوليا بخطى سريعة . فلاحظ كوليا ، من بعد ، أنه مشرق الوجه منبسط الأسارير . تساءل مغتبطاً : «هل يبهجه الى هذه الدرجة أن يرانى ؟» . يجب أن نقول هنا أن أليوشا كان قد تغير كثيراً عما كان عليه فى اللحظة التى تركناه فيها . هو لا يرتدى الآن مسوح الدير ، بل يرتدى بدلةً أنيقة ، ويضع على رأسه لبادة رمادية ، وقد قصَّ شعره قصيراً ، وكان هذا الزى يناسبه كثيراً ، وقد أصبح شاباً وسيماً حقاً . وما يزال وجهه البهيج يشع فرحاً ، غير أن هذا الفرح قد أصبح الآن هادئاً ، وكأنه مجتمع على نفسه . وقد دُهش كوليا حين رأى أليوشا يخرج الى الشارع بلا معطف ، ولا شك أن أليوشا قد نسى من تعجله أن يرتدى معطفه .

مدَّ أليوشا يده الى كوليا بغير تكلف قائلاً له :

— هأنت ذا أخيراً ! لقد انتظرنا أن نراك بصبر نافد .

— أعلم أننى قد تأخرت ، وسأشرح لك أسباب ذلك . على كل حال ، يسعدنى أن أتعرف اليك . لطالما تمنيت أن تتاح لى هذه الفرصة ، لأننى سمعت عنك كثيراً .

كذلك دمدم يقول كوليا بصوت مضطرب ، لأن الانفعال قد قطَّع أنفاسه .

— كنا سنتعارف على كل حال . أنا أيضاً سمعت عنك

كثيراً . ولكنك أسرفت فى التأخر عن المجىء الى هنا ، أسرفت اسرافاً شديداً .

— قل لى : كيف هو الآن ؟

— حالة ايليوشا سيئة جداً . سيموت لا محالة .

هتف كوليا يقول بحرارة :

— ماذا تقول ! هلاَّ اعترفت أن الطب حقير يا كارامازوف !

— هل تعلم أن أيليوشا قد نطق باسمك مراراً ؟ حتى لقد كان فى بعض الأحيان يتكلم عنك فى أحلامه ، وفى لحظات هذيانه أيضاً . واضح جداً انك كنت عزيزا عليه فى السابق . . . قبل ذلك الحادث . . . حادث المطواة . يبدو أن لهذا سبباً آخر . . . قل لى : أهذا كلبك ؟

— نعم ، هو «برزفون» .

— آ . . . أليس هو «جوتشكا» اذن ؟ فقد ضاع «جوتشكا» الى الأبد ؟ — قال أليوشا وهو ينظر الى عينيى كوليا حزيناً .

فأجاب كوليا وهو يبتسم ابتسامة ملغزة :

— أعرف أنكم جميعاً هنا تفكرون فى «جوتشكا» وتحلمون به . انى مطلع على هذا الأمر . اسمع يا كارامازوف ، سأشرح لك هذه القصة . اذا كنت قد جئت الى هنا ، واستدعيتك ، فانما فعلت ذلك لأبسط لك الموقف مقدماً قبل أن ندخل البيت .

وتابع كوليا كلامه قائلاً بحماسة متزايدة :

— فى هذا الربيع انما دخل ايليوشا الصف التحضيرى . وأنت تعلم ما هو الصف التحضيرى : صبية ، أولاد صغار . فسرعان ما أخذوا يعاكسون ايليوشا . وأنا أتقدمه بصفين ، فكنت أرقب تلك المشاهد ، من بُعد طبعاً . رأيت أن الطفل صغير ، هزيل ، ولكنه لا يخضع ولا يستكين ، حتى لقد يمضى الى

حد مقاتلتهم ضرباً بالأيدى . لقد كان ذا انفة وكبرياء ، وكانت عيناه تقدحان شررا . اننى احب الصبيان الذين هم على هذه الشاكلة . وكان الآخرون يشاكسونه مزيداً من المشاكسة بسبب هذه الكبرياء ! وكانت ثيابه خاصة هى التى تحتمل الاستهزاء به حينذاك : سروال مشمور ، حذاءان متثائبان . . . كان الصبية يندفعون الى التهكم عليه بسبب ثيابه هذه ايضاً ، وكانوا يحاولون اذلاله . اخذ ذلك يسوءنى ، فسرعان ما تدخلت فأدبتهم . اننى أضربهم متى وجب أن أضربهم ، وهم مع ذلك يعبدوننى عبادة ، هل تعرف ذلك يا كارامازوف ؟ (كذلك أضاف كوليا متفاخراً) . وأنا أعبد الأطفال على كل حال . واعلم ان عندى فى البيت ، فى هذه اللحظة نفسها ، طفلين أعنى بهما ، وهما اللذان أخّرانى اليوم . هكذا كفَّ الصبيان عن اضطهاد ايليوشا ، وأصبحت أحميه . ولقد كان الولد شديد الكبرياء صدّقنى ، شديد الكبرياء جداً ، ولكنه أذعن لى أخيراً اذعان عبد ، فهو ينفذ أوامرى ، ويصغى الىَّ اصغاءه الى اله ، ويحاول أن يقلدنى فى كل شىء . كان فى أثناء فترات الاستراحة بين الدروس يهرع الىَّ فوراً ، فنمضى نتروض معاً . وكذلك فى أيام الآحاد . والتلاميذ فى مدرستنا يتهكمون عادةً حين يرون كبيراً يرتبط هذا الارتباط بصغير ، ولكن تلك آراء سخيفة . هذا هو رأيى وارادتى ويكفى ، أليس كذلك ؟ وحاولت أن أعلمه ، أن أنمى ثقافته ، ولماذا لا أحاول تثقيفه ما دام محبباً الى نفسى ! أنت نفسك يا كارامازوف قد ارتبطت بجميع هؤلاء الصبية الصغار . فأنت تريد اذن أن تحدث أثراً فى الجيل الجديد ، أن تغيره ، أن تكون نافعاً له . اننى اعترف لك بأن هذه الصفة من صفات طبعك التى عرفتها مما يرويه الرفاق عنك هى التى شاقتنى فيك أكثر من صفاتك الأخرى .

ولكن فلنعد الى الوقائع : لقد أدركت أن الصبى أخذ يصير الى الافراط فى الحساسية ، فى العاطفية . وأنا أكره أشد الكره هذه «العواطف التى تشبه عواطف العجول» ، أكرهها وأمقتها منذ ولدت ، فاعلم هذا ! وقد لاحظت عدا ذلك شيئاً من التناقض فى وضعه : فهو من جهة أولى شديد الأنفة والكبرياء ومن جهة ثانية مخلص لى اخلاص عبد . كان يطيعنى فى كل أمر خاضعاً ، ثم اذا بعينيه تقدحان على حين فجأة شرراً ، فلا يريد أن يوافقنى ، بل هو يناقش ويماحك ويغضب . كان يتفق لى أن أعرض له بعض الآراء . لن أقول انه كان يعارض عندئذ هذه الآراء ، فلقد كنت أرى رؤية واضحة أن معارضته كانت تستهدفنى أنا شخصياً ، وأنه كان يتمرد ويعصى لأننى كنت أرد على اندفاعات عاطفته ببرود . عندئذ قررت ، حتى أربيه ، أن أظهر له مزيداً من البرود وأن اقوّى تحفظى تجاهه على قدر ازدياد تعلقه بى . كان ذلك من جانبى موقفاً مقصوداً محسوباً ، يتفق ومبادئى . لقد أردت أن أنشئ طبعه ، أن أقوى عزيمته ، أن أصلّب ارادته ، أن أخلق منه رجلاً . . . الخلاصة . . . لا شك أنك تفهمنى بنصف كلمة . وفى ذات يوم ، لاحظت فيه اضطراباً غريباً . كان يبدو منهاراً مصعوقاً . وظل على هذه الحال أياماً . أدركت أن هذا التبدل لا يمكن أن يكون مردّه الى قلة عاطفتى وحدها ، وأن له أسباباً أخرى أقوى وأسمى . تساءلت ما عسى تكون الدراما التى تجرى فى نفسه . ولاحقته بالأسئلة ، فاذا أنا أعرف الحقيقة : لقد تعرّف ، لا أدرى كيف ، الى سمردياكوف خادم المرحوم أبيك (الذى كان ما يزال حياً فى تلك الآونة) . فعمد سمردياكوف الى تعليم هذا الأحمق الصغير مزحة سخيفة غبية ، بل قل مزحةً وحشية حقيرة هى أن يأخذ لب الخبز فيدس

فيه دبوساً ثم يلقيه طعاماً الى كلب ضال ، الى واحد من تلك الحيوانات الساغبة التى تبلع ، دون مضغ ، كل ما يقع تحت أسنانها . . . وذلك ليرى ما عسى يحدث بعد ذلك . هكذا أعدّا لقمة من خبز ، والقياها الى «جوتشكا» ذاك الكلب الضخم الطويل الشعر الذى كثيراً ما جرى الحديث عليه منذ ذلك الحين . هو كلب من تلك الكلاب التى ينسى الناس أن يطعموها ، والتى تقضى النهار كله نابحةً على الهواء (هل تحب ذلك النباح الغبى يا كارامازوف ؟ أما أنا فلا أستطيع احتماله) . انقضّ الكلب المسكين على لقمة الخبز ، فبلعها ، فسرعان ما أخذ يعول متلوياً من الألم ، ثم انصرف على الفور راكضا لا يلوى على شىء ، آناً متوجعاً . هكذا اختفى ذلك الكلب ، على حسب الرواية التى رواها الى ايليوشا نفسه . لقد اعترف لى ايليوشا بفعلته وهو يبكى ، فهو ينتحب انتحاباً قوياً ويعانقنى متشنجاً ، وما ينفك يكرر قوله : «كان الكلب يركض ويئن ، يركض ويئن . .» ، فالى هذا الحد كان تأثره من ذلك المنظر ! . . . لاحظت أن عذاب الضمير يضنيه ، وأن الندم يهدّه هداً . أخذت الأمر مأخذ الجد . كنت حريصاً خاصةً على أن أعاقبه على سلوكه السابق ، فعمدت الى الحيلة والمكر . . . أعترف لك بذلك . تظاهرت باستياء شديد من فعلته ، استياء أشد كثيراً من استيائى فى الواقع . قلت له : «لقد ارتكبت عملاً حقيراً ، عملاً جباناً . . . أنت نذل . . . لن أشى بك طبعاً ، ولكننى أنهى الآن علاقات الصداقة بيننا . وسأفكر فى الأمر ، ثم أبلغك بواسطة سموروف (هو الصبى الذى صحبنى الى هنا ، وكان مخلصاً لى على الدوام) : هل قررت أن أعيد الصلة بينى وبينك ، أم قررت أن أهجرك الى الأبد بصفتك فتى نذلاً لا يستحق الاهتمام» .

أحدثت هذه الأقوال فى نفسه أثراً رهيباً . وسرعان ما أحسست — أعترف لك بذلك — أننى أقسو عليه قسوة قد يكون فيها غلو واسراف . ولكن ما العمل ؟ لقد كنت أعمل عندئذ بوحى من اقتناعاتى . وفى الغد ، أرسلت اليه سموروف لأبلغه أننى «لن أكلمه بعد اليوم قط» . تلك هى الاصطلاحات التى نستعملها فى المدرسة للتعبير عن انقطاع كل اتصال بين رفيقين . والحقيقة أننى كنت أريد أن أهجره بضعة أيام فقط ، ثم امدّ اليه يدى حين أرى ندامته . تلك كانت نيتى الجازمة على كل حال . ولكن ماذا تظن أنه حدث ؟ اصغى الى الرسالة التى بلغه اياها سموروف ثم صاح يقول له وقد قدحت عيناه شرراً : «أبلغ كراسوتكين أننى سألقى بعد الآن لقم خبزٍ فيها دبابيس الى جميع الكلاب ، الى جميع الكلاب !» . قلت لنفسى عندئذ : «ها . . . ها . . . لقد استيقظت فيه روح التمرد ، فيجب أن تُقمع وتُقهر» . وأظهرت له منذ ذلك الحين احتقاراً تاماً ، معرضاً عنه كلما لقيته أو مبتسماً ابتسامة صغيرة ساخرة . وفى تلك الآونة انما وقعت لأبيه تلك الحادثة ، حكايةُ الليفة كما تعلم . انك لتقدّر الآن أن الصغير قد أصبح منذ ذلك الحين مهيأً لنوبات عنف . واذ رأى التلاميذ أننى هجرته فقد هاجموه من جديد ، صائحين له من أجل اغاظته واخراجه عن طوره : «ليفة ، ليفة ، الخ» . كان ذلك بداية مشاجرات آسف لها أسفاً شديداً ، ذلك أننى أعتقد أنه قد كيلت له الضربات فى ذات مرة . وفى يوم من الأيام هجم عند الخروج من المدرسة على العصبة كلها . وشاءت المصادفة أن أكون على بعد عشر خطوات منه ألاحظه وأراقبه . أحلف لك أننى لم أكن قد سخرت منه . بالعكس : لقد أيقظ فى نفسى عندئذ شفقةً كبيرة ، شفقة كبيرة جداً . وكنت

أوشك أن أهب الى نجدته . ولكن نظرته التقت بنظرتى فجأة . ولست أدرى ما الذى ظن أنه يقرؤه فى عينىّ ، ولكنه استل مطواته بغتةً ، وهجم علىّ ، فأغمد المطواة فى وركى ، هنا ، فوق الساق اليمنى قليلاً . لم أتحرك . أعترف لك يا كارامازوف أننى أبرهن فى بعض الظروف على شجاعة . لم أزد على أن نظرت اليه باحتقار ، وكانت نظرتى تقول بوضوح : «أهذا كل شىء ؟ ألا تريد أن تضربنى أيضاً ، عرفاناً منك بالصداقة التى حملتها لك ؟ هيّا ، افعل بى ما تشاء !» . ولكنه لم يطعن مرة أخرى ، وفقد شجاعته فجأة ، وخاف ، ورمى مطواته ثم لم يملك زمام نفسه ، فاذا هو ينفجر باكياً ناشجاً . ثم ولىّ هارباً . لم أش به طبعاً . حتى لقد أمرت جميع التلاميذ بأن يكتموا ما وقع بغية ان لا يصل الامر الى مسمع الادارة . ولم أقل لأمى شيئاً كذلك ، ولم أقصص عليها الواقعة الا بعد أن التأم الجرح تماماً . وكان الجرح خدشاً بسيطاً على كل حال . وقد علمت بعدئذ أنه فى ذلك اليوم نفسه اقتتل مع رفاقه ، ورماهم بالحجارة ، وعض احدى أصابعك . لا شك انك تدرك الآن الحالة النفسية التى كان عليها حينذاك . ما العمل ؟ انه ليؤسفنى أننى تصرفت تصرفاً أحمق . فحين مرض لم أزره لأغفر له . . . أقصد . . . لأتصالح معه . . . وأنا الآن نادم على ذلك . ولكنى ينبغى لى أن أقول مع ذلك أن هناك ، فى هذه القضية ، أسباباً دفعتنى الى أن أتصرف كما تصرفت . الخلاصة . . . هذه هى القصة كلها . . . ولكن واضحٌ أننى تصرفت تصرفاً أحمق . . .

صاح أليوشا يقول بانفعال شديد :

— أوه ! خسارة أننى لم أعرف قصة علاقاتك بايليوشا . . . والا لجئتك منذ زمن طويل راجياً أن تصحبنى اليه . تصور أنه

كان يتكلم عنك أثناء مرضه وهذيانه . كنت أجهل أنك عزيز على نفسه الى ذلك الحد . هل يمكن فعلاً أن لا تكون قد عثرت على «جوتشكا» ؟ ألم تجده حقاً ؟ ان أبا ايليوشا ورفاقه قد بحثوا عن الكلب فى المدينة كلها . هل تتصور أن ايليوشا قد قال لأبيه ثلاث مرات بحضورى ، قال له مريضاً باكياً : «لئن كنت أتألم يا بابا ، فلأننى قتلت جوتشكا . . . ان الله يعاقبنى» . لا سبيل الى اخراج هذه الفكرة من رأسه ! لو استطعنا على الأقل أن نهتدى الى جوتشكا هذا وأن نريه اياه حتى يعلم أن الكلب لم يمت ، بل انه على قيد الحياة ، اذن لبعث حياً من شدة الفرح . ولقد كنا جميعاً نعوّل عليك فى هذا .

سأل كوليا بفضول شديد :

— لماذا قدرتم أننى سأعثر على «جوتشكا» ؟ لماذا كنتم تعوّلون علىّ أنا ولا تعوّلون على أحد غيرى ؟

— شاع أنك تبحث عن الكلب وأنك ستجىء به الى ايليوشا متى وجدته . أسمعنا سموروف فى ذات مرة شيئاً من هذا القبيل . ونحن جميعاً نجهد فى أن نقنع ايليوشا بأن «جوتشكا» حى ، بأنه رُئى فى مكان ما . وقد جاءه رفاقه بأرنب لا أدرى من أين حملوه ، فنظر ايليوشا الى الحيوان الصغير مبتسماً ابتسامة ضعيفة ، وطلب أن ترد الى الأرنب حريته . فعلنا ذلك . وفى تلك اللحظة نفسها عاد أبوه مصطحباً جرواً صغيراً من كلاب الحراسة . كان الأب يظن أن هذا سيواسى ابنه . ولكننى أخشى أن تكون حالة الابن قد ازدادت سوءاً بسبب ذلك . . .

— قل لى أيضاً يا كارامازوف : الى أى نوع من الرجال ينتمى أبوه ؟ اننى لا أعرفه الا بالنظر . فما هو فى رأيك ؟ أهو مهرج ؟

— لا ! . . . ان هناك أناساً أوتوا حساسية عميقة ، ولكن القدر قد صعقهم وسحقهم . وما تهريجهم عندئذ الا نوع من الانتقام المرّ الساخر ازاء أولئك الذين لا يجرؤون أن يواجهوهم ولا يجسرون ، من فرط ما اعتادوا الخضوع الذليل ، أن يصارحوهم بالحقيقة وجهاً لوجه . ثق يا كراسوتكين أن هذا التهريج يمكن أن يكون له ، فى بعض الحالات ، أساس مأساوى جداً . ان أفكاره كلها وحياتها كلها قد تركزت الآن على ايليوشا . يكفى أن يموت ايليوشا حتى يُجنّ حزناً أو ينتحر . اننى لا أنظر اليه مرة الا وأصبح على مثل اليقين من ذلك .

قال كوليا بانفعال :

— أفهمك يا كارامازوف . ألاحظ الآن أنك خبير فى معرفة النفس الانسانية .

— لقد ظننت حين رأيتك منذ قليل مع هذا الكلب أنك تجىء بجوتشكا .

— صبراً يا كارامازوف . قد نعثر على ذلك الكلب . أما هذا فهو «برزفون» . سأتركه فى غرفة ايليوشا ، وأغلب الظن أنه سيتسلى به أكثر مما يتسلى بكلب الحراسة الصغير ذاك الذى أتاه به أبوه . اسمع يا كارامازوف . سأذكر لك بعض الأمور . آه . . . رباه ! ماذا أفعل ؟ (هكذا صاح كوليا قلقاً مهموماً) . . . أوَخرك فى هذا البرد الشديد وأنت بغير معطف ! هأنت ذا ترى مدى أنانيتى . . . نحن جميعاً أنانيون ، وا أسفاه !

— لا تقلق . صحيح أن الجو بارد . ولكننى لا أصاب بالزكام بسهولة . على أننا نحسن صنعاً اذا دخلنا البيـــــت . بالمناسبة : ما اسمك ؟ أنا أعرف أنهم ينادونك كوليا ، ولكن كوليا ماذا ؟

— اسمى نيقولاى ، نيقولاى ايفانوف كراسوتكين ، أو نيقولاى ايفانوف بن كراسوتكين ، اذا أردنا أن نستعمل لغة الدواوين .

كذلك قال كوليا وهو يضحك ضحكة صغيرة غريبة . ثم أسرع يضيف :

— لعلك تقدِّر اننى أكره اسم نيقولاى هذا ؟

— لماذا ؟

— لأنه مبتذل ، تافه . . .

— أأنت فى السنة الثالثة عشرة من عمرك ؟

— بل فى الرابعة عشرة . سأتم الرابعة عشرة بعد أسبوعين . وأحب أن أعترف لك رأساً بوجه من وجوه ضعفى يا كارامازوف حتى تعرف طبعى معرفة جيدة منذ البداية : اننى أكره أن أسأل عن عمرى ، بل أمقت ذلك أشد المقت . . . ثم . . . يجب أن أقول لك . . . هناك نميمة فى حقى تجرى الآن وتشيع . . . انهم يدعون أننى لعبت فى الأسبوع الماضى مع تلاميذ الصف التحضيرى لعبة اللصوص . . . صحيح أننى لعبت هذه اللعبة . . . لست أنكر ذلك . . . أما أن يُقال أننى لعبتها لنفسى ، لمسرتى أنا ، فذلك تشنيع كريه . هناك أسباب تدفعنى الى الاعتقاد بأن هذه الشائعة قد بلغت مسمعك . فاعلم اذن أننى لم العب هذه اللعبة بدافع ميل شخصى ، وانما لعبتها لأسرَّ الأطفال الذين لا يستطيعون أن يتخيلوا شيئاً بدونى . ان الناس فى هذه المدينة يحبون الأقاويل . ان هذه المدينة لا تعيش الا على الترثرات ، أؤكد لك ذلك .

— هبك لعبت لمسرتك الخاصة ، فأى ضير فى هذا ؟

— لمسرتى الخاصة ؟ ما هذا الكلام ؟ أترتضى أنت أن تلعب لعبة الحصان مثلاً ؟

قال أليوشا مبتسماً :

— فكِّر قليلاً : فى المسرح تُمثَّل التمثيليات للكبار ، ومع ذلك نرى فيها مغامرات أبطال ، ومعارك حروب ، بل ونرى فيها لصوصاً من قطاع الطرق فى بعض الأحيان . أليس هذا هو ذلك اللعب نفسه فى حقيقة الأمر ، وانما اكتسى صورة أخرى ؟ اعلم أن الصبيان الصغار ، حين يلعبون لعبة الحرب أو لعبة اللصوص من قطاع الطرق ، اثناء فترات الاستراحة بين الدروس ، انما يقومون بعمل فنى أيضاً على طريقتهم الخاصة . هذا فن ناشئ ، هذه تطلعات فنية تتجلى فى نفوس الصغار . وان هذه الألعاب لتكون فى بعض الأحيان أجمل من تمثيليات المسرح . الفرق الوحيد هو أن الناس يجيئون الى المسرح ليروا الممثلين ، على حين أن الأطفال فى ألعابهم هم ممثلون ومشاهدون فى آن واحد . هذا شىء طبيعى تماماً .

سأل كوليا وهو ينظر الى أليوشا بانتباه شديد :

— أتعتقد بذلك حقاً ؟ أهذه قناعتك ؟ هل تعلم انك تعبِّر عن فكرة شائقة جداً ؟ سأفكر فيها ملياً وسأجترها اجتراراً حين أعود الى منزلى بعد قليل . لقد كنت أتوقع أن أتعلم منك أموراً شائقة ، أعترف لك بذلك . أننى جئت لأتعلَّم منك يا كارامازوف .

بهذا ختم كوليا كلامه متحدثاً بلهجة نافذة حـــارة . فأجابه أليوشا وهو يبتسم له ويصافحه :

— وأنا أيضاً أريد أن أتعلم منك .

كان كوليا مفتوناً بأليوشا . ولقد أرضاه خاصة أن يعامله

أليوشا معاملة الند للند ، كما يعامل «شخص كبير» .

قال كوليا وهو يضحك ضحكةً عصبية صغيرة :

— سأريك حيلة يا كارامازوف ، هى نوع من التمثيل المسرحى . لهذه الغاية انما جئت الى هنا .

— لندخل أولاً الى عند أصحاب الدار ، فى اليمين . لقد خلع هناك جميع رفاقك معاطفهم ، لأن جو الغرفة خانق ، والمكان ضيق .

— لن أمكث مدة طويلة ، فلا حاجة الى خلع معطفى . وسيبقى «برزفون» فى الدهليز ، ويتظاهر بالموت . «تعال يا «برزفون» . ارقد ومت» . ها هو ذا قد مات . وسأدخل أولاً ، فأرى ما يجرى ، ثم أصفر فى اللحظة المناسبة منادياً : «تعال يا «برزفون»» . فيسرع الكلب وقد جُنَّ فرحاً . ولكن يجب أن لا ينسى سموروف أن يفتح الباب فى اللحظة المناسبة . سألقى اليه التعليمات اللازمة ، فترى هذه الحيلة . . .

٥

على سرير إيليوشا

المكان ضيق والجو خانق فى الغرفة المعروفة لدينا التى تسكنها أسرة النقيب المتقاعد سنيجريف ، والتى كان يتكدس فيها فى تلك الساعة زوار كثيرون جداً . ان عدداً من الصبيان يجلسون قرب سرير ايليوشا . ورغم أنهم مستعدون جميعاً ، مثل سموروف نفسه ، أن ينكروا أن يكون تصالحهم مع إيليوشا هو

من صنع أليوشا ، فلقد كان الأمر كذلك فى الواقع . ولقد كانت كل براعة أليوشا هو أنه قادهم الى غرفة إيليوشا واحداً بعد واحد ، متحاشياً الاندفاعات العاطفية ، متحاشياً ما كانوا يسمونه بـ«عواطف العجول» ، حريصاً على أن يضفى على هذه الزيارات مظهر بادرة عفوية طارئة . وقد أحسنت هذه الزيارات الى ايليوشا ، وواسته كثيراً . ان هذه الصداقة التى تكاد تكون حنوناً وهذا الاهتمام الكبير اللذين يظهرهما له هؤلاء الصبية ، اعداؤه القدامى ، قد أثرا فى نفسه تأثيراً عميقاً . ليس ينقصه الآن الا كراسوتكين الذى كان غيابه يثقل على صدره كثيراً . وإنْ كان ثمة شىء فى ذكريات ايليوشا المُرَّة فهو ذلك الحادث الذى وقع بينه وبين كراسوتكين ، صديقه القديم الوحيد وحاميه ، الذى انقضَّ عليه ايليوشا بمذيته . وذلك ما أدركه سموروف حق الادراك (وهو فتى ذكى جداً كان أول من جاء يصالح ايليوشا) . بينما أسرع كراسوتكين نفسه ، حين أبلغه سموروف ، بكلمات مغطاة ، أن أليوشا يحب أن يراه «لأمر من الأمور» ، أسرع يقطع حديثه مع سموروف وكلفه بخشونة وجفاء أن يقول لكارامازوف انه يعرف بنفسه ما الذى يجب عليه أن يعمله وانه ليس فى حاجة الى نصائح أحد . وأضاف الى ذلك أنه اذا قرر أن يعود المريض فسيفعل ذلك فى الوقت الذى يراه مناسباً ، لأن له «حساباته الخاصة» بهذا الصدد . حدث ذلك قبل يوم الأحد هذا بخمسة عشر يوماً . وذلك هو السبب فى أن أليوشا لم يزره كما كان ينوى أن يفعل . وبانتظار فرصة مواتية أرسل سموروف الى كراسوتكين مرةً ثم مرة ثانية ، ولكن كوليا أجاب فى المرتين كلتيهما بخشونة وتذمر ، وأبلغ أليوشا أنه سوف يعدل عن زيارة ايليوشا الى الأبد اذا ارتأى أليوشا ان يجىء اليه ، وطلب أن يُترك وشأنه بعد الآن .

وكان سموروف نفسه يجهل الى آخر يوم أن كوليا قد قرر ان يجيء الى ايليوشا فى هذا الصباح . وفى عشية ذلك الأحد ، حين ودَّع كوليا صاحبه سموروف ، انما أمره بأن ينتظره فى صباح الغد ليذهبا معاً الى أسرة سنيجيريف . وقد أوصاه ملحاً بأن لا ينبئ أحداً بأمر هذه الزيارة ، لأنه يريد أن يحضر على غير توقع أو انتظار . وأطاعه سموروف . كان سموروف يرجو فى سرّه ان يجيء كوليا بالكلب «جوتشكا» ، لأن كراسوتكين قد أفلتت منه فى ذات مرة ، بحضور سموروف ، كلمات مفادها ، «انهم جميعا حمير ، لأنهم لمَّا يستطيعوا بعدُ أن يعثروا على الكلب ، اذا كان الكلب ما يزال حياً» . ومع ذلك ، حين سمح سموروف لنفسه فى ذات يوم ، لاعتقاده بأن الفرصة مواتية ، بأن يشير اشارة غامضة الى موضوع الكلب أثناء حديث له مع كراسوتكين ، فان كراسوتكين غضب غضباً شديداً وصرخ يقول : «أأنا حمار حتى اضيع وقتى فى البحث فى ارجاء المدينة كلها عن كلاب الآخرين ، بينما أنا أملك كلبى «برزفون» ؟ وهل أبلغ من الغباء من جهة أخرى حدَّ الاعتقاد بأن كلباً من الكلاب يمكن أن يبقى حياً بعد أن بلع دبوساً ؟ ألا دعونا من عاطفيات العجول هذه !» .

لقد أصبح ايليوشا منذ خمسة عشر يوماً لا يبارح سريره الموضوع فى زاوية الغرفة تحت الأيقونات . وهو لم يرجع الى المدرسة منذ اليوم الذى التقى فيه بأليوشا وعضَّ له اصبعه . لقد رقد فى سريره فى ذلك المساء نفسه ، ولكن كان يتفق له أثناء الشهر الأول من مرضه أن ينهض فى بعض الأحيان ليسير بضع خطوات فى الغرفة أو الدهليز . غير أنه ضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يستطيع أن يتحرك بدون مساعدة أبيه . وكان الأب

يرتعد خوفاً عل حياة ابنه ، حتى لقد كف عن الشراب ، وكانت خشيته من أن يشهد موت ابنه تجعله شبه مجنون . وكثيراً ما كان يتفق له ، بعد أن يروِّض صغيره فى الغرفة ممسكاً به من ذراعه ، وبعد أن يساعده على الرقاد ثانيةً فى سريره ، أن يهرب الى ركن مظلم من الدهليز ، فيضع جبينه على الجدار ، ويأخذ يبكى بكاءً متشنجاً ، وهو يخنق أصوات نشيجه حتى لا يسمعها ايليوشا .

فاذا عاد الى الغرفة حاول أن يسلِّى عزيزه الصغير وأن يفرحه وأن يبهجه ، قاصاً عليه حكايات سحرية او راوياً له نكتاً هزلية أو مقلداً أمامه أوضاعاً مضحكة لأشخاص أو محاكياً له حيوانات مختلفة وهى تعوّل أو تعوى بأصوات مضحكة . وكان ايليوشا مع ذلك لا يحب لأبيه أن يمثل هذا التمثيل وأن يقوم بدور المهرج أمامه . كان يحاول أن يخفى الضيق الذى يحسه ، ولكنه كان يدرك حق الادراك فى قرارة قلبه المحطم المسحوق ، أن أباه قد أذلَّه المجتمع ، وأن ذكرى ذلك اليوم الرهيب فى الحانة تحاصره ولا تبارحه لحظة . وكانت نينا الكسيحة ، أخت ايليوشا ، المهيضة الوديعة ، تكره هى أيضاً أن ترى ما يقوم به أبوها من حركات مضحكة (اما فرفارا نيقولايفنا فقد سافرت الى بطرسبرج منذ زمن طويل لتتابع دراستها) . ولا كذلك الأم البلهاء ، فقد كانت تجد فى ذلك لذة كبيرة ، وكان تضحك من كل قلبها متى أخذ زوجها يقوم بحركاته الهزلية . كان ذلك هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يسرها وأن يسرّى عنها . وهى فى كل ما عدا ذلك من وقت ، لا تكف عن الشكوى والبكاء ، قائلةً ان الجميع قد نسوها ، وان أحداً لا يحترمها ، وان الاساءات والاهانات تنصب عليها ، الخ . غير أن تبدلاً لم يكن فى الحسبان قد

حدث لها منذ بضعة أيام . أصبح يتفق فى كثير من الأحيان أن تنظر صامتةً الى ايليوشا فى ركنه ، فاذا هى تطرق وتغرق فى التفكير . لقد أصبحت أقرب الى الصمت ، وبدا عليها شىء من هدوء ، فاذا بكت حاولت أن لا يُسمع بكاؤها . وقد لاحظ النقيب هذا التبدل فشعر بدهشة أليمة . ولقد كانت زيارات رفاق الابن تضايقها فى أول الأمر ، ولا تزيد على أن تثير غضبها وحنقها . ولكن صرخاتهم الفرحة وحكاياتهم المسلية أخذت بعدئذ تسرّى عنها ، ثم أصبحت الأم تحب هؤلاء الأولاد ، وبلغت من ذلك أخيراً ان وجودهم غدا ضرورة لا غنى لها عنها ، فاذا غابوا هوت الى حزن مرهق . كانت اذا قصّ التلاميذ حكايات أو أخذوا يلعبون ، تضحك او تصفق بيديها ، وتناديهم اليها ، فى بعض الأحيان فتقبلهم . وكان الفتى سموروف يحظى بايثارها اياه على غيره . أما النقيب فكان مجىء التلاميذ يملؤه فرحاً طافحاً فى كل مرة ، وكان يأمل فى تلك اللحظات أن يسرّى وجودهم عن ايليوشا ، فيشفى بسرعة متى كف عن الحزن . كان لا يشك لحظةً ، رغم جميع المخاوف التى توقظها فى نفسه حالة ابنه ، فى أن ابنه سيسترد عافيته فجأة ، وكان هذا الاقتناع هو الذى شد أزره حتى هذه الأيام الأخيرة . انه يستقبل هؤلاء الزوّار الصغار باحترام وتأثر ، ويسعى ويدور حولهم ، ويضع نفسه فى خدمتهم ، ويقترح عليهم أن يحملهم فوق ظهره ، ولا شك أنه كان سيفعل ذلك لولا أن ايليوشا قد أظهر شيئاً من عدم الرضى عن وضع أبيه هذا . لذلك كفوا أخيراً عن هذه الألعاب . غير أن الأب قد عوّض الأولاد عن هذا ، فأصبح يشترى لهم سكاكر وفطائر وجوزاً ، ويعد لهم شايا وساندويشات . يحسن ان نذكر هنا أن المال أصبح لا يعوزه فى هذه الفترة . فقد قبل أن يأخذ المائتى روبل التى

أرسلتها اليه كاترينا ايفانوفنا بعد رفضه الأول ، قبلها فى هذه المرة بغير عناء ، كما تنبأ اليوشا تماما ثم بعد ذلك جاءت اليهم كاترينا ايفانوفنا بنفسها لتتعرف اليهم بعد أن علمت بأحوالهم التعيسة وبمرض ايليوشا بمزيد من التفصيل واستطاعت أن تفتن حتى الأم البلهاء ، واستمرت منذ ذلك الحين على مساعدتهم بيد سخية ، ونسى النقيب كبرياءه القديمة وارتضى أن يتلقى هذه المعونات من شدة خوفه أن يفقد ابنه . وقد أصبح الدكتور هرتسنشتوبه يعود المريض بانتظام كل يومين . بطلب من كاترينا ايفانوفنا ، ولكن تدخله لم يسفر عن نتائج تُذكر رغم الأدوية الكثيرة التى حشا بها المريض . غير أنهم كانوا فى ذلك اليوم ، أى فى صباح يوم الاحد ينتظرون طبيباً جديداً جاء من موسكو ، حيث ينعم بشهرة واسعة وصيت ذائع . لقد طلبته كاترينا ايفانوفنا خصيصاً ، لقاء أجور باهظة . صحيح أنها لم تستدعه من أجل أن يعالج ايليوشا ، وانما هى استدعته لغرض آخر ستتحدث عنه فيما بعد ، ولكنها انتهزت فرصة وجوده فى مدينتنا ، فرجته أن يعود المريض الصغير أيضاً ، وأبلغت النقيب ذلك مسبقاً . ولكن النقيب ، فى مقابل ذلك ، لم يكن يتوقع زيارة كوليا كراسوتكين ، رغم أنه تمنى منذ زمن طويل أن يجىء هذا الفتى الذى تكلم عنه ايليوشا بكثير من الحنين ، وكان أمره يعذبه عذاباً شديداً .

حين فتح كراسوتكين باب الغرفة ، كان النقيب والأولاد يحيطون بسرير المريض الصغير ، ويتأملون جرو الحراسة الرضيع الذى وُلد البارحة وجىء به لتوه . كان أبو ايليوشا قد أوصى باحتجاز هذا الكلب له منذ أسبوع ، آملاً أن يسرّى به عن ابنه الذى لم يستطع أن ينسى اختفاء «جوتشكا» الذى مات بلا شك . وكان

ايليوشا الذى يعلم منذ ثلاثة أيام أنه سيؤتى بكلب صغير ، أصيل ، من أرقى أنواع كلاب الحراسة (وذلك أمر هام جداً) كان يتظاهر ، لباقةً ، بأنه أشد ما يكون ابتهاجاً بهذه الهدية . ومع ذلك كان جميع الحضور ، الأب والأولاد على السواء ، قد أدركوا حقّ الادراك أن هذا الكلب الجديد لم يزد على أن أذكى فى قلب المريض تلك الذكرى الأليمة ، ذكرى الآلام التى سبّبها للكلب المسكين «جوتشكا» . كان الكلب الصغير مضطجعاً قرب ايليوشا يتحرك . وكان ايليوشا يبتسم ابتسامة ضعيفة واهنة ، وهو يلاعبه بيده الشاحبة الشفيفة الناحلة . كان واضحاً أن ايليوشا معجب بالحيوان الصغير . . . ولكن هذا الحيوان الصغير ليس «جوتشكا» ، ان «جوتشكا» ما يزال غائباً ! آه . . . يا ليت أن الجمع بين «جوتشكا» وهذا الكلب الصغير ممكن ، اذن لكان ذلك سعادة كبرى ! . . .

صاح أحد الفتية يقول وقد لمح كوليا :

— كراسوتكين !

حدث اضطراب خلال لحظة ، وتباعد الأولاد فاصطفوا على جانبى السرير كاشفين بذلك عن ايليوشا ، وهرع النقيب يستقبل كوليا ، متمتماً :

— أدخل ، تفضل . . . أيها الضيف العزيز ! يا صغيرى ايليوشا ، هذا السيد كراسوتكين قد جاء يعودك . . .

وبعد أن أسرع كوليا يمد يده اليه ، برهن فى الحال على معرفته التامة بالآداب الاجتماعية اذ التفت اولاً نحو زوجة النقيب ، الجالسة على مقعد (وكانت فى تلك اللحظة مستاءة جداً ، فهى تعبر عن غضبها من أن الأولاد قد حجبوا عنها سرير ايليوشا فحالوا بذلك بينها وبين رؤية الكلب الجديد) ، فانحنى يحييها بكثير

من الاحترام ، ثم التفت نحو نينا فحيّاها كما تُحيَّا سيدة تحيةً فيها كثير من الاحتفال أيضاً ؛ فكان لبادرة التهذيب والأدب هذه أثر حسن جداً فى نفس البلهاء . فأنبرت تقول بصوت عال وهى تباعد ذراعيها .

— يدرك المرء فوراً أنه رجل مهذب . شتّان بينه وبين زوارنا الآخرين هؤلاء الذين يركب بعضهم فوق بعض !

تمتم النقيب يقول بحنان يخالطه قلق على حالة امرأته :

— كيف هذا يا عزيزتى ؟ يركب بعضهم فوق بعض ؟ ماذا تقصدين ؟

— طبعاً . . . هكذا يصلون جميعاً . فى الدهليز يركب بعضهم على أكتاف البعض الآخر ، ويتواقحون فيدخلون راكبين الى غرفة أسرة مرموقة كأسرتنا . . . أهؤلاء زوار محترمون ؟

— ولكن من دخل على هذا النحو يا عزيزتى ، من ؟

— هذا واحد ركب على ذاك ، اليوم . وهذا ركب على الآخر أيضاً . . .

كان كوليا أثناء ذلك قد اقترب من سرير ايليوشا . وقد شحب لون ايليوشا شحوباً شديداً ، ونهض على مرقده وحدّق الى كراسوتكين . ان كراسوتكين لم يره منذ شهرين فها هو ذا يتوقف على حين فجأة مبهوتاً من منظر رفيقه القديم الصغير : كان لا يتوقع أن يراه بوجه نحل هذا النحول كله واصفر هذا الاصفرار كله وسطعت فيه عينان محمومتان قد اتسعتا هذا الاتساع . وخطف بصره هزال يديه أيضاً . انه يتأمله الآن فى دهشة أليمة ، بينما ايليوشا ، المتيبس الشفتين ، يتنفس تنفساً شاقاً سريعاً . تقدم كوليا خطوة نحوه متحيراً ، وقال له بصوت متلجلج وهو يمد اليه يده :

— هيه يا أخى . . . كيف حالك ؟

واختنق صوته ، ولم يسعفه استهتاره . تقبضت قسمات وجهه ، واختلجت أطراف شفتيه . وكان ايليوشا ، الذى ما يزال عاجزاً عن أن ينطق بكلمة ، يبتسم له ابتسامة ضعيفة . رفع كوليا يده فجأة ، وأجراها فى شعر ايليوشا لا يدرى لماذا ، وقال له متمتماً بصوت خافت :

— الأمر بسيط ، اطمئن . . .

قال له ذلك إما ليشجعه او لأنه لم يعرف لماذا قال هذا الكلام . صمتا كلاهما لحظة . ثم سأل كوليا بصوت لا أحاسيس فيه :

— أرى أن عندك كلباً صغيراً آخر ؟

فأجاب ايليوشا بهمهمة طويلة لاهثة يقول :

— ن . . . ع . . . م .

— ان بوزه أسود ، وهذا يدل على أنه سيكون كلباً شرساً . — قال كوليا بوقار وبرصانة ، كأن للكلب ولبوزه الأسود خطورة خاصة .

والحق أن كوليا كان عاجزاً حتى الآن عن السيطرة على انفعاله ، رغم جميع الجهود التى يبذلها ، وهو يخشى أن ينفجر باكياً مثل «طفل» .

وأضاف قائلاً :

— سيكون من الواجب ربطه بسلسلة حين يكبر . أنا أعرف هذا .

هتف أحد الفتيان يقول :

— سيكون ضخماً .

فقالت أصوات أخرى :

— حتماً . . . ما دام من أحسن أنواع كلاب الحراسة . سيكون حجمه كحجم عجل .

وأسرع النقيب يقول مؤيداً :

— سيكون ضخماً ضخامة عجل ، ضخامة عجل حقاً . لقد اخترت هذا الكلب خصيصاً . . . انه من نوع شرس جداً . . . أبواه ايضا ضخمان شرسان . . . يصل طولهما الى هنا . . . اجلس ، تفضل اجلس . . . اجلس على سرير ايليوشا ، أو اجلس هنا على الدكة . أهلاً بك يا ضيفنا العزيز الذى انتظرناه زمناً طويلاً . . . هل جئت فى صحبة ألكسى فيدوروفتش ؟

جلس كوليا على السرير قرب ايليوشا . لا شك أنه قد أعدَّ أثناء الطريق كل ما كان ينوى أن يقوله حتى يكون وضعه منطلقاً منذ بداية الحديث ، ولكنه قد فقد تسلسل الكلام . . . فها هو ذا يجيب عن سؤال النقيب قائلاً :

— بل جئت . . . جئت . . . مع «برزفون» . . . عندى الآن كلب يسمى هكذا . . . هو اسم سلافى تماماً . انه ينتظر هناك . . . فمتى صفرتُ له اسرع يجىء .

والتفت نحو ايليوشا فجأة وقال له :

— أنا أيضاً عندى كلب .

ثم اذا هو يسأل ايليوشا بغتة :

— هل تتذكر «جوتشكا» يا اخى ؟

فما أن سمع ايليوشا هذا السؤال حتى تقبض وجهه تقبضاً أليماً ، وألقى على كوليا نظرة مثقلة بالمرارة . وكان أليوشا واقفاً قرب الباب ، فقطب حاجبيه وأومأ من بعيد ليهيب بكوليا أن لا يجىء على ذكر «جوتشكا» ، ولكن كوليا لم يلاحظ شيئاً أو تظاهر بأنه لا يرى شيئاً .

سأل ايليوشا بصوت محطَّم :

— اين هو «جوتشكا» ؟

— دعك من «جوتشكا» يا أخى . . . اختفى . . . «جوتشكا» ضاع . . .

صمت ايليوشا وحدَّق الى كوليا من جديد . واستطاع أليوشا أن يجذب انتباه كراسوتكين فأومأ له بالحاح للمرة الثانية ، ولكن كوليا أشاح عنه متظاهراً بأنه لم يلاحظ شيئاً .

— «جوتشكا» اختفى ولم يترك أثراً . وهل كان يمكنه أن يعيش بعد أن بلع فطيرة كتلك الفطيرة ؟

كذلك تابع كوليا كلامه دون رحمة ، بصوت أصبح لاهثاً لا يدرى أحد لماذا . ثم أردف يقول :

— ولكننى اصطحبت «بِرزفون» . . . هذا اسم سلافى . . . لقد جئت بهذا الكلب .

فقال ايليوشا فجأة :

— لا أريده !

— بلى بلى . أحب أن تراه ، يجب أن تراه . سوف يسليك . لقد جئت به خصيصاً . . . ان له شعراً طويـــلاً كالآخر . . . هل تأذنين لى يا سيدتى بادخال كلبى ؟

كذلك أضاف وهو يلتفت فجأة نحو السيدة سنيجيريفا ، متكلماً بانفعال لا سبيل الى فهمه .

فصاح ايليوشا يقول بصوت محطَّم من الألم :

— لا ، لا أريد .

وكانت عيناه الساطعتان تعبران عن عتب .

عندئذ وثب النقيب واقفاً من سحّارة كان جالساً عليها قرب الجدار ، وتدخل يقول :

— ربما كان الأفضل . . . ربما كان الأفضل ان نختار وقتاً آخر . . .

ولكن كوليا أصرَّ وأسرع بالحاح ، فالتفت الى سموروف وصاح بأمره فجأة :

— افتح الباب !

فما أن نفذ سموروف الأمر حتى صفر كوليا ، فاذا «بِرزفون» يهرع فيصير فى الغرفة .

صرخ كوليا يقول وقد وثب عن مكانه :

— اقفز يا «برزفون» ، تبختر ! . . .

فاذا الكلب ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، قرب سرير ايليوشا . فحدث عندئذ شىء لم يكن فى الحسبان قط : ارتعش المريض الصغير ، ونهض بكثير من الجهد والعناء ، ومال على «برزفون» يتفحصه وكأنه لا يتنفّس من شدة الانفعال ، ثم هتف يقول بصوت مرتعش من الألم والفرح معاً :

— ولكن هذا «جوتشكا» !

فصرخ كراسوتكين هو أيضاً يقول بصوتٍ مجلجل سعيد :

— فماذا كنت تظن اذن ؟

وانحنى على الكلب ، فأحاطه بذراعيه ، وقرَّبه من وجه ايليوشا ، وهو يقول له :

— أنظر يا أخى ، انظر . . . هأنت ذا ترى : انه أعور ومصلوم الاذن . تلك هى بعينها العلامات التى ذكرتها حين وصفت لى «جوتشكا» . وبفضل هذه العلامات انما استطعت أن أجده . ولم أحتج من أجل ذلك الى زمن طويل . كان كلباً لا صاحب له ، لا صاحب له ! (هكذا أضاف يقول شارحاً وهو ينقل بصره بسرعة من ايليوشا الى النقيب فالى زوج النقيب ، فالى

أليوشا ، ثم يعود الى إيليوشا) . كان هذا الكلب يعيش فى الحوش الخلفى من منزل آل فيدوتوف ، ويظن أنه قد وجد لنفسه هنالك مأوى يأوى اليه ، ولكنهم كانوا لا يطعمونه ، فكان يضرب فى البرية على غير هدى . . . ووجدته آخر الأمر . . . أرأيت يا صاحبى ؟ ان هذا الكلب لم يبلع لقمتك والا لمات من ذلك حتماً . حتما . لقد لفظها دون أن يبلعها ، لذلك ما يزال حياً . أنت لم تلاحظ انه لم يبلع اللقمة بالدبوس . لقد لفظه . ولكن الدبوس قد وخز له لسانه . ولهذا السبب أخذ يعوى ، فتخيلت أنت أنه بلع اللقمة . ولا بد أنه لبث يعوى زمناً طويلاً ، لأن للكلاب فى فمها أغشية حساسة جداً . . . أشدّ حساسية من أغشية أفواه البشر . . . أشد كثيراً . . .

كذلك صاح يقول كوليا وقد احمرّ وجهه وأشرق حماسه .

أما إيليوشا فكان لا يستطيع أن يتكلم ، وهو يكتفى بأن ينظر الى كوليا محملق العينين فاغر الفم أصفر اللون . لو أن كراسوتكين الذى لم يدر فى خلده شىء ، قد استطاع أن يتصور مدى المشقة التى يمكن ان يعانيها ايليوشا فى هذه الدقيقة ، ومدى الضرر الذى يمكن ان تلحقه هذه المفاجأة بصحة المريض ، اذن لما قرر أن يدبر هذا الفصل المسرحى . ولعل أليوشا كان بين جميع الحضور الشخص الوحيد الذى ربما خطر بباله ما قد ينتج عن هذا من أثر . أما النقيب فقد أصبح هو نفسه وكأنه طفل صغير . فهو يهتف بصوت فرح سعيد :

— هذا «جوتشكا» ! هذا «جوتشكا» اذن ! ايليوشا ، عزيزى ايليوشا ، انه هنا ، اليك هو ، صاحبك «جوتشكا» ! ماما ! ماما ! هذا «جوتشكا» !

وكان النقيب كمن يبكى .

قال سموروف بمرارة :

— ما أغبانى حين لم يخطر ببالى شىء ! يا له من شاطر كراسوتكين هذا ! ألم أقل لكم انه سيجد «جوتشكا» ؟ فها هو ذا قد وجده .

وقال صوت آخر فرح :

— وجده !

ودوى صوت طفل ثالث يقول :

— مرحى كراسوتكين !

وترجعت أصوات جميع الأطفال يهتفون وهم يصفقون بأيديهم :

— مرحى ! مرحى !

قال كوليا محاولاً أن يسيطر على الجلبة :

— لحظة . . اصغوا الىّ . سأروى لكم كيف تم ذلك . الأمر كله هنا . لقد عثرت عليه ، فقُدْته الى بيتى ، وخبأته فى غرفتى ، دون أن اظهر عليه أحداً حتى هذا اليوم . سموروف وحده علم منذ أسبوعين أن عندى كلباً ، ولكننى أوهمته أن الكلب هو «برزفون» فصدّق ما قلته له . وفى أثناء هذا الوقت علّمت «جوتشكا» انواعاً من الحيل . سوف ترون كيف أصبح «جوتشكا» عالماً . لقد روّضته من أجل أن آتيك به مهذباً كل التهذيب مربى كل التربية يا اخى ! سوف ترى كيف أصبح صاحبك «جوتشكا» هل عندكم قطعة لحم ؟ سوف يريكم شيئاً يميت من فرط الضحك . قليلاً من اللحم ، أليس عندكم قليل من اللحم ؟

أسرع النقيب الى الدهليز ، وذهب الى شقة أصحاب المنزل حيث كان يُهيأ للأسرة عشاؤها . ومن أجل أن لا يضيع وقت

ثمين ، أسرع كوليا يأمر «بِرزفون» قائلاً له : «مت» . فاذا بالكلب يأخذ يدور ، ثم يستلقى على ظهره ، ويسكن سكوناً تاماً ، رافعاً قوائمه الأربع فى الهواء . طفق الأولاد يضحكون . واستمر ايليوشا ينظر الى الكلب ، كعادته ، بابتسامة أليمة . ولكن الأم خاصةً هى التى كان يبدو أنها أكثر الجميع فرحةً من رؤية «بِرزفون» متظاهراً بالموت ، فهى تضحك ضحكاً صاخباً ، وتنادى الكلب صافقةً بأصابعها : «بِرزفون» ، «بِرزفون» !

قال كوليا باعتزاز مشروع :

— لن ينهضه شىء فى الدنيا كلها ! أبداً ! مهما تنادوه جميعاً ، فلن يتحرك . ولكن يكفى أن آمره أنا حتى ينهض فوراً . تعال يا «بِرزفون» !

فما ان سمع الكلب نداء كوليا حتى وثب وأخذ ينط ويعوى فرحاً . وهرع النقيب فى تلك اللحظة حاملاً قطعة من لحم مسلوق.

أسرع كوليا يسأله بوقار :

— أليس اللحم ساخناً جداً ؟

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه ، وأضاف يقول :

— لا ، ليس ساخناً جداً ، والا أضرّت السخونة بالكلب . انظروا الآن جميعاً ! انظر يا ايليوشا . هلاَّ نظرت ! انظر ، يا صاحبى ! لماذا لا تنظر ؟ أأجيئك به ، ثم ترفض حتى أن تهتم ؟

ان المشهد الجديد هو أن توضع قطعة اللحم فى طرف بوزه الممدود ، على أن يظل الكلب ساكناً لا يتحرك . ان على الحيوان المسكين أن يظل على هذا الوضع ، واللحم فى متناول فمه ، ما ظل سيده يطلب منه ذلك ، فليس يجوز له أن يقوم بأية حركة ولو خلال نصف ساعة . غير أن الكلب لم يُحمل على

الانتظار الا دقيقة قصيرة . صاح كوليا يقول :

— هيَّا !

فاذا بقطعة اللحم المسلوق تدخل فم «برزفون» بسرعة البرق . وأعرب الحضور عن دهشتهم وحماستهم طبعاً .

هتف أليوشا يقول بلهجة فيها عتب على غير ارادة منه :

— هل يُعقل ان تكون قد تأخرت عن المجىء هذا التأخر كله لا لهدف غير ترويض الكلب ؟

— طبعاً . . . هذا هو الهدف الوحيد . أردت أن أعرضه بكل روعته .

هكذا أجاب كوليا بسذاجة .

وقال ايليوشا ينادى الكلب وهو يصفق بأصابعه النحيلة ليلفت انتباهه اليه :

— «بِرزفون ، بِرزفون» !

قال كوليا :

— لا حاجة بك الى أن تناديه . سوف يقفز الى سريرك من تلقاء نفسه .

ثم أمر الكلب قائلاً له ، وهو يضرب السرير بيده :

— هنا يا «بِرزفون» !

فاذا بالكلب يثب الى قرب ايليوشا .

أحاط ايليوشا رأس الحيوان بيديه ، فلعق الحيوان وجه ايليوشا عرفاناً بالجميل . وشد ايليوشا نفسه الى الكلب ، وتمدد على سريره ، واخفى وجهه فى جزائز شعره الكثيفة .

— يا ربى ! يا ربى ! — هتف النقيب .

عاد كوليا يجلس على سرير ايليوشا ، وقال له :

— ايليوشا ! أستطيع أن أريك شيئا آخر أيضاً . . . لقد

جئتك بمدفع صغير . سبق أن حدثتك عنه ، هل تتذكر ؟ لقد قلت لى عندئذ : «لشد ما أحب أن أراه !» . فهأناذا جئتك به اليوم .

قال ايليوشا ذلك ، وسلَّ المدفع البرونزى الصغير من كيسه بسرعة . كان كوليا يُسرع ، لأنه كان يحس هو نفسه بالسعادة . ولولا ذلك لانتظر أن يزول أثر المفاجأة الأولى ، الذى أحدثه ظهور «برزفون» . ولكنه كان فى هذه المرة يتعجل اظهارهم على اللعبة غير عابئ بأى رزانة ، ويقول فى سريرة نفسه : «هأنتم أولاء سعداء ، فلأهبن لكم مزيداً من السعادة !» . كان كوليا يشعر بافتتان قوى .

— لقد لاحظت هذه اللعبة عند الموظف موروزوف منذ زمن طويل . فتمنيت الحصول عليها ، ولكن من أجلك أنت يا أخى ، من أجلك أنت . كان موروزوف قد أخذها من أخيه ، وكان لا يستعملها . ولقد استطعت أن أحصل منه عليها مقابل كتاب من مكتبة بابا عنوانه «قريب محمد أو الجنون النافع»* . انه كتاب فاسق ظهر فى موسكو منذ مائة عام ، أيامَ لم تكن هنالك رقابة على المطبوعات بعد . وموروزوف من عشاق هذه الأمور ، حتى لقد شكر لى هذه المقايضة . . .

كان كوليا يمسك المدفع الصغير بيده امساكاً يتيح للجميع أن يروه وأن يعجبوا به . ونهض ايليوشا على سريره ، وأخذ يتأمل اللعبة منتشياً مع استمراره على معانقة «برزفون» بيده اليمنى . وبلغ التأثير ذروته حين أعلن كوليا أن معه كذلك بارودا ، وأن فى وسعهم أن يطلقوا النار من المدفع ، «هذا اذا كانت السيدات لا ترى فى ذلك بأساً» . فسارعت «ماما» تطلب أن تنعم النظر فى اللعبة من قرب ، فلبى طلبها فوراً . أعجبها المدفع البرونزى

الصغير المركب على عجلات اعجاباً شديداً ، وأخذت تدحرجه فوق ركبتيها . ولم تتردد فى أن تأذن باطلاق النار من المدفع ، دون أن تفهم الموضوع جيداً فى الواقع . وأخرج كوليا البارود والخردق فأظهر عليهما الحضور . وتولى النقيب ، بصفته عسكرياً قديماً ، حشو المدفع ، فسكب بنفسه قليلاً من البارود على ضوء المصباح . أما الخردق فرجا أن لا يُستعمل هذه المرة . وُضع المدفع على أرض الغرفة ، ووُجِّهت فوهته نحو فضاء خال ، ووُضعت ثلاث حبات من البارود واشعلت بعود ثقاب . فانطلقت النار كأحسن ما يكون الانطلاق . ارتعشت «ماما» فى اللحظة الأولى ، ثم أخذت تضحك مسرورة مبتهجة . وكان الصبيان ينظرون الى اللعبة باعجاب صامت . غير أن النقيب كان أسعدهم طراً ، وكان لا يحول بصره عن ايليوشا . وتناول كوليا المدفع ، فأهداه فوراً الى المريض الصغير ، كما أهدى اليه البارود والخردق ، قائلاً له من جديد وهو فى قمة الغبطة والسعادة :

— هذا لك ، هذا لك ، اعددته منذ مدة طويلة لأهديه اليك .

فأنبرت البلهاء تقول ضارعة بصوت كصوت طفل :

— بل أعطنيه أنا .

كان وجهها يعبر عن المرارة ، وعن الخوف من أن يُرفض طلبها . فتحير كوليا ، واضطرب النقيب ، فصاح يقول لزوجته وهو يدنو منها :

— عزيزتى ، عزيزتى ، هذا المدفع لك ، لك أنت . فليحتفظ به ايليوشا الى حين ، ما دام قد أهدى اليه ، ولكنه لك أنت طبعاً . سيسمح لك ايليوشا بأن تلعبى به كلما أردت ذلك . هو لكما كليكما ، لكما كليكما . . .

فقالت الأم وهى توشك أن تبكى :

— لا ، لا أريد ان يكون لنا كلينا . أريد أن يكون لى وحدى ، ولا أريد أن يكون منه شىء لايليوشا .

صاح ايليوشا يقول فجأة :

— ماما ، خذيه ، اننى أهديه اليك .

وكأنما خشى أن يسىء الى كوليا اذا هو تنازل عن هديته لشخص آخر ، فسأله ضارعاً :

— هل أستطيع أن أهديه الى ماما يا كراسوتكين ؟

فأسرع كوليا يقول موافقاً :

— لم لا ؟

وتناول المدفع من بين يدى ايليوشا ، فمدَّه بنفسه الى الأم وهو يحييها أرق تحية . (لقد انفجرت الأم فى البكاء من شدة التأثر) .

صاحت الأم تقول بانفعال :

— ايليوشا ، بنىَّ الصغير ، أنت تحبنى حقاً ، أنت على الأقل .

ثم عادت تدحرج المدفع الصغير على ركبتيها .

— عزيزتى ، هلاَّ اذنت لى ان اقبل يدك ؟

قال زوجها وحقق رغبته فوراً .

استأنفت الأم كلامها شاكرة وهى تومئ الى كراسوتكين .

— هذا الطف جميع هؤلاء الصبيان .

وقال كوليا :

— أما البارود يا ايليوشا ، فسأجيئك منه بالقدر التى تشاء . اننا نصنعه بأنفسنا . لقد تعلم بوروفيكوف الطريقة : أربعة وعشرون جزءاً من النطرون ، وعشرة اجزاء من الكبريت ، وستة من فحم

الحطب . يطحن هذا كله معاً ، ثم يصب عليه ماء ليُجعل عجينةً تُمرَّ بعد ذلك من خلال جلد طبل . هكذا يتم الحصول على البارود .

قال ايليوشا :

— حدثنى سموروف عن بارودك ، ولكن بابا يقول ان هذا ليس هو البارود الحقيقى .

فقال كوليا محتجاً وقد احمرَّ وجهه :

— ليس هو البارود الحقيقى ؟ كيف ذلك ؟ لكنه يحترق . . . على كل حال ، لا أدرى . .

أسرع النقيب يصحح محرجاً :

— لا . . أنا لم أقل شيئاً . ربما أكون قد ذكرت أن البارود الحقيقى يُصنع بطريقة أخرى ، لا بأس . . . ان من الممكن أن يُحصل على البارود بهذه الطريقة أيضاً .

— أنت أعلمُ منا على كل حال . لقد أشعلنا بارودنا فى وعاء مرهم ، فاحترق احتراقاً كاملاً ولم يخلِّف الا قليلاً من السناج . وكان من جهة أخرى عجينة لا ينقصها الا امرارها من خلال جلد . . . ومهما يكن من أمر ، فأنت أدرى بهذه الأمور منى . . . بالمناسبة : لقد جُلد بولكين بسبب بارودنا ، جلده أبوه ، هل بلغك هذا ؟

هكذا سأل كوليا ملتفتاً نحو ايليوشا على حين فجأة . فأجابه ايليوشا :

— بلغنى .

وكان ايليوشا يصغى الى كوليا باهتمام شديد ولذة قوية .

— كنا قد حضَّرنا زجاجة من بارود ، فخبأها بولكين تحت سريره . واكتشفها أبوه فقال : «قد تحدث انفجاراً» وجلد ابنه

على الفور . حتى لقد كان فى نيته أن يشكونى الى ادارة المدرسة وحظر على ابنه منذ ذلك الحين أن يخالطنى . أصبحوا لا يسمحون لأحد بمخالطتى . حتى سموروف مُنع من ذلك . لقد ترسخت سمعتى ، فهم يقولون اننى «متهور» (قال كوليا ذلك وهو يبتسم ابتسامة ازدراء) . يرجع هذا الى زمان قصة السكة الحديدية تلك . . .

صاح النقيب يقول :

ـــ لقد سمعنا بمأثرة السكة الحديدية هذه . كيف استطعت أن تصمد هذا الصمود بين القضيبين ؟ هل يمكن حقاً أن لا تكون قد خفت حين مر القطار من فوقك ؟ لا شك أن ذلك كان رهيباً !

كان النقيب يتفنن فى تملق كوليا .

أجاب كوليا بلهجة فيها اهمال :

ـــ خفت ؟ لا . . . لم أخف كثيراً . . . ولكن تلك الأوزة اللعينة هى التى جاءتنى بسمعة التهور هذه .

أضاف كوليا ذلك وهو يلتفت نحو ايليوشا من جديد .

كان كوليا يحاول أن يصطنع فى كلامه هيئة عدم المبالاة ، ولكنه رغم ما كان يبذله من جهود فى هذا السبيل ، لم يتمكن من العودة الى السيطرة على نفسه ، وأصبح لا يجد اللهجة المناسبة .

قال ايليوشا مشرق الأسارير :

ـــ سمعت أيضاً بقصة الأوزة هذه ! حكوها لى . ولكن هناك نقطة لم أفهمها جيداً . هل صحيح أنهم قادوك الى القاضى ؟

قال كوليا يشرح منطلقاً :

ـــ تلك مهزلة سخيفة تافهة اثيرت حولها ضجة كبيرة وجعلوا من الحبّة قبّة على عادة الناس هنا . كنت اجتاز ميـــدان السوق حين كان يؤتى اليه بأوز ، فوقفت انظر الى الأوز . فاذا بفتى من هنا ، فتى اسمه فشنياكوف يعمل الآن أجيراً ساعياً فى متجر آل بلوتنيكوف ، اذا هو يأخذ يتفرس فىَّ ويسألنى : «مالك تنظر الى الأوز هكذا ؟» . رفعت بصرى نحوه . انه شاب فى نحو العشرين من عمره ، له سحنة مدوَّرة غبية . اننى لا أحتقر الشعب أبداً ، اعلموا هذا . اننى أحب البسطاء من الناس . . . نحن متخلفون كثيراً عن الشعب ، تلك بديهية أؤمن بها . . . يخيَّل الىَّ أنك تضحك يا كارامازوف ، أليس كذلك ؟

ـــ بتاتاً ! بالعكس : أنا أصغى اليك بكثير من الانتباه .

هكذا أجابه أليوشا بلهجة طيبة ساذجة ، فسرعان ما استرد كوليا الموسوس شجاعته ، وراح يكمل كلامه بفرح قائلاً :

ـــ نظريتى الخاصة بسيطة واضحة يا كارامازوف . اننى أؤمن بالشعب ، واننى لأشعر بسعادة كلما استطعت أن أنصفه ، ولكن بدون أن أتملقه طبعاً ، [1] Sine qua . ها . . . نعم . . . كنت أتكلم عن تلك الاوزة . التفت نحو ذلك الأبله فأجبته : «اننى أتساءل عما لعل الاوزة تفكر فيه الآن» ، فحملق بغباء ، ثم استأنف يسألنى : «وما الذى تفكر فيه هذه الأوزة ، فى رأيك ؟» قلت : «هل ترى تلك العربة المحمَّلة شوفاناً ؟ ان الشوفان يتساقط من الكيس ، وقد مدت الاوزة رقبتها لتنقر الشوفان ، واقفةً تحت العجلة تماماً ، هل لاحظت ذلك ؟» ، قال : «طبعاً لاحظته !» قلت : «فاذا دفعنا العربة الآن قليلاً ، قطعت

---

[1] هذا شرط لا بدَّ منه . (باللاتينية فى الأصل) .

العجلة رقبة الأوزة ، أصحيح أم لا ؟» . قال : «طبعاً ستقطع العجلة رقبة الأوزة !» قال ذلك فاتحاً فاه من السرور ، فالى هذا الحد أفرحته تلك الفكرة . قلت : «فهيًا بنا اذن أيها الشجاع !» فردَّد يقول : «هيًا بنا !» . ولم يطل الأمر . وقف هو قرب اللجام دون أن يراه أحد ، ورابطت أنا الى جانب لأوجّه الأوزة . أما صاحب العربة فلم ينتبه الينا ، لانه كان يتحدث مع أحد الناس . ولم أحتج الى التدخل من أجل أن أوجه الاوزة ، فقد مدت عنقها تحت العجلة من تلقاء نفسها لتبلغ حبات الشوفان ، وأومأتُ الى الفتى ، فشد اللجام ، فما هى الا لحظة حتى كانت رقبة الاوزة قد قُطعت . وشاءت المصادفة أن يرانا فى تلك اللحظة جميع الفلاحين المتجمعين فى الميدان ، فأخذوا يعولون بصوت واحد قائلين له : «فعلت هذا عمداً» . فقال لهم : «لا ، لم أفعله عمداً» فقالوا : «بل فعلته عمداً» ، وازداد صراخهم ، وقالوا : «قودوه الى قاضى الصلح !» . واقتادونى أنا أيضا قائلين : «كنت أنت حاضراً ، فأنت الذى حرّضته ، ان جميع الناس يعرفونك فى السوق» . والواقع أننى معروف جداً فى السوق ، لا أدرى لماذا (كذلك أضاف كوليا قائلاً باعتزاز) . وذهبنا الى قاضى الصلح . وجىء بالأوزة أيضاً . خاف صاحبى الفتى وأخذ ينتحب . حقاً ، كان يبكى كامرأة . اما صاحب العربة فكان يصرخ قائلاً : «على هذا يمكنكم أن تقتلوا ما شئتم من أوز» . وكان ثمة شهود كثيرون . وفصل قاضى الصلح فى القضية بسرعة : حكم بتعويض قدره روبل لصاحب الأوزة ، وقضى بأن يحتفظ الشاب بالأوزة ، وختم قاضى الصلح كلامه قائلاً : «فلا مزاح من هذا النوع فى المستقبل !» ولكن الشاب كان لا يزيد على أن يبكى ويتشكى قائلاً وهو يشير الىَّ : «لست

أنا . . . هو الذى حرّضنى» ، فأجبت ، دون أن أفقد هدوء اعصابى ، بأننى لم أعلّمه شيئاً البتة ، وانما عبَّرت عن فكرة هذه المزاحة فى صورة عامة ، كمشروع لا أكثر . فابتسم قاضى الصلح نيفيدوف ، ثم أسرع يندم على أنه تبسم ، وقال لى : «سأرسل تقريراً عنك الى ادارة المدرسة فى الحال ، حتى لا تندفع بعد الآن فى مشاريع من هذا النوع بدلاً من الانكباب على التحصيل واعداد دروسك» . والواقع أنه لم يش بى الى ادارة المدرسة ، وانما كان ذلك منه تهديداً . غير أن القضية ذاعت فى المدينة حتى وصلت الى آذان السلطات المدرسية . انكم تعلمون أن للمسئولين فى المدرسة آذاناً طويلة ! استاء الاستاذ كولباسنيكوف الذى يعلّم الآداب الكلاسيكية استياءً شديداً ، ولكن داردانيلوف دافع عنى من جديد . وما يزال كولباسنيكوف غاضباً أشد الغضب حانقاً علينا جميعاً حنق كلب مسعور . ولا شك أنك تعلم يا ايليوشا أنه قد تزوج منذ مدة قصيرة . أخذ من آل ميخائيلوف ألف روبل مهراً ، عدا خطيبته التى هى آية من آيات الدمامة . وقد نظم تلاميذ الصف الثالث قصيدة فى هذه المناسبة ، قالوا :

بلوعة واسف شديد
علم تلاميذ الصف الثالث
ان الاستاذ كولباسنيكوف
أخطأه التوفيق فتزوج

وهلم جرا . . . هى قصيدة فكهة ، سآتيك بها فى مرة أخرى . أما داردانيلوف فلن أقول فيه سوءاً : انه رجل واسع المعرفة ، واسع المعرفة حقاً . اننى أحترم أمثاله من الناس ، ولكن ليس لأنه دافع عنى .

— ومع ذلك غلبته أنت فى السؤال عن انشاء مدينة طروادة . — انبرى سموروف الذى كان يشعر عندئذ باعتزاز بكراسوتكين ، لأنّ حكاية الأوزة قد فتنته .

وعاد النقيب يقول بلهجة المديح والتملق :

— غلبته حقاً ؟ كان ذلك فى موضوع انشاء مدينة طروادة ، أليس كذلك ؟ لقد قيل لنا فعلاً انك كنت أقوى منه فى هذه النقطة . حدثنى إيليوشا عن هذا فى ذلك اليوم نفسه . .

قال ايليوشا :

— انه يعرف كل شىء يا بابا ، انه أعلمُ منا جميعاً ! هو يتواضع ، ولكنه أول التلاميذ فى جميع العلوم . . .

كان ايليوشا ينظر الى كوليا بسعادة لا نهاية لها .

أجاب كوليا باعتزاز متواضع :

— أما حكاية طروادة هذه فهى فى الواقع مسألة تافهة لا قيمة لها .

لقد توصل كوليا أخيراً الى ايجاد اللهجة المناسبة ، ومع ذلك كان ما يزال قلقاً جداً : كان يحس انه مهتاج قليلاً ، وأنه قد روى حادث الاوزة بحرارة مفرطة . بينما كان ألْيوشا صامتاً أثناء رواية هذه القصة ، لم يخرج عن رزانته لحظة واحدة . فها هو ذا كوليا الحساس يتعذب الآن اذ يتساءل : «أتراه قد صمت احتقاراً لى ، لاعتقاده بأننى استجدى المديح والثناء ؟ ان كان قد سمح لنفسه بأن يظن ذلك ، فسوف أعرف كيف . . .» . وها هو ذا يقول جازماً بمزيد من الاعتزاز أيضاً :

— فى رأيى أن ذلك السؤال ليس له قيمة حقيقية .

— أنا أعرف من أنشأ طروادة !

كذلك قال فجأة ، على غير توقع ، فتى لم يكن قد

فتح فاه بكلمة حتى ذلك الحين . انه تلميذ صموت خجول ، جميل الوجه جداً ، فى نحو الحادية عشرة من عمره . ان اسمه كارتاشوف ، وكان جالساً قرب الباب . دُهش كوليا دهشة شديدة ، وتفرس فى الطفل بوقار . الواقع أن ذلك السؤال ، وهو : «من أنشأ مدينة طروادة ؟» ، كان قد أصبح سراً يُناقش فى جميع صفوف المدرسة ، وكان لا بد لمعرفة ذلك السر من الرجوع الى كتاب سماراجدوف . وكان كوليا هو التلميذ الوحيد الذى يملك ذلك الكتاب . ولكن الفتى كارتاشوف قد انتهز فى ذات يوم لحظة غفلة من كوليا ، فأسرع يفتح كتاب سماراجدوف الذى كان ملقى بين كتب كوليا المدرسية ، فوقع عرضاً على الصفحة التى يتكلم فيها الكتاب عن انشاء مدينة طروادة . وحدث ذلك منذ مدة طويلة ، ولكن الفتى كان شديد الخجل ، فلم يجرؤ حتى الآن أن يؤكد على مسمع من الناس أنه يعرف هو أيضاً أسماء بناة طروادة . كان يخشى أن يترتب على ذلك وقوع حادث مزعج ، وأن يربكه كوليا بتفوقه عليه فى العلم . غير أنه لم يستطع فى هذه المرة أن يكبح جماح نفسه ، فانطلق يتكلم ، مرضياً بذلك حاجةً فى نفسه ما فتئت تعذبه منذ أسابيع .

— قل لنا اذن من أنشأ مدينة طروادة ! — قال كوليا متعالياً وهو يلتفت نحو الفتى الوقح . لقد أدرك من تعبير وجه الفتى ، أن الفتى يعرف السرَّ ، فسرعان ما تهيأ لمواجهة جميع النتائج . وحدث شىء من الكدر فى مزاج الحضور .

قال الفتى بسرعة ووضوح :

— بنى مدينة طروادة : توسر ، ودردانوس ، وايليوش ، وتروس .

واحمر وجهه فوراً وبلغ من الاحمرار أن منظره أصبح يثير

الألم فى النفس . حدَّق اليه الفتيان الآخرون ، وتفرسوا فيه دقيقة طويلة ، ثم التفتوا بأبصارهم نحو كوليا بحركة واحدة . ظل كوليا يرمق المنافس الجرىء باحتقار دون أن يفقد هدوءه ، ثم تنازل فقال له :

— قل لنا اذن كيف بنوها ؟ قل لنا ماذا يعنى على وجه العموم بناء مدينة أو دولة ؟ هل جاء ووضع كل منهم آجرةً مثلاً ؟

ضج الجميع يضحكون . واصطبغ لون الصبى المذنب بلون كلون القرمز فى هذه المرة . وصمت ، وأوشك أن يبكى . وتركه كوليا جالساً على كرسى الاتهام دقيقة أخرى . ثم أنشأ يقول له بقسوة ، كأنما هو يريد أن يلقن الفتى المتهور درساً :

— ما ينبغى للمرء أن يسمح لنفسه بمناقشة أحداث تاريخية مثل نشوء القومية الا اذا كان يفهم أولاً معنى ما يقال . على أننى من جهتى لا أقيم وزناً كبيراً لأساطير العجائز هذه .

وأضاف يقول باهمال ، مخاطباً جميع الحضور :

— ثم اننى لا أقدر تاريخ العالم كثيراً .

سأله النقيب بنوع من الذعر :

— لا تقدر تاريخ العالم ؟

— نعم ، لا أقدر تاريخ العالم . انه دراسة الحماقات البشرية ، لا أكثر .

وأضاف يشرح بلهجة رصينة وهو ينظر خلسةً الى أليوشا ، لأن أليوشا هو بين سائر الحضور الشخص الوحيد الذى يتهيب كوليا رأيه :

— أنا لا احترم الا الرياضيات والعلوم الطبيعية .

ولكن أليوشا ظل صامتاً محافظاً على جده ورزانته . فلم أبدى رأيا فى تلك اللحظة اذن لاختتمت المناقشة . غير أنه لم

يفتح فمه ، ومن الجائز «أن يكون صمته احتقاراً» ، لذلك اغتاظ كوليا اغتياظاً شديداً ، وأردف يقول :

— وكذلك أرى أن تعليم اللغات المندثرة° جنـــون محض . . . ألاحظ يا كارامازوف أنك تخالفنى فى الرأى من جديد ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا بهدوء وهو يبتسم ابتسامة متحفظة :

— حقاً ، لست أوافقك على رأيك .

قال كوليا وقد عاد يلهث شيئاً فشيئاً :

— اذا شئت أن تعرف رأيى ، فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو فى نظرى اجراء بوليسى للقمع والاضطهاد . تلك هى الغاية الوحيدة التى تستهدف من تعليم اللغات القديمة . انهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبل العقل . كانت الحياة حزينة غبية ، فأرادوا لها مزيداً من الجهامة والبلادة والغباء . كان السخف يحكم العالم ، فرأوا ان يفاقموا ذلك اذا أمكن . هذا هو السبب فى أنهم فرضوا تعليم اللغات المندثرة على المناهج المدرسية . ذلك رأيى أنا بهذا الصدد ، وانى لآمل أن لا أغيره وأن لا أحيد عنه فى يوم من الأيام .

بهذا ختم كوليا كلامه جازماً قاطعاً . وظهرت على خديه بقعتان حمراوان .

قال الفتى سموروف بصوت مجلجل مؤكد ، وكان قد أصغى الى كلام رفيقه بانتباه :

— هذه هى الحقيقة .

فصاح أحد الصبيان يقول على حين فجأة :

— هو مع ذلك أول التلاميذ فى اللغة اللاتينية !

فقال ايليوشا مؤيداً :

— نعم يا بابا ، انه يقول هذا الكلام مع أنه أحسن تلاميذ الصف فى اللغة اللاتينية .

اعتقد كوليا أن عليه أن يسوِّغ ذلك ، رغم أنه سرَّ كثيراً بهذا المدح ، فقال :

— لا يبرهن هذا على شيء ! اننى أبلع اللاتينية لأنه لا بد من ذلك ، ولأننى وعدت أمى بأن أتم دراستى . وأنا أرى أن على المرء أن يتقن كل ما يشرع فيه . ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أحتقر ، فى قرارة نفسى ، كل الكلاسيكيين ، وكل هذه الدناءة . . . أغير موافق أيضاً يا كارامازوف ؟

قال أليوشا وهو يبتسم من جديد :

— ولكن أين الدناءة التى تتحدث عنها ؟

— أين ؟ ألا تفهم ؟ لقد ترجمت مؤلفات الكلاسيكيين الى جميع اللغات . فليس الغرض من تعليمنا اللغة اللاتينية اذن هو أن نستطيع قراءة تلك المؤلفات ، وانما هنالك أسباب بوليسية ، والهدف هو تخبيل عقولنا . أفليس هذا دناءة ؟

فصاح أليوشا يسأله مدهوشاً :

— ولكن من ذا الذى دسَّ هذه الأفكار فى رأسك ؟

— أولاً ، أنا أستطيع أن أفهم هذه الأشياء بنفسى دون أن يدسّها أحد فى رأسى ؛ ثانياً ، اعلم أن الأستاذ كولباسنيكوف هو الذى شرح بصوتٍ عالٍ أمام جميع تلاميذ الصف الثالث ما قلته الآن .

— وصل الطبيب !

كذلك صاحت تقول نينا على حين فجأة ، ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمة .

ان مركبةً خاصة تملكها السيدة خوخلاكوفا قد وقفت فعلاً

أمام المنزل . هبَّ النقيب الى لقاء الطبيب طائش اللب بعد أن انتظر وصوله طوال فترة الصباح . اما الأم فاصطنعت وضع الوقار . واقترب أليوشا من سرير إيليوشا وأخذ يرتب وسادة المريض ، فكانت نينا تنظر اليه من قرارة مقعدها قلقة . أما الفتيان فقد أسرعوا يودّعون ، ووعد بعضهم بأن يرجع فى المساء . ونادى كوليا «برزفون» ، فسرعان ما وثب الكلب فصار فى أسفل السرير . وقال كوليا لايليوشا مسرعاً :

— على أننى لن أنصرف . سأنتظر فى الدهليز ثم أعود متى ذهب الطبيب . سأعود مع «برزفون» .

وكان الدكتور قد دخل الغرفة . انه شخص مهيب المظهر ، يرتدى معطفاً من فراء دبّ ، وله سالفان قاتمان طويلان ، وذقنه محلوقة بكثير من العناية . فبعد أن اجتاز عتبة الغرفة توقف على حين فجأة متردداً : لقد أحسَّ أنه أخطأ المنزل .

— ما هذا ؟ أين أنا ؟

كذلك دمدم يقول دون أن يخلع معطفه ، محتفظاً على رأسه بقبعته المصنوعة من فراء ثعلب الماء ، والمزودة بحافة ذات فراء أيضاً . ان الازدحام ، وهذا المسكن الفقير ، وهذا الغسيل المنشور على حبل فى ركن الغرفة ، ان ذلك كله قد حيَّره .

انحنى النقيب أمامه انحناءة كبيرة ، وتمتم يقول مفرطاً فى التملّق :

— أنت هنا يا سيدى ، هنا ، عندى ، أنت آتٍ الىَّ . . .

قال الطبيب بصوت عال أجشّ :

— هل أنت سنيجيريف . . . جير . . . يف ؟ اذن أنت السيد سنيجيريف ؟

— نعم ، أنا . . .

— آ ! . . .

ألقى الطبيب على الغرفة نظرة ازدراء أخرى ، وخلع معطفه فظهر فى عنقه وسام عظيم ساطع سرعان ما خطف جميع الأبصار تناول النقيب المعطف طيراناً ، وتنازل الطبيب فخلع قبعته . وقال يسأل بصوت مجلجل فيه شيء من تذمر :

— أين هو المريض ؟

٦

نضج مبكر

سأل كوليا متعجلاً :

— ما الذى سيقوله الطبيب فى رأيك ؟ يا له من سخ كريهة ! ألا ترى ذلك ؟ اننى أكره الطب .

فأجابه أليوشا بحزن :

— ايليوشا هالك . أظن أن لا شك فى هذا ، وأن نهايته قريبة .

— ياللسفلة ! الطب سفالة ! على أننى سعيد بأن قد أتيحت لى فرصة معرفتك يا كارامازوف . لقد تمنيت هذا منذ زمن طويل . ولكن يؤسفنى أن لقاءنا قد تم فى ظروف أليمة كهذه .

ودّ كوليا لو يقول شيئا فيه مزيد من الحرارة والعاطفة والانفعال ، ولكنه شعر بشيء من الحرج . وقد لاحظ أليوشا ذلك فشد على يده مبتسماً .

تمتم كوليا من جديد يقول مضطرباً مرتبكاً :

— لقد تعلمت منذ مدة طويلة أن أحترم فيك انساناً ذا مزايا أخلاقية نادرة . قيل لى انك صوفى وانك عشت فى الدير . واننى لأسلم بأن تكون صوفياً ، ولكن . . . هذا لم يصدنى عنك . . . ان الاتصال بوقائع الحياة سوف يشفيك . . . ذلك ما يحدث دائماً فى الطبائع التى تشبه طبيعتك .

سأله أليوشا بشيء من الدهشة :

— ماذا تعنى بقولك «صوفى» ؟ ومن أى شيء تريد لى أن أشفى ؟

— من أفكارك عن الله ، وهلم جرا . . .

— كيف ؟ أأنت لا تؤمن بالله ؟

— الحق أننى لا اعتراض لى على الله . صحيح أن فكرة الله ليست الا افتراضاً . . . ولكننى أعترف بأن الله ضرورى ، بل ولا غنى عنه للمحافظة على النظام . . . نظام الكون ، وهلم جرا . . . — ثم أضاف كوليا يقول وقد احمرّ وجهه فجأة اذا كان الله غير موجود ، فيجب أن نخترعه . . . — ذلك أن كوليا قد خطر بباله أن أليوشا ربما ظن أنه يحب أن يُظهره على معلوماته ، وأن يبرهن له على أنه يستطيع أن يناقش «كشخص كبير» . فقال كوليا لنفسه متضايقاً : «غير اننى لا أحب أبداً أن أعرض معلوماتى أمامه» . وشعر فجأة بحسرة شديدة . وقال يحسم الأمر :

— أعترف لك بأننى أكره المناقشات فى هذا الموضوع . ألا يمكن أن يحب المرء الانسانية دون أن يؤمن بالله ؟ ما رأيك ؟ لقد كان فولتير مثلا ، لا يؤمن بالله ، ومع ذلك كان يحب الانسانية . (وقال لنفسه باستياء : «أيضا ، أيضا !»)

قال أليوشا فى رفق ، بصوت هادئ طبيعى ، كما لو كان

يحادث واحداً من أترابه أو حتى شخصاً أكبر منه سناً :

— لقد كان فولتير يؤمن بالله ، ولكن يبدو أن ايمانه كان ضعيفاً ، وكان كذلك لا يحب الانسانية كثيراً .

دُهش كوليا كثيراً من تردد أليوشا هذا النوع من التردد فى الافصاح عن رأيه فى فولتير ، ومن هذه الطريقة فى مخاطبته وكأنما يترك له ، هو الصغير كوليا ، حلّ هذه المشكلة .

سأله أليوشا :

— بالمناسبة ، هل قرأت فولتير ؟

— لا ، لم أقرأه بتوسع . . يعنى . . . لكنى . . . قرأت «كانديد» فى ترجمة روسية ، ترجمة قديمة ، كريهة ، فظيعة» («أيضاً ! أيضاً !») .

— وهل فهمته ؟

— طبعاً . . . فهمت كل شىء . . . أقصد . . . لماذا تقدّر أننى قد لا أكون فهمته ؟ هناك فقرات كثيرة فاحشة طبعاً . . . أنا قادر أن أفهم أن هذه رواية فلسفية ترمى الى البرهان على فكرة — كذلك أسرع يضيف كوليا مرتبكاً ارتباكاً تاماً . ثم قال فجأة ، لا يدرى المرء لماذا : — أنا اشتراكى يا كارامازوف ، أنا اشتراكى عنيد . ضحك أليوشا وسأله مدهوشاً :

— اشتراكى ؟ متى اتسع وقتك لأن تصبح اشتراكياً ؟ أظن أنك لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرك ، أليس كذلك ؟

شعر كوليا بامتعاض شديد ، وقال يحتج بقوة :

— أولاً : ليس عمرى ثلاث عشرة سنة بل أربع عشرة . ثانياً : لست أفهم ما شأن عمرى هنا . الأمر الآن أمر آرائى لا عمرى ، أليس كذلك ؟

— حين تتقدم فى السن قليلاً ستدرك بنفسك أثر العمر فى

آراء الانسان . ثم انى أحس أنك تردد آراء سمعتها . . .

هكذا قال أليوشا بلهجة معتدلة متواضعة ، ولكن كوليا لم يدع له أن يتم كلامه ، لأنه صاح يقول متحمساً :

— مهلاً ! انك من انصار الخضوع والصوفية ! . ألا فاعترف أن الديانة المسيحية لم تنفع الا الأغنياء والأقوياء ، اذ سمحت لهم بابقاء الفقراء على حالة العبودية . هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

هتف أليوشا يقول :

— لحظة ! أنا أعرف أين قرأت هذه الجملة . لا شك انّ احداً قد علّمك ذلك .

— مهلاً ! لماذا تتصور أن أكون قد قرأت هذا الكلام حتماً ؟ ثم ان أحداً لم يدخلنى فى عقيدة من العقائد . أنا قادر على أن أفكر بنفسى . . . واعلم ، بالمناسبة أننى لا آخذ على المسيح شيئاً . ان المسيح انسان له آراء واسعة كريمة ، ولو عاش فى عصرنا لانضمّ الى الحركة الثورية ، ولربما قام فيها بدور مرموق . . . بل هذا مؤكد .

صاح أليوشا يسأله :

— من أين جئت بهذه الفكرة ناشدتك الله ؟ من هو ذلك الغبى الذى ارتبطت به ؟

— مهلاً انّ الحقيقة لا تخفى . أعترف لك بأننى كثيراً ما أتحدث مع السيد راكيتين فى قضية من القضايا ، ولكن . . . يقال أن بيلنسكى العجوز كان يقول هذه الاشياء نفسها .

— بيلنسكى ؟ لا أتذكر ذلك . وهو على كل حال لم ينشرها .

— اذا لم يكن قد نشرها ، فقد عبّر عنها فى أحاديثه ،

على ما يقال . سمعت ذلك من . . . ولكن يا للشيطان . . .

— هل قرأت بيلنسكى ؟

— الحق . . . لا . . . لم أقرأه كله . . . ولكنى قرأت كلامه عن تاتيانا* وكيف رفضت أن تذهب مع أونيجين .

— لماذا رفضت أن تذهب ؟ أأنت تفهم منذ الآن هذه الأشياء ؟

قال كوليا محتجاً وهو يبتسم ابتسامة غاضبة :

— أرجوك . . . انك تظننى ، كما يبدو ، صبياً صغيراً من نوع سموروف . لا يذهبنّ بك الظن ، على كل حال ، الى اننى ثورى متطرف . اننى كثيراً ما أختلف فى الرأى مع راكيتين . واذا ذكرت تاتيانا ، فلا تحسب أننى من أنصار تحرر المرأة . اننى أعترف بأن المرأة مرؤوسة وأن وظيفتها الخضوع — وأضاف كوليا يقول مبتسماً بلا سبب ظاهر . [1] Les femmes tricottent ، كما قال نابليون . ففى هذه النقطة على الأقل ، أشاطر ذلك الرجل الزائف العظمة رأيه كاملاً . واننى لأرى كذلك ، من جهتى ، أن الهجرة الى أمريكا هروباً من الوطن خسة ودناءة وصغار ، بل هى أكثر من ذلك أيضاً : هى حماقة وغباوة ! علام نسافر الى أمريكا فى حين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نفهمها فى بلادنا لنخدم الانسانية فى عصرنا هذا خاصة ؟ ليس يعوزنا العمل . هنالك عمل خصب يجب القيام به . ذلك ما أجبت به .

— ذلك ما أجبت به ؟ أجبت به مَنْ ؟ هل عرض عليك أحد ان تسافر الى أمريكا ؟

---

[1] النساء تحيك (بالفرنسية فى الأصل) .

— أعترف بأنهم حاولوا جرى الى ذلك ، ولكننى رفضت . يجب أن يبقى هذا سراً بيننا بطبيعة الحال . لا تقل عنه كلمة لأحد . مفهوم يا كارامازوف ؟ اننى لا أفضى بهذا السر الى أحد غيرك . لست أريد أن أقع بين أقدام أفراد «الشعبة الثالثة»* ، وأن أتلقى دروساً فى «جسر الجنازير» .

ستذكر المبنى الكبير
بقرب جسر الجنازير !

هل تتذكر هذا البيت من الشعر ؟ انه رائع . لماذا تضحك ؟ أتراك تظن أننى كذبت عليك تباهياً وافتخاراً ؟ (قال كوليا ذلك ، وهو يسائل نفسه بسرعة ولكن بقلق : «ماذا لو علم أننى لم أقرأ الا هذا العدد من مجلة «الناقوس»* ، الذى وجدته فى مكتبة أبى ، وأننى لا أعرف شيئاً آخر غيره فى ميدان الأدب الثورى ؟») .

قال أليوشا :

— لا ، لا ، لست أضحك ، ولم يخطر ببالى قط أنك كذبت علىّ . المصيبة هى أنك لا تكذب وأن هذه هى الحقيقة للأسف . قل لى الآن : هل قرأت بوشكين ؟ هل قرأت رواية «يفجينى أونيجين» ، أنت الذى تحدثت عن تاتيانا منذ لحظة ؟

— لا ، لم أقرأه بعد ، ولكننى أنوى أن أفعل . واعلم يا كارامازوف أننى لا أحمل أفكاراً مسبقة وأننى أريد أن أسمع الطرف الآخر أيضاً . لماذا ذلك السؤال ؟

— لا لشىء !

هتف كوليا يقول فجأة بصوت قاطع :

— قل لى يا كارامازوف : لا بد أنك تحتقرنى احتقاراً رهيباً !

وانتصب واقفاً أمام أليوشا مشدوداً متوتر الاعصاب ، وتابع كلامه يقول :

ـــ هيّا اعترف بذلك دون لف ولا دوران !

سأله أليوشا وهو ينظر اليه بدهشة :

ـــ أحتقرك ؟ لماذا عساى احتقرك ؟ كل ما هنالك أنه يحزننى أن تُفسد بمثل هذه السخافات طبيعةٌ جميلة كطبيعتك فى فجر حياتها .

قاطعه كوليا يقول وهو يشعر مع ذلك بشىء من الارتياح لهذا الثناء على طبيعته :

ـــ دعك من طبيعتى الآن . الواقع أننى موسوس ، أنا أعرف هذا . اننى موسوس بغباوة ، ببلاهة . لقد ابتسمت أنت منذ لحظة ، فتخيلت أنا أن . . .

ـــ ابتسمت لأسباب أخرى . سأشرح لك الأمر . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة انطباعات رجل أجنبى ، ألمانى ، عاش فى روسيا وعبّر عن رأيه فى شبيبة مدارسنا على النحو التالى : «لو أطلعت تلميذاً روسياً على خريطة للسماء ذات النجوم ، خريطة لم يسبق له أن رآها من قبل ، لأعادها اليك منذ الغد مصحّحة» : نقص كبير فى المعرفة وغرور شديد لا حدّ له ، هؤلاء هم تلاميذ مدارسنا فى رأى هذا الألمانى .

هتف كوليا يقول وهو يضحك مقهقهاً :

ـــ ولكن هذا صحيح كل الصحة ! هاهاها ! هذه هى الحقيقة صافية لقد أدرك عين الصواب . مرحى للألمانى ! ولكن هذا الرأس المربّع لم يستطع مع ذلك أن يرى مزايانا . اننى أسلّم بان فينا غروراً ؛ ولكن هذه آفة من آفات سن الشباب يُصلحها الزمن بمقدار ما يجب أن يصلحها . ونحن نملك فى مقابل

ذلك ميزة تتأكد فينا منذ الطفولة تقريبا ، هى ميزة استقلال الروح . نحن نملك جرأة الفكر والعقيدة ، على حين أنهم ، هم ، لا يعرفون تجاه أى سلطة الا عبودية كعبودية البقالين . . . ورغم كل شىء فان ذلك الألمانى قد رأى صواباً . مرحى للألمانى ! على أننى أظن أن من الواجب أن يُخنق الألمان . انهم فى حاجة الى أن يُخنقوا ، مهما يكونوا أقوياء فى العلوم .

سأل أليوشا مبتسماً :

ـــ لماذا تريد لهم أن يُخنقوا ؟

ـــ لعلنى قلت هراء ، اعترف لك بذلك . انه ليتفق لى فى بعض الأحيان أن أكون طفلاً على نحو فظيع ، وحين ابتهج أفقد سيطرتى على نفسى ، فأقول أنواعاً من السخافات . ولكننى ألاحظ أننا نثرثر هنا فى سفاسف بينما يبدو أن الطبيب تأخر هناك . على أنه ربما انتهز الفرصة ليفحص الأم فى الوقت نفسه ، وكذلك نينا الكسيحة . لقد أعجبتنى نينا هذه كثيراً ، هل تعلم ؟ حين خرجت دمدمت تقول لى بصوت خافت جداً : «لماذا لم تجىء قبل الآن ؟» . قالت ذلك بلهجة تزخر عتباً . يخيّل الىّ أنها طيبة جداً ، وأنها كذلك شقية جداً جداً .

قال أليوشا بكثير من الحرارة :

ـــ نعم نعم ، سوف ترى حين تعود اليهم أنها انسانة رائعة . انه ليفيدك كثيراً أن تتردد الى أناس مثلهم ، لكى تستطيع ان تقدّر تقديراً صحيحاً أشياء كثيرة أخرى ، أشياء ستظهر لك وتتجلى لبصيرتك من صحبة هؤلاء الناس . تلك أحسن وسيلة من أجل أن تتبدل .

هتف كوليا يقول بحرارة :

— لشدما يؤسفنى أننى لم أجىء قبل هذا الوقت ! اننى ألوم نفسى على ذلك .

— شىء مؤسف حقاً . لا بد أنك لاحظت كم سعد هذا الصغير المسكين بزيارتك . لشدما عذّبه انتظارك سُدى !

— لا تذكرنى بهذا . ذلك يعذب نفسى تعذيباً شديداً . هذه خطيئتى على كل حال . لقد تأخرت عن المجىء بدافع حب الذات ، بدافع الأنانية ، وكذلك بدافع روح الاستبداد هذه التى لا أفلح فى التخلص منها ، رغم الجهود التى بذلتها طوال حياتى . اننى أدرك الآن يا كارامازوف أننى وغد فى أمور كثيرة .

قال أليوشا بصوت يفيض عاطفة وحباً :

— بالعكس : انك شخصية رائعة ، رغم ما بها من فساد . اننى أفهم الآن جيداً جداً كيف استطعت أن تؤثر هذا التأثير الكبير فى ذلك الصغير المسكين الذى يملك روحاً نبيلة وحساسية مرضية .

هتف كوليا يقول :

— أأنت تقول هذا الكلام لى ؟ تصور أننى ظننت غير مرة ، منذ جئت الى هنا ، أنك تحتقرنى ! آه . . . ليتك تعلم مدى اهتمامى برأيك وحرصى عليه !

— أيمكن حقاً أن تكون مفرط الحساسية موسوساً الى هذه الدرجة ؟ أفى مثل سنك ؟ آ . . . لقد تصورت فيك هذا . منذ قليل ، فى الغرفة ، حين كنت أصغى الى الحكايات التى قصصتها ، قلت لنفسى : لا بد أن يكون هذا الفتى مفرط الحساسية موسوساً .

— أحزّرت اذن ؟ يا لنفاذ بصيرتك ! يا لقوة حدسك ! أعتقد أنك حزرت ذلك حين قصصت أنا حكاية الأوزة . لقد أحسست فى تلك اللحظة أنك احتقرتنى لتفاخرى بالمكر . وقد أخذت

اكرهك عندئذ ، وأخذت أطنب فى الحديث عامداً . وبعد ذلك — ونحن فى هذا المكان — أحسست بعد أن قلت عبارتى : «اذا لم يكن الله موجوداً فيجب أن نخترعه» ، أحسست أننى تسرعت كثيراً فى عرض معرفتى واظهار علمى ، لا سيما وأننى كنت قد قرأت هذه العبارة فى كتاب . . ولكننى أحلف لك على أننى ان سارعت الى اظهار معرفتى فما كان ذلك منى حباً بالظهور ، وانما صدر هكذا عفو الخاطر ، لا أدرى لماذا ، ولعله صدر عن فرح ، بل انه قد صدر عن فرح ، أى والله . . على أننى أعلم حق العلم أن من العار جداً أن يرتمى المرء على عنق الآخرين هكذا عن فرح . ولكننى مقتنع الآن بأنك لا تحتقرنى ، وأن الأمر كله كان من تصور خيالى وحده . آه . . . لو علمت مدى شقائى يا كارامازوف ! اننى أتخيل أحياناً ، لا يدرى الا الله لماذا ، أن جميع الناس يسخرون منى ، وانى لأشعر فى مثل تلك اللحظات بأننى مستعد لتحطيم كل ما هو موجود .

قال أليوشا مبتسماً :

— وأنت تعذب أهلك طبعاً .

— نعم ، ولا سيما أمى . قل يا كارامازوف : هل تجدنى مضحكاً جداً ؟

هتف أليوشا يقول :

— دعك من هذه التصورات ، دعك منها تماما ! وما هو المضحك على كل حال ؟ جميع الناس يكونون أو يبدون مضحكين فى بعض المناسبات . الحقيقة ان الأفراد الذين يملكون مواهب عالية ، فى هذا العصر ، يخشون أكثر ما يخشون أن يعدهم الناس مضحكين ، وهم أشقياء لهذا السبب . ولكن الشىء الذى يدهشنى هو أنك عانيت هذا الشعور فى هذه السن المبكرة ،

وان كنت قد أتيح لى أن ألاحظ هذه الأشياء نفسها لدى أشخاص آخرين . فالأطفال أنفسهم قد أخذوا فى أيامنا هذه يقاسون من هذا الخوف الغبى . يوشك ذلك أن يكون جنوناً . فى حب الذات هذا قد تجسّد الشيطان وتسلل الى الجيل كله . نعم . . الشيطان . . . — كذلك ردّد أليوشا غير مازح البتة كما توهم كوليا الذى كان ينظر اليه محدقاً . — أنت تشبه الآخرين فى هذه النقطة . أريد أن أقول انك تشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين الذين أصابهم هذا التشوه نفسه . صدقنى مع ذلك : ما ينبغى أن يشبه الانسان جمهرة الناس .

— نعم . حتى لو كان جميع الناس على هذه الشاكلة . كن مختلفاً ولو صرت وحيداً . الواقع أنك لا تشبه الآخرين : فانك لم تخجل منذ قليل أن تعترف بجوانبك السيئة وحتى بعيوبك المضحكة . فأى الناس يملك هذه الجرأة اليوم ؟ لا أحد يملكها ولا أحد يشعر بالحاجة الى أن يحكم على نفسه حكماً موضوعياً . فلا تردد اذن فى أن تتميز عن جمهرة الناس . لا تكن كسائر اولئك الملأ ، ولو أمسيت وحيداً فى نوعك . كن على غير شاكلتهم .

— ما أروع هذا الكلام الذى تقوله لى ! اننى لأدرك الآن أن ظنى فيك لم يخطئ . انك قادر على أن تعزى وتواسى . آه يا كارامازوف ، لطالما انتظرت التعرف اليك ! لقد ترقبت فرصة لقائك زمناً طويلاً ! هل صحيح أنك أردت أن تتعرف الىّ أيضاً؟ لقد قلت منذ قليل انك فكرت فىّ .

— نعم ، سمعت عنك وفكّرت فيك . . . هب حب الذات هو الذى أوحى اليك بذلك السؤال ، فأى ضير فى هذا ؟

قال كوليا بصوت أضعفه الانفعال اضعافاً غريباً وكأن فيه

حياء :

— هل تعلم يا كارامازوف أن حديثنا هذا يشبه مصارحة غرام . أليس هذا مضحكاً ، مضحكاً جداً ؟

أجاب أليوشا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة :

— البتة ! وهبه مضحكاً ، فأى بأس فى ذلك ، ما دام الحديث على هذا النحو ممتعاً هذه المتعة ، عذباً هذه العذوبة ؟

— اعترف يا كارامازوف أنك أنت أيضاً تشعر الآن ببعض الخجل من وجودك معى . . . . اننى أقرأ هذا فى عينيك .

كذلك قال كوليا وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تشبه أن تكون سعيدة .

— ممّ عسانى أخجل ؟

— اذن لماذا احمرّ وجهك ؟

صاح أليوشا يقول ضاحكاً :

— أنت تجعل وجهى يحمرّ .

واصطبغ وجهه فعلاً بحمرة شديدة . ثم تمتم يقول شبه مرتبك :

— طيب . . . أشعر ببعض الخجل ، لا يدرى الا الله لماذا . أنا نفسى لا أعرف السبب .

هتف كوليا يقول فى سورة من حماسة ، وقد اشتعل خداه وسطعت عيناه :

— ما أعظم ما أحبك وأحترمك فى هذه اللحظة ، لأنك تشعر بخجل معى ! ذلك أنك تشبهنى . . .

قال أليوشا فجأة دون أن يدرى لماذا :

— اصغ الىّ يا كوليا : لا شك أنك ستشقى كثيراً فى هذه الحياة .

فقال كوليا يؤيد كلامه :

— اعرف ذلك . ما أصدق تنبؤك بالمستقبل !

— مع ذلك سوف تحب الحياة .

— صحيح ، صحيح ! مرحى ! انك نبى ! نحن متفاهمان يا كارامازوف . وما يعجبنى خاصة فيك هو أنك تخاطبنى مخاطبة الند للند ، مع أننا لسنا ندين متكافئين ، لا لا ، فأنت أعلى منى ! ولكننا سنتفاهم . طوال الشهر الماضى ، ظللت أقول لنفسى : «إما أننا سنصبح صديقين منذ اللحظة الأولى والى الأبد ، واما أننا سنصبح عدوين منذ الكلمات الأولى وحتى الممات !»

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة فرحة :

— منذ قلت لنفسك هذا الكلام ، كنت تحبنى ، هذا أكيد .

— كنت أحبك ، كنت أحبك حباً رهيباً ، آه . . . نعم . . . وكنت أحلم بك ! ماذا تفعل حتى تعلم الغيب هذا العلم ؟ هه . . . هذا هو الطبيب . . . ترى ما الذى سيقوله لنا ؟ انظر الى تعبير وجهه !

٧

إيليوشا

فى تلك اللحظة خرج الطبيب من الغرفة مرتدياً فراءه واضعاً قبعته على رأسه . كان وجهه يعبر عن الامتعاض والاحتقار ، كأنه كان يخشى أن يتسخ من ملامسة شىء ما . ألقى على الدهليز

نظرة خاطفة ، ثم حدّق الى أليوشا وكوليا بصرامة . أشار أليوشا للحوذى من الباب ، فاقتربت العربة التى أقلت الطبيب ، من مدخل البيت . ولكن فى تلك اللحظة هرع النقيب ليدرك الطبيب ، فانحنى له انحناءة كبيرة ، ثم رجاه متذللاً معتذراً ، أن يسمح له بحديث أخير معه .

بدأ فقال :

— يا صاحب السعادة ، يا صاحب السعادة . . . أهذا ممكن ؟

ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، واكتفى بأن عقف يديه يأساً ، وهو يلقى على الطبيب نظرة ضراعة قصوى ، كأن الأقوال التى سيتفوه بها الطبيب يمكن أن تبدل الموت المحكوم به على ابنه المسكين .

أجاب الطبيب يقول فى اهمال ، بصوتٍ تخالطه مع ذلك لهجة التسلط والاستبداد المعهودة فيه :

— لا حيلة لى فى الأمر أنا لست الهاً . . .

— دكتور . . . يا صاحب السعادة . . . هل هذا وشيك ، هل هو وشيك ؟

أجاب الطبيب وهو ينطق بأحرف كلامه نطقاً واضحاً :

— كونوا مستعدين لكل شىء .

ثم خفض عينيه وسار خطوة فى اتجاه العربة .

قال النقيب مروّعاً وموقفاً الدكتور من جديد :

— يا صاحب السعادة ، ناشدتك يسوع المسيح . . . هل يمكن حقا أن لا يكون هناك أى شىء ، أى شىء يستطيع انقاذه بعد الآن ؟

أجاب الطبيب يقول نافد الصبر :

— هذا لا يتوقف علىّ الآن .

ثم استدرك يقول وهو يتوقف لحظة :

— هم . . . ومع ذلك . . . اذا كنتم تملكون مثلاً أن ترسلوا مريضكم ، فوراً ، دون ابطاء (وقد نطق الطبيب قوله «فوراً ، دون ابطاء» لا بقسوة فحسب ، بل بما يشبه الغضب أيضاً ، حتى ان النقيب ارتعش) ، الى سيراكوز . . . فمن الجائز أن تستطيع الظروف المناخية الملائمة أن تحدث بعض التغيير ، ولكن . . .

هتف النقيب يقول وقد بدا عليه أنه لم يفهم :

— الى سيراكوز ؟

فتدخل كوليا يقول بصوت رنان يشرح الأمر ، فنظر اليه الدكتور :

— سيراكوز هى فى جزيرة صقلية .

فصاح النقيب يقول وقد اضطرب اضطراباً تاماً :

— فى جزيرة صقلية ؟

ثم أضاف يقول وهو يحرك يديه بحركة دائرية عريضة ليشير الى فقر مسكنه :

— أما رأيت اذن ؟ وامرأتى ، وأسرتى ؟ ما الذى يصيرون اليه ؟

— لا ، لا ، لن يكون على الأسرة أن تذهب الى صقلية . أرسل أسرتك الى القفقاس فى بداية الربيع . . . يجب أن تقيم ابنتك زمناً فى منطقة القفقاس . . . أما زوجتك فلن تعالج هنالك الا مدة قصيرة فى مركز من مراكز المياه الحارة لتشفى من اوجاع الروماتزم . . . ثم يكون عليك بعد ذلك أن ترسلها فوراً الى باريس ، الى عيادة الدكتور لابولوتيبه للامراض العقلية . وفى امكانى أن

أزودك بكلمة اليه . . . ان من الجائز أن تتحسن حالتها بعض التحسن . . .

عاد النقيب يقول وهو يلوّح بذراعيه يائساً ، ويشير الى ألواح الخشب العارية التى تتألف منها جدران مسكنه :

— دكتور ، دكتور ، رأيت بعينيك !

فقال الطبيب وهو يضحك ضحكة صغيرة :

— هه . . . ليس هذا شأنى أنا . أنا لم أزد على أن ذكرت لك ، فى الاجابة عن سؤالك ، ما يستطيع العلم أن ينصح بالقيام به محاولة أخيرة بعد اليأس . . . أما فيما عدا ذلك . . . فأنا آسف ولكن . . .

— لا تخف ، أيها «المداوى» ، لن يعضك كلبى .

كذلك قال كوليا فى صخب وقد لاحظ النظرة القلقة التى القاها الطبيب على «برزفون» المرابط فى العتبة .

كان صوت كوليا يرتعش غضباً ، وقد تعمد أن يسميه باسم «المداوى» بدلا من اسم «الطبيب» ، اهانة له ، كما شرح ذلك فيما بعد .

قال الطبيب وهو يرفع رأسه ويحدق الى أليوشا مدهوشاً :

— كيف ؟

ثم أضاف يسأل أليوشا فجأة ، كأنه يطلب منه تفسيراً لقلة الأدب هذه :

— من ؟ ماذا ؟ عمن يتكلم !

فقال كوليا من جديد ، مشدّداً على كلماته :

— أنا صاحب «برزفون» . لا تهتم بشخصى أيها المداوى .

قال الطبيب ولم يفهم من ذا الذى يسمى بهذا الاسم :

— «برزفون» ؟ أى «برزفون» ؟

30-1306

— «برزفون» ، «برزفون» ، أى غرابة فى هذا ؟ الى اللقاء أيها المداوى ، سوف نلتقى مرة أخرى فى سيراكوز .

استشاط الطبيب غيظاً ، فانفجر يقول على حين فجأة :

— من هذا الـ . . . من هذا . . . الوقح ؟

فقال أليوشا بسرعة وهو يقطب حاجبيه :

— هو تلميذ من هنا يا دكتور . انه هازل ، فلا تلق اليه بالاً .

وصاح أليوشا يخاطب كوليا قائلاً له :

— اسكت يا كوليا .

ثم عاد يخاطب الطبيب بشىء من نفاد الصبر فى هذه المرة :

— لا تلق اليه بالاً يا دكتور .

فأعول الطبيب يقول وهو يضرب الأرض بقدميه حانقاً مسعوراً :

— انه يستحق السوط ، الـ . . . سـ . . . وط ! يجب تأديبه !

اصفر وجه كوليا ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال للطبيب بصوت مرتعش .

— هل تعلم أيها المداوى أن كلبى «برزفون» يستطيع أن يعض ؟ تعال يا «برزفون» !

فصرخ أليوشا يقول له بلهجة صارمة :

— اذا قلت كلمة واحدة أخرى ، فهذا فراق بينى وبينك !

— اعلم أيها المداوى أن هناك شخصاً واحداً فى هذا العالم يستطيع أن يأمر نيقولاى كراسوتكين . هو هذا الرجل .

قال كوليا ذلك وهو يومئ الى أليوشا . — وانى اطيعه .

وداعاً !

ثم اتجه فجأة نحو الباب ودخل الغرفة . واندفع «برزفون» وراءه .

لبث الدكتور جامداً زهاء خمس ثوان ، كأنما قد استبد به ذهول ، وهو ما يزال شاخصاً ببصره الى أليوشا . ثم بصق على الأرض ، وتقدم الى جهة العربة بخطى سريعة وهو يردد بصوت عال :

— عجيب ، عجيب ، عجيب ، عجيب !

أسرع النقيب يساعده فى ركوب العربة . أما أليوشا فقد تبع كوليا ودخل الغرفة . كان كوليا واقفاً عند سرير ايليوشا . فتناول ايليوشا يده ، ونادى أباه ، فما هى الا دقيقة حتى عاد الأب .

— بابا ، بابا ، تعال الى هنا . . . نحن . . .

كذلك تمتم يقول ايليوشا فى اضطراب شديد .

ثم لم يقو على اتمام كلامه ، فدفع ذراعيه الناحلتين الى أمام ، وطوق بهما أباه وكوليا معاً فى حركة متشنجة ، وضم أحدهما الى الآخر بعناق واحد ، شاداً جسمه اليهما شداً قوياً .

فأخذ النقيب عندئذ ينشج نشيجاً صامتاً . أما كوليا فأخذت شفتاه وذقنه ترتعش .

أنّ ايليوشا يقول بلهجة مرة :

— بابا ، بابا ، ما أشد ألمى عليك !

قال النقيب متمتما :

— بنىّ ايليوشا . . . ملاكى . . . قال الطبيب انك . . . ستشفى . . . وسنسعد جميعاً . . .

— بابا ، أنا أعرف ماذا قال لك الطبيب الجديد عنى ! . . . فهمته من النظر اليه !

وشدّ اليه أباه وكوليا من جديد ، بكل قواه ، مسنداً وجهه الى كتف النقيب .

— بابا ، بابا ، لا تبك . . . حين سأموت ستأخذ صبياً آخر ، صبياً طيباً صغيراً تختاره من بين أحسن من ستعرف من صبيان ، وتسميه باسم ايليوشا مثلى ، وتحبه كما تحبنى . . .

صرخ كراسوتكين يقول له بصوت يشبه أن يكون غاضباً :

— لا تقل سخافات يا صاحبى ! ستشفى !

وتابع ايليوشا كلامه فقال :

— أما أنا يا بابا ، فلا تنسنى أبداً ، تعال الى قبرى زائراً . اسمع يا بابا : أريد أن تدفننى قرب تلك الصخرة الكبيرة التى كنا نتجه اليها أثناء نزهاتنا . وزرنى هناك مساء فى صحبة كراسوتكين . . . ومع «برزفون» أيضاً . . . سأنتظركم هنالك . . . بابا ، بابا !

اختنق صوت ايليوشا . ظل الثلاثة متعانقين صامتين . وفى مقعدها ، كانت نينا تبكى بكاء رفيقاً . واذ لاحظت الأم أن الجميع يسكبون الدموع ، انفجرت تبكى هى أيضاً ، وصاحت تنادى :

— صغيرى ايليوشا ، صغيرى ايليوشا !

انسل كراسوتكين من عناق ايليوشا بغتة ، وقال يشرح بسرعة :

— الى اللقاء يا صاحبى . أمى تنتظرنى على الغداء . من المؤسف أننى لم أنبئها . لسوف تقلق الآن . . . على أننى ساجىء اليك بعد الغداء ، وسأمكث معك طول النهار ، وطول المساء

أيضاً . سأقص عليك حكايات كثيرة . سأرجع مع «برزفون» . أما الآن فسأصطحبه ، والا أخذ ينبح فأزعجك . الى اللقاء !

وهرول الى الدهليز . كان يبذل جهداً من أجل أن لا يبكى . ولكن دموعه تفجرت فى الدهليز . وعلى هذه الحال انما وجده أليوشا . قال له أليوشا ملحاً :

— كوليا ، عليك أن تفى بعهدك قطعاً ، وأن تعود كما وعدته ، والا حزن حزناً شديداً .

— سأرجع حتماً . آه . . . لشدّ ما يحزننى أننى لم أجىء قبل الآن .

كذلك تمتم يقول كوليا باكياً ، دون أن يشعر بخجل من البكاء فى هذه المرة .

وفى تلك اللحظة خرج النقيب من الغرفة كالمجنون ، وأغلق الباب وراءه بسرعة . كان فى وجهه تعبير غريب ، وكانت شفتاه تختلجان . وقف أمام الشابين ، ورفع ذراعيه فى الهواء ، ودمدم يقول زائغ النظرة تائه الهيئة صارفاً بأسنانه :

— لا أريد صبياً صغيراً طيباً . . . لا أريد صبياً آخر ! ألا فليُعقل لسانى اذا نسيتك يا أورشليم . . . .

وتوقف عن الكلام فجأة كأنما قد خنقه الانفعال ، وتهاوى على الأرض راكعاً امام الدكّة الخشبية ، وأمسك رأسه بيديه المقبوضتين وأخذ يبكى مطلقاً أنات مشوّشة ولكن محاولاً أن يخنقها حتى لا يسمعه أحد فى الغرفة .

هرع كوليا الى الشارع . وصاح يقول لأليوشا بصوت جاف غاضب :

— الى اللقاء يا كارامازوف ! هل تأتى أنت أيضاً ؟

— سأجىء هذا المساء حتماً .

ـــ ماذا أراد أن يقول حين تكلم عن أورشليم ؟ ما معنى هذا ؟

ـــ هذه آية من الكتاب المقدس «اذا نسيتك يا أورشليم» ، معنى هذا : اذا نسيت ما هو عندى أعز شيء وأغلاه ، اذا خنت من ذكرياتى أقدسها ، فلتنزل علىّ عندئذ . . .

ـــ كفى ! فهمت ! لا تنس أن تجيء أنت أيضاً . تعال يا «برزفون» !

كذلك صاح كوليا ينادى الكلب بصوت حانق ، واتجه نحو بيته بخطى واسعة .

الباب الحادى عشر

الأخ ايفان فيدوروفتش

١

عند جروشنكا

اتجه أليوشا نحو ميدان الكاتدرائية حيث يقع منزل التاجرة موروزوفا . كان أليوشا ذاهباً الى عند جروشنكا . لقد أرسلت اليه جروشنكا ، فى ساعة مبكرة من الصباح ، خادمتها فينيا ، ترجوه ملحة أن يجيء اليها . وقد علم من سؤال فينيا أن المرأة الشابة تعانى منذ الليلة البارحة قلقاً جديداً قوياً . وكان أليوشا ، خلال هذين الشهرين اللذين أعقبا اعتقال دمترى ، قد زارها مراراً ، تارة من تلقاء نفسه ، وتارة بطلب من ميتيا . وكانت جروشنكا قد مرضت مرضاً شديداً بعد حبس ميتيا بثلاثة أيام ، وظلت تعانى من المرض حوالى خمسة أسابيع ؛ حتى لقد لبثت فى الأسبوع الأول فاقدة وعيها . وقد تبدلت ملامح وجهها تبدلاً كبيراً أثناء ذلك الوقت ، فاصفرت ونحلت ، وان تكن قد أصبحت قادرة على الخروج منذ ما يقرب من خمسة عشر يوماً . على أنها صارت فى نظر أليوشا أعظم جمالاً وفتنة ، وكان أليوشا يحب كثيراً أن يلتقى بنظرتها حين يجيء اليها . ان شيئاً ما فى تعبير عينيها قد غدا أقوى ثباتاً وأكثر ترويا وتأملاً . ان المرء يلاحظ فيها نوعاً من تبدل روحى ، ونوعاً من عزيمة راسخة ، وان تكن هذه العزيمة تشتمل

على اذعان وهدوء . ان غضناً قصيراً عمودياً يرتسم الآن على جبينها بين الحاجبين فيسبغ على وجهها الرقيق معنى التأمل العميق ، ويضفى عليه تعبيراً يشبه أن يكون قسوة فى الوهلة الأولى . لم يبق هنالك ، فى الظاهر ، أثر لما كان يرى فيها من خفة وطيش . ومع ذلك كان يُدهش أليوشا أنها لم تفقد مرحها الفتى رغم النازلة التى ألمت بهذه المرأة المسكينة ، رغم اعتقال الرجل الذى تحبه ، رغم حبس هذا الرجل فى اللحظة التى أوشكت أن تصبح فيها خطيبته ، رغم اتهامه بجريمه خطيرة ، وكذلك رغم مرضها الذى أعقب ذلك ، ورغم قرب حكم المحكمة المحتوم . وان عينيها اللتين كان فيهما كثير من الكبرياء فى الماضى ، يلوح فيهما الآن استسلام وادع وخضوع هادئ وان كان يتفق من حين الى حين أن يسطع فى نظرتها لهيب شرير ، ولا سيما فى اللحظات التى يراودها فيها ذلك الهم القديم الذى لم يهدأ فى قلبها أثناء تلك المدة . بل كان يشتد ويقوى بغير انقطاع . ان موضوع هذا الهم الأليم ما يزال هو نفسه : انه كاترينا ايفانوفنا التى كثيراً ما ذكرت جروشنكا اسمها حتى فى هذيانها أثناء المرض . كان أليوشا يدرك أن جروشنكا تغار من هذه المرأة على ميتيا غيرة رهيبة ، رغم أن كاترينا ايفانوفنا لم تزر ميتيا فى السجن مرة واحدة ، كما كان فى وسعها أن تفعل ذلك بغير عناء فى كل آن . وكان ذلك كله يضع امام أليوشا مهمة صعبة ، لأن جروشنكا لا تفضى بآلامها وتباريحها الا اليه ، وما تنفك تسأله المشورة والنصح ، وهو فى بعض الحالات لا يدرى بم يجيبها ، وماذا يقول لها .

لذلك كان أليوشا مهموماً مغموماً حين دخل مسكنها . كانت جروشنكا فى بيتها ، قد رجعت من السجن منذ نصف ساعة .

وأدرك أليوشا ، من الحركة السريعة التى قامت بها لتنهض عن مقعدها خلف المائدة وتهب الى لقائه ، أنها كانت تنتظره نافدة الصبر . وكان هنالك على المائدة ورق لعب أعدّ لشخصين للعبة العبيط . ان أريكة الجلد التى كانت فى الجهة الأخرى من المائدة قد أحيلت الأن سريراً ، وها هو ذا العجوز ماكسيموف ، الضعيف المريض ، ولكن على تبسم متكلف وتلطف متصنع ، يرقد على هذا السرير نصف رقاد ، مرتدياً روباً منزلياً ، واضعاً على رأسه طاقية . ان هذا العجوز الذى ليس له مأوى لم يترك جروشنكا منذ عودتهما من موكرويه قبل شهرين ، وهو يعيش فى بيتها منذ ذلك الحين . لقد رجعا من موكرويه معاً فى المطر والوحل ، فلما وصلا الى مسكنها كان البرد قد نفذ فى جسمه حتى العظام ، وكان يقاسى هلعاً شديداً ورعباً رهيباً ، فما ان دخلا المسكن حتى جلس على الاريكة وأخذ يحدّق الى المرأة الشابة صامتاً ، وهو يبتسم ابتسامة ذليلة متوسلة ضارعة . وكانت جروشنكا عندئذ مصعوقة من المصيبة التى نزلت بها ، وكانت ترتعد من الحمى منذ تلك اللحظة ، فنسيت وجود ماكسيموف خلال نصف الساعة الأولى ، مشغولة باصدار أوامرها الى خدمها . ثم نظرت اليه نظرة ثاقبة ، فضحك العجوز ضحكة صغيرة تثير الشفقه وتبعث على الرحمة فنادت عندئذ فينيا ، وأمرتها ان تقدم للعجوز طعاماً . وظل العجوز طوال ذلك النهار لا يتحرك من مكانه ، حتى اذا هبط الليل ، وأغلقت النوافذ ، سألت فينيا مولاتها :

— هل سيبيت الليلة هنا يا سيدتى ؟

فأجابتها جروشنكا قائلة :

— نعم ، اعدى الأريكة سريرا له .

وحين سألت جروشنكا العجوز بعد ذلك ، علمت أنه أصبح

لا يعرف الآن الى أين يأوى ، لأن «السيد كالجانوف ، المحسن اليه ، قد أعلن له جازماً أنه لن يستقبله بعد الآن فى بيته ، وأعطاه خمسة روبلات زاداً» .

فقالت له جروشنكا بحزن وهى تبتسم ابتسامة شفقة وعطف : «اذن فابق هنا والله يرعاك» . فارتعش المسكين لهذه الابتسامة من شدة الانفعال ، واختلجت شفتاه فى نشيج مخنوق اعترافاً بالجميل . ولم يتركها بعد تلك اللحظة حتى أثناء مرضها فوجد الطفيلى التائه فى بيتها مأوى . ولم تطرده فينيا ووالدتها طباخة جروشنكا ، بل ظلتا تطعمانه وترتبان له سريره على الأريكة . حتى ان جروشنكا ألفت وجوده بعد ذلك واعتادته ، فكانت اذا رجعت من زيارة لميتيا (وقد أخذت تزور ميتيا منذ بداية نقاهتها قبل أن تبلّ من مرضها تماماً) ، جلست الى جانب «ماكسيموشكا» ، وأخذت تثرثر معه فى سفاسف وترهات ، حتى تطرد حزنها وحتى لا تفكر فى شقائها . وقد اتفق أن كان العجوز يحسن قصّ الحكايات الشيّقة فى المناسبات ، فاذا هو يصبح حاجة لا غنى لها عنها . وكانت جروشنكا لا تكاد تستقبل أحداً عدا أليوشا الذى كان مع ذلك لا يزورها كل يوم ، ولا يمكث عندها الا قليلاً . أما صاحبها التاجر العجوز فقد كان فى تلك الفترة مريضاً مرضاً شديداً ، وكان ملازماً فراشه . كان «بسبيل أن يرحل» ، على حد تعبير سكان المدينة . وقد مات فعلاً بعد محاكمة ميتيا بأسبوع واذ أحسّ بقرب نهايته ، فقد أمر قبل موته بثلاثة أسابيع أن يصعد اليه ابناؤه وزوجاتهم وأولادهم وأن لا يبتعدوا عن سريره ، وفى الوقت نفسه أصدر أوامره الى خدمه بأن لا يستقبلوا جروشنكا فى بيته ، وأن يبلغوها ما يلى اذا هى جاءت : «ان مولانا يأمر بان تعيشى فى السعادة والفرح زمناً طويلاً ، وأن تنسيه نسياناً

تاماً» . ومع ذلك كانت جروشنكا ترسل من يسأل عن أخباره كل يوم تقريباً .

حين دخل أليوشا على جروشنكا ، رمت ورق اللعب ، ومدت اليه يدها فرحة وهى تصيح :

— هانت ذا أخيراً ! ان «ماكسيموشكا» هذا المسكين كان يتسلى بتخويفى زاعماً أنك لن تجىء . ليتك تعرف مدى حاجتى اليك ! اجلس الى المائدة . ماذا تريد ؟ قهوة ؟

أجاب أليوشا وهو يجلس قرب المائدة :

— بسرور . اشعر بجوع شديد .

— عظيم ! فينيا ، هاتى قهوة بسرعة ! ان الماء يغلى منذ مدة طويلة . أمرت باعداده خصيصاً لك . فينيا ، هاتى فطائر باللحم أيضاً ، ولتكن ساخنة جداً . هل تعلم يا أليوشا أنه قد وقعت لى اليوم قصة رهيبة مع هذه الفطائر ؟ حملتها له الى السجن فردّها الىّ بخشونة ، ورفض أن يمسها ، هل تصدق ؟ حتى لقد رمى احداها على الأرض ثم داسها بقدمه . قلت له : «سأتركها عند الحارس ، فاذا لم تأكلها حتى المساء ، كان معنى ذلك ان الغضب الشرير هو الذى يطعمك» ، قلت له ذلك وانصرفت . فهأنت ذا ترى أننا تشاجرنا مرة أخرى . كلما زرته انتهينا بمشاجرة .

كانت جروشنكا تتكلم متعجلة وهى فريسة انفعال شديد . وسرعان ما فقد ماكسيموف طمأنينته وابتسم غاضاً بصره .

سألها أليوشا :

— ولأى سبب تشاجرتما اليوم ؟

— لسبب ما كان لى حقاً أن أتوقعه . تصور أنه أصبح يغار من «القديم» . لقد سألنى : «لماذا تعطينه مالاً ؟ أأخذت

اذن تعيلينه ؟» . هى الغيرة ، الغيرة دائماً . انه يغار حين يأكل ، حين ينام . حتى لقد أقام الدنيا وأقعدها فى الأسبوع الماضى ، بصدد العجوز كوزما .

— ولكنه كان يعلم بوجود «القديم» !

— طبعاً كان يعلم بوجوده . كان على علم بهذه العلاقة منذ البداية ، وها هو ذا يأخذ يهيننى اليوم فجأة لهذا السبب . اننى لأستحى أن أردد على مسمعك ما قاله لى صارخاً . يا له من أحمق ! وقد جاء راكيتين يزوره حين انصرفت . من يدرى ؟ لعل راكيتين هذا هو الذى يثيره علىّ .

ثم أضافت تقول ذاهلة :

— ما رأيك ؟

— رأيى أنه يحبك ، يحبك كثيراً . ولكن أعصابه ثائرة الآن .

— من حقه أن تكون أعصابه ثائرة ، ما دام سيحكم عليه غداً . وذلك بعينه هو السبب الذى من أجله أردت أن أزوره اليوم ، لأحدثه عن يوم الغد هذا . تقول لى انه ثائر الأعصاب . أفليس من حقى أن أكون ثائرة الأعصاب أنا أيضاً ؟ ثم هو يحدثنى عن ذلك البولندى . . . يا له من أحمق ! الحمد لله على أنه لا يغار من ماكسيموشكا أيضاً !

هنا تدخل ماكسيموف قائلاً :

— كانت زوجتى تغار علىّ كثيراً .

فأجابته جروشنكا ضاحكة رغم ارادتها :

— عليك أنت ؟ دعك من هذا الكلام ! ممن يمكن أن تغار عليك ؟

— من الخادمات .

— اسكت يا ماكسيموشكا ، لست اليوم فى مزاج يمكننى من الضحك . ان غضباً شديداً قد استحوذ على نفسى . أما القطائر ، فليس يجديك أن تنظر اليها بنهم . . . لن تصيب منها شيئاً . ان أكلتها آذتك . ولن أعطيك خمراً كذلك . هأنا ذى مضطرة الى العناية بهذا المسكين أيضاً . ألا يمكن أن يقال ان بيتى أصبح ملجأ خيرياً للبر والاحسان ؟

كذلك قالت جروشنكا ضاحكة .

فأجاب ماكسيموف بصوت واهن متباك :

— أنا لست أهلاً لاحسانك . أنا انسان تافه لا قيمة لى . الأولى أن تغدقى مساعداتك على من قد يكونون أحوج اليها منى .

— ما من أحد ليس بنافع فى هذا العالم يا ماكسيموشكا . هل يعلم المرء فى الواقع الى من يحتاج أو لا يحتاج . ان ذلك البولندى يقع الآن على عاتقى كذلك يا أليوشا . تصور أنه مرض اليوم هو أيضاً . وقد زرته . نعم ، سأرسل اليه القطائر عامدة ، عامدة . لم يكن يخطر هذا ببالى . ولكن ميتيا اتهمنى بأننى أرسلت اليه قطائر . لذلك سأرسل اليه منها اليوم قصداً ، قصداً . هه ! هذه فينيا تجىء برسالة . هى رسالة من البولنديين . لا شك انهما يطلبان مالاً من جديد !

صدق ظن جروشنكا . ان البان موزيالوفتش يرسل اليها رسالة تبلغ مبلغاً عظيماً من الطول والتصنع على عادته ، وفيها يرجو أن تقرضه ثلاثة روبلات ، ضاماً الى الرسالة سنداً بالمبلغ يتعهد فيه برد المال فى غضون ثلاثة أشهر ، مذيلاً السند بتوقيعه وتوقيع البان فروبلفسكى أيضاً . وكانت جروشنكا قد تلقت قبل ذلك من صاحبها «القديم» عدداً كبيراً من مثل هذه السندات . بدأ ذلك عند شفائها منذ أسبوعين ، ولكن جروشنكا علمت أن

«البانين» قد جاءا يسألان عن صحتها مراراً . كانت الرسالة الأولى التى أرسلها البولندى طويلة ، قد كتبها على ورقة كبيرة وختمها بخاتم كبير يحمل شعار نسب أسرته . وكان مضمون الرسالة غامضاً جداً ومتصنعاً جداً ، فلم تستطع جروشنكا أن تقرأ الا نصفها ثم رمتها دون أن تفهم منها شيئاً . ثم انها كانت فى تلك الآونة لا تعبأ كثيراً بما قد يُكتب اليها ! وفى الغد أتبعت تلك الرسالة برسالة أخرى يرجوها فيها البان موزيالوفتش بأن تسلفه ألفى روبل ، متعهداً بالسداد بعد فترة وجيزة ، ولم ترد جروشنكا لا على الرسالة الأولى ولا على الرسالة الثانية . ثم تتالت رسائله كل يوم ، يكتبها دائماً بلهجة فيها كثير من الجد والاحتفال . ولكن المبلغ الذى يلتمس ان تقرضه اياه ينخفض شيئاً بعد شىء ، فيهبط الى مائة روبل ، ثم يهبط الى خمسة وعشرين روبلاً ، ثم الى عشرة روبلات . واخيرا تلقت جروشنكا رسالة جديدة يرجوها فيها البانان أن تسلفهما روبلاً واحداً . وقد ضمّا الى الرسالة سنداً وقعاه كلاهما . عندئذ شعرت جروشنكا بشىء من الشفقة . ومضت تزور البان عند الغسق ، فاذا هى تجد البولنديين فى عوز يشبه أن يكون تاماً ، فلا طعام ولا تدفئة ، ولا سجائر ، وهما فـــوق ذلك مدينان لصاحبة البيت التى يسكنان عندها . ان المائتى روبل التى ربحاها فى موكرويه من اللعب بالورق مع ميتيا قد ذابت بسرعة . وما كان أشد دهشة جروشنكا حين رأت البانين يستقبلانها استقبالاً فيه كثير من التعاظم والادعاء ، مهتمين أشد الاهتمام بقواعد الكياسة الاجتماعية ، مسترسلين فى كلام متفخم متنفخ . لم تزد جروشنكا عندئذ على أن ضحكت من تكلفهما ، ثم أعطت صاحبها «القديم» عشرة روبلات . وقد قصت هذا المشهد على ميتيا فى ذلك اليوم نفسه ضاحكة ، فلم يخطر ببال ميتيا

يومئذ أن يغار . غير أن البانين قد تشبثا منذ ذلك الحين بجروشنكا ، وأصبحا يمطرانها كل يوم برسائل يضرعان اليها فيها أن تمدهما بمعونة مالية . فكانت ترسل اليهما فى كل مرة مساعدات ضئيلة . ولكن ها هو ذا ميتيا يظهر اليوم غيرة ضارية .

قالت جروشنكا مضطربة بعض الاضطراب :

— شاءت غباوتى أن أزوره اليوم عابرة ، بضع دقائق ، قبل أن أذهب الى ميتيا ، لأنه مرض هو صاحبى «القديم» أيضاً ، وقد قصصت ذلك على ميتيا ضاحكة . قلت له : «تصور أن صاحبى البولندى قد أخذ يغنى لى أغانيه القديمة عازفاً على القيثارة ، آملاً أن يؤثر فى نفسى وأن يردّنى اليه» . فاذا بميتيا يثب فجأة ، ويأخذ يرشقنى باهانات فظيعة . . . يميناً لأرسلن للبولنديين فطائر ! يا فينيا ، أظن أنهما بعثا بتلك الصبية من جديد ، أليس كذلك ؟ فاعطيها ثلاثة روبلات لهما ، وحمّليها كذلك عشر فطائر ملفوفة بورق . أما أنت يا أليوشا ، فأريد حتماً أن تروى لميتيا اننى أرسلت اليهما فطائر .

قال أليوشا مبتسماً :

— لا ، لن أروى له ذلك ابداً .

قالت جروشنكا بمرارة :

— دعك من هذا الكلام ! أتتخيل أنه يهتم بأمرى ويتعذب من أجلى ، بينما هو يتظاهر بالغيرة تظاهراً لا أكثر ؟

قال أليوشا :

— يتظاهر تظاهراً ؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام ؟

— ما اغباك يا صغيرى أليوشا ! ألا انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً رغم ذكائك . ان ما يغضبنى ، أنا المسكينة ، ليس هو أنه يغار علىّ . بالعكس : ان عدم غيرته هو ما يعذبنى هكذا

أنا . لن آخذ عليه يوماً أن يكون غيوراً ، فأنا نفسى مسمومة القلب شديدة الغيرة . ولكننى شقية لأنه لا يحبنى البتة ، وانما هو **يتظاهر** اليوم بالغيرة علىّ . ذلك كل شىء . ما أنا بالعمياء . اننى أرى كل شىء رؤية واضحة . لقد أخذ يكلمنى فجأة عنها عن كاتيا تلك ، ممتدحاً ما صنعته فى سبيله ، مثنياً على ما قامت به من أجله . قال لى : «لقد استقدمت طبيباً من موسكو ليشترك فى المناقشات أمام المحكمة انقاذاً لى . واستقدمت من العاصمة أيضاً محامياً هو أشهر المحامين وأبرعهم ، وأعلمهم فى الوقت نفسه» . هو اذن يحبها ، ما دام قد طفق يتغنى بمدائحها أمامى ناظراً الىّ بعينيه الوقحتين ! انه مذنب فى حقى ، ثم هو يسعى الى مشاجرتى ليلقى الذنب على عاتقى ، على عاتقى وحدى ، كأنه يريد أن يقول : «لقد كنت على صلة بذلك البولندى قبلى ، فمن حقى اذن أن أهجرك فى سبيل كاتيا» . تلك هى المسألة . انه يريدأن يلقى الذنب كله علىّ وحدى . انه يتعمد أن يشاجرنى ، يتعمد ذلك تعمداً . . . ولكننى سوف . . .

لم تكمل جروشنكا كلامها لتشرح ما تنوى أن تفعله . وانما أخفت عينيها بمنديل ، وطفقت تبكى فى نشيج يثير الشفقة .

قال أليوشا بحزم :

— انه لا يحب كاترينا ايفانوفنا .

فقالت جروشنكا بصوت يشوبه شىء من التهديد وهى تزيح المنديل عن عينيها :

— سوف أعرف بنفسى أهو يحبها أم لا .

لقد تقبضت قسمات وجهها من الغضب . ولاحظ أليوشا ، على حزن وحسرة ، أن ما كان يشيع فى وجهها قبل ذلك من رقة هادئة وفرح ساج قد حل محلّه الآن عنف وشر .

قالت فجأة تحسم الأمر :

— كفى سخافات ! اننى لم استدعك لأكلمك فى هذا ، يا أليوشا ، يا ملاكى ! قل لى : ما الذى سيحدث غداً ، ما الذى سيحدث غداً ؟ ذلك ما يعذبنى . أنا وحدى أفكر فى هذا وأقاسى منه . اننى انظر الى الآخرين فلا أجد أحداً يقلق أو يكترث . هل فكرت فى الأمر انت على الأقل ؟ غداً سيحكم عليه مع ذلك ! قل لى كيف ستجرى الأمور أمام المحكمة ؟ ان الخادم هو الذى قتل ، انه الخادم ! يا رب ! هل يُعقل أن يحكموا عليه بدلاً من أن يحكموا على الخادم ، دون أن يتدخل أحد لانصافه ؟ انهم لم يعمدوا حتى الى ازعاج هذا الخادم بشىء ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا مطرقاً مفكراً :

— استجوبوه استجواباً محكماً . ولكنهم خلصوا جميعاً الى أنه ليس مجرماً . وهو الآن مريض جداً . انه منذ وقوع ذلك الحادث يصاب بنوبات صرع لا تنقطع .

وأضاف أليوشا يقول :

— انه مريض جداً .

— آه . . . يا رب ! ليتك تستطيع أن تقابل ذلك المحامى ، وأن تشرح له القضية بينك وبينه . يقال انه استقدم من بطرسبرج لقاء أجر قدره ثلاثة آلاف روبل .

— دبرنا المبلغ نحن الثلاثة : كاترينا ايفانوفنا وأخى ايفان ، وأنا . أما الطبيب فان كاترينا ايفانوفنا هى التى دفعت ألفى روبل لاستقدامه من موسكو . ان المحامى فيتوكوفتش يتقاضى فى العادة أكثر من هذا المبلغ ، ولكن القضية قد ذاع صيتها فى روسيا كلها ، وكتبت عنها جميع الصحف ، لذلك عزم أمره على

الدفاع عن ميتيا آخر الأمر ، لا طمعاً فى المال ، بل سعياً الى المجد ، لأن هذه القضية اصبحت شهيرة للغاية ، ولقد كلمته أمس .

سألته جروشنكا متعجلة :

— كلمته ؟ فماذا قال لك ؟

— أصغى الى كلامى ، ولكنه امتنع عن ابداء أية ملاحظة . قال انه قد كوّن رأياً شخصياً فى الموضوع ، ووعدنى مع ذلك بأن يحسب حساب ما قدمت له من شروح .

— يحسب حساب ما قدمت له من شروح ؟ ما معنى هذا الكلام ؟ هؤلاء المحامون جميعاً أوغاد ! لسوف يضيعونه أخيراً . والطبيب ، لماذا استقدموا الطبيب ؟

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة :

— استقدموه خبيراً . يريدون أن يقرروا أن أخى مجنون ، وأنه قد ارتكب جريمة القتل فى نوبة جنون لا يدرى ماذا يفعل . ولكن أخى لن يوافق على ذلك أبداً .

هتفت جروشنكا تقول :

— ولكن هذا حق اذا كان قد قتل . لا شك فى أنه كان فاقداً عقله ، فاقداً عقله تماماً ، ولا شك أننى مسئولة عن ذلك ، أنا الدنيّة . ولكنه لم يقتل ، لم يقتل ! هم جميعاً يؤكدون أن ميتيا هو القاتل . المدينة كلها تعتقد بذلك . وفينيا نفسها أدلت بشهادة لا يمكن ان يستخرج منها الا أنه قاتل . وجميع الأشخاص الذين كانوا فى المتجر ، وذلك الموظف أيضاً ! وهناك زبائن الحانة الذين ينقلون كل كلمة من كلماته ، وكل قول من أقواله . انهم جميعاً يشهدون عليه ، ويتبارون فى اغراقه .

قال أليوشا بلهجة فيها يأس :

— نعم ، تكاثرت الشهادات تكاثراً يدعو الى القلق .

— ثم جريجورى ، جريجورى فاسيلتش الذى يصر على أن الباب كان مفتوحاً . انه لم يتزحزح عن هذه الشهادة . هو يدعى أنه رأى الباب بعينه مفتوحاً . يستحيل أن يتزعزع يقينه من ذلك . لقد ذهبت اليه وتكلمت معه . كاد يشتمنى .

قال أليوشا :

— لشهادته شأن كبير ، وهو أخطر الشهود على أخى .

قالت جروشنكا بلهجة غريبة وهيئة قلقة :

— أما عن جنون ميتيا ، فيخيّل الىّ أنه ما يزال فى مثل هذه الحالة حتى الآن . . هل تعلم أننى أردت أن أكلمك فى هذا الأمر منذ مدة طويلة يا أليوشا ؟ اننى اذهب اليه كل يوم ، فما ينفك يزداد عجبى من سلوكه . قل لى رأيك : ما معنى هذه الأحاديث الغريبة التى يحدثنى بها فى غير انقطاع ؟ انه يتكلم ، فلا أتوصل الى فهم ما يقوله لى . قدّرت فى البداية أن الأمر أمر مسائل تحتاج الى ذكاء عظيم وعلم واسع ، فلا أستطيع أن أدركها . ولكنه أخذ يحدثنى فجأة عن صبى ، عن ولد صغير لا أعرفه . سألنى : «لماذا يجب ان يتألم الصبى ؟ اننى أرتضى أن أذهب الى سيبيريا بسبب هذا الصبى . صحيح أننى لم أقتل ، ولكن يجب أن أذهب الى سيبيريا» . أى صبى يعنى ؟ اننى لا أفهم من هذا الكلام شيئاً . ومع ذلك طفقت أبكى وأنا أسمع له ، لأنه أجاد الكلام اجادة رائعة . كان فى عينيه دموع ، فانفجرت أنا منتحبة . عندئذ قبّلنى على حين فجأة ، ورسم علىّ اشارة الصليب . ما معنى هذا كله يا أليوشا ؟ قل لى : أى «صبى» يعنى ؟

قال أليوشا مبتسماً :

— لقد اخذ راكيتين يتردد اليه فى السجن . ولكن لا . . . ليس هذا من راكيتين . أنا لم أزر ميتيا أمس ، ولكننى سأذهب اليه اليوم .

— لا ، ليس هو راكيتكا ! ان أخاه ايفان فيدوروفتش هو الذى يبلبل له عقله . انه هو الذى يزوره فى السجن .

قالت جروشنكا وقد تلعثمت على حين فجأة .

تفرس فيها أليوشا كالمذهول وقال :

— ايفان ؟ ماذا تقولين ؟ ايفان يزوره ؟ لقد أكد لى ميتيا أن ايفان لم يزره مرة واحدة .

هتفت جروشنكا تقول مضطربة وقد احمر وجهها احمراراً شديداً :

— آ . . . ذلك . . . ما أكثر ثرثرتى ! لقد أسرفت فى الكلام ! لحظة . . . اسكت يا أليوشا ! ما دمت قد زلّ لسانى ، فسأقول لك الحقيقة كلها : لقد زاره مرتين . مرة منذ وصل ، لأنه أسرع يعود من موسكو حين بلغه نبأ الحادث ، ولم أكن قد مرضت بعد . ومرة منذ أسبوع . وقد طلب من ميتيا أن لا يقول لك شيئاً عن هاتين الزيارتين . لم يسمح بذلك البتة . حظر عليه أن يذيع أمرهما لأى مخلوق . لقد زاره سراً .

كان أليوشا يفكر تفكيراً عميقاً . ان شيئاً ما يشغل باله الآن . لقد صعقه هذا النبأ كما يبدو .

قال ببطء :

— ان أخى ايفان لا يحدثنى أبداً فى قضية ميتيا . ثم انه لم يكد يكلمنى أبداً خلال هذين الشهرين . وكان يبدو ممتعضاً من زيارتى كلما زرته . لذلك لم أره منذ ثلاثة أسابيع . هِمْ . . .

اذا كان قد زار ميتيا منذ أسبوع فـ . . . فلقد حدث فى ميتيا تغير خلال هذه الأيام الثمانية الأخيرة .

أسرعت جروشنكا تقول :

— حدث فيه تغير ، حدث بالتأكيد . ان بينهما سراً . كان بينهما سراً ! قال لى ميتيا نفسه ذلك ، قال ان الأمر سر . وهو سر يعذبه تعذيباً شديداً ، هل تعلم ؟ كان ميتيا مرحاً قبل ذلك وما يزال مرحاً حتى الآن : ولكن حين يهز رأسه ، ويأخذ يسير فى زنزانته ، ويحك شعر صدغه بابهامه الأيمن ، أدرك أن هناك شيئاً فى قلبه . أنا أعرف هذا . كان قبل ذلك مرحـــــاً جداً . وما يزال مرحاً حتى الآن فى الواقع .

— ولكنك قلت لى انه ثائر الأعصاب جداً .

— نعم ، هو مرح وثائر الاعصاب فى آن واحد . تثور اعصابه فجأة ، ثم يصفو مزاجه بعد دقيقة واحدة ، ثم يهتاج من جديد . انه يدهشنى مزيداً من الدهشة يوماً بعد يوم يا أليوشا . ان ما ينتظره رهيب ، ومع ذلك يتفق له ان يضحك أحياناً لترهات كأنه طفل .

— هل صحيح انه أراد ان لا تكلمينى عن ايفان ؟ هل قال لك : «لا تقولى شيئاً» ؟

— ذلك بعينة هو ما قاله لى : «لا تقولى شيئاً !» هو خائف منك أنت خاصة . ذلك أن هناك سراً . وهو نفسه يعترف بأن هناك سراً . أليوشا ، يا عزيزى ، امضِ اليه ، وحاول ان تعرف الحقيقة : ما ذلك السر الذى بينهما ؟

واضافت جروشنكا تقول بصوت أصبح ضارعاً على حين فجأة :

— ثم عد الىّ وأخبرنى . خلصنى من قلقى وهمى ،

أنا التعيسة فعسى أن أعرف مصيرى المنحوس ! من أجل هذا انما استدعيتك .

— هل تظنين أن هذا السر يتعلق بك ؟ لو كان كذلك ، لما كلمك فيه البتة .

— الله اعلم . لعله أراد أن يحدثنى فى الأمر ، ولكنه لم يجرؤ فاكتفى بالتنبيه . لقد أسمعنى أن هناك سراً ولكنه لم يقل ما هو هذا السر .

— ماذا تفترضين ؟

— ماذا افترض ؟ افترض أن الأمر أمر ضياعى أنا . لقد اتفقوا هم الثلاثة على تضييعى ، لأن كاتيا وراء هذه المؤامرة . ان كاتيا هى التى أعدت كل شىء . لقد أطرى مزايا هذه المرأة ، قال : «هى كيت وكيت» . معنى ذلك أننى لست مثلها . انه يمهد . . . انه ينبهنى . ذلك أنه قرر أن يتركنى . هذا هو السر كله . لقد تآمروا هم الثلاثة : ميتيا وكاتيا وايفان فيدوروفتش . اسمع يا أليوشا : هناك سؤال أريد أن ألقيه عليك منذ مدة طويلة : لقد أعلن لى فجأة فى الأسبوع الماضى أن ايفان يحب كاترينا ايفانوفنا لأنه يزورها دائماً . فهل هذا صحيح أم لا ؟ أجبنى بصدق واخلاص ، دون أن تحاول مداراتى ومراعاتى .

— لا اريد أن أكذب عليك . ان ايفان لا يحب كاترينا ايفانوفنا . ذلك رأيى انا على الأقل .

— هذا ما قدّرته أنا أيضاً . لقد كذب علىّ . يا له من وقح ! واضح أنه كذب علىّ ! وهو يتظاهر الآن بالغيرة ، ليستطيع بعد ذلك أن يلقى الذنب كله علىّ . ألا انه لغبى . انه لا يجيد حتى التمثيل . انه بطبيعته صريح مسرف فى الصراحة . . . ولكننى سألقنه درساً ، سألقنه درساً ! لقد صرخ يقول لى :

«أنت تؤمنين بأننى قاتل» . صرخ يقول هذا الكلام لى أنا . انه يأخذ هذا علىّ أنا . طيب سامحه الله . أما كاتيا تلك ، فويل لها . سأعرف كيف «ادبرها» أمام المحكمة . سوف أروى لهم قصة صغيرة . . . سوف أقول كل ما أعرف !

وأخذت جروشنكا تبكى بكاء مراً .

قال أليوشا وهو ينهض :

— اليك ما أريد أن أقوله لك على وجه اليقين يا جروشنكا : أولاً : هو يحبك ، يحبك أكثر من أى شىء فى هذا العالم . ولا يحب أحداً غيرك على الاطلاق ، تستطيعين أن تصدقينى . أنا أعلم هذا . أنا من هذا على يقين تام . ثانياً : اريد أن تعرفى أننى لن أحاول ان استخرج منه سرّه . واذا أفضى الى به اليوم من تلقاء نفسه ، فسوف أنبهّه فوراً الى أننى قد وعدتك بابلاغك هذا السر . وسوف أعود اليك فى هذا اليوم نفسه ، فأقول لك كل ما أكون قد علمته . على أننى . . . يخيل الىّ . . . أن كاترينا ايفانوفنا ليس لها ضلع فى هذا الأمر ، وأن السر يتعلق بشىء آخر غير هذا تماماً . بل اننى لواثق من ذلك . يستحيل أن يكون الأمر أمر كاترينا ايفانوفنا . أنا من ذلك على قناعة راسخة . والآن الى اللقاء .

صافحها أليوشا . كانت جروشنكا ما تزال تبكى . أدرك أنها لم تصدّق ما قدم لها من شروح مواسية . ولكن جروشنكا كانت قد تخففت من حزنها بعض التخفف لأنها عبّرت عنه . شعر أليوشا بشفقة عليها ، وأسف لاضطراره الى تركها وهى فيما هى فيه من كرب . ولكن كان عليه أن يسرع ، لأن هناك أموراً كثيرة عليه أن يقوم بها فى ذلك اليوم .

٢

الساق المريضة

ان الأمر الأول الذى كان على أليوشا ان يهتم به ، كان فى منزل السيدة خوخلاكوفا ؛ فراح يغذ الخطى للوصول الى هذا المنزل ، ليفرغ من ذلك الأمر بأقصى سرعة ، حتى لا يتأخر على ميتيا . كانت السيدة خوخلاكوفا مريضة منذ ثلاثة أسابيع . لقد تورمت احدى ساقيها لسبب مجهول ، فهى تقضى أيامها فى مقصورتها مضطجعة على كنبة ، مرتدية غلالة جذابة لكنها محتشمة ، لأنها لم تضطر الى ملازمة فراشها . كان أليوشا قد عبر بينه وبين نفسه ، فى يوم من الأيام ، عن هذه الملاحظة المسلية البريئة ، وهى أن السيدة خوخلاكوفا قد أخذت بالرغم من مرضها تتغندر منذ زمن : فهى تتزين بمناديل صغيرة انيقة من الدنتيللا وأشرطة جميلة ، وهى تتفنن فى التجمل . ولقد أدرك أليوشا سبب عنايتها هذه بملابسها ، ولكنه كان يطرد هذه الخواطر من ذهنه ، ويعدها عبثاً لا طائل تحته . والواقع ان السيدة خوخلاكوفا قد أخذت ، منذ شهرين ، تستقبل بين معارفها الآخرين الموظف الشاب برخوتين فى أحيان كثيرة .

حين وصل أليوشا الذى لم يزر السيدة خوخلاكوفا منذ أربعة أيام ، أسرع يتجه رأساً الى غرفة ليزا . فمع ليزا انما كان عليه أن يبحث الأمر الهام الذى أشرنا اليه ، لأن الفتاة قد أوفدت اليه خادمتها بالأمس ترجوه ملحة أن يجىء اليها بأقصى سرعة ممكنة ، «لأمر خطير جداً» ، وذلك ما أقلق أليوشا لأسباب عدة . ولكن حين ذهبت الخادمة الى ليزا لتبلغها وصول أليوشا ، علمت

السيدة خوخلاكوفا بحضوره مصادفة ، فأرسلت تطلب اليه فوراً أن يجىء اليها «دقيقة واحدة» . فرأى أليوشا أن من الأفضل أن يلبى رغبة الأم أولا ، والا فمن الممكن أن ترسل اليه من يستدعيه من عند ليزا كل خمس دقائق ، أثناء انصرافه الى الحديث مع ليزا .

كانت السيدة خوخلاكوفا مضطجعة على كنبتها ، مهتمة بحسن ملبسها اهتماماً خاصاً ، وكان واضحاً أنها مضطربة اضطراباً عصبياً شديداً ، فاستقبلت أليوشا بصيحات حماسة .

— منذ قرون ، منذ قرون ما رأيتك ! اسبوع كامل ، كيف يمكن هذا ؟ ولكن لا ! . . . لقد جئت منذ أربعة أيام ، جئت يوم الاربعاء الماضى . أأنت ذاهب الى Lise لا شك أنك كنت تريد أن تمضى اليها سائراً على رؤوس الأصابع حتى لا أسمعك . يا صديقى العزيز ، يا صديقى العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، ليتك تعلم مدى القلق الذى تسببه لى حالة ابنتى ! ولكننى سأكلمك عن هذا الأمر فيما بعد . ولو أن هذا أهم شىء ، ولكن فيما بعد ، فيما بعد ! عزيزى ألكسى فيدوروفتش ، اننى أعهد اليك بابنتى ليزا . اننى منذ موت الشيخ زوسيما ، رحمه الله (وهنا رسمت السيدة اشارة الصليب) ، أعدك ناسكاً ، رغم أنك ترتدى رداءك الجديد على أجمل زى . أين عثرت على خياط بارع هذه البراعة ؟ ولكن لندع هذا الآن ، ليس هذا أهم شىء ، ستتحدث عن هذا فيما بعد . سامحنى اذا ناديتك احياناً باسم أليوشا فقط . أنا امرأة عجوز ، فكل شىء جائز لى (قالت السيدة خوخلاكوفا هذا وهى تبتسم فى دلال وغنج) . ولكن لندع هذا الآن . ستتحدث عنه فيما بعد . ان الشىء الأساسى هو أن لا أنسى أهم شىء . ذكرنى بذلك عند اللزوم ،

فاذا ثرثرت فابتعدت كثيراً عن الموضوع ، فعليك أن تقاطعنى سائلاً : «والأمر الأساسى ؟» . ولكن أين لى أن أعرف الآن ما هو الأمر الأساسى ! منذ نقضت Lise العهد الذى قطعته لك — عهد الطفلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أعنى عهدها بأن تتزوجك — فلا شك أنك أدركت أن ذلك كله لم يكن الا ثمرة خيال مضطرب عند بنت صغيرة مريضة طال سكونها وجمودها على كرسيها المتحرك . الحمد لله على أنها أصبحت قادرة على أن تمشى الآن ! ان ذلك الطبيب الجديد الذى استقدمته كاتيا من موسكو لأخيك المسكين الذى سوف يحاكم غداً . . . ولكن فيم الكلام على الغد ! اننى متى تصورت هذا الغد أوشك أن أموت جزعاً . ذلك من الفضول خاصة . المهم أن هذا الطبيب قد جاء الينا أمس وفحص Lise . . . ودفعت له أجراً قدره خمسون روبلاً . ولكن لا ، هأناذا ابتعد عن المسألة مرة أخرى . . . ليس هذا كنت أريد أن . . . لقد فقدت تسلسل أفكارى تماماً كما ترى . ذلك أننى متعجلة . لماذا أتعجل هذا التعجل ؟ لا أدرى . أصبحت لا أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً . لقد اختلط كل شىء فى ذهنى ، حتى صار كالعقدة . اننى أخشى أن تفر من لحظة الى أخرى ضجراً وسآمة مما أقول ، مع أننى لم أكد أراك . رباه ! ما لى نسيت ! نحن نثرثر هنا ، بينما . . . ولكن يجب أن نشرب القهوة أولاً . يا جوليا ، يا جلافيرا ، هاتوا القهوة ، هاتوا القهوة حالاً .

أسرع أليوشا يشكرها قائلاً انه قد شرب منذ قليل .

— عند من ؟

— عند أجرافينا الكسندروفنا .

— عند تلك . . . تلك المرأة ؟ ولكنها سبب هلاكهم

جميعا . لست أدرى على كل حال . يقال انها أصبحت اشبه بقديسة ، وان جاء هذا متأخراً فى رأيى . . . كان ينبغى أن يخطر ببالها ذلك من قبل ، يوم كان ذلك ضرورياً ومفيداً . أما الآن فما الفائدة ؟ اسكت ، اسكت يا ألكسى فيدوروفتش ، لأن هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك ، أشياء تبلغ من الكثرة اننى اخشى ان لن اقولها أبداً . وتلك المحاكمة الرهيبة . . . سوف أحضرها مهما كلف الأمر . . . اننى استعد لحضورها ، سوف يأخذوننى الى المحكمة على كرسى . ثم اننى أستطيع جداً أن أبقى جالسة . وسيكون بقربى أناس يسندوننى . لا شك أنك تعلم أننى دعيت الى الشهادة . ماذا أقول لهم ، ماذا أقول ؟ ! اننى لا أعرف البتة ما أستطيع أن أقوله لهم . سوف يكون علىّ أن أحلف يميناً ، أليس كذلك ؟ قل لى . . .

— نعم ، ولكننى أظن أنك فى حالة لا تمكنك من المثول أمام المحكمة .

— أستطيع أن أبقى قاعدة . أوه . . . ولكنك تفقدنى تسلسل أفكارى . تلك المحاكمة ، تلك الجريمة البشعة ، ثم ذلك الرحيل الى سيبريا التى سيذهبون اليها جميعاً . سيتزوج أناس آخرون أثناء ذلك ! ما أسرع ما تمضى الحياة ! كل شىء يجرى ، كل شىء يتغير ، ثم لا يبقى أخيراً شىء ، لا يبقى الا عجائز يتربص بهم الموت . ليكن ، ليكن . . . اننى أشعر باعياء . ان كاتيا هذه — [1] cette charmante personne — قد حطمت جميع آمالى : انها تنوى الآن أن تلحق بأحد أخويك الى سيبريا . وسيلحق بها أخوك الثانى الى هناك ، فيعيش فى

---

[1] هذه الانسانة الفتانة (بالفرنسية فى الأصل) .

مدينة مجاورة . وبذلك لا يزيدون على أن يعذب بعضهم بعضاً . ان ذلك يفقدنى صوابى ، أؤكد لك . . . ولا سيما بسبب ما نشر فى الصحف عن هذه القضية . ان جرائد بطرسبرج وموسكو جعلتها مضغة فى افواه الناس . آه . . . نعم . . . تخيل أنهم تكلموا فى هذه الصحف عنى أنا أيضاً ، زاعمين أننى كنت «الصديقة العزيزة جداً» لأخيك ! اننى لأشمئز من استعمال الألفاظ النابية . هل تستطيع ان تتخيل أمراً كهذا الأمر ، قل لى ، هل تستطيع أن تتصوره ؟

— مستحيل . أين وكيف نشر هذا الكلام ؟

— سأريك الآن . لقد نشر فى جريدة «الشائعات» ، التى تصدر فى بطرسبرج ، وقد وصلتنى الجريدة أمس ، فأسرعت أقرؤها . ان هذه الجريدة قد بدأ صدورها فى هذه السنة وأنا أحب الشائعات حباً شديداً ، لذلك اشتركت فى الجريدة . هل كان فى وسعى أن أتنبأ أن الشائعات ستتناولنى أنا ، ها هى الشائعات ! اقرأ ، اقرأ ، الكلام هنا ، فى هذا الموضع .

قالت السيدة خوخلاكوفا ذلك ومدّت الى أليوشا ورقة جريدة كانت قد أخفتها تحت وسادتها .

كانت السيدة خوخلاكوفا فى حالة انهيار نفسى شديد . ليس الأمر فى هذه المرة أمر نوبة من نوبات اعتكار المزاج ، وانما هو هزة قوية أصابت كيانها كله ، ولعل أفكارها قد بلغت فى هذه الساعة من الاضطراب والبلبلة والتشويش أنها أصبحت فى رأسها اشبه بغيوم متكاثفة . ان الشائعة التى نشرت فى الجريدة المذكورة تتضمن غمزاً واضحاً وتعريضاً ساخراً لا بد أن يحدث فى نفسها أثراً أليماً جداً . ومن حسن حظها ، مع ذلك ، أنها كانت فى تلك اللحظة عاجزة عن تركيز فكرها على

موضوع واحد . فبفضل ذلك انما كانت تستطيع أن تنسى المقالة الفاضحة بعد دقيقة ، وأن تنتقل الى موضوعات أخرى يجرى عليها الحديث . ولا شك أن أليوشا كان لا يجهل أن كلاماً كثيراً قد نشر فى صحف روسيا كلها عن هذه القضية الفظيعة ولا شك أنه قد قرأ خلال هذين الشهرين كثيراً من الأنباء والمقالات الفظيعة التى تفتق عنها خيال المتخيلين والتى لا تمت الى الواقع بصلة (الى جانب المعلومات الصحيحة) عن أخيه ، وعن آل كارامازوف جملة ، وعنه هو أيضاً . من ذلك مثلاً ما نشرته احدى الصحف من أن أليوشا قد بلغ من الذعر فى أعقاب الجريمة الرهيبة التى اقترفها أخوه أنه اعتصم بدير من الأديرة ، ليعيش حياة الرهبان . وقد دحضت جريدة أخرى هذا النبأ ، ونشرت أنه قد سرق صندوق الدير متعاوناً مع شيخه زوسيما ، ثم لاذ الاثنان بالفرار معاً . أما الشائعة التى نشرت فى جريدة «الشائعات» فقد كان عنوانها ما يلى : «مراسلنا فى سكوتوبريجونيفسك يكتب الينا عن قضية كارامازوف» (ذلك هو مع الأسف اسم مدينتنا الصغيرة التى لم أجرؤ أن أسميها حتى الآن)[1] . ان المقالة قصيرة ، ولم تذكر فيها السيدة خوخلاكوفا اسماً . ولقد أُغفل على وجه العموم ذكر جميع أسماء الأشخاص ، واقتصر على الاشارة الى أن المجرم الذى أحدثت جريمته ضجة كبرى ، والذى سيحاكم قريباً ، هو ضابط جيش محال على التقاعد برتبة نقيب ، متغطرس كسول من ملاكى الاقنان السابقين ، هذا الى أنه زير

---

[1] ان هذا الاسم المستعار مشتقّ من كلمتي «سكوت» اى بهائم و«بريجنات» أى ساقَ ، وبذلك يكوّن معنى الاسم : سوّاق البهائم . المراجع .

نساء مستهتر ، كان له بعض التأثير فى «نساء عديدات أضجرتهن الوحدة» ، فمن هذه السيدات «ارملة عاطلة» كانت تتصابى وتحاول أن تبدو شابة مع أن لها بنتاً بالغة راشدة ، وقد بلغت من الافتتان بهذا الرجل الدنىء أنها عرضت عليه قبل وقوع الجريمة بساعتين فى أكثر تقدير ، أن تعطيه ثلاثة آلاف روبل ، ليوافق على اختطافها والسفر معها الى مناجم الذهب فوراً . ولكن الشقى آثر أن يقتل أباه ليسلبه ثلاثة آلاف روبل ، آملاً أن لا تكشف جريمته ، على أن يرحل الى سيبريا فى صحبة السيدة العاطلة التى تنعم بمفاتن سن الأربعين . واختتمت المقالة المازحة على نحو ما يجب أن تختتم فعبرت عن أشد الاستنكار لهذه الجريمة الفظيعة التى ارتكبها قاتل أبيه بنذالة ما بعدها نذالة ولم تنس فى الوقت نفسه أن تدين نظام الرقّ الملغى .

قرأ أليوشا المقالة باهتمام واستطلاع ، ثم طوى ورقة الجريدة وردّها الى السيدة خوخلاكوفا .

تمتمت تقول من جديد :

ـــ هذا عنى أنا ، عنى أنا ، أليس كذلك ؟ لا شك أبداً فى أنه عنى أنا . لقد نصحته فعلاً ، قبل وقوع الجريمة بساعة أن يذهب الى مناجم الذهب . فانظر ماذا خرج من ذلك فجأة : «مفاتن سن الاربعين» ! لقد فعل ذلك عامداً ! أسأل الله أن يغفر له «مفاتن سن الاربعين» هذه مثلما أغفرها له أنا . ذلك أن كاتب هذه المقالة هو . . . لا بد أنك تعرف من هو . . . انه صديقك راكيتين .

قال أليوشا :

ـــ هذا جائز جداً . ولكننى كنت أجهل ذلك .

ـــ انه هو ، هو . ليس هذا جائزاً بل هو أكيد والسبب

انى طردته من منزلى . أظن أنك علمت بهذا الحادث .

ـــ أعرف أنك طلبت منه أن لا يتردد الى بيتك . أما السبب الذى دفعك الى هذا القرار ، فأعترف . . . أننى لم أعلم به . . . لم أعلم به منك على الأقل .

ـــ اذن علمت به منه هو ! أهو حاقد علىّ كثيراً ، غاضب منى جداً ؟

ـــ نعم ، هو غاضب ، ولكنه غاضب من جميع الناس . أما السبب الذى من أجله أغلقت بابك دونه ، فانه هو الآخر لم يذكره لى . وأنا على وجه العموم لا أراه الا نادراً . ليس هو صديقى .

ـــ طيب . سأقول لك الحقيقة كلها . لا ضير . ثم اننى نادمة على شىء من الأشياء فى هذه المسألة ، ان هناك عنصراً صغيراً أنا مسئولة عنه . هو أمر بسيط ، بسيط جداً ، أمر تافه لا قيمة له ، حتى لقد لا يكون له وجود الا فى خيالى . اسمع يا بنى العزيز (هنا بشّ وجه السيدة خوخلاكوفا وارتسمت على شفتيها ابتسامة رائعة وان تكن لا تُفهم فكأنها لغز) . . . اسمع . . . اننى أشتبه فى أنه . . . سامحنى يا أليوشا ، فانما أنا أخاطبك كما تخاطب أم ابنها . . . أقصد . . . لا . . . ان عكس هذا هو ما أردت أن أقوله . . . اننى أخاطبك كما اخاطب أبى . . . اذ لا مجال للحديث هنا عن أم . . . لا قيمة لهذا على كل حال . . . المهم اننى أكلمك كما كان يمكن أن أكلم الأب زوسيما معترفة . ذلك هو أحسن تشبيه هنا . ألم أصفك منذ قليل بأنك راهب ناسك ؟ . . . فاسمع اذن : ان هذا الشاب الشقى ، صاحبك راكيتين . . . (أوه . . . رباه ! اننى لا أستطيع أن أغضب منه حقاً ! أنا مستاءة وحانقة . . . ولكن على

ضعف . . .) الخلاصة : ان هذا الشاب الطائش المسكين قد أولع بى فجأة . . . تصور ! أنا لم ألاحظ ذلك الا فيما بعد ، فيما بعد . أمّا فى البداية أى منذ شهر فأصبح يكثر من زيارتى ، وأصبح يجيء الىّ كل يوم تقريباً ، رغم أننا متعارفان منذ زمن طويل . لم يخطر ببالى شيء . ولكن هأنا ذا ألاحظ قبساً من نور على حين فجأة ، وهأنا ذا آخذ أنتبه الى بعض الأشياء . أنت تعلم أننى أصبحت منذ شهرين أستقبل فى كثير من الأحيان ذلك الشاب الطيب الرائع المتواضع الرصين ، بيوتر ايلتش برخوتين ، الموظف فى مدينتنا . لقد التقيت أنت به عندى مراراً على كل حال . انه شاب جاد كل الجد ، لائق كل اللياقة ، ألا ترى ذلك ؟ انه يجيء الى بيتى مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ، أقصد أننى لا أراه فى جميع الأيام ، (ولست أجد أى ضير فى أن يجيء كل يوم على كل حال) . هو دائماً حسن الهيئة جيد الهندام . أننى أحب الشباب يا أليوشا ، الشباب المتواضعين الذين يملكون مواهب عظيمة ، من أمثالك أنت مثلاً يا أليوشا . أما هذا الشاب فله ذكاء يجعله مساوياً لرجل دولة . وما أجمل حديثه ! سوف أتوسط له لدى الأوساط العليا ، نعم ، نعم ، سوف أتوسط له حتماً . سيكون فى المستقبل دبلوماسياً من الطراز الأول . وقد أنقذ حياتى تقريباً فى ذلك اليوم الرهيب . أنقذنى من موت محقق حين جاء الىّ فى الليل . أما صديقك راكيتين ، فانه يجيء دائماً بحذاءيه الضخمين يجرهما على السجاد جراً . الخلاصة : أخذ راكيتين يسمعنى تلميحات مستخفية فى أول الأمر ، وفى ذات يوم شدّ على يدى شداً قوياً حين انصرف . فما ان شدّ على يدى ذلك الشدّ حتى شعرت بألم فى ساقى . وقد التقى عندى ببيوتر ايلتش مراراً ، ولكنه ما

انفك يسفهه ويعيبه وينتقده دون سبب . واقتصرت أنا على أن ألاحظهما كليهما ، فكان يسلينى أن أرى كيف يعامل كل منهما الآخر . وانى لوحدى فى ذات مرة (وكنت فى تلك الآونة قد أصبحت مضطرة الى الاضطجاع) اذا بميخائيل ايفانوفتش يجيئنى حاملاً الىّ أشعاراً . . . تصور ! . . . هى قصيدة صغيرة أوحت اليه بها ساقى المريضة . انتظر . سأنشدك الأبيات :

كيف للساق الجميلة
كيف للساق اللذيذة
أن تعانى ألماً
يا لهمى !

. . . اوشيء من هذا القبيل . . . نسيت التتمة . يصعب علىّ دائماً حفظ الشعر . لا بأس على كل حال . لقد خبأت القصيدة فى مكان قريب جدا . سوف أطلعك عليها فيما بعد . ولكنها رائعة ، حقاً . هى لا تتحدث عن ساقى فحسب ، بل تتحدث عن اكثر من ذلك ، لأنها تتضمن فكرة أخلاقية هامة جداً . يؤسفنى أننى لا أتذكر الآن تلك الفكرة . الخلاصة : ان هذه القصيدة تستحق أن تحفظ فى ألبوم . وقد شكرته طبعاً ، فسرّ بذلك سروراً عظيماً ، كما يبدو . وما ان شكرته حتى دخل بيوتر ايليتش فجأة ، فاذا وجه ميخائيل ايفانوفتش يتجهم . أدركت أن وصول بيوتر ايلتش قد أفسد عليه مشاريعه . ذلك أنه كان ينوى ، ولا شك ، أن يقول لى شيئاً بعد قراءة القصيدة . لقد أحسست أنا بذلك ولكن ها هو بيوتر ايلتش يدخل فى تلك اللحظة نفسها . اطلعت بيوتر ايلتش على القصيدة طبعاً ، ولكن دون أن أقول له من الذى نظمها . على أننى واثقة ، واثقة كل الثقة ، من أنه حزر الحقيقة

32-1306

لتوّه ، وان كان ينكر ذلك حتى الآن . هو يدعى أنه لم يحزر شيئاً . ولكنه يزعم ذلك عامداً . انفجر بيوتر ايلتش ضاحكاً حين قرأ القصيدة ، ثم نقدها نقداً لاذعاً ، فقال : «هى أشعار تافهة ، جديرة بطالب من طلاب اللاهوت فى أكثر تقدير» . لقد ثار على رداءة القصيدة الصغيرة . وهذا صاحبك يستبد به حنق شديد على حين فجأة وكانما جن جنونه ، بدلاً من أن يضحك ، قلت لنفسى : «آه . . . يا رب ! لسوف يتضاربان !» . قال راكيتين : «انا ناظم القصيدة . لقد كتبت هذه الأبيات من باب المزاح لأننى أرى أنه لا يليق برجل أن يضيّع وقته فى النظم . ولكن أشعارى جميلة مع ذلك . ان فى النية اقامة نصب تذكارى لشاعركم بوشكين ، لتغنيه بجمال سيقان النساء . وان لأشعارى أنا اتجاهاً أخلاقياً . أما أنت (قال ذلك مخاطباً بيوتر ايلتش) ، فما أنت الا رجل رجعى لا تملك أية نزعة انسانية . لقد ظللت غريباً عن المشاعر النبيلة التى تهز قلوب أبناء الجيل الراهن . ان التقدم قد مرّ بقربك دون أن يلامسك ، لأنك لست الا موظفاً مرتشياً !» أخذت أصرخ أنا أيضاً ، ضارعة اليهما أن يسكتا ويهدءا . وليس بيوتر ايلتش هذا بالرجل الهيّاب ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنه سرعان ما اصطنع لهجة رصينة وقورة رفيعة ، فبعد أن أصغى الى راكيتين ساخر الهيئة أخذ يعتذر له قائلاً : «كنت أجهل أنك ناظم هذه الأبيات ، ولو عرفت ذلك لما قلت الكلام الذى قلته ، بل لانبريت أطرى الأبيات . يقال ان الشعراء شديدو الحساسية سريعو التأذى . . .» . الخلاصة أنه استهزأ به وسخر منه ، ولكن بلهجة يدل ظاهرها على غاية اللباقة والكياسة . لقد شرح لى هو نفسه فيما بعد أن ذلك كان تهكماً ، لكننى ظننت فى أول الأمر أنه تكلم جاداً لا هازلاً .

ولقد كنت اثناء تلك المناقشة مضطجعة كاضطجاعى الآن أمامك ، وكنت أتساءل : هل يليق بى أو لا يليق ان أطرد ميخائيل ايفانوفتش لأنه أجاز لنفسه أن يصرخ فى بيتى وأن يهين ضيفى . فهل تصدق ما سأقوله لك ؟ كنت مضطجعة وقد أغمضت عينى وأخذت أفكر : «أمن اللياقة أن أطرده أم لا ؟ ولا استطيع ان اجيب ، فأعانى معاناة رهيبة ، بينما قلبى يدق : أأصرخ طالبة اليه أن ينصرف ام لا ؟» . كان هناك صوت يهيب بى : «اصرخى !» ، وكان هناك صوت آخر ينصحنى بأن لا أصرخ . فما ان سمعت هذا الصوت الثانى الذى ينصحنى بأن لا اصرخ حتى أخذت أصرخ فجأة وسقطت مغشياً على فجأة . وقام البيت وقعد كما تقدّر . ونهضت بعد لحظات فقلت لميخائيل ايفانوفتش : «يؤسفنى أن أقول لك اننى لا أحب أن أراك بعد اليوم فى منزلى .» هكذا طردته من بيتى . آه يا ألكسى فيدوروفتش ، انى لأعلم حق العلم أننى أسأت التصرف . ولقد كذبت من جهة أخرى ، لأننى لم أكن غاضبة منه فى الواقع . ولكننى تصوّرت فجأة ، نعم فجأة ، ان هذا ، أى هذا المشهد سيكون جميلاً جداً . . . وهل تصدق لقد كان هذا المشهد طبيعياً ، الى درجة اننى طفقت أبكى ، وظللت أبكى عدة أيام . ومع ذلك كنت قد نسيت فجأة بعد الغداء كل شىء . وقد انقطع راكيتين عن زيارتى منذ اسبوعين ، فكنت أتساءل : «هل يُعقل حقاً أن لا يأتى بعد الآن قط ؟» . وظللت ألقى على نفسى هذا السؤال حتى أمس ، حين جاءونى عند المساء بجريدة «الشائعات» هذه ، فلما قرأت المقالة أوشكت أن انقلب على ظهرى . من ذا الذى يمكن أن يكون قد كتب هذه المقالة الا راكيتين نفسه ؟ لقد عاد الى مسكنه غاضباً حانقاً ، فلا بد أنه جلس الى مكتبه فوراً ليديج

هذه الرسالة الصحفية ، ثم أرسلها الى الجريدة التى سارعت تنشرها . حدث هذا منذ أسبوعين تماماً . ولكننى ألاحظ يا أليوشا أننى اتخبط فى الحديث هنا وهناك ، ناسية الأمر الأساسى الذى كنت أريد أن أكلمك فيه . ماذا تريد ؟ ذلك أقسوى منى !

حاول أليوشا أن يدسّ كلمة فقال فى خراقة :

— أنا اليوم مستعجل جداً لأصل الى عند أخى فى الساعة المحددة .

— صحيح ، صحيح . لقد ذكرتنى بالأمر . قل لى : ما هو المسّ ؟

سألها أليوشا مدهوشاً :

— أى مسّ ؟

— المسّ القضائى . المسّ الذى من أجله يُغفر كل شىء . فمهما يقترف المرء من جرم ، يغفر له على الفور .

— بأية مناسبة تسألين هذا السؤال ؟

— اليك الأمر : ان كاتيا هذه . . . آه . . . ما أروعها من مخلوقة ! ما أجملها من انسانة ، ولكننى لم استطع أن أعرف أيهما تحب . لقد كانت عندى منذ مدة ، وعبثاً حاولت أن أفهم منها شيئاً . جهد ضائع ، وعناء لا جدوى منه لا سيما وأنها اتخذت منى على حين فجأة وضعاً سخيفاً جداً . انها لا تتحدث معى الا عن صحتى ، ولا شىء غير ذلك . لقد اصطنعت فى مخاطبتى لهجة بلغت من التقيد بالرسميات أننى قلت لنفسى : «لا بأس ، لا بأس ، أسأل الله أن يرعاك يا عزيزتى ! . . .» آ . . . نعم . . . كنت أسألك عن المسّ . وذلك بمناسبة وصول الطبيب . . . هل تعلم أن فى مدينتنا الآن طبيباً جديداً ؟ ولكن

لا بد أنك تعلم ذلك ، فهو طبيب من أطباء الأمراض العقلية ، وأنت الذى استقدمته . . . أقصد . . . لا أنت ، بل كاتيا . . . كاتيا أيضاً ! اليك المسألة اذن : هذا رجل ليس بمجنون ، ولكنه يصاب فجأة بمسّ : لقد احتفظ بوعيه ، وهو يعلم ماذا يفعل ، ولكنه مع ذلك ممسوس . لعل هذا ما جرى فى حالة دمترى فيدوروفتش . . . هذه نظرية حديثة أكتشفت منذ اعادة تنظيم محاكمنا . ان اعادة تنظيم القضاء هذه قد أحسنت الينا جميعاً ، ولولاها لم نعرف المس . لقد زارنى الطبيب الجديد ، وسألنى عما حدث فى تلك الأمسية ، أقصد مسألة مناجم الذهب تلك : كان يريد ان أصف له الحالة التى كان عليها أخوك . حقاً لقد كان أخوك فى حالة مس واضحة . جاء الىّ صارخاً : «أريد مالاً ، مالاً ، أنا فى حاجة الى ثلاثة آلاف روبل ، فاعطينى ثلاثة الاف روبل» ، ثم مضى ، وأصبح قاتلاً على حين فجأة . كان يقول : «لا اريد أن أقتل ، لا أريد» . ولكنه قتل . فلهذا السبب انما سيغفرون له ، لأنه قاوم المس ، ثم قتل بعد ذلك .

قاطعها أليوشا يقول بلهجة فيها شىء من الضيق :

— ولكنه لم يقتل .

وأحسّ بتبرم وقلق يستوليان عليه شيئاً بعد شىء .

قالت السيدة خوخلاكوفا :

— اعرف أنه لم يقتل . ان العجوز جريجورى هو الذى قتل . . .

صاح أليوشا :

— جريجورى ؟ كيف ؟

— نعم ، نعم ، هو جريجورى . فبعد أن ضربه دمترى

فيدوروفتش ، لبث مغمى عليه مدة من الوقت ، ثم نهض فرأى الباب مفتوحاً ، فهرع ليقتل فيدور بافلوفتش .

— ولكن لماذا ، لماذا ، لأى هدف ؟

— انتابه مسّ . لقد ضربه دمترى فيدوروفتش على رأسه ، فلما أفاق من غيبوبته ، كان المس قد استحوذ على عقله ، فمضى يقتل . ولئن كان ينكر أنه القاتل ، فان ذلك لا يبرهن على شيء ، لأن من الجائز جداً انه أصبح لا يتذكر . ولكن صدقنى اذا قلت لك أن من الأفضل ، من الأفضل كثيراً أن يكون دمترى فيدوروفتش هو الذى ارتكب الجريمة . ثم انه هو الذى قتل . ان القاتل هو دمترى فيدوروفتش فى الواقع ، رغم اننى اؤكد أنه جريجورى ، وذلك أفضل ، أفضل كثيراً . لا تسىء فهمى . أنا لا أدعى أن من الأفضل أن يكون الأب قد قتله ابنه . لست أثنى على قتل الابن أباه . بالعكس : أنا أؤمن بأن على الأبناء أن يحترموا آباءهم . ولكن من الأفضل مع ذلك أن يكون هو القاتل . ولن تكونوا فى حاجة الى أن تشكوا وتندبوا وتستنكروا ، ما دام قد قتل بغير وعى . أقصد أنه كان واعياً ، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل . لا ، لا ، يجب أن يغفروا له . لسوف تكون تبرئته مثلاً انسانياً جميلاً ، ولسوف تتيح لنا أن نفهم حسنات اعادة تنظيم القضاء . كنت أجهل مزايا هذا النظام الجديد الذى يقال انه وجد منذ زمن . فما ان علمت بهذا الأمر أمس حتى أحسست بشعور بلغ من القوة أننى اردت استدعاءك فوراً . وفى المستقبل ، متى بُرئ أخوك ، سيجب عليه حتماً ان يجيء الى الغداء عندى منذ خروجه من المحكمة . سأدعو جميع معارفى وأصحابى ، وسنشرب نخب اعادة تنظيم القضاء . لا أظن أن أخاك خطر جداً . ثم أننى سأدبر الأمر بحيث يكون

عدد المدعوين كبيراً ، فاذا حدث شيء كان فى الامكان اخراجه من البيت . وبعد ذلك يستطيع أن يستقر فى مدينة أخرى قاضى صلح ، أو أن يُعيّن لوظائف من هذا القبيل ، لأن الذين عانوا الشقاء بأنفسهم يكونون خير القضاة . وأى انسان يستطيع من جهة أخرى أن يزعم أنه مبرأ من المسّ ؟ اننا جميعاً مصابون بالمس ، أنت وأنا وسائر الناس . ليست تعوزنا الأمثلة على ذلك : هذا رجل يبدو فى الظاهر هادئاً ويغنى أغنية عاطفية . وفيما هو كذلك اذا بشيء من الاشياء لا يرضيه ، فيُخرج مسدساً ويقتل أول قادم ثم يُغفر له كل شيء . لقد قرأت فى الآونة الأخيرة قصة من هذا النوع ، وقد أكد جميع الأطباء هذه الظاهرة . ان الأطباء فى أيامنا هذه يؤكدون دائماً ، يؤكدون كل شيء . تصور ان ابنتى Lise مصابة بمسّ . أمس اضطرتنى الى البكاء ، وأمس الأول أيضاً . واليوم انما اكتشفت الحقيقة ، وهى أنها قد اعتراها مس . آه . . . ليتك تعلم كم تسبب لى Lise من عناء ! يبدو لى انها فقدت عقلها . ترى لماذا استدعتك ؟ أهى استدعتك أم أنت جئت من تلقاء نفسك ؟

قال أليوشا وهو ينهض بحزم :

— بل هى استدعتنى ، وأنا ذاهب اليها .

فصاحت السيدة خوخلاكوفا تقول وهى تبكى :

— ولكن يا صديقى العزيز ، يا صديقى العزيز جداً ألكسى فيدوروفتش ، الآن انما وصلنا الى الأمر الأساسى . شهد الله أننى أكل اليك ليزا صادقة فى ذلك كل الصدق . لأن تستدعيك ليزا على غير علم أمها ، فليس هذا بالأمر الخطير جداً . وما كان لى أن أكل ابنتى بمثل هذه الطمأنينة الى أخيك ايفان فيدوروفتش ، سامحنى اذا قلت هذا ، رغم أننى أعده ، حتى

اليوم ، شاباً تفيض نفسه فروسية . هل تتصور مع ذلك أنه زار ليزا ، من غير أن أعلم أنا شيئاً ؟

قال أليوشا مدهوشاً كل الدهشة :

— ماذا ؟ كيف ؟ متى زارها ؟

ومع ذلك لم يعد الى الجلوس ، بل استمع الى شروح السيدة خوخلاكوفا واقفاً .

— سأقصّ عليك كل شيء . . ومن أجل هذا انما استدعيتك فيما أظن . على أنني أصبحت لا أعرف أنا نفسي لماذا استدعيتك . اليك الأمر : لقد زارني ايفان فيدوروفتش مرتين منذ عودته من موسكو . فأما في المرة الأولى فقد جاء من قبيل اللباقة بصفته صديقاً لا أكثر . وأما في المرة الثانية ، وهي حديثة جداً ، فقد كانت كاتيا عندي ، فعلم بذلك ، فجاء هو أيضا . لست أطمع طبعاً في أن يشرفني بالمجيء الى منزلي كثيراً ، لأنني أعرف مدى انشغاله في هذه الآونة . . . vous comprenez cette affaire et La mort terrible de votre papa [1] . . . ولكن هأنا ذا أعلم على حين فجأة أنه عاد الى منزلي لا ليزورني أنا ، بل ليزور Lise . حدث ذلك منذ ستة أيام . حضر اليها ، ومكث خمس دقائق ، ثم ما لبث أن انصرف . لم أعلم بهذا الا بعد ثلاثة أيام من جلافيرا ، فدهشت دهشة شديدة . أسرعت أنادي Lise ، ولكنها لم تزد على أن ضحكت . وقالت تشرح لي : «كان يظن يا ماما أنك نائمة ، فجاء اليّ يسأل عن صحتك» . أغلب الظن أن هذا صحيح .

---

[1] اعتقد أنك تفهم : بسبب هذه المحاكمة وميتة أبيك تلك الفظيعة . (بالفرنسية في الأصل) .

ومع ذلك ليتك تعلم مدى ما تسببه لي Lise من قلق ! آه . . . يا رب ! . . . تصور أنها في ذات ليلة — حدث هذا منذ أربعة أيام ، عقب زيارتك الأخيرة فوراً — قد انتابتها نوبة عصبية على حين فجأة : فكانت تصرخ وتئن كأنها مصابة بهستريا . لماذا لا أصاب أنا بنوبات عصبية ؟ وتكرر ذلك في الغد ، وتكرر أيضاً في اليوم الذي تلاه وامس ، وفي نحو المساء بدأت تظهر عليها أعراض المسّ . صرخت تقول لي بغتة : «أنا أمقت ايفان فيدوروفتش . يجب أن لا تستقبليه يا ماما ، يجب أن تمنعيه من دخول بيتنا !» . ذُهلت ، وأجبتها بأن من المستحيل علينا أن نعامل على هذا النحو شاباً مثله كريم النفس رفيع الثقافة ، شقياً هذا الشقاء كله فوق ذلك . ذلك أن هذه القصص كلها انما هي شقاء لا سعادة ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فلم يكن من بنتي الا أن أجابت على كلامي بقهقهة مجلجلة أحسست أن فيها اهانة جارحة لي . ومع ذلك قلت لنفسي : «لا بأس ، ما دمت قد استطعت أن أفرحها ، فلعل نوباتها العصبية ستزول الان» . وكنت أنوي أنا نفسي ، من جهة أخرى ، أن امنع ايفان فيدوروفتش من دخول بيتنا بسبب زياراته الغريبة هذه لأبنتي بدون اذني . حتى لقد كنت أريد أن أطلب منه شرحاً لذلك . ولكن ها هي ذي ليزا تثور على يوليا ثورة عنيفة في هذا الصباح منذ استيقظت ، حتى لقد بلغت من ذلك أنها صفعتها ، هل تتصور هذا ؟ أليس هذا شذوذاً غريباً ؟ لاحظ أنني أنا لا أخاطب خدمي أبداً بصيغة المفرد . وما انقضت على ذلك ساعة حتى كانت ليزا تعانق يوليا وتقبل قدميها . وفي مقابل ذلك بعثت تبلغني أنها لن تجيء اليّ ، لن تجيء اليّ قط ، هل تستطيع أن تتصور مثل هذا ؟ فلما جررت نفسي الى غرفتها يائسة ، ارتمت

علىّ وغمرتنى بقبلاتها وهى تبكى ؛ وفيما هى تقبلنى دفعتنى الى خارج الغرفة دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلم أعرف آخر الأمر شيئاً . اننى أتوكّل عليك ، يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش ، ولا شك أنك تدرك أنك تمسك بيديك مصيرى وحياتى . أضرع اليك أن تذهب الى Lise ، وأن تكلمها كما لا يستطيع غيرك أن يكلمها . ثم عد الىّ لتشرح لى ما يحدث فى نفسها ، ولتقص علىّ كل شىء ، أنا أمها . ذلك أننى سأموت ، نعم سأموت اذا استمرت تجرى الأمور على هذه الحال زمناً طويلاً أيضاً ، والا فسأهرب من هذا البيت تاركة كل شىء . لقد نفدت قدرتى على الاحتمال ، وخارت قوتى . صحيح أن صبرى واسع ، ولكن لهذا الصبر حدوداً ، فاذا بُلغت هذه الحدود أمكن أن تقع أمور فظيعة . . . آه . . . يا رب ! . . .

وفيما كانت السيدة خوخلاكوفا تقول هذا الكلام ، اذا هى تلمح الموظف برخوتين داخلاً الى الغرفة ، فصاحت تقول وقد أشرقت أساريرها على حين فجأة :

— هذا بيوتر ايليتش يصل أخيراً ! لقد تأخرت عن المجىء ، تأخرت ! هيه ! اجلس ، تكلم ، قرر مصيرى . ماذا قال المحامى ؟ الى أين تذهب يا الكسى فيدوروفتش ؟

— أنا ؟ الى Lise . . .

— ها . . . نعم . . . صحيح . . . لن تنسى أن تفعل ما طلبته منك ، أليس كذلك ؟ على هذا يتوقف مصيرى ، نعم مصيرى . . .

دمدم أليوشا يقول وهو يستعجل الخروج :

— لن أنسى ، هذا اذا وفقت الى أن . . . لكننى تأخرت . .

— لا ، لا . . . ان عليك أن تعود الىّ حتماً . لا أريد «اذا وفقت» . . . . والا مت ! . . .

كذلك صاحت تقول السيدة خوخلاكوفا ، ولكن أليوشا كان قد خرج .

٣

الشيطان الصغير

حين دخل أليوشا غرفة ليزا وجد الفتاة نصف مضطجعة على الكرسى المتحرك الذى كانوا ينقلونها عليه فى السابق حين لم تكن تستطيع أن تمشى بعد . لم تقم ليزا بحركة من أجل أن تهب الى لقائه ، وانما حدقت اليه بنظرة ثاقبة نافذة . كانت عيناها مشتعلتين قليلاً ، وكان وجهها الشاحب يبدو مصفراً بعض الاصفرار . دهش أليوشا من التغير الذى طرأ على مظهرها فى غضون ثلاثة أيام . حتى لقد لاحظ أنها نحلت بعض النحول . لم تمدّ اليه يدها ، بل هو نفسه لامس أصابعها النحيلة الطويلة التى كانت جامدة على ثوبها . ثم جلس قدامها دون أن يقول كلمة .

قالت ليزا بصوت جاف :

— أعلم أنك تستعجل الذهاب الى أخيك فى السجن . لقد احتجزتك ماما ساعتين ، ولم تزد على أن كلمتك عنّى وعن يوليا أثناء تلك المدة كلها .

سألها أليوشا :

— كيف عرفت هذا ؟

فأجابته :

— تنصّت على الباب . . . لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ انه ليحلو لى أن اتنصّت على أحاديث أمى ، وسأظل أفعل ذلك كلما شاء لى هواى أى أفعله . لست أرى فى هذا أى بأس ، ولا يخطر ببالى أبداً أن أعتذر عنه .

— ما الذى جعل مزاجك معتكراً هذا الاعتكار ؟

— أنا ؟ بالعكس : اننى مسرورة جداً . لقد قلت لنفسى فى هذه اللحظة نفسها ، للمرة الثلاثين ، اننى قد ألهمت حقاً حين رفضت أن أصبح زوجتك . أنت زوج لايطاق . هبنى زوجتك ، ثم كلفتك بأن تحمل رسالة الى عشيقى : لسوف تقوم بهذه المهمة ، ولن تقتصر على حمل الرسالة اليه بل ستجيئنى بالرد أيضاً . وحين تبلغ الأربعين من العمر ستظل تحمل رسائل من هذا النوع متى كلفتك بذلك .

وأخذت ليزا تضحك . فقال أليوشا مبتسماً :

— ان فيك مزيجا من شىء خبيث وشىء ساذج فى آن واحد .

— انا ساذجة لأننى لا أخجل منك . لا أتحرج أمامك ، بل أرفض أن أخجل منك ، نعم منك أنت بالذات . قل لى يا أليوشا : لماذا أنا لا أحترمك ؟ اننى أحبك كثيراً ، ولكننى لا أحترمك . والا لما استطعت أن أقول لك هذا فى وجهك دون أن احمرّ ، أليس كذلك ؟

— هو كذلك .

— هل تعتقد أننى لا اخجل منك ؟

— لا ، لا أعتقد بذلك .

ضحكت ليزا ضحكة عصبية مرة أخرى . كانت تتكلم بسرعة ، فى نوع من تعجل قلق مهموم .

— أرسلت سكاكر الى أخيك دمترى فيدوروفتش فى سجنه . أليوشا ، ليتك تعلم كم أنت لطيف ! سوف أحبك كثيراً لأننى أبحت لنفسى أن أكف عن حبك بمثل هذه السرعة .

— لماذا استدعيتنى اليوم يا Lise ؟

— أردت أن أنقل اليك رغبة . اننى أتمنى أن أعذّب . اتمنى أن يتزوجنى أحد ، وأن يعذب روحى بعد ذلك : يخوننى ويهجرنى ويسافر . لا أريد أن أكون سعيدة .

— اصبحت تحبين الفوضى اذن ؟

— نعم ، أحب أن أعيش فى الفوضى . أحلم دائماً باحراق المنزل . أتخيل كيف سأقترب من العمارة ، وأشعل فيها النار دون أن يرانى أحد . يجب أن يتم هذا بالسر حتماً . ويهب الآخرون ويهرولون هنا وهناك محاولين اطفاء اللهب ، ولكن اللهب ما ينفك يشتد . وأكون هناك ، أرى كل شىء ، ولا أنطق بكلمة . هوه ! تلك سخافات ! اننى ضجرة ، ضجرة ضجراً رهيباً .

قالت ليزا ذلك وحركت يدها الصغيرة باشارة اشمئزاز .

قال أليوشا فى رفق ولين :

— انك تعيشين فى الثراء .

— أيكون من الأفضل أن أعيش فى الفقر ؟

— نعم ، ذلك أفضل .

— ان صاحبك الراهب الراحل هو الذى دسّ فى رأسك هذه الأفكار . ذلك خطأ . فليبق الآخرون فقراء ؛ أما أنا فأريد أن أكون غنية . آكل سكاكر ، واشرب قشدة ، ولا أعطى من

ذلك شيئاً لأحد من اؤلئك . لا ، لا ، لا تقل لى شيئاً (قالت ليزا ذلك وهى تحرك يدها بايماءة تصد اليوشا عن الكلام ، مع أن أليوشا لم يفتح فمه) . لقد سبق أن قصصت علىّ تلك الحكايات . لقد حفظتها على ظهر قلب انها مضجرة . لو كنت فقيرة لقتلت أحداً . ولو كنت غنية لقتلت أيضاً . لماذا أبقى دون أن أعمل شيئاً ؟ أريد أن أحصد ، هل تعلم ؟ أريد أن أجنى محصول القمح . سوف أتزوجك ، وكن أنت فلاحاً ، فلاحاً حقيقياً . وسيكون عندنا مُهر ، مهر صغير جميل ، هل تريد هذا ؟ بالمناسبة : هل تعرف كالجانوف ؟

— أعرفه .

— انه يسير حالماً طول الوقت . يقول : «لماذا أحيا ؟ الأولى ان أحلم . ان الانسان يستطيع أن يحلم بأشياء مسلية ، أما الحياة فهى مضجرة دائماً» . على أنه سيتزوج قريباً . لقد صارحنى بحبه ، هل تتصور ؟ صارحنى أنا أيضاً . هل تعرف كيف تدوّم خذروفاً ؟

— نعم .

— هو أشبه بخذروف : يكفى أن ترميه ثم تجعله يدور ويدور ، ثم تضربه وتضربه بسوط صغير . ذلك ما سأفعله . سأتزوجه ثم أظل أدوّمه طوال حياته كخذروف . ألا تشعر بخجل من الثرثرة معى !

— لا .

— لا بد أنك حانق من سماع ما أقوله من ترهات سخيفة الى هذا الحد . أنا لا أحب أن أكون قديسة ، هل تعلم ؟ ما هو العقاب الذى سأعاقب به فى الحياة الآخرة على الخطيئة الكبرى ؟ لا بد أن تكون عالماً بهذه الأمور .

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه الفتاة بانتباه :

— سوف يحكم الله عليك .

— سوف يُحكم علىّ . ذلك بعينه ما أتمناه . أمثل أمام المحكمة ، فيحكم علىّ ، فأنفجر ضاحكة على حين غرة وأنا أحدق فى أعين الجميع . آه . . . ما أعظم شوقى الى احراق المنزل ، الى احراق منزلنا يا أليوشا ! أنت لا تصدق ، أليس كذلك ؟

— لم لا ؟ انه ليتفق حتى لأطفال فى الثانية عشرة من أعمارهم أن يتمنوا احراق شىء ما ، ثم اذا هم يفعلون ذلك . هذا نوع من المرض .

— خطأ ، خطأ ! أعلم أن هناك أطفالا . . . ولكننى أتكلم عن شىء آخر .

— أنت تعدين الشر خيراً . هذه نوبة طارئة لن تدوم ، ولا شك أنها من بقايا مرضك القديم .

— لا بد أنك تحتقرنى كثيراً حتى تقول هذا الكلام . الحقيقة أبسط من ذلك . أنا لا أحب عمل الخير ، وأوثر عليه الشر . ذلك كل ما فى الأمر ، وليس فى هذا أى مرض .

— لماذا تحبين عمل الشر ؟

— لأدمر كل شىء ، فلا يبقى شىء . آه . . . ما أجمل أن أفتح عينى ، فأرى أن كل شىء قد زال ! اعلم يا أليوشا أننى أحلم دائماً بأن اقترف سيئات كثيرة رهيبة . أظل أعمل زمناً طويلا فى الظلام والسرّ ، ثم يكتشفون الحقيقة على حين فجأة سيهبّون عندئذ جميعاً ضدى ، وسيشيرون الىّ بالأصابع . فلا أزيد أنا على أن أتفرس فيهم هادئة كل الهدوء . ما أمتع هذا ! لماذا يكون هذا ممتعاً يا أليوشا ؟

— لا أدرى ، ولكننى أعرف انها هى الحاجة الى تحطيم شىء ما خيرّ ، أو المنزل كما قلت أنت منذ هنيهة . هذه العواطف توجد فى نفوسنا أحياناً .

— أنا لم أقل كلاماً عابثاً ، لسوف أفعل ما قلت .

— أصدّق .

— آه . . . ما أعظم ما أحبك لأنك قلت انك تصدقنى . أنت لا تكذب البتة ، البتة ، أليس كذلك ؟ أم لعلك ظننت مع هذا اننى قلت ما قلت عامدة لأغيظك ؟

— لا ، لا أظن ذلك . . . وان كان من الممكن أن يكون فيك الى جانب هذا شىء من حب الاغاظة .

— صحيح . هنالك قليل من الاغاظة فى هذا . أعترف لك بذلك .

ثم هتفت تقول فجأة وقد قدحت فى نظرتها شرارة غريبة :

— لن أكذب أمامك أبداً .

دهش أليوشا خاصة مما كان فى الفتاة من جد . لم يكن فى وجهها الآن أثر لسخرية أو «شيطنة» ، على حين أن المرح والابتسام العنيد كانا لا يفارقانها قبل ذلك أبداً حتى فى «أخطر» اللحظات .

قال أليوشا مفكراً :

— ثمة ساعات يحب فيها البشر الجريمة .

— نعم ، نعم ! لقد عبرت عن تفكيرى نفسه . البشر يحبون الجريمة . جميع البشر يحبون الجريمة . يحبونها دائماً ، لا فى بعض «الساعات» فحسب . وكأن هناك أتفاقا عاماً بين الناس على الكذب فى هذا الأمر . هم جميعاً يؤكدون أنهم يكرهون الشر ، مع أنهم يحبونه فى سريرة أنفسهم .

— أما تزالين تقرئين كتباً سيئة ؟

— نعم ، وماما تحب هذه الكتب ، وتخفيها تحت وسادتها . ومن هناك أسرقها .

— ألا تستحين أن تدمّرى روحك هذا التدمير ؟

— أحب أن أدمر نفسى . فى هذه المدينة فتى تمدد بين قضيبى السكة الحديدية ومرّ القطار فوقه . اننى أغبط هذا الفتى وأحسده على سعادته . أنظر مثلاً : سيحكمون غداً على أخيك لأنه قتل أباه ، والناس جميعاً يستحسنون أنه قتله .

— الناس جميعاً يستحسنون أنه قتل أباه ؟

— هم مفتونون بذلك ، مفتونون ! صحيح أنهم يصيحون قائلين ان ذلك فظيع ، ولكنهم فى قرارة أنفسهم مفتونون . وأنا نفسى مفتونة ، أنا أول المفتونين .

قال أليوشا فى رفق :

— هناك جانب من حق فيما ذكرته عن الجميع .

فصاحت ليزا تقول بصوت فيه كثير من الحماسة :

— يا سلام . ما هذه الفكرة ؟ من ذا الذى يصدق أن راهباً هو الذى يقول هذا الكلام ؟ لا تستطيع أن تتصور يا أليوشا مدى ما أكنه لك من احترام لانك لا تكذب أبداً . اسمع : يجب أن أقص عليك حلماً مضحكاً أراه فى بعض الأحيان . يتفق لى أن أرى فى الحلم شياطين . أكون فى الليل وحدى مع شمعة فى الغرفة ، وفجأة تنبجس الشياطين من جميع الأركان . انهم فى كل مكان ، حتى تحت المائدة . ها هم أولاء يفتحون الباب ، وهأنا ذا أرى أن فى الخارج منهم جمهرة كبيرة أيضاً . انهم يريدون أن يدخلوا ليقبضوا علىّ . وها هم يقتربون ويمدّون مخالبهم وأرسم اشارة الصليب فاذا هم يتراجعون جميعاً

وقد استولى عليهم الخوف . لكنهم لا ينصرفون تماماً ، بل يتلبثون قرب الأبواب وفى أركان الغرفة ، كأنهم ينتظرون . وأشعر عندئذ برغبة قوية فى أن اسبّ الله بصوت عال . وآخذ أشتم الرب ، فاذا بالشياطين يتجهون نحوى جمهرة من جديد ، فرحين كل الفرح ، جذلين كل الجذل ، يهمّون ان يقبضوا علىّ . . . ولكن . . . قف ! أرسم اشارة الصليب مرة أخرى ، فيتراجعون مذعورين . ذلك أمر أبلغ من الضحك له أن أنفاسى تنقطع فى بعض الأحيان .

قال أليوشا فجأة :

— أنا أيضاً أرى هذا الحلم أحياناً .

صاحت ليزا تقول مدهوشة دهشة قوية :

— أهذا ممكن ؟ لا تمزح يا أليوشا ، أرجوك ، لأن ما أقوله جد لا هزل . هل يمكن أن يرى شخصان أثنان حلماً واحداً بعينه ؟

— يمكن جداً .

عادت ليزا تقول وقد استبدت بها دهشة تبدو شديدة :

— أليوشا ، أكرر قولى : هذا أمر هام جداً . ليس الحلم نفسه هو الذى يدهشنى هذا الادهاش كله ، وانما يدهشنى أن ترى أنت فى الحلم عين ما أرى أنا . أنت لا تكذب علىّ قط ، فقل لى الحقيقة هذه المرة أيضاً : أصحيح ما أفضيت به الىّ الآن ؟ ألم تكن مازحاً ؟

— هى الحقيقة بعينها .

قالت ليزا فجأة بصوت متوسل :

— أليوشا ، زرنى كثيراً ، زرنى أكثر مما تزورنى الآن .

قال أليوشا بلهجة جازمة :

— سأزورك دائماً ، سأزورك طوال حياتى .

عادت ليزا تقول :

— أنت الانسان الوحيد الذى أفتح له قلبى هكذا . أنا لا أتكلم بصدق الا مع نفسى ومعك . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به واركن اليه فى هذا العالم . وانى لأحب أن أتحدث اليك أكثر مما أحب أن أتحدث الى نفسى . زد على ذلك أننى لا أخجل منك البتة يا أليوشا . لماذا لا أخجل البتة ؟ هل صحيح يا أليوشا أن اليهود يسرقون الأطفال ليذبحوهم فى عيد الفصح ؟

— لا أدرى .

— عندى كتاب يصف محاكمة يهودى ، يقال انه قطع أولاً أصابع يدى طفل صغير فى الرابعة من عمره ، ثم صلبه بعد ذلك على جدار ، دقّه بمسامير . وقد أكد أمام المحكمة أن الصبى الصغيرمات بسرعة ، بعد أربع ساعات . . . هذا سريع حقاً ! ويقال ان الصبى ظل يئن بغير انقطاع ، وان اليهودى كان ينظر اليه مستمتعاً بالمشهد ما أحسن هذا !

— أهذا حسن ؟

— نعم ، حسن . أقول لنفسى فى بعض الأحيان اننى أنا التى صلبت هذا الطفل . أراه معلقاً يئن ، وأرى نفسى جالسةً أمامه آكل كمبوت الأناناس بالسكر . اننى أحب كمبوت الأناناس كثيراً . وأنت ؟

كان أليوشا ينظر اليها صامتا . وهذا وجه ليزا الشاحب الأصفر ينقبض فجأة ، وهذا لهب يطوف بعينيها .

— حين قرأت تلك القصة عن اليهودى ، ظللت أبكى طوال الليل ، هل تعلم ؟ كنت أتخيل صرخات الطفل وأناته (ان طفلاً فى الرابعة من عمره ليدرك ما يقع له) ، ثم لا أزيد

أنا على أن أحلم بكمبوت الأناناس . فلما طلع الصبح بعثت برسالة الى أحدهم طالبة اليه أن يجيئنى **حتماً** . جاء . قصصت عليه حكاية الطفل والأناناس . قلت له **كل شيء** ، **كل شيء** ، وأضفت : «هذا حسن» . فانفجر فى قهقهة كبيرة ، وأعلن أن هذا حسن جداً فى الواقع ، ثم نهض وانصرف . لم يمكث عندى الا خمس دقائق . احتقرنى ، هه ؟ قل لى يا أليوشا : أهو احتقرنى أم لا ؟

هكذا هتفت ليزا وهى تنتصب على كرسيها المتحرك ، وقد ومضت عيناها ببريق ساطع .

قاطعها أليوشا يسألها وقد اضطرب اضطراباً شديداً :

— قولى : أأنت التى استدعيته ؟

— أنا التى أستدعيته .

— برسالة ؟

— نعم ، برسالة .

— أمن أجل أن تسأليه عن أمر ذلك الطفل ؟

— لا ، لا من أجل هذا ، لا من أجل هذا أبداً . ولكن حين دخل غرفتى أسرعت ألقى عليه سؤالاً عن موضوع الطفل . فأجابنى ضاحكاً ، ثم نهض وخرج .

قال أليوشا فى رفق :

— لقد أحسن التصرف معك .

— ولكنه احتقرنى ، أليس كذلك ؟ سخر منى ؟

— لا . . . لأن من الجائز جداً أن يكون هو نفسه مقتنعاً بمزايا كمبوت الأناناس . انه مريض جداً يا Lise هو أيضاً .

هتفت ليزا تقول وقد التمعت عيناها :

— نعم نعم ، هو مقتنع بذلك .

وتابع أليوشا كلامه فقال :

— انه لا يحتقر أحداً ، لكنه لا يؤمن بأحد . ومتى لم يؤمن بأحد فلا بد أن يحتقر فى آخر الأمر حتماً .

— وأن يحتقرنى أنا اذن أيضاً ؟ أيحتقرنى أنا أيضاً ؟

— أنت أيضاً .

قالت ليزا فى حنق شديد :

— طيب ، طيب . حين خرج من عندى ضاحكاً أحسست أن من الممتع للمرء أن يشعر بأنه محتقر . ان الطفل المقطوع الأصابع شيء رائع ، وجميل جداً أن يُحتقر المرء . . .

وانطلقت ليزا تضحك ضحكاً مجلجلاً وهى تحدق الى أليوشا فى عينيه . وصاحت تقول فجأة وهى تثب واقفة من كرسيها المتحرك وتطوقه بذراعيها بقوة :

— هل تعلم يا أليوشا ؟ هل تعلم ؟ أود لو . . . انقذنى يا أليوشا !

ثم كررت تقول بصوت يشبه فى هذه المرة أن يكون أنيناً :

— أنقذنى يا أليوشا . من ذا الذى كان يمكننى أن أفضى اليه بما قلته لك اليوم ؟ وما اعترفت لك به كان هو الحقيقة مع ذلك ، كان هو الحقيقة صافية . أوه ! سوف أقتل نفسى ، لأننى أشمئز من كل شيء ! أصبحت لا أريد أن أحيا ، لأنى اشمئز من كل شيء . كل شيء ! كل شيء يثير فى نفسى الاشمئزاز . أليوشا ، لماذا لا تحبنى البتة ؟ انك لا تحبنى قط . . .

بهذا ختمت ليزا كلامها جائشة النفس . فقال أليوشا محتجاً بحرارة :

— بل أنا أحبك .

— أفسوف تبكى علىّ ؟

— سوف أبكى عليك .

— لا لأننى رفضت أن أتزوجك ، بل لغير سبب ، هكذا ، هل تفهم ؟

— سوف ابكى .

— شكراً . أنا ظمأى الى دموعك . أما الآخرون فليحكموا علىّ ، وليدينونى ، ليسحقونى جميعاً ، جميعاً ، دون استثناء أحد ! لأننى لا أحب أحداً . هل سمعت ؟ لا أحب أحداً ، لا أحب أحداً البتة . اننى اكرههم جميعاً .

ثم أضافت وهى تتركه فجأة :

— واذهب الآن يا أليوشا . لقد آن أن تمضى الى أخيك .

سألها أليوشا شبه مذعور :

— كيف أتركك وأنت فى هذه الحالة ؟

— اذهب الى أخيك . سوف يغلقون السجن بعد قليل . أسرع . اليك قبعتك . قبّل ميتيا . انصرف . انصرف الآن .

قالت ليزا ذلك ودفعته الى خارج الغرفة دفعاً يشبه أن يكون اخراجاً بالقوة . فكان أليوشا ينظر اليها مدهوشاً دهشة ألية ، ثم اذا هو يشعر فجأة بأن ورقة مطوية توضع فى يده اليمنى . انها رسالة مغلقة صغيرة المساحة . ألقى نظرة على العنوان فقرأ : «الى ايفان فيدوروفتش كارامازوف» . فشخص ببصره الى ليزا بقوة ، ولكن وجه الفتاة كان يعبر عندئذ عن معنى يكاد يكون هو التهديد . وأمرته بصوت مندفع ، وهى ترتعش من رأسها الى قدمها :

— أعطه هذه الرسالة ، أعطه اياها حتماً ، أعطه اياها اليوم ، فوراً . والا شربتُ سمّاً . من أجل هذا انما استدعيتك .

واغلقت الباب وراءه فجأة . وسمع صوت المزلاج يُدفع .

وضع أليوشا الرسالة فى جيبه ، وهبط السلم دون أن يمر بالسيدة خوخلاكوفا التى كان قد نسى وجودها . فما ان ابتعد حتى سحبت ليزا المزلاج من جديد ، وشقت الباب قليلاً ، فأدخلت اصبعها فى الشق ، ثم عادت تغلق الباب بحركة مفاجئة . انقضت عشر ثوان أخرجت ليزا بعدها اصبعها واتجهت تجلس على مقعدها بخطى بطيئة ، جلست عليه منتصبة القامة تماماً ، وأخذت تتفرس فى اصبعها التى اسودت وفي الدم الذى تفجر تحت ظفرها . كانت شفتاها تختلجان ، ودمدمت تقول مراراً بسرعة :

— حقيرة ، حقيرة ، حقيرة ، حقيرة !

٤

النشيد والسر

كان الوقت متأخراً جداً حين طرق أليوشا باب السجن (تعلمون أن النهار قصير عندنا فى نوفمبر) . لقد هبط الليل . ولكن أليوشا يعلم أنهم لن يضعوا عقبات فى سبيل دخوله على ميتيا . كان كل شىء ، فى مدينتنا الصغيرة ، يجرى كما تجرى الأمور فى أى مكان آخر . ففى الآونة الأولى التى أعقبت الاعتقال ، وبعد التحقيق التمهيدى ، كان الوصول الى السجن صعباً ، وكان على الأهل أو الأصدقاء الذين يرغبون فى رؤية السجين أن يقوموا ببعض الاجراءات الرسمية . ولئن لم تهمل

هذه الأنظمة بعد ذلك ، فقد استُثنى منها عدد من الأشخاص . حتى لقد أصبح يُسمح لميتيا فى بعض الأحيان أن يكلم زواره فى غرفة المقابلات دون رقيب . على أن عدد هؤلاء المستثنين كان محدوداً . انهم : جروشنكا ، وأليوشا ، وراكيتين . فأما جروشنكا فقد كانت تحظى من رئيس الشرطة ميخائيل ماكاروفتش بعطف خاص . كان هذا العجوز يريد اصلاح خطئه الذى ارتكبه حين قذفها بما قذفها به من شتائم فى موكرويه . انه حين علم حقيقة الأمر فيما بعد ، قد غيّر رأيه فى المرأة الشابة تغييراً تاماً . ومن غريب الأمور أنه على بقائه مقتنعاً اقتناعاً جازماً بارتكاب ميتيا الجريمة ، قد رقّ لميتيا شيئاً فشيئاً منذ اعتقاله ، وكان يقول لنفسه : «انه رجل طيب تفيض نفسه خيراً ، ولكن السكر والاضطراب النفسى قد أورداه موارد الهلاك !» . ان نوعاً من الشفقة قد حلّ فى نفس رئيس الشرطة محل الكره الذى شعر به فى أول الأمر . وأما أليوشا ، الذى يعرفه رئيس الشرطة منذ زمن طويل فقد كان يحبه رئيس الشرطة كثيراً . وأما راكيتين الذى أخذ يزور ميتيا فى سجنه كثيراً منذ زمن ، فقد كان على علاقات طيبة متصلة «بآنسات رئيس الشرطة» ، كما كان يسميهن ، وكان يُرى فى منزل رئيس الشرطة كل يوم تقريباً . زد على ذلك أنه كان يعطى دروساً لأولاد مفتش السجن ، وهو عجوز طيب لطيف ، ولكنه متشدد فى القيام بواجبه لا تلين له فى ذلك قناة . وكان أليوشا ، هو أيضا ، على صلة وثيقة بهذا المفتش ، فهو يعرفه منذ مدة طويلة ، وكان المفتش يحب أن يتحدث معه فى «الشئون المقدسة» . أما ايفان فيدوروفتش فكان المفتش يحترمه بل ويخشاه ، ويهاب قوة فكره خاصة ، رغم أنه كان يعد نفسه فيلسوفا كبيراً «بلغ هذه الدرجة من المعارف بعقله نفسه» . وفى

مقابل ذلك ، كان المفتش يشعر نحو أليوشا بمحبة لا سبيل الى مقاومتها . لقد شرع أثناء هذه السنة الأخيرة فى دراسة الاناجيل المزيفة ، فكان ما ينفك يطلع صديقه الشاب على ما يجول فى ذهنه من أفكار . حتى لقد كان فى الماضى يسعى اليه فى الدير ، ويظل يناقشه ويناقش الكهنة من الرهبان ساعات .

جملة القول انه لم يكن على أليوشا حين يصل الى السجن متأخراً الا أن يذهب الى مفتش السجن ، فاذا بكل شىء يجرى هيناً ليناً . أضف الى ذلك أن جميع موظفى السجن حتى أصغر حارس ، كانوا قد ألفوا أليوشا . والموظف لا يضع العقبات متى كانت السلطات تغمض أعينها . وكان ميتيا يترك زنزانته متى نودى ، وينزل الى القاعة التى تتخذ مكاناً للمقابلة .

فلما دخل أليوشا هذه الغرفة ، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام راكيتين الذى يتهيأ للانصراف . كان راكيتين يتحدث بصوت عال الى ميتيا الذى يشيّعه ضاحكاً ضحكاً قوياً جداً بينما راكيتين يتذمر . ان راكيتين قد أصبح منذ زمن يمتعض من لقاء أليوشا ، ويتجنب أن يكلمه ، ولا يحييه الا على مضض ، فلما لمح أليوشا فى هذه المرة ، قطب حاجبيه وأشاح عينيه ، وتظاهر بانهماكه فى عقد أزرار معطفه الشتوى ذى الياقة الفرائية ، ثم انهمك بعد ذلك فى البحث عن مظلته ؛ ودمدم يقول من أجل أن يقول شيئاً ما :

— أرجو أن لا أنسى شيئاً مما يخصنى .

فأجابه ميتيا مازحاً :

— واياك أن تنسى خاصة ما يخص غيرك !

وأسرع يضحك من كلمته هو .

فغضب راكيتين فجأة وصرخ يقول وهو يرتجف غيظاً وحنقاً :

— خير لك أن تسدى هذه النصيحة الى ذويك آل كارامازوف ، لا الى راكيتين ، أيها المستغلون !

فأجابه ميتيا قائلاً :

— ماذا دهاك ؟ انا انما كنت مازحاً . شيطان يأخذك .

ثم أضاف يخاطب أليوشا ، مشيراً برأسه الى راكيتين الذى كان يبتعد مسرعاً :

— هم جميعاً كذلك . لقد كان هنا مرحاً صافى المزاج . فاذا هو يغضب الآن على حين فجأة . لقد أبى أن يحييك حتى بايماءة . أأنتما متخاصمان تماماً ؟ لقد تأخرت اليوم ، كنت لا انتظرك وحسب ، بل كنت فى ظمأ شديد الى رؤيتك منذ الصباح . لا بأس ، سنتدارك ما فات .

سأله أليوشا وهو يشير بعينه الى الباب الذى خرج منه راكيتين :

— لماذا يزورك هذا كثيراً ؟ أتراك قد توثقت الصداقة بينك وبينه ؟

— أأنا تتوثق الصداقة بينى وبين ميخائيل ؟ لا . . . انه خنزير . هو يظن اننى . . . وغد . أمثاله لا يفهمون المزاح ، ذلك أهم ما يميزهم . لا يفهمون المزاح ابداً . نفوسهم جافة ، مسطحة وجافة حزينة كجدران هذا السجن كما رأيتها حين وصلت الى هنا . ولكنه رجل ذكى . هيه يا ألكسى ، هأنا ذا قد هلكت الآن !

قال ميتيا ذلك ثم جلس على دكة وأجلس أليوشا الى جانبه . قال أليوشا خجلاً :

— نعم ، سيحكم عليك غداً . ولكن ألم يبق لك أى أمل فعلاً يا أخى ؟

قال ميتيا وهو يلقى على أخيه نظرة غامضة :

— ماذا تقصد ؟ آ . . . فهمت . . . تقصد تلك المحاكمة ! ولكن هذه القصة لا تعنينى . اننا لم نتحدث حتى الآن الا فى سفاسف ، كهذه المحاكمة التى تبدأ غدا ، وقد سكت أمامك عن المسائل الأساسية حتى الآن . صحيح أننى سيُحكم علىّ غداً ، ولكن ليس هذا ما جعلنى أقول اننى هلكت . ليس رأسى هو الذى يتهدده الخطر حتى الآن ، بل ما فى داخل رأسى . لماذا تنظر الىّ هذه النظرة التى تدل على الاستياء ؟

— اننى لا أفهم ما تقصد يا ميتيا .

— أقصد أفكارى . . . أقصد «الايطيقا» . ماذا تعنى هذه الكلمة : «الايطيقا» ؟

سأله أليوشا مدهوشاً :

— الايطيقا ؟

— نعم . هل ذلك ضرب من العلم ؟

— نعم ، هناك علم يسمى بهذا الاسم . . . ولكن . . . أعترف لك بأننى لا أستطيع أن أشرح لك ما هو هذا العلم .

— أما راكيتين فيعرف ما هو هذا العلم . ان راكيتين هذا يعرف أشياء كثيرة . شيطان يأخذه ! انه لن يصبح راهباً . انه يفكر فى الذهاب الى بطرسبرج ، ويأمل أن يمارس هنالك عمل النقد ، ولكن فى اتجاه أخلاقى رفيع . على كل حال ، قد يكون نافعاً فى هذا المجال ، وقد يصبح شخصاً مرموقاً فى الوقت نفسه . انه رجل ماكر يعرف كيف يدبر أموره . . . وبئست «الايطيقا» ! هل تعلم أننى هلكت يا ألكسى ، يا عبد الله ! اننى أحبك أكثر مما أحب سائر الناس . ان قلبى ليدمى حين أفكر فيك . مَنْ ذلك العالم الذى يسمى كارل برنار ؟

سأله أليوشا مدهوشاً من جديد :

— كارل برنار ؟

— لا ، لا كارل ، لقد أخطأت . لحظة . أقصد كلود برنار . من كلود برنار هذا ؟ لعله كيميائى ؟

قال أليوشا :

— يبدو انه عالم من العلماء . ولكن أعترف لك بأننى لا أستطيع أن اقول لك أشياء كثيرة عنه . لقد سمعت أنه عالم ، ولكن لا أدرى فى أى ميدان من ميادين العلم .

استأنف ميتيا كلامه قائلا :

— طيب . . . شيطان يأخذه . . . أنا أيضا لا أدرى . . . لعله واحد من أولئك الأشقياء الذين كثر عددهم فى أيامنا هذه . أما راكيتين فسيعرف كيف يشق طريقه وينجح . انه يحسن التسلل الى كل مكان . هو فى نوعه برنار آخر . أوه ! ما أكثر الذين يمكن أن يسموا برنار فى هذا العالم الآن !

سأله أليوشا ملحاً :

— هلاّ قلت لى ماذا دهاك ؟

— انه ينوى أن يكتب شيئاً عنى ، عن قضيتى ، ويأمل أن يكون ذلك بداية نشاطه الأدبى . ولهذا الغرض انما يزورنى . لقد شرح لى هو نفسه ذلك . انه يرجو أن يكتب مقالة تتيح له أن يبسط بعض الآراء الأخلاقية ، كأن يقول ، اذا صدق فهمى : «ما كان يمكنه الا أن يقتل ، لأن بيئته قد أفسدته» . وسيعبر عن معان أخرى من هذا القبيل ، وسيصبغ ذلك كله بلون اشتراكى فيما يقول . شيطان يأخذه . وليقل ما يشاء ، وليصبغ ما يقوله بما يحب أن يصبغه به . فذلك كله لا يعنينى فى شىء . أما انه لا يحب أخانا ايفان . انه يكرهه . ولا يكن لك وداً . أما

أنا فاننى أحتمل زياراته لأنه رجل ذكى . ولكننى أعدّه مع ذلك مغروراً بعض الغرور . قلت له منذ لحظات : «ليس آل كارامازوف اوغاداً ، بل هم فلاسفة ، لأن جميع الروس الحقيقيين فلاسفة . أما أنت فانك لم تصبح فيلسوفاً رغم جميع دراساتك ، لأنك لست الا فلاحا» . وقد ضحك ضحكاً خبيثاً حين سمعنى أقول هذا الكلام . فأضفت عندئذ قولى : «لا جدال فى الآراء» . نكتة حلوة ، هه ؟ على أى حال انا أيضا دخلت الكلاسيكية .

بذلك ختم ميتيا كلامه وهو ينفجر ضاحكاً على حين فجأة .

قاطعه أليوشا سائلاً :

— لماذا تقدّر أنك هالك ؟ لماذا قلت هذا الكلام منذ هنيهة ؟

— لماذا أنا هالك ؟ همْ . . . الواقع . . . اذا أردت أن أقول الحقيقة . . . اننى آسف على الله ! هذا هو الأمر . . .

— آسف على الله ؟ كيف ؟

— تخيل ما يلى : ان هناك أعصاباً فى موضع من الرأس . . أقصد فى الدماغ . . . (شيطان يأخذ الأعصاب !) . . . والأعصاب ألياف ، فحين تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز . . . أقصد يكفى أن أنظر الى شىء من الأشياء بعينى حتى تأخذ هذه الألياف بالاهتزاز حالاً . . ومتى اهتزت الألياف تكونت صورة ، لا على الفور ، بل بعد لحظة . . . تنقضى ثانية فيظهر شىء أشبه بلحظة . . . لا ، لا لحظة . . . (شيطان يأخذ اللحظة !) . . . أقصد تحدث صورة ، أى يحدث شىء أو فعل . . . شيطان يأخذهما ! . . . فذلك هو السبب فى أننى أدرك ثم أفكر . ليس السبب أن لى نفساً ، وأننى خلقت على صورة الله . سخافات هذه الأفكار كلها ! لقد شرح لى ميخائيل كل شىء أمس ،

فشعرت بما يشبه الحرق فى قلبى . العلم شىء رائع يا أليوشا ! هى انسانية جديدة ستولد . اننى أدرك هذا . . . ولكننى مع ذلك آسف على الله !

قال أليوشا :

— هذا على الاقل حسن .

— أن أكون آسفا على الله ؟ هى الكيمياء يا أخى ، الكيمياء ! لا حيلة لك يا صاحب القداسة ، الكيمياء تتقدم ، تنحوا ، أفسحوا المكان ، أفسحوا المكان ! أما راكيتين هذا فانه لا يحب الله ! هو لا يحبه . تلك اكثر النقاط ضعفاً فيهم جميعاً ! ولكنهم يكتمونه . انهم يكذبون . انهم يمثلون . سألته : «هل ستبسط هذه الأفكار فى مقالات نقدية ؟» ، فأجابنى ضاحكاً : «لن يُسمح لى بذلك ، هذا مؤكد» ، فسألته بعد ذلك : «ولكن ما الذى سيصير اليه الانسان فى هذا كله ، بغير اله ، وبغير حياة آخرة ؟ واذن فمعنى هذا أن كل شىء سيكون مباحاً بعد الآن ، وأن فى وسع الانسان أن يفعل ما يشاء ؟» ، فأجابنى ضاحكاً من جديد : «أكنت لا تعرف هذا اذن ؟» ثم أضاف قائلاً : «ان الانسان الذكى يمكنه أن يبيح لنفسه كل شىء ، لأنه سيستطيع دائماً أن يدبر أمره ويخرج من مأزقه ، أما أنت فقد قتلت ثم سمحت لهم بأن يقبضوا عليك . ولذلك تتعفن الآن فى زنزانة» . ذلك ما قاله لى ، لى أنا . هذا خنزير قذر حقاً ! هؤلاء الأوغاد ، كنت فيما مضى أطردهم . أما الآن ، فأنا أصغى اليه ، أسمع له . ان فى ما يقوله كثيراً من الأشياء المعقولة . وهو عدا هذا يجيد الكتابة جداً . فى الأسبوع الماضى ، قرأ علىّ احدى مقالاته . فسجلت ثلاثة أسطر منها عامداً . لحظة . اليك ما سجلته .

وأسرع ميتيا فاستل من جيب صديرته ورقة وقرأ :

«من أجل أن يكون المرء قادراً على أن يحل هذه المشكلة ، يجب عليه أولاً أن يضع شخصه فى تعارض مع واقع حياته .»

هل تفهم ما معنى هذا ؟

قال أليوشا الذى كان يلاحظ ميتيا بدهشة واستطلاع :

— لا ، لا أفهم .

— وأنا أيضاً لا أفهم . ان هذه الجملة غامضة وغير مفهومة ، ولكنها تبدو لى ذكية جداً . وقد أسرّ الىّ «أن جميع الناس يكتبون اليوم بهذه الطريقة . فالبيئة هى التى تفرضها . . .» . انهم يخافون البيئة . وهو ينظم اشعاراً ، هذا الوغد . لقد تغنى بساق خوخلاكوفا ، هأ هأ هأ .

قال أليوشا :

— سمعت بذلك .

— ها . . . سمعت ؟ هل سمعت تلك الأبيات ؟

— لا .

— هى عندى . سأقرؤها لك . هذه حكاية طويلة ، انت لا تعرف ، لم اقصها عليك . يا للوغد ! منذ ثلاثة أسابيع قام فى رأسه أن يغيظنى . قال لى : «ما أغباك ! أنت ضيعت نفسك ، وضيعت نفسك فى سبيل ثلاثة آلاف روبل فقط . أما أنا فسأجنى مائة وخمسين ألف روبل ، بتزوج أرملة غنية . وبعد ذلك أشترى منزلاً جميلاً فى بطرسبرج .» . واسرّ الىّ عندئذ أنه يغازل السيدة خوخلاكوفا ، التى لم تكن ذكية حتى فى ريعان صباها ، ثم لم يبق لها شىء من فطنة حين بلغت الأربعين من عمرها . وأضاف قوله : «وهى فوق ذلك حساسة عاطفية ، ومن هنا سآتيها . سوف أتزوجها ، وآخذها الى بطرسبرج ، فانشىء

هنالك جريدة .» . وكان يسيل على شفتيه لعاب شهوانى فظيع وهو يقول لى هذا الكلام ، ولكن لا بسبب خوخلاكوفا طبعاً ، بل بسبب المائة وخمسين ألف روبل . ومنذ ذلك الحين أصبح يسرّ الىّ كل يوم بأشياء جديدة ، قائلاً : «ان الأمور تجرى مجرى حسناً» ، ويشرق وجهه فرحاً أثناء ذلك . ولكن ها هو ذا يُطرد فجأة من منزل السيدة خوخلاكوفا . لقد غلبه بيوتر ايلتش بيرخونين وانتصر عليه . مرحى ! وددت لو أقبل تلك الحمقاء لأنها استطاعت أن تطرده من منزلها . فى فترة زياراته لى انما نظم تلك القصيدة . وقد اعترف لى قائلاً : «تلك أول مرة ألوث يدى بنظم الشعر . لقد ارتضيت ذلك لأغوى امرأة حمقاء غنية فى سبيل عمل عظيم أريد أن أحققه . فمتى استوليت على أموال هذه البقرة العجوز ، استطعت أن أكون بعد ذلك نافعاً للمجتمع» . ان هؤلاء الناس يجدون فى جميع الأحيان عذراً يسوّغون به حقاراتهم ودناءتهم ، هو عذر المنفعة الاجتماعية . وقد قال لى : «ومع ذلك صنعت خيراً مما صنع صاحبك بوشكين ، لاننى استطعت أن أودع حزناً وطنياً فى بضعة أبيات شعرية مازحة» . على أن ما يقوله عن بوشكين يبدو لى معقولا . فما دام ذلك الشاعر يملك موهبة عظيمة حقاً ، فانه ما كان له أن يقتصر على التغنى بالسيقان ! وما كان أشد اعتزاز راكيتين بتلك الأشعار التى نظمها ! ان فيهم غروراً ، هؤلاء الشعراء جميعاً ! ان العنوان الذى تخيله هذا الشخص النشيط لقصيدته هو التالى : «لشفاء ساق المحبوب الصغيرة» .

للساق الفتانة
المتورمة الآن
الأطباء حولها منهمكون

ليضمدوها بحب وحنان
لست أندب الساق ،
فانى أترك هذا لبوشكين .
لكننى أشكو الرأس
لأنه لا يفكر كما ينبغى أن يفكر .
كانت قد بدأت تفهمنى
حين تمردت الساق !
هلموا فاشفو الساق الرقيقة
حتى تستطيع الأفكار أن تحلق .

انه وغد ، وغد حقاً ، ولكن أشعاره مرحة . ثم ان فيها «فكرة وطنية» ، كما يقول . لقد استشاط غيظاً حين طرد . كان يصرف بأسنانه من شدة الحنق .

قال أليوشا :

— لقد انتقم منذ الآن . نشر مقالة عن السيدة خوخلاكوفا .

وقصّ أليوشا على ميتيا بسرعة ، قصة المقالة التى ظهرت فى جريدة «الشائعات» . فقال ميتيا مؤيداً وهو يقطب حاجبيه :

— انه هو ، انه هو . . . هو كاتب المقالة . ليس فى ذلك شك ! آه من تلك الأقاويل والنمائم ! أنا على علم . . . ما أكثر ما نشروا من تخرصات لئيمة حقيرة حتى الآن ، عن جروشنكا مثلاً ! وعن الأخرى أيضاً ، عن كاتيا . . . هِمْ . . .

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يمشى فى الغرفة مهموم البال .

استأنف أليوشا قائلاً بعد صمت :

— لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة هذا المساء يا أخى . ان غداً ليوم عظيم رهيب بالنسبة اليك : غداً تتم ارادة الله . . . يدهشنى مع ذلك أنك فى عشية ذلك الغد تضيع وقتك فى الكلام

عن سفاسف . . .

قاطعه ميتيا يقول بحرارة :

— لا يدهشنك هذا . أتراك تؤثر أن أتكلم عن ذلك الشقى العفن التتن ، عن القاتل ؟ لقد سبق أن تكلمنا عنه ، وأسرفنا فى الكلام . لا أريد أن أسمع بعد الآن شيئاً عن التتن ابن التتنة ، لسوف يعاقبه الله . . . سوف ترى . . . ليعاقبنّه الله لا محالة . . .

واقترب من أليوشا وقد استولى عليه اضطراب شديد ، وقبّله فجأة . كانت عيناه تسطعان . وأخذ يقول بنوع من الوجد كأنه خارج عن طوره :

— لا يستطيع راكيتين أن يفهم هذا ، أما أنت فسوف تفهمه . ومن أجل ذلك انما كنت فى ظمأ شديد الى أن أراك . هل تعلم أننى ، منذ زمن طويل ، أريد أن أكلمك فى أشياء كثيرة ، هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة ، ولكننى لم أعالج النقطة الأساسية حتى الآن . يبدو أنه لم يكن قد آن لى أن أسرّ اليك بما فى نفسى بعد . لقد انتظرت ، انتظرت الى آخر دقيقة ، لأفتح لك قلبى . أخى ، أخى ، اننى فى أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، قد أصبحت انساناً آخر . لقد ولد فىّ كائن جديد . الحق أنه كان موجوداً فىّ منذ الأزل ، ولكن ما كان له أن يظهر لو لا تلك الكارثة . شىء رهيب ! اننى لا أخشى أن أعمل بيدى فى المناجم عشرين عاماً . ذلك لا يهمنى . هناك شىء آخر هو الذى اخشاه الآن . اننى أخشى أن يزول ، من جديد ، الانسان الذى بُعث حياً فى نفسى . ان المرء يستطيع أن يجد حتى فى سجون الأشغال الشاقة ، حتى فى جحيم غياهب المناجم ، يستطيع أن يجد بقربه سجيناً آخر يخفق فيه قلب

انسانى وان يكن رجلاً قاتلاً . يستطيع المرء أن يصادقه ، لأنه مباح للمرء هنالك أيضاً أن يحيا وأن يحب وأن يتألم ! يستطيع المرء أن ينذر نفسه لذلك السجين ، ليشعل فى قلبه مرة أخرى شعلة الحب التى اطفأها الظلم ، يستطيع أن يحيطه بالعناية والرعاية والحب والعطف خلال سنين ، الى أن تنبجس أخيراً من ظلمات وجوده نفسُ أحياها الألم وطهرّها ونقّاها وأسبغ عليها حلة النبل والكرم ، فاذا هى تندفع بعد ذلك نحو النور والضياء . ان فى وسعنا أن نحيى الملاك فى الشيطان ، وأن نبعث البطل فى الجبان . انهم كثر هنالك ، أولئك الذين سقطوا ؛ انهم مئات ومئات ، ونحن جميعاً مسئولون عن مصيرهم . لماذا رأيت فى حلمى «الصبى» ، وأنا اجتاز من حياتى مرحلة تبلغ هذا المبلغ من ألم الفاجعة وعذاب المأساة ؟ «لماذا يجب أن يتألم الصبى ؟» تلك اشارة من السماء نزلت علىّ فى ساعة المحنة العظمى . سأمضى الى سجن الأشغال الشاقة من أجل ذلك الصبى . ان جميع البشر مسئولون عن آثام سائر الناس . مسئولون عن جميع الاطفال لأن فى هذا العالم اطفالاً منهم الصغار ومنهم الكبار . وجميعهم هم «الصبى» سأمضى من اجلهم جميعهم ، لأنه لابد أن يكفر أحد عن الآخرين وأن يفتديهم . أنا لم أقتل أبى ، ولكن من واجبى أن أضحى بنفسى . اننى أقبل ما كتب علىّ ! هنا ، فى هذا السجن ، انما فهمت هذه الأشياء كلها . . . هنا ، بين هذه الجدران المتقشرة . . انهم كثيرون هناك ، تحت الأرض ، يحفرون فى المنجم والمعاول فى ايديهم . صحيح أننا سنكون مكبلين بالأغلال ، وصحيح أن ارادتنا ستكون محطمة . ولكن ، هناك ، فى ذلك الألم الكبير ، سنبعث الى الفرح ، الى الفرح الذى لا يمكن بدونه أن يحيا الانسان ، الى

الفرح الذى بدونه لا يوجد الله ، لأن الله هو ينبوع الفرح ، فتلك هى الميزة التى ينفرد بها الله . رباه ! ألا فليفن الانسان نفسه فى الصلاة والدعاء ! كيف يمكننى أن أعيش تحت الأرض بدون الله ؟ ان راكيتين يكذب ! وحين سيطرد البشر الله من على سطح الأرض ، سنلقاه نحن فى جوف الأرض ، ونرتد اليه . ان السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة يستحيل عليه أن يحيا بدون الله ، بل يستحيل عليه ذلك أكثر من الانسان الحر الطليق ! فمن غياهب الليل ، سنغنى نحن الذين نعيش تحت الأرض ، سنغنى نشيداً حزيناً يمجد الخالق ينبوع السعادة والضياء . تبارك الرب ، وتبارك فرحه ! انى أحب الله !

كان ميتيا يكاد يختنق وهو ينطق بهذه الكلمات . كان قد اصفر وجهه ، وتقبضت شفتاه تقبضاً عصبياً ، وسالت من عينيه دموع . واستأنف كلامه يقول :

— لا ياأخى ، ان الحياة غنية ، فى وسع المرء أن يحيا تحت الأرض أيضاً . لا تستطيع أن تصدق يا أليوشا الى أى حد أحب الآن أن أحيا ، ولا تستطيع أن تتصور رغبتى المحمومة القوية فى أن أوجد وأن أعرف ، لا تستطيع أن تتصور هذه الرغبة التى استولت على وأنا بين هذه الجدران المتقشرة ! ان راكيتين لن يفهم هذا فى يوم من الأيام ، لأنه لا يفكر الا فى تحصيل ثروة ، وبناء منزل كبير يؤجره ويتقاضى أجوره بانتظام . لذلك انتظرتك نافد الصبر . ليس يهمنى الألم . لن أخشى الألم بعد الآن مهما يكن كبيرا . كنت أخافه فى الماضى ، ولكننى أصبحت لا أخافه . هل تعلم . . . من الجائز أن أرفض الاجابة أمام المحكمة . يخيّل الىّ فى بعض الأحيان أن بى من القوة ما سوف يمكننى من تذليل جميع المصاعب ، والانتصار على جميع

المحن ، لا لشىء الا أن أقول لنفسى فى كل لحظة سعيداً : «أنا موجود» . لسوف أردد وأنا فى العذاب الذى لا نهاية له : «أنا موجود» . لسوف أهتف حين يشنجنى الألم : «أنا موجود» . لسوف أشعر اذا ربطت بالعمود وشددت اليه ، بأننى ما زلت أحيا ، وسوف أرى الشمس . وهبنى لم أرها ، فسوف أعرف على الأقل أن الشمس تشرق على العالم وتتلألأ . لأن أعرف أن الشمس تتلألأ فذلك وحده حياة كاملة . أليوشا ، طفلى الحبيب ، ان أفكارهم الفلسفية تقتلنى قتلاً ، تعساً لهم ! ان أخانا ايفان . . .

قاطعه أليوشا سائلاً :

— هيه . . . ما له ، ايفان ؟

ولكن ميتيا لم يسمع .

— كنت فى الماضى أجهل جميع هذه الشكوك ، ولكنها كانت تضطرب فى نفسى على غير علم منى . ولعلنى لم أندفع فى الشراب ، ولم أكن أقاتل الناس وأنقاد للعنف الا لأن تلك المعانى كانت تغلى فى داخلى . فمن أجل أن أخنقها ومن أجل أن أسحقها انما كنت أتخبط ذلك التخبط . أن أخانا ايفان ليس مثل راكيتين . انه يخفى فى نفسه فكرة يكتمها سراً . ان أخانا ايفان يشبه أبا الهول . انه يصمت ، يصمت دائماً . أما أنا فأن فكرة الله تعذبنى ، وهى عذابى الوحيد الحق . ما عسى أن يحدث اذا لم يوجد الله ؟ لنفرض أن راكيتين على حق ، لنفرض أن هذه الفكرة من صنع خيال الانسان . اذا لم يوجد الله كان الانسان هو سيد الأرض ، ورئيس الكون ! عظيم ! ولكن كيف يكون هذا الانسان فاضلاً بدون الله ؟ ذلك هو السؤال ، وانا لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال . من الذى سيحبه الانسان اذا لم يوجد الله ؟ قل لى : الى من سيندفع الانسان بشكران روحه ،

ولمن سيغنى أنشودة فرح ؟ ان راكيتين يسخر من هذا كله . هو يرى أن الانسان يستطيع أن يحب الانسانية مستغنيا عن الله . لا يستطيع الا سخيف مثله أن يصدق هذا الكلام . أما أنا فلن أفهمه فى يوم من الأيام . الحياة تبدو سهلة لراكيتين . قال لى اليوم : «الأولى بك أن تهتم الآن بزيادة حقوق الانسان المدنية . فاذا لم تستطع ذلك فحاول على الأقل أن تعمل ما يجب عمله حتى لا يزيد الجزارون أسعار اللحم . فبذلك تخدم الانسانية خدمة أصدق وأجدى مما تخدمها بهذه الفلسفات كلها» . أجبته قائلاً : «انك اذا أنكرت الله ، تنتهى الى زيادة سعر اللحم أنت نفسك . فتربح بالكوبك روبلاً» . عندئذ غضب راكيتين . ما هى الفضيلة ؟ اشرح لى الفضيلة يا ألكسى . أنا فى ذهنى فكرة عن الخير ، ولكن الصينى فى ذهنه فكرة أخرى مختلفة عن فكرتى أنا . فهذا يعنى ان الخير فكرة نسبية ، أليس كذلك ؟ أليس الخير فكرة نسبية ؟ هذه مشكلة مقلقة . لن تسخر منى ، أنت على الأقل ، اذا قلت لك ان هذه المشكلة قد أرقتنى ليلتين ، فلم أستطع النوم . اننى أتساءل اليوم كيف يمكن أن يحيا البشر دون أن يفكروا فى هذه المشكلة . باطل ! ان ايفان لا يؤمن بالله . انه لا يؤمن الا بالأفكار . ذلك يفوق مستواى . ولكنه يصمت . أحسب أنه ماسونى . سألته فلم أظفر منه بجواب . ملـــت عليه ميلى على نبع حقيقة لأروى ظمئى ، ولكنه لم يجبنى . مرة واحدة ، افلتت منه كلمة .

سأل أليوشا معجلاً :

— ماذا قال ؟

— سألته : «أكل شىء مباح اذن ؟» فقطب حاجبيه وقال : «كان أبونا فيدور بافلوفتش رجلاً فاسقاً ، ولكنه كان يفكر تفكيراً

سليماً» . ذلك كل ما قاله لى . لم يقل شيئاً آخر . على الأقل ، هذا يتفوق على ثرثرات راكيتين .

قال أليوشا بمرارة :

— حقا ؟ متى جاء اليك ؟

— سأحدثك عن هذا فى مرة أخرى . أما الآن ، فما حان الحين بعد . أنا لم أكد أكلمك عن ايفان حتى هذه الساعة . أرجأت الحديث عنه الى النهاية . فمتى خُتمت القضية وصدر الحكم ، سأقص عليك شيئاً . سأقول لك عندئذ كل شىء . هناك حكاية رهيبة . ستكون حكماً علىّ فى هذه المسألة . أما الآن فلا أريد أن نعالج هذا الموضوع . كنت تكلمنى منذ هنيهة عن يوم الغد ، عن المحاكمة ، فهل تصدّق أننى لا أعلـــم شيئاً ؟

— هل تكلمت مع ذلك المحامى ؟

— المحامى ؟ دعك من هذا ! لقد قصصت عليه كل شىء . انه وغد لطيف من أوغاد العاصمة ، انه برنار ! هو لا يصدّق كلمة واحدة مما أقوله له . تصور أنه مقتنع باننى أنا القاتل ! أرى ذلك فى نظرته الىّ . سألته : «فلماذا توليت اذن مهمة الدفاع عنى ؟» . اننى أسخر من هؤلاء الناس جميعاً . وقد استدعوا كذلك طبيباً ، بغية أن يزعموا للمحكمة أننى مجنون ! ألا اننى لن اسمح بذلك ! ان كاترينا ايفانوفنا هى التى تظن أنها بذلك تقوم «بواجبها» حتى النهاية . على أنها تجبر نفسها على ذلك اجباراً (قال ميتيا هذا وهو يبتسم ابتسامة مرة) . انها قطة ! قاسية القلب ! وهى تعرف ما قلت عنها من كلام فى موكروبه ، وتعرف أننى وصفتها بأنها امرأة «ذات غضب شديد» . لقد نُقل اليها هذا الكلام . نعم ، لقد تكاثرت الشهادات علىّ

حتى أصبحت لا تُعد ولا تُحصى . ما يزال جريجورى يتهمنى . هو رجل شريف ، لكنه غبى . ما أكثر الشرفاء عن غباوة ! هذه فكرة عبّر عنها راكيتين . لقد أصبح جريجورى يناصبنى العداء . أصبح عدوّى . وهناك أناس يؤثر المرء أن يكونوا أعداءه على أن يكونوا أصدقاءه . أقول هذا وأنا أقصد كاترينا ايفانوفنا . أخشى . . . آه . . . أخشى خاصة أن تقصّ على المحكمة حكاية تلك التحية الساجدة بعد دفع مبلغ الأربعة آلاف وخمسمائة روبل . انها لن تعفينى من قصّ هذه الحكاية ، معتقدة أنها بذلك تبرئ ذمتها تجاهى ! آه . . . لسوف تمضى الى نهاية الشوط . . . أنا أعرفها . ولكننى لا أريد تضحيتها هذه ! سوف أشعر من ذلك بالخزى والعار أمام قضاتى . لا بأس ، سوف أحتمل هذا . اذهب اليها يا أليوشا لترجوها أن لا تقص هذه الحكاية على الناس . أتظن أن هذا مستحيل ؟ لا ضير اذن . سيان عندى سأتحمل . أما هى فلست أشفق عليها ولا أرثى لها . هى التى أرادت ذلك . لن تنال الا ما تستحقه . وأما أنـــا يا ألكسى ، فسوف ألقى فيهم خطاباً . . . اعلم هذا . . . (قال ميتيا ذلك وهو يبتسم ابتسامة مرة من جديد) . ولكن ، ولكن . . . هناك جروشا ، جروشا . . . آه . . . رباه ! . . . لماذا ينبغى لها أن تلقى عذاباً كهذا العذاب ؟ (كذلك صاح ميتيا فجأة وفى صوته دموع) . ان صورة جروشا تقتلنى ، تقتلنى قتلاً ، تقتلنى قتلاً ! لقد زارتنى جروشا فى هذا اليوم .

— حكت لى كل شىء . لقد أهنتها اهانة شديدة .

— أعرف هذا . تباً لطبعى ما أردأه ! لقد عذبتها بالغيرة . وحين ودّعتها ندمت وقبلتها ولكننى لم استغفرها .

صاح أليوشا يسأله :

— لماذا لم تستغفرها ؟

— حماك الله يا فتاى الصغير من استغفار امرأة تحبها ، على خطيئة ارتكبتها فعلاً . . . لا سيما المرأة التى تحبها ، التى تحبها ، مهما تكن اخطاؤك فى حقها ، لأن المرأة مخلوقة لا يعرف الا الشيطان ما فى نفسها . أنا خبير فى هذا على الأقل . حاول مرة أن تعترف لها بأنك أذنبت فى حقها ، وأن تقول لها : «أنا مذنب ، فاغفرى لى ، اغفرى لى» . لتسمعنّ منها عندئذ سيلاً من ملامات . لن ترضى قط أن تغفر لك ببساطة ، بل ستأخذ تذلّك وتخفضك الى الأرض ، معدّدة جميع أخطائك ، حتى تلك التى لم تقترفها . لن تنسى شيئاً ، وستضخم كل شىء ، وستختلق اخطاء جديدة عند الحاجة ، وبعد ذلك فقط سترضى أن تغفر لك . وخير النساء هنّ اللواتى يغفرن على هذا النحو . ولكنها ستفرغ أولاً أعماق دروج أحقادها وتلقيها على رأسك . تلك هى القسوة الكاسرة المفترسة القابعة فيهنّ جميعاً . اعلم هذا . كذلك خلقن ، من أولاهن الى آخرهن ، هاته الملائكة اللواتى لا نستطيع أن نحيا بدونهن . سأطلعك بغير تكلف ولا تحرج على حقيقة كبرى يا صغيرى الطيب : ان كل رجل يحترم نفسه يجب عليه أن يعيش تحت حذاء امرأة . ذلك هو اقتناعى العميق . بل هو اكثر من اقتناع : هو شعور عميق وعاطفة حميمة . ان على الرجل ان يكون كريما ، وهذا لن يغض من قيمته أبداً ، ولو كان بطلاً او قيصراً . أما أن يستغفر ، فكلا ثم كلا ! يجب على الرجل أن لا يستغفر امرأة بحال من الاحوال . تذكر دائماً هذه القاعدة التى علمك اياها اليوم أخوك ميتيا ، أخوك ميتيا التى أوردته النساء موارد الهلاك . لا ، لا ، اننى أوثر أن أصلح أخطائى فى حق جروشنكا بطريقة أخرى ، دون استغفار . اننى أعظمها

وأقدسها حقاً يا ألكسى . ولكنها للأسف ، لا ترى ذلك ، وتعتقد اننى لا أمحضها حباً كافياً . انها تعذبنى بحبها . لم يكن هذا أمراً ذا بال فى الماضى . كنت فى الماضى لا أحبها الا بسبب منحنيات جسمها الجهنمية . أما الآن فان روحها هى التى نفذت فى نفسى فصرنا روحاً واحدة . بها انما أصبحت رجلاً . هل يزوجوننا فى السجن ؟ ان لم يزوّجونا فلأموتنّ غيرة . كل يوم احلم بأمور تثير غيرتى . . . ماذا قالت لك عنى ؟

ردّد له أليوشا أقوال جروشنكا . أصغى ميتيا بانتباه شديد ، وألقى على أخيه أسئلة كثيرة ، وظل راضياً مغتبطاً ، وهتف يقول :

— هى اذن لا تحقد علىّ لأننى غيور . تلك امرأة حقاً ! قالت لك : «أنا نفسى قاسية» ، أليس كذلك ؟ آه . . . اننى أحبهن ، هاته النساء القاسيات ، رغم أننى لا أطيق أن يعذبنى بالغيرة . اننى لا أحتمل هذا . سيكون بيننا شجار كثير ، أنا وهى ، ولكننى سأحبها حباً أبدياً لا نهاية له . هل سيزوجوننا ؟ هل يزوجون السجناء ؟ تلك هى المسألة كلها . لسوف يستحيل علىّ أن أحيا بدونها . . .

سار ميتيا فى الغرفة بضع خطوات مقطبا حاجبيه . وكان الظلام قد خيمّ أثناء ذلك . وفجأة ظهر على ميتيا القلق ، كأن فكرة ثقيلة قد هاجمته وجثمت على صدره .

— آه ! . . . قالت لك ان هناك سراً بيننا ، أليس كذلك ؟ قالت اننا نحن الثلاثة قد دبرنا مؤامرة عليها بتحريض من كاتيا ؟ يا عزيزتى جروشنكا ! . . . لقد أخطأت الظن . . . أخطأت الظن كما لا يجيد أن يخطئه الا النساء ، هاته الحمقاوات ! لا بأس يا أليوشا ، يا بنى العزيز ، سأكشف لك عن سرنا .

نظر ميتيا الى جميع الجهات محاذراً ، ثم اقترب من أليوشا حتى لامسه وأخذ يهمس فى أذنه وقد بدت فى وجهه معانى السر ، رغم أن أحداً لا يستطيع فى الواقع أن يسمعهما : فالعجوز غاف على دكة فى ركن من القاعة ، والخفراء أبعد من أن يستطيع الحديث بينهما ان يبلغ سمعهم . قال ميتيا بهمس سريع :

— سأكشف لك عن سرنا . لقد كنت أنوى أن أطلعك على هذا السر فيما بعد ، ولكن كيف يمكننى أن أتخذ قرارى بدونك ؟ أنت كل شىء فى نظرى . ومهما أقل ان ايفان يفوقنا ، فأنت فى نظرى ملاك . ولقرارك وحده قيمة فى الواقع . من يدرى ؟ لعلك أنت المتفوق لا ايفان . اسمع : ان المسألة مسألة ضمير أخلاقى . هذا سر خطير جداً ، يبلغ من الخطورة أننى لا أستطيع أن أحمله وحدى ، ولا أن أنفرد باتخاذ قرار فيه . فأنا أعتمد عليك . على أن اتخاذ القرار لم يحن حينه بعد . وانما يجب انتظار صدور الحكم . فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، كان عليك أن تقطع برأى فى الأمر فتقرر مصيرى . أما الآن فلا تقل شيئاً . سأشرح لك الموضوع ، فتصغى الى ما سأقوله لك دون أن تفصح عن رأى . عليك أن تصغى وتصمت . لن أقول لك كل شىء اليوم . سأكشف لك عن مجمل الفكرة دون التفاصيل . عليك خاصة أن لا تقول شيئاً ، أن لا تنطق بكلمة : لا سؤال ، ولا حركة ! اتفقنا ؟ ولكننى نسيت : هناك عيناك ، فما عسانى صانعاً بعينيك اللتين سأقرأ فيهما جوابك ؟ آه من عينيك ! اننى أخشى أن تقولا لى رأيك ولو سكت . اسمع يا أليوشا : لقد اقترح علىّ ايفان «أن أهرب» . لن أقصّ عليك التفاصيل : لقد تصورنا كل شىء ، وسيدبّر كل شىء . اسكت ، لا تنطق

بكلمة . سأسافر الى أمريكا مع جروشنكا . ففى الحقيقة أنا لا استطيع ان أعيش بدونها ! وماذا اعمل بدونها لو أنهم منعوها اللحاق بى ؟ هل يزوّجون السجناء ؟ ايفان يؤكد أنهم لا يفعلون . فما عساى أفعل بدون جروشنكا ، تحت الأرض ، فى المناجم ، مع المطرقة ؟ لن افعل اكثر من ان اسحق رأسى بهذه المطرقة . ولكن من جهة أخرى هناك الضمير . سأكون قد فررت من الألم . لقد تلقيت اشارة من السماء ، فاذا هربت كنت أتجاهل هذه الاشارة ، وأُعرض عن طريق التطهر الذى فُتح أمامى . ايفان يؤكد أننى سأستطيع أن أصبح فى أمريكا بالارادة الطيبة والعزيمة الصادقة أنفع منى فى المناجم تحت الأرض . طيب ! ولكن أين يصبح النشيد الذى سننشده من تحت الأرض ، اذا أنا سافرت الى أمريكا ؟ أمريكا . . . ان أمريكا هى العودة الى هذا العالم الباطل . لا بد أن أمريكا ملأى بأنواع الدناءة . أعتقد أن الأمر هنالك كذلك . هل أفرّ من التكفير عن ذنوبى ؟ هل أهرب من طريق الصليب ؟ اننى أفضى اليك بما فى نفسى يا ألكسى ، لأنك الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى . أما الآخرون فان ما قلته لك فى هذه اللحظة ليس فى نظرهم الا حماقة وغباوة وسخفاً . لسوف يظنون أن لوثة خالطت عقلى فجننت ، أو أننى أبله . لا ، أنا لم أفقد عقلى ، ولا أنا معتوه . ان ايفان يدرك ، هو على الأقل ، ماذا يعنى ذلك النشيد ، ولكنه لا يجيبنى ، بل يلزم الصمت . انه لا يؤمن بالنشيد . لا تقل شيئاً ! اسكت ! اسكت ! قرأت جوابك فى عينيك . لقد انتهيت الى قرار منذ الآن . لا تعلن هذا القرار ، ارحمنى ، لأننى لا أستطيع أن أحيا بدون جروشنكا . انتظر صدور الحكم !

أنهى ميتيا كلامه منقلب السحنة . كان يمسك أليوشا من كتفه بقوة ، ويغرس فى عينى أخيه نظرة ملتهبة مثقلة بمسألة قلقة . وعاد يردد مرة ثالثة قوله :

— هل يزوّجون السجناء ؟

أصغى اليه أليوشا بدهشة عميقة ، وأحس باضطراب شديد . وسأله :

— قل لى : هل يلح ايفان على مشروع الهرب هذا ؟ ومن ذا الذى فكّر فى هذا المشروع أول من فكّر فيه ؟

— هو الذى فكّر فيه . وانه ليلح كثيراً . لم يكن قد زارنى قبل ذلك . ثم اذا به يجىء الىّ فجأة منذ أسبوع ، فيأخذ يتحدث فى مشروع الهرب هذا على الفور . انه يلحّ الحاحاً رهيباً . هو لا يرجونى رجاء ، لا يتوسل الى توسلاً ، بل يأمرنى أمراً . انه لا يشك فى أننى سأطيعه ، رغم أننى فتحت له قلبى كما فتحته لك الآن ، وحدثته عن النشيد . شرح لى خطته تفصيلاً . لقد حصل على جميع المعلومات الضرورية . سأبسط لك هذا فيما بعد . انه يلح الحاحاً خانقاً . وهو يعرض علىّ المال خاصة : عشرة آلاف روبل للهرب ، وعشرين ألفا للاستقرار فى أمريكا . يقول اننا نستطيع بالعشرة آلاف روبل أن ننظم أمر الهرب مطمئنين الى النجاح كل الاطمئنان .

سأله أليوشا من جديد :

— وهل طلب منك أن لا تحدثنى فى هذا الأمر ؟

— أمرنى بأن لا أقول كلمة واحدة لأى انسان ، وخاصة لك أنت ، خاصة لك أنت ، بأية حال من الأحوال ! أغلب الظن أنه يخشى أن تعارض هذا المشروع باسم الوجدان الأخلاقى . لا تذكر له أننى أفضيت اليك بهذا السر . لا تقل له كلمة واحدة

فى هذا الأمر ، أرجوك ، أضرع اليك !

قال أليوشا :

— أنت على حق . لا يمكن اتخاذ قرار من هذا النوع قبل صدور الحكم . فمتى أصدرت المحكمة حكمها ، عرفت أنت نفسك ما الذى يجب عليك أن تفعله . سيكون قد ولد فيك انسان جديد ، وهذا الانسان الجديد هو الذى سيقرر .

— انسان جديد أو برنار يقرر كما يمكن أن يقرر برنار . لعلنى أنا نفسى واحد من أمثال برنار .

بهذا ختم ميتيا كلامه وهو يبتسم ابتسامة مرة . قال أليوشا يسأل أخاه :

— أخى ، هل يمكن حقاً أن لا يكون لك أى أمل فى تبرئة نفسك ؟ فرفع ميتيا كتفيه بحركة متشنجة ، وحرك رأسه بالنفى ، وقال متعجلاً :

— أليوشا ، ملاكى ، آن لك أن تنصرف . لقد سمعت الآن صوت المفتش فى الفناء ، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى . تأخرنا كثيراً ، وهذا يخالف النظام . عانقنى وقبّلنى بسرعة ، وارسم علىّ اشارة الصليب يا ملاكى . ارسم علىّ اشارة الصليب لنازلة الغد .

تعانق الأخوان وقبل كل منهما الآخر .

قال ميتيا فجأة :

— ان ايفان يقترح علىّ الهرب ، ولكنه مقتنع بأننى القاتل .

وطافت بشفتيه ابتسامة حزينة .

سأله أليوشا :

— هل سألته أهو يعتقد أنك القاتل ؟

— لا ، لم أسأله عن هذا . أردت أن أسأله ، ولكننى لم أجسر . على أنه لا داعى الى سؤاله ، لأننى أقرأ رأيه فى عينيه . والآن استودعك الله !

تعانق الأخوان وقبّل كل منهما الآخر مرة ثانية . وأسرع أليوشا ينصرف . ولكن ميتيا ناداه على حين فجأة ، لحظة همّ أن يخرج من الحجرة ، وقال له وهو يمسكه من كتفيه :

— أليوشا ، قف هكذا امامى ! . . .

وامسك أليوشا مرة ثانية بيديه بقوة من كتفيه . كان وجهه قد بلغ من الاصفرار أن منظره يبدو مروّعاً فى الظلام . وتقبضت شفتاه ، وغارت نظرته فى عينى أليوشا :

— أليوشا ، قل لى الحقيقة كاملة كأن الله يسمع كلامك فى هذه اللحظة . أتعتقد أننى قتلت ؟ أتعتقد انت ، نعم أنت ، أننى قتلت ؟ أريد أن أعرف الحقيقة ، لا تكذب ، لا تكذب . . .

كذلك صاح ميتيا خارجاً عن طوره .

كأن قوة ما دفعت أليوشا فترنح تماماً بينما انغرز فى قلبه شىء حاد أحس به أحساسا واضحاً .

فتمتم أليوشا يقول زائغ النظرة :

— ما هذا الكلام ؟ ما هذا الكلام ؟ ماذا أصابك ؟ . .

فعاد ميتيا يقول مردداً :

— قل الحقيقة ، أريد الحقيقة ، لا تكذب .

فهتف أليوشا يقول بصوت متهدج مرتجف :

— لم يخطر على بالى لحظة أنك قاتل .

كان الانفعال يخنقه ، ورفع يده اليمنى كمن يريد أن يحلف يميناً . فأشرق فى وجه ميتيا عندئذ تعبير عن سعادة . وقال ببطء كأنه يثوب الى نفسه بعد اغماء :

— شكراً ، شكراً . لقد رددت الىّ الحياة . تصور أننى كنت أخشى حتى الآن أن ألقى عليك هذا السؤال . كنت أخاف أن أسألك ، أن أسألك أنت خاصة ! امض الآن . انك قد امددتنى بقوى ليوم الغد ، بارك الله فيك ! انصرف الآن . حان أن تنصرف .

وأضاف يقول بغتة

— أحبَّ ايفان !

خرج أليوشا والدموع تنهمر من عينيه . ان هذا الشك الذى يعذّب ميتيا ، ان اساءة الظن هذه التى تساور ميتيا ، حتى فيه هو أليوشا ، قد بصرّت أليوشا بهوة اليأس السحيقة التى هوى اليها أخوه الشقى ، والتى لم يكن أليوشا يظنها عميقة هذا العمق كله . وشعر أليوشا فجأة بشفقة عميقة لا نهاية لها تستولى عليه وتعذبه فى لمح البصر . كان قلبه المجروح يؤلمه ألماً فظيعاً . وعادت الى ذهنه تلك العبارة التى هتف بها أخوه ميتيا : «أحبّ ايفان» . وكان أليوشا ذاهباً الى ايفان على كل حال ، فلقد كان يجب أن يراه منذ هذا الصباح من كل بد . ان التفكير فى ايفان يعذبه كما يعذبه التفكير فى ميتيا . والآن ، بعد اجتماعه هذا بأخيه ميتيا ، أصبحت حاجته الى التحدث مع ايفان أقوى منها فى أى وقت مضى .

٥

ما أنت ، ما أنت

كان على أليوشا ، حتى يذهب الى ايفان ، أن يمر أمام المنزل الذى تسكنه كاترينا ايفانوفنا . كانت نوافذ الشقة مضاءة .

توقف أليوشا أمام المدخل وقرر أن يصعد . انه لم ير كاترينا ايفانوفنا منذ أكثر من أسبوع ، وخطر على باله فجأة أن ايفان يمكن أن يكون عندها الآن ، ولا سيما فى عشية يوم حاسم كيوم الغد . فبينما هو يصعد السلّم الذى يضيئه مصباح صينى بنور ضعيف ، اذ هو يلمح رجلاً يهبط السلّم ، فما ان وصل هذا الرجل اليه حتى عرف أنه أخوه . اذن لقد كان ايفان عند المرأة الشابة ثم هو تركها فى هذه اللحظة .

قال ايفان فيدوروفتش بلهجة جافة خشنة :

— آ . . . أهذا أنت اذن ؟ طاب يومك ، والى اللقاء .

أأنت ذاهب اليها ؟

— نعم .

— لا أنصحك بذلك ، لأنها مضطربة ، ولن تفعل زيارتك الا أن تفاقم اضطرابها .

صاح صوت يقول من أعلى ، من خلال باب فتح على حين فجأة :

— بل اصعد ، اصعد . أأنت آت من عنده يا ألكسى فيدوروفتش ؟

— نعم ، رأيته منذ برهة .

— هل حمّلك رسالة الىّ ؟ ادخل يا أليوشا . وأنت أيضا يا ايفان ، تعال ، آمرك بهذا . . . هل سمعت ؟

كان صوت كاترينا ايفانوفنا يبلغ فى تلك اللحظة من صرامة الأمر أن ايفان فيدوروفتش قرر بعد بضع لحظات من تردد ، أن يصعد ثانية فى صحبة أليوشا .

ودمدم يقول بينه وبين نفسه حانقاً :

— لقد تجسست علينا .

35-1306

ولكن أليوشا سمع دمدمته .

قال ايفان فيدوروفتش وهو يدخل الصالون :

— اسمحي لى أن لا أخلع معطفى . ثم اننى لن أجلس ، لأننى لا أنوى أن أمكث أكثر من دقيقة واحدة .

قالت كاترينا ايفانوفنا :

— اجلس يا ألكسى فيدوروفتش .

وظلت هى نفسها واقفة .

انها لم تتغير كثيراً منذ شهرين ، ولكن وميضاً خبيثاً يسطع الآن فى عينيها القاتمتين . سوف يتذكر أليوشا فيما بعد أنها بدت له فى تلك اللحظة جميلة جمالاً خاصاً .

— ما الذى كلفك بأن تقوله لى ؟

قال أليوشا وهو يحدّق الى عينيها :

— كلفنى بأن أقول لك شيئاً واحداً . انه يرجوك أن تراعى نفسك ، وأن لا تذكرى أمام المحكمة (وهنا اضطرب قليلاً) ... أن لا تذكرى أمام المحكمة . . . ما جرى بينكما . . . أثناء أول لقاء . . . فى تلك المدينة الصغيرة . . .

قاطعته كاترينا ايفانوفنا وهى تضحك ضحكة مرة :

— آ . . . يقصد تلك التحية الساجدة وذلك المال ؟ أهو خائف على نفسه أم علىّ ؟ قل لى ! من ذا أراعى فى هذا الأمر ؟ أأراعى نفسى أم أراعيه هو ؟ تكلم يا ألكسى فيدوروفتش !

كان أليوشا يتفرس فيها بانتباه ويحاول أن يحزر ما يدور فى فكرها .

قال بصوت رقيق عذب :

— هو يرجوك أن تراعى نفسك وأن تراعيه أيضاً .

فقالت بلهجة مسعورة وهى تحمر احمراراً شديداً على الفور :

— هكذا .

ثم أضافت تقول بصوت يداخله تهديد غامض :

— انك لا تعرفنى بعد يا ألكسى فيدوروفتش ! وربما كنت لا أعرف نفسى أنا أيضاً . من يدرى ؟ قد تتمنى أن تسحقنى سحقاً فى الغد بعد ادلائى بشهادتى أمام المحكمة .

قال أليوشا :

— قولى ما يمليه عليك الشرف . لا حاجة الى أكثر من ذلك .

فاجابت بقسوة :

— ليست المرأة شريفة دائماً . لقد كنت أتخيل منذ أقل من ساعة أننى سأتقزز من الكلام عن هذا الوحش ، عن هذا الشخص الكريه . . . ولكن لا ! انه ما يزال فى نظرى انساناً .

ثم هتفت تسأل على حين فجأة بصوت تمازجه هستريا وهى تلتفت بغتة نحو ايفان فيدوروفتش :

— ولكن هل مؤكد أنه قتل ؟ أهو القاتل ؟

سرعان ما أدرك أليوشا أنها سبق أن ألقت هذا السؤال على ايفان منذ دقائق قليلة قبل وصوله ، وأن المناقشة التى دارت حول هذه النقطة ، للمرة المائة فى أغلب الظن ، قد انتهت بمشاجرة .

وتابعت تقول مخاطبة ايفان أيضاً بصيغة المفرد :

— لقد ذهبت الى سمردياكوف . . . أنت أوهمتنى أن ميتيا قتل أباه ! بسببك انما صدقت أنا ذلك .

ضحك ايفان ضحكة حمل نفسه عليها حملاً . وقد ارتعش أليوشا حين سمع هذه المخاطبة بصيغة المفرد . لقد كان لا يتصور أن العلاقة بينهما حميمة الى هذا الحد .

قال ايفان بجفاف وخشونة :

— كفى هذا اليوم . أنا ذاهب . سأرجع غداً .

ودار على عقبيه فجأة ، وخرج من الغرفة واتجه رأسا الى السلم . فأسرعت كاترينا ايفانوفنا تمسك يدى أليوشا وتقول له بحركة آمرة ودمدمة متعجلة :

— اتبعه ، أدركه ! لا تدعه وحده لحظة واحدة . انه مجنون . ألا تدرى أنه فقد عقله ؟ لقد أصيب بحمى عصبية . صدقنى ! طبيبى هو الذى قال لى ذلك . هيّا ، اسرع ! أركض لتدركه . . .

وثب أليوشا من مكانه واندفع فى اثر ايفان فيدوروفتش . لم يكن ايفان قد ابتعد أكثر من خمسين خطوة .

— ماذا تريد منى ؟

كذلك هتف يقول ايفان ملتفتاً فجأة الى وراء منذ لمح أن أخاه يريد اللحاق به . وتابع كلامه يقول بلهجة حانقة :

— لا شك أنها أمرتك بأن تتبعنى لاننى مجنون ، أليس كذلك ؟ لقد حفظت هذه القصة على ظهر القلب .

— واضح أنها مخطئة فى هذا . ولكنها على حق حين تقول انك مريض . لقد تفرست فى وجهك منذ قليل ، فلاحظت أنك مريض ، مريض جداً ، يا ايفان !

كان ايفان يسير دون أن يتوقف ، وكان أليوشا يتبعه .

سأله ايفان بصوت أصبح هادئاً على حين فجأة وخالياً من آثار الحنق وسمع فيه فجأة فضول ساذج للغاية :

— هل تعرف يا ألكسى فيدوروفتش كيف يصبح المرء مجنوناً ؟

أجابه أليوشا قائلاً :

— لا ، لا أعرف . ولكن يخيّل الىّ أن الجنون أشكال شتى .

— هل تعتقد أن فى وسع المرء أن يدرك هو نفسه أنه قد جنّ ؟

فأجاب أليوشا مدهوشاً بعض الدهشة .

— أحسب أن المرء لا يقدر فى مثل هذه الحالة أن يلاحظ نفسه .

صمت ايفان نصف دقيقة . ثم قال فجأة :

— اذا كنت تحب أن تكلمنى فأرجوك أن تغير موضوع الحديث .

فقال أليوشا فى خجل :

— صحيح . كدت أنسى . معى رسالة لك .

وأخرج من جيبه رسالة ليزا ومدّها الى أخيه . . .

كانا فى تلك اللحظة قريبين من أحد مصابيح الشارع ، فسرعان ما عرف ايفان خط صاحبة الرسالة .

قال وهو يضحك ضحكة خبيثة :

— ها . . . رسالة من تلك الشيطانة الصغيرة .

ثم مزق الرسالة قطعاً ورماها فى الهواء دون أن يفض الظرف ، فتناثرت أجزاؤها . وقال بلهجة احتقار وهو يتابع سيره :

— لم تبلغ السادسة عشرة ثم هى تعرض نفسها .

فهتف أليوشا قائلاً :

— كيف هذا ؟

— كيف ؟ كأية امرأة فاسقة .

فقال أليوشا يحتج فى ألم :

— ما هذا الذى تقوله يا ايفان ؟ انها طفلة ! أنت تهين

طفلة . هى مريضة ، مريضة جداً . لعلها جنّت هى أيضاً . . . ما كان يمكننى أن أرفض حمل رسالتها اليك . . . وكنت أحب أن أعرف جلية الأمر منك أنت . . . حتى يمكن انقاذهـــا .

— لن تعلم منى شيئاً . اذا كانت هى طفلة فلست أنا حاضنتها . اسكت يا ألكسى . كفى ! اننى لا أفكر فيها ، حتى ولا تخطر على بالى .

وصمتا كلاهما بضع لحظات . ثم قال ايفان فجأة بصوت حانق قاطع :

— سوف تقضى الليل كله مصلية مبتهلة الى السيدة العذراء أن تلهمها الصواب وأن تدلها على ما يجب أن تقوله غداً فى المحكمة .

— هل تقصد . . . كاترينا ايفانوفنا ؟

— نعم . . . انها تتساءل هل يجب عليها أن تنقذ ميتيا أو أن تضيعه . سوف تصلى من أجل أن تهتدى الى الرأى السديد . انها لا تعرف هى نفسها حتى الآن ما الذى ستقوله ، لأن وقتها لم يتسع بعد لأن تتهيأ للأمر . هى أيضاً تعدنى حاضنة لها ، وتريد لى أن أهدهدها !

قال أليوشا بحزن :

— كاترينا ايفانوفنا تحبك يا أخى .

— جائز . ولكنها لا تعنينى .

— انها تتألم . لماذا قلت لها اذن . . . فى بعض المرات . . . كلاماً يمكن أن يبعث فى نفسها أملاً ؟ أنا أعرف فعلاً أنك قد أتحت لها أن تأمل .

كذلك قال أليوشا بصوت فيه شىء من لوم خجل وأضاف :

— سامحنى اذا قلت لك هذا الكلام !

فقال ايفان متضايقاً متزعجاً :

— لا أستطيع أن أتصرف كما ينبغى أن أتصرف ، أى أن أقطع صلتى بها وأن أقول لها الحقيقة بقسوة . يجب انتظار صدور الحكم على القاتل أولاً . لو تركتها الآن لضيعت ذلك المسكين مدفوعة بروح الانتقام . ذلك أنها تكرهه ، وهى تعلم أنها تكرهه . كل شىء هنا كذب ، الكذب متراكم طبقات ! هى الآن ، والى أن أقطع صلتى بها ، ستظل تامـــل ، وستمتنع لهذا السبب عن تضييع ذلك الشيطان ، لعلمها بانى اريد أن أخرجه من المأزق . فمتى يصدر ذلك الحكـــم اللعين ؟

لقد ترجّعت كلمتا «القاتل» و«الشيطان» فى قلب أليوشا ترجعاً أليماً موجعاً .

وسأل أليوشا أخاه مفكراً محاولاً أن ينفذ الى معنى أقوال ايفان :

— كيف يكون فى وسعها أن تضيّع أخانا ؟ ما هى الأشياء التى يمكن أن تقولها فى شهادتها فتنزل بدمترى كارثة ؟

— أنت تجهل هذا حتى الآن . انها تملك ورقة مكتوبة بخط دمترى نفسه ، ورقة تثبت اثباتاً قاطعاً أنه قاتل فيدور باڤلوڤتش .

صاح أليوشا يقول :

— مستحيل !

— لماذا ؟ لقد قرأت الورقة بنفسى .

أجاب أليوشا بقوة :

— لا يمكن أن يكون هناك ورقة من هذا النوع . ذلك

مستحيل استحالة مطلقة ، لأن دمترى لم يقتل . ليس هو قاتل أبينا ، ليس هو قاتله . . .

توقف ايفان فيدوروفتش عن المشى . وسأل أخاه بلهجة فيها شيء من الاستعلاء :

— فمن عسى يكون القاتل فى رأيك ؟

قال أليوشا بصوت خافت نافذ :

— من ؟ أنت تعرفه .

— ماذا ؟ أيظل يُتصور ذلك الاتهام الغبى لرجل أبله مصاب بالصرع ؟ أتقصد سمردياكوف ؟

شعر أليوشا برعدة تهز جسمه كله . وقال :

— أنت تعلم حق العلم من هو القاتل .

أفلتت منه هذه الكلمات كأنما على غير ارادة ، وكان يختنق اختناقاً .

فقال ايفان يصرخ فى هذه المرة صراخاً مسعوراً وتبخر تحفظه كله فجأة :

— من تعنى ؟ من تعنى ؟ تكلم !

عاد أليوشا يقول بهمس مختنق :

— أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً هو أن قاتل أبينا **ليس أنت** .

سأله ايفان مذهولاً :

— «ما أنت» ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

فكرر أليوشا قوله :

— ما أنت قاتل أبينا ، ما أنت !

وخيم الصمت لحظة . ثم قال ايفان شاحباً وهو يبتسم ابتسامة لا يكاد يكون فيها من التبسم الا انفراج الشفتين :

— أعلم أن القاتل ليس أنا طبعاً . هل تهذى ؟

وغرس نظراته فى عينى أليوشا . وكان الأخوان قد وصلا الى أحد مصابيح الشارع من جديد .

— لا يا ايفان ، انت نفسك قلت غير مرة ، انك أنت القاتل .

تمتم ايفان يقول زائغ النظرة تائه الهيئة :

— متى قلت أنا هذا ؟ متى ؟ . . . لقد كنت بموسكو فى ذلك الأوان . . . متى قلت أنا هذا الكلام ؟

— قلته لنفسك مراراً فى الساعات التى خلوت فيها الى ضميرك أثناء الشهرين الرهيبين .

كذلك قال أليوشا متابعاً كلامه بصوت خافت ، ولكنه كان ينطق كل كلمة من كلماته واضحة . كان يتكلم كمن تدفعه الى الكلام قوة لا تغالب ، قوة غريبة عن ارادته ان صح التعبير :

— اتهمت نفسك مراراً كثيرة قائلاً ان القاتل الحقيقى هو أنت . ولكنك لست القاتل يا ايفان . أنت مخطئ . لست أنت القاتل . هل تسمعنى ؟ ما أنت ، ما أنت ! اللّه قد أرسلنى لأقول لك هذا .

سكت الأخوان . وامتد صمت ثقيل خلال دقيقة كاملة . ان كلاً منهما يحدّق الى عينى أخيه منكفئ اللون شاحب الوجه . وفجأة أخذت اعضاء ايفان كلها ترتعش ، وأمسك أليوشا من كتفه ، ودمدم يقول كازاً أسنانه :

— جئت الى بيتى اذن فى السر ، فى الخفاء . . . جئت ليلاً بينما كان هو عندى ، هو . . . هيّا اعترف ! رأيته ، رأيته ، أليس كذلك ؟

سأله أليوشا مذهولاً :

— من تعنى ؟ أتعنى ميتيا ؟

زأر ايفان يقول خارجاً عن طوره :

— لا ، لا ميتيا . شيطان يأخذ ميتيا . قل : أأنت تعرف انه يأتى الىّ ؟ كيف علمت بذلك ؟ تكلم !

تمتم أليوشا مروّعا :

— من **هو** ؟ اننى لا أعرف من الذى تشير اليه بهـذا الكلام .

— بل تعرف ، تعرف . . . ولو لا ذلك ما استطعت أن . . يستحيل أن لا تكون عارفاً بالأمر . . .

وسكت ايفان فجأة فى وسط الجملة ، وأمسك عن الكلام. بدا أنه يفكر فى شىء ما . وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة .

عاد أليوشا يقول بصوت مختلج :

— أخى ، أنا قلت لك ما قلت لأنك ستصدق كلامى ، اعرف هذا . قلت لك ما قلت لتتذكر قولى الى الأبد : **لست أنت** القاتل . تذكر هذا طوال حياتك ، هل تسمع ؟ لقد أمرنى الله بأن أقول لك هذا الكلام ، ولو جعلك ذلك تكرهنى بعد اليوم . . .

ولكن ايفان فيدوروفتش كان قد استرد سيطرته على نفسه وتحكمه بسلوكه . فبدأ يقول بسخرية باردة :

— اسمع يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا أطيق الأنبياء ولا المرضى بداء الصرع . أما الذين يرسلهم الرب فأنا أكرههم كرهاً خاصاً وأمقتهم مقتاً شديداً . . . تعلم ذلك حق العلم . اننى أقطع منذ الآن كل علاقة لى بك ، أقطع كل علاقة لى بك الى الأبد فيما يخيّل الىّ . أرجوك أن تتركنى فوراً ، عند هذا المفترق وليس لك على كل حال الا أن تمضى فى هذا الشارع الصغير

الذى يفضى بك الى مسكنك . وحاذر خاصة أن تجىء الىّ اليوم . هل سمعت ؟

ودار على عقبيه ، وابتعد بخطى ثابتة دون أن ينظر الى وراء .

صاح أليوشا يقول له :

— أخى ، اذا حدث لك شىء فى النهار ، فاذكرنى أنا قبل كل شىء ! . .

لم يجب ايفان . وانتظر أليوشا ، عند مفترق الطرق ، قرب المصباح ، غياب شبح أخيه فى الظلام . وعندئذ ابتعد هو أيضاً فى الشارع الى مسكنه بخطى بطيئة . كان الأخوان يسكنان منفصلين فى منزلين مختلفين . لم يشأ أحد منهما أن يقيم فى المنزل الخالى الذى خلفه فيدور بافلوفتش . كان أليوشا يستأجر غرفة مؤثثة عند أسرة من صغار سكان المدينة . وكان ايفان يقيم فى بيت منفرد بعيد عن مسكن أخيه استأجره من امرأة ثرية هى أرملة أحد الموظفين . لم يكن يخدمه هنالك الا عجوز صغيرة صماء مصابة بالروماتزم ترقد كل يوم فى الساعة السادسة من المساء ، وتنهض من نومها كل يوم فى الساعة السادسة من الصباح . ولكن ايفان كان قد أصبح قليل المطالب فى شئون الخدمة أثناء هذين الشهرين الأخيرين ، وأصبح يميل الى الوحدة والاعتزال فى بيته ، ويحلو له أن يتولى بنفسه ترتيب الغرفة التى ينام فيها ؛ ولا يدخل سائر غرف بيته الا نادراً . فلما وصل الى باب منزله وضع يده على الجرس ولكنه أمسك عن قرعه فجأة . شعر انه كان ما يزال يرتعش كله من الغضب . فما هى الا لحظة حتى ارخى الجرس وبصق على الأرض اشمئزازاً ؛ واستدار على عقبيه ، ومضى يتجه بخطى سريعة نحو الطرف الآخر من المدينة ،

وذهب الى منزل صغير من خشب ، يوشك أن يكون متداعياً ويقع على بعد فرسخين ، وهو منزل تسكنه ماريا كوندراتيفنا ، تلك المرأة التى كانت فى الماضى جارة فيدور بافلوفتش وكانت تلتمس من مطبخ فيدور بافلوفتش شيئاً من حساء ، وكان سمردياكوف ينشدها أغانيه عازفاً على القيثارة . لقد باعت هذه المرأة دارها الصغير التى كانت تقطنها فى الماضى ، واصبحت تساكن الآن أمها فى كوخ حقير ، وقد أقام سمردياكوف عندها منذ موت فيدور بافلوفتش ، مريضاً يشبه أن يكون محتضراً . فالى عند سمردياكوف انما كان يتجه الآن ايفان فيدوروفتش ، تدفعه الى ذلك فكرة مباغتة قاهرة .

٦

أول اجتماع بسمردياكوف

هذه ثالث مرة يزور فيها ايفان الخادم سمردياكوف ، بعد عودته من موسكو ، ليتحدث معه . كان قد اجتمع به مرة أولى بعد وقوع الكارثة فوراً ، يوم وصوله من موسكو ، وزاره مرة ثانية بعد ذلك بأسبوعين ؛ ثم انقطع عنه بعد تلك المقابلة الثانية ، ولم يكد يراه ويسمع عنه شيئاً منذ شهر ونيف . ان ايفان فيدوروفتش لم يرجع من موسكو الا بعد موت أبيه بخمسة أيام ، وكان أبوه قد دفن عشية رجوعه هو من موسكو . ويرجع سبب هذا التأخر الى أن أليوشا كان لا يعرف عنوان أخيه بموسكو فرجا كاترينا ايفانوفنا أن تتولى ابلاغه نبأ الوفاة ببرقية ؛ وكانت المرأة الشابة تجهل هى أيضاً أين كان عنوان ايفان على وجه الدقة ، فأبرقت

الى عمتها والى أختها وفى تقديرها ان ايفان فيدوروفتش سيزورهما منذ يصل الى موسكو . وقد حدث أن ايفان لم يزرهما الا فى اليوم الرابع بعد وصوله الى موسكو ، فلما قرأ البرقية أسرع يعود الى مدينتنا . وكان أليوشا أول شخص تحدث معه ايفان عن الفاجعة ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن أخاه أليوشا يرفض رفضاً مطلقاً أن يشتبه فى دمترى ، وانما يتهم سمردياكوف اتهاماً قاطعاً جازماً بأنه هو القاتل ، على خلاف الرأى الذى أجمع عليه الناس فى مدينتنا . فلما تحدث ايفان بعد ذلك مع رئيس الشرطة ووكيل النيابة واطلع على تفاصيل الاتهام والتحقيق ، ازدادت دهشته من موقف أليوشا ، فنسب هذا الموقف الى عاطفة الأخوة القوية ، والى العطف والشفقة على شقى مسكين ، ذلك أن ايفان كان لا يجهل فى الواقع ان أليوشا يحب دمترى كثيراً . ولنقل فى هذه المناسبة بضع كلمات عن عواطف ايفان نحو أخيه دمترى فيدوروفتش : لقد كان ايفان يكره أخاه دمترى كرهاً حقيقياً ، ولا يشعر نحوه بنوع من شفقة غامضة الا فى القليل النادر ، وهى شفقة ترتبط باحتقار عميق يبلغ حد الاشمئزاز . لقد شعر ايفان دائماً بنفور من ميتيا ، وكان ينفر حتى من شكله ، ويسخطه ما تحمله كاترينا ايفانوفنا لهذا الشاب من حب . وقد زار المتهم ميتيا فى السجن يوم وصوله نفسه ، فلم تضعف هذه الزيارة اقتناعه بأن ميتيا هو القاتل ، بل عززت هذا الاقتناع وسخته . لقد وجد أخاه فريسة اضطراب كبير وجيشان مرضى . كان ميتيا يتكلم كثيراً ، مع بقائه ذاهلاً حائراً مشوشاً ، وكان يعبّر عما بنفسه بجمل مفككة وعبارات مقطعة . كان يتهم سمردياكوف ، وما ينفك يخبط فى كلامه خبط عشواء ، عائداً على حين فجأة الى مسألة الثلاثة آلاف روبل التى «سرقها» منه

المتوفى ، قائلاً من حين الى حين : «كان هذا المال مالى أنا ، هبنى سرقته فلا جناح علىّ» . أما القرائن التى تشهد عليه وتعزز اتهامه فهو لا يكاد يدحضها ، حتى اذا عرض الوقائع التى كان يرى أنها دليل على براءته ، اضطرب كلامه واختلطت الأمور فى حديثه بكثير من الخراقة ، وكأنه كان لا يحب أن يبرئ نفسه فى نظر أخيه أو فى نظر أى انسان آخر ، فهو يغضب ويثور ، ويحتقر الاتهامات مستعلياً ، ويرد عليها بمسبات وشتائم ، ويتهكم باحتقار على شهادة جريجورى بشأن الباب المفتوح ، مؤكداً أن «الشيطان هو الذى فتحه» ، دون أن يحاول البحث عن أى تعليل ممكن لهذه الواقعة . حتى لقد وجد السبيل ، أثناء هذا الاجتماع الأول بأخيه ايفان فيدوروفتش ، الى أن يهينه ويجرح شعوره ، مردداً فى جفاء وخشونة أن الذين يدعون «أن كل شىء مباح» ليس من حقهم أن يشتبهوا فيه وأن يستجوبوه . وجملة القول أنه لم يظهر لايفان شيئاً من مودة ، بل خاشنه وأغلظ له القول . وبعد هذا الاجتماع مع ميتيا فوراً انما ذهب ايفان فيدوروفتش الى سمردياكوف .

كان ايفان ، حين غادر موسكو ، قد فكر فى سمردياكوف طويلاً فى القطار ، وفكّر فى الحديث الذى جرى بينه وبينه عشية رحيله . ان عدداً من التفاصيل كان يوقظ فى نفسه الشبهات ويقلقه اقلاقاً شديداً . ولكن ايفان ، أثناء الشهادة التى أدلى بها أمام قاضى التحقيق ، قد آثر أن يسكت مؤقتاً عن ذلك الحديث الذى كان قد جرى بينه وبين سمردياكوف . كان ايفان يريد أن يتحدث بنفسه أولاً مع سمردياكوف . وكان سمردياكوف يؤمئذ فى مستشفى المدينة . وقد صرّح الدكتور هرتسنشتوبه لايفان ، وكذلك الطبيب فارفنسكى الذى لقيه ايفان فى المستشفى ، صرّحا له

جازمين قاطعين أن نوبة الصرع التى أصيب بها سمردياكوف كانت واقعية تماماً ، حتى لقد استغربا هذا السؤال : «ألا يمكن أن يكون سمردياكوف قد تظاهر بالمرض تظاهراً يوم وقوع حادثة القتل ؟» . وقد أفهما ايفان أن نوبة الصرع التى ألمت بسمردياكوف فى هذه المرة كانت خطيرة خطورة خاصة شديدة ، لأنها امتدت عدة أيام ، وتكررت مرات كثيرة ، حتى كادت تودى بحياته ؛ وبفضل الاسعافات التى استطاعا أن يقدماها والاجراءات التى عمدا الى اتخاذها انما أصبح من الممكن أن يقال الآن ان المريض لن يموت من هذه النوبة الرهيبة التى ألمت به . وأضاف الدكتور هرتسنشتوبه قوله : «على أن قواه العقلية ستظل مضطربة بعض الاضطراب مدى الحياة أو زمناً طويلاً على الأقل» . واذ كان ايفان يسأل بشىء من نفاد الصبر «هل يجب أن يعد الخادم مجنوناً» ، فقد أجيب بأنه ليس مجنوناً كل الجنون ، وانما لوحظت فيه أنواع من الشذوذ . فقرر ايفان أن يتحقق بنفسه من طبيعة هذه الاضطرابات على وجه الدقة . وقد سمحوا له بأن يقترب من المريض دون عراقيل .

كان سمردياكوف راقداً على سريره فى حجرة ذات سريرين . أما السرير الثانى فكان يشغله رجل من سكان المدينة كان مصاباً بمرض الاستسقاء ، وكان قد بلغ درجة قصوى من الضعف ، فلن يعيش أكثر من يوم آخر أو يومين آخرين ، فلا يمكن أن يكون وجوده فى الغرفة حائلاً دون الحديث .

ابتسم سمردياكوف ابتسامة حذرة مرتابة حين رأى ايفان فيدوروفتش حتى لقد ظهر عليه فى أول الأمر شىء من الوجل ؛ أو هذا ما شعر به ايفان على الأقل . ولكن ذلك الوجل سرعان ما تبدد ، حتى لقد دهش ايفان من هدوء سمردياكوف بعد ذلك .

واستطاع ايفان مع هذا أن يقتنع من أول نظرة ألقاها على المريض أن حالته خطيرة حقاً . لقد كان سمرديا كوف ضعيفاً أشد الضعف ، وكان يتكلم ببطء كأنه يجد عناء فى تحريك لسانه ، وكان قد هزل جسمه هزالاً بالغاً ، واصفر لونه اصفراراً شديداً . ولم ينقطع سمرديا كوف خلال الدقائق العشرين التى استغرقتها الزيارة عن الشكوى من آلام فى رأسه وأوجاع فى جميع أعضاء جسمه ، وكان وجهه الجاف الذى يشبه وجوه الخصيان يبدو أنه قد ضؤل وصغر ، وكان الشعر على صدغيه مبعثراً متشعثاً ، ولم يبق من ذؤابته الا خصلة متناثرة فى قمة الرأس . ولكن عينه اليسرى ذات الجفن المتغضّن قليلاً ، والتى تغمز من حين الى حين لتوحى بمعان ماكرة ، تشهد بأن سمرديا كوف ما يزال سمرديا كوف . وتذكر ايفان جملته التى سبق أن قالها له ذات يوم : «يحلو للمرء احياناً أن يتحدث مع انسان ذكى» .

جلس ايفان على اسكملة من جهة قدمى المريض . فانقلب سمرديا كوف على فراشه متألماً ، ولكنه ظل صامتاً لا يتكلم ، كأنه لا يريد أن يكون البادئ بالكلام . ولم يكن فى نظرته شئ يدل على الفضول .

سأله ايفان :

— هل تستطيع أن تتحدث معى ؟ لن اتعبك كثيراً .

فتمتم سمرديا كوف يقول بصوت واهن :

— طبعاً أستطيع أن أتكلم .

ثم أضاف يسأله متلطفاً كأنما ليشجع زائره المرتبك :

— هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

— وصلت اليوم . . . جئت لأجلو الموقف .

تنهد سمرديا كوف . فأسرع ايفان يسأله فجأة :

— لماذا تتنهد وقد كنت على علم بالأمر .

صمت سمرديا كوف لحظة دون أن يدع لنفسه أن يهتز أو يتأثر . ثم قال :

— كيف كان يمكن أن لا أعلم ؟ كان كل شىء واضحاً سلفاً ، ولكننى لم أكن أستطيع أن أعرف كيف سينتهى الأمر .

— تعرف ماذا ؟ لا تتهرب من الكلام باللف والدوران . . . ألم تتنبأ بأنك ستصاب بنوبة صرع حين ستنزل الى القبو ؟ لقد حرصت على أن تحدد أن ذلك سيقع لك أثناء نزولك الى القبو !

سأله سمرديا كوف بهدوء :

— هل ذكرت هذا فى الشهادة التى أدليت بها ؟

غضب ايفان فيدوروفتش وأجابه بقوله :

— لم أذكره بعد ، ولكننى سأذكره حتماً . هناك نقاط كثيرة عليك أن توضّحها لى ، واعلم اننى لن أسمح لك بأن تمثل دور الماكر المخاتل معى !

— علام أمثّل دور الماكر ما دام أملى كله معقوداً عليك ، كأنك الرب !

كذلك قال سمرديا كوف بذلك الهدوء نفسه ، مكتفيا باغماض عينيه لحظة .

بدأ ايفان يقول :

— أولاً ، أنا أعلم حق العلم أن من المستحيل التنبؤ بنوبة صرع . لقد سألت عن هذا الأمر ، فعلمت علم اليقين أن ذلك مستحيل ، لذلك أنصحك بأن لا تراوغ . يستحيل على المرء أن يتنبأ باليوم والساعة التى يُصاب بها بنوبة من هذا النوع . فكيف أمكنك اذن أن تحدّد لى سلفاً الساعة واليوم اللذين ستوافيك فيهما هذه النوبة ، وكيف أمكنك فوق هذا أن تعيّن المكان الـــذى

ستصاب فيه بهذه النوبة فتقول انه القبو ؟ كيف كان يمكنك أن تتنبأ بأن نوبة الصرع ستلم بك فى القبو ، اذا لم تكن قد اصطنعتها اصطناعا ، وتظاهرت بها تظاهرا ؟

أجاب سمردياكوف يقول دون تعجل ، جاراً كلماته جرًا :

— كان علىَّ أن أنزل الى القبو فى كل حال ، بل كان علىَّ أن أنزل اليه عدة مرات فى اليوم . وفى ظروف كهذه الظروف انما سقطت من الشونة فى العام الماضى . صحيح أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ باليوم والساعة التى توافيه فيها نوبة صرع ، ولكنه يستطيع أن يحس ذلك وأن يوجسه .

— نعم ، ولكنك تنبأت باليوم والساعة .

— خير لك ، يا سيدى ، فيما يتعلق بمرضى ، أن تسأل أطباء هذا المستشفى . سلهم عن نوبة الصرع أكانت مصطنعة أم لا ! أما أنا فلا أرى أن علىَّ أن أزيد على ما قلت شيئا .

— والقبو ، القبو ؟ كيف علمت أن هذا سيقع لك فى القبو ؟

— لا يقلقنك أمر القبو ! المسألة بسيطة : حين كنت نازلاً الى القبو ألمَّ بى ذعر وخوف وقلق ، ألمَّ بى ذعر خاصةً ، لأنك كنت غائبا فلم يبق لى أحد يحمينى . نزلت الى ذلك القبو وأنا أقول لنفسى : «الآن ستجيئنى النوبة ، الآن ! . . هل سأقع ؟ هل سأسقط ؟» وبسبب ذلك القلق الذى شعرت به عندئذ انما أحسست فجأة بذلك التشنج اللعين فى حلقى ، بذلك التشنج الذى لا حيلة لى فى دفعه . . . ثم ترنحت . . . وتدحرجت ! . . هذه التفاصيل كلها ، وكذلك الحديث الذى جرى بينى وبينك قبل الحادث بيوم أمام المنزل ، حين أطلعتك على مخاوفى وقلقى بشأن القبو ، ذلك كله قصصته بأمانة على

الدكتور هرتسنشتوبه ، وعلى قاضى التحقيق نيقولاى بارفينوفتش ، فسجَّلا جميع تصريحاتى فى المحضر . أما الدكتور فارفنسكى فقد ألحَّ عندئذ على أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت هذا المجرى ، وعلى أن نوبة الصرع التى أصابتنى انما كان مردُّها حتما الى خوفى منها ، وتوقعى لها : «أسوف أسقط أم سوف لا أسقط ؟» ، فاذا بالنوبة توافينى فى تلك اللحظة بعينها . ذلك ما دوَّنوه فى المحضر ، وأضافوا اليه أن الأمور لا بد أن تكون قد جرت على هذا النحو نتيجةً للخوف الذى هجس فى نفسى .

قدم سمردياكوف هذه الايضاحات ثم تنفس تنفساً عميقًا شاقاً ، كأنه يحس بأنه محطم من فرط التعب والعناء .

سأله ايفان فيدوروفتش مبلبلاً بعض البلبلة :

— أأنت ذكرت هذه التفاصيل اذن فى شهادتك ؟

ذلك أن ايفان كان ينوى أن يخيف الخادم بتهديده بافشاء أمر الحديث الذى جرى بينهما عشية الجريمة ، فاذا هو يعلم الآن أن الرجل قد سبقه من تلقاء نفسه الى ذكر جميع التفاصيل .

وقال سمردياكوف بصوت صار ثابتاً على حين فجأة :

— ماذا كنت أخشى ؟ بالعكس : اننى أحرص على أن تُسجل الحقيقة كلها فى المحضر .

— هل ذكرت الحديث الذى جرى بيننا كلمة كلمة ؟

— لا ، لم أذكره كلمة كلمة .

— هل قلت لهم أيضا انك تجيد التظاهر بنوبات الصرع كما تباهيت بذلك أمامى ؟

— لا ، لم أقل لهم ذلك .

— قل لى الآن لماذا كنت حريصا ذلك الحرص كله على أن أسافر الى تشرماشنيا ؟

— كنت اخشى أن تسافر الى موسكو . ان تشرماشنيا أقل بعدا من موسكو على كل حال .

— كاذب ! كنت تريد أن أبتعد عن هنا . «سافر ، أهرب من الاثم» . ذلك ما كنت تقوله لى .

— لئن أسديت اليك هذه النصيحة ، فانما فعلت ذلك من باب الصداقة لك ، والاخلاص لشخصك ، لأننى كنت أتوقع النازلة التى كانت ستحل بهذه الدار ، فكنت أشفق عليك وأرثى لك . غير أن اهتمامى بسلامتى غلب علىَّ ، فقلت لك «اهرب من الاثم» ، وذلك لأفهمك أن شراً يتربص بالدار ، فأحملك على البقاء هنا لتحمى أباك .

هتف ايفان يقول غاضباً على حين فجأة :

— كان عليك أن تقول لى صراحة ايها الأحمق !

— كيف كان يمكننى أن أكلمك بصراحة اكثر ؟ كان الخوف قد شلَّنى شلاً ، وكنت أخشى فوق ذلك أن أُغضبك . صحيح أن هناك ما كان يحملنى على أن أخاف أن يرتكب دمترى فيدوروفتش حماقة ما ، وأن يستولى على ذلك المبلغ لأنه كان يعده ملكاً له ، ولكن كيف كان فى وسعى أن أتنبأ بأن الأمر سينتهى الى جريمة قتل ؟ كنت أظن أنه سيكتفى بأخذ الثلاثة آلاف روبل التى كان سيدى يخبئها فى ظرف تحت الفراش ، ولكنه قتل أباه بدلاً من ذلك . أكان فى وسعك أنت مثلا أن تحزر ما وقع ؟

قال ايفان فيدوروفتش وقد أصبح واجماً يفكر :

— اذا كنت تقول أنت نفسك ان حزر ذلك كان مستحيلاً ، فكيف كان يمكننى أن أحزره أنا فأبقى هنا ؟ انك تخلط الأمور وتتخبط فى الكلام .

— كان يمكنك أن تحزره لأننى كنت ألحُّ عليك أن تسافر الى تشرماشنيا لا الى موسكو .

— كيف كان يمكننى أن أحزر ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

بدا على سمردياكوف تعب شديد ، فصمت بضع لحظات من جديد . ثم قال :

— كان يمكنك أن تحزر ذلك ، حين لاحظتَ أننى كنت أؤثر أن أعلم أنك فى تشرماشنيا لا فى موسكو لأن موسكو بعيدة جدا . فاذا عرف دمترى فيدوروفتش أنك قريب من هنا ، فلعله كان سيتردد ، وكان فى وسعك اذا كنت فى تشرماشنيا أن تسارع فتجىء لتحمينى عند الحاجة لأننى قد حدثتك عن مرض جريجورى فاسيلتش وعن توجس لنوبة الصرع التى ستوافينى . وقد أطلعتك ، عدا ذلك ، على الاشارات التى يمكن بواسطتها حمل أبيك على فتح الباب . وحين أسررت اليك أن دمترى فيدوروفتش كان على علم بهذه الاشارات لأننى أطلعته عليها ، كنت أقدر أنك ستدرك ما يتربص بالدار من شر ، وأنك ستعدل حتى عن السفر الى تشرماشنيا ، وأنك ستبقى هنا .

حدث ايفان نفسه قائلاً : «انه يقول كلاماً مترابطاً جداً ، رغم أنه يدمدم الكلمات . فأين هى اذن تلك الاضطرابات العقلية التى تكلم عنها الدكتور هرتسنشتوبه ؟»

هتف ايفان يقول غاضباً :

— أنت تمكر بى ، شيطان يأخذك !

فأجابه سمردياكوف وقد لاح فى وجهه أقصى البراءة :

— أعترف لك بأننى كنت قد أيقنت أنك حزرت تماما آنذاك .

فصاح ايفان يقول غاضباً من جديد :

— لو قد حزرت لبقيت .

— وأنا ظننت أنك حزرت كل شيء ، وأنك أسرعت تسافر بغية الابتعاد عن الاثم ، بالهرب الى مكان بعيد ، من باب الخوف لتنقذ نفسك .

— أتراك تتخيل أن جميع الناس جبناء مثلك ؟

— معذرة يا سيدى . كنت أظن أنك مثلى !

عاد ايفان يقول مضطرباً :

— طبعا ، كان علىَّ أن أحزر . . . لقد حزرت حقا أنك تهيئ دناءة ما . . . — ولكن ايفان صاح يقول فجأة وقد تذكر نقطة معينة من الحديث الذى جرى بينهما قبل رحيله — لكنك تكذب ! تكذب ! هل تتذكر أنك اقتربتَ من عربتى لحظة رحيلى لتقول لى : «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى» ؟ . اذن لقد سرَّك أن تراني راحلاً ما دمت قد أخذت تكيل لـى المديح !

تنهد سمردياكوف مرة ومرة وهو يبذل جهداً واضحاً من أجل أن يسترد أنفاسه ، وظهر فى وجهه ما يشبه الحمرة ، وقال وهو يكاد يختنق :

— لئن سُررت ، ان سرورى لم يكن له من سبب الا انى رأيتك لا تسافر الى موسكو بل الى تشرماشنيا التى هى أقرب من موسكو على الأقل . أما الأقوال التى تعدها مديحاً ، فانك قد أسأت فهمها . ذلك أننى قد قصدت بها الى لومك فى حقيقة الأمر . ولكنك لم تفهم ذلك .

— لومى على ماذا ؟

— على أنك رغم توجسك الشر ، تترك أباك وتعدل عن

البقاء هنا لحمايتنا . ذلك أننى كنت أنا أيضاً معرَّضا لأن أُقحم فى القضية بسبب هذه الثلاثة آلاف روبل التى كان يمكن أن يُظن أننى سرقتها .

قال ايفان يسبه من جديد :

— شيطان يأخذك ! لحظة . . . هل حدثت قاضى التحقيق ووكيل النيابة عن تلك الاشارات ، عن تلك الضربات على النافذة ؟

— حدثتهما عنها . قلت لهما كل شيء .

دُهش ايفان فيدوروفتش بينه وبين نفسه من جديد . ثم استأنف كلامه قائلاً :

— اذا كنتُ قد خطر لى شيء آنذاك ، فقد خطر لى أن من الممكن أن ترتكب أنت حقارةً ما . صحيح أن دمترى كان يمكن أن يقتل ، أما أن يسرق فذلك ما لم أسلِّم به حينذاك . . . أما من جانبك فكنت أتوقع منك اية حقارة . ألم تسرَّ الىَّ أنت نفسك أن فى وسعك أن تصطنع نوبة صرع ؟ لأى غرض قلت هذا ؟

— قلته عن بساطة نفسى . اننى لم أتظاهر بنوبة صرع فى يوم من الأيام . وانما أردت أن أتباهى أمامك وأتفاخر . كان ذلك غباوة منى . كنت أحبك كثيرا ، وأحدثك بسذاجة تامة وبراءة كاملة .

— ان أخى يتهمك اتهاماً قاطعاً بأنك قتلت وسرقت .

أجابه سمردياكوف يقول بابتسامة مرة :

— ماذا بقى له أن يقول ؟ من ذا الذى سيصدقه اليوم بعد أن تجمعت عليه جميع تلك الأدلة ؟ الباب الذى رآه جريجورى فاسيلتش مفتوحاً على سبيل المثال . . . كيف يمكنه

أن يتهمنى بعد هذا ؟ سامحه الله ! انه يرتعش فزعا فيحاول انقاذ نفسه بأية طريقة ! . .

صمت سمرديا كوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم أردف يقول :

— هو الأمر نفسه . . . انه يريد أن يلقى الجرم على عاتقى مدعياً أننى أنا الذى قمت بالضربة . . . أعرف القصة . . . ولكن فكّر قليلاً : لقد ذكرت لك مازحاً أننى أحسن التظاهر بنوبة الصرع . أفكان يمكن أن أقول لك اننى قادر على ذلك التظاهر لو كنت أنوى قتل أبيك ؟ هل يتخيل أحد أن انساناً يبيّت جريمة كهذه الجريمة يمكن أن يبلغ به الغباء حدَّ فضح نفسه سلفاً ، وتقديم دليل يثبت ارتكابه الجريمة ، بالتحدث فى هذا الأمر الى ابن الضحية نفسه ؟ ! ذلك شىء لا يمكن تصديقه اطلاقاً . بالعكس ، لا يمكن ان يحدث ذلك أبدا . ما من أحد يسمعنا فى هذه اللحظة ، ما من أحد يسمعنا الا الله . ولكنك ، لو كشفت عن هذه الواقعة لوكيل النيابة وقاضى التحقيق ، لن تزيد على أن تخدمنى وأن تحمينى : هل يمكن أن يكون المرء مجرماً بهذه السذاجة كلها ؟ ذلك ما سيفهمه جميع الناس .

قال ايفان فيدوروفتش وقد أدهشه ما تشتمل عليه هذه الملاحظة الأخيرة من منطق :

— اسمع ، اننى لا أشتبه أبداً فى انك ارتكبت هذه الجريمة ، بل اننى لأرى أن اتهامك بها أمر سخيف مضحك — ونطق ايفان بهذه الكلمات وهو ينهض . وأردف يقول — واني لأشكر لك أنك طمأنتنى فى هذا الموضوع . اننى أتركك الآن ، ولكننى سأزورك مرة أخرى . الى اللقاء . أتمنى لك شفاء سريعاً . أأنت فى حاجة الى شىء ؟

— شكراً يا سيدى ! شكراً لك على كل شىء . ان مارفا اجناتفنا تهتم بأمرى ، وتجعلنى فى غير حاجة الى شىء البتة ، على عادتها فى الشهامة والأريحية . لا شىء يعوزنى . وهناك أناس طيبون يزورونني كل يوم .

— الى اللقاء . ثم اننى لن أكشف شيئا مما ذكرته لى عن حذقك فى اصطناع الصرع والتظاهر به .

ثم أضاف يقول فجأة دون أن يعرف لماذا :

— وأنصحك بأن لا تتحدث عن هذا فى شهادتك أنت أيضاً .

— أنا أفهمك كل الفهم . ما دمتَ لن تتحدث عن هذا الأمر أنت ، فسأسكت أنا أيضا عن تفاصيل ذلك الحديث الذى جرى بيننا حينذاك أمام المنزل .

وهنا حدث أنْ خرج ايفان فيدوروفتش من غرفة المريض فجأة ، ولم يدرك فجأة ما قد تشتمل عليه الكلمات الأخيرة التى قالها سمرديا كوف من معنى مهين ، الا بعد أن قطع نحو عشر خطوات فى الممر ، فأوشك عندئذ أن يقفل راجعاً الى المريض ، ولكن هذه النية التى هجست فى نفسه نصف ثانية ، لم تلبث أن تبددت ، واكتفى بأن دمدم قائلاً : «ذلك كله سخافات !» ، ثم أسرع يغادر المستشفى . كان الأمر الأساسى هو انه صار مطمئناً وخاصةً من مسألة أن القاتل هو أخوه ميتيا لا سمرديا كوف ، رغم أنه كان من المفروض ان يحدث عكس ذلك . لماذا انقلبت تنبؤاته هذا الانقلاب ؟ كان ايفان لا يريد أن يعرف لماذا انقلبت تنبؤاته ، حتى لقد كان ينفر بعض النفور من تحليل نفسه فى هذه النقطة . كان يحاول ، فيما يبدو ، أن ينسى شيئاً ما . وقد اقتنع أثناء الأيام التالية اقتناعاً كاملاً بأن

ميتيا هو الجانى ، ولا سيما بعد أن عرف جملة القرائن والأدلة التى تجمعت على أخيه . وكان عدد من الشهادات يدينه ادانة خاصة ، رغم صدور هذه الشهادات على أشخاص ضئيلين للغاية ، من ذلك شهادة فينيا وأمها . أما تصريحات برخونين وروَّاد الحانة ومستخدمى متجر بلوتنيكوف والشهود فى موكرويه ، فقد كانت خطورتها واضحة بلا جدال . وكانت التفاصيل خاصة تدعو الى القلق . ان المعلومات التى تتعلق «بالطرقات» السرية قد أثرت فى قاضى التحقيق ووكيل النيابة تأثيراً قوياً يعادل تأثير شهادة جريجورى عن الباب المفتوح . وقد أجابت امرأة جريجورى ، مارفا اجناتفنا ، عن سؤال ألقاه عليها ايفان فيدوروفتش فقالت ان سمردياكوف قد قضى الليلة كلها وراء الحاجز راقدا على حصيرة «تبعد ثلاث خطوات عن سريرنا نفسه» ، وانها رغم أنهـا نامت نوماً عميقاً ، قد استيقظت عدة مرات من سماعها أنات المريض . وأضافت تقول : «انه لم ينقطع عن الأنين ، لم ينقطع عن الأنين» . وأما الدكتور هرتسنشتوبه الذى أطلعه ايفان على شكوكه بشأن سمردياكوف ، قائلاً انه لا يبدو له مجنوناً أبداً بل مصاباً بضعف ، فقد أجاب يقول بابتسامة رقيقة : «هل تعرف ما الذى يشغله الآن ؟ تصور أنه يقضى وقته فى حفظ كلمات فرنسية على ظهر القلب . انه يخفى تحت وسادته دفتراً سجَّل له عليه أحدهم كلمات فرنسية بأحرف روسية . هىء هىء !» . هكذا عدل ايفان أخيراً عن شكوكه ، وأصبح لا يفكر فى أخيه دمترى الا ويشعر باشمئزاز . ومع ذلك بقى هنالك شىء يبدو له غريباً : ان أليوشا ما يزال يدَّعى ، فى اصرار وعناد ، أن الجريمة لم يرتكبها دمترى ، وأن «أغلب الظن» أن سمردياكوف هـو الجانى . ولقد كان ايفان يحترم دائما ، فى قرارة نفسه ، آراء

أليوشا ، لذلك كان موقف أليوشا فى هذه القضية يدهشه كثيراً . ومن الغريب أيضاً أن أليوشا لم يسع يوماً الى انتهاز فرصة يتحدث فيها اليه عن ميتيا ، لا ولا كان البادئ فى الكلام عن هذا الموضوع قط ، وانما كان يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى يلقيها عليه أخوه . ذلك أمر أدهش ايفان كذلك . يحسن أن نلاحظ على كل حال أن ايفان كان فى تلك الفترة غارقاً غرقاً تاماً فى مشاغل غريبة كل الغرابة عن دعوى أخيه . انه منذ عودته من موسكو قد عاوده هيامه العنيف العارم بكاترينا ايفانوفنا . ليس هنا مجال الكلام على هذا الحب الجديد الذى استبد بايفان فيدوروفتش والذى سيؤثر فى مجرى مصيره كله . فذلك يمكن أن يكون موضوع قصة أخرى ، موضوع رواية أخرى لا أدرى بعد هل أكتبها فى يوم من الأيام . ولكننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت عن تسجيل هذه الملاحظة الآن : وهى أن ايفان حين رجع من عند كاترينا ايفانوفنا ليلاً بصحبة أليوشا ، فصرَّح لأخيه بأن هذه المرأة الشابة لا تهمه ولا يعنيه أمرها ، انما كان يكذب كذباً لا حياء فيه . فالحق أنه كان يحبها حباً جنونياً ، ومع ذلك فمن الصحيح أيضا انه كان يكرهها أحياناً كرهاً يبلغ من القوة أنه قادر على أن يقتلها . ولهذا أسباب كثيرة : منها أن كاترينا ايفانوفنا التى هزها ما حدث لميتيا هزاً عميقاً قد استقبلت ايفان فيدوروفتش حين عودته من موسكو استقبالها لمنقذ ومخلِّص . لقد كانت تشعر بأن الأحداث التى جرت قد أهانتها وأذلت عواطفها وجرحت كبرياءها ، وها هو ذا رجل كان يحبها منذ زمن طويل — آ . . . نعم ، هى تعرف هذا تمام المعرفة — رجل كانت تحترم ذكاءه وقلبه على كل حال ، ها هو ذا يعود اليها . ولكن هذه الفتاة المتكبرة لم تستسلم تماماً رغم ما يتصف به هيام صديقها المُحب

من عنف عارم مضطرب — وهو واحد من آل كارامازوف فى هذه الناحية — ورغم ما تشعر به نحوه من عبادة . وكانت فى الوقت نفسه تحس بعذاب الضمير يلاحقها ويطاردها بغير انقطاع ، لأنها خانت ميتيا ، وكانت فى اللحظات العاصفة من مشاجراتها مع ايفان (وهى مشاجرات كانت تتكرر كثيراً فى ذلك الأوان) ، لا تتردد عن أن تصرح له بذلك فى وجهه . وبسبب هذا الموقف الذى كانت تقفه انما اتهمها ايفان ، فى حديثه مع أليوشا ، بأنها «تراكم الكذب طبقات» . والحق أن سلوكها كان يشتمل على كثير من الكذب ، وذلك ما كان يُحنق ايفان فيدوروفتش خاصةً . . . ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد . وحسبنا أن نقول الآن أن ايفان كاد ينسى وجود سمردياكوف خلال بعض الوقت . غير أن الخواطر الغريبة التى سبق أن عذبته لم تلبث أن عاودته بعد أسبوعين من زيارته الأولى لسمردياكوف . فاذا هو يعود يلقى على نفسه تلك الأسئلة نفسها بغير انقطاع : لماذا نزل الى درجات السلم فى منزل أبيه صامتاً كسارق فى الليلة الأخيرة التى قضاها فى المنزل واسترق السمع الى ما يفعله أبوه فى الاسفل ؟ لماذا شعر بعد ذلك باشمئزاز من تذكر هذا الأمر ، ولماذا اجتاحت نفسَه فجأة فى صباح اليوم التالى وهو فى الطريق كآبة عميقة ، وعند وصوله الى موسكو قال لنفسه : «أنا وغد !» انه ليبدو له الآن أن هذه الخواطر المقلقة تجتاح نفسه اجتياحاً يبلغ من القوة أنه ينسيه حتى كاترينا ايفانوفنا . وفيما هو يجيل هذا الخاطر فى رأسه ذات يوم ، التقى بأليوشا فى الشارع ، فاستوقفه ثم اذا هو يسأله على حين فجأة :

— هل تذكر أننى فى اليوم الذى اقتحم فيه دمترى منزل أبينا بعد الغداء ، وضربه ، قد قلت لك بعد ذلك فى الفناء

أننى أحتفظ لنفسى «بحق الرغبة والتمنى» ؟ هل قدَّرت فى ذلك اليوم أننى كنت أتمنى موت أبينا ؟ هه ؟ أجب !

قال أليوشا بصوت خافت :

— نعم قدَّرت ذلك .

— كان ذلك هو الحقيقة على كل حال ، ولا حاجة بالمرء الى كبير مكر حتى يحزر هذه الحقيقة . ولكن ألم تشعر فى ذلك اليوم أننى كنت أتمنى فعلاً أن أرى «وغداً يلتهم وغداً آخر» ، أى أن يقتل دمترى أبانا ، وأن يقتله بأقصى سرعة ممكنة . . . وأننى ما كان يسوءنى أن أساعد من جهتى على ذلك ؟ قل ! . . .

اصفر لون أليوشا قليلاً وحدَّق الى عينى أخيه صامتاً .

هتف ايفان يقول :

— هلاَّ تكلمت أخيراً ! اننى أريد بكل قواى أن أعرف ما فكرت فيه يومذاك . أريد أن أعرف الحقيقة ، الحقيقة ، هل سمعت ؟

وتنفس ايفان تنفساً شاقاً ، ونظر الى أخيه أليوشا بنوع من غضب مستبق .

فدمدم أليوشا يقول :

— سامحنى . . . لقد قدَّرت ذلك أيضاً .

ولكن أليوشا لم يلبث أن صمت دون أن يضيف ذكر أى «ظرف مخفف» .

قال له ايفان بجفاف :

— شكراً .

ثم تركه هناك وابتعد بخطى سريعة .

أحسَّ أليوشا منذ ذلك اليوم أن أخاه يحاول أن يتحاشاه ، بل وأنه يشعر نحوه بشىء من الكره ، لذلك كفَّ هو نفسه عن

زيارته . وبعد ذلك اللقاء الذى تحدثنا عنه مضى ايفان فيدوروفتش الى عند سمردياكوف رأساً ، دون أن يعرّج على مسكنه .

٧

ثانى اجتماع بسمردياكوف

كان سمردياكوف قد غادر المستشفى . ان ايفان فيدوروفتش يعرف عنوانه الجديد ، ويعرف أن الخادم قد أقام فى البيت الخشبى الصغير الذى تداعى جزء منه منذ الآن ، والذى يتألف من حجرتين اثنتين لا ثالث لهما ، يفصل بينهما ممر . اما ماريا كوندراتيفنا فتشغل احدى الغرفتين مع أمها ، بينما يشغل سمردياكوف الغرفة الثانية . ما من أحد يعرف بأى صفة كان سمردياكوف يعيش عند هاتين السيدتين : أبصفته صديقاً أم بصفته مستأجراً ؟ ولقد دعت أسباب ، فيما بعد ، الى افتراض ان سمردياكوف انما اتخذ مقره هناك بصفته خطيباً لماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان لا يدفع أجراً . وكانت الأم وابنتها تحترمانه كثيراً وتعدانه رجلاً متفوقاً . قرع ايفان فيدوروفتش الباب ، ثم دخل الممر ؛ ودلّته ماريا كوندراتيفنا على «الغرفة البيضاء» التى يسكنها سمردياكوف ، فاتجه اليها قدماً لا يلوى على شىء . الغرفة مدَّفأة تدفئة شديدة بموقد مكسو بالخزف . والجدران مغطاة بورق أزرق متمزق تمزقاً كثيراً فى مواضع عدة ، وفى شقوق الورق ترتع صراصير لا حصر لها لحركاتها أصوات لا تنقطع . والأثاث بائس : دكتان على طول الجدارين ، وكرسيان قرب مائدة من

خشب ، بسيطة جداً ، لكنها مغطاة بغطاء مشجَّر وردى اللون . والنافذتان الصغيرتان تزدان كل منهما بأصيص أزهار . وفى أحد الأركان تُرى أيقونات . وعلى المائدة سماور من نحاس ، صغير الحجم ، مطبَّق بشدة ، مع صينية وفنجانين .

كان سمردياكوف قد فرغ من شرب الشاى ، فالسماور قد أطفىء . ان سمردياكوف جالس الآن على دكة قد دفعها نحو المائدة ، عاكف على كتابة بشىء فى دفتر . هذه محبرة صغيرة موضوعة فى متناول يده ، وهذه شمعة الدهن فى شمعدان من البرونز تلقى ضوءاً ضعيفاً على مائدته . أدرك ايفان فيدوروفتش من أول نظرة ألقاها على سمردياكوف أن سمردياكوف قد أبلّ من مرضه ابلالاً تاماً . أصبح لونه أكثر نضارة ، وأصبح خداه أقل خسوفاً ، واسترد ذؤابة رأسه ، وعاد يدهن شعره من جديد . انه يرتدى الآن معطفاً للمنزل زاهى الألوان مبطناً بقطن ، لكنه مهترئ جداً . وعلى عينيه نظارتان لم يسبق لايفان فيدوروفتش أن رآهما من قبل ، فكان من شأن ذلك الأمر التافه أن ضاعف حنق ايفان فيدوروفتش فجأة . قال ايفان فيدوروفتش لنفسه : «أهذا المخلوق يجرؤ أن يضع على عينيه نظارتين ؟» . رفع سمردياكوف رأسه ببطء ، وشخص ببصره الى الزائر من خلال النظارتين محدقاً . ثم خلعهما بغير تعجل ، ونهض متوانياً متكاسلاً ، بحركة تبدو فيها قلة الاحترام ، كأنه يقتصر على أن يقوم بواجب تمليه اللباقة التى لا يملك أن يستغنى عنها . رأى ايفان فيدوروفتش كل هذا فى لحظة وسرعان ما أدرك معنى هذا ، وقد لاحظ خاصةً نظرة سمردياكوف التى كانت تعبّر عن الاستياء وتعبّر عن عداوة وقحة وحتى متكبرة ، فكأنه يقول له : «ما الذى يحملك على ازعاجى هنا وقد سبق أن تكلمنا عن

كل شيء ؟» . كبح ايفان فيدوروفتش جماح نفسه حتى لا ينفجر غيظاً . وقال له واقفاً وهو يحل أزرار معطفه :

— الحر فى غرفتك شديد .

فأجابه سمردياكوف آذناً :

— فاخلع اذن معطفك .

خلع ايفان فيدوروفتش معطفه ورماه على الدكة ، ثم تناول كرسياً بيد ترتعش غضباً ، فادناه من المائدة بسرعة وجلس عليه . وكان سمردياكوف قد استطاع أن يسبقه الى الجلوس .

سأله ايفان فيدوروفتش بلهجة صارمة وباندفاع :

— قبل كل شيء : هل نحن هنا وحيدان ؟ ألا يسمعنا أحد فى الجهة الأخرى ؟

— لن يسمع أحد شيئاً . . . انك لترى أن الغرفتين يفصلهما ممر !

— اسمع يا عزيزى : ماذا أردت أن تقول غامزاً فى المرة الماضية حين تركتك بالمستشفى ؟ لماذا قلت لى انك ستسكت عن تفاصيل الحديث الذى جرى بيننا أمام المنزل اذا أنا لم أتكلم عن حذقك فى اصطناع نوبات الصرع والتظاهر بها ؟ ما هى تلك **التفاصيل** التى أردت أن تشير اليها ؟ الى ماذا أردت أن تلمع ؟ أتراك أردت أن تهددنى ؟ أتراك تريد أن تزعم أننى كنت متواطئاً معك وأننى خائف منك ؟

كان ايفان فيدوروفتش يتكلم فى سورة الغضب ، وكأنه كان يريد أن يبرهن بالقاء هذه الأسئلة مباشرة على أنه يكره المراوغة واللف والدوران ، وأنه يلعب بالورق مكشوفاً على المائدة . ومض التماعٌ خبيث فى نظرة سمردياكوف ، وأخذت عينه اليسرى تطرف ، وأسرع يجيب قائلاً (على لزومه ما عُهد فيه من تحفظ

واعتدال وقصد ، وكانت هيئته تشبه أن تقول : «أتريد الحقيقة ؟ اذن سأقولها لك») :

— ان ما كنت أقصده آنذاك وما أردت أن أقوله هو التالى تماماً : أنك تركت أباك بغير حماية ، مع علمك سلفاً بمشروع قتله ، حتى لا يستخرج الناس بعد ذلك نتائج سيئة عن مشاعرك ، وربما عن أمر آخر أيضا . هذا هو ما وعدتك آنذاك بالا اصرح به للمسئولين .

نطق سمردياكوف بهذه الكلمات دون تعجل ، مسيطراً على نفسه كل السيطرة فيما يبدو ، ولكن لهجته كانت قد تغيرت ، كما أن صوته أصبح فيه شيء من ثبات واصرار ، وشيء من شر وتحد فى الوقت ذاته . وحدّق بوقاحة الى ايفان فيدوروفتش الذى أفقدته هذه الجرأة سيطرته على نفسه فى الوهلة الأولى .

قال ايفان فيدوروفتش صائحاً :

— ماذا ؟ كيف ؟ أأنت تملك كل عقلك ؟

— ثق أننى أملك عقلى كاملاً .

قال ايفان فيدوروفتش وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة :

— ولكن هل كان فى وسعى آنذاك أن **أعرف** بجريمة القتل ؟ وماذا تعنى بهذه الكلمات : «وربما عن أمر آخر أيضاً» ؟ هلاَّ أجبت أيها الوغد !

كان سمردياكوف صامتاً ، مصراً على التفرس فى ايفان فيدوروفتش بنظرة وقحة .

زأر ايفان فيدوروفتش يقول له :

— تكلم أيها الوغد العفن ! ما الذى تعنيه «بالأمر الآخر» ؟

— «الأمر الآخر» الذى أردت الالماع اليه هو أنك كنت

أنت نفسك تتمنى موت أبيك حينذاك .

وثب ايفان فيدوروفتش من مكانه ، ووجه الى الخادم لكمة قوية عنيفة فى كتفه ، فترنح هذا حتى اصطدم بالجدار ، وغرق وجهه بالدموع فى لحظة ، ودمدم يقول : «ألا تستحى يا سيدى أن تضرب انساناً ضعيفاً !» ، ثم غطى عينيه فجأة بمنديله القطن ذى المربعات الزرقاء ، وأخذ يبكى بكاء صامتاً . وانقضت على ذلك دقيقة .

قال له ايفان فيدوروفتش أخيراً بلهجة آمرة وهو يعود الى الجلوس :

— كفى ! كفَّ عن البكاء الآن . خيرٌ لك أن لا تفقدنى صبرى !

أزاح سمردياكوف خرقته عن عينيه . كانت جميع قسمات وجهه المغضَّن تعبر الآن عن الاهانة التى أُلحقت به .

— أتخيلتَ اذن أيها الوغد أننى كنت أريد قتل أبى ، متفقاً مع دمترى ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة جريحة :

— لم يكن فى وسعى أن أعرف أفكارك حينذاك . لذلك استوقفتك أمام الدار لأسبرك فى هذه النقطة بعينها .

— لتسبرنى ؟ لتسبر ماذا ؟

— أردت أن أسبر هذه النقطة بالذات : أأنت تتمنى أن يُقتل أبوك بأقصى سرعة أم لا ؟

كانت هذه اللهجة الوقحة العنيدة التى يصر هذا الخادم على أن لا يتخلى عنها تثير حنق ايفان فيدوروفتش اثارة خاصة .

صاح يقول له فجأة :

— أنت الذى قتلته !

فضحك سمردياكوف ضحكة احتقار صغيرة ، وقال :

— أنت نفسك تعلم تمام العلم أننى لست القاتل . كنت أظن أن رجلاً ذكياً مثلك لا بد أن يوفر على نفسه مزيداً من اكثار الكلام فى هذا الموضوع .

عاد ايفان فيدوروفتش يسأله :

— ولكن لماذا ، لماذا قامت فى ذهنك شبهة كتلك الشبهة عنى ؟

— هو الخوف وحده كما تعرف جيداً . كنت فى ظرف يحملنى الخوف فيه على الاشتباه فى كل انسان . لذلك قررت أن أسبرك أنت أيضاً ، قائلاً لنفسى : اذا صدق انك تتمنى ما يتمناه أخوك ، فقد سوَّى الأمر اذن ، وسأهلك أنا فى هذه المغامرة كذبابة لا تملك عن نفسها دفاعاً .

— اسمع : انك لم تكن تتكلم على هذا النحو منذ أسبوعين .

— هذا نفسه ما كنت أقصده أثناء الحديث الذى دار بيننا فى المستشفى ، ولكننى افترضت أنك فاهم عنى بلا أقوال زائدة ، وأنك وأنت الرجل الذكى لا تحب أن أواجه هذا الموضوع مواجهة مباشرة .

— عجيب ! ولكن أجبنى ، أجبنى ، اننى أصرُّ على سماع جوابك : كيف أمكن أن تنبت فى نفسك الدنيئة تلك الشبهة الحقيرة المسيئة الىَّ ؟

— أما أن تقتل أباك بنفسك ، فذلك ما لم تكن تستطيعه ولا تريده . وأما أن يتولى قتله عنك شخص آخر فلقد تمنيتَ ذلك !

هتف ايفان فيدوروفتش متعجباً :

— ويقول هذا الكلام بهدوء ، بهدوء . . . يا للشقى ! لأى غرض كان يمكننى أن أتمنى ذلك ؟ ما الذى كنت أرجوه من مقتل أبى ؟

أجاب سمردياكوف يقول بلهجة مسمومة انتقامية :

— لاى غرض ؟ ما هذا السؤال ؟ هو الميراث طبعاً . . . كان كل واحد منكم ، أنتم الثلاثة ، سيرث عن أبيه عند موته أربعين ألف روبل فى أقل تقدير ، وربما ورث أكثر من ذلك . ولكن لو تزوج فيدور بافلوفتش تلك المرأة ، أقصد أجرافينا ألكسندروفنا ، لوضعت يدها على الثروة كلها بعد الزفاف لأن هذه السيدة ليست غبية اطلاقاً ، ولما نلتم أنتم الاخوة الثلاثة حتى ولا روبلين . ولقد كان تمام هذا الزواج أمراً سهلاً كل السهولة : كان يكفى أن ترفع تلك المرأة أصبعها الصغيرة حتى يأخذها أبوكم الى الكنيسة صاغراً طائعاً .

استطاع ايفان فيدوروفتش أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه بكثير من المشقة والعناء . وقال له أخيراً :

— طيب . هأنت ذا ترى أننى لم أثب من مكانى لأضربك ، وأننى لم أقتلك بسبب أقوالك هذه . أتمم كلامك : أنت تتصور اذن أننى تركت لأخى دمترى مهمة ارتكاب الجريمة ، وأننى فى قرارة نفسى قد عوَّلت عليه ، أليس كذلك ؟

— وكيف لا تعوِّل عليه ؟ المسألة واضحة : حين يقتل أخوك أباه ، فانه يفقد امتيازات النبالة ، ويفقد رتبته وثروته ويُرحَّل الى سيبيريا . وبذلك يئول اليك والى أخيك ألكسى فيدوروفتش نصيبه من ميراث أبيه ، ويقسَّم بينكما هذا النصيب ، فلا يكون حظ كل واحد منكما أربعين ألفاً بل ستين ألفاً . لا شك أبداً فى

أنك عوَّلت على دمترى فيدوروفتش لتحقيق هذا الهدف !

— عجيب أننى أحتمل أقوالك ! اعلم أيها اللئيم أننى لو عوَّلت على أحد لعوَّلت عليك أنت لا على دمترى ! ويميناً لقد أحسست فعلاً أثناء ذلك الحديث بأنك مقبل على ارتكاب حقارة ما . . اننى أتذكر ذلك الاحساس الذى هجس فى قلبى تذكراً واضحاً !

أجاب سمردياكوف ساخراً :

— أنا أيضاً أحسست أثناء ذلك الحديث أنك تعوِّل علىَّ كذلك . . . خطر هذا على بالى لحظة قصيرة . . ولكن ما كان لهذا الأمر الا أن يزيدنى اقتناعاً برغبتك فى وقوع الجريمة . فما دمت قد قدَّرت أننى أبيت جريمة ، فلقد كان سفرك رغم ذلك لا يعنى الا أنك تقول لى : «اقتل أبى ان شئت ، فلست أعارض فى هذا» .

— يا لك من وغد حقير ! أهكذا أوَّلت سلوكى اذن ؟

— السبب هو ذلك السفر الى تشرماشنيا يا سيدى . فكرَّ قليلاً : كنتَ قد قررت أن تسافر الى موسكو ، ورفضت رغم الحاح أبيك أن تذهب الى تشرماشنيا ، ثم اذا بك تقبل فجأة أن تذهب الى تشرماشنيا استجابة لبضع كلمات سخيفة غبية قلتها أنا ، فلماذا قبلت السفر الى تشرماشنيا لا الى موسكو ؟ ما دمت قد غيَّرت قرارك بدون سبب ذى بال الا ما أوحيت به أنا اليك ، فليس لهذا من معنى غير أنك كنت تنتظر شيئاً منى أنا .

زأر ايفان فيدوروفتش يقول كازاً أسنانه :

— لا ، لا ، أحلف لك أن لا . . .

— كيف لا ؟ لقد كان من واجبك ، خلافاً لما حدث ، أن تسلمنى للشرطة فوراً لأُجلد لأننى قلت تلك الأقوال لك

انت ، ابن فيدور بافلوفتش ! كان من واجبك على الأقل أن تضربنى فى مكانى ! ولكنك بدلاً من ذلك ، ودون أن تغضب البتة . . . غيَّرت قرارك حالاً واتبعت النصيحة الغبية التى أسديتها اليك . . . اتبعتها بحذافيرها . ثم ان ذلك السفر الى تشرماشنيا كان سخيفاً ، فانما كان عليك أن تبقى هنا قرب أبيـــك لتحميه . . . فكيف لا أستخرج من سلوكك ذاك بعض النتائج ؟

ظل ايفان فيدوروفتش جالساً ، مكفهر الوجه ، قابضاً كفيه على ركبتيه . وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة مرة :

ـــ خسارة حقاً أننى لم أضربك حينذاك . أما أن أسلمك للشرطة فقد كان ذلك مستحيلاً : لم يكن فى امكانى أن أتهمك بأى شىء معيَّن ، ولو قد اتهمتك لما صدقونى . ولكن كان يجب علىَّ أن أضربك . . . وآسفاه ، لم يخطر ببالى . نعم كان يجب علىَّ أن أضربك . وكان فى وسعى أن أهشم وجهك راضياً مسروراً ، رغم أن ذلك محظور .

كان سمردياكوف ينظر الى ايفان فيدوروفتش وقد لاح فى وجهه ما يشبه الاستمتاع .

وقال سمردياكوف بتلك اللهجة البلاغية الراضية عن نفسها التى كان يصطنعها فى الماضى أثناء مناقشاته عن الايمان مع جريجورى فاسيلتش حين كان يحاول أن يناكده وأن يشاكه واقفاً خلف مائدة فيدور بافلوفتش ، قال بتلك اللهجة :

ـــ صحيح أن استعمال القوة أمر يحظره القانون ، وأن الناس قد عدلوا عن هذا فى أيامنا هذه . ذلك فى الأحوال العادية . أما فى الأحوال الاستثنائية فان الناس ما يزالون يضربون أقرانهم البشر ، تماماً كما كانوا يفعلون فى عهد آدم وحواء . وهذا لا يجرى فى بلادنا وحدها ، بل يجرى فى العالم بأسره ، ويجرى

حتى فى أكمل الجمهوريات ، كالجمهورية الفرنسية ، وسيظل الأمر كذلك أبد الآبدين . وأنت لم تجرؤ أن تضربنى حتى فى تلك الحالة الاستثنائية حينذاك .

سأله ايفان وهو يومئ الى الدفتر الموضوع الى المائدة :

ـــ ماذا عندك هناك ؟ أتتعلم كلمات فرنسية ؟

ـــ ولماذا لا أتعلم أنا الفرنسية ؟ اننى أريد اتمام تحصيلى ، فربما قادتنى الظروف الى أن أعيش ذات يوم ، أنا أيضاً ، فى تلك البلاد السعيدة ، بلاد أوروبا .

صاح ايفان يقول وقد سطعت عيناه وارتعد جسمه غضباً :

ـــ أسمع أيها الشيطان ! أنا لا أخشى اتهاماتك ، وفى وسعك أن تشهد علىَّ كما تشاء . ولئن لم أضربك حتى الموت فى هذه اللحظة نفسها ، فان السبب الوحيد الذى يجعلنى أمسك عن ذلك هو أننى أشتبه فى أن تكون أنت الجانى ، وسوف أجرّك الى المحكمة . سأعرف كيف أكشف عنك القناع ، صدقنى !

ـــ فى رأيى أن الأفضل أن تسكت فلا تقول شيئاً . ما الذى يمكنك أن تستند اليه لاتهام برئ ، ومن ذا الذى يمكن أن يحمل كلامك محمل الجد ؟ على أننى أنبهك وأحذرك منذ الآن : اذا أنت تصرفت هذا التصرف ، فلأقولنَّ من جهتى كل شىء ، اذ لا بد لى من أن أدافع عن نفسى .

ـــ أتظن الآن أننى أخاف منك ؟

ـــ هب المحكمة لم تهتم أى اهتمام بشىء مما قلته لك فى هذه اللحظة . ولكن الناس سيصدقون كلامى ، فيُطعن من هذا شرفك ، وتسوء سمعتك .

سأله ايفان وهو يصرف بأسنانه :

— هو الأمر نفسه دائماً : «يحلو للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى» . أهذا ما تعنيه بتلك العبارة اذن ؟ هه ؟

— هو بعينه . ستتصرف تصرف رجل ذكى .

نهض ايفان فيدوروفتش وهو يرتعد استياء وغضباً ، وارتدى معطفه ، وأسرع يخرج دون أن يكلف نفسه عناء الردّ على سمردياكوف ، وحتى دون أن يلقى عليه نظرة . وقد أحسن اليه الهواء الطرى الذى يشيع فى جو المساء . كان القمر يضىء السماء . وكان ايفان يشعر باختناق من ذلك الازدحام الرهيب للخواطر المبعثرة والاحساسات المضطربة التى تغلى وتجيش فى نفسه : «أأمضى أبلّغ عن سمردياكوف فوراً ؟ ولكن ما الذى أستطيع أن أقوله ضدّه ؟ ليس هو القاتل على كل حال . . . بالعكس : هو الآن يتهمنى أنا . . . حقاً ، لماذا سافرت الى تشرماشنيا ؟ لأى غرض ، لأى هدف ؟ نعم نعم . . . هذا صحيح ، هذا واضح ، لقد كنت أتوقع شيئاً . . . ان ذلك الوغد على حق فيما قال . . .» . بهذا كان ايفان يحدث نفسه . وتذكر ، ربما للمرة المائة ، أنه تجسس على حركات أبيه وسكناته ، متسللا على السلم أثناء الليلة الأخيرة التى قضاها عنده ، ولكن هذه الذكرى بلغت من ايلامه على حين فجأة أنه جمد فى مكانه كأن طعنةً نفذت فى قلبه ، وقال يخاطب نفسه : «هذا صحيح ، لقد تمنيت ذلك . . . لقد توقعته . . . هذا حق ! نعم ، كنت أتمنى وقوع جريمة القتل هذه ، كنت أريد وقوعها ! هل كنت أتمنى وقوع هذه الجريمة فعلاً ، أكنت أتمناها حقاً أم لا ؟ . . يجب قتل سمردياكوف . . . اذا لم تسعفنى الشجاعة اليوم لقتل سمردياكوف ، فان الحياة لن تستحق منى أن أحياها . . .» . لم يرجع ايفان فيدوروفتش الى مسكنه ، بل اتجه رأسا الى بيت كاترينا ايفانوفنا

التى روّعها ظهوره المباغت : كان زائغ النظرة تائه الهيئة ، فاذا رآه الرائى أحس أنه قد جُن . قصَّ على كاترينا ايفانوفنا جميع تفاصيل اجتماعه بسمردياكوف ، لم يُسقط منها كلمة واحدة . ولم يفلح فى تهدئة نفسه رغم نصائح المرأة الشابة ، وكان لا ينفك يسير فى الغرفة قائلا كلمات غريبة مضطربة مفككة . ومع ذلك جلس آخر الأمر ، واضعاً كوعيه على المائدة ، جاعلاً رأسه فى يديه ، وقال هذه العبارة المذهلة :

— اذا صدق أن القاتل ليس دمترى بل سمردياكوف فانى أكون عندئذ شريكه فى هذه الجريمة . . . حتما . . . لأننى أنا الذى حرضته على القتل . الواقع اننى لا أعرف أنا نفسى بعدُ هل دفعته الى الجريمة أم لا . ولكن اذا كان هو الذى قتل ، لا دمترى ، فعندئذ أكون أنا القاتل أيضاً .

حين سمعت كاترينا ايفانوفنا هذه الكلمات ، نهضت دون أن تقول شيئاً ، فاقتربت من مكتبها ، ففتحت علبة موضوعة عليه فأخرجت منها ورقة وضعتها أمام ايفان . هذه هى بعينها الوثيقة التى سيقول ايفان فيدوروفتش لأخيه أليوشا فيما بعد انها تثبت بيقين رياضى أن دمترى هو الذى ارتكب جريمة قتل أبيهما . انها رسالة كتبها ميتيا الى كاترينا ايفانوفنا وهو فى حالة سكر ، مساء التقائه بأليوشا فى الحقول حين كان أليوشا عائدا الى الدير بعد المشهد الذى أهانت فيه جروشنكا غريمتها كاترينا ايفانوفنا . فان ميتيا ، بعد أن ترك أليوشا فى ذلك اليوم ، قد أسرع يذهب الى جروشنكا . لا ندرى هل وجدها فى بيتها . ولكنه شوهد تلك الليلة فى حانة «العاصمة الكبرى» يسرف فى الشراب ، حتى اذا أخذ منه السكر مأخذه ، أمر أن يُؤتى بريشة وورقة ، فكتب وثيقة تشهد عليه وتدينه . هى رسالة ملتهبة مهذارة ، هى سلسلة

من جمل مضطربة تليق بسكران حقا ، تذكّر قليلاً بالخطب التى يلقيها السكارى حين يرجعون الى منازلهم فيقصون على زوجاتهم او على احد من اقرباءهم بحرارة مستعرة وحماسة شديدة أنهم قد أهينوا اهانات خطيرة ، وان الذى أهانهم انسان حقير ، أما هم فرجال عظماء سيعرفون كيف يؤدبون الوقح الذى اعتدى عليهم. ويقولون هذا كله فى اطناب شديد ، فى حالة هياج وبجمل لا ترابط بينها ، ويخبطون المائدة بقبضات ايديهم من حين الى حين ، ويسكبون دموع السكارى . وكانت الورقة التى أعطيها فى الحانة رديئة وسخة قد خربش أحدهم على ظهرها بعض الحسابات ، ومن أجل أن تتسع الورقة للكتابة ، ملأ ميتيا هوامشها ، حتى أن العبارات الأخيرة التى انطلقت تعبر عن عواطفه فى اطناب السكارى قد خُطَّت عرضاً لا طولاً . واليكم مضمون تلك الرسالة :

«كاتيا يا قدري ! سوف أجد المال غداً ، وسوف أرد اليك الثلاثة آلاف روبل حتى أستطيع أن أتركك ، يا امرأة شديدة الغضب ووداعاً يا حبى أيضاً ! لننته من هذا الأمر ! سأحاول غداً أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أوفق ، فلك علىَّ عهد الشرف أن أذهب الى أبى فأهشم جمجمته ، وأستولى على المال الذى يخبئه تحت وسادته . . . شريطة أن يكون ايفان غائباً ! اننى أقبل أن يُحكم علىَّ بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكننى سأرد اليك الثلاثة آلاف روبل . أما أنت ، فوداعاً ! . . اننى أنحنى أمامك حتى الأرض ، لأن الذى ينحنى أمامك انسان شقى ! سامحينى . بل لا . . . لا تسامحينى ! ذلك أسهل ، علىَّ وعليك ! اننى أوثر السجن على حبك ، لأننى أحب امرأة أخرى . لقد استطعت أن تعرفيها

اليوم ، فكيف يمكنك أن تغفرى لى بعد هذا ؟ سأقتل الرجل الذى سرقنى ! سأبتعد عنكم جميعاً ، سأذهب الى المشرق حتى لا أراكم بعدئذ قط ! أصبحت لا أريد أن أراها هى أيضا . . . ما أنت بالانسانة الوحيدة التى عذبتنى . لقد عذبتنى هى كذلك . وداعاً .

حاشية : اننى ألعنك ، ومع ذلك أعبدك ! أشعر بقلبى يخفق فى صدرى ! ما يزال هنالك وتر يهتز لك . أوثر أن يتحطم هذا القلب . سأقتل نفسى ، ولكننى سأقتل ذلك الشيطان الرجيم أولا . سأنتزع منه الثلاثة آلاف روبل ، فأرميها اليك . ان الذى يكتب اليك الآن انسان وغد ، ولكنه ليس سارقاً ! ستحصلين على الثلاثة آلاف روبل . المبلغ مخبأ عند ذلك الشيطان الرجيم تحت الوسادة ، يلفه شريط وردى اللون . أنا لست لصاً ، لأننى سأقتل ذلك الذى نهب أموالى . لا تحتقرينى يا كاتيا : ليس دمترى لصاً بل هو قاتل . قتل أباه وضيَّع نفسه حتى يستطيع أن يقف أمامك منتصب القامة رافع الرأس ، وحتى لا يكون عليه أن يتحمل احتقارك الصلف المتكبر ، وأيضاً حتى يكف عن حبك .

حاشية : أقبِّل قدميك . وداعاً .

حاشية أخرى : كاتيا ! صلى واضرعى الى الله أن يقرضونى المبلغ ، فما اضطر الى أن أسفح دماً . أما اذا لم يقرضونى فسوف يجرى الدم ! اقتلينى !

عبدك وعدوك

د . كارامازوف»

أقنعت قراءة هذه «الوثيقة» ايفان . لقد اتضح له الآن أن القاتل هو أخوه دمترى وليس سمردياكوف . وما دام الخادم بريئاً ،

فليس عليه هو ايفان ، أن يتهم نفسه بشيء . ومنذ تلك اللحظة أصبح ايفان يحمل هذه الرسالة دلالة يقين رياضى ، وأصبح لا يساوره أى شك فى أن ميتيا هو القاتل . يحسن أن نذكر هنا انه لم يخطر ببال ايفان فى لحظة من اللحظات أن يفترض أن جريمة القتل الذى ارتكبها ميتيا قد تمت بالتواطؤ مع سمردياكوف . ثم ان مثل هذا الافتراض لا ينسجم مع الوقائع . خلاصة القول ان هذه الرسالة قد حملت الى ايفان طمأنينة تامة ، فلما أصبح فى الغداة وتذكر سمردياكوف وسخرياته لم يشعر الا باحتقار ، حتى انه بعد بضعة أيام استغرب أن يكون قد شعر بذلك الالم كله من الغمزات المهينة التى وجهها اليه سمردياكوف . وقرر أن يتجاهله فى المستقبل وأن ينساه نسيانا تاما . ومضى على هذا النحو شهر . لم يسأل عن سمردياكوف أحدا ممن يعرفونه بعد ذلك ، ولكنه سمع مرةً أو مرتين أن سمردياكوف مريض جدا وأنه أصبح لا يبدو مالكاً كل عقله ؛ وقال عنه الطبيب الشاب فارفنسكى فى ذات يوم انه «سيهوى الى الجنون» ، فحفظ ايفان هذه العبارة . وفى أثناء الأسبوع الأخير من هذا الشهر أخذ ايفان يحس هو نفسه بأنه مريض جداً ، وزار الطبيب الذى استقدمته كاترينا ايفانوفنا من موسكو قبل بدء المحاكمة لكى يستشيره . وفى تلك الفترة بعينها انما كانت علاقاته بالمرأة الشابة قد توترت أقصى التوتر ، فهما يتعاملان تعامل عدوين يحب كل منهما الآخر . كانت رجعات كاترينا ايفانوفنا الى الهيام الشديد بميتيا ، وهى رجعات طارئة لكنها عنيفة قوية ، تخرج ايفان عن طوره وتحنقه أشد الحنق . شيء غريب : ان ايفان ، الى أن وقع ذلك المشهد الأخير الذى وصفناه والذى جرى فى منزل كاترينا ايفانوفنا حين زارها أليوشا بعيد زيارته ميتيا ،

لم يسمع كاترينا ايفانوفنا مرةً واحدة طوال الشهر ، تعبّر عن أى شك فى أن ميتيا هو القاتل ، رغم «رجعاتها» الى هيامها به من حين الى حين ، وهى رجعات كانت ثقيلة الوطأة على نفس ايفان . ومن الأمور البارزة أن ايفان ، رغم احساسه بتزايد كرهه لميتيا يوما بعد يوم ، كان يدرك ادراكا تاما أن كرهه لأخيه لم يكن سببه «رجعات كاتيا» هذه الى التوله به ، بل كان سببه أن **أخاه قد قتل الأب** ! كان ايفان يحس ويعى ذلك وعيا قويا ، ومع ذلك ذهب يزور ميتيا فى السجن قبل بدء المحاكمة بعشرة أيام ، عارضا عليه خطة للهرب ، وهى خطة كان واضحا أنه أعدها منذ مدة طويلة . وانما قرر ايفان أن يقوم بهذا المسعى بسبب الحنق الشديد الذى أثاره فى نفسه قول سمردياكوف ، غامزا ، انه ، هو ايفان ، يجنى نفعا من اتهام أخيه ديمترى بالقتل ، لأن نصيبه ونصيب أليوشا من الميراث سيرتفعان عندئذ من أربعين الفا الى ستين ألفا . ان الجرح الصغير الذى أصاب قلبه من هذا الكلام الذى قاله سمردياكوف لم يمكن أن يندمل . لذلك قرر أن يضحى وحده بثلاثين ألف روبل ليدبر هرب ميتيا . وحين عاد ايفان من السجن بعد أن عرض هذا المشروع على أخيه ، أحسّ بحزن رهيب واضطراب فظيع يستوليان عليه : لقد ترائى له فجأة أنه يتمنى هرب أخيه من السجن لا ليتاح له آن يضحى بثلاثين ألف روبل وأن يشفى جرح قلبه ، لا لهذا فحسب ، بل لسبب آخر أيضا . لقد تساءل : «تُرى ألست أتمنى ذلك لأننى فى قرارة نفسى قاتلٌ كأخى سواء بسواء ؟» . وهذا ألم غامض بعيد ، ولكنه لاذع كاوٍ ، يستيقظ فى قلبه . وكانت كبرياؤه خاصةً هى التى قاست كثيرا خلال هذا الشهر ، غير أننا سنعود الى ذلك فيما بعد .

حين أمسك ايفان جرسَ بيته بعد أن ترك أليوشا ، قرر فجأة أن يرجع أدراجه ليذهب الى سمردياكوف . انه حين قرر ذلك انما خضع لغضب مفاجئ مردُّه الى سبب خاص . ذلك أنه تذكر فى تلك اللحظة أن كاترينا ايفانوفنا قد صرخت تقول له أمام أليوشا منذ دقائق انه هو وحده الذى حاول اقناعها بأن ميتيا هو الجانى . فحين تذكر ايفان هذا الكلام أصيب بذهول شديد : انه لم يحاول أن يقنعها فى يوم من الأيام بأن القاتل ميتيا . بالعكس : لقد اتهم نفسه أمامها بعد زيارته السابقة لسمردياكوف . وهى ، هى التى وضعت أمام عينيه عندئذ «وثيقة» الاتهام تلك التى أرادت أن تبرهن بها على أن الجانى ميتيا . وها هى ذى تصرح له منذ لحظات أنها ذهبت هى نفسها الى سمردياكوف ! متى رأت سمردياكوف اذن ؟ ان ايفان لا يعرف عن ذلك شيئا . هل معنى هذا أنها لم تكن مقتنعةً بأن ميتيا هو القاتل ؟ ما الذى يمكن أن يكون سمردياكوف قد ذكره لها ؟ ما الذى قاله لها على وجه الدقة ؟ استولى الحنق على ايفان ، واستغرب كيف لم ينتبه الى تلك الكلمات قبل نصف ساعة ، ولماذا لم ينفجر حينذاك ؟ وفيما كان على هذه الحال انما أرخى جرس بيته ، وأسرع يمضى الى سمردياكوف . وقد قال محدثا نفسه أثناء الطريق : «قد أقتله فى هذه المرة !» .

٧

ثالث وآخر اجتماع بسمردياكوف

لمّا قطع ايفان نصف الطريق هبَّت ريح جافة شديدة تشبه الريح التى هبت فى الصباح . وأخذ يهطل ثلج ناعم كثيف يغطى

الأرض دون أن يلتصق بها . فالريح تحمل الثلج وتدور به فى الفضاء ، وسرعان ما صار ذلك الى اعصار . ان الحىَّ الذى يقيم فيه سمردياكوف من المدينة سيئُ الاضاءة ، ومصابيح الشوارع فيه قليلة نادرة . فكان ايفان يمشى فى الظلام غير عابئ بزوبعة الثلج ، متبعاً طريقه على هدى غريزته . كان فى رأسه صداع ، وكان صدغاه يدندنان ، فكان يشعر من ذلك باحساس أليم . وقد بلغت نبضات عروقه من القوة أنه خيِّل اليه أن قبضتى يديه تتشنجان . وعلى مسافة قصيرة من البيت الحقير الذى تسكنه ماريا كوندراتيفنا التقى ايفان فيدوروفتش فجأة برجل صغير سكران ، يلبس قفطاناً مرقعاً ، ويسير مترنحاً ، ويدمدم شاتماً ، ويقطع سبابه من حين الى حين فيأخذ فى الغناء بصوت أجش من أصوات السكارى :

سافر فانكا الى بيتر*
لكننى لن انتظره !

ولكن السكران يتوقف عن الغناء كلما وصل الى البيت الثانى من الأغنية ، فيستأنف شتم أحد الناس ، ثم يرتد فجأة الى لازمته الأبدية . كان ايفان قد سمع أصواته منذ برهة ، فشعر نحوه بكره عنيف لاشعورى حتى قبل أن يراه . ولم يلبث أن أدرك سبب حنقه بغتة ، فودَّ لو يصرع الرجل بضربة يهوى بها على رأسه . وبينا هو كذلك اذ أصبح الاثنان جنباً الى جنب ، وكان الرجل الصغير يترجح فى مشيته ويترنح فصدم ايفان صدمة قوية ، فما كان من ايفان الا أن دفعه كالمسعور ، فهوى السكران على الأرض المتجلدة كتلة واحدةً بعد أن أطلق من صدره أنَّةً أليمة ثم لبث صامتاً . مال ايفان على الرجل ، فرآه راقداً على

ظهره مغشياً عليه . فقال فى نفسه : «سيتجمد من البرد !» ، ثم تابع طريقه .

وفى ممر البيت الصغير الذى يسكنه سمردياكوف ، قالت له ماريا كوندراتيفنا التى أسرعت تستقبله حاملةً بيدها شمعداناً ، قالت له فى همس ان بافل فيدوروفتش (أى سمردياكوف) مريض جدا ، وانه ان لم يكن عليه أن يلزم فراشه حتماً ، فانه لا يبدو مالكاً كل عقله ، حتى لقد رفض شرب الشاى الذى قُدِّم اليه وأمر برفعه .

سألها ايفان فيدوروفتش بلهجة شرسة :

— أهو هائج اذن ؟

فقالت ماريا كوندراتيفنا :

— بالعكس : انه هادئ كل الهدوء ، ولكنك تحسن صنعاً اذا لم تُطل حديثك معه حتى لا تتعبه .

فتح ايفان الباب ، ودخل غرفة الخادم .

كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة ، كما فى الزيارة الأولى ، غير أن هناك تغيرات طرأت على ترتيب الأثاث : أُبعدت احدى الدكتين ووُضعت فى مكانها كنبة عتيقة عريضة من جلد ، لها مسند من خشب يحاكى خشب الماهوجنى ؛ ولقد جُعلت هذه الكنبة سريراً عليه وسائد نظيفة نسبيا . كان سمردياكوف جالسا على تلك الكنبة مرتديا ذلك الروب المنزلى الذى كان يرتديه أثناء الزيارتين السابقتين . وقد دُفعت المائدة نحو الكنبة ، فأصبح المكان فى الغرفة ضيقا للغاية . وكان على المائدة كتاب سميك ذو غلاف أصفر ، غير أن سمردياكوف لم يكن يقرأه ، وكان يبدو غير عاكف على القيام بأى عمل البتة . استقبل ايفان فيدوروفتش بنظرة طويلة صامتة ، ولم يظهر عليه أى استغراب

لهذه الزيارة . وكانت قسمات وجهه قد انقلبت انقلاباً شديداً أثناء تلك الفترة . كان وجهه ناحلاً أصفر ، وكانت عيناه غائرتين ، وكانت جفناه السفليين مزرقتين .

قال ايفان فيدوروفتش للخادم وهو يقف أمامه :

— انك لتبدو مريضاً حقاً ! لن أمكث مدة طويلة ، ولن أخلع معطفى . هل من كرسى لى ؟

ودار حول المائدة ، وتناول كرسيا فدفعه نحو المائدة وجلس .

قال ايفان مبتدئا كلامه :

— لماذا تنظر الىَّ هكذا وتصمت ؟ لقد جئت لألقى عليك سؤالاً واحداً فى هذه المرة . ولكننى أحلف لك أننى لن أنصرف قبل أن تجيبنى . هل جاءت اليك كاترينا ايفانوفنا ؟

صمت سمردياكوف برهة طويلة وهو ما يزال يتفرس فى ايفان بهدوء . ثم حرك يده باشارة تململ على حين فجأة ، وأشاح وجهه .

هتف ايفان يسأله :

— ما بك ؟

— لا شىء !

— كيف لا شىء ؟

— نعم جاءت ! فيم يعنيك هذا ؟ دعنى وشأنى !

— لا ، لن أدعك . متى جاءت ؟ أجب !

قال الخادم وهو يضحك ضحكة احتقار :

— نسيتها حتى ما عدت اذكرها .

ثم التفت نحو ايفان بحركة مفاجئة ، وألقى عليه نظرة مثقلة بكره هو ذلك الكره الشديد نفسه الذى سبق لايفان أن رآه فى عينيه أثناء اجتماعه السابق به منذ شهر .

قال سمردياكوف :

— يبدو أنك مريض أنت نفسك . عجيب ! ان خديك خاسفتان ، وان قسمات وجهك منقلبة .

— دعك من صحتى وأجب عن سؤالى .

— ولماذا اصفرت عيناك ؟ لقد اصفر بياض عينيك . لعل ذلك يرجع الى أنك تتعذب كثيراً ؟

قال سمردياكوف ذلك وهو يطلق ضحكة احتقار من جديد ، ثم أخذ يقهقه صراحةً .

هتف ايفان يقول وقد بلغ أوج الغضب والحنق :

— أكرر ما قلته : لن أنصرف من عندك قبل أن تجيبنى .

فقال سمردياكوف بلهجة أليمة :

— لماذا تعذبنى ؟ ماذا تريد منى ؟

— شيطان يأخذك . أنا لست أهتم بك أنت . أجبنى فأتركك حالا .

قال سمردياكوف وهو يغض طرفه من جديد :

— لن أجيبك !

— سأعرف كيف أجبرك على أن تجيبنى . صدقنى !

سأله سمردياكوف وهو يحدّق اليه على حين فجأة ، معبراً فى هذه المرة لا عن احتقار فحسب ، بل عن شعور يشبه الاشمئزاز والتقزز أيضاً :

— لماذا أنت مضطرب هذا الاضطراب ؟ أسبب تلك المحاكمة التى تبدأ غداً ؟ ولكن لا خوف عليك أنت ، اطمئن أخيرا . ارجع الى منزلك ، وارقد هادئ البال ، ونم مرتاحاً لا يساورك أى جزع !

— لا أفهم ما تريد أن تقول . . . ما الذى يمكن أن اخشاه أنا من الغد ؟

كذلك قال ايفان مدهوشاً ، ثم لم يلبث أن شعر فجأة بخوف غريب يجتاح نفسه ويبث برداً فى ظهره .

ألقى عليه سمردياكوف نظرة فاحصة من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، ثم قال له بلهجة بطيئة مليئة بالعتب :

— أ . . لا . . تف . . هم ؟ أية لذة يجد الرجل الذكى فى تمثيل مهزلة كهذه ؟

نظر اليه ايفان صامتا . ان هذه اللهجة غير المتوقعة ، المليئة بتعال غير معهود ، التى كلمه بها خادمه القديم ، كانت وحدها كفيلة بأن تدهشه . فبمثل هذه اللهجة لم يتكلم سمردياكوف حتى فى المرة السابقة .

وتابع سمردياكوف كلامه :

— أقول لك لا تخش شيئاً ؛ لن أشهد عليك ، وليس هناك أدلة ضدك . ما ليديك ترتجفان ؟ لماذا تختلج أصابعك هذا الاختلاج ؟ ارجع الى منزلك . **لست أنت القاتل !**

ارتعش ايفان متذكراً كلمات أليوشا . وتمتم يقول :

— أعرف هذا . لست أنا . . .

فكرر سمردياكوف يقول :

— تعرف هذا ؟

فوثب ايفان وأمسك سمردياكوف من كتفه وقال :

— تكلم ، قل الحقيقة أيها الحقير ! قل كل ما تعرفه !

لم يظهر على سمردياكوف أنه خاف أى خوف ، واكتفى بأن ألقى على ايفان نظرة مثقلةً بكره شديد . ثم انطلق قائلاً بصوت صافر مسعور :

— آ . . . أهكذا ؟ اعلم اذن أنك أنت الذى قتلته .

فتهالك ايفان على كرسيه ، وبدا عليه الغرق فى خواطره وأفكاره . ثم ابتسم ابتسامة خبيثة .

— أتقول هذا بصدد تلك القصة نفسها ؟ بصدد ما قلته لى فى المرة الماضية ؟

— تماماً . ثم انك قد فهمتنى فى المرة الماضية حق الفهم ، كما تفهمنى اليوم .

— كل ما أفهمه هو أنك مجنون .

— ألم تملّ بعد ؟ نحن هنا وحيدان ، وليس ثمة شهود . فلماذا هذه المراوغة ، لماذا يخادع أحدنا الآخر ؟ اللهم الا أن تكون ما تزال تنوى أن تلقى التبعة كلها علىّ ، علىّ وحدى ! ألا تشعر بخجل منى ؟ انك أنت القاتل ، انك أنت القاتل الرئيسى ، أما أنا فلم أكن الا مساعدك ، لم أكن الا خادمك «لتشاردا»* الوفى الأمين . لقد قمت بما قمت به مستلهماً أقوالك وايحاءاتك .

سأله ايفان وهو يشعر بأنه قد تجمد :

— قمت بما قمت به ؟ أأنت الذى قتلته اذن ؟

أحسّ ايفان بتزلزل نفسى ، وسرت فى جسمه كله رعدات صغيرة باردة . فنظر اليه سمردياكوف عندئذ مدهوشاً بعض الدهشة . لكأن صدق الجزع الذى أصاب ايفان قد أذهله أخيرا .

دمدم سمردياكوف يسأل ايفان بشىء من الشك وهو ما يزال ينظر اليه نظرة مواربة ويحبس ضحكة ساخرة :

— هل يُعقل حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً ؟

ظل ايفان يتفرس فى الخادم ، وكأنه فَقَدَ النطق . وترجّعت فى رأسه هذه اللازمة على حين فجأة :

سافر فانكا الى بيتر
لكننى لن انتظره

ثم تمتم أخيرا :

— انى لأتساءل أأنا فى حلم ؟ ألا يمكن أن تكون شبحاً ظهر لى ؟

— لا شبح هنا . لا أحد الا نحن الاثنين ، وثالثاً أيضاً . وهو الآن هنا ذلك الثالث ، هو حاضر بيننا حتماً فى هذه اللحظة .

— من هو ؟ من ؟ من هنا ؟ عن أى ثالث تتكلم ؟

كذلك سأله ايفان فيدوروفتش مذعوراً ، وهو ينظر حواليه ، ويبحث بعينيه القلقتين عن أحد فى زوايا الغرفة .

قال سمردياكوف :

— الثالث هو الله . ان الله حاضر بيننا الآن . ولكن لا تبحث عنه ، لأنك لن تراه .

انفجر ايفان وزأر بجنون :

— كذبتَ حين زعمت أنك أنت الذى قتلته ! أمران لا ثالث لهما : فاما انك مجنون ، واما أنك تسخر منى كما فعلت فى المرة الماضية !

ظل سمردياكوف هادئا مثلما فى السابق . ولم يحفل بغضب ايفان ، وانما كان يتفرس فيه بانتباه واستطلاع . انه لم يستطع أن يتغلب على شكه وارتيابه ، لأنه كان يتصور ، حتى فى هذه اللحظة ، ان ايفان «يعرف كل شىء» ، وأنه يتظاهر بالجهل تظاهراً ، «بغية أن يلقى التبعة كلها عليه ، هو سمردياكوف فى حضوره» .

وقال أخيراً بصوت ضعيف واهن :

— انتظر قليلاً .

وسحب ساقه اليسرى من تحت المائدة ، وأخذ يشمر سرواله .

ظهرت قدمه فى شبشب ، ثم ظهر جورب طويل أبيض . وبدون تعجل ، حلّ حمالة الجورب ، وأغطس يده الى القاع . كان ايفان فيدوروفتش ينظر اليه وهو يفعل ذلك ، فاذا هو يأخذ بالارتعاش فجأة ، واذا بذعر متشنج يستولى عليه . وهتف يقول :

— مجنون !

ثم وثب عن مكانه ، وتراجع الى الوراء بحركة بلغت من القوة أنه صدم الجدار بظهره ، ثم لبث لاصقاً بالجدار ، متصلبا كعصا .

كان يتأمل سمردياكوف بهلع لا حدود له . لم يضطرب سمردياكوف من ذعر ايفان ، واستمر ينبش قاع جوربه ، محاولاً أن يقبض بأصابعه على شىء مخبأ هناك . وظفر بهذا الشىء أخيرا ، فأخرجه . رأى ايفان أن هذا الشىء هو أوراق أو حزمة من أوراق . ووضع سمردياكوف الحزمة على المائدة . وقال بصوت خافت :

— هو ذا . . .

فسأله ايفان الذى كان يرتعش :

— ما هذا ؟

فأجابه سمردياكوف بصوت خافت أيضاً :

— أنظر فترى .

دنا ايفان من المائدة ، وتناول الحزمة ، وأخذ يفضها . فاذا هو يسحب أصابعه فجأة ، كأنه قد لمس شيئاً مقززاً أو دنيئاً .

قال سمردياكوف :

— أصابعك ترتجف يا سيدى !

ثم تولى فض الحزمة بنفسه دون تعجل . فظهرت تحت الورقة التى تلف الحزمة ، ثلاث رزم من أوراق مالية من فئة المائة روبل .

وأضاف سمردياكوف قائلاً وهو يومئ الى المبلغ داعيا ايفان :

— المال كله هنا . ثلاثة آلاف روبل بالتمام والكمال . لا داعى الى العد . تفضل باستلامها .

تهاوى ايفان على الكرسى ، وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً . ثم دمدم يقول بضحكة غريبة :

— روّعتنى . . . بسبب جوربك . . .

عاد سمردياكوف يسأله :

— هل يُعقل ، هل يمكن حقاً أن لا تكون قد عرفت شيئاً حتى الآن ؟

— كنت أجهل كل شىء . كنت أظن أن دمترى هو القاتل .

ثم صاح ايفان يقول وهو يمسك رأسه بيديه :

— أخى ! أخى ! آه . . . رباه ! . . اسمع : هل قتلته وحدك ؟ هل قتلت بمساعدة أخى أم بدون مساعدته ؟

— لم يكن لى شريك فى الجريمة سواك . أنا أنما قتلت بالتواطؤ معك . أما دمترى فيودوروفتش فهو برىء براءة كاملة .

— طيب ، طيب ، ستتحدث عنى أنا فيما بعد . ما لى ارتجف هكذا ؟ لا استطيع أن اتفوه بكلمة . . .

قال سمردياكوف مدهوشا :

— كنتَ فى الماضى أكثر جرأة حين كنتَ تقول : «كل شىء مباح» . وهأنت ذا اليوم مذعور أشد الذعر . هل تقبل أن

تشرب كأساً من الليمونادة ؟ سآمر لك به فانه سينعشك جدا . ولكن يجب أولا اخفاء هذا .

قال سمردياكوف ذلك وهو يومئ الى حزمة الأوراق المالية من جديد . همّ ان ينهض على نية استدعاء ماريا كوندراتيفنا ليأمرها باعداد الليمونادة واحضارها . ولكنه حاول أن يبحث عن شيء يمكنه أن يخفي به الأوراق المالية حتى لا تراها تلك المرأة ، فأخرج فى أول الأمر منديله . واذ لاحظ أن المنديل وسخ جدا أعاده الى جيبه وتناول الكتاب السميك الأصفر الذى لاحظه ايفان على المائدة حين دخل ؛ فجعله غطاءً يخفي تحته الحزمة . واستطاع ايفان فيدوروفتش أثناء ذلك أن يقرأ عنوان الكتاب قراءة آلية : «مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى» .

وقال ايفان بعد ذلك :

ـــ لا أريد ليمونادة . سنتحدث عنى أنا فيما بعد . اجلس الآن واقصص علىَّ : كيف فعلت ذلك ؟ قل الحقيقة كلها .

ـــ هلا خلعت معطفك ، والا نضح منك العرق .

خلع ايفان فيدوروفتش معطفه بسرعة ، كأنه لم يخطر بباله ذلك الا فى تلك اللحظة ، ورماه على الدكة دون أن ينهض من مكانه .

ـــ تكلم الآن ، أرجوك ، تكلم !

كان قد هدأ روعه ، فهو ينتظر واثقا أن سمردياكوف سيقول له الحقيقة **كلها** .

بدأ سمردياكوف كلامه وهو يتنهد :

ـــ كيف فعلتُ ذلك ؟ الأمر بسيط جدا . استوحيت أقوالك أنت ، فـ . . .

قاطعه ايفان قائلاً دون أن يصيح كما كان يصيح من

قبل ، ولكنه ينطق الآن بكلماته واضحةً كل الوضوح ، ويبدو أنه استرد سيطرته على نفسه تماماً :

ـــ عن أقوالى فيما بعد . أما الآن فأشرح لى بالتفصيل كيف فعلت ذلك . حسب الترتيب ، ولا تغفل شيئا . أريد أن تذكر التفاصيل ، التفاصيل خاصة . أنا مصغ اليك .

ـــ بعد سفرك سقطت فى القبو . . .

ـــ بنوبة صرع صادقة أم متظاهرا ؟

ـــ متظاهراً طبعاً . متظاهراً فى كل شيء . هبطت سلَّم القبو بهدوء حتى آخر درجة من درجاته ، ثم استلقيت على الأرض بهدوء . حتى اذا صرت راقداً أخذت أعول ، وظللت أتخبط حتى نقلونى .

ـــ لحظة . اذن كنت تتظاهر طول الوقت ، وفى المستشفى بعدئذ أيضاً ؟

ـــ لا . ففى صباح الغد ، قبل نقلى الى المستشفى أُصبت بنوبة صرع صادقة ، وكانت نوبة عنيفة جدا لم أعان مثلها منذ سنين . ولبثت يومين كاملين مغشياً علىَّ .

ـــ طيب . طيب . أكمل كلامك .

ـــ أرقدونى على مضجع وراء حاجز غرفة جريجـــورى فاسيلتش . كنت أتوقع ذلك ، لأن مارفا اجناتفنا قد اعتادت أن ترقدنى هناك ، على مقربة منها ، حين أمرض . لقد أحاطتنى دائما بكثير من الحنان منذ ولدت . وفى الليلة التالية كنت أئن ، ولكن أنيناً ضعيفاً ، بانتظار دمترى فيدوروفتش .

ـــ كيف ؟ اليك فى غرفتك ؟

ـــ لا . . . علام يجيء الى غرفتى ؟ كنت أنتظر وصوله الى الدار . ذلك أننى كنت واثقا كل الثقة بأنه سيجئ فى تلك

الليلة . كان لا بد له حتما ، وقد حُرم من معونتى وانقطعت عنه الأنباء التى أزوده بها ، من أن يتسلل الى الدار متسلقاً السور كما يجيد ذلك ، وان يفعل ما فكر به .

— فماذا لو لم يجئ ؟

— لو لم يجئ لما وقع شيء . لولاه لما عزمت أمرى .

— طيب ، طيب . . تكلم بمزيد من الدقة ، ولا تتعجل . المهم الا تغفل شيئا !

— كنت أتوقع أن يقتل فيدور بافلوفتش . ذلك أمر مؤكد . لاننى كنت قد أثرته اثارة شديدة فى الأيام الأخيرة . . . ثم لقد اصبح يعرف الاشارات السرية . . . فلم يكن يمكنه ، وهو فيما هو فيه من شك قوى وحنق مسعور ، الا أن يستعين بهذه الاشارات ليدخل المنزل . كان هذا سيحدث حتما . لذلك كنت انتظره .

قاطعه ايفان قائلاً :

— لحظة ! لو قتل لاستولى هو على المال . أما كان ينبغى لك أن تفكر على هذا النحو ؟ فأية فائدة كان يمكنك أن تجنيها فى هذه الحالة ؟ لست أفهم .

— ما كان له أن يعثر ابدا على المال . أنا وحدى الذى أوهمته بأن الظرف مخبأ تحت الفراش . ولكن ذلك كان كذباً منى . كان فيدور بافلوفتش يخفى المبلغ قبل ذلك فى علبة صغيرة . ولما كنت الانسان الوحيد فى العالم الذى يثق به فقد نصحته بأن يدس الظرف خلف الأيقونات فى زاوية الغرفة حيث لا يخطر ببال أحد أن يبحث عنها ، ولا سيما اذا كان سارقاً يتعجل الهروب . فهناك ، وراء الايقونات ، انما كان المال مخبأ لحظة وقوع الجريمة . أما وضع الثلاثة آلاف روبل تحت الفراش ، فهو فكرة غبية أفضلُ منها أن يوضع المبلغ فى العلبة الصغيرة

التى لها مفتاح على الأقل . لقد اعتقد جميع الناس هنا أن المال كان تحت الفراش . ذلك تفكير أبله . واذن لو قتل دمترى فيدوروفتش أباه لما عثر على المال ، ولأسرع يهرب وهو يخشى كل نأمة . هكذا يتصرف القتلة دائما ، والا لضُبط واعتُقل . وهكذا فاننى كنت أستطيع فى الغد أو حتى أثناء تلك الليلة نفسها أن أمضى آخذ المال من خلف الأيقونات ، فأحمله الى مسكنى . وكانت السرقة ستُنسب عندئذ الى دمترى فيدوروفتش . كان يوسعى دائما أن أتوقع ذلك .

— فاذا لم يقتل دمترى أباه ، ولم يزد على أن يضربه ؟

— لو لم يقتله ، لما جرؤت أن آخذ المال طبعاً . هذا بديهى . وتكون خطتى قد اخفقت . على أننى كنت افترض ، فيما اجريته من حسابات ، أن دمترى كان سيبلغ من ضربه أباه أن الأب كان سيفقد وعيه ويسقط مغشياً عليه . وكنت سأنتهز عندئذ هذه الفرصة فآخذ المال ، ثم أوهم فيدور بافلوفتش بعد ذلك أن السرقة من صنع دمترى ، وأن دمترى قد سطا على المال بعد أن ضربه .

— لحظة أخرى . . . اننى لا أفهم بوضوح . . . هل دمترى هو الذى قتل اذن ، ثم لم تزد أنت على أن سرقت المال ؟

— لا ، ليس هو الذى قتل . لقد كان سهلاً علىَّ ، حتى فى هذه اللحظة ، أن أزعم أنه هو القاتل . . . ولكننى لا أريد أن أكذب عليك ، لأننى . . . لأننى أدرك الآن أنك لم تفهم شيئا البتة حتى هذه اللحظة ، وأنك لم تكن تمثل تمثيلاً لتلقى ذنبك كله علىَّ ، ولتجعلنى أقبل هذا الوضع . ومع ذلك فانك أنت الجانى الأكبر فى هذه القضية ، لأنك كنت على علم بما كان يتهيأ ، وقد كلفتنى بأن أقتل أباك ، وسافرت بعد ذلك وأنت تعرف ما سيحدث . لهذا أصرُّ على أن أؤكد لك جازماً ، فى هذا

المساء ، أن القاتل الرئيسى هو أنت ، أنت وحدك ! أما أنا فلست الا معاون قاتل ، معاوناً ثانوياً ، رغم أن القتل قد تم بيدى . أنت القاتل شرعاً ، أنت ! . .

هتف ايفان أخيرا يقول وقد نفد صبره ، ناسيا أنه منذ لحظة قد أرجأ الحديث عن نفسه الى ما بعد :

— كيف أكون أنا القاتل ؟ آه . . . يا رب ! . . أبسبب سفرى الى تشرماشنيا أيضا ؟ قل لى اذن : لماذا كنت تحرص ذلك الحرص كله على موافقتى اذا كنت تؤول سفرى وحده على أنه موافقة ؟ هل لك أن تشرح لى هذا ؟

— حين أثق بأنك موافق ، أعلم أنك لن تحدث فضيحة عند عودتك ، بسبب اختفاء الثلاثة آلاف روبل ، اذا اشتبهت فىّ السلطات بدلا من أن تعتقل دمترى فيدوروفتش ، أو اذا هى عدتنى شريكا له فى الجريمة ، حتى لقد تدافع عنى فى هذه الحالة . ثم انك بعد ان تنال نصيبك من الميراث قد تكافئنى أثناء حياتك . ألم تنل هذا الميراث بفضلى أنا ؟ فلو قد تزوج أبوك أجرافينا ألكسندروفنا ، لما آل اليك كوبيك واحد من تلك الثروة كلها ! .

دمدم ايفان يقول كازا أسنانه :

— ها . . . كنت تنوى اذن أن تعذبنى طوال حياتى ! ولكن ما الذى كان يحدث لو أننى أبلغت عنك حينئذ بدلا من أن أسافر ؟

— ماذا كان فى وسعك ان تقدم ضدى آنذاك ؟ ليس يكفى لاتهامى أن أكون قد حضضتك على السفر الى تشرماشنيا . وهذا كله سخافات على كل حال ! هناك أمران لا ثالث لهما : اما أن تسافر بعد الحديث الذى دار بيننا ، واما أن تبقى هنا .

فلو بقيت لما حدث شىء البتة ، لأننى أفهم عندئذ أنك لا تريد وقوع جريمة القتل ، فأمتنع عندئذ عن الشروع فى العمل . أما اذا سافرت فانك تجعلنى أوقن انك لن تشى بى الى القضاء وأنك ستغفر لى سرقة الثلاثة آلاف روبل . ومن جهة أخرى ، فانك لم تكن تستطيع ملاحقتى ، لأن من الممكن أن اكشف أمام المحكمة عن كل شىء ، وأن أذكر لا أننى سرقت وقتلت — وذلك ما لم أكن لأقوله بداهة — وانما أذكر أنك حرضتنى على أن أسرق وأن أقتل ، وأننى رفضت ذلك . لقد كنت اذن فى حاجة الى موافقتك بغية أن لا تزعجنى بعد ذلك ، فما هى الأدلة التى تملكها ضدى ؟ ولا كذلك أنا ، فاننى أستطيع أن أزعجك فى كل لحظة ، بالكشف عن رغبتك القوية العارمة فى موت أبيك . ويمينا ان جميع الناس كانوا سيصدقون كلامى ، وان سمعتك كانت ستسوء الى الأبد ، وان شرفك كان سيلطخ مدى الحياة .

سأله ايفان غاضبا غضباً شديداً :

— أنت تزعم اذن أننى أتمنى بحرارة وقوة أن يموت أبى . فهل صحيح أننى تمنيت ذلك ؟

أجاب سمردياكوف بلهجة ثابتة وهو يحدق الى ايفان :

— لا شك اطلاقا فى أنك تمنيت ذلك ، ولقد كلفتنى ضمنا بارتكاب هذه الجريمة ، دون أن تطلب منى هذا الطلب بكلام ملفوظ صريح .

كان سمردياكوف ضعيفا جدا ، وكان يتكلم بصوت أجش متعب ، ولكن نوعا من هوى متأجج سرى كان يجيش فى نفسه ويحرك لسانه . كان واضحا أنه يهدف الى غاية ما . وقد أحسّ ايفان بذلك .

قال له ايفان آمرا :

ـــ كمِّل . اسرد وقائع تلك الليلة .

ـــ ماذا أقصّ أيضا ؟ كنت راقدا على مضجعى ، فاذا أنا يتراءى لى اننى أسمع صوتا يطلقه أبوك . كان جريجورى فاسيلتش قد خرج قبل لحظات ، وسُمع يعول على حين فجأة ، ثم ارتد كل شىء الى صمت مطبق . كنت انتظر فى الظلمات راقدا ، وكان قلبى يخفق خفقانا قويا يكاد ينشق له صدرى . لم أطق صبرا ، فنهضت أخيرا وخرجت . فى اليسار ، كانت النافذة المطلة على الحديقة مفتوحة . سرت بضع خطوات أيضا لأتجسس على أبيك ، ولأعرف أهو ميت أم حى . سمعته يضطرب ويتنهد . قلت لنفسى : «اذن ما يزال حيا !» . اقتربت من النافذة وناديت أباك قائلا : «هذا أنا ، لا تخف !» . فأجابنى : «لقد جاء ، جاء ثم هرب !» . كان يقصد دمترى فيدوروفتش . وأضاف يقول : «لقد قتل جريجورى فاسيلتش» . سألته هامسا : «أين وقع هذا ؟» فاجابنى بهمس أيضا : «هناك ، فى الركن» . قلت له : «انتظر لحظة» . واتجهت نحو الركن الذى دلنى عليه ، فاكتشفت جريجورى فاسيلتش عند أسفل السور راقداً على الأرض ، مضرجاً بالدم ، مغشيا عليه . «صحيح اذن ان دمترى فيدوروفتش قد جاء» . هاجمتنى هذه الفكرة فورا ، فسرعان ما قررت أن أتولى بنفسى اكمال المهمة واتمام الأمر ، لأن جريجورى فاسيلتش ، حتى ولو كان ما يزال حيا ، لن يستطيع أن يرى شيئا ولا أن يسمع شيئا وهو فيما هو فيه من اغماء . والخطر الوحيد هو أن تستيقظ مارفا اجناتفنا فجأة . شعرت شعورا واضحا ، فى تلك اللحظة ، بالخطر الذى أتعرض له اذا استيقظت مارفا اجناتفنا ، ولكن الاغراء كان أقوى من أن أتراجع ، وشعرت

باندفاع مسعور يقطّع أنفاسى . عدت الى النافذة التى كان أبوك واقفا عندها وقلت له : «جاءت ، جاءت أجرافينا الكسندروفنا . هى هنا ، وتطلب أن تدخل» . فارتعش من شدة الانفعال كطفل صغير ، وطفق يسألنى : «أين ؟ أين هى ؟» . كان لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من فرط الهياج ، ومع ذلك لم يصدّق بعد تصديقا تاما . قلت أجيبه : «هى هناك . انها تنتظر . هلا فتحت الباب !» . كان ينظر الىّ من النافذة حائر النظرة مرتبك الهيئة ، متسائلا أيجب عليه أن يصدقنى أم لا ، ولكنه تردد فى فتح الباب . قلت فى نفسى : «هو الآن خائف منى أنا» . أمر غريب مضحك : خطر ببالى فى تلك اللحظة فجأة أن أقرع زجاج النافذة بالاشارات المتفق عليها ايذانا بوصول جروشنكا . فعلت ذلك ، فاذا به ، هو الذى لم يصدّق أقوالى ، اذا به يقتنع فجأة باشاراتى فيسرع يفتح الباب فورا . فتح الباب ، فاردت أن أدخل ، ولكنه وقف أمامى يمنعنى من العبور ويسألنى مرتعشا : «أين هى ؟ أين ؟ أين ؟» . قلت لنفسى : «اذا كان خائفا منى هذا الخوف ، فمعنى ذلك أن الأمور تجرى مجرى سيئا» . وفى تلك اللحظة أحسست بساقىّ تخوران اذ تصورت أنه لن يدع لى أن أدخل غرفته ، أو أنه سيأخذ يصرخ ، أو أن مارفا اجناتفنا ستجىء مسرعة ، أو ما لا أدرى أيضا . لا أتذكر الآن تذكرا جيدا ما حدث فى نفسى عندئذ . لا بد أن وجهى كان قد اصفر اصفرارا شديدا . دمدمت أقول : «هى هناك ، أمام النافذة ، كيف لا تراها ؟» . قال «ائت بها الى هنا ، ائت بها الى هنا» . قلت : «لقد خافت . روّعتها الصرخة التى أطلقها جريجورى فاسيلتش ، فاختبأت وراء الأشجار . هيّا ، نادها أنت من النافذة» . ابتعد عن الباب راكضا ، ودنا من النافذة فوضع

على حافتها شمعة مشتعلة ، وصاح ينادى : «جروشنكا ! جروشنكا ! أأنت هنا ؟» . ولكنه لم يشأ أن يميل من على النافذة حتى لا يبتعد عنى ، وذلك بسبب خوفه . كان يخشانى فى تلك اللحظة خشية رهيبة ، لذلك لم يبتعد عنى قيد انملة . قلت له وأنا اقترب من النافذة وأميل بنفسى الى الخارج : «ها هى ذى ! وراء تلك الأشجار . هل رأيتها ؟ انها تبتسم لك . انظر !» . صدقنى فجأة ، وأخذ يرتعش ، لأنه كان مغرما بها أشد الغرام ! عندئذ انما مال من على النافذة تماما . لم أضيع ثانية واحدة ، تناولت ضاغطة الورق المعدنية التى كانت موضوعة على المنضدة ، لا شك أنك تتذكرها . انها تزن ثلاثة أرطال تقريبا . رفعتها ، وهويت بها على رأس أبيك بكل ما أوتيت من قوة . فلم تخرج من صدره حتى صرخة واحدة . كل ما حدث أنه تهاوى . وضربته مرة ثانية ، فمرة ثالثة ؛ وفى المرة الثالثة شعرت أننى حطمت جمجمته . سقط على الأرض منقلبا ، مضرجا بدمه . نظرت الى نفسى لأرى هل تلطخت ، فلاحظت أن ثيابى نظيفة لم يتبجس عليها شىء من الدم . مسحت ضاغطة الورق ، وأرجعتها الى مكانها . ثم اتجهت نحو الايقونات ، فأخرجت المال من الظرف ، ورميت الظرف على الارض ، وحرصت على أن اضع جانبا ، الشريط الوردى الذى كان يلف الظرف . وبعد ذلك نزلت الى الحديقة وأنا أرتعش ارتعاشا شديدا ، فمضيت رأسا الى شجرة التفاح المجوفة الساق ، تلك التى تعرفها . . . كنت قد اخترت هذه الشجرة مخبأ منذ مدة طويلة ، حتى لقد وضعت فيها ورقا وخرقة استعدادا لذلك اليوم . لففت الاوراق المالية بالورقة ، ثم غلفت الورقة بالخرقة ، ودست الزمة فى بطن الشجرة الجوفاء . بقيت الزمة هناك أسبوعين . ولم أخرجها

الا بعد مدة ، عقب خروجى من المستشفى . عدت الى بيتى ، فرقدت على مضجعى ، وأخذت أفكر عندئذ مذعورا : «اذا كان جريجورى ميتا ، فستكون العواقب وخيمة أما اذا كان حيا فصحا من اغمائه فسوف يجرى كل شىء على خير وجه ، لأنه سيشهد بأن دمترى قد جاء فعلا ، وسيستنتجون من ذلك أنه هو الذى قتل وسرق المال» . وبينا أنا فى هذا القلق وهذا الاضطراب ، أخذت أئن لأوقظ مارفا اجناتفنا بأقصى سرعة . فاستيقظت مارفا أخيرا وهرعت الىّ . ولاحظت فجأة أن جريجورى فاسيلتش غائب ، فأسرعت الى الحديقة وأخذت تعول . ومن تلك اللحظة بدأ هرج ومرج استمر طول الليلة كلها . اما أنا فشعرت باطمئنان كامل .

هنا توقف سمردياكوف عن الكلام . وكان ايفان يصغى اليه صامتا كالاموات ، لا يتحرك ولا يحول عنه بصره لحظة واحدة . وكان سمردياكوف أثناء حديثه لا ينظر اليه الا نادرا ، واذا نظر ينظر الى الجانب الآخر . فلما فرغ من كلامه بدا عليه الانفعال هو أيضا ، وأصبح يتنفس تنفسا ثقيلا ، وظهرت على جبينه قطرات عرق . ومع ذلك كان يستحيل على المرء أن يعرف أهو يشعر بندم أم لا .

وكان ايفان يفكر ، فعاد يقول له :

— لحظة . والباب ؟ اذا كان أبى لم يفتح الباب الا لك وحدك ، فكيف رآه جريجورى مفتوحا قبل ذلك ؟ ان جريجورى يؤكد أنه رأى الباب مفتوحا .

من الملفت للانتباه ان ايفان يلقى الآن أسئلته بلهجة هادئة كل الهدوء ، دون أى اهتياج أو حنق ، فلو دخل شخص الى الغرفة فى تلك اللحظة ، وألقى من العتبة نظرة على المتحدثين ، لأحس أنه يشهد حديثا هادئا وديا يدور بين الرجلين

على أمور عادية وان تكن هذه الأمور تعنيهما بعض العناية .

أجاب سمرديا كوف يقول مبتسما ابتسامة فيها مكر وسخرية :

— أما حكاية الباب الذى يزعم جريجورى فاسيلتش أنه رآه مفتوحا ، فذلك وهم منه لا أكثر . أؤكد لك أن جريجورى ليس رجلا ، بل هو بغل عنيد . انه لم ير شيئا البتة ، ولكنه يتخيل أنه رأى الباب مفتوحا ، وما من أحد يستطيع أن يزحزحه عن اعتقاده هذا . من حظنا كلينا أنه وضع هذه الفكرة فى رأسه ، لأن هذه الواقعة تدين دمترى فيدوروفتش ادانة حاسمة .

قال ايفان وقد بدا عليه أنه فقد تسلسل أفكاره من جديد ، وأنه يحاول أن يفهم شيئا ما :

— اسمع أيضا . . . أردت أن ألقى عليك أسئلة أخرى . . . ولكننى نسيت ما الذى كنت أريد أن أسألك عنه . . . لقد تاه عقلى تماما . . . ها . . . نعم ! اشرح لى هذه النقطة على الأقل : لماذا فضضت الظرف ثم تركته على أرض الغرفة ؟ لماذا لم تأخذ الظرف مع المال ؟ . . لقد تراءى لى ، أثناء حديثك ، أنك قد فعلت ذلك عامدا ، وأن ذلك كان أمرا ضروريا . . . ولكننى لا أفهم لماذا كان ذلك ضرورة . . .

— فعلت ذلك لسبب معين . لو ارتكب الجريمة شخص يعرف المنزل ويعرف نيات أبيك ، مثلى أنا ، شخص لعله سبق أن رأى المال ، ولعله شهد صرّه أو حتى ساهم فى صرّه ، فان ذلك الشخص ما كان ليحتاج الى فض الظرف بعد ارتكاب الجريمة ، لا سيما وهو يستعجل الهروب سريعا ، ذلك أنه يعرف على وجه اليقين أين يوجد المال . لو كان القاتل واحدا من أهل الدار ، مثلى أنا ، لاكتفى بدسّ الظرف فى جيبه دون أن يفضه ،

ولولّى هاربا بأقصى سرعة . ولا كذلك شأن أخيك دمترى فيدوروفتش : فلقد كان لا يعلم بوجود هذا الظرف الا عن طريق السماع ، ولم يره بعينيه فى يوم من الأيام . فاذا فرضنا أنه أخرجه من تحت الفراش ، كان عليه أن يفضه حتما ليتأكد من وجود المال فيه ، ثم كان لا بد أن يلقى الظرف على الأرض متعجلا ، دون أن يتسع وقته للتفكير فى أن هذا الظرف يمكن أن يكون شهادة عليه . ان هذا الطيش هو من شأن جميع اللصوص المبتدئين ، فهم لا يفكرون فى الأمور ولا يتبصرون بالعواقب . يجب أن لا ننسى ان دمترى فيدوروفتش نبيل المحتد ، وأنه لم يسرق فى يوم من الأيام حتى ذلك الحين . واذا قرر أن يسرق فى هذه المرة فلأنه يرى أن الأمر ليس أمر سرقة البتة ، وانما هو استردادٌ لمال يخصه شرعا . كان دمترى فيدوروفتش قد أعلن ذلك فى المدينة كلها سلفا ، حتى لقد تفاخر أمام شهود بأنه سيمضى يسترد حقه من فيدور بافلوفتش . اننى لم أفصح عن هذا التفكير صراحة فى شهادتى أمام وكيل النيابة ، ولكننى جعلته يدركه باشارات وتلميحات ، دون أن يبدو علىّ أننى أفهم أنا نفسى ما أقول ، فاعتقد أنه اهتدى بنفسه الى هذه الأفكار التى أوحيتها اليه . ما أزال أذكر أنه بلغ من سروره وافتتانه عندئذ أن لعابه أوشك أن يسيل .

هتف ايفان يقول وقد بلغ من الدهشة أوجها :

— هل يمكن فعلا أن تكون قد بنيت هذا كله فى لحظة الجريمة نفسها ؟

ونظر الى سمرديا كوف مرتاعا من جديد .

— طبعا لا . . . ما كان يمكن أن يخطر هذا كله ببالى فى لحظة كتلك اللحظة . وانما رُتّب كل شىء من قبل .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول متعجبا :

— اذن . . . اذن لقد ساعدك الشيطان نفسه ! لا ، لا ، لست غبيا . بل انك لأذكى كثيرا مما كنت أظن . . .

ونهض ايفان ينوى أن يمشى بضع خطوات فى الغرفة . كان يشعر بانهيار نفسى شديد . ولكن المائدة كانت تسد الطريق ، والمكان الخالى بينها وبين الجدار ضيق لا يسمح للمرء بأن يمشى فيه على ما يحب . لذلك اضطر ايفان أن يقتصر على أن يدور فى مكانه ، ثم عاد فجلس . ولعل عدم تمكنه من أن يتحرك كما كان يتمنى قد أثار غيظه ، فاذا هو يعود الى الكلام بلهجة مهتاجة كالتى تكلم بها حين وصوله . قال :

— اسمع أيها الشقى ، أيها الانسان الدنئ الحقير ! ألم تفهم أننى ان امتنعت عن قتلك حتى الآن فما ذلك الا لأستطيع أن أسلمك الى المحكمة غدا ؟ ألا فليشهد الله علىّ (قال ذلك وهو يرفع يده كمن يحلف يمينا) . . . ربما كنت أنا نفسى جانيا . . . لعلنى كنت أشعر سرا برغبة فى . . . أن يموت أبى . . . من يدرى ؟ ولكننى أحلف لك أننى لست جانيا بمقدار ما تتصور ، وانى لم أحرضك على ارتكاب هذه الجريمة فيما يخيّل الىّ . لا ، لا ، لم أحرضك ! على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام ! لسوف أتهم نفسى غدا ، أية كانت الشهادة التى قد تدلى بها ضدى ، فاننى أقبلها منذ الآن ، لا أخشاك . بالعكس : سأؤيد كل ما تقوله . ولكن يجب عليك أن تعترف فى الغد أنت أيضا . هذا واجب يقع على عاتقك . يجب عليك ان تعترف ، يجب عليك ، سنذهب معا . تقرّ هذا !

قال ايفان هذه الكلمات بلهجة قوية حازمة ، وكان واضحا

فى سطوع عينيه أن قراره هذا قاطع لا رجوع عنه .

قال سمردياكوف ، ولكن دون سخرية فى هذه المرة ، وبلهجة توشك أن يكون فيها شىء من عطف :

— أرى أنك مريض ، مريض جدا . ان عينيك صفراوان تماما .

واستأنف ايفان كلامه فقال :

— سنذهب معا . فان رفضت ، فلا ضير . . . سأذهب وحدى واعترف !

صمت سمردياكوف بضع لحظات كأنه يفكر ، ثم قال أخيرا كمن يصدر قرارا مبرما :

— لن يكون شىء من هذا . ولن تذهب أنت .

هتف ايفان يقول بلهجة عتب :

— أنت لا تفهمنى .

— ستستحى من اتهام نفسك هذا الاتهام ، ولن يكون لهذا أى فائدة على كل حال ، لأننى سأصرّح عندئذ تصريحا قاطعا بأننى لم أجر معك أحاديث من هذا النوع فى يوم من الأيام ، وسأؤكد أنك اخترعت هذا كله اختراعا بسبب ما أنت فيه من حالة مرضية (سيصدقون كلامى لما يبدو عليك من مرض) ؛ أو أقول أيضا انك قلت ما قلت اشفاقا على أخيك ورأفة به ، مؤثرا اتهام نفسك فى سبيل انقاذه ، وانك ألقيت الذنب علىّ لأنك لم تحسبنى فى يوم من الأيام انسانا كسائر البشر ، وانما عاملتنى طوال حياتى كما يعامل مخلوق حقير لا قيمة له . فمن ذا الذى سيصدق كلامك بعد هذا ؟ هل لديك حتى دليل واحد ؟

قال ايفان :

— قل لى : أنت أريتنى هذا المال الذى كنت تخبئه عندك ، لتقنعنى بصدق ما رويته لى ؟

فنحّى سمردياكوف الكتاب السميك الأصفر الذى كان يغطى حزمة الأوراق المالية ، وقال متنهدا :

— خذ المال واحمله معك .

— سأحمله طبعا ! ولكن لماذا ترده الىَّ الآن وأنت انما قتلت لتحصل عليه ؟

كذلك سأله ايفان وهو ينظر اليه بدهشة كبيرة .

فأجابه سمردياكوف بصوت مرتجف وهو يحرك يده بحركة ملل وسأم :

— أصبحت لا أريد هذا المال ! لقد قدَّرت خلال مدة ما أن أبدأ بهذا المال حياة جديدة فى موسكو ، أو قل أيضاً أن أسافر الى الخارج . كان لى هذا الأمل ، ولا سيما أنك كنت تقول «ان كل شىء مباح» . أنت علمتنى أن أفكر هذا التفكير ، وأن أقضى فى الأمور على هذا النحو . كنت تقول لى دائما : «اذا لم يوجد الاله اللانهائى ، فالفضيلة اذن باطل لا جدوى منه ولا داعى اليه» . هكذا كنت تفكر أنت ، ولقد تقبلت انا آراءك هذه .

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— ثم توليت تطبيق هذا التفكير بنفسك فى هذه الجريمة ، أليس كذلك ؟

— نعم ، مستوحياً آراءك .

— والآن هل عدت الى الايمان بالله ، ما دمت ترد الىَّ المال ؟

دمدم سمردياكوف يقول :

— لا ، أنا لا أؤمن بالله .

— فلماذا ترد الىَّ المال اذن ؟

قال سمردياكوف وهو يحرك يده بحركة مللٍ وسأم من جديد :

— كفى ! فيم يهمك هذا ؟ أما كنت تقول عندئذ ان كل شىء مباح ؟ فما بالك تضطرب الآن هذا الاضطراب كله ، حتى لتنوى أن تشهد على نفسك ؟ على انك لن تفعل ذلك ، لا ، لن تشهد على نفسك .

كذلك ردّد سمردياكوف بصوت جازم ينم عن اقتناع كامل .

فأجابه ايفان بقوله :

— سترى !

— هذا مستبعد استبعادا مطلقا . أنت أذكى من أن تفعل ذلك . أنت تحب المال ، أعرفُ هذا ؛ وأنت تحرص كثيراً على أن يحترمك الناس ، لأنك مزهو متكبر . ثم أنك عدا ذلك تتأثر تأثرا شديدا بمفاتن الجنس اللطيف ، وأنت فوق هذا كله تحب أن تعيش على ما يشاء لك هواك دون أن تكون رهنا بأحد . أنت تحرص على هذا أكثر مما تحرص على أى شىء آخر . ولن تريد أن تفسد حياتك هذا الافساد بتلطيخ شرفك الى الأبد أمام المحكمة . أنت تشبه فيدور بافلوفتش . أنت بين سائر ابنائه أكثرهم شبها به ، لأنك قد ورثت عنه نفسه .

قال ايفان وقد ظهر عليه الاعجاب بملاحظات سمردياكوف ، وتدفق الدم الى وجهه :

— لستَ بالغبى . كنتُ أظنك فى الماضى أبله .

ثم أضاف يقول وهو يتفرس فى الخادم باستطلاع وفضول :

— أرى أنك تتكلم الآن فى جد .

— بسبب زهوك وكبريائك انما كنتَ تعدنى غبيا . خذ المال . هلا أخذته !

لمَّ ايفان رزم الأوراق المالية الثلاث ، ودسَّها فى جيبه ، حتى دون أن يهتم بلفّها . وقال :

— غداً سأُظهر عليها المحكمة .

— لن يصدقك أحد ، لأنك الآن غنى ، فسيقدرون أنك اقتطعت هذا المبلغ من ثروتك أنت .

نهض ايفان وقال :

— لئن لم أقتلكَ اليوم ، فما ذلك الا لأننى سأحتاج اليك غدا . تذكر هذا !

قال سمردياكوف بصوت غريب وهو يلقى على ايفان نظرة غريبة :

— اقتلنى اذا شئت ، اقتلنى فى هذه اللحظة . . .

ثم أسرع يضيف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

— ولكنك لن تجرؤ . انك لن تجرؤ على شىء بعد اليوم ، يا من كنت فى الماضى رجلاً جسوراً .

قال ايفان :

— الى اللقاء .

وتقدم خطوة نحو الباب .

— لحظة ! . . أرنيه مرة أخرى ، هذا المال . . .

أخرج ايفان الأوراق المالية من جيبه ، وأراه اياها . فتأملها سمردياكوف بضع ثوان ، ثم قال وهو يحرك يده بتلك الحركة التى تنم عن الملل والسأم :

— طيب . اذهب الآن !

فلما همّ ايفان أن يفتح الباب صرخ سمردياكوف يقول على حين فجأة :

— ايفان فيدوروفتش !

فالتفت ايفان وسأله :

— ماذا تريد ؟

فقال له الخادم :

— وداعا !

فاجابه ايفان :

— بل الى اللقاء ، الى الغد !

وخرج من البيت .

كانت زوبعة الثلج فى الخارج ما تزال تعصف مسعورة . أخذ ايفان يسير بخطى ثابتة ، ولكنه أحس بعد لحظات أنه يترنح . فقال لنفسه وهو يبتسم : «هذه لحظة تعب جسدى» . واستولى عليه نوع من فرح . كان يحس فى نفسه ثباتاً لا يتزعزع : هذه خاتمة الشكوك والمخاوف وضروب القلق التى كانت تعذبه منذ زمن طويل . قال لنفسه وهو يشعر بارتياح نفسى كبير : «قررت . ولن يتغير قرارى» . وفى تلك اللحظة صدم شيئا على الأرض ، فكاد يتعثر ويقع . توقف عن السير ، فاذا هو يرى الرجل الصغير الذى كان قد صرعه قبل وقت قصير ، راقداً على الأرض ، جامداً على ذلك الوضع نفسه ، مغشياً عليه . كان الثلج قد دفن وجهه تقريباً . رفعه ايفان وحمله على كتفيه . واذ رأى نافذةً مضاءةً فى منزلٍ على يمينه ، اقترب من النافذة وقرعها ، فأجابه صاحب البيت ، فعرض عليه ايفان ثلاثة روبلات ليساعده فى نقل الرجل الى أقرب قسم من أقسام الشرطة . قبل صاحب البيت . سأصرف النظر عن التفاصيل ، فلا أذكر الا

أن ايفان فيدوروفتش قد استطاع أخيراً ، أن يضع الرجل الصغير في مقر الشرطة ، واتخذ الاجراءات اللازمة لاستدعاء طبيب على الفور لفحصه . وحسبى أن أشير الى أن هذه القضية قد استغرقت قرابة ساعة من وقت ايفان . ولكن ايفان كان يحس برضى عن نفسه . كان فكره يعمل بعنف ، رغم أن خواطره مشتتة . قال يحدث نفسه مسروراً : «لولا أن كان قرارى فيما سأفعله من الغد حاسماً فعلاً ، لما أنفقت ساعةً كاملةً فى الاهتمام بهذا السكران ، ولمررت به دون أن اكترث لمصيره ، ودون أن أفعل شيئاً فى سبيل أن لا يتجلد من البرد . . .» ثم تساءل وهو يشعر بمزيد من الرضى والسرور والارتياح : «ولكن كيف امكن أن أكون قادراً على تحليل نفسى هذا التحليل الصادق العميق . . . ألا ما أغبى أولئك الأطباء الذين يدعون اننى بسبيل أن أجن !» . حتى اذا وصل الى مسكنه هاجمه شك على حين فجأة . فقال لنفسه : «أليس الافضل أن أذهب الى وكيل النيابة فوراً فأقص عليه كل شىء ؟» . ولكنه أبعد هذه الفكرة ، واتجه نحو الباب عازماً أمره قائلا : «غدا ، غدا يتم هذا كله» . شىء غريب : بينما كان ايفان يدمدم بتلك الكلمات الأخيرة ، اذا بالفرح الذى كان يملأ نفسه منذ قليل ، يتبدد فى غمضة عين . وحين اجتاز عتبة غرفته شعر فجأة بشىء بارد كالجليد يمس قلبه ، كأنه تذكر شيئا مقززاً معذباً موجوداً فى هذه الغرفة بعينها ، فى هذه اللحظة نفسها ، وكان موجوداً فيها كذلك قبل الآن . وترامى على أريكته متعباً مكدوداً . وجاءته الخادمة العجوز بالسماور فصنع لنفسه شيئاً من الشاى ، ولكنه لم يشربه ، وأمر الخادمة بأن تتركه وحده الى الغد . كان يشعر وهو جالس على ديوانه بدوار . كان يشعر بأنه مريض خائر القوى . حاول أن ينام . ولكنه

نهض ثانيةً وهو فى حالة قلق شديد ، وأخذ يمشى فى غرفته بغية أن ينفض عنه خدره النعس . وخيِّل اليه فى بعض اللحظات أن فكره أخذ يهذى . على أن المرض ليس هو الذى كان يهمه ويشغل باله فى تلك الساعة . وعاد يجلس ، ونظر الى جميع الجهات كأنه يراقب المكان . وأجال بصره حوله عدة مرات . وتجمدت عيناه أخيرا على اتجاه معيَّن ، وأخذتا تحدقان الى نقطة بعينها فى أقصى الغرفة . وابتسم ايفان . ولكن حمرة الغضب لم تلبث أن صبغت وجهه بعد ذلك فوراً . ولبث جامداً خلال مدة طويلة ، ضاغطاً رأسه بيديه ضغطاً قوياً ، ولكن عينيه ما تنفكان تلتفتان الى تلك النقطة نفسها فى جهة الكنبة الموضوعة حذاء الحائط أمامه . واضح أن شيئاً ما كان يحنقه ويقلقه ويعذبه .

٩

الشيطان . كابوس ايفان فيدوروفتش

أحسب انه قد آن لى ، رغم أننى لست طبيباً ، أن أقدم للقارئ بعض الايضاحات عن طبيعة مرض ايفان فيدوروفتش . أريد أن أستبق تتمة القصة ، وأقول هنا انه كان فى ذلك المساء نفسه على أهبة أن يُصاب غداً بنوبة حمى حارة . لقد تغلب المرض أخيراً على جسمه الخائر الواهن الذى كان مع ذلك ما يزال يقاوم مقاومة عنيفة . وعلى أننى أجهل الطب ، فسوف أجازف فأفترض أنه كان قد استطاع ، بفضل حفزه لارادته حفزاً شديداً ،

أن ينحّي ، الى حين ، ذلك المرض الذى كان يدمّره ، آملا بالطبع أن يقضى عليه نهائيا فيما بعد . كان يعرف أنه مريض ، ولكنه يكره أن يكون مريضاً فى هذه الآونة فى هذه اللحظات الحاسمة القادمة فى حياته التى يجب عليه فيها أن يملك جميع قواه ، ليتكلم بحرية ، ليتكلم بوضوح ، «ليبرر نفسه أمام نفسه» . على أنه قد ذهب الى الطبيب الذى وصل من موسكو منذ مدة قصيرة ، والذى استدعته كاترينا ايفانوفنا بدافع التزوة وحدها ، كما سبق أن قلت من قبل . فبعد أن أصغى الطبيب الى كلام ايفان ، وبعد أن فحصه ، انتهى الى أنه مصاب حتى باضطراب دماغى ، ولم يستغرب أىّ استغراب الاعتراف الذى اعترفه له ايفان على مضض . قال الطبيب : «من الممكن جدا ، وأنت على ما أنت عليه الآن من اضطراب دماغى ، من الممكن جدا أن توافيك هلوسات ، رغم أن الأمر يحتاج الى مزيد من التثبت والتحقق . . . وكيفما كان الحال ، فيجب عليك أن تشرع فى معالجة نفسك بغير ابطاء ، والا كان يُخشى حدوث أسوأ العواقب » . ولكن ايفان فيدوروفتش ، حين خرج من عيادة الطبيب ، قرر أن لا يلقى الى هذه النصيحة الحكيمة بالاً ، ثم أهمل التداوى . قال يحدث نفسه : «ما أزال قادراً على أن أمشى ، وما أزال أملك القوة . ويومَ أنهار وأسقط فليعالجنى منهم من يريد» . بهذا ختم كلامه لنفسه وهو يحرك يده باشارة الملل والسأم . جلس ايفان اذن ، وكان يدرك هو نفسه فى تلك اللحظة أنه فى حالة هذيان . كان كما قلت منذ هنيهة يحدق تحديقاً قوياً الى شىء موجود على الكنبة قرب الجدار المقابل من الغرفة . ذلك أنه على الكنبة المستندة الى ذلك الجدار كان قد ظهر منذ هنيهة شخص دخل الغرفة لا يدرى

الا الله كيف ، لأن هذا الشخص لم يكن موجوداً حين ولج ايفان فيدوروفتش غرفته عائداً من عند سمردياكوف . ان هذا الشخص سيد ، أو بالأحرى هو نوع من الجنتلمان الروسى ، متقدم فى السن قليلاً ، [1] « qui frisait la cinquantaine » كما يقول الفرنسيون . شعره قاتم طويل كثيف ، أشيب فى بعض المواضع ، وكذلك لحيته الصغيرة المدببة . وهو يرتدى صدرة بنية اللون ، رائعة التفصيل ، ولكنها عتيقة قليلاً ، قد بليت «موضتها» . لا شك أن عمر ثيابه ثلاث سنين ، وما من أحد بين رجال المجتمع الثرى يرتدى مثل هذه الثياب منذ سنتين . ان القميص والكرافتة الطويلة التى تشبه أن تكون لفاعة ، أنيقان أيضا كل الأناقة ، فهما مما يلبسه فى العادة سادة يُعنون بهندامهم أشد العناية ، ولكن القميص يبدو قذرا نوعا ما اذا أنت أنعمت فيه النظر من قرب . واللفاعة العريضة تبدو مهترئة كذلك . والرجل يرتدى سروالاً ذا مربعات ، يناسبه كثيراً ، رغم أن لونه فاقع جداً ، ورغم أنه مسرف فى الضيق قد اندثرت موضته . ويصدق هذا أيضا على قبعته المصنوعة من لباد أبيض لا يناسب هذا الفصل البارد من فصول السنة . خلاصة القول أن الرجل يبدو سيداً محترماً لكنه لا يملك الا موارد محدودة . فلا شك أنه ينتمى الى فئة ملاكى الأراضى القدماء الذين كانت أوضاعهم مزدهرةً فى عهد القنانة . وهو يجيد الآداب الاجتماعية ، فلا شك أنه خالط المجتمع الراقى ، ولا شك أنه ما يزال محافظاً على بعض العلاقات والصلات . غير أن هذا السيد ، وقد صار شيئاً بعد شىء الى فقر سبّبه تبذيره فى ابان شبابه ، وفاقمه الغاء نظام

[1] يناهز الخمسين (بالفرنسية فى الأصل) .

القنانة فى الآونة الأخيرة ، قد تردّى الآن الى حيث أصبح طفيلياً يتنقل بين أصدقائه وأصحابه القدامى فيحسن هولاء استقباله لما يتحلى به من طبع دمث وتربية حسنة ؛ حتى لقد كان من الممكن استقباله فى المآدب على الموائد بصحبة أعلى الناس قدراً وأوسعهم جاها ، شريطة أن يعيّن له مكان متواضع بطبيعة الحال . وان الطفيليين الذين هم من هذا النوع ، الطفيليين الذين يرجعون الى محتد طيب ويملكون طبعاً حلواً ويعرفون كيف يقصون حكايات ويروون نوادر ، ويجيدون المشاركة فى لعبة بالورق ، ولا يكرهون أن يقوموا بخدمات حين يُرجون أن يقوموا بمثل ذلك ، ان هؤلاء يكونون فى أكثر الأحيان أرامل أو عازبين . وقد يكون لهم أولاد ، لكن أولاهم يعيشون دائما فى بعيد ، تربيهم عمة أو خالة يتحاشى السيد أن ينطق باسمها فى المجتمع الراقى كأنه يخجل أن تكون له قرابة كهذه القرابة . وبمضى الزمن ينسى هؤلاء السادة أولادهم تقريبا ، ويتلقون منهم فى أحيان متباعدة تهنئات بأعياد ميلادهم أو بأعياد الميلاد ، وقد يردون على هذه التهنئات سرا وقد لا يردون .

كان زائر ايفان فيدوروفتش لطيف الهيئة ، ان لم نقل محبب الوجه ، يشعر المرء أنه يهم فى كل لحظة أن يهش ويبش . ولم يكن يحمل ساعة ، ولكنه فى مقابل ذلك يضع على عينه نظارة لها حمالة من صدف ، مربوطة بشريط أسود . وكانت اصبعه الوسطى فى يده اليمنى تزدان بخاتم كبير من ذهب ، له فص من حجر رخيص . تأمل ايفان فيدوروفتش زائره الدخيل بعين مرتابة محاذرة ، ورفض أن يبدأ الحديث . كان يبدو على ضيفه أنه ينتظر ، وكان الضيف يلتزم وضع الاحترام الذى يلتزمه طفيلى هبط من الغرفة المخصصة له فى الطابق الثانى

ليحسو الشاى مع رب الدار وليسليه بصحبته ، حتى اذا رأى رب الدار غارقاً فى تأملاته معتكر المزاج ، أمسك عن الكلام ما لم يبادره بالخطاب رب الدار . ومع ذلك يدرك المرء أنه مستعد للاندفاع فى حديث لطيف كيّس حلو متى أتيحت له الفرصة . وفجأة أصبح وجه الزائر يعبر عن هم ، وقال يخاطب ايفان فيدوروفتش :

— اسمع . اعذرنى اذا أنا ذكّرتك بهذه النقطة : لقد زرت سمردياكوف على نية أن تعرف تفاصيل عن زيارة كاترينا ايفانوفنا له ، ولكنك تركته دون أن تطلع على شىء . أغلب الظن أنك نسيت . . .

هتف ايفان يقول وقد أظلم وجهه :

— صحيح ، صحيح ، لقد نسيت . . .

ثم دمدم يقول وكأنه يحدث نفسه :

— لا بأس الآن ، سيتم هذا كله غدا .

ثم استأنف يقول فى حنق وهو يلتفت الى زائره :

— أما أنت فاعلم أننى كنت سأستدرك بنفسى هذا النسيان الذى كانت روحى بسببه قلقة معذبة . ما تدخلك أنت فى الأمر ؟ أتريدنى فى ان اعتقد بأنك أنت الذى ذكّرتنى مع أننى تذكرت من تلقاء نفسى ؟

قال السيد المهذب وهو يبتسم ابتسامة عذبة جداً :

— لا تعتقد ، لا داعى . ما جدوى الايمان الذى يتم بقسر واكراه ؟ ثم ان البراهين لا يمكن أبداً أن تصلح أساساً يقوم عليه الايمان ، ولا سيما البراهين المادية . ان القديس توما لم يؤمن لأنه رأى المسيح يُبعث ، بل لأنه كان ظامئا الى الايمان قبل ذلك . انظر مثلا الى أولئك الذين يدعون الاتصال

بالأرواح . . . أنا من جهتى أحبهم كثيرا . . . تخيل أنهم يتصورون أنهم ينفعون الدين لأن الشيطان يظهر لهم قرونه من حين الى حين من الآخرة . هم يقولون : «ذلك برهان مادى فى أقل تقدير ، على وجود العالم الآخر» . فانظر الى هذا التفكير : يؤمنون بالعالم الآخر ويريدون براهين مادية ! ثم . . . هبهم برهنوا على وجود الشيطان ، فهل يترتب على ذلك أن الله موجود أيضاً ؟ فى نيتى أن أنتسب الى جمعية من جمعيات المثاليين لأنشئ فيها حزباً معارضاً . سأقول لهم : «أنا واقعى ، لا مادى» . هأ هأ ! . .

قال ايفان فيدوروفتش وهو ينهض فجأة بقوة :

— اسمع . يخيَّل الىَّ أننى الآن أهذى . . . أنا أهذى يقيناً . . . فاكذب ما شاء لك هواك أن تكذب . . . سيان عندى ! . . لن تفلح فى اثارة غضبى وغيظى كما فعلت فى المرة الماضية . ولكننى أشعر بخجل . . . لا أدرى لماذا . . . أتمنى أن أمشى فى الغرفة . . . هناك لحظات تغيب فيها عنى ، فلا أراك ولا أسمع صوتك ، تماماً كما فى المرة الماضية ، ولكننى أحزر دائما ما ستقوله لى ، **لأننى أنا ، الذى أنطق بهذه الأقوال ، لا أنت** ! وانى لأتساءل من جهة أخرى أأنا نمت فى المرة الماضية فرأيتك فى الحلم ، أم أنت ظهرت لى فى الواقع أثناء اليقظة ؟ سأغطس هذه الخرقة فى الماء البارد فأضعها على رأسى . فلعلك تختفى عندئذ .

اتجه ايفان فيدوروفتش نحو زاوية الغرفة ، وتناول فوطة بللها بالماء ووضعها على جبينه . وأخذ يمشى بعد ذلك فى الغرفة طولاً وعرضاً .

قال الزائر :

— انه ليسرنى حقاً أن نتخاطب الآن بصيغة المفرد فى غير كلفة ولا حرج .

فأجابه ايفان ضاحكاً :

— ألا انك لغبى ! أتراك تتخيل أننى سأستعمل الآن صيغة الجمع فى مخاطبتك ؟ أنا فى هذه اللحظة منشرح النفس منطلق المزاج ، غير أننى أشعر بأوجاع فى صدغىَّ . . . وأشعر بصداع فى رأسى . . . فأرجوك . . . لا تتفلسف اليوم كما تفلسفت فى ذلك اليوم . اذا لم يكن فى وسعك أن تغيب ، فتكلم فى أمور فرحة . قصَّ علىَّ نمائم وشائعات . ذلك يناسبك ويليق بك ما دمت طفيلياً . يا له من كابوس فظيع أن لا أستطيع التخلص من هذا الشخص ! ولكننى لا أخشاك . سأنتصر عليك آخر الأمر . لن أقاد الى مستشفى المجانين .

[1] — C'est charmant ! أنا طفيلى ؟ حقا ، ذلك هو دورى فى هذا العالم . هل أنا فى الواقع الا طفيلى ؟ بالمناسبة : لقد شعرت حين أصغيت الى كلامك بشىء من الدهشة والاستغراب . لكأنك أخذت تعدنى شيئاً واقعاً لا شبحاً من صنع خيالك كما زعمت فى المرة الماضية بعناد شديد واصرار قوى . . .

هتف ايفان يقول حانقاً :

— ما عددتك شيئاً واقعاً فى لحظة من اللحظات . أنت اكذوبة . انك مرضى . ما أنت الا شبح . ولكننى لا أعرف كيف اقضى عليك ، وألاحظ أن علىَّ أن احتمل حضورك زمناً . أنت هلوسة فى دماغى المتعب المكدود . أنت تجسد ذاتى ،

---

[1] هذا رائع ! (بالفرنسية فى الأصل) .

ولكنك تجسّد جانبا واحداً منها . . . انك تمثل من أفكارى وعواطفى أحطها وأغباها . وكان يمكن ، من هذه الناحية ولهذا السبب ، أن يعنينى أمرك قليلا ، وأن أهتم بك بعض الاهتمام ، لو كان فى وقتى متسع . . .

— لحظة . . . سوف أفضحك اذا سمحت : منذ قليل ، قرب مصباح الشارع ، ثرت على أخيك أليوشا صارخاً : «هل علمت هذا منه هو ؟ فمن أين علمت أنه يزورنى ؟» . لقد كنت تقصدنى أنا اذن . معنى هذا أنك خلال لحظة قصيرة آمنت بوجودى ، بأننى موجود فعلا .

قال السيد ذلك وهو يبتسم ابتسامة لطيفة .

— نعم ، كانت تلك لحظةً من ضعف طبيعى . . . ولكن من المستحيل أن أكون قد آمنت بأنك واقعٌ لا وهم . انى لأتساءل أأنا نمت أم سرت فى الغرفة فى المرة الماضية . فلعلنى لم أرك عندئذ الا فى الحلم .

— هلاّ قلت لى لماذا كنت قاسياً تلك القسوة كلها مع أخيك أليوشا منذ قليل ؟ انه فتى لطيف غاية اللطف ! وانى لأشعر بأننى آثم فى حقه بسبب حكاية الأب زوسيما تلك .

هتف ايفان يقول ضاحكا :

— لا تذكر اسم أليوشا ! كيف تجرؤ أن تفعل ذلك أيها الوضيع !

— تشتمنى وتضحك فى آن واحد . تلك علامة حسنة . ثم أنى ألاحظ أنك اليوم أرق فى معاملتى كثيرا مما كنت فى المرة السابقة . اننى افهم سبب هذا : هو ذلك القرار العظيم النبيل الذى اتخذته .

زأر ايفان فى غضب جنونى :

— لا تذكر قرارى !

— أفهم ، أفهم كل الفهم c'est noble, c'est charmant[1] انك تنوى أن تدافع عن أخيك ، وأن تضحى بنفسك فى سبيله . . . c'est chevaleresque[2] .

— اسكت والا هويت عليك ركلا !

— هذا يسعدنى من ناحية من النواحى ، وبه يتحقق هدفى . اذا كنت تريد أن تركلنى فمعناه انك أصبحتَ تؤمن بوجودى واقعا لا وهما . هل يركل أحد شبحاً ؟ ولكن دعنا من هذه الأمازيح . اشتمنى اذا كان يحلو لك ذلك . . . سيان عندى . . . ولكن من الأفضل للمرء أن يكون على شىء من الأدب والكياسة والتهذيب حتى فى معاملتى أنا . لقد وصفتنى بأننى غبى وبأننى وضيع ! فما هذه التعابير !

عاد ايفان يقول ضاحكا :

— حين أهينك فانما أهين نفسى . ما أنت الا أنا . . . أنت نفسى ، ولكن فى وجه غير وجهى . أنت لا تزيد طول الوقت على أن تعبر عن أفكارى وتفصح عن خواطرى فى نفس اللحظة التى توافينى فيها هذه الأفكار والخواطر . . . أما أن تقول لى شيئا جديدا لا أتوقعه فذلك ما أنت عاجز عنه كل العجز !

رد عليه السيد بكياسة واعتداد :

— اذا كانت الأفكار التى أعبّر عنها هى أفكارك أنت أيضا ، فلا يسعنى الا أن أعتز بهذا التوافق بيننا .

— المؤسف أنك لا تختار من أفكارى الا أردأها ، بل

---

[1] هذا عمل نبيل ، هذا عمل رائع . (بالفرنسية فى الأصل) .
[2] هذه فروسية (بالفرنسية فى الأصل) .

وأغباها على وجه الخصوص . أنت غبى وسوقى . أنت غبى غباء رهيباً فى الواقع . لا ، لا ، لا أطيقك ! ما العمل ؟ ما العمل ؟

كذلك هتف ايفان حانقا .

استأنف الزائر كلامه فقال باعتزاز الطفيلى ، الى مسكنة واستعداد لما يجب من تنازلات :

— أما أنا يا صديقى فأحرص على أن أبقى رجلا مهذباً وأن أعرف بذلك . صحيح أننى فقير ، ولكن . . . دون أن أزعم أننى أشرف من غيرى . . . أستطيع أن أقول ان من المسلّم به فى المجتمع عامةً ، كبديهية من البديهيات ، أننى ملاك سقط . شهد الله اننى لا أستطيع أن اتخيل كيف أمكن أن أكون فى الماضى ملاكا . وهبنى كنت فى الماضى ملاكا ، فان ذلك يرجع الى عهد يبلغ من البعد أننى أُعذر اذا أنا نسيته . وكل ما أحرص عليه الآن هو أن يُعرف عنى اننى رجل لائق محترم ، ثم أن أعيش كما يمكننى أن أعيش محاولا أن أسرّ أقرانى البشر . آه . . . اننى لأحب الناس حباً صادقاً ، وطالما رُوّجت فى حقى النمائم من هذه الناحية . حين أجد نفسى بينكم وحين أقيم عرضاً عند واحدٍ من أمثالكم ، فان وجودى يتخذ عندئذ صورة محسوسة واقعيةً ، وذلك ما يحلو لى أكثر من أى شىء آخر فى الأمر كله . ذلك أننى أنا ايضا مصاب مثلك بخيال مضطرب مختل ، ولهذا اقدر واقعيتكم الأرضية السليمة حق قدرها . ان كل شىء فى نظركم محدد تحديدا دقيقا ، وان كل شىء عندكم يتم التعبير عنه بصيغ معينة ، فالهندسة هى الظافرة المنتصرة . أما عندنا ! . . أما نحن . . . فاننا نظل نتيه الى الأبد فى معادلات غير محددة . أنا هنا أحلم وأتنزه ما أكثر ما أحب أن أحلم . ثم اننى متى وجدت على الأرض

أصبحت أؤمن وأصدق الأوهام . لا تسخر منى ، أرجوك : لشد ما يحلو لى أن أؤمن بالخرافات وأن أصدق الأوهام . اننى أتعود جميع عاداتكم فى هذه الحياة الدنيا . لقد أصبحت أحب الاختلاف الى الحمامات العامة ، وأصبح يحلو لى أن أجد نفسى فى حمام البخار بين التجار والقسس . ان أخفى رغبة تجيش فى نفسى هى أن أتجسد (ولكن تجسداً نهائياً لا عودة عنه) فى زوجة تاجر سمينة بدينة تزن مائة كيلوغرام ، وأن آخذ أؤمن بكل ما تؤمن به : وسيكون مثلى الأعلى عندئذ أن أدخل كنيسة فأشعل شمعة باندفاعة صادقة من القلب . سيكون ذلك خاتمة آلامى . واني لأجد لذةً كبيرة كذلك فى أن أُداوى كما تُداوون . فى هذا الربيع انتشر فى البلاد وباء الجدرى ، فذهبت التمس أن أُلقَّح كسائر الناس . لا تستطيع أن تتخيل مدى ما شعرت به من سعادة فى ذلك اليوم . حتى لقد تبرعت فى تلك المناسبة بعشرة روبلات لمساعدة اخوتنا السلافيين المضطهَدين ! . . ولكنى ألاحظ أنك لا تصغى الى كلامى .

وأضاف السيد المهذب يقول بعد لحظة من صمت :

— انك تبدو لى مريضاً جدا ، هل تعلم ؟ وأنا أعرف أنك ذهبت الى الطبيب أمس . . . فماذا قال لك الطبيب ؟ كيف حال صحتك ؟

فقطع ايفان أسئلته قائلا :

— أبله !

— أما أنت فذكى جدا . عدتَ الى الفظاظة ثانية ؟ أنا لم أسألك عن صحتك من باب التعاطف معك وانما لأقول أى شىء . لا تجبنى ان شئت . لقد انتشر الروماتزم من جديد . . .

كرر ايفان يقول :

— أبله !

— انت تصر على رأيك ، ولكن هذا لا ينفى أننى أصبت فى السنة الماضية بأوجاع روماتزم ما زلت أتذكرها حتى هذا اليوم .

— هل يمكن أن يعانى شيطان آلام روماتزم ؟

— لِمَ لا يمكن ذلك ، ما دمت أتجسد أحيانا ؟ انى اقبل جميع نتائج تجسداتى . «أنا شيطان و—

sum et nihil humanum a me alienum puto [1]

— كيف ؟ ما هذا الذى تقول ؟ انا شيطان sum et nihil humanum . . . ليس هذا الكلام غباءً كبيراً حين يقوله شيطان !

— يسعدنى أن أحظى أخيرا برضاك عنى .

قال ايفان فجأة وقد توقف عن المشى ، كأنما دُهش ودُهل :

— ولكنك لم تستعر هذه العبارة منى أنا ! ان هذه الجملة الذكية لم تخطر ببالى فى يوم من الأيام ! هذا عجيب مع ذلك . . .

— C'est du nouveau n'est ce pas ? [2] على أننى سأكون أميناً شريفاً فى هذه المرة ، فاشرح لك هذا اللغز . . . اسمع ، كثيرا ما يحدث فى الأحلام ، ولا سيما فى الكوابيس — كتلك الكوابيس التى تنشأ عن اضطراب فى المعدة مثلا ، أو عن أى سبب آخر — أن تخطر أمام البصر مشاهد فنية جدا ، أن تخطر أمام البصر قطع حقيقية من الحياة صادقة صدقاً عميقاً

[1] ولا شىء مما هو انسانى غريب عنى (باللاتينية فى الأصل) .
[2] كلام فيه جدة وطرافة ، أليس كذلك ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

مركباً معقداً ، أحداث وحتى سلسلةً من أحداث تربط بينها وتشد بعضها الى بعض فكرة موجهة ، وتملؤها تفاصيل غير متوقعة ، تتراوح بين أعلى تجليات الوجود الانسانى كما تقولون ، وبين أحقر السفاسف التافهة ، كزركم مثلا . ان القصص التى يعيشها المرء على هذا النحو فى الحلم يمكن أن تكون لها قيمة فنية تبلغ من العظمة أن ليف تولستوى نفسه لا يستطيع أن يتخيلها . ومع ذلك فليس الكتاب على وجه العموم هم الذين يرون أحلاماً من هذا النوع ، وانما يرى هذه الأحلام أناس من طراز عادى جدا ، أناس ليسوا أكثر من موظفين أو صحفيين أو قسس . . . والحق أن هذه الظاهرة تثير مشكلة وتلقى سؤالاً : لقد صرَّح لى وزير فى ذات يوم أن أخصب الأفكار انما توافيه عادة وهو نائم . ذلك بعينه هو ما يحدث لك فى هذه الساعة . مهما أكن مجرد هلوسة صادرة عن دماغك ، فهذا لا ينفى أننى أقول أشياء فيها جدة وطرافة وأصالة ، لم تخطر ببالك حتى الآن . فانا لا أردد اذن أفكارك أنت ، ومع ذلك لست الا كابوسك لا أكثر .

— كذبت ! ان هدفك هو أن تقنعنى بأن لك وجوداً واقعياً وبأنك لست مجرد رؤيا تتراءى لفكرى . ثم هأنت ذا تعلن أنت نفسك أنك لست الا حلماً .

— اعلم يا صديقى أننى قد اصطنعت اليوم اسلوباً جديداً وتبنيت طريقة جديدة . سأشرح لك هذا فى المستقبل اذا واتت فرصة . لحظة . . . الى أين وصلت من حديثى ؟ ها . . . نعم . . . قلت لك اننى أصبت ببرد . ومع ذلك لم يحدث هذا على الأرض ، وانما حدث هناك أيضا . . .

— هناك ؟ أين ؟ قل لى : هل تنوى أن تمكث عندى زمناً طويلا أيضا ؟ هلا تركتنى أخيرا ؟

كذلك هتف يقول ايفان وقد كاد يبلغ ذروة الكرب واليأس .

وكفَّ عن المشى وجلس على الديوان متكئاً بكوعيه على المائدة ، ضاغطاً رأسه ضغطاً قوياً . ثم نزع الخرقة المبللة عن جبينه ورماها بحركة أسف وحسرة : لم تنفعه هذه الوسيلة فى شىء .

قال السيد المهذب بلهجة منطلقة ولكن فيها كثير من المودة :

— أعصابك مهدودة . تثور علىَّ لأننى أصبت ببرد ، مع أن هذا قد حدث لى على نحو طبيعى جداً . كنت قد استعجلت الى حفلة استقبال دبلوماسية أقامتها سيدة عظيمة من سان بطرسبرج . كانت تسعى الى أن تكون وزيراً . كنت مرتدياً اذن ثياباً رسمية مع كرافتة بيضاء وقفازين . ولكننى كنت فى مكان بعيد جداً ، فكان علىَّ حتى أصل اليكم على الأرض أن أقطع فضاوات واسعة بين الكواكب . . . المسألة مسألة ثوان طبعاً . . . ومع ذلك تعلمون اليوم أن أشعة الشمس تستغرق ثمانى دقائق حتى تصل الى الأرض . كنتُ اذن — لا تنس هذا — أرتدى ثياباً رسمية مع صديرة مفتوحة جداً . ان الأرواح لا تتجلد من البرد ، هذا معروف . غير أن تجسد الروح يعرضها أحياناً لبعض العواقب السيئة . الخلاصة أننى ارتكبت فى ذلك المساء شيئاً من الطيش والخفة حين مضيت فى طريقى الى الأرض مرتدياً تلك الثياب . وليتك تعلم ما أشد البرد فى تلك الفضاوات ، فى الأثير ، هنا السائل . . . انه برد فظيع ، برد لا يكفى أن نقارنه بالصقيع هنا . الصقيع ؟ هه . . . تصور أن درجة البرودة كانت مائة وخمسين تحت الصفر ! ان بنات قراكم تخيلن مزاحة شائعة جداً . فحين يشير الترمومتر الى الثلاثين تحت الصفر ، يطلبن من فتى ساذج

غير ذى خبرة أن يلحس بلسانه حديد فأس ، فاذا بلسانه يلتصق فوراً ، واذا بالغبى يسلخ جلد لسانه لينتزعه من الحديد . هذا اذا كانت درجة البرودة ثلاثين فحسب . أما اذا بلغت مائة وخمسين ، فأحسب أنه يكفى أن تقترب الأصبع من الفأس حتى تزول . . . شريطة أن يكون فى الأثير فأس طبعاً . . .

سأله ايفان ذاهلاً بلهجة متقززة :

— هل يمكن أن يكون فى الفضاء فأس ؟

كان ايفان يشد جميع قواه فى سبيل أن لا يصدق أنه يهذى ، وذلك حتى لا يتردى الى الجنون نهائياً .

سأله الزائر مدهوشاً :

— فأس ؟

فهتف ايفان يقول فجأة بعناد غاضب :

— نعم ، نعم ، ما عسى يحدث للفأس هناك ؟

— ما عسى يحدث للفأس فى الفضاء ؟ Quelle idée ![1] لو رُميت الفأس الى مسافة بعيدة جداً عن الأرض ، فأظن أنها ستأخذ تدور حول سيارتكم هذه دون أن تعرف تماماً ما هو الهدف وأين المستقر ، كما يحدث لتابع من التوابع ، كما يحدث لقمر من الأقمار ؛ وسيحسب علماء الفلك ساعة طلوعها وساعة مغيبها حساباً دقيقاً ؛ وسيدوّن جاتسوك ذلك فى التقاويم ، وهذا كل شىء .

قال ايفان مغتاظاً :

— أنت غبى ، غبى غباء فظيعاً . حاول أن تكذب كذباً ذكياً على الأقل ، والا كففت عن الاستماع لك . انك تحاول

---

[1] يا لها من فكرة عجيبة ! (بالفرنسية فى الأصل) .

أن تقنعنى عن طريق الواقعية فى كلامك ، وأن تجعلنى بذلك أسلم بوجودك . ألا فاعلم أننى لا أريد أن اسلّم بهذا ، اننى أرفض أن أصدقه ! لن أصدقه !

ـــ أنا مع ذلك لا أكذب . ان كل ما أقوله حق . من سوء الحظ أن الحقيقة لا تكاد تكون مفرحة فى يوم من الأيام . أنت مثلاً تتوقع منى ، فيما ألاحظ ، أفكارا خارقة ، وربما رائعة . يؤسفنى هذا كثيراً ، لأننى لا أستطيع أن أعطى الا ما أملك . . .

ـــ دعك من التفلسف أيها الحمار !

ـــ أفتظن اذن أننى اشتهى أن أتفلسف والجنب الأيمن كله من جسمى يكاد يكون مشلولاً ؟ ألا انى لأتمنى ، بدلاً من ذلك ، أن أئن وأتوجع ! لقد استشرتُ عدداً كبيراً من الأطباء : انهم يملكون قدرة هائلة على تشخيص المرض ، ويشرحونه بأدق التفاصيل . . . أما أن يشفوه فذلك أمر يعجزون عنه . حتى لقد اتيحت لى فرصة التحدث مع طالب متحمس من طلاب الطب ، فقال لى فرحاً : «هبك مت من هذا المرض . . . لسوف يتيح لك ذلك فى أقل تقدير أن تعرف على وجه اليقين حقيقة الداء الذى أماتك» . وانظر بعد ذلك الى طريقتهم تلك فى ارسالك الى اخصائيين حين يقولون لك : «مهمتنا نحن تقتصر على تشخيص المرض . بقى عليك الآن أن تذهب الى الاخصائى فلان أو فلان ، فهو الذى سيشفيك» . واحسرتاه ! ان الطبيب الجيد القديم الذى عرفناه فى الزمان الماضى وكان يداوى من جميع العلل والأسقام قد اختفى تماماً ، تماماً ، أؤكد لك ! . . لم يبق اليوم الا الاخصائيون ، والصحف ملأى بالاعلانات عنهم . اذا شعرت بالآم فى الأنف ، أرسلوك الى باريس ، فهناك كما يقولون اخصائى له شهرة فى أوروبا كلها ، فى علاج

الأنوف . وتذهب الى باريس فيفحص الاخصائى أنفك ، فيقول لك : «أنا لا أستطيع أن أشفى الا منخرك الأيمن ، لأننى لا أهتم أبداً بالمنخر الأيسر ، فهو لا يدخل فى دائرة اختصاصى . فعليك بعد اتباع معالجتى أن تذهب الى فيينا حيث يوجد اخصائى حاذق جداً سيفعل لك ما يجب فعله لمعالجة منخرك الأيسر» . ما العمل فى هذه الحالة ؟ لجأت عندئذ الى استعمال الأدوية التى تنصح بها النساء العجائز . وصف لى طبيب أن أدلك جسمى بعد الحمام بمزيج من عسل وملح . ذهبت الى الحمامات العامة لا لشىء الا لاستمتع بوجودى مرةً فى حجرة البخار ، وهنالك وسّخت جسمى بذلك المزيج اللزج الذى لم يجدنى نفعاً . فلما يئست كتبت الى الكونت ماتيئى فى ميلانو : فأرسل الىَّ نشرة وقطرة . غفر الله له ! تخيَّلْ أن مستحلب الشعير الذى ينتجه هوف هو الذى شفانى تقريباً . كنت قد اشتريته عرضاً ، فما شربت زجاجة ونصف زجاجة حتى شعرت بأننى شفيت ، حتى لقد اشتهيت أن أرقص . زالت أوجاعى كلها . فحلفت لأنشرن فى الصحف رسالة شكر أطرى فيها مزايا هذا الانتاج . كان يدفعنى الى ذلك شعور صادق بالامتنان ، ولكن لهذا قصة جميلة جدا ! تخيل أننى لم أجد جريدة واحدة ترضى نشر نثرى . . . قالوا لى : «ان تصريحك هذا يتصف بشىء من الرجعية . ثم ان أحداً لن يصدقك . le diable n'existe point[1]» ونصحت بأن أنشر شكرى فى رسالة لا تحمل اسم صاحبها . ولكن ما قيمة شكر لا يحمل اسم صاحبه ؟ مازحت موظفى مكاتب تلك الجرائد ، فقلت لهم : «ان الايمان بالله هو الذى

[1] فالشيطان لا وجود له . (بالفرنسية فى الأصل) .

يمكن أن يعد شيئاً رجعياً فى زماننا هذا . أما أنا الشيطان ، فانه مباح تماماً أن أصدَّق» . فأجابونى بقولهم : «اننا نفهمك حق الفهم . فمن ذا الذى لا يؤمن بالشيطان ؟ ومع ذلك يستحيل نشر رسالتك ، لأن هذا يخالف الاتجاه العام الذى تلتزمه جريدتنا . اللهم الا أن تريد أن تسبغ على رسالتك طابع الهزل !» . قلت لنفسى : «لا بد أن يخلو الأمر من روح الفكاهة اذا هو جُعل هزلاً» . وهكذا لم يكتب لشكرى أن يظهر فى الصحف . هل تصدق ؟ وقد بقيت هذه الحكاية تثقل على قلبى . ان أنبل عواطفى ، كعاطفة الشكران مثلاً ، قد حُكم عليها أن تظل مكتومةً لا أفصح عنها ، دونما سبب غير وضعى الاجتماعى .

قاطعه ايفان مغتاظاً يقول :

ـــ هأنت ذا تسترسل فى التفلسف من جديد !

ـــ وقانا الله شر التفلسف . أنا لا أتفلسف البتة ، وانما ينبغى أن يجوز للمرء أن يشتكى من حين الى حين . أنا كائن تُقال فى حقى نمائم خطيرة . لقد اتهمتنى أنت نفسك بأننى غبى . هذا موقف يقفه شاب . اعلم يا صديقى أن الذكاء ليس أهمَّ شىء . لقد وُلدتُ طيب السريرة مرح الطبع . «وقد كتبت أيضاً مسرحيات هزلية» . يبدو أنك تعدنى خلستاكوفاً منحطاً ، مع أن لمصيرى شأناً أخطر من ذلك كثيراً . اننى بسبب قَدَرٍ أجهل أسبابه وهدفه ، لأنه كُتب علىَّ قبل خلق هذا العالم ، أن أظل «انكر» بغير انقطاع ، مع أننى فى حقيقة الأمر صادق النية طيب القلب عاجز عن الانكار لا مفر . يجب عليك أن تنكر . فبدون انكار لا يكون نقد ، وكيف يمكن تخيل جريدة أو مجلة خالية من «باب النقد» . ان الكون لن يكون بغير النقد الا «تسبيحا» متصلاً مستمراً . ولكن الحياة لا يمكن أن تقوم على

«تسبيح الله» فقط . لا بد لاندفاع البشر الى شكر الله وحمده من أن يمر بحفرة الشكوك ، وهلم جراً . . . على أننى لا أخوض فى هذا ، فلست أنا من خلقه ، ولست مسئولاً عنه . كل ما هنالك أننى جُعلت كبش فداء ، وأُمرت أن أقوم بوظيفة ناقد أبدى . على هذا النحو انما نشأت الحياة الأرضية . اننا نحنّ أيضاً ندرك هذه المهزلة . وانى من جهتى أطالب بأن أستطيع الارتداد الى العدم . فأجاب : «بل يجب عليك أن تحيا ، فبدونك لن يجرى أمر . اذ لو كان كل ما على الأرض معقولاً ، لما حدث شىء البتة . بدونك لن يكون ثمة أحداث ، وهل عن الأحداث غنى ؟» . أنا اذن أقوم بوظيفتى متحاملاً على نفسى ، من أجل أن يكون ثمة أحداث ، وأُشيع الضلال فى هذا العالم بأمرٍ أعلى . والبشر المساكين يأخذون هذه المهزلة مأخذ الجد ، رغم ما وُهب لهم من ذكاء عظيم . وذلك هو ما يجعل مصيرهم فاجعاً ، وحياتهم أليمة . انهم يتعذبون عذابا لا نهاية له . . . هذا صحيح . . . ولكنهم فى مقابل ذلك يحيون . . . يحيون حياة واقعية ، لا وهمية . لأن العذاب هو الحياة . ما عسى تصير اليه الفرحة بالحياة فى هذا العالم اذا لم يوجد الألم ؟ لن يكون هنالك عندئذ الا نشيد متصل لا ينتهى . وذلك شىء نبيل جداً ، مقدس جداً ، ولكنه باعث على الملـــــل . وأنا ؟ أنا أيضاً أتألم ، ومع ذلك لا أحيا . أنا حرف «س» فى معادلة غير ذات حدود . أنا شبح ، أنا طيف أضاع جميع البدايات والنهايات وانتهى حتى الى نسيان اسمه الحقيقى . أتضحك ؟ لا . . أنت لا تضحك . . . وانما تغضب من جديد . انك تغضب دائماً . انك لا تريد أن تسمع الا أشياء فيها ذكاء . ولكننى أعود فأقول لك : اننى مستعد لأن أتنازل ، راضياً ،

عن حياتى السماوية فوق الكواكب ، وعن جميع امتيازاتى العالية وألقابى الرفيعة ، فى سبيل أن أستطيع التجسد فى نفس زوجة تاجر تزن مائة كيلو وتقدم شموعاً للرب بسذاجة وبراءة .

سأله ايفان وهو يبتسم ابتسامة كره :

— هل معنى هذا أنك أصبحت لا تؤمن بالله أنت أيضاً ؟

— بم أجيبك ؟ اذا كنت تلقى علىَّ هذا السؤال جاداً . . .

صاح ايفان يسأله بعناد حانق :

— هل اللّه موجود أم هو غير موجود ؟

— ها . . . انت جاد اذن ؟ شهد الله يا عزيزى أننى أنا نفسى لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً . وتلك قولة كبيرة أقولها . . .

— لا تعرف مع أنك ترى اللّه بعينيك ؟ لا ، لا ، لستَ قائماً بذاتك ؛ أنت أنا . . . ما أنت الا أنا ولا شىء أكثر . . . انت حقارة ، أنت ثمرة خيالى أنا ! . .

— بل قل أن فلسفتى هى فلسفتك . ذلك أصوب . « Je pense donc je suis [1] » تلك هى القضية الوحيدة اليقينية . أما كل ما عداى ، أما كل ما حولى ، أما جميع تلك العوالم البعيدة ، أما اللّه ، وحتى الشيطان ، أما كل ذلك فلست أملك برهاناً على وجوده ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد على وجه الثقة واليقين أهذه وقائع موجودة بذاتها ، أم هى صادرة عن انبعاثى ، عن تطور تدريجى **للأنا** ، لهذه الأنا التى لا يكون عندئذ وجود لسواها ، والتى تكون قد وُجدت منذ الأبد . . . جملة القول . . . ولكنى أمسك عن الكلام ، أمسك عن الكلام ،

---

[1] «أنا أفكر فأنا اذا موجود» . (بالفرنسية فى الأصل) .

لأننى أرى أنك تهمّ أن ترتمى علىَّ لتشبعنى ضرباً .

قال ايفان بلهجة فيها ألم :

— خير من هذا أن تروى نادرة فكهة أو نكتة مسلية !

— أعرف نادرة تتصل بموضوع حديثنا . والحق أنها ليست نادرة بالمعنى الأصلى ، بل هى الى الأسطورة أقرب . انك تأخذ علىَّ امتناعى على التصديق ، فتقول : «تراه بعينيك ولا تؤمن» . فاعلم اذن أن هذه الحالة ليست حالتى وحدى ، وأننا جميعاً ، نحن معشر الذين نعيش فى المناطق السماوية ، تهزنا روح الاضطراب والقلق ، وذلك بسبب علومكم . حينما كان الأمر محصوراً فى الذرات ، والحواس الخمس ، والعناصر الأربعة ، فقد ظل مقبولاً بعض الشىء . ثم ان الأقدمين كانوا يعرفون الذرات . ولكن حين ذاعت بيننا الشائعة التى تقول انكم قد اكتشفتم الجزيئات الكيماوية ، والبروتوبلازما ، وما لا أدرى أيضاً ، طوينا ذيولنا بين سيقاننا ، وحدث فى صفوفنا اضطراب شديد ، وانتشرت فى بيئتنا الخرافات والأوهام ، وازدهرت الأقاويل والنمائم . لاحظ أن عندنا نمائم بقدر ما عندكم وأكثر . وأخيراً توالت الوشايات . يجب أن تعلم ، فى هذه المناسبة ، أن عندنا نحن أيضاً «شعبة خاصة» ، أن عندنا نحن أيضاً «مخابرات» تجمع بعض «المعلومات» . . . والأسطورة التى سأرويها لك يرجع عهدها الى قروننا الوسطى — أقول قروننا الوسطى نحن ، لا قرونكم الوسطى أنتم — وهى أسطورة أصبح لا يصدقها أحد منا الآن ، باستثناء زوجات التجار السمينات اللواتى يزنَّ مائة كيلو ، لا زوجات التجار السمينات اللواتى عندكم أنتم ، بل اللواتى عندنا نحن . ان كل ما يوجد فى الأرض يوجد أيضاً فى عالمنا . ذلك سر أكشف لك عنه اليوم من باب الصداقة الخالصة ، رغم أن هذا محظور

علينا . والأسطورة التى سأرويها لك تتعلق بالجنة : يُقال انه كان يعيش على أرضكم فى ذات زمان فيلسوف «ينكر كل شىء ، ينكر القوانين والشعور والايمان» . ويرفض خاصةً أن يسلّم بوجود الحياة الآخرة . وقد مات هذا الفيلسوف وهو على يقين من أنه يغيب فى غياهب العدم ، فاذا هو يرى نفسه فجأة أمام أبواب الحياة الآخرة . كانت دهشته من ذلك عظيمة ، وأعظمَ منها كان استياؤه . صاح يقول : «لست أريد الحياة الآخرة هذه ، لأنها تخالف عقيدتى» . فحوكم وحكم عليه بسبب هذه القولة الطائشة . . . معذرةً اذا أنا قصصت عليك الأمور على نحو ما قُصَّت علىَّ . . . وما هذه الا أسطورة على كل حال . . . ما هذه الا أسطورة على كل حال . . . حكم على الرجل بأن يقطع فى الظلمات ، سيراً على الأقدام ، مسافة كوادريليون كيلومتر (ان كل شىء يعدُّ عندنا الآن بالكيلومترات) ، وبعد ذلك تُفتح له أبواب الجنة ، ويُغفر له كل شىء . . .

قاطعه ايفان سائلاً بانتعاش قوى وحرارة شديدة :

— ما هى أنواع العذاب التى يمكن أن يتحملها الانسان فى الحياة الآخرة ، عدا هذا الكوادريليون من الكيلومترات ؟

— ما هى أنواع العذاب ؟ آه . . . لا تسأل : فى الماضى كنا نعرف أنواعاً مختلفة من العذاب . أما الآن فقد انتشرت أكثر الآلام الروحية ، «عذاب الضمير» ، وخزعبلات من هذا النوع . لقد استوردنا هذا من عندكم ، وهو ثمرة من ثمرات ما وصلت اليه عاداتكم وأخلاقكم من «لطف ورقة» . فمن ذا الذى جنى من هذا النظام فائدة ، فى رأيك ؟ ان الأشرار وحدهم انتفعوا بهذا النظام وأفادوا منه . أنّى لهؤلاء أن يعرفوا «عذاب الضمير» وليس لهم ضمير ؟ وفى مقابل ذلك كان على النفوس

الصادقة التى احتفظت بشىء من الاستقامة والشرف والأمانة أن تتألم عوضاً عن الآخرين وأن تفتديهم ! ذلك ما يحدث حين يراد ادخال اصلاحات فى تربة لم تتهيأ لقبولها ، وحين تُقلَّد أنظمة أجنبية تقليداً أعمى . أمر يستحق الرثاء ! ألا ان نار جهنم القديمة كانت خيراً من هذا . ولنعد الى فيلسوفكم الذى حُكم عليه بأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر : انه لم يزد على أن رفع كتفيه غير مبالٍ ، ثم رقد على الطريق بالعرض قائلاً : «أرفض أن أمشى ، حفاظاً على العقيدة وتمسكاً بالمبدأ !» . خذ نفس ملحد روسى مثقف ، وامزجها بنفس النبى يونس الذى لبث فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال يلعن حظه ، تخرج من ذلك الحالةُ النفسية لصاحبنا المفكر هذا الذى رقد على الطريق بالعرض .

— على أى شىء رقد ؟

— لا بد أنه كان هنالك شىء رقد عليه . أأصبحت لا تضحك الآن ؟

هتف ايفان يقول وهو على تلك الحالة نفسها من الانتعاش والحرارة (وكان يصغى الآن بنهمٍ غير متوقع) :

— مرحى لذلك المفكر ! مرحى ! ألا يزال راقدا على الطريق بالعرض حتى الآن ؟

— لا . لبث على ذلك الوضع قرابة ألف سنة ، ثم عاد ينهض وأخذ يمشى .

صاح ايفان بضحكة عصبية :

— يا له من حمار !

ثم بدا على ايفان أنه يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم استأنف كلامه فقال :

— ولكن أليس يستوى ، على كل حال ، أن يبقى راقداً

الى الأبد وأن يقطع مسافة كوادريليون كيلومتر ؟ أظن أنه سيحتاج من أجل ذلك الى بليون سنة ، أليس كذلك ؟

— أكثر أكثر ! لو كان معى قلم وورقة لأجريت لك هذا الحساب بسرعة . على كل حال ، لا قيمة لهذا ، ما دام قد انتهى من قطع هذه المسافة منذ زمن طويل . وعند ذلك انما تبدأ الحكاية .

— أنتهى من قطع المسافة ؟ كيف هذا ؟ من أين جاء ببليون سنة ؟

— أنت تندهش لأنك تقيس الزمان بمقاييس زمان أرضكم . والواقع أن هذه الارض لعلها قد عرفت الوجود بلايين المرات قبل وجودها الحالى . وهى فى كل مرة قد شاخت وتغطت بالثلج وتشققت فى كل اتجاه ثم تحللت وارتدت الى عناصرها الأولى ، فساد ملكوت المياه من جديد ، ثم ظهر مذنّب جديد فشمس جديدة ولدت بدورها أرضاً . وتكرر هذا التطور عدداً لا نهاية له من المرات بهذه المراحل نفسها وهذه التفاصيل ذاتها . ذلك ضجر قاتل بغير حياء . . .

— طيب ، فماذا حدث حين انتهى من قطع المسافة ؟

— لم يحدث أى شىء خارق . فتحت له ابواب الجنة فدخلها ، فما ان انقضت على دخوله ثانيتان — ثانيتان عدّهما والساعة فى يده ، نعم والساعة فى يده ، ألح على هذا (رغم أن ساعته لا بد أن تكون فى رأيى قد فسدت فى جيبه أثناء رحلته) — أقول ما ان انقضت على ذلك ثانيتان حتى هتف قائلاً ان هاتين الثانيتين لا تعدل قيمتهما مسافة الكوادريليون كيلومتر فحسب ، بل تعدل قيمتهما كوادريليون الكوادريليونات مرفوعة الى أسّ الكوادريليون أيضاً . الخلاصة أنه قد أخذ يرتـــــل

تسبيحته ، وبلغ من الغلوّ فى التسبيح والحمد أن بعضهم ممن كانت لهم أفكار أكثر تطوراً وأرفع نبلاً ، قد رفضوا فى الآونة الأولى أن يصافحوه ، لاعتقادهم بأنه قد بالغ فى الانحدار الى حضيض النزعة المحافظة . تلك هى طبيعة الروس . ولكننى أعود فأكرر لك أن الأمر أمر اسطورة أرويها لك على علاّتها . تلك هى المفاهيم السائدة عندنا اليوم فى هذه الشئون .

هتف ايفان يقول بفرح يشبه أن يكون فرح طفل ، كأنه قد تذكر فى هذه اللحظة شيئاً ما على حين فجأة :

— ضبطتك ! ان هذه الحكاية التى ترويها عن الكوادريليون من السنين انما اخترعتها أنا نفسى . كنت حينئذ فى السابعة عشرة من عمرى ، وكنت فى المدرسة الثانوية . . . تخيلت هذه الحكاية وقصصتها فى تلك الآونة على رفيق من رفاقى اسمه كوروفكين . كان ذلك فى موسكو . . ان هذه النكتة تبلغ من تميز أفكارى بها أننى ما كان لى أن أستمدها من غير أفكارى هذه . . . . ولكننى نسيتها بعد ذلك الزمان . . . وقد عاودت ذاكرتى الآن على غير شعور منى . فأنا الذى تذكرتها اذن ، ولم تقصصها علىّ أنت ! انه ليحدث هكذا أن تنبجس من النسيان طائفة من الأشياء بغتة عند الانسان حين يقاد الى التعذيب أو حين لا يزيد على أن يحلم وهو راقد فى سريره . فما أنت اذن الا حلم ، ما أنت الا صورة فكرى وليس لك وجود واقعى .

قال السيد المهذب وهو يضحك مشرق المزاج :

— اننى ألاحظ من جموحك العاطفى فى انكار وجودى أنك تؤمن بى مع ذلك .

— أنا ؟ أؤمن بك ؟ أبداً . . . أنا لا أؤمن بك البتة ، أنا لا أؤمن بك حتى ولا جزءاً من مائة جزء من الايمان !

— ولكن ربما آمنت بى جزءاً من ألف جزء ! ان المقادير الصغيرة فى الأدوية التى تعالج الداء بالداء نفسه قد تكون هى الأقوى أثراً . هلاّ اعترفت ، هلاّ اعترفت بأنك تؤمن بى ، ولو جزءاً من عشرة آلاف جزء مثلاً ! . . .

هتف ايفان يقول :

— ولا لحظة واحدة !

ثم اضاف بعد ذلك بصوت ترقق ترققاً غريباً :

— لكننى أود لو أؤمن بك !

— عظيم ، هذا اعتراف له قيمة كبيرة ! اعلم اننى طيب القلب واننى أريد أن أهبّ الى نجدتك . اسمع : أنا الذى ضبطتك ، لا أنت الذى ضبطتنى . لقد تعمدت أنا أن أروى لك حكايتك التى كنت قد نسيتها ، وانما فعلت ذلك بغية أن أقودك الى أن تشك فىّ شكاً نهائياً .

— كاذب ! أنت انما ظهرت لى لتقنعنى بوجودك .

— صحيح . ولكن اعلم أن الشكوك والقلق الذى تحدثه هذه الشكوك ، اعلم ان الصراع بين الايمان وعدم التصديق يمكن أن يورثا الانسان الذى يملك شعوراً مرهفاً عذابات تبلغ من الهول أن الانتحار شنقاً خير منها . ولما كنت أعلم أنك تؤمن بى قليلاً ، فقد زرعت الشك فى نفسك برواية تلك الحكاية لك . فبذلك أقودك من الايمان الى الشك ومن الشك الى الايمان مرة بعد مرة على التناوب . وحين أفعل ذلك فانما أهدف الى غاية . وأنا أطبّق هنا منهجاً جديداً : فمتى شككت فى وجودى شكاً نهائياً اردت أن تبرهن لى على اننى لست الا حلماً وعلى أننى غير موجود فى الواقع . ذلك أننى أعرفك . فبهذه الوسيلة أكون

قد حققت هدفى ، وهو فى الحقيقة هدف نبيل جداً . فأنا انما أرمى فى الواقع الى أن أضع فى نفسك بذرة ايمان متواضعة فاذا بشجرة قوية من أشجار السنديان تخرج من هذه البذرة فى المستقبل ، شجرة تبلغ من القوة أنك ستريد أن تعيش فى حماها حياة ناسك وقديس . والحقيقة أن هذه هى رغبتك الخفية المستترة المكتومة منذ زمن طويل . ولسوف تحقق هذه الرغبة يوماً ، فتتغذى بالجراد ساعياً الى الخلاص فى الصحراء .

— أفى سبيل خلاص روحى انما حمّلت نفسك اذن هذا العناء كله أيها الوغد ؟

— لا بد لى ، أنا أيضاً ، من أن أقوم بعمل خير من حين الى حين . ولكننى أرى أنك تغضب ، تغضب غضباً يا له من غضب ! . . .

— مهرّج ! هل أغريتهم وأغويتهم أيضاً أولئك الذين يقتاتون بالجراد ويقضون فى الصحراء سبعة عشر عاماً وهم يصلون وتغطيهم الطحالب ؟

— ذلك هو عملى الرئيسى يا صديقى العزيز . ما أسهل أن ينسى أحدنا الكون وعوالمه التى لا تعد ولا تحصى من أجل أن يتعلق بواحد من أولئك الرجال ، لأنهم فى نظرنا بمثابة جواهر ثمينة جداً . ان نفساً واحدة من هذا النوع تعدل فى بعض الأحيان كوكباً مع جميع توابعه . لدينا فى هذا الشأن جدول أسعار . ان نصراً نحققه على واحد من هؤلاء الرجال لهو فى نظرنا ذو قيمة عظيمة . أؤكد لك أن بينهم أناساً لا يقلون عنك ثقافة وذكاء ، رغم أنك لا تريد أن تسلّم بهذا ، أنا أعرف ذلك . . . وهم قادرون على أن يسبروا ، فى لحظة واحدة بعينها ، أعماقاً من الشك والايمان ، حتى ليحسب المرء فى مثل تلك

الهنيهات أنهم يوشكون أن يسقطوا «وأرجلهم فى الفضاء» على حد تعبير الممثل جوربونوف* .

ـــ طيب ؟ وفى كل مرة تبقى بأنف [1] ، أليس كذلك ؟

أجاب الزائر بلهجة الواعظ :

ـــ يا صديقى لأن ينصرف المرء بأنف خير فى بعض الأحيان من أن ينصرف بغير أنف البتة ، كما قال ذلك فى الآونة الأخيرة مركيز مريض أثناء اعترافه لكاهن يسوعى . انا حضرت المشهد ، كان رائعاً للغاية (أغلب الظن أن المركيز كان قد عهد بأنفه الى عناية اخصائى) . هتف المركيز يقول وهو يلطم صدره : «رُدّ الىّ أنفى» ، فقال له الكاهن الطيب هامساً : «يا بنى ، ان أوامر الله لا يُسبر غورها ولا تدرك حكمتها أحياناً . فرب بلاء ظاهر هو ينبوع سعادة عظيمة وان لم تكن هذه السعادة غير بادية للنظر أحياناً . لئن شاء حظ قاس أن يحرمك من أنفك ، ان فى ذلك لميزة واحدة على الأقل ، هى أن أحداً لن يجرؤ بعد الآن أن يجرّك من طرف أنفك» ، فاستأنف المريض اليائس كلامه قائلاً : «ذلك عزاء هزيل ! لسوف يسرنى ويسعدنى ويفرحنى أن أجرّ كل يوم من طرف أنفى ، شريطة أن يكون أنفى فى مكانه» ، فأجابه الكاهن متنهداً : «يا بنى ، لا يمكن أن يملك المرء جميع النعم والخيرات فى آن واحد ؛ وان الأمنية التى أفصحت عنها الآن لهى فى حد ذاتها معصية لله الذى ما نسيك فى هذه الحالة ، لأنك حين تؤكد أنه سيسعدك أن تُجر كل يوم من طرف أنفك ، كما أعلنت هذا بنفسك منذ هنيهة ، فأنما أنت تحقق

---

[1] تعبير روسى شائع معناه : يعود بخفي حنين . ـــ المراجع .

أمنيتك على نحو غير مباشر : انك اذ فقدت أنفك قد احتفظت به مع ذلك ، بالمعنى المجازى . . .» .

صاح ايفان قائلاً :

ـــ ما أغبى هذا الكلام !

ـــ يا صديقى ، انما غايتى الوحيدة حين رويت لك هذه النادرة هى أن أسلّيك وأضحكك . ولكننى أحلف لك . ان هذا الأمر قد حدث كما رويته لك تماماً ، كلمة كلمة . وهو حالة وقعت فى الآونة الأخيرة وأحدثت لى متاعب جمة وأورثتنى هموماً كثيرة . ان ذلك الشاب المسكين الذى حدثتك عنه قد انتحر فى تلك الليلة نفسها حين عودته الى البيت بعد الاعتراف . وقد لبثت بقربه الى آخر لحظة . . . أما كراسى الاعتراف لدى اليسوعيين فانى اعترف انها تسلية من تسلياتى المفضلة ، حين يوافينى ضجر ويلم بى سأم وحزن . وسأقص عليك الآن حالة أخرى يرجع عهدها الى بضعة أيام خلت . استقبل كاهن يسوعى عجوز على كرسى الاعتراف فتاة شقراء ، نورماندية ، صبية فى العشرين من عمرها ، جميلة يفتن جمالها العقل . . . أما جسمها فان اللعاب ليسيل حين تراه . جثت على ركبتيها ، ودمدمت تعترف بخطيئتها من خلال القضبان . هتف الكاهن الصارم يقول : «هل يمكن حقاً ، يا ابنتى ، أن تكونى قد سقطت من جديد ؟ أوه ! [1] O Sancta Maria ! ماذا أسمع ؟ مع رجل آخر ؟ الى أين تمضين يا بنيتى ؟ ألا تستحين ؟» ، فأجابته الخاطئة تقول وقد غرق وجهها فى الدموع ندماً وحسرة : [2] Ah mon pere.

---

[1] يا مريم العذراء ! (باللاتينية فى الأصل) .

[2] اه ابتاه ! (بالفرنسية فى الأصل) .

Ça lui fait tant de plaisir et à moi si peu de peine ! [1]

جواب عظيم ، هه ؟ ما رأيك ؟ لقد دهشت أنا نفسى من هذا الجواب . كانت تلك صيحة الطبيعة . . . بدا لى ذلك أظهر من البراءة نفسها . غفرت لها خطيئتها فوراً ، وبينما كنت أهم أن أنصرف ، رأيتنى اضطر الى أن أعود أدراجى : فقد سمعت الكاهن يتواعد مع الفتاة من خلال القضبان على أن يلتقيا فى المساء . وكان الكاهن مع ذلك شيخاً صارماً شديد العبوس . لقد سقط فى مدى لحظة . لقد ظهر أن الطبيعة هى الأقوى . مالك تكشر ؟ أغضبت من جديد ؟ حقاً لقد أصبحت لا أدرى ما الذى يجب علىّ أن اخترعه حتى أسرك . . .

صاح ايفان يقول بصوت موجع فيه أنين ، لأنه كان يحس أنه عاجز عن التخلص من هلوسته :

— دعنى ! انك تحدث فى دماغى جلبة كابوس . ان حضورك يضجرنى ضجراً قاتلاً . لقد أصبحت لا أطيـــق احتمالك . اننى مستعد لأن أعطى كثيراً فى سبيل أن أتخلص منك !

— أكرر أن عليك أن تخفف من غلوائك ، وأن تعتدل فى مطالبك . كفّ عن توقع أفكار «رفيعة عظيمة» منى ، فترى كيف أننا سنتفاهم حينذاك . الواقع أنك حانق علىّ لأننى لم أمثل أمامك فى اطار أكثر مهابة ، تحف بى هالة حمراء ، وتحيطنى بروق ، وتصحبنى رعود . كنت تود لو ترانى بجناحين كبيرين محمّرين بنار جهنم ، ولا تغفر لى أننى جئت اليك بثياب

---

[1] ان ذلك يحدث له هو لذة عظيمة ، ولا يحدث لى أنا الا ألماً قليلاً (بالفرنسية فى الأصل) .

متواضعة هذا التواضع . انك تشعر بأنك أوذيت ، أوذيت فى مشاعرك الجمالية الفنية أولاً ، وفى كبريائك وعزتك ثانياً : كيف يستقبل رجل عظيم هذه العظمة — أليس كذلك ؟ — كيف يستقبل مثل هذا الرجل شيطانا مبتذلا هذا الابتـــذال ؟ صحيح ! أنا لا أنكر ذلك ! ان هذه السمة الرومانسية التى طالما ندّد بها الناقد بيلنسكى هى جزء من طبيعتك . ولكن ما حيلتى أيها الشاب الطيب ؟ منذ قليل ، حين كنت أتهيأ للمجئ اليك ، خطر ببالى أن أرتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له أن خدم فى القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام «الاسد» و«الشمس» . وكانت هذه الفكرة محببة الى النفس ، ولكننى لم أجرؤ أن أنفذها ، فلو قد فعلت لضربتنى حتماً لأننى وضعت على صدرى وسام «الاسد» و«الشمس» بدلاً من ان اضع «نجمة القطب» «ونجمة الأبرق» . وأنت الى هذا لا تكف عن تذكيرى بأننى غبى . شهد الله مع ذلك أننى لم يخطر ببالى أن أنافسك فى الذكاء . حين جاء مفستوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم لا يستطيع ان يفعل الا الخير . ذلك شأنه هو . أما أنا فعلى نقيض هذا . ربما كنت فى الكون بأسره الانسان الوحيد الذى يحب الحقيقة مخلصاً ويصبو الى الخير صادقاً . لقد كنت حاضراً حين صعدت «الكلمة» الى السماء ، بعد موتها على الصليب ، حاملة على صدرها روح لص اليمين المصلوب . وسمعت صيحات الفرح التى صدحت بها أصوات الكروبيين مسبحين بحمد الله ، وسمعت الأناشيد الصاخبة يضج بها السارفيين الذين هزّوا السماء بأصواتهم المرعدة وأرعشوا بها الخليقة كلها . فيميناً بكل ما أقدس فى هذا العالم ، لقد تمنيت عندئذ أن أنضمّ الى جوقة المنشدين مسبحاً بحمد الله أنا أيضاً . كان

صدرى يرتفع وكانت كلمات الحمد والثناء تندفع الى شفتى . . .
ذلك أننى — اعلم هذا — حساس جداً ، وأننى قد أوتيت عاطفة فنية مشبوبة . ولكن العقل — هذه الملكة اللعينة فى طبيعتى — قد صدتنى فى تلك المرة أيضاً ، واضطرتنى الى القصد والاعتدال . فأفلتت منى اللحظة الرائعة ، أفلتت منى الفرصة الوحيدة . تساءلت عندئذ : «ما عسى يحدث بعد أن أغنى نشيد تمجيد الرب ؟ سوف ينطفئ حينذاك كل شىء فى هذا العالم ، فلا تحدث بعد ذلك أحداث» . فبسبب وظائفى وحدها ومن أجل وضعى الاجتماعى وحده انما خنقت اذن فى نفسى ذلك الاندفاع الطيب الخيّر الكريم ، وبقيت وفياً لما أقوم به من أعمال الدناءة . ان شخصاً آخر قد احتكر لنفسه ما يرتبط بالخير من شرف ومجد ، ولم تترك لى أنا الا حطة الشر . ولكننى لا أحسد أولئك الذين يعيشون فى السهولة واليسر ، فما أنا بالطماع . ولكنى أتساءل مع ذلك : لماذا كتب علىّ وحدى ، من دون سائر مخلوقات الكون ، أن أتلقى لعنات الأخيار من الناس ، بل وأن احتمل ركلات أرجلهم فى بعض الأحيان ، لأن علىّ أن أذعن لهذه المساوىء حين أتجسد . أنا أعلم أن فى هذا سراً ، ولكنهم يأبون أن يظهرونى على هذا السر . ربما كانوا يعرفون أننى يوم أعرف السر ، سأسبح أنا أيضاً بحمد الله ، فسرعان ما يتبدد عندئذ ما فى هذا العالم من عيوب ضرورية ، وسرعان ما ينتصر الرشاد ، فيكون ذلك نهاية كل شىء ، حتى الجرائد والمجلات ، اذ من ذا الذى يخطر بباله عندئذ أن يشترك فى الجرائد والمجلات . لست أجهل طبعاً أننى سأتصالح آخر الأمر مع الخليقة ، وأننى بعد أن أقطع ما يجب علىّ أن أقطعه من مسافة تبلغ كوادريليون كيلومتر ، سأعرف السرّ الذى يخفونه عنى . ولكن الى أن يتحقق

ذلك ، سأظل فى صف المعارضة ، فأقوم بعملى على مضض ، وأنهض باعباء مهمتى متألماً أشد الألم : أهلك ألوفاً لأنقذ واحداً . كم من نفس وجب اهلاكها وكم من سمعة وجب تلطيخها ، من أجل الوصول الى رجل صالح واحد مثل أيوب ، باستخدامى أنا ؟ لا . . . ما ظل السر مكتوماً عنى خافياً علىّ ، فسيبقى هنالك حقيقتان فى نظرى : حقيقة السماء التى أجهلها الآن جهلاً تاماً ، وحقيقتى أنا . ولا يدرى أحد حتى الآن أى الحقيقتين أشرف . . . ولكنك نمت فيما أرى ؟

قال ايفان فى أنين وغضب مكظوم :

— وكيف لا أنام ؟ ان أغبى ما فى طبيعتى من أمور ، ان أسخف ما كان فى ذهنى من أفكار تجاوزتها منذ زمن طويل ونبذتها نبذ القاذورات ، تأتى أنت الآن فتقدمها لى كما لو كانت شيئاً جديداً .

— حظى سيىء ! كنت آمل أن أفتنك بما فى كلامى من جمال أدبى . أحسب مع ذلك أننى أجدت وصف التسبيح الذى غنته الأصوات فى السماء . ما رأيك فى هذه اللهجة الساخرة التى تقتفى آثار هاينى ؟ يخيل الىّ أنها تناسبنى . . . ألا ترى ذلك ؟

— لا ، أنا لم أكن فى يوم من الأيام خادماً من هذا الطراز ! كيف أمكن أن تلد نفسى خادماً مثلك ؟

— يا صديقى ، أعرف شاباً روسياً من أسرة طيبة ، فتى أحلف لك انه رائع : هو فيلسوف ، وهو يهتم بالأدب ويعنى بالفن . وقد ألفّ قصيدة تلوح فيها موهبته الشعرية منذ الآن ، عنوانها : «المفتش الاكبر» . وفيه وحده انما كنت أفكّر .

صاح ايفان يقول وقد احمر وجهه خجلاً :

— أمنعك من الكلام عن «المفتش الاكبر» !

— و«التحول الجيولوجى» ؟ ألا تتذكره ؟ تلك قصيدة !

— اسكت والا قتلتك !

— تقتلنى أنا ؟ دعنى أكمل أولاً ما كنت أريد أن أقوله لك . فمن أجل أن احصل على هذه المتعة انما جئت . اننى أعبد أحلام أصدقائى الشباب الذين يفيضون حرارة وحماسة ونبضاً وحياة . كنت تقول لنفسك فى الربيع الماضى وأنت تستعد للمجىء الى هذه المدينة : «سأجد هنالك أناساً جدداً . انهم ينوون أن يحطموا كل شىء وأن يعودوا فيبدأوا من البداية ، أى من أكل لحوم البشر ! يا لهم من حمقى ! لماذا لم يستشيرونى ؟ لا حاجة الى التحطيم فى رأيى ، وانما يكفى أن نطرد من أذهان البشر فكرة الاله . بهذا انما ينبغى لنا أن نبدأ مهمتنا . ذلك هو المنطق الحقيقى الذى يجب أن ننطلق منه فى عملنا ، وهؤلاء العميان لم يدركوا من هذه الحقيقة شيئاً . فمتى نبذت الانسانية الايمان بالله دفعة واحدة (وأنا مقتنع بأن هذا العصر آت لا ريب فيه ، ليحل محل العصور الجيولوجية الأخرى التى تعاقبت حتى الآن) ، فان المفاهيم القديمة عن الكون ستختفى من تلقاء نفسها دون أن يكون من الضرورى أن نرتد الى عهد أكل لحوم البشر . وستزول الأخلاق القديمة خاصة ، وسيبنى عالم جديد بعد أن يمحى الماضى . سوف يتحد البشر ليردوا الى الحياة الحد الأقصى مما تستطيع الحياة أن تعطيه من سعادة وبهجة ومتعة ، ولكن فى هذا العالم وحده . وسيشعر الانسان بعزة عظيمة وكبرياء جبارة تحركه وتحمله ، لأنه يكون قد أصبح «الهاً — انساناً» . ان ما سيحققه الانسان من انتصارات على الطبيعة لا انقطاع لها ولا حدود لها ، بفضل ارادته المتحالفة مع العلم ، ستغمر نفسه فى

كل ساعة بفرح يبلغ من السمو والرفعة أنه سينسيه ما كان يوعد به فى الماضى من ثواب سماوى . سيعرف كل انسان أنه فان ، وأنه لن يبعث بعد الموت ، ولكن جميع الناس سيقبلون الموت بهدوء فيه عزة وشمم ، كأنهم آلهة . سيعدل الانسان يومئذ ، من شدة أنفته وكبريائه ، عن الشكوى من القدر وعن الاستياء من أن حياته طارئة ووجوده عارض . وسوف يحب الانسان أخاه الانسان حباً مبرأ من المنفعة . صحيح أن الحب لن يتفتح الا لحظات قصاراً ، ولكن قصره نفسه سيجعل سناءه وقوته أشد وأعنف ، بينما كان فى الماضى يضيع فى صبوات غامضة الى حب أبدى ولو من خلف القبر» . . وهلمّ جرا . شىء جميل .

كان ايفان قد سدّ اذنيه بيديه ، وأطرق الى الأرض وهو جالس على الديوان ، وأخذ جسمه كله يرتجف .

تابع الصوت كلامه يقول :

— «ان المسألة المطروحة الآن — هكذا كان يفكر فيلسوفنا الشاب — هى : هل سيأتى عصر من هذا النوع أم لا ؟ فاذا كان الجواب على هذا السؤال بنعم ، فسوف تحل المشكلة ، وسوف تنتظم الانسانية على أسس جديدة . ولكن لما كان من المستحيل ، بسبب حماقة البشر ، بحكم حماقتهم ، أن يحل هذا العصر الجديد قبل انقضاء ألف سنة أخرى ، فانه يترتب على ذلك أن من حق كل فرد ، وقد وعى الحقيقة منذ الآن ، أن يبنى حياته على النحو الذى يناسبه دون أن يعبأ بالمفاهيم البالية أو أن يكترث لها ! وبهذا المعنى انما يمكن أن يقال «ان كل شىء مباح» . وهب أن ذلك العصر الجديد لن يأتى فى يوم من الأيام ، فانه ليظل صحيحاً أنه لا وجود للاله ، ولا خلود للنفس ، فمن المباح اذن للانسان الجديد أن يصبح الهاً انساناً ولو وجب عليه أن

يكون الوحيد كذلك فى الكون كله . وواضح أنه سيستطيع ، فى دوره الجديد ، أن يتحرر فرحاً من الضغوط الأخلاقية التى كان يخضع لها «الانسان العبد» فى الماضى ، وسيكون عليه أن يتحرر هذا التحرر كلما بدا له ذلك ضرورياً . فلا قوانين تفرض على اله ! وأى مكان يكون فيه الاله فهو مكانه . . . واى مكان اقف فيه أنا . . . سيكون المكان الاول . . . كل شىء مباح ، وكفى ! — هذا كله جميل جداً ، ولكننى أتساءل لماذا يكون الانسان فى حاجة الى أن يتدثر بدثار الحقيقة ما دام قد قرر أن يغش وأن يخادع ؟ هذا هو انساننا الروسى المعاصر : انه فى حاجة الى تأييد الحقيقة ولو ليقرر أن يغش . . . فالى هذا الحد يبلغ حب الحقيقة . . .

كان الزائر يبدو مسروراً ببلاغته وفصاحته . فهو يرفع صوته اكثر فأكثر ، وينظر الى صاحب البيت فاحصاً فى مكر ومع ذلك لم يستطع أن يكمل كلامه ، فان ايفان تناول الكأس الموضوعة على المائدة فجأة ، فرمى بها الخطيب البليغ بكل ما أوتى من قوة .

فهتف الخطيب يقول وهو ينهض متعجلا ويمسح بأصابعه قطرات الشاى التى تناثرت على ثيابه :

— Ah, mais c'est Bête enfin ![1] لقد تذكر مجبرة لوثره . هو يدعى أننى لست الا حلماً ، فيقذف الأقداح الى رأس الخيال الذى ظهر له فى هلوسته ! لكأنه امرأة حقاً . . . يا لهذا المنطق ما أغربه ! . . لقد كنت أقدّر فعلاً أنك تتظاهر بسدّ أذنيك تظاهراً بينما كنت فى الواقع تسمعنى وتصغى الىّ . . .

---

[1] آ . . . ألا ان هذا لغباء أخيراً ! (بالفرنسية فى الأصل) .

وفى تلك اللحظة سمعت طرقات ملحة على زجاج النافذة ، فنهض ايفان فيدوروفتش عن ديوانه واثباً .

صاح الزائر يقول :

— هل سمعت ؟ خير لك ان تفتح ، فهو أخوك أليوشا يطرق النافذة حاملاً اليك نبأ لست تتوقعه البتة ، نبأ هاماً جداً ، صدقنى . . .

هتف ايفان وهو فى حالة حمى شديدة :

— اسكت أيها الدجال ! لقد عرفت قبلك أنه أخى أليوشا . وكنت أحس أنه سيأتى ، ولا بد أن يكون هناك سبب حمله على المجىء . انه يحمل الىّ «انباء» ، هذا بديهى .

— فافتح اذن ، افتح له . ان فى الخارج زوبعة ثلج . . . وهو أخوك . . . Monsieur, sait-il le temps qu'il fait ? C'est à ne pas mettre un chien dehors...[1]

واستمر الطرق على النافذة . أراد ايفان أن يهرع فيفتح النافذة ، لكنه احس فجأة كأنه مشلول ، فهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه . بذل جهداً كبيراً من أجل أن ينتزع نفسه من ذلك التجمد ، وأن يمزق هذه الحبال التى تشده ، ولكنه لم يفلح . وأصبحت الطرقات على النافذة أقوى وأصرم . فشعر ايفان فجأة بأنه يتحرر من عوائقه ، فنهض منتفضاً ، ونظر حواليه حائراً زائغ البصر . كانت الشمعتان قد ذابتا أو أوشكتا ، وكانت الكأس التى رمى بها الزائر منذ لحظة ما تزال فى مكانها على المائدة . وليس هناك أحد على الكنبة الموضوعة قبالته

---

[1] هل تعرف يا سيدى رداءة الجو فى الخارج ؟ ان الجو يبلغ من الرداءة أن المرء لا يسمح لنفسه بأن يدع كلباً هناك ! (بالفرنسية فى الاصل) .

حذو الجدار . ورغم أن الطرق على النافذة ما يزال مستمراً بالحاح ، فان الطرقات بدت لايفان اضعف مما كان يسمعها أثناء حلمه ، حتى لقد كانت خفيفة مستخفية .

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وهو يندفع نحو النافذة :

— لم يكن ذلك حلماً ! لا . . . لم يكن حلماً . . . أحلف أنه لم يكن حلماً . . . انا لم أحلم . . . ولقد كان ذلك كله منذ لحظة واقعاً .

وفتح فرجة النافذة ، وصرخ يقول لأخيه حانقاً :

— أليوشا ! ألم أحظر عليك أن تجيء الىّ ؟ قل بكلمتين لا ثالث لهما : ماذا تريد منى ؟ أجب . . . ولكن أوجز ، هل تسمع ؟

فأجابه أليوشا من فناء الدار قائلاً :

— شنق سمردياكوف نفسه من ساعة .

فقال له ايفان :

— تعال الى المدخل .

ومضى يفتح الباب .

١٠

«هو الذى قال»

دخل أليوشا ، وذكر لايفان فيدوروفتش فوراً أن ماريا كوندراتيفنا قد زارته منذ أقل من ساعة ، فأبلغته انتحار سمردياكوف ، قالت له : «دخلت الى غرفته لآخذ السماور ،

فاذا أنا أراه مشنوقاً على مسمار أمام الحائط» ، فلما سألها أليوشا هل ابلغت من يجب ابلاغه ، أجابت بأنها لم تحدث أحداً فى هذا الأمر بعد . قالت : «وانما أسرعت اليك على الفور ، لكى تكون أول من يطلع على الحادث ، وكنت أركض ركضاً طوال الطريق» هذا ما أضافته ماريا كوندراتيفنا منقلبة السحنة زائغة النظرة ، وكانت كالمجنونة اضطراباً وكانت ترتعش كورقة فى مهب الريح . وقد صحبها أليوشا بعد ذلك الى بيتها ، فوجد سمردياكوف مشنوقاً بالفعل على النحو الذى وصفته ؛ ووجد على المائدة ورقة مكتوباً عليها ما يلى : «أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً» ، . ترك أليوشا الورقة على المائدة ، ومضى فوراً الى رئيس الشرطة ، فأطلعه على الحادث . وختم أليوشا كلامه لأخيه ايفان قائلاً : «ومن هناك جئت اليك رأساً» ، وكان أثناء ذلك يحدّق بانتباه الى ملامح وجهه التى أدهشه تعبيرها . ثم هتف يقول له فجأة :

— أخى ! لا بد أنك مريض ، مريض جـــداً ، جداً ! فأنت تنظر الىّ دون أن يبدو عليك أنك تفهم مـــا أقوله لك .

فقال له ايفان واجماً مفكراً ، دون أن يلوح أنه سمع تعجب أخيه :

— أحسنت صنعاً اذ جئت . على أننى كنت أعلم أنه شنق نفسه .

— ممن علمت ذلك ؟

— لا أدرى ممن ، ولكننى كنت أعلم . أكنت أعلم أم لا ؟ بل كنت أعلم . هو قال لى ذلك ، قاله لى منذ لحظة قصيرة .

43-1306

كان ايفان واقفاً فى وسط الغرفة ، وكان يتكلم ذاهلاً حالماً ، وهو يحدّق الى الأرض .

سأله أليوشا وهو ينظر حواليه على غير ارادة منه :

— من **هو** ؟

— اختفى .

قال ايفان هذه الكلمة وأنهض رأسه وابتسم ابتسامة رقيقة . ثم أردف يقول :

— خاف منك ، خاف منك ، نعم خاف منك أنت يا حمامتى . أنت «كروبى طاهر» . دمترى يرى أنك كروبى . كروبى . . رعود أغانى الحماسة التى يغنيها الساروفيون . . . ما الساروفى ؟ ألعله برج نجوم قد لا يكون هو كله فى آخر الأمر الا جزيئة كميائية بسيطة . . . هناك برج «الأسد» وبرج «الشمس» ، هل تعلم ذلك ؟

قاطعه أليوشا يقول مذعوراً أشد الذعر :

— اجلس يا أخى ، اجلس على الديوان ، أرجوك . . . أنت تهذى . اضطجع هنا ، ضع رأسك على المخدة ، هكذا . هل تريد أن أضع على جبينك خرقة مبللة ؟ قد يفيدك هذا .

— ناولنى الفوطة الموجودة على ذلك الكرسى من فضلك . لقد ألقيتها عليه منذ قليل .

— ليس على الكرسى فوطة . لا تهتم . سأعرف أين أجد فوطة . هذه فوطة . . .

كذلك قال أليوشا وهو يتجه نحو الزاوية المقابلة من الغرفة ، حيث أبصر ، قرب الحوض ، فوطة نظيفة لم تمس وما تزال مطوية .

نظر ايفان الى الفوطة وفى وجهه تعبير غريب . كأن الذاكرة أخذت تعود اليه فجأة .

قال وهو ينهض عن الديوان :

— لحظة . اننى منذ ساعة — أتذكر ذلك — قد تناولت هذه الفوطة من قرب الحوض فبللتها بالماء البارد ، ثم وضعتها على جبينى ، ثم رميتها الى هناك بعد مدة . فكيف تكون الآن ناشفة ومطوية ؟ لم يكن فى غرفتى فوطة أخرى .

سأله أليوشا :

— أتقول انك وضعت هذه الفوطة على جبينك ؟

— نعم ، ومشيت فى الغرفة منذ ساعة والفوطة على جبينى . . . لماذا ذابت الشموع ؟ كم الساعة الآن ؟

— قاربت منتصف الليل .

فصاح ايفان يقول فجأة :

— لا ، لا ، لا ، لم يكن ذلك حلماً ! كان هو هناك ، كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، أمامى . فلما طرقت أنت زجاج النافذة ، رميت رأسه بكأس . . . هو هذا الكأس نفسه . . . لحظة ! فى المرة الماضية أيضاً ، كنت قد نمت ، ولكن الحلم فى هذه المرة ليس حلماً . الأمر فى هذه المرة كما فى المرة الماضية . هل تعلم يا أليوشا أننى أرى الآن أحلاماً ؟ . . . ولكنها ليست بالأحلام . . . أنا يقظ ، أنا أمشى وأتكلم وأرى . . . ومع ذلك فأنا نائم . . . ولكنه كان هناك ، كان هناك ، نعم ، على تلك الكنبة . انه غبى غباء فظيعاً ، يا أليوشا ، غباء فظيعاً .

كذلك أضاف ايفان وقد أخذ يضحك على حين فجأة ، وطفق يمشى فى الغرفة .

سأله أليوشا مرة أخرى قلقاً :

— من هو الغبى ؟ عمّن تتكلم ؟

— عن الشيطان ! لقد أخذ يختلف الىّ . جاءنى مرتين ، مرتين ، ان لم يكن ثلاث مرات . قال لى ليزعجنى ويغيظنى اننى أغضب لأنه شيطان عادى لا ابليس محمرّ الجناحين بنار جهنم ، معتاد أن يظهر محاطاً ببروق ساطعة ورعود مدوّية . ولكنه ليس ابليس اذن . لقد كذب علىّ . انه دجال . هو شيطان عادى تماماً ، شيطان حقير ، من طبقة دنيئة . انه يرتاد الحمامات العامة ! فلو خلعت ثيابه لاكتُشف حتماً ذنبه الذى لا بد أن يكون طويلاً جداً ، لا بد أن يكون طوله أكثر من متر . . . ذنب بُنيّ أملس . . . ذنب غير مهيب ، كذنب كلب خسيس . . . أليوشا ، أرى أنك متجلد من شدة البرد ! لقد مشيت فى الثلج مدة طويلة . هل تريد شيئاً من الشاى ؟ ماذا ؟ بارد ؟ هل تريد أن آمر باعداد شىء من الشاى لك ؟ الجو بارد جداً ، يبلغ من البرودة أن المرء لا يرضى أن يدع فى الخارج كلباً . . .

أسرع أليوشا الى الحوض ، فبلل الفوطة بالماء البارد ، ثم حمل ايفان على أن يجلس ووضع الفوطة المبتلة على جبينه ، ثم جلس الى جانبه .

استأنف ايفان الكلام فقال وقد أصبح كثير الهذر :

— ماذا قلت لى أمس عن ليزا ؟ انها تعجبنى ، ليزا هذه ! أحسب أننى قلت لك سوءاً فى حقها . لم أكن صادقاً . انها تعجبنى . . . أنا خائف من الغد ، خائف على كاتيا قبل كل شىء ، وفوق كل شىء . وخائف على المستقبل أيضاً . ستهجرنى فى الغد هجراً نهائياً ، وتركلنى بقدميها . هى تتخيل

أننى أريد هلاك ميتيا بسبب غيرتى منه ! نعم ، ذلك ما تتصوره . ولكن لا ، هذا خطأ . غداً يكون الصليب ، ولكن لن يكون الشنق . لأننى لن أشنق نفسى . هل تعلم يا أليوشا أننى عاجز عن أن أشنق نفسى ؟ لعلك تظن أن هذا جبن منى ، أليس كذلك ؟ ولكن لا ، أنا لست جباناً . فلأننى أحب الحياة حباً قوياً انما أعجز عن الانتحار ! من أين علمت أن سمردياكوف شنق نفسه ؟ آ . . . نعم . . . **هو** الذى قال لى . . .

سأله أليوشا :

— أأنت مقتنع اقتناعاً تاماً بأن أحداً قد زارك ؟

— طبعاً . كان جالساً هناك ، على تلك الكنبة ، فى زاوية الغرفة . لا شك فى أنك طردته . أنت الذى حملته على الهرب قطعاً . لقد غاب فى اللحظة التى وصلت فيها أنت . اننى أحب وجهك يا أليوشا . هل كنت تعلم أننى أحب وجهك ؟ أما **هو** فانه أنا يا أليوشا ، أنا وحدى . هو كل ما فىّ أنا من دناءة وخسة وحقارة ! صحيح أننى «رومانسى» ، وقد لاحظ هو ذلك . . . ولكن هذه نميمة كاذبة . انه غبى غباء فظيعاً ، وبهذا انما هو قوى . هو ماكر ، ماكر كحيوان . كان يعرف بماذا يستطيع أن يثير غضبى وغيظى . زعم ليحنقنى أننى أؤمن به ، وبهذه الوسيلة حملنى على أن أسمع له وأصغى اليه . لقد خدعنى كأننى طفل . ولكنه ذكر لى أيضاً حقائق كثيرة عنى ، ذكر أشياء ما كان لى أن أعترف بها فى يوم من الأيام .

ثم أضاف ايفان يقول بلهجة أصبح فيها على حين فجأة كثير من الجد والنجوى :

— هل تعلم يا أليوشا أننى أتمنى كثيراً أن يكون هو فى الواقع **هو** لا أنا ؟

قال أليوشا وهو ينظر الى أخيه فى شفقة وعطف :

— لقد أتعبك .

— أرهقنى بسخرياته . وما كان أبرعه وأحذقه ! ليتك تعلم كم كان بارعاً حاذقاً : الضمير ؟ ما هو الضمير ؟ هو ثمرة دماغى . لماذا يشعر الانسان بعذاب الضمير ؟ يشعر بعذاب الضمير من قبيل العادة ، نتيجة لطريقة فى التفكير تكونت فى الانسانية خلال سبعة آلاف سنة ، فمتى تحررنا من هذه العادة ، أصبحنا آلهة . هو الذى قال ذلك ، هو الذى قال ذلك ! لم يملك أليوشا أن يمنع نفسه من سؤال أخيه وهو يحدّق اليه تحديقاً قوياً :

— ألا يمكن أن تكون أنت الذى قلت ذلك ؟ أنت بالأحرى ؟ دعه الآن ، لا تفكر فيه ، انسه . فليأخذ معه كل ما تستنكره اليوم وتدينه ، ولا يعودنّ بعد الآن أبداً .

قال ايفان بلهجة المتألم المهان .

— ليكن ذلك . ولكنه خبيث شرير . لقد ازدرانى جهاراً . كان وقحاً ، صدقنى يا أليوشا . ولكنه افترى علىّ ، افترى علىّ فى أمور كثيرة . قال : «أنت تنوى أن تقوم بعمل نبيل فاضل ! هأ ! أنت تنوى أن تتهم نفسك أمام المحكمة بقتل أبيك ، مؤكداً أن الخادم قتله بتحريض منك . .» .

قاطعه أليوشا قائلاً :

— قف يا أخى ! لست أنت القاتل . هذا خطأ !

— هو الذى قال ذلك ، ولا بد أنه على علم به . «أنت تنوى أن تقوم بعمل فاضل ، مع أنك لا تؤمن بالفضيلة ،

ذلك ما يهيجك ويعذبك ، ذلك هو سبب تجهمك وشراستك» . هكذا تكلم ، وهو يعرف ما يقول . . .

هتف أليوشا يقول بمرارة :

— هذه أقوالك أنت لا أقواله هو . انك مريض ، انك تهذى وتعذب نفسك فى هذيانك !

— لا . . . انه يعرف ما يقول . قال لى مؤكداً : «أنت تصدر عن زهو وخيلاء ، تريد أن تمثل أمام القضاة فتقول لهم بكبرياء : «أنا القاتل ، ما لكم تصطنعون هذه الهيئات المروّعة ؟ ألا انكم لكاذبون . اننى اسخر من ذعركم هذا ومن رأيكم !» . تلك هى الخواطر التى نسبها الىّ ، ثم أضاف يقول : «هل تعرف ماذا تتمنى ؟ أنت تتمنى أن يغمروك بالمديح قائلين : «هو مجرم ، نعم ، هو قاتل ، ولكنه تحركه عواطف سامية كل السمو رفيعة كل الرفعة ! يريد أن يتهم نفسه لينقذ أخاه !» . أما هذا يا أليوشا فهو كذب (كذلك هتف ايفان فجأة وقد سطعت عيناه) . أنا لا أتمنى أبداً أن يعجب بى بلهاء ! لقد كذب فى هذا يا أليوشا ، كذب فى هذا ، أحلف لك ! وبسبب ذلك انما قذفته بكأس ، فتحطم الكأس على وجهه القذر ! توسل اليه أليوشا قائلاً :

— هدىء روعك يا أخى ، اكفف عن الكلام هكذا !

أردف ايفان يقول دون أن يصغى الى أخيه :

— لا ، انه يجيد التعذيب ، انه قاس شديد العتو . كنت أوجس دائماً الغرض الذى يجىء من أجله . كان يقول : «ليكن ! ان الزهو هو الذى يحركك ويدفعك . ولكنك تأمل رغم كل شىء أن يفتضح أمر سمردياكوف ، فيرسل الى السجن ، ويبرأ ميتيا ، ولا يُحكم عليك أنت الا حكماً «أخلاقيا» (وقد

ضحك حين نطق بهذه الكلمة) ، هل فهمت ؟ ، بينما يكبر آخرون عظمة نفسك ونبل روحك . ولكن ها هو ذا سمردياكوف قد مات ! لقد شنق نفسه ، فمن ذا الذى سيصدقك أمام المحكمة ، من ذا الذى سيؤمن بأقوالك وتصريحاتك بعد أن أصبحت وحيداً ؟ ومع ذلك ستذهب الى المحكمة ، وتقف أمام القضاة . لقد قررت ذلك ، وستفعل . فلأى هدف تريد أن تذهب الى المحكمة بعد الآن ؟ شىء فظيع يا أليوشا ! اننى لا أطيق احتمال هذه الأسئلة . من ذا الذى يحق له أن يستجوبنى بهذه الطريقة ؟

قاطعه أليوشا قائلاً وقد جمد من الذعر ، ولكنه ما يزال يأمل أن يرد ايفان الى الواقع :

— أخى ، كيف يمكن أن يكون قد كلمك عن موت سمردياكوف قبل وصولى ، بينما كان جميع الناس ما يزالون يجهلون الحادث ، ولم يتسع وقتهم للاطلاع عليه ؟ .

قال ايفان بصوت قاطع جازم لا يحتمل الشك :

— لقد قال لى ذلك ، بل ظل يكلمنى فى هذا طول الوقت اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، ولم يكلمنى الا فى هذا . كان يقول لى : «ويالبتك تؤمن بالفضيلة ! . . . ان احداً لن يصدقنى ، ولكن ذلك لا يهمنى ، فانما أنا أصدر عن مبدأ . ألا أنك لتسخر من الفضيلة ، لأنك خنزير ، مثل فيدور بافلوفتش ! فعلام ذهابك الى المحكمة ، ما دامت تضحيتك لن تجدى ؟ . . . الحقيقة أنك أنت نفسك لا تدرى لماذا تريد أن تذهب الى المحكمة ! آه . . . أنك لمستعد أن تهب كثيراً فى سبيل أن تعرف ذلك . أتظن أن هذا ما قررته ؟ ألا انك لم تقرر شيئاً بعد . ستقضى الليل كله مفكراً

متسائلاً أتذهب أم لا تذهب . وانك لتعلم حق العلم ، مهما يكن قرارك ، أن الحل النهائى اصبح لا يتوقف عليك . سوف تذهب لأنك لا تجرؤ الا أن تذهب . أما لماذا لا تجرؤ ، فذلك سؤال أدع لك أنت أن تحزر جوابه . هذا لغز حاول أن تتسلى بحله !» قال هذه الكلمات ثم نهض وانصرف . وصلت أنت ، فغاب هو . ولقد وصفنى بأننى جبان يا أليوشا Le mot de l'énigme [1] هو أننى جبان . لقد أضاف قائلاً : «لست من تلك النسور التى تحلق عالياً فى السماء» . نعم ، أضاف هذه الجملة . وكان سمردياكوف قد قال هذا الكلام نفسه . يجب قتله . ان كاتيا تحتقرنى . لاحظت أنا ذلك . لاحظت هذا خلال شهر كامل وسوف تحتقرنى ليزا أيضاً . «ستذهب الى المحكمة لتحظى بالاعجاب» . هذا كذب دنىء . أنت أيضاً تحتقرنى يا أليوشا . سوف أكرهك الآن من جديد . والمسخ أيضاً ، اننى أكره المسخ كذلك . لا أريد أن أنقذ المسخ . ألا فليعفن فى السجن ! لقد غنى نشيد فرح . أوه ! سأذهب ، سأذهب غداً . سأمثل أمامهم ، وسأبصق فى وجوههم جميعاً !

ونهض ايفان فجأة وقد استبدت به حميّا شديدة ، فنزع الفوطة عن جبينه وطفق يمشى فى الغرفة . تذكر أليوشا أقواله : «أنام وأنا أحس بأننى يقظان . . أمشى وأتكلم وأرى ، وأنا مع ذلك أحلم» . ذلك بعينه ما يبدو أنه يحدث الآن . لم يشأ أليوشا أن يترك أخاه . وخطر بباله أن يمضى ليستقدم طبيباً ، ولكنه عدل عن ذلك من خوفه أن يترك ايفان وحيداً .

---

[1] ان ذلك اللغز (بالفرنسية فى الأصل) .

كان من جهة أخرى لا يدرى الى من يعهد به . وأخيراً أخذ ايفان يفقد الذاكرة . كان ما يزال يتكلم بغير توقف ، وكانت أقواله مفككة كل التفكك ، حتى لقد أصبح يبدو عليه أنه يجد عناء فى النطق بالكلمات . وترنح على حين فجأة ، ولكن أليوشا استطاع أن يسنده فى الوقت المناسب ، ومضى به نحو السرير ، فانقاد ايفان دون مقاومة ؛ وبعد أن نضا أليوشا عن أخيه ثيابه كيفما اتفق ، أرقده على السرير ، ثم جلس قربه ، ولبث ساهراً عليه ساعتين أخريين . نام المريض نوماً عميقاً دون أن يتحرك ، وكان تنفسه منتظماً . فلما لاحظ أليوشا أن أخاه ينام نوماً مريحاً هادئاً تناول وسادة ورقد على الديوان دون أن يخلع ثيابه . وقبل أن ينام دعا الله لمبتيا وايفان . لقد كان أليوشا يدرك الأسباب العميقة التى نشأ عنها مرض ايفان : «هذه تباريح قرار فيه عزة وكبرياء ، هذا قلق صادر عن ضمير قوى !» . ان الله الذى كان ايفان يرفض أن يؤمن به يفرض نفسه الآن على وجدان ايفان ، وان الحقيقة الالهية تشق طريقها على هون الى قلبه الذى ما يزال عصياً . حدث أليوشا نفسه قائلاً وهو مضطجع على الديوان : «نعم ، لقد مات سمردياكوف ، ولن يصدّق أحد الشهادة التى سيدلى بها ايفان . ولكنه سيذهب الى المحكمة وسيقول الحقيقة مع ذلك» . وابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة حين جال فى ذهنه هذا الخاطر ، ودمدم يقول أيضاً : «سينتصر الله !» . ثم قال لنفسه بعد ذلك بمرارة : «اما أن يبعث ايفان بعثاً جديداً بنور الحقيقة ، واما . . . أن يهوى الى الكره منتقماً من نفسه ومن الآخرين لأنه خدم قضية لم يكن مؤمناً بها .» وعاد أليوشا يصلى من أجل ايفان .

الباب الثانى عشر

خطأ قضائى

١

اليوم المشئوم

غداة الاحداث التى فرغت من وصفها الآن ، افتتحت فى الساعة العاشرة من الصباح ، جلسة محكمة مقاطعتنا ، وبدئ النظر فى قضية دمترى كارامازوف .

وانى لأحب أن أقول فوراً بالحاح اننى أعد نفسى عاجزاً عن أن أصف وصفاً دقيقاً كل ما جرى أثناء المحاكمة ، وأن أروى جميع الوقائع لا من حيث الكمال والتمام فحسب ، بل من حيث التسلسل الزمنى أيضاً . وأحسب اننى لو كان علىّ أن أتذكر جميع التفاصيل وأن أشرحها شرحاً مناسباً ، لوجب أن أقف عليها كتاباً بكامله ، كتاباً أكبر حجماً من هذا الكتاب . لذلك آمل أن يتفضل القارئ فيعذرنى اذا أنا اقتصرت على ذكر الأمور التى أثارت اهتمامى شخصياً فبقيت فى ذاكرتى لهذا السبب . ربما أكون قد أقمت وزناً كبيراً لعناصر ثانوية على حساب الأمور الأساسية ، وربما أكون قد أسقطت كذلك اسقاطاً كاملاً بعض الملامح الهامة والرئيسية . . . على أننى أعدل الآن عن الاعتذار . فلسوف أفعل ما أقدر عليه ، وسوف يدرك القارئ اننى لم أفعل سوى ما استطعت أن أفعل .

وانى لأحرص أولاً وقبل الدخول الى قاعة المحكمة ، أن أذكر ما أثار دهشتى أكثر من أى شىء آخر فى ذلك النهار. على أن دهشتى هذه قد شاركنى فيها الجميع كما علمت ذلك فيما بعد . واليكم الأمر : كان من المعلوم طبعا أن قضية هذه الجريمة قد أثارت اهتمام عدد كبير جداً من البشر ، وأن جميع الناس كانوا يحترقون شوقاً الى أن يبدأ النظر فى هذه القضية ؛ وأن الكثيرين فى مجتمعنا كانوا طوال شهرين يكثرون من التحدث عنها مع تكهنات كثيرة وصيحات اندهاش لا آخر لها . وكان من المعلوم كذلك أن القضية قد اشتهرت فى روسيا كلها . الا أن أحداً لم يكن يتخيل أن الاهتمام الذى أثارته هذه المحاكمة قد بلغ من قوة الجموح وشدة العصبية أنه هزَّ هزًا عميقاً لا سكانَ مدينتنا فحسب ، بل سكان مناطق أخرى أيضاً . وقد أدركنا هذه الحقيقة فى ذلك اليوم نفسه أثناء المحاكمة . لقد جاء الضيوف لا من مركز اقليمنا وحده ، بل من مدن روسية أخرى كثيرة أيضاً ، وهرعوا حتى من موسكو ومن بطرسبرج . كان بينهم أناس من رجال القانون ، وشخصيات معروفة مشهورة ، ونساء من المجتمع الراقى . وقد اختُطفت تذاكر حضور المحاكمة فى طرفة عين . واعتقد القائمون على الأمر ، فى هذه المناسبة ، أن من الواجب ، على خلاف ما جرت به العادة ، حجز أماكن خاصة وراء منصة المحكمة ، يُخصَّص بها بعض الزائرين من الرجال المشاهير وأصحاب الرتب العليا . هكذا رأينا وراء القضاة عدداً من الأشخاص جالسين على مقاعد وثيرة ، وذلك أمر لم يحدث عندنا من قبل قط . وكانت النساء كثيرات كثرة خاصة ، سواء أكنَّ من سيدات مجتمعنا المحلى أم كنَّ من سيدات الطبقة العليا فى مدن أخرى .

وأعتقد أن عددهن كان أكثر من نصف الحاضرين . أما رجال القانون الذين وفدوا لحضور هذه الدعوى فقد بلغوا من الكثرة أن القائمين على الأمر لم يعرفوا أين يضعونهم لان جميع البطاقات كانت قد وُزِّعت فأُعطيت بعد توسلات أو وُعد بها منذ مدة طويلة . وقد رأيت بعينى كيف جرى على عجل بناء حاجز مؤقت فى آخر القاعة وراء المنصة ، فبذلك حُدِّد مكان خصَّ به رجال القانون الذين عدوا أنفسهم سعداء بالتمكن من متابعة مناقشات المحاكمة ولو وقوفاً ، لأن الكراسى كانت قد رفعت ليتسع المكان لعدد من الأشخاص أكبر . فهكذا ظل الجمهور الكثيف واقفاً طوال «القضية» كتفاً الى كتف . وقد جاءت بعض السيدات ، ولا سيما السيدات اللواتى وفدن من خارج مدينتنا ، جاءت الى قاعة المحكمة فى أبهى حلة وأجمل زينة ، غير أن أكثر السيدات قد أهملن ما ألفنه من عناية بهندامهن . وكان يُقرأ فى وجوههن فضول قوى شره يشبه أن يكون مرضياً . ومن الخصائص المميزة لهذا الجمهور المحتشد فى قاعة المحكمة والتى تستحق ان تُذكر أن جميع السيدات تقريباً ، أو الكثرة الغالبة منهن على الأقل ، كما أيدت ذلك شواهد كثيرة فيما بعد كنَّ متحزبات لميتيا ، وكن يتمنين أن تبرئه المحكمة . وربما كان السبب الأساسى فى هذا ما اشتهر به من أنه شاب يأسر قلوب النساء ؛ ولقد كان معروفا عدا ذلك أن هناك امرأتين تتنافسان عليه وستتجابهان فى سبيله أثناء المحاكمة . فأما أولاهما وهى كاترينا ايفانوفنا ، فقد كانت تثير اهتمام جميع الناس بها بصفة خاصة . كان الناس يذكرون أموراً خارقة عن تولهها بميتيا تولهاً قوياً لم ينل منه ولا أضعفه أن ميتيا ارتكب هذه الجريمة . وكانت تُروى عن هذا الموضوع حكايات مذهلة .

وكانت كبرياء كاترينا ايفانوفنا هي التي تثير اهتمام الناس خاصة (ان كاترينا ايفانوفنا لم تكد تزور أحداً) ، وكان الناس يتحدثون عن «صلاتها الارستقراطية» ، ويؤكدون أنها ستلتمس من الحكومة اذناً بأن تصحب الجانى الى الاشغال الشاقة ، وأن تتزوجه في مكان ما بالمناجم تحت الأرض . وأما المرأة الثانية ، وهى جروشنكا ، منافسة كاترينا ايفانوفنا ، فقد كان الناس يتلهفون الى ظهورها باهتمام لا يقل شدة عن هذا الاهتمام . وكانت المجابهة التى ستتم بين المرأتين — الفتاة الارستقراطية المتكبرة و «الهيتائير»[1] — تثير فى الجمهور انتظاراً محموماً وفضولاً يوشك أن يكون موجعا . ثم ان سيدات مدينتنا كنَّ يعرفن جروشنكا أكثر مما يعرفن كاترينا ايفانوفنا . لقد رأين مراراً «تلك التى كانت سبب هلاك فيدور بافلوفتش وابنه المسكين» ، وكن يدهشن أشد الدهشة أن يكون الرجلان قد التهب قلباهما هذا الالتهاب كله بحب هذه «البورجوازية الروسية الصغيرة التى هى امرأة عادية جداً ، حتى أنها ليست جميلة» . خلاصة القول أن التعليقات كانت قائمة قاعدة . وانى لأعرف من مصادر مطلعة موثوق بها أن انشقاقات عائلية خطيرة قد حدثت فى مدينتنا بسبب ميتيا . ان عدداً كبيراً من سيدات مجتمعنا قد اشتجرن فى ذلك الوقت مع أزواجهن اشتجاراً عنيفاً ، لاختلاف رأيهن فى هذه القضية الفظيعة عن رأى أزواجهن . فكان أمراً مفهوماً بعد ذلك أن يجىء أزواج هاته السيدات الى المحكمة

---

[1] فى اليونان القديمة هى امرأة غير متزوجة كانت تعيش حياة حرة وتغوى الرجال بمواهبها الفنية وثقافتها . يرمز بها حالياً للمرأة اللعوب المستهترة . **المراجع** .

متحيزين ضدَّ المتهم ، بل وحاقدين عليه ، حتى ليمكننا أن نؤكد جازمين أن جميع الرجال الذين شهدوا المحاكمة ، على نقيض العنصر النسائى فى ذلك الجمهور ، كانوا قد تحيزوا ضدَّ المتهم ، فبعضهم عابس الوجه قاسى النظرة ، وبعضهم الآخر ، وهو الأكثرية الغالبة ، كان يظهر الكره والعداوة بمزيد من الوضوح والصراحة . والحق أن ميتيا ، أثناء اقامته فى مدينتنا ، كان قد أهان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال . وكان هنالك ، فى مقابل ذلك ، أناس يكاد يبدو عليهم الفرح ، فهم لا يكترثون بمصير ميتيا ، وانما تهمهم النتيجة التى ستنتهى اليها المحاكمة ، ولا يفكرون الا فى الحكم الذى سيصدر ، وكان أكثرهم يتمنى معاقبة الجانى تمنياً قوياً صارماً ، باستثناء رجال القانون مع ذلك ، فقد كان هؤلاء لا يعنيهم الجانب الاخلاقى من القضية ، وانما تعنيهم الجوانب القضائية وحدها دون غيرها . وقد أثار الجميع وصول المحامى الشهير فيتوكوفتش . فقد كانت موهبته الخطابية معروفة مشهورة فى كل مكان ، وقد سبق أن ترافع فى الأقاليم مراراً فى قضايا كان لها دوى عظيم . وكانت الدعاوى التى يترافع فيها تصبح ذائعة الصيت فى روسيا كلها ، وكان الناس يحتفظون بذكرى مرافعاته زمناً طويلاً . وكانت تروى كذلك نوادر شتى عن وكيل النيابة عندنا وعن رئيس المحكمة . كان يقال مثلا ان وكيل النيابة فى مدينتنا يتهيب لقاء فيتوكوفتش ويخشاه ، وان بينه وبينه عداوةً يرجع تاريخها الى أول عهدهما بالوظيفة ، الى الفترة التى كان فيها ايبوليت كيريلوفتش المندفع ، وهو بمدينة بطرسبرج ، يشعر دائما بجراح فى كبريائه لأن كفاءاته لم تقدر حق قدرها . ولقد ردَّت اليه قضية كارامازوف أملاً كبيراً ، فيما يقال ، حتى لقد كان يحلم فى أن يستعيد

فى هذه المناسبة شهرته التى انطفأ سناؤها ولكن حضور فيتوكوفتش يقلقه الآن ويبعث فى قلبه هماً وغماً . على أن الحقيقة هى أن الناس قد أخطأوا الظن حين تصوروا أن وكيل النيابة كان يخشى لقاء المحامى الشهير هذه الخشية كلها . ان وكيل النيابة فى مدينتنا لا ينتمى الى تلك الفئة من الرجال الذين يتقهقرون أمام الخطر ، بل لقد كان ، على نقيض ذلك تماماً ، من أولئك الرجال الذين تلتهب كبرياؤهم القتالية مزيداً من الالتهاب على قدر قوة العقبات التى تعترض طريقهم . يحسن أن نضيف الى ذلك أن ايبوليت كيريلوفتش كان ذا طبيعة حارة كما كان شديد التأثر الى درجة المرض . كان يضع نفسه كلها فى بعض القضايا ، وكان يتصرف عندئذ كما يمكن أن يتصرف رجل يتوقف مصيره الشخصى وتتوقف ثروته على النتيجة التى ستنتهى اليها الدعوى . وكان الناس فى الأوساط القضائية يسخرون منه بسبب هذه الخصلة من خصال طبعه ، التى جلبت له شهرة ان لم تكن واسعة كثيرا فهى اكبر مما يمكن تصوره على أساس المركز المتواضع الذى كان يحتله فى محكمتنا . وكانوا يسخرون خاصة من شدة شغفه بالسيكولوجيا . وأحسب أن جميع الناس كانوا مخطئين فى هذه النقطة . فلقد كان وكيل النيابة فى مدينتنا يملك طبيعة وشخصية أقرب الى الجد كثيراً مما كان يتخيل الناس عندنا عامة . ولكن هذا الرجل الذى يتميز بحساسية مرضية لم يكن قد أفلح فى اصطناع اللهجة المناسبة والوضع اللائق فى أول عهده بالمهنة ، فامتد هذا الخطأ الذى ارتكبه منذ البدء ، امتد على حياته كلها .

أما رئيس محكمتنا فيمكن أن يقال عنه انه مثقف ، وانسانى ، وانه كان يعرف مهنته ويجيدها ، ويشارك فى آراء

العصر المتقدمة المتطورة . انه قوى الشعور بنفسه ، لكنه لا يعبأ كثيراً بوظيفته ، فان أكبر طموح يهزّه هو أن يُعرف عنه أنه رجل تقدمى . وكانت له صلات عالية وكان ينعم بثروة ضخمة . وقد اهتم اهتماماً قوياً جداً بقضية كارامازوف ، كما أدركنا ذلك فيما بعد ، ولكنه لم ينظر الى هذه القضية الا من زاوية عامة تماماً ، فهو يرى فيها ، على وجه الخصوص ، ثمرةً من ثمرات ظروفنا الاجتماعية ، ومظهراً مميزاً من مظاهر الطبيعة الروسية ، وهلمجرا . أما الجانب الشخصى من القضية ، وأما المأساة الروحية الأخلاقية التى تتألف منها هذه الدراما ، وأما المصير الفردى للأشخاص الرئيسيين فيها ، وعلى رأسهم المتهم ، فتلك كلها أمور لا يعبأ بها رئيس المحكمة كثيراً ، ولا ينظر اليها الا من أفق مجرد . وربما كان ذلك مطلوباً ومستحسناً فى مركزه ووضعه .

غصت القاعة بالحضور قبل ظهور أعضاء المحكمة بزمن طويل . انها أحسن قاعة فى مدينتنا : فسيحة واسعة عالية يترجع فيها الصوت واضحاً رناناً . على يمين أعضاء المحكمة الذين يجلسون على منصة ، قد وضعت منضدة ووضع صفّان من المقاعد للمحلّفين . وعلى اليسار كان مكان المتهم ومحاميه . وعلى منضدة أخرى فى وسط القاعة ، غيرَ بعيد عن المنصة ، قد جُمعت أدلة الاتهام ، فمن بينها الثوب الأبيض الذى كان يلبسه فيدور بافلوفتش ساعة مقتله فى منزله وكان ملطخاً بالدم ، ومدق الهاون النحاسى المشئوم ، وهو السلاح الذى يُعتقد أنه استعمل فى ارتكاب الجريمة ؛ وقميص ميتيا الذى كان على أحد كميه بقع دماء ، وصدرته الملطخة بدم كثير من خلف ، فى موضع الجيب الذى دسّ فيه منديله حين كان المنديل

ما يزال يقطر دماً ؛ ثم ذلك المنديل نفسه وقد تيبس واصفر وغشيته قشرة من دم متخثر ، ومن بينها أيضا المسدس الذى كان ميتيا قد حشاه بالرصاص عند برخوتين على نية الانتحار ، وقد جرَّده منه تريفون بوريستش خلسةً فى قرية موكرويه ، والظرف الذى كان قد ضم الثلاثة آلاف روبل المخصصة لجروشنكا ، وعليه كتابة بخط المجنى عليه ، والشريط الوردى الدقيق الذى رُبط به ذلك الظرف ، وطائفة أخرى من أشياء لا أتذكرها الآن . وعلى مسافة من هناك ، فى قرارة القاعة ، يبدأ المكان المخصص للجمهور . غير أن عدداً من المقاعد قد صُفَّ أمام المنصة ، للشهود الذين قد يطلب منهم أن يبقوا فى القاعة بعد ادلائهم بشهاداتهم . دخل أعضاء المحكمة فى الساعة العاشرة . انهم رئيس ، وعضو محكمة ، وقاضى صلح شرفى . وطبيعى أن وكيل النيابة ظهر فى الوقت نفسه تقريباً . الرئيس رجل قوى البنية متورد اللون ، قامته أقصر من متوسط قامة الرجال ، فى الخمسين من عمره ، له وجه محتقن ، وشعر قاتم قد اشتعل شيباً فى بعض المواضع وقُصَّ قصيراً . وهو يتوشح بشريط طويل لوسام نسيت اسمه الآن . أما وكيل النيابة فقد بدا لى كما بدا كذلك للجميع شاحباً فى ذلك اليوم شحوباً خاصاً ، كان لون وجهه يبدو ضارباً الى زرقة بل والى خضرة ، وكأنه قد نحل فجأةً فى ليلة واحدة ، لأننى كنت قد رأيته أمس الأول معافى تماماً .

بدأ الرئيس العمل بأن سأل حاجب المحكمة هل حضر جميع المحلَّفين . . . ولكننى ألاحظ أنه يستحيل علىَّ أن أستمر فى سرد الوقائع سرداً مفصلاً هذا التفصيل كله ، لأن هناك أمورا لم أحسن سماعها ، وأموراً أخرى لم أنتبه اليها انتباها

كافيا ، كما أن هناك أموراً من خصائص هذه الجلسة قد اختفت من ذاكرتى اختفاءً تاماً منذ ذلك الحين . ثم اننى — وتلك هى الصعوبة الكبرى — لا يتوفر لى الزمان والمكان الكافيان لان أقصَّ هنا كل ما جرى فى أثناء ذلك اليوم ، وهذا ما سبق أن قلته . ولكننى أعلم أن عدد المحلَّفين الذين رفضهم هذا الطرف او ذاك من الطرفين ، أعنى وكيل النيابة والمحامى ، كان ضئيلاً جداً . وقد احتفظت ذاكرتى من جهة أخرى بتشكيل هيئة المحلَّفين الاثنى عشر : كانت تضم أربعة موظفين من مدينتنا ، وتاجرين ، وستة فلاحين وبورجوازيين صغار من البلدة . وانى لأتذكر أن الناس فى مجتمعنا الصغير ، ولا سيما السيدات ، قد تساءلوا طويلاً قبل بدء المحاكمة بمدة طويلة ، تساءلوا بكثير من الاندهاش والانفعال : «كيف يمكن أن يُعهد بالفصل فى مثل هذه القضية ذات الطابع المعقد والسيكولوجى والدقيق الى بضعة موظفين مغمورين والى قبضة من الفلاحين ؟ ما الذى يستطيع أن يفهمه من هذه القضية موظف ، ناهيك عن فلاح ؟» . والحق أن الموظفين الأربعة المشتركين فى هيئة المحلَّفين كانوا أناسا صغار الشأن ليسوا من أصحاب الرتب العالية ، وكانوا جميعاً متقدمين فى السن بيض الشعور ، باستثناء واحد كان يبدو أصغر سناً من سائرهم . وكانوا مجهولين فى مجتمع مدينتنا ، فلا بد أنهم كانوا يعيشون بمرتبات صغيرة حياة مغمورة ، وأنهم قد كان لهم زوجات عجائز لا يحرصون على أن يتجولوا بهن فى المجتمع . ولا بد أنهم قد كان لهم أولاد كثيرون يركضون حفاةً فى أغلب الظن ، ولا بد أن التسليات الوحيدة التى كانوا يتيحونها لأنفسهم عند الاقتضاء هى أن يلعبوا بالورق قليلاً من حين الى حين . وطبيعى أن أحدا منهم لم يكن قد قرأ كتاباً

فى يوم من الأيام . صحيح أن اثنين من المحلَّفين ، وهما تاجران ، قد كان فى هيئتهما شىء من مهابة ، ولكنهما ظلا صامتين صمتاً غريباً ، ولبثا جامدين لا يحركان ساكناً . فأما أحدهما فكان حليقاً وكان يرتدى ثيابا على الطراز الألمانى ؛ وأما الثانى ، وهو ذو لحية شائبة ، فقد كان يتدلى على عنقه شريط أحمر علّق به وسام . وأما الفلاحون والبرجوازيون الصغار الذين تضمهم هيئة المحلَّفين ، فليس هناك أمور كثيرة يمكن أن تقال عنهم . ان البرجوازيين الصغار فى مدينتنا لا يختلفون كثيراً عن الفلاحين ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة مثلهم . كان اثنان من هؤلاء البرجوازيين الصغار من سكان بلدتنا الطيبة سكوتو بريجونيفسك يلبسون ثياباً على الزى الألمانى ، وكان هذا يضفى على هيئتهم ، فيما يبدو ، مزيداً من الوساخة ويجعل مظهرهم أكثر تنفيراً من زملائهم الأربعة . فمن الطبيعى اذن أن يكون اشخاص كثيرون ، أنا واحد منهم ، قد تساءلوا منذ ألقوا نظرة على أعضاء هيئة المحلَّفين : «ما عسى يفهم من القضية هؤلاء المساكين ؟» . ومع ذلك بدا لنا فى تعبير وجوههم جميعا شىء من سلطة ، وشىء يشبه أن يكون تهديداً . لقد كانوا جميعاً قساة مقطبين متجهمين .

وأخيراً طلب الرئيس النظر فى قضية قتل الموظف المتقاعد فيدور بافلوفتش كارامازوف — وقد نسيت الآن التعابير الدقيقة التى استعملها عندئذ . وأمر الحاجب بادخال المتهم فظهر ميتيا فى القاعة ، فاذا بصمت شديد يخيم عندئذ على حين فجأة ، فلو طارت ذبابة لسُمع صوت طيرانها . لا أدرى ما الذى دار فى خواطر الحضور ، ولكننى أستطيع أن أقول أن المتهم قد أحدث فى نفسى شعوراً سيئاً كل السوء . والأمر الذى ساءنى

منه خاصة هو افراطه فى اناقة هندامه . لقد ظهر أمام المحكمة يومئذ ببدلة جديدة مفرطة فى التأنق . وقد علمت فيما بعد أنه قد أوصى بهذه البدلة لذلك اليوم عن قصد وعمد ، لدى خياطه بموسكو الذى كان يحتفظ بمقاسه . وكان المتهم يلبس قفازين اسودين جديدين كل الجدة ، مصنوعين من جلد ناعم ، وقميصاً أنيقاً . وبعد أن اجتاز القاعة بخطاه العسكرية العريضة ، ناظراً الى أمام بجمود غريب ، جلس فى مكانه بكثير من الثقة . وفى الوقت نفسه ، ظهر محاميه ، فيتوكوفتش الشهير ، فاذا بهمهمة مستخفية تطوف فى أرجاء القاعة من أولها الى آخرها . ان هذا المحامى اللامع رجل طويل القامة جاف المظهر ، له ساقان طويلتان نحيلتان ، وأصابع طويلة للغاية وشاحبة ونحيلة ، وشعر قصير قد صُفف بتواضع . وشفتاه الرقيقتان تلتويان فى بعض اللحظات ، دون أن يعرف المرء على وجه الدقة أهما تعبران عندئذ عن سخرية أم هما تبتسمان . وكان يبدو فى نحو الأربعين من عمره . ولولا عيناه الصغيرتان اللتان ليس لهما تعبير ، ولكنهما متقاربتان احداهما من الأخرى تقارباً شديداً ، حتى لكأنهما لا تفصل بينهما الا العظمة الحادة من أنفه الدقيق الطويل ، لولا عيناه هاتان لكان يمكن أن يُعدَّ وجهه لطيفاً محبباً . الخلاصة أن سحنته كان فيها شىء من سحنة عصفور ، وهى بهذا تلفت الانتباه وتخطف البصر . وكان يرتدى الردنجوت مع كرافتة بيضاء . اننى أتذكر تذكراً واضحاً الاسئلة الأولى التى ألقاها الرئيس على ميتيا ، وهى تتناول اسمه ، ورتبته ، وما الى ذلك . وقد أجاب ميتيا عن هذه الاسئلة بحدة ، ولكن بصوت قوى غير متوقع حتى أن الرئيس هزّ رأسه ونظر اليه فى دهشة . وبعد ذلك قرئت قائمة

أسماء الأشخاص المستدعين الى الادلاء بأقوالهم شهوداً أو خبراء . وكانت القائمة طويلة جدا . واتضح أن أربعة من الشهود غائبون ، وهم : ميوسوف الذى كان قد سافر الى باريس ، ولكن أقواله قد سجلت أثناء التحقيق التمهيدى ؛ والسيدة خوخلاكوفا ، والمالك ماكسيموف ، وكلاهما معذور بسبب المرض ؛ وأخيرا سمردياكوف الذى مات فجأة قبل افتتاح المحاكمة وقُررت وفاته بشهادة من الشرطة قُدِّمت الى المحكمة . وقد أحدث نبأ انتحار سمردياكوف جلبة ودمدمات فى القاعة . ذلك أن عدداً كبيراً من جمهرة الحضور لم يكن قد علم بالحادث بعد . ولكن الشىء الذى أذهل الناس خاصةً هو أن ميتيا قد انفجر صائحاً على حين فجأة : فانه ما ان علم بالنهاية التى انتهى اليها سمردياكوف حتى صرخ من مكانه يقول بصوتٍ دوّى فى القاعة كلها :

— كان كلباً فمات ميتة كلب !

أذكر أن محاميه قد اندفع نحوه حينئذ ، وأن رئيس المحكمة قد هدَّده باتخاذ اجراءات صارمة فى حقه اذا هو كرر فعلته هذه . وقد كرر ميتيا لمحاميه ، عدة مرات ، بصوت هامس ، وهو يحرك رأسه ويتكلم كلاماً متقطعاً ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه نادم على ما فعل :

— لن أعيدها ، أعدك بذلك ! لقد افلتت منى ! طيب . . . لن أعيدها !

بديهى أن هذا الحادث الطارئ لم يخدم ميتيا فى ذهن المحلفين وفى ذهن الجمهور . فقد رأى هؤلاء أن ميتيا قد كشف فى هذه الفعلة عن طبعه وقدَّم نفسه بنفسه . وفى هذا الجو السيئ انما تلا كاتب المحكمة قرار الاتهام .

كان القرار مقتضباً رغم اشتماله على وقائع القضية واقتصر على عرض الأسباب الداعية الى الاتهام ، الباعثة على الادانة ، الخ . وقد أحدثت قراءة القرار تأثيراً كبيراً فى نفسى أيضاً . كان كاتب المحكمة يقرأ بصوت واضح جلى بين رنان . فانبعثت صورة الدراما فى أذهان الحضور مرة أخرى ببروز يأسر اللب ، كأنما انصبت عليها أضواء مشئومة لا تُرحم . وانى لأذكر أنه ما ان فرغ كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام حتى بادر الرئيس يسأل ميتيا بصوت قوى نافذ :

— المتهم . . . هل تعترف بنفسك مذنباً ؟

فنهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وصاح يقول بحرارة لم تكن متوقعة أيضاً وبنبرة لوعة :

— أعترف بنفسى مذنباً فى السكر والفجور ، فى الكسل والعربدة . ولقد كنت أنوى أن أصبح الى الأبد انسانا شريفاً ، فى اللحظة التى حطمنى فيها القدر ! ولكننى برىء من مقتل العجوز ، عدوى وأبى ! أنا لم أسرقه ، لا ، لا ! . . . لم أفعل ذلك ، ولا كان لى أن افعل ذلك : ان دمترى كارامازوف وغد ولكنه ليس لصاً !

أطلق دمترى هذه الصيحات ثم عاد يجلس وهو يرتعش بكل جسمه . فاتجه اليه الرئيس من جديد يطلب منه بايجاز ولكن بالحاح صارم أن يقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى تلقى عليه ، دون أن يندفع فى خطب وصيحات طويلة . وبعد ذلك أمر الرئيس بسماع أقوال الشهود . فأُدخل الشهود ليحلفوا اليمين ، فرأيتهم عندئذ جميعاً . على أن أخوى المتهم قد أعفوا من هذا الاجراء وسُمح لهما أن يدليا بشهادتيهما دون

قسم . وبعد النصائح والمواعظ التى قالها الرئيس وقالها كاهن ، أخرج الشهود ، وعُزل بعضهم عن بعض . ثم نودوا الى القاعة واحداً بعد واحد .

٢

شهود خطرون

لا أدرى هل وزَّع الرئيس شهود الاتهام وشهود الدفاع الى فئتين متميزتين ، ولا أدرى ما هو الترتيب الذى اتبعه فى استدعائهم . أغلب الظن أنه اتخذ الاجراءات الضرورية . ولكننى أعرف أن شهود الاتهام هم الذين دعوا الى الادلاء بأقوالهم أول من دُعى . أعود فأكرر أننى لا أنوى أن أصف هذه الاستجوابات بالتفصيل كلمة كلمة . ثم ان عرضاً يبلغ ذلك المبلغ من التمام والكمال سيكون زيادة لا داعى اليها ، لأن ما اشتملت عليه شهادات الشهود فى ذلك اليوم من معنى ودلالة قد تولى وكيل النيابة والمحامى تلخيصه وايضاحه فى آن واحد ، وذلك فى مطالعة النيابة ومرافعة الدفاع فى آخر المناقشات . وقد سجلت هذين الخطابين الرائعين ، وأخذت منهما أجزاء برمتها سأعرضها حين يجىء الأوان . وسأذكر كذلك حادثاً وقع أثناء المحاكمة على غير توقع ، وقع فى البداية وكان له تأثير كبير على نهايتها الرهيبة المشئومة . أما الآن فسأقتصر على الاشارة الى وجه خاص من وجوه هذه «القضية» تكشَّف دفعةً واحدة وخطف أبصار الجميع ، وهو قوة الاتهام من جهة وضعف الدفاع من جهة أخرى . لقد بدا منذ الوهلة

الأولى أنه ليس هناك تكافؤ بين الاتهام والدفاع ، وأدرك جميع الحضور حين رأوا عناصر الاتهام تتجمع وتتركز مزيداً من التجمع والتركز شيئاً بعد شىء كلما اتضحت الوقائع بشهادات الشهود ، وكلما تجلى هول الجريمة بارزاً مزيداً من البروز . ثم ان جميع الناس قد فهموا منذ الوهلة الأولى أن القضية مفهومة ، وأنه لا مجال لأى شك ، حتى لكأن المناقشات زائدة لا لزوم لها ولا داعى اليها ، وأنها لن تجرى الا من باب التقيد بالشكليات ، اذ كان واضحاً أن المتهم هو الجانى ، وأن ارتكابه الجريمة أمر لا شك فيه ولا سبيل الى انكاره . وأحسب أن السيدات اللواتى شهدن المحاكمة وكنَّ يتمنين بنهم شديد وشراهة قوية تبرئة هذا المتهم الشائق ، أحسب أن هاته السيدات كنَّ مقتنعات جميعاً ، دون استثناء ، اقتناعاً مطلقاً بأن المتهم هو القاتل . وأكثر من ذلك أنهن كنَّ سيشعرن بكثير من خيبة الأمل لو وُضع ارتكابه الجريمة موضع الشك ، لأن الخاتمة تكون عندئذ أقل اثارة للمشاعر ، ولأن تبرئة الجانى تكون عندئذ أضعف أثراً وأقل بهاءً . ومن الأمور العجيبة أن هاته السيدات جميعاً قد ظللن حتى آخر لحظة على يقين من أنه سُيبَّرأ : «صحيح أنه هو الجانى ، ولكنه سيُبَّرأ باسم الانسانية وباسم الأفكار الجديدة الرائجة الآن» ، الخ ، الخ . وعلى هذا الأمل انما كانت جموعهن الغفيرة قد هرعت الى حضور المحاكمة ، وكنَّ يضربن الأرض بأقدامهن من فرط نفاد صبرهن أثناء المناقشات . أما الرجال فكان يهمهم ، خاصةً ، الصراعُ بين وكيل النيابة وفيتوكوفتش الشهير . كان الرجال يستغربون ويتساءلون ما الذى سيعمد اليه المحامى الموهوب ليدافع عن هذه القضية الخاسرة مقدماً ، وما الذى سيتوصل الى الظفر

به من هذه البيضة الفاسدة . لذلك كانوا يرصدون جميع حركاته بانتباه شديد . ولكن فيتوكوفتش ظل حتى النهاية موصداً لا يُسبر غوره ولا تعرف سريرته ، الى أن حان حين المرافعة . وكان أهل الخبرة والتجربة يقدرون أنه قد هيأ نظام دفاعه ورتب فى ذهنه شيئا ما ، وأنه يسعى الى هدف معيَّن ، ولكن يكاد يستحيل عليهم أن يعرفوا ما هو ذلك الهدف . وفى أثناء ذلك كانت ثقته وغروره واضحين يخطفان البصر . يضاف الى هذا أنهم قد عرفوا بارتياح أن وقته قد اتسع أثناء المدة التى قضاها فى مدينتنا ، وهى لا تكاد تبلغ ثلاثة أيام ، لأن يدرس القضية دراسة عميقة ، فأصبح يعرف جميع مداخلها ومخارجها . وقد رووا بعد ذلك بكثير من التلذذ كيف استطاع أن يربك جميع شهود الاتهام فى اللحظة المناسبة ، وكيف استطاع خاصةً أن يدمر سمعتهم الأخلاقية بحذق ما بعده حذق ، وأن يحطم بذلك قيمة الشهادات التى أدلوا بها . على أنهم كانوا يرون أنه فعل ذلك كله من قبيل اللعب فى الدرجة الأولى ، حباً بالفن ، وشغفاً بالمهنة ، حتى لا يُغفل أية حيلة من حيل الدفاع الكلاسيكية . ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأنه لا يستطيع أن يعوِّل على جنى أية فائدة ذات بال من تلـــك «التشهيرات» ، وأنه لا بد أن يكون عارفاً بهذا أكثر من أى انسان آخر ، فلعله كان يدَّخر فكرة من الأفكار ، لعله كان يخبئ سلاحاً خفياً آخر ، لعله كان يحتفظ بأدلة وحجج لم يستعملها بعد ، ولكنه سيخرجها فجأة فى اللحظة المناسبة . وبانتظار ذلك كان يبدو شاعراً بقوته ، وكان يجد لذة فى التلاعب بالشهود . من ذلك مثلاً أنه حين جاء دور جريجورى فاسيلتش ، خادم فيدور بافلوفتش ، الذى أدلى بشهادة خطيرة فى موضوع

«الباب المفتوح» المطل على الحديقة ، أمسك المحامى بتلابيبه ان صح التعبير ، منذ أتيح له أن يلقى عليه بعض الأسئلة . يحسن أن نذكر هنا أن جريجورى مَثَل أمام المحكمة دون أن يبدو عليه أى تهيب لا من جلال المحكمة ولا من كثرة الجمهور الذى يصغى اليه . كان هادئ المظهر ، بل كان فيه شىء من مهابة ووقار ، وقد ادلى بشهادته بثقة مطمئنة كتلك الثقة التى يخاطب بها امرأته مارفا اجناتفنا فيما يجرى بينه وبينها من أحاديث ، ولكن باحترام وتوقير . كان يبدو أن ارباكه مستحيل . سأله وكيل النيابة أولا عن تفاصيل الحياة العائلية التى تحياها أسرة كارامازوف ، فرسم جريجورى لهذه الحياة صورة حية جداً . وقد أدرك الناس أن هذا الشاهد انسان ساذج أمين غير متحيز . فانه مع ما أظهره من احترام عميق لذكرى مولاه الراحل ، أكد ان المرحوم لم يكن عادلاً نحو ميتيا ، وأنه «لم يحسن تنشئة أولاده» . وحين تحدث عن سنى طفولة ميتيا ذكر أن الطفل «كان سيأكله القمل لولا أن عُنى هو به» ، وأضاف الى ذلك أنه «ما كان ينبغى للأب أن يحرم ابنه من حقه فى ميراث أمه» . فلما سأله وكيل النيابة عن الوقائع التى تسمح له بأن يقول ان فيدور بافلوفتش قد غبن ابنه عند تصفية الحساب ، عجز جريجورى عن ذكر وقائع دقيقة (وهذا ما أدهش الجميع) ، ولكنه أصرَّ على أن تصفية الحساب كانت غير عادلة ، وأن «ميتيا كان من حقه فعلاً أن يطالب أباه ببضعة ألوف أخرى من الروبلات» . أحب أن أضيف أن هذا السؤال — أعنى السؤال عن الغبن الذى لحق ميتيا — قد طرحه وكيل النيابة بالحاح خاص على جميع الشهود الذين مثلوا أمام هيئة المحكمة والذين كان يمكن أن يذكروا بعض الايضاحات حول

هذا الموضوع ، ولم يستثن من هؤلاء الشهود أليوشا وايفان فيدوروفتش ، ومع ذلك لم يستطع أحد من الشهود أن يقدم وقائع مقنعة حاسمة فى هذه النقطة . لقد أطبقت آراؤهم جميعاً على أن الغبن واقع ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يجىء ببرهان قاطع . وحين وصف جريجورى المشهد الذى جرى فى غرفة الطعام لحظة اقتحمها دمترى وضرب أباه مهدداً بأنه سيعود ليقتله فيما بعد ، ترسب فى النفوس من سرده لهذه الوقائع انطباع كئيب ، لا سيما وأن الخادم العجوز كان يتكلم بهدوء ، لا يسترسل فى عبارات لا فائدة منها ، وانما هو يستعمل اللغة المألوفة عنده ، فكان بذلك بليغاً كل البلاغة دون أن يقصد الى البلاغة . أما فيما يتعلق بالاهانة التى ناله بها ميتيا حين لطمه على وجهه وأسقطه على أرض الغرفة آنذاك فقد قال جريجورى انه لا يحمل لميتيا حقداً أو ضغينة وأنه غفر له هذه الاساءة منذ مدة طويلة . ولما سئل عن المرحوم سمردياكوف ، رسم اشارة الصليب أولاً ، ثم قال ان الفتى لم يكن خالياً من بعض المزايا ، لكنه كان غبياً ، وكان مرضه قد أوهن جسمه وعقله ؛ وأخذ عليه خاصةً أنه كان كافراً ، دون أن ينسى ان يقول أن فيدور بافلوفتش وابنه الاكبر هما اللذان لقّناه الكفر وفى مقابل ذلك ألحّ بشىء من الحرارة على أن سمردياكوف كان فتى أميناً ، وروى كيف أن هذا الخادم ، حين عثر بالأوراق المالية التى أضاعها مولاه فى فناء المنزل ، لم يخطر بباله أن يستولى عليها ، وانما ردّها الى فيدور بافلوفتش الذى كافأه على امانته بروبل ذهبى ، وأصبح يثق بخادمه منذ ذلك الحين ثقة مطلقة . وأكد جريجورى من جهة أخرى ، بعناد لا سبيل الى زحزحته عنه ، أن الباب المطل على الحديقة

كان مفتوحاً . هذا وقد طُرحت عليه أسئلة كثيرة يستحيل علىّ أن آتى على ذكرها كلها .

وأخيراً جاء دور المحامى لاستجواب الشاهد فسأل قبل كل شىء ، عن الظرف الذى «يُزعم» أن فيدور بافلوفتش كان قد أودع فيه الثلاثة آلاف روبل «لشخص ما» : «هل رأيت هذا الظرف بعينيك ، أنت الذى تعيش فى صميم حياة مولاك خلال تلك السنين الطويلة كلها ، وكنت قريبا منه ذلك القرب كله ؟» . فأجابه جريجورى بأنه لم يرَ ذلك الظرف ، وأنه كان يجهل وجود هذا المبلغ «الى اللحظة التى أصبح فيها جميع الناس يتحدثون عنه» . وقد ألقى فيتوكوفتش هذا السؤال عن الظرف على جميع الشهود الذين كان يمكن أن يجيبوا عن هذه النقطة ، وألحّ فى ذلك الحاحاً كالحاح وكيل النيابة فى السؤال عن اقتسام الميراث . فأجاب جميع الشهود ، فى هذه المرة أيضا ، واحداً بعد واحد ، بأنهم لم يروا الظرف ، وان يكن كثيرون جداً قد سمعوا عنه . وقد لوحظ منذ البداية ان المحامى يلح الحاحا خاصا على هذا السؤال .

قال فيتوكوفتش فجأة على نحو غير متوقع :

— أحب الآن أن ألقى عليك سؤالا . . . اذا سمحت . هل فى وسعك أن تقول لى شيئاً عن تركيب ذلك المرهم ، أو ان شئت عن تركيب ذلك المنقوع الذى استعملته ذلك المساء قبل أن تنام ، كما يظهر من التحقيق الأولى ، فى تدليك ظهرك ، آملاً أن تشفى بهذه الوسيلة ؟

نظر جريجورى الى المحامى نظرةً بلهاء ، وصمت بضع ثوان ، ثم قال :

— يدخل فى تركيبه نبات القويسة .

— لا شيء الا نبات القويسة ؟ ألا تذكر شيئا آخر ؟
— ويدخل فيه نبات لسان الحَمَل أيضا .
— وربما قليل من الفلفل ؟
— وفيه فلفل كذلك .
— وغير ذلك . وهذه النباتات كلها نُقعت فى فودكا ، أليس كذلك ؟
— نعم ، فى كحول .
سُمعت فى القاعة عندئذ ضحكات مكتومة .
— عظيم ، بل حتى فى كحول ، وبعد أن دلكت ظهرك شربت ما بقى فى الزجاجة من هذا السائل مع صلاة خاشعة لا يعرف أحد نصَّها الا زوجتك ، أليس كذلك ؟
— نعم شربته .
— هل شربت مقداراً كبيراً من هذا السائل ؟ كم شربت ، مثلا ؟ كأساً واحداً أم ربما كأسين ؟
— كوباً ملآن تقريباً .
— هه ؟ كوباً كاملاً ؟ أم كوباً ونصف مثلاً ؟
صمت جريجورى . يبدو انه فهم شيئاً ما .
قال المحامى :
— كوب ونصف من كحول صاف . هذا لا بأس به أبدا ، ما رأيك ؟ ان الانسان يستطيع بعد ذلك لا أن يرى الباب المطل على الحديقة مفتوحاً فحسب ، بل أن يرى كذلك «أبواب الجنة» كلها مفتوحة .
ظل جريجورى صامتاً . وسُمعت فى القاعة ضحكات صغيرة مكظومة من جديد . فاضطرب الرئيس .
عاد فيتوكوفتش يسأل بالحاح وهو يحدِّق الى فريسته :

— أما كنت نعسان حين أبصرت الباب المطل على الحديقة مفتوحا ؟
— كنت واقفاً على قدمى .
— هذا لا ينفى أن تكون نعسان (مزيد من الضحكات المكظومة فى القاعة) . هل كان فى وسعك عندئذ أن تجيب فى تلك اللحظة عن سؤال يلقيه عليك أحدهم ، كأن يسألك مثلا فى أى سنة نحن ؟
— لا أدرى !
— طيب . . . فى أية سنة من العصر المسيحى نحن الآن ؟ هل تعرف ؟
بدت الحيرة على جريجورى الذى كان لا يحوِّل بصره عن جلاده . ومن الغريب أنه كان يبدو أنه يجهل فعلاً فى أى سنة نحن .
— هل تستطيع أن تقول لى ما عدد أصابع يديك ؟
فقال جريجورى فجأة بصوت قوى واضح :
— أنا امرؤ تعودت أن أطيع ، فاذا حلا لمن هم اعلى منى مقاماً أن يسخروا منى ، فمن واجبى أن أتحمل ذلك .
بدا على فيتوكوفتش شيء من الغيظ ، ولكن الرئيس أسرع يتدخل فطلب من المحامى أن يلقى أسئلةً تتعلق بالدعوى تعلقاً مباشراً . فلما سمع المحامى طلب الرئاسة انحنى بوقار ، وأعلن أنه ليس لديه أسئلة اخرى . واضح أن شكاً خفيفاً قد نزع الآن فى أذهان الجمهور وفى أذهان المحلفين ، فيما يتعلق بقيمة شهادة يدلى بها رجل يمكن أن «يرى أبواب الجنة» ، عدا انه يجهل السنة التى نحن فيها من العصر المسيحى . فى وسعنا أن نقول اذن ان المحامى قد حقق هدفه على كل

حال . ولكن قبل أن ينصرف جريجورى وقع حادث آخر . ذلك أن الرئيس اتجه الى المتهم فسأله هل لديه ملاحظات على هذه الشهادة ، فصاح ميتيا يقول بصوت قوى :

— باستثناء ما قاله عن الباب ، فان كل ما ذكره هو الحقيقة بعينها . صحيح ما ذكره من أنه أنقذنى من القمل ، وأنا أشكر له ذلك . ولقد غفر لى اللطمات ، فأنا أشكر له ذلك أيضا . ان هذا العجوز كان رجلاً شريفاً أميناً صادقاً طوال حياته ، وكان وفياً لأبى وفاء سبعمائة كلب .

قال الرئيس بلهجة قاسية :

— المتهم ! . . . عليك ان تنتقى ألفاظك .

وقال جريجورى متذكراً بدوره :

— أنا لست كلباً .

فهتف ميتيا يقول :

— اذن أنا الكلب ، أنا . اذا كان اهانةً أن يكون المرء كلباً فاننى أصف نفسى بهذه الصفة ، وأطلب منه الصفح والعفو . لقد كنت قاسياً وعنيفاً معه . ومع ايزوب أيضاً .

فتدخل الرئيس قائلاً بصرامة :

— اى ايزوب تعنى ؟ عمَّن تتكلم ؟

— أتكلم عن بييرو . . . أبى . . . أبى . . . فيدور بافلوفتش .

فأنَّب الرئيس ميتيا وقرَّعه ، وأمره بلهجة صارمة أن يحسن اختيار ألفاظه بعد الآن ، وقال له :

— انك تسىء الى نفسك بنفسك فى أذهان قضاتك .

وبتلك البراعة نفسها عرف المحامى كيف يعبث بالشاهد راكيتين الذى كان من أهم شهود الاتهام ، والذى كان وكيل

النيابة يعوِّل عليه كثيراً . لقد اتضح دفعة واحدة أن راكيتين كان يعرف كل شىء ، وأنه مطلع على الأمور اطلاعاً غريباً ، وأنه اختلف الى جميع الأشخاص ، وأنه رأى كل شىء ، وتحدث مع كل واحد ، وأنه يعرف تفاصيل سيرة فيدور بافلوفتش ، كما يعرف تفاصيل سير آل كارامازوف جملةً . صحيح أنه ، فيما يتعلق بالظرف الذى أودعت فيه الثلاثة آلاف روبل ، لم يكن قد سمع شيئاً عن هذا الأمر ، هو أيضا ، الا من ميتيا . ولكنه فى مقابل ذلك قد وصف سلوك ميتيا فى حانة «العاصمة الكبرى» وصفاً دقيقاً ، ونقل أقواله وذكر اشاراته وحركاته ، وروى حادثته مع النقيب سنيجيريف . أما عن أن فيدور بافلوفتش كان لا يزال مدينا لميتيا ببعض المال تصفيةً لحساب الميراث ، فلم يستطع حتى راكيتين نفسه أن يذكر شيئاً دقيقاً واضحاً ، واكتفى بأن قال بضع عبارات غامضة فيها ازدراء واحتقار : «من ذا الذى يستطيع أن يقول أيهما كان مذنباً فى حق الآخر ، وأنَّى للمرء أن يعرف شيئاً واضحاً عن حساباتهما فى ظل هذا النظام المنزلى العجيب الذى تعيشه أسرة كارامازوف ، وفى ظل تصريفهم للأمور المالية تصريفاً لا يتسنى لأحد أن يفهم منه شيئاً البتة !» . لقد صوَّر راكيتين الدراما التى أدت الى الجريمة على أنها ثمرة الأخلاق المتخلفة لنظام القنانة ، وثمرة الفوضى التى تسيطر على روسيا التى تفتقر الى أنظمة لا غنى لها عنها وتعانى من ذلك . خلاصة القول أنه سُمح لراكيتين أن يعرب عن بعض الأفكار . وبمناسبة هذه الدعوى انما اشتهر راكيتين وذاع صيته لأول مرة . كان وكيل النيابة يعرف أن الشاهد ينوى أن ينشر مقالاً عن القضية فى الصحف ، حتى لقد أورد فى مطالعته (كما سنرى ذلك فيما بعد) عدداً من الافكار التى

يعبر عنها ذلك المقال ، فكان اذن مطلعاً على مضمون المقال .
كانت الصورة التى رسمها راكيتين مظلمة قاسية دكناء يتولد منها شعور يعزز «الاتهام» تعزيزاً قوياً . ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال أن العرض الذى قدمه قد خلب ألباب الجمهور بما اشتمل عليه من استقلال الرأى وحرية التفكير ، وبما أكده من نبل العواطف وسمو المشاعر . حتى لقد سُمعت فى القاعة تصفيقات انطلقت هنا وهناك من تلقاء نفسها ، وذلك أثناء كلامه عن نظام القنانة ، وعن روسيا الشقية التى ترين عليها الفوضى . ولكن راكيتين ، الذى لم يكن الا شاباً على كل حال ، لم يستطع أن يتجنب خراقةً سرعان ما استغلها المحامى استغلالاً يدل على مقدرة فائقة فى انتهاز الفرص المناسبة . لقد أُلقيت على راكيتين أسئلة عن جروشنكا ، فاذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة منقاداً لما حقق من نجاح شعر به هو نفسه ، ومنتشياً بالسمو الأخلاقى الروحى الذى ارتقى اليه ، اذا هو حين يجيب عن هذه الأسئلة يزل لسانه فيتكلم عن أجرافينا ألكسندروفنا بشىء من الاحتقار ويصفها بأنها «امرأة ينفق عليها التاجر سامسونوف» ، فسرعان ما استولى المحامى على هذه العبارة الشقية التى زلَّ بها لسان راكيتين والتى أصبح راكيتين مستعداً بعد ذلك لأن يضحى بكل شىء فى سبيل أن يسحبها . وما كان لهذا كله أن يقع على كل حال لو قد تنبأ راكيتين بأن المحامى قد اطلع أثناء هذه الفترة القصيرة على أدق تفاصيل الأمور .

حين جاء دور المحامى لاستجواب الشاهد ، قال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من اللطف والمودة بل والاحترام :

— اسمح لى أن أسألك هل أنت ذلك السيد راكيتين

نفسه الذى نشرت له سلطات الأبرشية فى الآونة الأخيرة كتيبا عنوانه «سيرة الأب السعيد الشيخ زوسيما» ، وهو كتيب ملىء بأفكار دينية أخلاقية عميقة ، ومُهدى بكثير من التبجيل واللباقة الى صاحب العظمة سيادة البطريق ؟ لقد قرأت هذا الكتيب مؤخرا بكثير من الاهتمام .

تمتم راكيتين يقول وقد بدا عليه الاضطراب فجأة كأنه يشعر بخزى :

— أنا لم أكتب هذه السيرة لتُنشر ، وانما نشرت بعد ذلك دون علمى .

— ها . . . عظيم ! ! ان مفكراً مثلك يستطيع ويجب عليه أن يبرهن على سعة عظيمة فى النظر الى أية ظاهرة اجتماعية . وقد قُيِّض لكتيبك الممتاز ، بفضل حماية صاحب العظمة البطريق ، أن ينتشر انتشارا واسعاً وأن يكون ذا فائدة . . . ولكننى أحب من جهتى ، دون أن أكون مسرفا فى الفضول ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : لقد ذكرتَ منذ قليل أنك تعرف جيداً السيدة سفيتلوفا ، أليس كذلك (ليلاحظ القارئ أنه عُرف فى تلك اللحظة وحدها ان اسم أسرة جروشنكا هو سفيتلوفا . ولقد سمعت هذا الاسم فى هذه المناسبة لأول مرة) .

هتف راكيتين يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

— لا يمكن أن أؤاخذ على معرفتى بجميع من أعرف من الناس . . . أنا شاب . . . ومن ذا الذى يتحمل تبعة جميع ما يعرض له من لقاءات ؟

فهتف فيتوكوفتش هو أيضا يقول متظاهراً بالخجل حريصاً على المبادرة الى الاعتذار :

— طبعاً ، طبعاً ، مفهوم ! أنا أفهم هذا حق الفهم .

انه لمن الطبيعى جداً أن تجتذبك ، كما تجتذب أىَّ انسان آخر غيرك ، متعةُ امرأة جميلة يحلو لها أن تستقبل فى بيتها زهرة شبان المدينة . . . ولكننى . . . أريد أن توضح لى نقطة واحدة : نحن نعلم أن السيدة سفيتلوفا قد تمنت منذ شهرين ، بكثير من الالحاح ، أن تتعرف الى ألكسى فيدوروفتش ، أصغر الاخوة كارامازوف ، وأنها رجتك أن تجيئها به ، وأن تجيئها به مرتدياً ثوب الرهبان الذى يرتديه ، وقد وعدتك اذا أنت أفلحت فى أن تجيئها به ، وعدتك بمكافأة مقدارها خمسة وعشرون روبلاً . ونحن نعلم أنك لبيت طلبها ، وأن الزيارة تمت فى تلك السهرة نفسها التى اختتمت بالفاجعة موضوع الدعوى . لقد قدت ألكسى فيدوروفتش الى بيت السيدة سفيتلوفا ، وأخذت منها المبلغ الذى وعدتك به ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، هل هذا كله صحيح ؟ ذلك ما أحب أن توضحه لنا الآن .

— كانت تلك مزحة لا أكثر . . . ولست أرى فيم يمكن أن يعنيك هذا الأمر . . . وقد أخذت المبلغ من باب المزاح . . . وعلى نية رده اليها بعد ذلك . . .

— اذن أخذت المبلغ . ولكنك لم تردَّه حتى الآن . . . أم تُراك رددته ؟

تمتم راكيتين يقول :

— هذه سفاسف . وأنا أرفض أن أجيب عن أسئلة من هذا النوع . . . طبيعى أننى سأرد هذا المال .

تدخل الرئيس فى تلك اللحظة ، ولكن المحامى أسرع يعلن انه لم يبق لديه سؤال آخر يلقيه على راكيتين . وانصرف راكيتين منكسراً الى حد ما . لقد فسد ما أحدثه خطابه من

شعور بأنه انسان نبيل النفس ، فساداً لا صلاح له بعده . . . وكان فيتوكوفتش الذى لاحقه بنظرة ساخرة ، كان كمن يخاطب الجمهور قائلاً له : «انظروا الى شهود الاتهام هؤلاء ، ما قيمتهم !» وانى لأذكر أن ميتيا قد أحدث حادثاً فى هذه المناسبة أيضا . فانه وقد أحنقته اللهجة التى تكلم بها راكيتين عن جروشنكا ، صاح فجأة يطلق على راكيتين من مكانه هذا اللقب : «برنار» ، وحين اتجه الرئيس ، بعد استجواب راكيتين ، الى المتهم ليسأله هل له ملاحظات يريد ابداءها ، صرخ ميتيا يقول بصوت مجلجل :

— لقد اقترض منى مالاً عدة مرات وأنا رهن التحقيق . هذا برنار حقير وانتهازى ، لا يؤمن بالله ، وقد ضلل صاحب العظمة البطريق وغرَّر به !

طبيعى أن ميتيا قد أُمر من جديد بالتزام النظام ، واجتناب الألفاظ النابية ، ولكن السيد راكيتين كان قد أُجهز عليه . ولم يكن حظ الاتهام مع الشاهد التالى ، وهو النقيب سنيجيريف ، أكبر من حظه مع الشاهدين السابقين ، ولكن لسبب آخر . لقد جاء سنيجيريف الى المحكمة مشعث الثياب وسخ الهيئة موحَّل الحذاءين ، وسرعان ما أدرك الناس ان المسكين سكران سكراً تاماً ، رغم جميع الاحتياطات المتخذة ورغم «تقرير الخبير» . فلما سئل عن الاهانة التى ألحقها به ميتيا رفض باصرار عنيد أن يجيب . وقال :

— سامحه الله . ان صغيرى ايليوشا لا يريد هذا . سينصفنى الله فى الآخرة .

— من الذى لا يريد ؟ من يمنعك من الكلام ؟

— ايليوشا ، ابنى الصغير : «بابا حبيبى بابا ما أكثر

ما أذلّك !» . هكذا كلمنى قرب الصخرة . وهو الآن يموت .

قال النقيب ذلك ثم انفجر باكياً منتحباً على حين فجأة ، وسجد أمام قدمى الرئيس . فأسرعوا يخرجونه وسط ضحك الحضور وقهقهاتهم ، وضاع على وكيل النيابة ما كان يعوّل عليه من أثر يمكن أن يحدثه هذا الرجل المسكين .

واستمر المحامى يستعمل جميع أساليب فنه ، واستمر الناس يدهشون مزيداً من الدهشة لاطلاعه العجيب على القضية بأدق تفاصيلها . هكذا احدثت الشهادة التى أدلى بها تريفون بوريستش أثراً قوياً فى أول الأمر ، وكانت هذه الشهادة تُدين ميتيا طبعاً . من ذلك خاصة انه حسب ، قرشاً قرشاً ، النفقات التى أنفقها ميتيا أثناء رحلته الأولى الى موكرويه قبل وقوع الفاجعة بشهر ، فبيَّن أن ميتيا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون قد أنفق أقل من ثلاثة آلاف روبل ، «أو ما يقرب من ذلك . ما أكثر ما رمى للغجريات من مال ! أما فلاحونا المقمّلون فانه لم يكتف بأن ينفحهم نقوداً صغيرة أو نقوداً من فئة الخمسين كوبك بل كان يوزّع عليهم أوراقا مالية لا تقل الواحدة منها عن خمسة وعشرين روبلاً ! ناهيكم عما سُرق منه فى تلك الليلة ! ! ومن يسرق لا يترك يده فكيف يمكن أن تمسك به اذا كنت أنت نفسك تتلف المال اتلافاً وتبدده تبديداً . ان الناس عندنا لصوص لا ضمير لهم ولا وجدان . والبنات ! بنات قريتنا ! انه لم ينسهن ! لقد اغتنين منذ ذلك الحين ، بينما كان جميع الناس عندنا فقراء قبل تلك الليلة» . الخلاصة أن تريفون بوريستش أحصى جميع النفقات ، وبدا أنه يجرى حساباً دقيقاً . وبذلك يكون الافتراض القائل بأن ميتيا لم ينفق الا ألفاً وخمسمائة روبل ، وانه خاط باقى المبلغ فى كيس

صغير ، مردوداً مرفوضاً . «رأيت الثلاثة آلاف روبل بعينىّ ، ما أنا بمن يُخدع فى مثل هذه الأمور !» كذلك كان يصيح تريفون بوريستش ، وكان واضحاً أنه انما يفعل ذلك حباً بارضاء السلطات ؛ ولكن حين جاء دور المحامى لالقاء الأسئلة على الشاهد ، اكتفى المحامى بأن ذكر الواقعة التالية دون أن يحاول الطعن فى شهادة صاحب الفندق ، قال : ان الحوذى تيموثى وفلاحاً آخر اسمه آكيم قد عثرا بورقة مالية بمائة روبل كانت قد سقطت على أرض الدهليز من ميتيا وهو فى حالة سكر ، فحملا هذه الورقة المالية وأعطياها تريفون بوريستش الذى كافأ كلاً منهما بروبل ، «فهل أرجعت المائة روبل هذه الى السيد كارامازوف أم أنت لم ترجعها ؟ أجب !» . فحاول تريفون بوريستش أن يتملص من الجواب ، ولكنه بعد سؤال الفلاحين اللذين عثرا بالورقة المالية ، اضطر أن يعترف بالواقعة ، واكتفى بأن يؤكد أنه قد أرجع الورقة المالية الى دمترى فيدوروفتش فوراً ، وأنه فعل ذلك «بدافع الامانة والشرف ، ولكنه كان قد بلغ منه السكر كل مبلغ حينذاك ، فمن الجائز أن يكون قد نسى أن المال اعيد اليه فى حينه» . ولكن لما كان تريفون بوريستش قد ظل الى حين مثول الفلاحين ينكر العثور بورقة نقدية على أرض الدهليز أصلاً ، فان ما ادعاه بعد ذلك من أن الورقة قد أرجعت الى ميتيا الثمل ، أصبح مطعوناً فيه . هكذا رأينا شاهداً من أخطر شهود الاتهام يفرغ من شهادته وقد تزعزعت سمعته تزعزعاً قوياً .

وكذلك كان شأن «البولنديين» . لقد أظهرا فى البداية كبرياء وغروراً ، وأكدا بصوت قوى أنهما «خدما التاج» بأمانة واخلاص وأن «البان ميتيا» عرض عليهما أن يدفع لهما ثلاثة

آلاف روبل ثمناً لشرفهما ، وانهما شاهدا ذلك المبلغ فى يديه بأعينهما . وقد استعمل البان موزيالوفيتش عدداً كبيراً من الألفاظ البولندية فى جمله ، فلما لاحظ أن ذلك قد رفع قدره وزاد قيمته فى نظر رئيس المحكمة ووكيل النيابة ، شعر بارتياح وسرور وأخذ يتكلم بالبولندية . ولكن فيتوكوفتش عرف كيف يقتنص هذين الرجلين أيضاً بشباكه : فرغم أن تريفون بوريستش ، الذى استدعى الى القاعة مرة أخرى ، قد حاول الانكار ، فانه اضطر أخيراً أن يعترف بأن البان فروبلفسكى قد استبدل بورق اللعب الذى أخذه منه ورقاً آخر أخرجه خلسةً ، وأن البان موزيالوفيتش قد غش فى اللعب أثناء استلامه دور «البنك» . وقد جاءت أقوال كالجانوف الذى أدلى بشهادته بعد ذلك ، جاءت مؤيدةً لصحة هذه «التفاصيل» ، فخرج البانان البولنديان مرتبكين مجللين بالعار تشيعهما قهقهات الحضور .

وهذا المصير نفسه كان ينتظر شهود الاتهام الآخرين الخطرين . فقد عرف فيتوكوفتش كيف يسقط اعتبار كل واحد منهم من الناحية الأخلاقية ، فانصرفوا وهم فى حالة يرثى لها . وقد أُعجب محبو الاطلاع ورجال القانون ببراعة المحامى هذه ، ولكنهم كانوا يتساءلون ما الذى يمكن أن يجنيه بهذا الأسلوب من فائدة للقضية ؛ ذلك لأنهم — أكرر هذا — كانوا يشعرون جميعاً بان الاتهام قوى قوة لا تقاوم وتزداد مأساوية وتصاعداً . ومع ذلك كان الناس يدركون ، من ملاحظة الثقة البادية فى هيئة «الساحر الكبير» ، أنه كان هادئاً مطمئناً ، لذلك كانوا ينتظرون الخاتمة بكثير من الشوق . ليس عبثاً أن يزعج «مثل هذا الاستاذ» نفسه بالمجىء الى بلدتنا من بطرسبرج ، فما هو حتماً بالرجل الذى يرجع خائباً دون ثمرة يجنيها .

الفحص الطبى الشرعى ورطل من بندق

كذلك فان الفحص الطبى الشرعى لم ينفع المتهم كثيراً . وكان فيتوكوفتش نفسه لا يعوّل كثيراً عليه ، فيما يبدو ، كما ظهر ذلك من بعد . وانما عمد الى استخدامه بسبب الحاح كاترينا ايفانوفنا التى استقدمت لهذا الغرض طبيباً شهيراً من موسكو . كان واضحاً أن الدفاع لن يخسر باستخدام الفحص الطبى الشرعى شيئاً ، حتى لقد يجنى بعض النفع اذا واتت الظروف . على أن الفحص الطبى الشرعى هذا قد صحبته مشاهد مضحكة جداً ، وذلك بسبب اختلاف الأطباء فى الرأى . كان الأطباء الذين عُيِّنوا خبراء للادلاء بآرائهم فى هذه القضية هم أولاً الاخصائى الشهير الذى استُقدم من موسكو ، ثم طبيبنا الطبيب الدكتور هرتسنشتوبه ، وأخيرا الطبيب الممارس الشاب فارفنسكى . على أن هذين الطبيبين الأخيرين قد مَثَلا أمام المحكمة بصفتهما شاهدين أيضاً ، لأن وكيل النيابة قد طلب ذلك . فأما الخبير الأول الذى استدعى للادلاء برأيه فهو الدكتور هرتسنشتوبه . انه عجوز فى السبعين من عمره ، أشيب أصلع ، مربوع القامة قوى البنية ، كان الناس فى مدينتنا يعتبرونه ويحترمونه كثيراً . كان صاحب ذمة وضمير ، طيب القلب عالى الأخلاق ، ويبدو أنه كان من ملة الهيرنهوتر أو من «الاخوان المورافيين» ، اذا لم يخطئْ ظنى . وهو يقيم فى مدينتنا منذ سنين طويلة وكان على جانب عظيم من الوقار والمهابة . وكان رجلاً انسانياً كريماً ، فهو يعالج الفقراء والفلاحين

مجاناً ، ويعودهم فى أكواخهم ويترك لهم مالاً لشراء الأدوية . ولكنه كان فى الوقت نفسه عنيداً عناد بغل . كان لا يمكن أن يُزحزح قيد شعرة عن رأى قام فى ذهنه . ومهما يكن من أمر ، فلقد كان جميع الناس يعلمون أن الاخصائى الشهير الآتى من موسكو قد استطاع خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التى قضاها فى مدينتنا أن يُفصح مراراً عن آراء تطعن فى كفاءات الدكتور هرتسنشتوبه الطبية طعناً بالغاً جارحا . ورغم أن هذا الاخصائى قد تقاضى خمسة وعشرين روبلاً على الاقل عن كل كشف طبى أجراه ، فما كان أكثر الذين ابتهجوا فى مدينتنا لقدومه ، وانتهزوا الفرصة لزيارته واستشارته غير ضانين بالمال . وطبيعى أن جميع هؤلاء المرضى كان قد عالجهم الدكتور هرتسنشتوبه قبل ذلك ، فكان الاخصائى الشهير ينتقد المعالجة التى وصفها لهم الدكتور هرتسنشتوبه نقداً لاذعاً بألفاظ قاسية جداً ، حتى لقد صار آخر الأمر يبادر المرضى الوافدين اليه بهذا السؤال : «هيه ! أليس الدكتور هرتسنشتوبه هو الذى صيّرك الى هذه الحال ؟ قه قه قه ! . .» وقد علم الدكتور هرتسنشتوبه طبعاً بما كان يقوله عنه هذا الطبيب الاخصائى . وها هم أولاء الأطباء الثلاثة يمثلون أمام المحكمة واحداً بعد واحد كخبراء ! أكد الدكتور هرتسنشتوبه دفعةً واحدة أن «المتهم لا يملك كامل قواه العقلية ، وأن هذا يُرى من أول نظرة» . وحين بسط آراءه فى هذا الموضوع (وهى آراء لن أعرضها هنا) أضاف يقول أن الشذوذ النفسى الذى يعانى منه المتهم يتجلى لا فى طائفة كبيرة من الأعمال التى سبق ان ارتكبها فحسب ، بل يمكن أن يلاحظ أيضا — وهذا أهم — فى سلوكه فى جلسة المحاكمة هذه نفسها . فلما طُلب الى الدكتور

هرتسنشتوبه أن يقول أين هو الشذوذ فى وضع المتهم الآن ، أجاب الطبيب العجوز قائلاً بالسذاجة المعهودة فيه ان المتهم حين دخل القاعة «كان يمشى مشية غريبة لا تلائم الظروف التى هو فيها ، فهو يسير قدماً لا يلوى على شىء ، كما يسير جندى ، وهو يحدق بعينيه تحديقاً ثابتاً لا ينظر يمنةً ولا يسرة ، مع أن الشىء الطبيعى السوى بالنسبة اليه هو أن ينظر يسرةً ، حيث توجد النساء من الحضور ، لأنه رجل يحب الجنس اللطيف حباً عظيماً ، فلا بد أن يقيم وزناً لما عسى أن يكون رأى السيدات فيه حينذاك» . وكان الطبيب العجوز يتكلم بلغة خاصة به . يحسن أن نذكر أنه كان يتكلم اللغة الروسية بانطلاق وتدفق ، ولكن كل جملة من جمله كان فيها شىء ألمانى لا أدرى ما هو ، وذلك أمر لم يكن يقلقه البتة ، لأنه تعود طوال حياته أن يعتقد أنه يتقن الروسية اتقاناً كاملاً ، وأن روسيته «خير من روسية الروس أنفسهم» . وكان يحب كثيراً أن يستشهد بالأمثال الروسية ، وكان يؤكد فى كل مرة أن الأمثال الروسية أجمل وأبلغ من أمثال سائر الشعوب . يجب أن أضيف الى هذا أنه كثيراً ما كان يتفق له أثناء الحديث — عن ذهول فى أغلب الظن — أن ينسى ألفاظاً هى أكثر الألفاظ استعمالاً ، ألفاظاً يعرفها حتماً ، ولكنها اختفت من ذهنه على حين فجأة . على أن هذا نفسه كان يحدث له حين يتكلم بالألمانية أيضا . وهو فى اللحظات التى يحدث له فيها ذلك ، يأخذ يحرك يده أمام وجهه كمن يريد أن يلتقط الكلمة التى طارت ، وما من أحد يستطيع عندئذ أن يجبره على مواصلة كلامه قبل أن يهتدى الى اللفظة الضائعة .

أثارت الملاحظة التى ذكرها عن المتهم حين قال انه

كان عليه أن ينظر الى جهة السيدات لحظة دخوله قاعة المحكمة ، أثارت فى جمهور النساء دمدمات ضاحكة . كانت النساء جميعاً يحببن عجوزنا جداً . وكانت تعرف أنه — على كونه عازباً — قد عاش طوال حياته عفاً طاهراً ، وأنه يعد النساء كائنات عليا ومخلوقات مثالية . ولذلك بدت ملاحظته هذه التى لم تكن تُتوقع منه ، بدت لجميع الناس مثيرةً للدهشة والاستغراب .

وجاء دور سؤال الاخصائى القادم من موسكو ، فصرّح بلهجة قاطعة والحاح أن حالة المتهم العقلية هى فى رأيه حالة غير سوية ، بل هى «غير سوية الى أقصى حد» . وتكلم فى أسهاب وتفقه عن حالة «الخلل العصبى» ، وعن مرض «المانيا» ، وبرهن بالاستناد الى المعلومات المتجمعة أن المتهم كان قبل اعتقاله ببضعة أيام قد أصيب بحالة خلل عصبى ؛ فاذا سلمنا جدلاً بأنه كان حين ارتكابه الجريمة واعياً شاعراً بما يفعل ، فمما لا شك فيه أنه فعل ما فعله بغير ارادة تقريباً ، لأنه لا يملك القدرة على مقاومة الاندفاع المرضى الذى كان قد سيطر عليه واستبد به . كذلك قال الاخصائى شارحاً . ثم اضاف يقول : على أن المريض كان مصاباً ، عدا الخلل العصبى ، بداء «المانيا» ، وهذا يجعلنا نتنبأ بتطور سيؤدى به الى الجنون الكامل (ملاحظة : اننى أنقل هنا بلغتى أنا ، أقوال ذلك الطبيب الاخصائى فى الامراض العقلية الذى استعمل عندئذ لغة متخصصة فيها كثير من التفقه) . وتابع الطبيب كلامه فقال : «لقد كان يتصرف فى جميع الاحوال تصرفاً يخالف العقل والمنطق . لن أقول شيئاً عما لم أره بنفسى ، أعنى الجريمة وتلك الدراما كلها ؛ ولكن يجب علىَّ أن أذكر مع ذلك أن نظرته ، أمس الأول ، أثناء حديث جرى بينى وبينه ،

كان فيها جمود غريب ليس له تفسير . يضاف الى هذا أنه كان يضحك بدون أى سبب يدعو الى الضحك . وقد لاحظت لديه حنقاً مستمراً غير مفهوم ، كما لاحظت أنه يستعمل كلمات غريبة مثل «برنار» ، «ايطيقا» ، وغير ذلك من ألفاظ لا محل لها اطلاقاً» . على أن أبرز شىء يتميز به مرض «المانيا» لدى المتهم ، فى نظر الطبيب ، هو أن المتهم كان لا يستطيع أن يواجه مشكلة الثلاثة آلاف روبل التى يعتقد أن أباه حرمه منها ، والا يُصاب بحالة شديدة من الاندفاع ، بينما يتكلم عن اخفاقات أخرى أو اهانات أخرى تحملها أثناء حياته دون أى اضطراب ظاهر . هذا ويخرج من معلومات أخرى تم الحصول عليها أن المتهم كان يستعر حنقه كلما ذُكرت هذه الثلاثة آلاف روبل ، رغم أنه ، على ما يشهد به الشهود ، لا يعد متهافتا على المنفعة ولا يعد طماعاً . ثم أضاف الطبيب الوافد من موسكو يقول بلهجة ساخرة خاتماً كلامه : أما عن رأى زميلى العالم الذى يذهب الى أن المتهم كان ينبغى له عند دخوله القاعة ان ينظر الى جهة السيدات لا أن ينظر الى أمام ، فاننى أعتقد أن من واجبى أن أؤكد ، بصرف النظر عما تتسم به هذه الملاحظة من طابع الملاحة الفكهة ، أن هذه الملاحظة خطأ فاحش . فاننى على موافقتى لرأى زميلى المحترم فى أن المتهم ما كان ينبغى له أن ينظر الى أمام ، أثناء دخوله قاعة المحكمة التى سيتقرر فيها مصيره ، وعلى موافقتى لرأى زميلى المحترم فى أن فعلة المتهم هذه يجب أن تعد عرضاً من أعراض حالته العقلية المختلة ، أقول اننى من جهتى أرى أن المتهم كان يجب عليه لا أن ينظر يسرةً الى جهة السيدات ، بل أن ينظر يمنةً الى جهة محاميه باحثاً عنه فى

تلك اللحظة بعينيه ، لأن محاميه هو الآن أمله الوحيد ، ولأن مصيره كله متوقف على دفاع هذا المحامى» . أعرب الطبيب الاخصائى عن رأيه هذا بلهجة قاطعة جازمة لا تُرد . غير أن الخلاف المضحك الذى قام بين الطبيبين الخبيرين انما وصل الى أوجه وبلغ ذروته حين جاء دور الدكتور فارفنسكى الذى سئل عن رأيه آخر من سئل من الأطباء ، فأخذ يدلى بآرائه ويقدم شروحه . قال هذا الطبيب أن المتهم هو ، الآن كما كان فى الماضى على السواء ، فى حالة طبيعية تماماً ؛ ولئن كان قبل اعتقاله فى حالة عصبية ، وكان مضطرباً اضطراباً شديداً ، فذلك كله يمكن تعليله بأسباب طبيعية تماماً ، كالغيرة ، والغضب ، والاسراف المستمر فى الشراب وما الى ذلك . فهذه الحالة العصبية ليس فيها أى شىء من «الخلل العصبى» الذى جىء على ذكره ؛ أما فيما يتعلق بالمسألة التى أثيرت حول الجهة التى كان ينبغى للمتهم أن ينظر اليها لحظة دخل القاعة ، فقد أعلن هذا الخبير الثالث أنه كان على المتهم «بحسب رأيه المتواضع» أن ينظر الى أمام ، كما فعل تماماً ، ذلك لأن رئيس المحكمة وأعضاءها ، وهم الذين يتوقف عليهم مصيره ، كانوا قبالته فى تلك اللحظة . «وهو ، اذ نظر الى أمام فعلاً ، قد برهن على أنه فى حالة نفسية سليمة بريئة من المرض» . بهذا ختم الطبيب الممارس الشاب رأيه «المتواضع» .

فصرخ ميتيا من مكانه يقول :

— مرحى يا حكيم ! هكذا تماماً !

وأُسكت ميتيا طبعا ، ولكن رأى الطبيب الشاب أحدث أثرا حاسماً فى أعضاء المحكمة وفى جمهرة الحضور على السواء ، لأن جميع الناس فى مدينتنا قد انحازوا الى رأيه ، كما ظهر

ذلك فيما بعد . على أن الدكتور هرتسنشتوبه ، حين استُجوب كشاهد ، أدلى بأقوال خدمت قضية ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد البتة . ان الدكتور هرتسنشتوبه ، وهو يقطن مدينتنا منذ عهد بعيد ويعرف أسرة كارامازوف من زمان طويل ، قدَّم معلومات تساعد الاتهام كثيراً ، ولكنه أضاف يقول وكأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة :

— ومع ذلك فان هذا الفتى المسكين كان يمكن أن يستحق مصيراً أفضل ، لأنه كان فى طفولته طيب القلب ، وبعد طفولته أيضا ، أنا أعرف هذا . على أن المثل الروسى يقول : «حسن أن يكون المرء ذا عقل ، ولكنْ أحسنُ من ذلك أن يزوره رجل آخر ذو عقل ، لأن عقلين اثنين خير من عقل واحد . . .»

— عقل حسن وعقلان أحسن .

كذلك تدخل وكيل النيابة نافد الصبر وهو يعرف طريقة الطبيب العجوز فى بطء الكلام وجرِّ الألفاظ دون أن يعبأ بأثر ذلك فى مستمعيه ودون أن يحفل بنفاد صبرهم عند الاصغاء اليه حتى لقد كان يبدو أنه يقدر قدراً كبيراً مزاحاته الجرمانية الثقيلة الضخمة ، المشبعة بالابتهاج والرضى عن النفس . وكان الى ذلك يهوى التندر .

استأنف الطبيب العجوز كلامه فقال معانداً :

— نعم ، ذلك هو ما قلته . . عقل واحد حسن وعقلان أحسن بكثير . ولكن هذا الشاب لم يزره رجل عاقل آخر ، فمضى عقله هو . . . مضى يـ . . . مضى يعمل ماذا ؟ . . . نسيت الكلمة . . . الكلمة التى تعبِّر عما مضى يعمله عقله . نسيت تلك الكلمة (كذلك ردَّد وهو يحرك يده أمام عينيه)

آ . . . نعم . . . تذكرت . . . مضى عقله شباتسرين .

— يتنزه ؟

— نعم يتنزه . ذلك ما قلته أيضا . مضى عقله يتنزه ، فوصل الى مكان عميق حيث أضاع نفسه . ولكنه كان فتى نبيلاً حساساً . أوه . . . اننى أتذكر يوم كان صغيراً جداً قد أهمله أبوه فهو يجرى فى فناء المنزل حافى القدمين لا يكاد يمسك سرواله الا زر واحد . . .

وهنا اختلج صوت العجوز الشريف برنة انفعال صادق . فارتعش فيتوكوفتش اذ أوجس مواتاة الفرصة الحسنة ، وسرعان ما تشبث بهذا الشاهد .

واصل الطبيب العجوز كلامه فقال :

— نعم ، نعم ، كنت ما أزال شاباً فى ذلك الوقت . . . كان عمرى . . . نعم . . . كان عمرى خمسة وأربعين عاماً . وكنت قد استقررت فى هذه المدينة منذ فترة قصيرة . لقد أشفقت على الصبى وتساءلت لماذا لا أشترى له رطلاً من . . . نعم ، رطلاً من . . . ولكن رطلاً مماذا ؟ نسيت الكلمة . . . ما اسم ذلك النوع ؟ هو شىء من تلك الأشياء التى يحبها الأطفال كثيرا . . . هوه ! كيف نسيت ؟ . . . كيف نسيت ؟ . . . (وحَّرك الطبيب يديه أمام عينيه من جديد) . . . هو ينبت على الأشجار ، على الشجيرات فيقطف ويوزَّع على الجميع . . .

— من تفاح ؟

— أوه ! لا ، لا ! رطلاً ، قلت رطلاً . التفاح يباع بالعشرة لا بالرطل . . . هو وافر جداً ، وهو صغير . . . تضعه فى فمك فتضغط عليه بأسنانك فيطق . . .

— بندق ؟

— نعم ، بندق ، ذلك بعينه ما قلته أنا . . .

كذلك وصل الطبيب العجوز قوله هذا بقوله السابق هادئاً كل الهدوء ، كأنه لم يبحث عن تلك الكلمة ، فتابع يقول :

— جئت الصبى برطل من البندق ، لأن أحداً لم يكن قد جاءه بشىء منه قبل ذلك . رفعت اصبعى وقلت له : «اسمع أيها الصبى الصغير العزيز ، [1] Gott der Vater . . .» فضحك وردَّد : [2] «Gott der Vater – Gott der Sohn» ثم ردَّد ضاحكاً مزقزقاً من جديد : «Gott der Sohn: [3] Gott der heilige Geist» – فضحك وطفق يردد عدة مرات Gott der heilige Geist . ثم انصرفت . ومررت قرب الصبى غداة غد . فصرخ يقول : ياعم ! Gott der Vater Gott der Sohn » ولكنه نسى Gott der heilige Geist فذكرته بها ، ورثيت لحاله وأشفقت عليه من جديد . ولكنهم نقلوه من هذه المدينة فلم أره بعد ذلك . وانقضت ثلاثة وعشرون عاماً ، ففيما أنا فى عيادتى ذات صباح ، وكان شعرى قد ابيضَّ ، اذا بى أرى شاباً مزهر الوجه زاهى المحيا يدخل علىَّ . ما كان لى أن أعرف من هو هذا الشاب . وها هو ذا يرفع أصبعه ويقول ضاحكاً : «Gott der Vater, Gott der Sohn und Gott der heilige Geist!

لقد وصلت الى هذه المدينة منذ قليل ، وأحب أن أشكر لك

---

[1] باسم الاله الأب (بالألمانية فى الأصل) .

[2] باسم الاله الأب ، باسم الاله الابن (بالألمانية فى الأصل) .

[3] باسم الاله الابن ، باسم الاله روح القدس (بالألمانية فى الأصل) .

45-1306

رطل البندق الذى أهديته الىَّ فى الماضى . ما كان أحد قد أهدى الىَّ شيئاً منه قبلئذ . أنت وحدك أهديت الى رطلاً من بندق» . تذكرت عندئذ شبابى الغابر السعيد ، وتذكرت الصبى الصغير الذى كان يجرى فى فناء الدار حافى القدمين . وتأثر قلبى فقلت له : «أنت شاب نبيل النفس كريم القلب ، لأنك لم تنسَ رطل البندق الذى جئتك به فى طفولتك» . وقبَّلته ، وباركته باكياً . فكان يضحك ، ويبكى أيضا . ان الروس كثيراً ما يضحكون حيث يحسن البكاء . ولكنه بكى ، أنا متأكد من ذلك ، رأيته يبكى . والآن . واحسرتاه ! هو ذا صاح ميتيا من مكانه يقول :

— والآن أبكى أيها الالمانى ! نعم أبكى أيها الانسان الطيب !

مهما يكن من أمر ، فان هذه القصة الصغيرة قد أحدثت فى الحضور أثراً طيباً . غير أن الاقوال التى أدلت بها كاترينا ايفانوفنا والتى سأتحدث عنها بعد قليل ، هى التى خدمت قضية ميتيا خاصة . وفى وسعنا أن نقول على وجه العموم ان الحظ أخذ يبتسم فعلاً لميتيا منذ بدأ توافد شهود[1] à decharge الذين استدعاهم المحامى ، الأمر الذى لم يكن يتوقعه المحامى نفسه ، وهذا ما يلفت النظر أكثر من أى شىء آخر . على أن أقوال أليوشا قد سُمعت قبل أقوال كاترينا ايفانوفنا . وقد تذكر أليوشا على حين فجأة واقعةً يبدو أنها يمكن أن تكون برهاناً وضعياً يفيد ميتيا ، ويدمّر نقطة من أهم النقاط التى يرتكز عليها الاتهام .

---

[1] النفى (بالفرنسية فى الأصل) .

الحظ يبتسم لميتيا

تغير الحظ كأنما بمصادفة ، دون أن يكون أليوشا قد سعى الى هذه النتيجة . لم يُحلَّف أليوشا اليمين . وانى لأتذكر أن الطرفين كليهما قد أحسنا استقباله وشعرا نحوه بعطف ومودة منذ الأقوال الأولى من شهادته . ولعل القارئ يدرك أن سمعة أليوشا الحسنة كانت قد سبقته الى قاعة المحكمة . تكلم أليوشا بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، ولكن ما يشعر به نحو أخيه البائس من عاطفة حارة قد تدفق فى أقواله . قال فى الجواب عن سؤال ألقى عليه ان أخاه ان يكن عنيفاً شديد الاندفاع فى أهوائه ، فانه فى الوقت نفسه نبيل القلب كريم النفس سخى جواد قادر على التضحية حين تجب التضحية ولكن أليوشا اعترف أن توله أخيه بغرام جروشنكا ، وتنافسه مع أبيه ، قد جعلاه فى الأيام الأخيرة صعب المراس ، ووضعاه فى حالة لا تطاق وفى مقابل ذلك استاء أليوشا استياءً شديداً من الفكرة القائلة بأن أخاه يمكن أن يقتل بدافع الطمع فى المال ، ولكنه اعترف من جهة أخرى أن هذه الثلاثة آلاف روبل كانت قد ولّدت فى نفس ميتيا شيئاً يشبه أن يكون مساً ، فهو دائب التفكير فيها ، وهو يعدها جزءاً من ميراثه الذى حرمه أبوه منه زوراً واختلاساً ، وهو على كونه زاهداً فى الربح قليل الاهتمام بالمنفعة ، لا يستطيع أن يتكلم فى أمر هذه الثلاثة آلاف روبل دون أن يستبد به حنق شديد وغضب ملتهب . أما التنافس الذى أشار اليه وكيل النيابة بين «المرأتين» ، أى بين جروشنكا

وكاترينا ايفانوفنا ، فقد تكلم عنه أليوشا متهرباً متملصاً ، بل رفض حتى أن يجيب عن سؤال أو سؤالين .

سأله وكيل النيابة :

— ألم يذكر لك أخوك ، على الأقل ، أنه كان ينوى أن يقتل أباه ؟

ثم أضاف :

— تستطيع الامتناع عن الاجابة اذا كنت تؤثر الامتناع .

قال أليوشا :

— لم يقل لى ذلك على نحو مباشر .

— أقاله اذن على نحو غير مباشر ؟ كيف قاله ؟

— حدَّثنى عن الكره الذى يحمله لأبينا ، وعن خوفه من أنه قد لا يستطيع أن يمسك عن قتله . . . ذات يوم . . . فى لحظة اندفاع شديد . . . فى لحظة تقزز . . .

— هل صدَّقته حين سمعته يقول هذا الكلام ؟

— أخشى أن اقول اننى صدقته . ولكننى كنت دائم الاقتناع بأن عاطفة عليا ستنقذه فى اللحظة الحاسمة ، وقد انقذته فعلاً لأنه **ليس هو** الذى قتل أبى .

هكذا ختم أليوشا كلامه بصوت ثابت قوى ترجَّع الى آخر القاعة .

انتفض وكيل النيابة كحصان فى ساحة القتال سمع صوت النفير ؛ وقال :

— اطمئن الى اننى اثق ثقة تامة بصدق اقتناعك ، دون أن انسبه الى ما تشعر به نحو أخيك المسكين من حب . وقد اطلعنا من التحقيق الأولى على نظرتك الخاصة الى الأحداث المفجعة التى جرت فى أسرتك ؛ ولكننى لا أكتمك أن رأيك

يبدو لنا غريباً الى أبعد حدود الغرابة ، وأنه يناقض جميع الشهادات الأخرى التى جمعها الاتهام . ذلك هو السبب فى اننى أرى من واجبى أن أطلب اليك ملحاً أن تذكر لنا الأساس الذى تبنى عليه رأيك حين تؤكد باقتناع جازم أن أخاك برىء ، وحين تسند هذه الجريمة الى شخص آخر سبق لك أن أسميته على نحو مباشر فى التحقيق التمهيدى .

قال أليوشا بصوت هادئ عذب :

— فى التحقيق التمهيدى ، اقتصرتُ على الاجابة عن الأسئلة التى أُلقيت علىَّ ، ولم أتهم سمردياكوف من تلقاء نفسى .

— ولكنك أسميته ، أليس كذلك ؟

— ذكرته مستنداً الى أقوال أخى دمترى . لقد ذُكر لى ، قبل ذلك الاستجواب ، ما قد حدث عند اعتقال أخى ، وقيل لى ان أخى اتهم هو نفسه سمردياكوف حينذاك . اننى مقتنع اقتناعاً كاملاً ببراءة أخى . واذا لم يكن هو القاتل ، فقد لا يكون القاتل الا . . .

— الا سمردياكوف ؟ لماذا سمردياكوف بالذات ؟ وما الذى يحملك على هذا الاقتناع كله ببراءة أخيك ؟

— لا أملك الا أن أصدقه . أنا أعلم أنه لن يكذبنى بحال من الأحوال . ثم اننى رأيت فى عينيه أنه كان يقول الحقيقة .

— فى عينيه فقط ؟ أليس لديك براهين أخرى ؟

— ليس لدىَّ براهين أخرى .

— وبالنسبة الى اتهام سمردياكوف ، أليس عندك من البراهين أيضاً الا أقوال أخيك وتعبير وجهه ؟

— لا ، ليس لدىَّ براهين أخرى .

هنا عدل وكيل النيابة عن الاستمرار فى استجواب أليوشا . وقد أثارت أجوبة أليوشا كثيراً من خيبة الأمل لدى الجمهور . كان الناس فى مدينتنا قد تكلموا عن سمردياكوف كثيراً قبل المحاكمة وكان هناك أشخاص سمعوا شيئاً ، واشخاص ممن يزعمون الاطلاع على خفايا الأمور ، قد ألقوا فى روع الناس أن أليوشا جمع أدلة قوية كل القوة تقرر براءة أخيه وتثبت أن الخادم هو الجانى . فاذا بكل شىء يتبدد الآن . ان أليوشا لم يأت بأى عنصر حاسم ، ولم يجىء الا باقتناع معنوى وهو أمر طبيعى عند أخى المتهم .

عندئذ جاء دور فيتوكوفتش لاستجواب الشاهد . بدأ المحامى بسؤال أليوشا متى حدثه المتهم عن كرهه أباه وعن شعوره بأنه قد يقتله ، وهل أفضى اليه بهذه المسارات أثناء لقائهما الأخير قبل وقوع المأساة ؟

وفيما كان أليوشا يجيب عن هذا السؤال ، اذا هو يرتعش فجأة كأنه تذكر شيئاً ما فى تلك اللحظة نفسها وقال :

— اننى اتذكر الآن شيئاً كنت قد نسيته تماماً ، ولم يكن واضحاً لى آنذاك ، أما الآن . . .

وأخذ يقص بكثير من الحرارة والانتعاش ، كأن فكرة مفاجئة قد ومضت فى ذهنه ، كيف أن أخاه ، أثناء آخر لقاء له معه على طريق الدير قرب شجرة فى المساء ، قد لطم صدره عدة مرات ، قد لطم «أعلى صدره» عدة مرات ، مردداً بالحاح أنه يملك الوسيلة لاسترداد شرفه ؛ وأن هذه الوسيلة موجودة هنا ، فى هذا الموضع ، على الصدر . . ومضى أليوشا يقول : «ظننتُ عندئذ أنه حين لطم صدره على ذلك

النحو كان يشير الى قلبه . قدَّرت أنه كان يرى أن قلبه يملك من القوة ما يكفيه لاتقاء عارٍ رهيب يهدده ، عار لا يجرؤ أن يعترف لى به . أعترف أننى افترضت أنه كان يُلمع الى أبيه ويلطم صدره لشعوره بالخجل والخزى من أنه اندفع يعامل أباه بالعنف . ولكننى أتذكر الآن أنه انما كان يشير الى شىء ما على صدره ، حتى اننى خطر ببالى فى تلك اللحظة أن القلب ليس هذا موضعه ، فانما يوجد القلب تحت ذلك ، وهو يلطم من صدره موضعاً أعلى كثيراً من موضع القلب ؛ كان يلطم هنا ، تحت العنق ، ويظل يشير الى ذلك الموضع نفسه دائماً . لقد بدت لى افكارى غبية حينذاك فلم أعبأ بها ، ولكننى أتساءل الآن فجأة ألم يكن يشير لى الى الكيس الصغير الذى خاطه على الألف وخمسمائة روبل ؟ . . .»

صاح ميتيا من مكانه يقول :

— هو ذاك تماماً ! لقد حزرتَ يا أليوشا . هو ذاك كنتُ ألطم الكيس الصغير فى تلك اللحظة .

اندفع فيتوكوفتش فى لهفة يهدئ ميتيا متوسلاً اليه أن يسكن ويطمئن ؛ ثم التفت نحو أليوشا يتابع الاستماع الى شهادته متشبثاً بها تشبثاً قوياً . تحمس أليوشا لذكراه هذه ، فعرض فكرته بحرارة ، قائلاً ان العار الذى حدثه عنه ميتيا ربما كان قوامه أن ميتيا ، رغم أنه يملك الألف وخمسمائة روبل ، أى نصف المبلغ الذى يدين به لكاترينا ايفانوفنا ، ورغم أن فى وسعه أن يردَّ اليها هذا الجزء من دينها عليه ، قد آثر أن لا يرد المبلغ ، وذلك ليستخدمه فى غرض آخر هو أن يملك ما يمكنه من الرحيل مع جروشنكا متى وافقت جروشنكا على أن تتبعه .

وصاح أليوشا يقول بحماسة شديدة :

— نعم نعم ، هو ذاك ، هو ذاك . لقد ذكر لى أخى فى ذلك المساء ان فى وسعه أن يتخلص من نصف ذلك العار ، نعم من نصفه ، نصفه ، لقد قال لى ذلك (ردَّد أليوشا كلمة **نصفه** مراراً) . ولكن ضعف ارادته يمنعه من الاقدام . . . كان يعلم مقدما أنه لن يستطيع الاقدام ، أنه لا يملك القوة اللازمة لذلك !

سأله فيتوكوفتش بنهم :

— أنت تتذكر تذكراً واضحاً جلياً أنه لطم من صدره ذلك الموضع بعينه تماماً ؟

— أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جلياً ، لأننى تساءلت عندئذ : «لماذا يلطم من صدره ذلك الموضع العالى مع ان القلب يقع تحت هذا الموضع ؟» . وأتذكر أن هذا التساؤل بدا لى غبياً . . . أتذكر ذلك تذكراً واضحاً جداً . كان هذا خاطراً خاطفاً ومضى فى ذهنى ومضاً . وبسبب ذلك التساؤل انما تذكرت الآن هذه الواقعة . كيف أمكن أن أنساها حتى الآن ! واضح أنه كان يشير عندئذ الى الكيس الصغير برهاناً على أن فى وسعه أن يردَّ الألف وخمسمائة روبل ، ولكنه لن يفعل ، وبعد ذلك ، حين قُبض عليه فى موكرويه ، صرخ يقول — أنا أعلم هذا فقد ذُكر لى — صرخ يقول انه يرى أن أكبر عار فى حياته هو أنه رغم أنه كان يملك القدرة على أن يردَّ الى كاترينا ايفانوفنا نصف دينها (نعم ، ذكر كلمة النصف) ، فلا يكون فى نظرها بعد ذلك لصاً ، لم يعزم أمره على ردّ المبلغ ، مؤثراً أن يُعدَّ لصاً فى نظرها على أن يتنازل عن المال . ومع ذلك ما أشد ما كان يعذبه هذا الدَيْن ! أوه ! ما أشدّ

ما كان يعذبه !

بهذا ختم أليوشا كلامه .

وقد تدخل وكيل النيابة طبعاً ، فرجا أليوشا أن يصف المشهد ثانيةً وألحَّ مراراً كثيرة من أجل أن يعرف هل صحيح أن المتهم كان يبدو مشيراً الى شىء موجود على صدره حين لطم صدره . لعله كان لا يزيد على أن يضرب صدره بقبضة يده غضباً ؟

هتف أليوشا يقول :

— لا ، لا ، انه لم يضرب صدره بقبضة يده . وانما كان يشير الى الموضع بأصابعه ، بأصابعه ، وكان يريني الموضع ، هنا ، فوق ، عالياً جداً . . . كيف أمكن أن أنسى هذا ، حتى هذه اللحظة ؟

عندئذ سأل الرئيس ميتيا هل لديه ملاحظات يبديها فى أمر هذه الشهادة ، فأكد ميتيا أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، وأنه قد أشار بيده الى الألف وخمسمائة روبل التى كان يحملها معلقةً فى صدره ، تحت الرقبة بقليل . وصرَّح بأن هذا كان فى نظره هو العار . وهتف يقول : «ذلك عار لا يخطر ببالى أن أنكره ، فهو أحقر عمل قمت به فى حياتى ! كان فى امكانى أن أردَّ المال ، ولكننى لم أفعل ، آثرت أن تعدنى لصاً ، ولم أرجع المال . وأحقر ما فى الأمر أننى أعلم مقدماً أننى لن أردَّ المال . صدق أليوشا . شكراً يا أليوشا !» .

هنا انتهى استجواب أليوشا . ان أهمَّ وأبلغ عنصر فى شهادة أليوشا هو أنه اكتشفت أخيراً واقعة يمكن أن تكون ولو برهاناً ضئيلاً ، ولو شبه برهان على صدق حكاية ذلك الكيس

والألف وخمسمائة روبل التى يضمها . فمن المحتمل اذن أن لا يكون ميتيا قد كذب أثناء التحقيق الأولى حين صرّح ، فى موكرويه ، أن هذه الألف وخمسمائة روبل «هى له» .

شعر أليوشا بسعادة . ومضى يجلس فى المكان الذى دُلَّ عليه وقد احمر وجهه من الانفعال ، ولبث بضع دقائق يدمدم بصوت خافت : «كيف أمكن أن أنسى هذه الواقعة ؟ كيف أمكن أن تخرج من رأسى ؟ ما أغرب أن لا أتذكرها الا الآن !» .

ودُعيت كاترينا ايفانوفنا الى الادلاء بشهادتها بعد أليوشا . فلما ظهرت فى القاعة اجتاح الحضور انفعالٌ قوى . فالسيدات وجهن نحوها نظاراتهن ، والرجال اضطربوا فى أماكنهم ، ونهض بعضهم ليحسنوا النظر اليها . وقد رُوى فيما بعد أن ميتيا امتقع لونه فى تلك اللحظة فجأة وشحب «مثل منديل» . تقدمت كاترينا ايفانوفنا ، متشحة كلها بالسواد ، الى المكان الذى دُلَّت عليه بتواضع وبما يشبه الخجل . ظلت قسمات وجهها هادئة ساكنة فلا شىء يشير الى انها مضطربة . غير أن عزيمةً لا تنثنى كانت تسطع فى عينيها الدكناوين المهيبتين . وقد أكدَّ أشخاص كثيرون فيما بعد أنها كانت جميلة جمالاً خاصاً فى تلك اللحظة . كانت تتكلم بصوت خافت ، ولكنه واضح متميز ، فكان الناس يسمعونها فى آخر القاعة . وكانت تتحدث هادئة ، أو كانت على الأقل تحاول أن تظل هادئة . استجوبها الرئيس بكثير من الحرص وأظهر لها كثيراً من التبجيل ، كأنه كان يخشى أن يمس «أوتاراً أخرى» ، ويريد أن يبرهن على احترامه لتعاسة شديدة . ولكن كاترينا ايفانوفنا أسرعت

تؤكد بقوة ، منذ البداية ، جواباً عن سؤال أُلقى عليها ، أنها كانت خطيبة المتهم «الى اللحظة التى هجرنى فيها من تلقاء نفسه» . كذلك أضافت تقول بصوت خافت . فلما سُئلت عن الثلاثة آلاف روبل التى عهدت الى ميتيا أن يرسلها الى قريباتها بالبريد ، أجابت بحزم وثبات قائلة : «أنا لم أطلب منه أن يرسل هذا المبلغ فوراً . لقد أدركت أنه كان فى حاجة ماسة الى المال . . . فى ذلك الأوان . . . فأعطيته تلك الثلاثة الآف روبل ورجوته أن يرسلها فى غضون شهر اذا شاء . ولقد أخطأ اذن حين عذَّب نفسه ذلك التعذيب كله بسبب هذا الدين . . .» .

لن أنقل بالتفصيل جميع الأسئلة التى أُلقيت عليها ، وجميع الأجوبة التى أجابت بها ، وانما سأقتصر على اجمال الأمور الأساسية فى شهادتها . واصلت كاترينا ايفانوفنا كلامها فقالت :

— كنت مقتنعةً اقتناعاً جازماً بأنه سيرسل هذه الثلاثة آلاف روبل متى حصل على هذا المبلغ من أبيه . أنا لم يساورنى أى شك فى نزاهته وأمانته يوماً . . . فى أمانته البالغة . . . فى شئون المال . . . لقد كان واثقاً ثقة مطلقة بأنه سيقبض من أبيه هذه الثلاثة آلاف روبل ، وقد حدثنى فى ذلك مراراً وتكراراً . كنت لا أجهل أن بينه وبين أبيه خلافات ونزاعات ، وكنت مقتنعةً وما أزال أن أباه قد حرمه من حقه . على أننى لا أذكر أنه نطق بأقوال يهدد فيها أباه . بحضورى على الأقل لم يقل شيئاً . اننى لم أسمعه يهدِّد ويتوعد . ولو قد جاءنى فى تلك الآونة اذن لطمأنته فى شأن تلك الثلاثة آلاف روبل الشقية التى كان مديناً بها لى . ولكنه لم يعد الىَّ منذ ذلك

الحين . . . ورأيتنى أنا نفسى . . . فى وضع . . . لا يمكننى من أن أبادر الى استدعائه .

ثم أضافت تقول فجأةً وقد دوّت فى صوتها عندئذ نبرة قوية :

— ثم اننى ما كان يحق لى بحال من الأحوال أن أتشدد معه فى موضوع هذا الدين . فأنا نفسى قد أخذت منه فى الماضى مبلغاً أكبر كثيراً من تلك الثلاثة آلاف روبل ، وقد قبلت منه ذلك المبلغ عندئذ رغم اننى لم أكن أستطيع أن أتنبأ فى ذلك الحين أننى سأصبح فى يوم من الأيام قادرة على أن أردَّه اليه . . .

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك وقد ألمت بصوتها نبرة تحد . وفى تلك اللحظة نفسها جاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته .

قال فيتوكوفتش بحذر المحامى ، وهو يوجس فوراً الفائدة التى سيجنيها من هذه الشهادة :

— لم يحدث ذلك فى هذه المدينة ، اذا صدق فهمى ، وانما حدث فى بداية علاقاتكما ، أليس كذلك ؟

(يجب أن نذكر بين قوسين ما يلى : رغم أن المحامى قد استدعى من بطرسبورج بمبادرة كاترينا ايفانوفنا تقريباً ، فلقد كان يجهل كل شىء عن مسألة الخمسة آلاف روبل التى أعطاها ميتيا للمرأة الشابة فى المدينة الأخرى ، وكان يجهل كل شىء عن «التحية الساجدة» التى حيَّاها بها عندئذ . ان كاترينا ايفانوفنا لم تحدث المحامى عن هذا الأمر واخفته عنه . وقد يبدو هذا الكتمان من جهتها غريباً . ولكن من الممكن أن نقدر مع ذلك أنها كانت هى نفسها تجهل حتى آخر دقيقة أتكشف للمحكمة عن تلك الواقعة أم لا ، وكانت تنتظر نوعاً من الالهام) .

لا ، لن أستطيع فى يوم من الأيام أن أنسى تلك اللحظات الطافحة بالتأثر ! لقد بدأت كاترينا ايفانوفنا قصتها فكشفت عن كل شىء ، كشفت عن جميع التفاصيل التى أفضى بها ميتيا الى أخيه أليوشا بصدد «التحية الساجدة» والأسباب والدوافع التى قادت خطاها ، والحالة التى كان عليها أبوها ، ومجيئها الى بيت ميتيا . ولكنها فى مقابل ذلك ، لم تذكر أن ميتيا كان قد عرض على أختها أن «ترسل اليه كاترينا ايفانوفنا لتأخذ المال» . لم تقل عن هذا كلمةً واحدة . ولكنها لم تخجل أن تؤكد أنها هى التى هرعت من تلقاء نفسها الى بيت ضابط شاب آملةً لا أدرى ماذا . . . للحصول منه على مال . كانت تلك لحظات رهيبة . شعرتُ ببرد يسرى فى ظهرى وأخذت أرتعش وأنا أصغى الى كلام كاترينا ايفانوفنا . وجمد جمهور الحضور على صمت مطبق وكأنه يشرب كل كلمة من كلماتها شرباً . كان فى وضع هذه المرأة الشابة شىء لا عهد لأحد بمثله من قبل ، فما من أحد يمكن أن يتوقع حتى من امرأة تبلغ هذا المبلغ من الكبرياء والتسلط والازدراء ، أن تدلى بشهادة فيها كل هذه الصراحة التامة الكاملة ، تضحيةً وفداءً . ولماذا تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل من تضحى بنفسها هذه التضحية ؟ فى سبيل انقاذ رجلٍ خانها وأهانها ، فى سبيل أن تساهم فى انقاذه على قدر طاقتها الضعيفة ، وذلك بأن ترسم له صورة جميلة تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً حسناً ! وذلك ما حدث فعلاً : فان الصورةَ التى رسمتها ، صورةَ ضابط يهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها — أى كل ما تبقى له من ثروة — يهبها لفتاة بريئة ثم ينحنى لها احتراماً الى درجة السجود ، أقول ان هذه الصورة قد أعجبت

الجميع وفتنتهم ولكنْ . . . عصر الألم قلبى ! أحسست عندئذ أنها بذلك تعرض نفسها للأقاويل والنمائم ، (وذلك ما حدث !) . فقد أخذ أهل مدينتنا يومئون فى أحاديثهم بعد ذلك ، وهم يبتسمون ابتسامات ملأى بالغمزات الخبيثة ، الى أن القصة التى روتها المرأة الشابة لم تكن كاملة جداً ، ولا سيما فى الموضع الذى يتضمن أن الضابط تركها تنصرف «مكتفياً — فيما ادعت — بأن حيّاها ساجداً» . فأغلب الظن أنها «أسقطت» هنا جزءاً مما جرى . وقالت السيدات المحترمات فى مجتمع مدينتنا : «هبها لم تُسقط من القصة شيئاً ، هبها قالت الحقيقة كلها كاملةً ، فان هذا لا يمنع من التساؤل : هل كان يليق حقاً بفتاة فيها حشمة وحياء أن تتصرف هذا التصرف وأن تسلك هذا السلوك ، ولو لأنقاذ أبيها ؟» . كيف يمكن أن يصدِّق المرء أن كاترينا ايفانوفنا ، بما لها من ذكاء حاد وبصيرة نفاذة ، لم تتنبأ بأن أقاويل من هذا القبيل ستسعى بين الناس فى حقها ؟ لا شك فى أنها تنبأت بذلك حتماً ، ومع ذلك قررت أن تقول كل شىء ! وطبيعى أن هذه الشكوك المسيئة المهينة لم تولد الا فيما بعد . أما أثناء ادلاء كاترينا ايفانوفنا بشهادتها فان جميع الناس قد سيطر عليهم انفعال قوى حاد . فأعضاء المحكمة أصغوا الى كلام كاترينا ايفانوفنا بصمت فيه احترام حتى لكأنهم خجلون . ووكيل النيابة لم يسمح لنفسه بالقاء أى سؤال فى هذا الشأن . وفيتوكوفتش اقتصر على أن انحنى لها انحناء شديداً . أوه ! كان المحامى على وشك ان ينتصر ! ان هذه الشهادة رصيد كبير له : هل يتصور عقل أن الرجل الذى وهب الخمسة آلاف روبل الأخيرة التى يملكها ، فى وثبة كريمة من قبله ، يمكن أن يقتل

أباه ، ليلاً ، فى سبيل أن يجرِّده من ثلاثة آلاف روبل ؟ ان فى سلوك كهذا السلوك لتناقضاً لا سبيل الى فهمه . وأحسَّ فيتوكوفتش أنه يستطيع بعد الآن أن يبعد تهمة السرقة فى أقل تقدير . لقد اكتست «القضية» وجهاً جديداً ، وظهر ميتيا على حين فجأة انساناً محبباً . أما عن سلوكه هو أثناء ادلاء كاترينا ايفانوفنا بأقوالها فقد قالوا انه نهض من مكانه مرة أو مرتين ثم هوى على الاريكة من جديد وغطى وجهه بيديه وحين انتهت من الادلاء بشهادتها هتف يسألها بصوت يخالجه نشيج وهو يمد نحوها ذراعيه :

— كاتيا ، لماذا سببت هلاكى ؟

ثم أخذ ينتحب انتحاباً قوياً جداً ، لكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه ، وصاح يقول :

— الآن ضعت !

ثم سكن جامداً ، كازاً أسنانه ، ومصالباً ذراعيه على صدره . وطُلب من كاترينا ايفانوفنا أن تبقى فى القاعة ، فجلست على الكرسى الذى عُيِّن لها . كانت شاحبة اللون غاضة طرفها . وقد روى الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها أنها كانت ترتعد بكل جسمها ، كأن بها حمَّى . واستُدعى الشاهد التالى ، جروشنكا . اننى اقترب هنا من لحظة الكارثة التى سقطت على ميتيا فجأة ، وكانت سبب ضياعه فعلاً ، فيما يبدو . وأنا من جهتى مقتنع بأنه لولا ذلك الحادث الذى وقع — وذلك رأى يشاركنى فيه الجميع ، ويشاركنى فيه رجال القانون خاصةً — لكان من الممكن أن ينتفع بوجود ظروف مخفِّفة على الأقل . سأعود الى ذكر هذا الحادث بعد قليل ، ولكن يجب أن أقول بضع كلمات عن شهادة جروشنكا أولاً .

لقد دخلت جروشنكا ، متشحة كلها هى أيضاً بالسواد ، واضعةً شالها الأسود الرائع على كتفيها . تقدمت الى المكان الذى يقف فيه الشاهد ماشيةً مشيتها الصامتة الرفيقة الهادئة ، مع شىء من ذلك الاهتزاز الذى نراه احياناً فى النساء البدينات بعض البدانة ، محدقة الى الرئيس تحديقاً ثابتاً ، لا تنظر يمنةً ولا يسرة . فى رأيى أنها كانت فى تلك اللحظة جميلة جداً ، ولم تكن شاحبة اللون البتة ، كما زعمت ، فيما بعد ، السيدات اللواتى شهدن جلسة المحاكمة . وقد زُعم أيضاً أن وجهها كان فيه تقلص يعبر عن خبث وشر . ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها كانت تشعر بغيظ وغضب ، وتتألم من نظرات الاحتقار والفضول التى كان يرشقها بها جمهور مدينتنا التواق الى الفضيحة . ان لجروشنكا شخصية أبية ، فهى لا تطيق الاحتقار . وهى من الناس الذين ما أن يشعروا بالاحتقار من جانب أحد ما ، حتى يشتعلوا غيظا وظمأ الى الرد . وان فيها كذلك وجلاً مع شعور خفى بالخزى من هذا الوجل فى الوقت نفسه ، فكان طبيعياً والحالة هذه أنها لم تتكلم بصوت واحد أثناء ادلائها بشهادتها ، وانما تكلمت بغضب تارة ، وباحتقار تارة أخرى ، مصطنعةً فى الحالتين لهجة خشنة قاسية ؛ ثم اذا هى بعد لحظة واحدة تتكلم بلهجة يدرك فيها المرء نبراتٍ صادقة من أسف وحسرة حين تتهم ذاتها وتأخذ تلقى اللوم على نفسها . كانت فى بعض الاحيان تتكلم كمن يسقط فى هوة ولا يبالى العواقب ، وكأنها تقول لنفسها : «ليكن ما يكون ! ليحدث ما يحدث ! فسأقولها» . . . وفيما يتعلق بصلاتها مع فيدور بافلوفتش صرَّحت تقول بلهجة قاطعة : «هذه كلها سفاسف ! هل ذنبى أنا أنه تعلق بى ؟» ثم ما انقضت على ذلك دقيقة

واحدة حتى أخذت تقول : «انا الآثمة ، أنا المسئولة عن كل شىء . لقد عبثت بهما كليهما — عبثت بالعجوز وعبثت بهذا — فدفعتهما بذلك دفعاً الى الكارثة . الذنب ذنبى أنا فى كل ما حدث» . ولما ذُكر اسم سامسونوف ، انطلقت تقول بلهجة متحدية تكاد تكون وقحة : «ليس لأحد أن يتدخل فى هذا . انه الرجل المحسن الىَّ . لقد انتشلنى من وهدة البؤس حين طردنى أهلى» . فذكَّرها الرئيس ، ولكن بلهجة مهذبة جداً ، بأن عليها أن تقتصر على الاجابة عن الأسئلة التى تلقى عليها دون الخوض فى تفاصيل لا داعى اليها . فاحمرت جروشنكا ، والتمعت عيناها .

صرحت جروشنكا بأنها لم تر الظرف والمال المودع فيه ، وانما هى سمعت من ذلك «الشرير» انه يوجد عند فيدور بافلوفتش ظرف ما وفيه ثلاثة آلاف روبل . ثم أضافت تقول :

— على أن هذه كلها سخافات ، لأننى لم أحمل الأمر على محمل الجد ، وما كان لى أن أذهب اليه بحال من الأحوال ، هذا مؤكد . . .

سألها وكيل النيابة :

— من هذا الذى وصفته بأنه «شرير» ؟

فأجابت :

— هو ذلك الخادم ، هو ذلك السمردياكوف الذى قتل مولاه ، ثم شنق نفسه أمس .

طبيعى أنها سئلت فوراً عن الأساس الذى تبنى عليه رأيها حين تقرر اتهاماً واضحاً هذا الوضوح ، ولكن اتضح أنها هى أيضاً لا تستطيع أن تذكر أية واقعة محـــــــددة . قالت :

— دمترى فيدوروفتش نفسه هو الذى قال لى ذلك وليس عليكم الا أن تصدقوه !

ثم أضافت تقول وهى ترتعد كرها وحقداً ، ويختلج فى صوتها شر وخبث :

— ان تلك المرأة هى التى ضيعته ، هذه هى الحقيقة كلها ! انها هى سبب كل شىء ، هى وحدها ! ذلكم واضح !

سئلت جروشنكا من جديد أن تعين الشخص الذى تعنيه بكلامها ، فقالت :

— اعنى الآنسة ، أعنى هذه الكاترينا ايفانوفنا الحاضرة هنا ! لقد دعتنى الى منزلها ، وقدمت لى شوكولاته ، آملةً أن تغرينى وأن تفتننى . ليس فيها حياء ، هذه المرأة . . .

تدخل الرئيس ليوقفها عن هذا الكلام ، وطلب منها بلهجة قاسية ان تنتقى ألفاظها . ولكن قلب المرأة الشاب كان يغلى من الغيرة ، وكانت تشعر كأنها مستعدة لأن تمضى الى النهاية لا تخشى النتائج ولا تهاب العواقب . . .

وتدخل وكيل النيابة فقال :

— حين قُبض على المتهم فى قرية موكرويه ، فان الناس منذ هرعت مسرعةً من الغرفة المجاورة ، قد رأوك وسمعوك تصرخين قائلةً انك أنت سبب كل شىء وانك تريدين أن تصحبيه الى السجن . فهل يجب أن نستنتج من ذلك أنك كنت موقنةً منذ تلك اللحظة بأن المتهم قد قتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا قائلة :

— لا أتذكر المشاعر التى اضطربت فى نفسى حينذاك . كان جميع الناس يتهمونه فى تلك اللحظة بأنه قتل أباه ، فأدركت أن الذنب ذنبى ، وأنه انما قتل أباه بسببى .

ولكن حين أكّد لى أنه برىء ، صدقته فوراً ، وما زلت أصدقه ، وسأظل أصدّقه الى الأبد ، لأنه ليس بالرجل الذى يكذب .

وجاء دور فيتوكوفتش ليلقى أسئلته .

أذكر أنه أشار عندئذ ، بين أمور أخرى ، الى حكاية راكيتين والمبلغ الذى أعطته اياه ، وهو خمسة وعشرون روبلاً ، مكافأةً له على أنه أتاها بألكسى فيدوروفتش كارامازوف الى منزلها .

فقالت جروشنكا وهى تضحك ضحكة صغيرة خبيثة فيها ازدراء واحتقار :

— لا عجب أن أخذ المبلغ . لقد كان يجىء الىّ دائماً ليستعطينى بعض المال ، وكان يسحب منى بهذه الطريقة حوالى ثلاثين روبلاً فى الشهر ينفقها على تسلياته الخاصة ، لأن المأوى والطعام كانا مؤمنين له .

سألها فيتوكوفتش ، غيرَ عابئٍ بالرئيس الذى أخذ يتحرك ويضطرب :

— ما هو السبب الذى جعلك سخيةً ذلك السخاء كله مع السيد راكيتين ؟

— السبب بسيط ، هو أن راكيتين ابن خالتى . أمى وأمه اختان . صحيح أنه رجانى أن لا أقول هنا كلمةً واحدة عن هذه القرابة ، اذ يبدو أنه يشعر بعارٍ كبير من كونه يمت الىّ بقربى !

بوغت الجميع بهذه الواقعة الجديدة ودُهشوا منها ، لأنها كانت مجهولةً فى مدينتنا حتى ذلك الحين ، وكانت مجهولةً حتى فى الدير . وكان ميتيا نفسه لا يعرفها . وقد ادعى بعضهم أن راكيتين قد احمر احمراراً شديداً على كرسيه حينذاك . وكانت جروشنكا قد علمت ، قبل دخولها الى القاعة ، أن

راكيتين أدلى بشهادة تسيء الى ميتيا ، فأغضبها ذلك وأحنقها . وها هو ذا الخطاب الجميل الذى كان قد ألقاه راكيتين مفيضاً فى كلام نبيل ، ثائراً على نظام القنانة ، منتقداً لما يسيطر على روسيا من فوضى ، ها هو ذا الخطاب يتحطم تحطماً لا قيام له بعده ، فلا يبقى منه فى أذهان الحضور أى أثر . وغبط فيتوكوفتش نفسه : لقد أسعفته السماء . ولم يطل استجواب جروشنكا كثيراً على وجه الاجمال ، لا سيما وأنها لم تجىء بمعلومات جديدة كثيرة . وقد تركت شهادتها فى النفوس أثراً هو الى السوء أقرب منه الى الحسن . وتابعتها مئات نظرات الاحتقار حين انتهت من الادلاء بشهادتها . فمضت تجلس فى القاعة بعيداً عن كاترينا ايفانوفنا . وفى أثناء استجوابها كان ميتيا صامتاً كأنه متجمد ، وكان غاضاً بصره ، مطرقاً بعينيه الى الأرض .

واستدعى الشاهد التالى : ايفان فيدوروفتش .

٥

كارثة مباغتة

أحسب أن من المفيد أن أذكر أنه كان قد استدعى مرةً قبل أليوشا . غير أن حاجب المحكمة جاء يبلغ الرئيس أن الشاهد لا يستطيع أن يمثل أمام المحكمة الآن ، وذلك بسبب وعكة أو نوبة مباغتة ، وانه مستعد للمثول متى أريد له أن يمثل بعد أن تتحسن حالته . ولم ينتبه أحد الى هذا

الأمر ، ولم يعلم به أحد الا فيما بعد . ولم يكن الحضور ، على كل حال ، يولون ظهور هذا الشاهد اهتماماً كبيراً ، فان الأشخاص الرئيسيين فى هذه الدراما ، ولا سيما المرأتين المتنافستين ، كانت قد سُمعت أقوالهم ، فارتوى فضول الناس بذلك الى حين . حتى لقد لوحظ شىء من التعب أصاب الجمهور . وما تزال هنالك عدة شهادات يجب سماعها ، لكنها شهادات لا يمكن أن تأتى بأشياء جديدة كثيرة ، لأن الأمور الأساسية قد قيلت . وكان الوقت يمضى . اقترب ايفان بخطى بطيئة بطئاً غريباً ، دون أن ينظر الى أحد ، غاضاً بصره مطرقاً الى الأرض ، كأنه يبذل جهوداً شاقة فى سبيل أن يجمع شتات أفكاره . كان ملبسه سليماً لا مأخذ عليه ، ولكن تعبير وجهه قد أحدث فى نفسى انا على الاقل أثراً أليماً : كان وجهه يبدو بلون التراب كأنه وجه انسان يُحتضر . وكانت نظرته زائغة تائهة مضطربة . رفع عينيه ، وأجال بصره فى القاعة ببطء . انتفض أليوشا ، وأن أنه صغيرة . اننى اتذكر هذا تذكراً واضحاً ، رغم أن أحداً لم يكد ينتبه اليه .

بدأ الرئيس بأن قال له انه لن يُحلَّف اليمين ، وان فى وسعه أن يتكلم أو أن يسكت على ما يحب ، وانما ينبغى له ان يشهد بما يمليه الضمير بالطبع ، الخ . فكان ايفان يصغى محدقاً اليه بنظرة غامضة مبهمة . غير أن قسمات وجهه افترت عن ابتسامة شيئاً بعد شىء ، فما ان فرغ الرئيس الذى كان يراقبه مدهوشاً ، ما ان فرغ من كلامه ، حتى انفجر ايفان ضاحكاً مقهقهاً ، وقال للرئيس سائلاً بصوت رنان :

— وماذا أيضاً ؟

خيَّم على القاعة صمت مطبق ، وأحس الناس بأن دراما

ستقع . واضطرب الرئيس . وسأله وهو يبحث بعينيه عن الحاجب :

— أتراك ما تزال مريضاً ؟

فأجابه ايفان بصوت هادئ فيه احترام وتوقير :

— اطمئن يا صاحب السعادة ، فانني بخير تماماً ، وانني قادر على أن أذكر لكم أشياء شيقة .

فعاد الرئيس يسأله وهو ما يزال فى شك من أمره :

— أعندك أشياء ذات أهمية خاصة تريد أن تنقلها الينا ؟

فخفض ايفان فيدوروفتش عينيه ، وانتظر بضع ثوان ، ثم رفع رأسه وأجاب فى تردد :

— لا . . . لا شيء ، ليس عندى شيء خاص يمكن أن أذكره لكم .

وألقيت عليه أسئلة ، فكان يجيب عنها على مضض ، مقتضباً اقتضاباً مخلاً ، متضايقاً تضايقاً ما ينفك يزداد . ولكن اجاباته كانت متزنة معقولة . وأعلن مراراً أنه لا يعرف شيئاً عما يُسأل عنه . من ذلك أنه قال انه يجهل كل شيء عن تصفية الحساب بين أبيه ودمترى . وأضاف يقول : «وكان ذلك لا يهمنى على كل حال» . واعترف بأنه سمع المتهم يهدد بقتل أبيه . أما الظرف الذى كان يضم المال فانما علم بوجوده من سمردياكوف .

وصاح ايفان يقول وقد اعتراه الارهاق :

— لا جديد . . . ليس لدىَّ شيء خاص أقوله لكم .

وبدأ الرئيس يتكلم فقال :

— أنا أرى أنك مريض ، وأدرك مشاعرك . . .

ثم اتجه الى وكيل النيابة والمحامى يدعوهما الى استجواب

الشاهد اذا كانا يريان فى ذلك فائدة .

فاذا بايفان فيدوروفتش يتضرع على حين فجأة قائلاً بصوت منطفئ :

— اسمح لى بالانصراف يا صاحب السعادة ، فانني أشعر بضعف شديد .

وما ان قال هذه الكلمات حتى استدار على عقبيه دون أن ينتظر أن يؤذن له بالانصراف ، واتجه نحو باب الخروج . ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى توقف كأنه يفكر فى شيء ما ، وابتسم صامتاً ، وعاد الى حيث كان من مكان الشهود ، وقال :

— أنا يا صاحب السعادة شبيه بتلك الفلاحة الشابة التى كانت . . . كما تعلمون . . . تقول : «ان شئت ذهبت ، وان شئت لم أذهب» . كانوا قد جاءوها بثوب الزفاف ليقودها الى الهيكل ، ولكنها كانت تردد بغير انقطاع : «ان شئت ذهبت ، وان شئت لم أذهب» . هذا مشهد من مسرحية هزلية شعبية .

قاطعه الرئيس قائلاً بلهجة صارمة :

— ما الذى تريد أن تخلص اليه من هذا الكلام ؟

فأجاب ايفان فيدوروفتش وهو يسل من جيبه حزمة الأوراق المالية فجأة :

— ما الذى أريد أن أخلص اليه ؟ اليك ما الذى أريد أن أخلص اليه . . . ان هذا المال هو الذى كان موجوداً فى هذا الظرف (وأومأ الى المائدة التى جُمعت عليها وثائق الاتهام) ، والذى بسببه قُتل أبى . أين تريدون أن أضعه ؟ يا سيدى حاجب المحكمة ، انقل هذا المال الى من يجب نقله اليه .

تناول الحاجب حزمة الأوراق المالية ومدَّها الى الرئيس .

سأله الرئيس مدهوشاً :

— كيف وُجد هذا المال معك ؟ أهو ذلك المبلغ نفسه فعلاً ؟ . . .

— أخذته أمس من سمرديا كوف ، من القاتل . زرته قبل انتحاره ببرهة قصيرة . انه هو الذى قتل أبـى . ليس أخى القاتل . سمرديا كوف هو الذى قتل ، وأنا الذى حرضته على ذلك ودفعته اليه . من ذا الذى لا يتمنى موت أبيه ؟

صاح الرئيس يقول على غير ارادة منه :

— أأنت تملك عقلك كاملاً ؟

— المصيبة كلها هى اننى أملك عقلى كاملاً . . . وهو عقل خسيس من جهة أخرى ، لا يقل خسة عن عقولكم أنتم وعن عقول جميع هؤلاء الأغبياء البلهاء . . . — قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجمهور . وأضاف يقول صارفاً بأسنانه معبراً عن احتقار مبغضٍ كاره : — هم جميعاً قتلوا آباءهم ، ثم يتظاهرون بالهول والروع ! انهم يمثلون ، يضحك بعضهم على بعض . . . كاذبون ! انهم جميعاً يتمنون موت آبائهم . وحش يفترس وحشا آخر . اذا لم يوجد أناس يقتلون آباءهم ، ساءهم ذلك وخرجوا غاضبين . . . انهم فى حاجة الى مشهد يتسلون بالنظر اليه ! «خبزاً وعروضا !» . ولست أنا خيراً منهم على كل حال . هل عندكم ماء ؟ اسقونى ماء ناشدتكم الله !

كذلك صاح وهو يمسك رأسه بيديه .

أسرع الحاجب يقترب منه . ووثب أليوشا من مكانه صائحاً :

— انه مريض ، لا تصدقوه ، انه مصاب بنوبة حمى عصبية !

وانتصبت كاترينا ايفانوفنا واقفةً وقد جمَّدها الخوف ، وحدَّقت الى ايفان فيدوروفتش . ونهض ميتيا أيضاً ، فتأمل أخاه وهو يبتسم ابتسامة أليمة بينما كان يصغى اليه فى نهم وشراهة .

واستأنف ايفان كلامه فقال :

— اطمئنوا . ما أنا بمجنون . أنا قاتل فحسب .

ثم أضاف يقول لا يدرى أحد لماذا :

— ليس يُسأل قاتل أن يكون فصيحاً .

وضحك مقهقهاً ساخراً .

مال وكيل النيابة على الرئيس مضطرباً اضطراباً واضحاً ، واضطرب سائر أعضاء المحكمة وأخذوا يتهامسون . كان فيتوكوفتش يصغى بانتباه شديد . وصمت الجمهور ينتظر متجمداً . وبدا على الرئيس فجأة أنه ثاب الى نفسه واسترد ثبات جنانه ، فقال :

— أيها الشاهد . ان أقوالك غير مفهومة وغير مقبولة فى هذا المكان . هدئ روعك اذا استطعت ، وقل لنا هل لديك شىء تريد ان تذكره فعلاً . . . قل لنا ما هى الأدلة التى تقيم عليها مثل هذا الاعتراف . . . اذا كنت لا تهذى فحسب !

— ليس عندى شهود . ان ذلك الكلب سمرديا كوف لن يرسل اليكم اعترافه من السماء . . . فى ظرف . وأنتم لا بد لكم دائماً من ظروف . يكفى هذا الظرف . لا ، ليس عندى شهود .

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة واجمة :

— اللهم الا شاهداً واحداً .

— من هو هذا الشاهد ؟

— ان له ذيلاً يا صاحب السعادة ، وليس يتفق والنظام أن تُسمع شهادته هنا . [1] Le diable n'existe point !

وواصل ايفان كلامه ، دون أن يضحك فى هذه المرة ، وانما هو يصطنع لهجه المسارةَّ والنجوى :

— لا تلقوا اليه بالاً ، انه شيطان تعيس حقير . لا شك فى أنه مختبئ بمكان ما هنا ، ربما تحت مائدة وثائق الاثبات . أين عساه يختبئ ان لم يختبئ هناك . اسمعوا ، اصغوا الىَّ : لقد قلت له اننى لن أستطيع أن أسكت ، وكان هو لا ينفك يحدثنى عن ذلك التحول الجيولوجى . . . سخافات ! هيه هيا ، فكوا أسر المسخ الأشوه ولتطلقوا سراحه . . . لقد غنى نشيده لأنه كان فرح القلب ! هو مثل ذلك الوغد السكران وأغنيته عن فانكا المسافر الى بيتر ! أنا من جهتى مستعد لأن أهب كوادريليون من الكوادريليونات فى سبيل ثانيتين من فرح ! آوه ! انكم لا تعرفوننى ! ما أغبى هذا كله ! خذونى أنا بدلاً عنه ! لا بد أننى جئت لأمرٍ ما . . . لماذا ، لماذا كل هذا الغباء ؟ . . .

وأجال ايفان على القاعة نظرة بطيئة ، وهو واجم مفكر . اضطرب جميع الناس . اندفع أليوشا نحو أخيه ، ولكن الحاجب كان قد أمسك ايفان من ذراعه .

صرخ ايفان وهو يتفرس فى الحاجب :

— ما هذا أيضاً ؟

ثم قبض على كتفيه فجأة ، ورماه على أرض القاعة . هرع الحرس وسيطروا على ايفان . فأطلق عندئذ من صدره

---

[1] الشيطان لا وجود له البتة ! (بالفرنسية فى الأصل) .

عويلاً حاداً ، وظل يعول هذا الاعوال راشقاً عبارات مفككة ، بينما كان يُقاد الى خارج القاعة .

نشب اضطراب شديد ، وقامت بلبلة كبرى . لا أتذكر جميع التفاصيل ، لاننى كنت أنا نفسى منفعلاً أشد الانفعال فى تلك اللحظة ، فلا أستطيع لهذا السبب أن أحسن الرصد والملاحظة ، لكننى أعلم أنه حين عاد النظام الى نصابه ، قُرِّع الحاجب تقريعاً قاسياً ، رغم أنه أفاض فى الشرح قائلاً ان الشاهد لم تظهر عليه قبل ذلك أية علامة من علامات المرض ، وان الطبيب الذى فحصه منذ ساعة حين أصيب بوعكة خفيفة قد وجده سليماً معافى . وأضاف الحاجب يقول : ثم انه كان حتى لحظة دخوله قاعة المحكمة يقول كلاماً معقولاً ، فما كان يمكن التنبؤ بما حدث له . هذا الى أنه كان يحرص هو نفسه أشد الحرص على أن يدلى بشهادته ، وكان يريد المثول أمام المحكمة مهما يكلف الأمر .

ولم يكن الانفعال الذى أثاره هذا المشهد فى النفوس قد تبدد تماماً ، حين حدث حادث أليم آخر . لقد أصيبت كاترينا ايفانوفنا بنوبة عصبية ، فأخذت تنشج نشيجاً قوياً ، وتطلق صرخات حادة ولكنها رفضت أن تنصرف ، وظلت تتخبط ضارعةً متوسلة أن لا يبعدوها . ثم صرخت تقول للرئيس فجأة :

— عندى تصريح آخر أريد أن أفضى به . يجب علىَّ أن أذكر الحقيقة فوراً . . . فوراً ! اليكم هذه الورقة ، انها رسالة . . . خذوها فاقرأوها ، بسرعة ! هى رسالة أرسلها الىَّ هذا الانسان الأشوه ، هذا ، نعم ، هذا (وأومأت الى ميتيا) . انه هو الذى قتل أباه ، سترون ، لقد ذكر لى ذلك كتابةً . كتب الىَّ أنه سيقتل أباه ! أما الآخر فهو مريض ، مريض ،

انه مصاب بحمى عصبية ! لاحظت منذ ثلاثة أيام أنه مريض .

كانت تصرخ وهى نهب اضطراب شديد . تناول الحاجب الرسالة ومدَّها الى الرئيس . وتهاوت كاترينا ايفانوفنا على كرسيها وهى تغطى وجهها بيديها ويهزها بكاء تشنجى صامت . وكانت تحاول مع ذلك أن تخنق نشيجها مخافة أن تُطرد من قاعة المحكمة . ان الورقة التى تناولها الحاجب من كاترينا ايفانوفنا هى بعينها الرسالة التى كتبها ميتيا فى حانة «العاصمة الكبرى» ، والتى كان يصفها ايفان فيدوروفتش بأنها برهان رياضى على الجريمة . واحسرتاه ! لقد عُدَّت هذه الرسالة برهاناً له قوة اليقين الرياضى فعلاً ، فلولا هذه الرسالة الشقية لكان من الجائز جداً أن لا يضيع ميتيا ، أو أن لا تكون نهايته تلك النهاية البائسة كل البؤس على الأقل . أعود فأقول : لقد كان من الصعب على المرء ان يلاحظ كل شىء تفصيلاً ، وما تزال ذكرياتى الى الآن تختلط فى شعورٍ بفوضى شاملة . لعل الرئيس قد أطلع المحكمة ووكيل النيابة والمحامى والمحلفين على تلك الرسالة فوراً . لا أدرى . ولكننى أتذكر أن كاترينا ايفانوفنا قد أعيد استجوابها . سألها الرئيس فى رفق ولطف أهى تشعر بأنها هادئة هدوءاً كافياً لتستطيع الاجابة ، فهتفت تقول بقوة :

— أنا مستعدة ، مستعدة كل الاستعداد .

وأضافت وهى تخشى خشية رهيبة ، فيما يبدو ، أن يرفضوا الاستماع اليها :

— أنا قادرة على الاجابة كل القدرة ، كل القدرة !

سئلت أن تشرح بالتفصيل أمر هذه الرسالة وظروف وصولها اليها . فقالت :

— وصلتنى عشية وقوع الجريمة ، وقد كتبها هو من

الحانة فى اليوم السابق . أى قبل ارتكابه الجريمة بيومين . انظروا : ان هذه الرسالة مكتوبة على ورقة هى نوع من فاتورة حساب — كذلك صاحت تقول لاهثة — كان يكرهنى فى تلك الآونة ، لأنه اقترف عملاً حقيراً وتعلق بتلك المخلوقة . . . ولأنه كان مديناً لى بتلك الثلاثة آلاف روبل أيضاً . . . أوه ! كان يتعذب بسبب ذلك المبلغ ، لأنه كان يدرك حطته ودناءته ! أما عن تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاليكم كيف جرت الأمور . أرجوكم أن تستمعوا الىَّ ، أضرع اليكم أن تستمعوا الىَّ : قبل وقوع جريمة القتل بثلاثة أسابيع جاء الىَّ فى ذات صباح . كنت أعلم أنه فى حاجة الى مال ، وكنت لا أجهل سرَّ حاجته الى المال . كان يريد ، نعم ، كان يريد أن يغرى هذه المخلوقة وأن يرحل بها . وكنت أعلم منذ ذلك الحين أنه قد خاننى وأنه يفكر فى تركى . وعندئذ قدمت له ذلك المبلغ من تلقاء نفسى . أعطيته ذلك المبلغ بحجة أننى أريد منه ان يرسله الى أختى فى موسكو . وحين سلمته المال أعلنت له ، وعينى فى عينيه ، أنه يستطيع أن يرسله «ولو بعد شهر» اذا كان ذلك يناسبه ، فكيف ، كيف يمكن أن لا يكون قد أدرك فى تلك اللحظة أننى كنت فى الواقع أقول له : «أأنت فى حاجة الى المال لكى تخوننى مع تلك المخلوقة ؟ اذن خذ هذا المال ، اننى اعطيكه من تلقاء نفسى . خذه ، اذا كنت خالياً من المروءة والشرف خلواً تستطيع معه أن تقبل المال منى» . كنت أريد ان أخجله . فماذا تظنون أنه فعل ؟ لقد أخذ المال ، أخذه ومضى لينفقه بعد ذلك فى ليلة واحدة ، هنالك ، مع هذه المخلوقة . وقد فهم مع ذلك ، فهم فى تلك اللحظة اننى كنت على علمٍ بكل شىء . صدقونى أنه فهم أننى كنت

أريد أن أمتحنه حين عهدت اليه بهذا المال ، وانني كنت أحب أن أعرف هل تبلغ به قلة الشرف أن يأخذ منى هذا المال . كنت أحدّق الى عينيه ، وكان يحدّق الى عينى هو أيضاً ، لأنه كان يفهمنى حق الفهم ، وكان يفهم كل شيء . ورغم ذلك أخذ المال ، أخذه ومضى به .

زأر ميتيا يقول فجأة :

— هذه هى الحقيقة بعينها يا كاتيا ! كنت أحدّق الى عينيك فأدركت أنك تريدين تلطيخ شرفى بالعار . ومع ذلك أخذت المال ! احتقرينى . انا الشقى ، احتقرونى جميعا ! اننى استحق هذا الاحتقار !

هتف الرئيس يخاطبه :

— يا متهم ! اذا قلت كلمة واحدة اخرى ، فلأخرجنك من القاعة .

وواصلت كاتيا كلامها بسرعة تشنجية :

— كان يعذبه هذا المبلغ . كان يريد أن يردّه الىّ ، هذا صحيح ، كان يحرص على أن يردّه ، ولكنه كان فى حاجة الى مال من أجل هذه المخلوقة . لذلك قرر أن يقتل أباه ، ولكنه لم يردّ الىّ دينى ، وانما ذهب مع هذه المرأة الى تلك القرية ، فتم القبض عليه هناك . لقد بدّد فى تلك القرية ، مرةً أخرى ، المال الذى سرقه من أبيه بعد أن قتله . وقبل الجريمة بيومين كان قد كتب الىّ الرسالة . كتبها وهو سكران ، أدركتُ ذلك فوراً . وكتبها عن خبث وشر ، لعلمه علمَ اليقين بأننى لن أطلع عليها أحداً ، ولو ارتكب هذه الجريمة ، والا لما كتبها . كان يعرف أننى لن أرضى أن أنتقم منه وأن أكون سبب ضياعه . هلاّ قرأتم الرسالة ! اقرأوا

بمزيد من الامعان ، أرجوكم ، لتعلموا انه قد وصف فى هذه الرسالة كل شيء سلفاً ، ذكر كيف سيتدبر الأمر ليقتل أباه ، وذكر أين يوجد المال مخبأ ، ذكر ذلك كله سلفاً . وأحب أن ألفت انتباهكم الى احدى عباراته خاصةً ، راجيةً ان تقفوا عندها وهى عبارة : «شريطة أن يكون ايفان غائباً» . هل رأيتم ؟ لقد قتل عن سابق تصور وتصميم ، وفكّر فى جميع التفاصيل . — كذلك قالت كاترينا ايفانوفنا بخبث وشر وسوء ، كأنما لتؤثر فى عقول القضاء تأثيراً أقوى وأضمن . واضح أنها كانت قد درست هذه الرسالة المشئومة دراسة دقيقة ، وأنها تحفظ كل كلمة من كلماتها على ظهر القلب . — ولولا انه كان عندئذ فى حالة سكر لما كتب الىّ بهذه الطريقة . انظروا كيف تذكر هذه الرسالة سلفاً كل شيء ، بنفس التفاصيل التى نفذ بها القتل فيما بعد . الخطة كلها !

هكذا كانت تصيح غضبى ؛ وواضح أنها كانت لا تبالى فى تلك اللحظة عواقب شهادتها . ولعلها كانت قد تنبأت بهذه العواقب منذ زمن طويل ، ذلك أنها لا بد أن تكون قد تساءلت مراراً كثيرة وهى ترتعش استياءً : «أيجب علىّ أن أقرأ هذه الرسالة فى جلسة المحاكمة ؟» . أما وأنها عزمت أمرها ، فانها لا تأسف الآن على شيء ، ولا تبالى شيئاً . أذكر أن هذه الرسالة قد تلاها كاتب المحكمة عندئذ بصوت عالٍ ، فتركت فى نفوس الجميع انطباعاً مذهلاً .

وسئل ميتيا بعد ذلك هل يعترف بانه هو كاتب الرسالة فصاح ميتيا يقول :

— هى رسالتى ، نعم ، رسالتى ! وما كنت لأكتبها لولا السكر ! . . يا كاتيا ، ان كلاً منا يكره الآخر لأسباب

كثيرة . ولكننى أحلف لك ، أحلف لك على أننـــى ، حتى حين كرهتك ، كنت لا أزال أحبك . أما أنـــت فلا ! . . .

قال ميتيا ذلك ، وتهالك على كرسيه وهو يلوى يديه كرباً ويأساً . وتناوب وكيل النيابة والمحامى القاء الأسئلة على كاترينا ايفانوفنا ، ملحين خاصةً على الأسباب «التى دفعتها الى أن تسكت فى بداية شهادتها عن وجود رسالة تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن ، وأن تدلى بتصريحات تختلف فى لهجتها وروحها عن أقوالها الآن» . فقالت كاتيا منقلبة السحنة تقريباً :

— صحيح ، نعم ، كذبتُ منذ قليل . كذبت عن عمد وقصد على خلاف ما توجبه أمانتى ويوجبه ضميرى . ولكننى أردت أن أنقذه فى تلك اللحظة ، لأنه كان يكرهنى ويحتقرنى . أوه ! كان يحتقرنى احتقاراً فظيعاً ؛ واعلموا أنه كان يحتقرنى دائماً ! احتقرنى منذ اللحظة التى انحنيت فيها أمامه ساجدةً فى سبيل ذلك المال . رأيتُ ذلك . . . أحسست به فوراً ، ولكننى لبثت زمناً طويلاً أتردد فى تصديقه . كم من مرة قرأت فى عينيه أنه يقول لى : «مع ذلك ، أنت التى جئت اليّ فى الماضى» . آه . . . انه لم يفهمنى ، انه لم يفهم شيئاً من سلوكى فى يوم من الأيام ، انه لم يدرك سبب مجيئى اليه ، لأنه لا يستطيع أن يتخيل الا أحقر الدوافع وأدناً البواعث . لقد حكم علىَّ من خلال نفسه هو .

وأضافت كاترينا ايفانوفنا تقول وهى تصرف بأسنانها غضباً ، لأنها كانت فى حالة اندفاع شديد :

— ظن أن جميع الناس مثله . ولم يخطر بباله أن

يتزوجنى بعد ذلك الا لأننى ورثت ثروة . ذلك هو السبب ، ذلك هو السبب ! لقد قدرت دائماً أن ذلك هو السبب الحقيقى ! آه . . . هذا شيطان رجيم . ظن أننى سأظل طول حياتى أرتعش أمامه خجلاً من أننى ذهبت اليه فى الماضى ، وأنه سيستطيع أن يحتقرنى لهذا وأن يتسلط علىَّ . ذلكم هو السبب فى أنه أراد أن يتزوجنى ، ذلكم هو السبب ! هذا ما حدث ، أؤكد لكم أن هذا ما حدث ! حاولت أن آخذه بالحب ، بحب لا نهاية له ، حتى لقد كنت مستعدةً لأن أغفر له خيانته . ولكنه لم يفهم شيئاً ، لم يفهم شيئاً البتة ، البتة ! وهل هو قادر على أن يفهم أى شىء ؟ هذا مخلوق أشوه ! وصلتنى منه هذه الرسالة فى صباح الغد ، جاءونى بها من الحانة ، بينما كنت فى ذلك الصباح نفسه أستعد لأن أغفر له كل شىء ، حتى خيانته !

حاول رئيس المحكمة ووكيل النيابة أن يهدئاها طبعاً . وانى لعلى يقين من أنهم جميعاً كانوا يشعرون فى قرارة انفسهم بالخجل من استغلال اندفاع المرأة الشابة هذا الاستغلال ، ومن الاستماع الى مثل هذه الاعترافات . أذكر أن رئيس المحكمة ووكيل النيابة قالا لها : «نحن نفهم مدى ما تعانين من ألم ، وثقى أننا نشاطرك هذا الألم» الخ . ولكن هذا لا ينفى أنهما انتزعا منها شهادة بينما كانت فى حالة قريبة من الهستريا ، وبينما أصبحت لا تسيطر على نفسها ولا تتحكم بسلوكها . ووصفت أخيراً بوضوح ما بعده وضوح — وهذا ما يتجلى فى كثير من الأحيان ، ولو على نحو عابر ، فى لحظات التوتر النفسى الشديد الذى من هذا النوع — كيف ان ايفان فيدوروفتش قد أصبح مجنوناً خلال الشهرين الأخيرين بسبب

47-1306

الفكرة التى حاصرته واستبدت به ، وهى أن عليه أن ينقذ أخاه ، «هذا الشيطان ، هذا القاتل» .

وهتفت تقول :

— كان عذابه لا ينقطع ولا يهدأ . وكان يريد أن يطفئ ذنب أخيه قائلاً لى انه كان هو نفسه لا يحب أباه ، وانه ربما كان يتمنى موته . آه . . . هذا انسان ذو ضمير حى ووجدان رفيع ! لقد مرض من كثرة ما عانى من عذاب الوجدان والضمير. قال لى كل شىء ، كل شىء اطلاقاً ! كان يجىء الىَّ كل يوم فيتحدث الىَّ حديثه مع صديقته الوحيدة ! ولى الشرف بأن أكون صديقته الوحيدة ! — هكذا هتفت تقول فجأة بنوع من التحدى وقد التمعت عيناها — لقد ذهب الى سمردياكوف مرتين . وفى ذات يوم جاء الىَّ فقال لى : «اذا لم يكن القاتل أخى بل سمردياكوف (ذلك أن الأسطورة القائلة بأن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، كانت قد أُطلقت فى الناس) ، فمن الجائز أن أكون أنا ايضاً جانياً ، لأن سمردياكوف كان يعلم اننى لا أحب أبى وأننى أتمنى موته» . وعندئذ انما أخرجت تلك الرسالة فأطلعته عليها . فلما قرأها اقتنع بأن أخاه هو القاتل ، فاذا بهذه الفكرة تحطم نفسه أخيراً . لم يطق أن يتصور أن يكون أخوه قاتل أبيه ! وقد لاحظت ، منذ أسبوع ، أن ذلك أمرضه فعلاً . كان يتفق له فى الأيام الأخيرة أن يأخذ يهذى أثناء زيارته لى . وأدركت أنه فى الطريق الى الجنون . كان يهذى وهو يسير ، وقد شوهد هائماً على وجهه محدثاً نفسه فى شوارع مدينتنا . وحين فحصه ، أمس الأول ، تلبيةً لطلبى ، الطبيبُ الاخصائى الذى وفد الى مدينتنا ، قال لى انه على وشك ان يُصاب بالحمى العصبية . ذلك

كله بسببه ، بسبب هذا الشيطان الرجيم ! وفاقم الأمر أنه علم أمس أن سمردياكوف قد انتحر ، فأحدث هذا النبأ فى نفسه أثراً بلغ من القوة أنه فقد عقله . . . وذلك كله بسبب هذا الشيطان الرجيم ، بسبب رغبته فى انقاذ هذا الشيطان الرجيم !

أوه ! أنا أعلم أن المرء لا يمكن أن يتكلم بهذه الطريقة وأن يدلى باعترافات من هذا النوع الا مرةً واحدة طوال حياته ، فى اللحظات التى تسبق الموت ، حين يصعد مثلاً درجات المشنقة . لقد كانت كاتيا فى حالة من هذا النوع نفسه ، وهى حالة تتفق وطبعها على كل حال . انها فى الواقع تلك الفتاة الجامحة نفسها التى هرعت فى الماضى الى بيت الضابط الفاسق انقاذاً لأبيها ، انها كاتيا تلك نفسها التى ارتضت منذ قليل أن تضحى على رؤوس الأشهاد بحيائها وخفرها ، وهى العفة الأبية ، فقصت قصة «السلوك النبيل الذى سلكه ميتيا» ، لا لشىء الا أن تخفف المصير الذى ينتظره بعض التخفيف . وهى بهذه الطريقة نفسها ، وعلى هذا النحو نفسه ، انما تضحى بنفسها الآن ، ولكن فى سبيل رجل آخر ، فى سبيل رجلٍ لعلها أدركت لأول مرة فى تلك اللحظة مدى ما تضمر له من محبة . تضحى بنفسها فى سبيله مخافة أن يكون قد أساء الى شرفه والى سمعته حين قال انه هو القاتل لقد بدا لها فجأةً أنه بشهادته قد ضيَّع نفسه ، فهى تضحى بنفسها لتنقذه هو ، لتنقذ اسمه وسمعته ! على أن هناك سؤالاً مقلقاً يطرح نفسه : هل كذبت قبل ذلك حين تكلمت عن عواطفها نحو ميتيا ، وهل تجنت عليه حين وصفت موقفه منها ؟ لا ، لا ، لا . . . انها لم تندد به عامدةً حين صرخت تقول انه يحتقرها بسبب

التحية الساجدة التى حيته بها فى الماضى ! لقد كانت تؤمن بذلك صادقة ، لقد كانت مقتنعة ، ربما منذ حيته بتلك التحية ، أن ميتيا ، هذا الطفل البسيط الطيب الذى كان يحبها حب العبادة فى ذلك الأوان ، قد احتقرها وسخر منها واستهزأ بها . وهى ما تعلقت به ذلك التعلق ، ولا أحبته ذلك الحب الهسترى المصطنع المغالى الا من قبيل الكبرياء وحدها . ان ذلك الحب ، الذى نشأ عن زهو جريح ، كان أقرب الى الانتقام منه الى الحب . وربما كان يمكن أن تستحيل هذه العاطفة المجلوبة الى حب حقيقى ولقد كانت كاتيا تتمنى ذلك بحرارة على كل حال ، ولكن ميتيا أساء اليها بخيانته اساءة عميقة ، وأهانها اهانةً بالغة ، فلم تستطع نفس الفتاة المتكبرة المتغطرسة أن تغفر له . وحلَّت ساعة الانتقام فجأة ، على نحو لم تكن تتوقعه هى نفسها ، فاذا بالأحقاد التى تراكمت فى قلب المرأة المهانة تراكماً أليماً خلال هذه المدة الطويلة كلها ، اذا بهذه الأحقاد تتدفق دفعةً واحدة على حين بغتة . ان كاتيا تخون ميتيا الآن ، ولكنها تخون نفسها أيضاً ! وطبيعى أن التوتر العصبى قد زال منذ أفصحت عما يعتلج فى قلبها فأخذ يستولى عليها الشعور بالخزى والعار . لقد أصيبت عندئذ بنوبة عصبية جديدة ، فتهاوت على مقعدها وهى تنشج وتئن . فاضطروا الى نقلها من القاعة . وفيما كانوا يبعدونها هرعت جروشنكا نحو ميتيا صارخة قبل أن يتسع وقت أحد لصدِّها والسيطرة عليها :

— ميتيا ! ان هذه الأفعى قد ضيعتك !

وأضافت تقول وهى ترتعش غضباً وتتجه بكلامها الى أعضاء المحكمة :

— ها هى ذى الآن تظهر على حقيقتها !

وبأمرٍ من رئيس المحكمة ، أُمسكت جروشنكا واقتيدت الى خارج القاعة . كانت تقاوم وتتخبط وتندفع نحو ميتيا . فأخذ ميتيا يعول هو أيضاً ، وقام بحركة مباغتة ليلحق بها . فأمسكوه وسيطروا عليه .

افترض أن سيداتنا اللواتى جئن الى جلسة المحاكمة كمشاهدات ، قد أرضاهن ما رأين : فقد كان مشهداً حافلاً . وأتذكر أن الطبيب الاخصائى الوافد من موسكو قد ظهر فى تلك اللحظة . يبدو أن رئيس المحكمة كان قد كلف الحاجب باستدعائه لاسعاف ايفان فيدوروفتش . قال الطبيب للمحكمة ان ايفان فيدوروفتش مصاب بنوبة خطرة جداً من نوبات الحمى العصبية ، وان من الواجب صرفه فوراً . وجواباً عن أسئلة ألقاها عليه وكيل النيابة والمحامى ، صرَّح بأن المريض قد جاء يستشيره فى أمر مرضه منذ يومين ، وبأنه قد تنبأ له بنوبة حمى عصبية وشيكة ، ولكن ايفان فيدوروفتش رفض أن يُعالَج . قال الطبيب راوياً : «لقد كان منذ ذلك الحين مريضاً جداً . واعترف لى هو نفسه بأن أشباحاً تتراءى له ، فتارةً يرى فى الشارع أشخاصاً ماتوا منذ زمن بعيد ، بينما يزوره الشيطان مساء كل يوم» . وانصرف طبيب الأمراض العقلية الشهير بعد أن فرغ من الادلاء بشهادته . وضُمَّت الرسالة التى قدمتها كاترينا ايفانوفنا ، ضُمَّت الى وثائق الاثبات . وتشاور أعضاء المحكمة ، فقرروا أن يواصلوا مناقشة الشهود . ودُوِّنت الشهادتان اللتان لم تكونا متوقعتين (أعنى أقوال كاترينا ايفانوفنا وايفان فيدوروفتش) فى محاضر المحاكمة .

أحسب أنه لا داعى الى سرد تتمة مناقشة الشهود .

فان أقوال الشهود الذين سُمعت شهاداتهم بعد ذلك لم تأت بشيء جديد ، ولم تزد على تكرار ما عرفه القارئ حتى الآن ، مع بعض الفروق الطفيفة الشخصية . وأقول مرةً أخرى : ان جميع الشهادات قد لخصتها وكثفتها مطالعة وكيل النيابة التي سأعرض لها حالاً . وحسبي أن أشير هنا الى أن الحضور كانوا يرزحون تحت وطأة انفعال شديد عنيف من هول الكارثة ، وكان الجميع ينتظرون خاتمة الدراما وخطابي الاتهام والدفاع بقلوب يحرقها نفاد الصبر . وكان يبدو على فيتوكوفتش أن أقوال كاترينا ايفانوفنا قد أذهلته . أما وكيل النيابة فكان يبدو منتصراً . حتى اذا انتهت مناقشة الشهود رُفعت الجلسة نحو ساعة . وأعلن الرئيس أخيراً أن الكلام لوكيل النيابة . وأظن أن الساعة كانت هي الثامنة تماماً من المساء حين بدأ ابوليت كيريلوفتش القاء مطالعته .

٦

مرافعة النيابة . تقييمات

حين بدأ ابوليت كيريلوفتش القاء مرافعته كان يرتعش ارتعاشة عصبية ، والعرق البارد ينضح على جبينه وصدغيه ، وهو يشعر بحمى ثم بارتعاد ، مرةً بعد مرة . بهذا وصف هو نفسه ، فيما بعد ، الحالة التي كان عليها حينذاك . كان يرى أن هذه المرافعة [1] chef d'oeuvre وتاجاً يتوّج حياته في

[1] «خير انتاجه»(بالفرنسية في الأصل) .

آخر عهده بمهنته ، ونشيداً كنشيد البجعة يصدح به صوته قبيل مماته . وقد مات ابوليت كيريلوفتش فعلاً بعد ذلك بتسعة أشهر ، من سلٍ خبيث لم يمهله طويلاً ، فلعله كان على حق حين شبه نفسه ببجعة تغنى قبل موتها ، اذا صدق أنه أوجس ذلك حقاً . لقد وضع في هذه المرافعة كل قلبه ، ووضع فيها كل ذكائه أيضاً ، وبرهن في هذه المناسبة على أنه يملك حساً وطنياً اجتماعياً لم يكن متوقعاً منه ، وأنه يهتم هو أيضاً «بالمشكلات الحادة» ، على الأقل في حدود قدرة صاحبنا المسكين ابوليت كيريلوفتش على فهمها . وقد فتن الناس بصدقه خاصة : كان ابوليت كيريلوفتش يؤمن فعلاً بأن المتهم هو الجاني ، فكان لا يتهمه ويطالب بانزال «العقاب» في الحال بحكم ما تقتضيه منه مهنته فحسب ، وانما كان كذلك مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بما يقول ، وكان مشبعاً بعاطفة «انقاذ المجتمع» . ان النساء من جمهور المشاهدين ، وهنّ يعادين بمشاعرهن ابوليت كيريلوفتش ، لم يخفين الأثر العميق الذي أحدثه خطابه في نفوسهن . ولقد بدأ وكيل النيابة القاء خطابه بصوت متوتر متقطع ، ولكنه صوت ماينفك يقوى ويثبت شيئاً فشيئاً ، ثم يدوي في القاعة كلها الى نهايته . ومع ذلك أوشك ابوليت كيريلوفتش أن يُغمى عليه حين فرغ من القاء الخطاب . بدأ وكيل النيابة مرافعته هكذا :

«سادتي المحلفين ! ان القضية التي ننظر فيها اليوم قد أحدثت ضجة كبيرة في روسيا كلها . ولكن فيم نُدهش وفيم نُروَّع ؟ هل من حقنا أن نُدهش وأن نُروَّع ؟ ألم نألف هذا النوع من القبائح منذ زمن طويل ؟ ألا ان أشنع ما في الأمر هو أن فظاعات تبلغ هذا المبلغ من السواد قد أصبحت

لا تهز نفوسنا ! ذلكم هو بلاؤنا ! وان هذا التعود على الشر هو ما ينبغى أن نحزن له ، لا هذه أو تلك من الجرائم يرتكبها هذا أو ذاك من المجرمين . فما هى أسباب قلة اكتراثنا ، ما هى أسباب عدم انفعالنا ازاء جرائم من هذا النوع ، جرائم هى فى حقيقة الأمر علامات شر مستطير تنذر بمستقبل مظلم ؟ هل ترجع تلك الأسباب الى ما صرنا نتصف به من استهتار واستخفاف ، هل ترجع الى أن العقل والخيال قد نضبا نضوباً مبكراً فى مجتمعنا هذا الذى ما يزال فتياً ثم هو قد شاخ قبل الأوان ؟ هل نعزو عدم انفعالنا وقلة اكتراثنا الى أن مبادئنا الأخلاقية قد اهترت ، اللهم الا أن تكون هذه المبادئ الأخلاقية أموراً تعوزنا أصلاً ؟ لست أريد أن أجيب عن هذه الأسئلة ، ولكن يجب أن نعترف بأنها أسئلة معذبة ، وبأن كل مواطن يستحق اسم المواطن ، ينبغى بل ويجب عليه أن يعاينها . ان صحافتنا التى ما تزال فى بداياتها ، والتى تُظهر شيئاً من التهيب فى بعض الأحيان لهذا السبب ، قد قدمت للمجتمع من هذه الناحية خدمات كبيرة فلولاها لما استطعنا أن نعرف بصورة مستفيضة كل ما يعيث فى بلادنا فساداً من جموح الاهواء وفساد الأخلاق مما تطلعنا عليه فى صفحاتها كل يوم ، وبذلك لا تقتصر معرفةُ الواقع المرير على الذين يحضرون فى قاعات المحاكم الجديدة العلنية التى منحنا اياها فى عهد القيصر الحالى . وانما تتعداهم الى جميع المواطنين بغير استثناء . فماذا نقرأ كل يوم فى هذه الصحف ؟ وا أسفاه ! اننا نقرأ فى هذه الصحف أنباء عن جرائم يفوق هولها هول القضية التى ننظر فيها اليوم ، ولا تعد هذه القضية بالقياس اليها الا حادثاً تافهاً مبذولاً . وأخطر ما فى الأمر أن عدداً كبيراً من قضايانا الجنائية

الوطنية ، قضايانا الروسية ، يدل على نوع من سقوط جماعى عام شامل هو بلاء مشترك بيننا جميعاً ، بلاء رسخ فى أخلاقنا وعاداتنا رسوخاً عميقاً ، فأصبحت محاربته أمراً شاقاً عسيراً فها هو ضابط شاب لامع ينتمى الى الأوساط الارستقراطية ، فى بداية حياته وبداية مهنته . ها هو ذا لا يتردد ، فى ذات يوم ، عن ذبح موظف بسيط كان قد قدَّم له خدمة ، وعن ذبح خادمة هذا الموظف بوضاعة ، ودون أن يحس بشىء من عذاب الضمير ، وذلك ليسترد من هذا الموظف سنداً كان حرَّره له اعترافاً منه بدينه عليه ؛ ثم هو ينتهز الفرصة ، فيسطو على ما يجده فى منزل القتيل من مال ، قائلاً لنفسه : «سينفعنى هذا المال فى استمرارى على معاشرة المجتمع الراقى ، وسيسهِّل ارتقائى فى وظيفتى تبعاً لذلك» ؛ حتى اذا فرغ من الاجهاز على ضحيتيه ، لم ينس أن يضع تحت رأسيهما وسادة ، وانصرف . واليكم مثالاً آخر : شاب بطل يزدان صدره بأوسمة حصل عليها لشجاعته . ها هو ذا يقتل فى الطريق كما يفعل قاطع الطريق ، يقتل أمَّ رئيسه المحسن اليه ؛ ومن أجل أن يطمئن شركاءه فى الجريمة ، ومن أجل أن يشجعهم على مشاركته فى ارتكاب الجريمة ، يقول لهم : «ان هذه المرأة تحبنى كابنها ، لهذا ستتبع نصائحى دون أن تتخذ أى احتياط من الاحتياطات» . صحيح أن هذا انسان شاذ . ولكننى لا أجرؤ أن أقول انه حالة مفردة فى هذا العصر الذى نعيش فيه . وهناك آخرون قد لا يقتلون ، ولكن نفوسهم تجيش بهذه الرغبات نفسها وهذه المشاعر نفسها التى تجيش بها نفس ذلك المجرم ، وهم خالون من الشرف خلوَّه هو منه ، ولعلهم حين ينفردون بأنفسهم يتساءلون : «ما هو الشرف ؟ أليس الخوف

من سفك الدم وهما من الأوهام الباطلة ؟» . قد تقولون عنى أننى متشائم تشاؤماً مرضيا ، واشهر بالناس تشهيراً خبيثاً ، وأغالى فى وصف الشر الذى ألاحظه مغالاة هاذية ! آه . . . كم أتمنى يا رب السماء أن تكونوا محقين ، إذن لكنت اول من يسعد . لكم أن لا تصدقونى اذا شئتم ، ولكم أن تعدوا قلقى هذا وخوفى هذا مرضاً ، ولكن تذكروا مع ذلك ما أقوله لكم اليوم : اذا لم يكن فى أقوالى الا عُشر او عشر معشار من صدق ، فذلك وحده رهيب ! هل فكرتم ، أيها السادة ، فى العدد المروِّع من الشباب الذين ينتحرون فى بلادنا ؟ انهم يقتلون أنفسهم بلا كلام ، دون ان يتساءلوا ، كما فعل هاملت ، عمَّا سيصيرون اليه بعد الموت . لكأن مشكلة النفس الانسانية ، لكأن مشكلة المصير الذى ينتظرنا فى الحياة الآخرة ، أصبحت غريبة عن عقولهم ، فهم قد نسوا ودفنوا هذا النوع من الاهتمامات والتساؤلات منذ زمان طويل . وانظروا ، بعدُ ، الى فساد أخلاقنا وتحلل عاداتنا الذى يتجلى لدى الفاسقين الماجنين من أبناء مجتمعنا . ان فيدور بافلوفتش ، الشقىَّ المجنىَّ عليه فى هذه القضية ، يمكن أن يعد طفلاً بريئاً اذا قيس بأولئك الفاسقين الماجنين ، ولقد عرفناه جميعاً ، «وكان واحداً منا» . . . قد يجىء يوم تعكف فيه عقول متفوقة ، فى بلادنا وفى البلاد الأخرى ، على دراسة سيكولوجية المجرم الروسى ، لأن الموضوع يستحق عناء الدرس طبعاً . ولكن هذه الدراسة ستتم فى المستقبل ، حين يهدأ البال ويطمئن العقل ، حين تصبح ضروب المآسى التى يعانى منها عصرنا ذكرى لا أكثر ، فيكون من الممكن عندئذ أن تدرس دراسةً فيها من الانصاف والعدل والحياد ما لا يستطيعه رجال مثلى فى هذا الأوان ؛ نحن الآن مروَّعون ،

أو نحن نتظاهر بأننا مروعون ، مع تلذذنا بمشهد الجريمة ، لأننا نحب الاحساسات القوية الشاذة العنيفة التى توقظ نفوسنا من الخدر وتهز ما نعانيه من قلة الانفعال وكثرة الاستخفاف والاستهتار ؛ أو قولوا أيضاً اننا أشبه بأطفال صغار ، نطرد الرؤى المرعبة بحركة من يدنا ، وندفن وجوهنا فى الوسادة الى أن تغيب تلك الرؤى المرعبة ، عازمين على أن ننساها فوراً بالمسرات واللعب . ولكن لا بد لنا مع ذلك من أن نعزم أمرنا مرةً على أن نأخذ الحياة مأخذ الجد ، وعلى أن نفكر فيما توجبه علينا الحياة وما تقتضيه منا . لا بد لنا أن نفكر وأن نتأمل وأن نحاسب أنفسنا لنستطيع أن نفهم ، أو لنحاول أن نفهم ، على الأقل ما يجرى فى مجتمعنا . ان كاتباً كبيراً من كتاب عهد قريب ، قد شبَّه روسيا ، فى خاتمة كتابه الرائع ، بعربة ترويكا تعدو عدواً سريعاً نحو غاية مجهولة ، فهتف يخاطبها قائلا : «أيتها الترويكا ، يا طائراً سريعاً ، من ذا الذى أوجدك ؟» وأضاف يقول فى اندفاعة كبرياء وعجب وزهو : ان الشعوب لتتنحى باحترام من طريق الترويكا الجبارة . ليكن ، أيها السادة ! لنسلم بأن الشعوب تتنحى باحترام أو بدون احترام . ولكننى أعتقد ، فى رأيى المتواضع ، أن الفنان العبقرى انما استعمل هذه الصورة وهو فى حالة اندفاع مثالى طفولى يُغفر له ، أو لعله لجأ الى هذه الصورة لأنه كان يخشى الرقابة على المطبوعات فى ذلك العهد ؛ اذ لو شُدَّ الى هذه الترويكا أبطالُ روايته نفسها ، أمثال سوباكيفتش ونوزدرويوف وتشيتشيكوف ، فهل تعلمون الى أين يمكن أن تقودنا الترويكا بهذه الخيول أياً كان الحوذى الذى يقودها ؟ وتلك مع ذلك خيولُ من عهد غابر لا تُضارع خيول هذا الزمان . وقد رأينا بعدها كثيراً . . .»

هنا قطع مرافعة ايبوليت كيريلوفتش تصفيقٌ من الجمهور لقد طرب الجمهور مما فى صورة الترويكا هذه من ليرالية . ولكن التصفيق الذى انطلقت به الأكف كان تصفيقاً متفرقاً هنا وهناك ، لذلك لم يرَ رئيس المحكمة أن عليه أن «يهدد باخلاء القاعة» ، واقتصر على أن يرشق الأشخاص المذنبين بنظرة قاسية . غير أن ايبوليت كيريلوفتش قد تشجع . انه لم يُصفَّق له حتى الآن يوماً فى حياته . لقد ظل الناس سنين طويلة يرفضون الاصغاء اليه ، وها هو ذا يستطيع على حين فجأة أن تسمع صوته روسيا كلها ! وتابع وكيل النيابة خطابه فقال :

«ما الذى تمثله فى الواقع أسرة كارامازوف هذه التى اكتسبت فى بلادنا ، بين عشية وضحاها ، شهرةً سوداء هذا السواد كله ؟ قد تظنون اننى أبالغ ، ولكننى أحسب أن حياة هذه الأسرة تعكس عناصر بارزة يتميز بها مجتمعنا المثقف المعاصر ، صحيح أنها تعكسها مصغَّرة تصغيراً مكروسكوبياً ، كما «تعكس الشمسَ قطرةُ ماء» ، ولكننا نجد فيها قبساتٍ ذات دلالة . انظروا أولاً الى ذلك العجوز الشقى ، ذلك الفاسق الجرىء ، ذلك «الأب» الذى لقى مصيراً حزيناً تعيساً . لقد بدأ حياته طفيلياً مسكيناً رغم نبالة محتده وأتاح له زواج موفق لم يكن يأمله ، أن ينال مهراً هو رأس مال لا بأس به . لم يكن الرجل فى ذلك الحين الا غشاشاً ضيق المدى ومهرجاً يتملق الأقوياء ، ولكنه يملك مزايا ذكاء لا تُجحد . وهو قبل كل شىء مراب . وتنقضى السنون ، فيربو رأس ماله ، ويأخذ يرفع رأسه شيئاً بعد شىء . وتختفى المذلة والاستكانة وتزول الزلفى والمداهنة ، ولا يبقى من الرجل الا انسان فاجر

عاهر ، انسان شرير خبيث ساخر . غابت الحياة الروحية من نفسه غياباً تاماً لا رجعة لها بعده ، وأصبح ظمؤه الى اللذة ظمأً جارفاً لا حدود له ، وغدا لا يرى فى الوجود الا المباهج والمتع والملذات ، وبهذه الروح انما نشَّأ أولاده ، أما الواجبات الأخلاقية التى تقع على عاتق أب فانه لم يعبأ بها ولم يكترث لها . انه لا يبالى بأبنائه ، بل يتركهم فى الفناء الخلفى من منزله ، ويعد نفسه سعيداً حين يُنتزعون منه . ثم ينسى وجودهم آخر الأمر نسياناً تاماً . ان قاعدة السلوك التى ارتضاها هذا الرجل لنفسه وأخذ بها تتلخص فى قول القائل : après moi le déluge [1] ان نظراته ومفاهيمه تجعل منه نقيض المواطن ، فهو يعيش بعيداً عن المجتمع ، فى عزلة تشبه أن تكون معادية للمجتمع ، ولسان حاله يقول : «الا فليهلك المجتمع كله ، شريطة أن أكون انا بخير» . ولقد كان بخيرٍ فعلاً ، فهو راض عن مصيره ، مغتبط بما ناله ، يتمنى بحرارة أن يعيش على هذا النحو عشرين سنة أخرى أو ثلاثين سنة أخرى . وهو يغبن ابنه ويسلبه حقه ، وبالمال الذى آل الى الفتى من ميراث أمه ورفض الأب أن يردَّه اليه ، يحاول أن ينتزع من الأبن عشيقته . لا ، لن أترك عبء الدفاع عن المتهم للمحامى اللامع الذى وفد الينا من سان بطرسبرج ! سأقول الحقيقة بنفسى ، لأننى أفهم الاستياء والحقد اللذين راكمهما هذا الأب فى نفس ابنه . ولكن كفانا ما قلناه عن ذلك العجوز ، لأنه قد عوقب على آثامه عقاباً كافياً . ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الأب من معاصرينا . أتقولون اننى أهين المجتمع اذا زعمت أنه

---

[1] من بعدي الطوفان ! (بالفرنسية فى الأصل) .

واحد من عدد كبير من الآباء المعاصرين ؟ وأسفاه ! ما أكثر الآباء الذين لا يمتازون عليه ، فى عصرنا هذا ، الا بأدب أرهف يمنعهم من أن يفصحوا عن أنفسهم بذلك الاستهتار نفسه ، بينما هم فى الواقع يشاطرونه آراءه ! لنسلّم جدلاً بأننى متشائم . لقد اتفقنا على أن تعذرونى هذه المرة . فليكن مفهوماً منذ الآن أنكم قد لا تصدقوننى ، ولكننى سأعبّر عن ارائى تعبيراً حراً ، وسأقول كل ما أعتقد به فى قرارة نفسى . لكم أن لا تصدقونى . ولكن شيئاً مما سأقوله سيبقى فى نفوسكم مهما يكن من أمر .

لننتقل الآن الى أبناء ذلك العجوز ، ذلك الأب الذى هو رب أسرة : ان واحداً منهم يجلس الآن أمامكم فى قفص الاتهام ، وسأتحدث عنه ، فيما بعد ، حديثاً أطول . أما الآخران ، فسأوجز الكلام عليهما . ان أكبرهما هو واحد من شبابنا الحديثين يملك ثقافة ممتازة وذكاءً عظيماً ، ولكنه لا يؤمن بشىء ، لأنه كان قد نبذ وجحد أموراً كثيرة قبل ذلك ، كأبيه تماماً . اننا نعرفه جميعاً : لقد استُقبل استقبالاً حاراً فى مجتمعنا ، وأُحسنت وفادته . وكان لا يخفى آراءه . بالعكس : كان يجاهر بها ، وذلك يجيز لى أن أتكلم عنه اليوم بشىء من الصراحة ، فأحلله لا من حيث هو شخص مفرد طبعاً ، بل من حيث هو واحد من أسرة كارامازوف . لقد انتحر بالأمس ، فى الطرف الأقصى من المدينة ، رجلٌ شقى ضعيف العقل مريض ، مرتبط بهذه القضية ارتباطاً وثيقاً ، هو الخادم القديم وربما الابن غير الشرعى لفيدور بافلوفتش . أقصد سمردياكوف . لقد روى لى ذلك المسكين ، أثناء التحقيق الأولى ، وهو يبكى بكاءً متشنجاً ، كيف أن هذا الشاب كارامازوف ، أعنى ايفان

فيدوروفتش ، قد روّعه بإباحية تفكيره . كان يقول له : «كل شىء مباح ، كل شىء مشروع ، كل ما قد يشتهيه الانسان فى هذا العالم حلال ، وما ينبغى أن يحرَّم شىء بعد الآن» . ذلكم ما كان يعلّمه اياه . ويظهر أن هذا الرجل الضعيف العقل قد فقد صوابه نهائياً بتأثير هذه الافكار ، وان يكن من الجائز أيضاً أن يكون مرضه ، وهو مرض الصـــــرع ، قد أثر فى حالته العقلية كذلك ، وأن تكون الدراما الرهيبـــة المروِّعة التى وقعت بالمنزل قد أسهمت فى اختلال عقله . ومع ذلك فان هذا الأبله قد ساق فى يوم من الأيام ملاحظة شائقة هامة يمكن ان يفاخر بمثلها رجل أذكى منه ، ولذلك أرى أن من المفيد أن أذكرها هنا . لقد أفضى الىَّ بقوله : «بين جميع ابناء فيدور بافلوفتش ، لا شك أن الذى يشبه فـى طبعه أكثر مما يشبهه سائرهم ، هو ايفان فيدوروفتش» . اريد أن أختم ، بهذه الملاحظة ، التحليل السيكولوجى الذى عرضته لكم ، فليس يجمل أن ألح مزيداً من الالحاح . ولا أريد أن أتعجل استخراج النتائج وأن أكون المتنبئ بالشقاء لشاب فى فجر حياته . لقد رأينا فى هذه القاعة ، منذ اليوم ، أن القوة التى لا سبيل الى مغالبتها ، أعنى قوة الحقيقة ، ما تزال تؤكد نفسها فى قلب هذا الفتى ، وأن عواطف التعلق العائلى لم يخنقها الكفر بالدين ولا قضى عليها الاستخفاف بالأخلاق ، وهما كفر واستخفاف يرجعان الى الوراثة أكثر مما يرجعان الى تفكيره الخاص .

وانظروا بعد ذلك الى أصغر هؤلاء الأبناء . ان هـــذا الابن ما يزال مراهقاً متواضعاً تقياً يحاول ، على نقيض المفاهيم الفلسفية المظلمة التى تدفع الى الانحلال والتى أخذ بها اخوه ،

يحاول أن يتعلق بما يُزعم أنه «الأصول الشعبية» ، أو ما يطلق عليه فى أيامنا هذه ، فى صفوف بعض الأوساط المثقفة من مجتمعنا ، هذا الاسم الذى فيه شىء من الادعاء . وها قد تعلق بدير ، وكاد يرتدى مسوح الراهب . يخيَّل الىَّ أنه لا بد أن يكون قد أحس ، ربما على غير شعور منه ، بذلك الكرب الوجل وذلك القنوط الخائف اللذين يقاسى منهما الآن ، فى بلادنا الشقية ، هذا العدد الكبير كله من الأشخاص الذين يروعهم ما يشيع فى مجتمعنا من استهتار واستخفاف ، وتحلل من الأخلاق . واذ كان هؤلاء الأشخاص يعزون الشر كله الى الثقافة الغربية ظلماً بغير حق ، فانهم يرجعون ، كما يُقال ، الى «تراب الوطن» ، ويسارعون الى الاحتماء بذراعى الأرض الأم التى أرضعتهم ، مثلهم كمثل أولئك الأطفال الذين روَّعهم رؤى أشباح ، فهم يلوذون بالصدور الناضبة من أمهاتهم الموهنة ، آملين أن يجدوا فيها هدوء النوم وراحة الغفو على أقل تقدير . وهم يتمنون أن يستطيعوا أن يناموا هذا النوم طول حياتهم ، هرباً من منظر الأهوال التى تروعهم . اننى ، من جهتى ، أتمنى أحسن التمنيات لمستقبل هذا المراهق الطيب الموهوب . وآمل أن لا تنقلب مثاليته الشابة وميله الى الأفكار الشعبية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، الى غيبية مظلمة فى مجال الأخلاق ، والى تعصب قومى أعمى على صعيد السياسة . فهذان ضلالان هما فى نظرى أشد شؤماً على مستقبل أمتنا من الانحلال الأخلاقى المبكر الذى ولَّدته فى أخيه ثقافة غربية لم يحسن هضمها وتمثلها» .

هنا انطلقت بعض الأكف بالتصفيق من جديد ، على ذكر التعصب القومى والغيبية . وواضح أن ايبوليت كيريلوفتش

قد استرسل فى هذا الكلام المستفيض ، وان ملاحظاته لم تكن قريبة الصلة بالقضية . ثم لقد كان كلامه كله غامضاً مبهماً ، ولكن هذا الرجل المصدور الحانق قد أراد أن يفصح عمَّا بنفسه مرةً واحدة فى حياته على الأقل . وقد قيل فيما بعد انه انما انقاد فى تحليله النفسى لايفان فيدوروفتش لعاطفة فيها شىء من حقد لان ايفان فيدوروفتش كان قد أحرجه وأربكه مرة أو مرتين فى الأحاديث التى كانت تدور فى صالونات المجتمع ، فلم ينس ايبوليت كيريلوفتش ذلك ، فاستغل هذه المناسبة من أجل أن يثأر لنفسه وأن ينتقم فيما قيل . ولست أدرى مدى صحة هذا الاستنتاج . مهما يكن من أمر ، فان هذا الجزء من خطابه لم يكن الا استهلالاً ، وسوف يأخذ الآن بمعالجة القضية من كثب . واصل وكيل النيابة القاء خطابه فقال :

«اعود الآن الى الابن الثالث من أبناء رب هذه الأسرة الحديثة انكم ترونه أمامكم جالساً فى قفص الاتهام ، وأمام أبصاركم تخطر حياته كلها ، أعماله وسلوكه : لقد حانت الساعة التى يتضح فيها كل شىء . انه يمثل ، خلافاً لما يمثله أخواه من اتجاهات أوروبية أو ميول شعبية ، انه يمثل روسيا على حالتها الطبيعية ان صح التعبير ، ولكن لا روسيا كلها من حسن الحظ ، لا روسيا كلها والحمد لله ! ولكننا نجد روسيا فيه ، نشم رائحتها المألوفة ، نحزر حضورها ! نعم ، نحن أناس على حالة الطبيعة ، يختلط فينا الخير والشر اختلاطاً غريباً . نحب الثقافة ونعجب بشيللر ، ولكننا نعربد فى الحانات ونجد لذةً فى جرِّ رفاق السكر من لحاهم . صحيح أننا نعرف كيف نكون اخياراً طيبين وكراماً أسخياء فى المناسبات ، ولكن

ذلك لا يحدث لنا الا حين نكون سعداء راضين عن أنفسنا .
نحن نحب الأفكار النبيلة ، ونلتهب حماسةً لها ، نعم ،
نلتهب حماسةً لها ، ولكن شريطة أن تهبط علينا من السماء
بغير جهد نبذله ، وأن لا تكلفنا شيئاً ، خاصةً أن لا تكلفنا
شيئاً . نحن لانريد أن نبذل لها شيئاً ، نحن نكره أن نكون
مضطرين الى العطاء . ولكننا فى مقابل ذلك نحب أن نأخذ ،
نحب الأخذ فى جميع الميادين . لسان حالنا يقول : اعطونا ،
اعطونا جميع خيرات الحياة (أقول جميع الخيرات لأننا لا
نرضى بأقل من ذلك) ، ولا تعارضوا رغباتنا فى شىء ، تروا
عندئذ كيف نستطيع ان نكون لطافاً محببين ؛ ما نحن بالطمّاعين
النهمين طبعاً ، ولكننا نريد أن تعطونا مالاً ، أن تعطونا مالاً
كثيراً ، أن تعطونا أكبر قدر ممكن من المال : وسوف ترون
عندئذ كيف نستطيع ، باحتقار نبيل كريم للمعدن الخسيس ،
أن نبدّده وأن نتلفه فى ليلة واحدة أثناء قصف محموم ولهو
مسعور . فاذا شاء سوء الحظ أن يُمنع عنا هذا المال ، أظهرنا
ما نحن قادرون على أن نفعله للحصول عليه متى اشتدت حاجتنا
اليه . ولكننى ألاحظ أننى أستبق الأمور . فلنعمد الى عرض
الأشياء مرتبة منظمة . هذا هو الصبى الصغير يتركه أبوه ،
«فيتسكع فى الفناء الخلفى حافى القدمين» ، على حد تعبير
مواطننا المحترم المحبب ، الذى يرجع الى أصل اجنبى
وأسفاه ! أعود فأقول : اننى لن أترك لأحد عبء الدفاع عن
المتهم . سوف أكون المتهم له والمحامى عنه فى آن واحد .
ذلك أننا بشر نحن أيضاً ، وسأعرف كيف أقيم وزناً لما تخلفه
مشاعر الطفولة وحياة المنزل الأبوى من آثار فى النفس وما تتركه
من بصمات على الطبع . ويكبر الصبى ، فيصبح مراهقاً ،

ثم يصبح شاباً ، ويخدم فى الجيش ضابطاً . وفى أعقاب
أعمال عنف قام بها ، وعلى أثر استفزاز الى مبارزة ، نُفى الى
مدينة صغيرة نائية ، تقع قرب حدود وطننا الغنى الواسع .
وهناك واصل حياته العسكرية ، واسترسل فى افراطه طبعاً ،
فهو يلهو ويقصف ويعبث . ولا بد له من المال ، لا بد له
من المال قبل كل شىء . لذلك قرر ، بعد مناقشات طويلة
ومجادلات كثيرة ، أن يتساهل مع أبيه ، فقبل أن يدفع له
أبوه مبلغاً أخيراً قدره ستة آلاف روبل ، وقد تقاضى هذا المبلغ
فعلاً . لاحظوا أن هناك سنداً ممهوراً بتوقيعه هو رسالة يصرح
فيها أنه يتنازل عن باقى الميراث ، وأنه يعد استلام هذه الستة
آلاف روبل نهاية لنزاعه مع أبيه فى أمر هذا الميراث . وفى
تلك الفترة يلتقى بفتاة نبيلة الطبع عالية الثقافة . أوه ! اعفونى
من الدخول فى التفاصيل ، فقد سمعتم هذه القصة هنا !
ان المسألة مسألة شرف ومروءة ، مسألة تضحية ، فلا يسعنى
الا أن أسكت باحترام واجلال . ان الصورة التى رُسمت لكم
عن شاب هو انسان طائش منحل ولكنه يعرف كيف ينحنى
أمام نفس نبيلة صادقة ، أمام مثل أعلى كريم رفيع ، ان هذه
الصورة قد أحببناها جميعاً واعجبنا بها جميعاً . ولكنكم قد
اطلعتم بعد ذلك بلحظات ، فى هذه القاعة نفسها ، على
نحو لم يكن يتوقعه أحد ، اطلعتم على قفا الصورة . سأمتنع
هنا أيضاً عن فرض الفروض ، وسأعدل عن تحليل الأسباب
التى دفعت الشاهدة الى تغيير موقفها . وهى أسباب موجودة
حتماً . لقد سمعنا هذه الشاهدة نفسها ، وهى تبكى من آلام
طال كظمها ، تعلن لنا أنه كان اول من ازدراها واحتقرها للعمل
الذى قامت به ، العمل الذى ربما كان فيه طيش وعدم تبصر ،

ولكنه نبيل المنبع كريم الهدف على كل حال . ففى منزل هذا الشاب ، فى منزل خطيبها ، انما رأت هذه الفتاة ، لأول مرة ، تلك النظرة التى تشتمل على معنى الاحتقار والسخرية ، تلك النظرة التى لم تطق هذه الفتاة خاصة أن تحتملها . وحين علمت أنه خانها (وقد خانها لاعتقاده بأن عليها أن تحتمل منه كل شىء ، حتى الخيانة) ، تعمَّدت أن تعرض عليه تلك الثلاثة آلاف روبل وهى تُفهمه بوضوح ، وربما بوضوح مفرط ، انها انما تعطيه هذا المال لتتيح له أن يمضى فى خيانته الى نهايتها . وكانت نظرتها الفاحصة تسأله : «هيه ! أتقبل المال ام لا ؟ أتبلغ هذا المبلغ من الاستخفاف ؟» وقد قرأ هو نظرتها ، وأدرك ما يخفيه تفكيرها ، أدركه ادراكاً تاماً (ألم يعترف فى هذا المكان نفسه ، أمامكم ، أنه أدركه ؟) ولكنه قبل الثلاثة آلاف روبل دون تردد ، وانفقها خلال يومين على لهوه فى حبه الجديد . فماذا نصدق ؟ هل الحقيقة قائمة فى الصورة الأولى التى رُسمت لنا عنه هل الحقيقة قائمة فى أسطورة تلك الاندفاعة النبيلة الكريمة التى حملت الضابط الشاب على أن يضحى بآخر ما يملك ، وعلى أن ينحنى أمام الفضيلة ؛ أم الحقيقة قائمة فى ظهر تلك الصورة ، فى ظهرها الذى يبعث على الاشمئزاز ويثير التقزز ؟ انه ليحدث فى الحياة عادةً أن توجد الحقيقة فى الوسط ، حين يكون هناك عنصران متناقضان . ولكن الأمر ليس كذلك فى الحالة التى ننظر فيها الآن . وانما أغلب الظن أن الشاب كان صادق النبل فى المرة الأولى بقدر ما كان صادق الخسة والحطة فى المرة الثانية . فاذا سألتمونى : لماذا ؟ قلت لأننا ازاء طبائع عريضة هى طبائع آل كارامازوف — وذلك ما أريد أن أخلص اليه — أعنى

أننا ازاء أناس قادرين على أن تضم نفوسهم جميع تناقضات الحياة ، وعلى ان يرنوا بأبصارهم الى الهوتين كلتيهما فى آن واحد ، الهوة العليا التى تحلق فيها أنبل المثل والهوة السفلى التى تغوص فيها أحقر المخازى وأدنأ انواع السقوط . تذكروا تلك الفكرة اللامعة التى عبَّر عنها ، منذ قليل ، السيد راكيتين ، هذا الشاب الذى أوتى موهبة الملاحظة العميقة ، وأتيح له ان يدرس آل كارامازوف من كثب ، وذلك حين قال : «ان هذه الطبائع العنيفة المسعورة تحتاج الى الاحساس بالدناءة والسقوط كحاجتها الى أرفع النبل» . ألا ان هذا لصدق كل الصدق : ان هذا المزيج الشاذ وهذا الخليط العجيب هما من الأمور التى يقتضيها طبعهم بغير انقطاع . لا بد لنا من هوتين اثنتين أيها السادة ، هوتين اثنتين نستطيع أن نرنو اليهما معا فى آن واحد ، والا شعرنا بالشقاء وعدم الرضى ، لأن حياتنا يعوزها الامتلاء عندئذ . نحن عريضون ، عريضون عرض أمنا الطيبة روسيا ؛ نحن نستطيع أن نضم فى أنفسنا كل شىء ، أن نضم كل شىء وأن نقبل كل شىء ! بالمناسبة ، أيها السادة المحلفون لقد أثرت الآن موضوع تلك الثلاثة آلاف روبل ، فاسمحوا لى أن أستبق الأمور قليلاً . هل فى وسعكم أن تتصوروا أن هذا المتهم ، الذى وصفت لكم طبعه ، قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه الذى أخذ فيه المال من خطيبته — لقاء مذلة لا مذلة بعدها ، وخزى لا يضارعه خزى — هل فى وسعكم أن تتصورا أنه قد أمكنه فى ذلك اليوم نفسه أن يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يعلقه بعد ذلك فى عنقه خلال شهر بكامله دون أن يفض الكيس ويأخذ المال ، رغم الاغراءات التى لا حصر لها والحاجات التى لا سبيل الى مغالبتها ،

رغم هذه الاغراءات وهذه الحاجات التى تحفل بها حياته ؟ كيف يمكنه أن لا يمس هذه الذخيرة لا أثناء افراطه فى الشراب فى الحانات ، ولا فى اللحظة التى قام فيها بمساع لا يعلمها الا الله فى سبيل الحصول على المال من خارج هذه المدينة بغية أن يستطيع السفر مع حبيبته الغالية التى يريد أن يوفيها ما يريده منها أبوه ، غريمة ومنافسة ؟ أما أنا فأرى انه كان لا بد له أن يفض الكيس ، ولو لم يكن له من هدف الا أن لا يترك هذه المرأة العزلاء أمام اغراءات أبيه الذى يغار هو منه ، وأن يبقى الى جانبها حارساً يقظاً بانتظار اللحظة التى تقول له فيها اخيراً «أنا لك» ، فيستطيع عندئذ أن يهرب معها الى حيث يبعد بها عن هذه البيئة الموبوءة . ولكن لا ، انه يأبى أن يمس حرزه ؛ وما حجته فى ذلك ؟ ان الباعث الأول الذى ذكره ، كما قلنا منذ قليل ، هو رغبته فى أن يدخر هذا المال للحظة التى ستقول له فيها : «انا لك ، فخذنى الى حيث تشاء» ، فيكون فى وسعه عندئذ أن يرحل معها مستعيناً بذلك المال . ولكن هذه الحجة الأولى لا قيمة لها بالقياس الى الحجة الثانية ، وذلك باعتراف المتهم نفسه . كان المتهم يحدث نفسه قائلا : «ما ظللت أحمل هذا المال ، فاننى أكون شقياً ولكننى لا أكون لصاً ، لأننى أكون قادراً فى كل لحظة على أن أذهب الى خطيبتى التى أهنتها ، وأن أضع أمامها نصف المبلغ ، وأن أقول لها : «انظرى ! لقد أتلفت نصف مالك فى اللهو والقصف ، مبرهناً بذلك على أننى ضعيف مخلٌ بما تقتضيه الأخلاق ، وعلى اننى وغد ان شئت (اننى استعمل تعابير المتهم نفسها) ، ولكنى ، مهما أكن وغداً ، لست بسارق ! فلو كنت سارقاً لما رددت اليك النصف الذى

بقى لى من مالك وانما كنت أسطو عليه كما سطوت على النصف الأول» . يا لهذا التعليل لسلوكه ما أشد غرابته ! ان هذا الرجل العنيف ، ولكن الضعيف ، ان هذا الرجل الذى عجز عن مقاومة اغراء الثلاثة آلاف روبل فأخذها فى ظروف تلطخ شرفه ذلك التلطيخ كله ، يجد فى نفسه على حين فجأة قوةً رواقية تمكنه من أن يعلق بعنقه أكثر من ألف روبل دون أن يمس هذا المبلغ فى لحظة من اللحظات ! هل يتفق هذا التعليل وسيكولوجية المتهم ؟ اننى لا أتردد فى رفض هذا التعليل ؛ وسأجيز لنفسى أن أقول لكم كيف كان يمكن أن يتصرف ، فى رأيى ، دمترى كارامازوف الحقيقى ، اذا صدق أنه خاط على ذلك المال كيساً علقه فى صدره . انه فى سبيل أن يسر المرأة الحبيبة التى كان قد أتلف معها قبل ذلك مبلغاً مماثلاً ، كان سيفض الكيس فيأخذ منه ولو مائة روبل ، مثلاً ، فى أول الأمر ، قائلاً لنفسه عندئذ : «علام أدَّخر نصف المبلغ تماماً ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ؟ يكفى أن أرد اليها ألفاً واربعمائة ، فالأمران واحد» لأنه سيظل قادراً على أن يقول لها : — «أنا وغد ولكننى لست لصاً ، فهأنا ذا أرد اليك ألفاً وأربعمائة روبل ، على حين أن اللص يأخذ المبلغ كله ولا يرد منه شيئا» . وبعد مدة من الوقت ، يفض الكيس مرة أخرى ليأخذ منه مائة روبل أخرى ، ثم يفضه ليأخذ منه مائة ثالثة ، فمائة رابعة ، وهكذا دواليكم ؛ فما ينقضى الشهر الا ويكون قد أخرج ألفاً وأربعمائة روبل محتفظاً بورقة واحدة من أوراق المائة روبل قائلاً لنفسه : «يكفى أن أردَّ اليها مائة روبل ، أليس الأمران سيان ؟» — «أنا وغد ، ولكننى لست لصاً . لقد أتلفت فى اللهو والقصف ألفين وتسعمائة روبل ، ولكننى

أرد اليك مائة روبل رغم كل شيء ، وما كان اللص أن يرد اليك شيئا .» وفى النهاية ، بعد أن يتلف تلك المائة السابقة على الأخيرة ، كان سيهتف قائلاً : «علام أرد اليها مائة روبل ؟ فلأنفقها كما أنفقت ما عداها !» . ذلكم هو التصرف الذى كان سيتصرفه دمترى كارامازوف الحقيقى ، الذى نعرفه . على أن أسطورة الكيس هذه تتناقض مع الواقع تناقضاً مطلقاً . ان فى وسع المرء أن يتخيل كل شيء الا هذا . ولكننا سنعود الى هذا الأمر فيما بعد» .

وبعد أن عرض ايبوليت كيريلوفتش ، بالترتيب ، كل ما تبيَّن من التحقيق الأولى فيما يتعلق بالمنازعات المالية والخلافات العائلية بين الابن وأبيه ، وبعد أن أشار مرة اخرى الى أن الوقائع المعروفة ليس فيها أى شيء يجيز لنا أن نقطع برأى حاسم وأن نجيب اجابة شافية على سؤالنا أى الرجلين غش الآخر وغبنه عند اقتسام الميراث ، انتقل ايبوليت كيريلوفتش الى الكلام عن الحالة النفسية التى كان عليها ميتيا حين غدا اهتمامه بالثلاثة آلاف روبل فكرة ثابتة تحاصر ذهنه ولا تبرحه فى لحظة من اللحظات ، فجاء فى هذه المناسبة على ذكر تقرير الطب الشرعى .

٧

لمحة تاريخية

«يريد تقرير الطب الشرعى ان يبرهن لنا على أن المتهم لا يملك جميع قواه العقلية وأنه مصاب بمرض «المانيا» .

أما أنا فأؤكد أن المتهم يملك عقله كاملاً ، وذلك هو بلاؤه وشقاؤه : فلو كان لا يملك عقله كاملاً ، لكان من الممكن أن يتصرف تصرفاً أقرب الى الذكاء . أما أن يكون مصاباً بمرض «المانيا» ، فذلك أمر أسلِّم به ، ولكن مرض «المانيا» عنده لا ينصب الا على نقطة واحدة هى تلك التى أشار اليها تقرير الطب الشرعى ، أعنى الفكرة التى رسخت فى ذهنه عن أن أباه قد سلبه تلك الثلاثة آلاف روبل فيما يزعم . ومع ذلك نستطيع لتعليل ذلك الحنق الذى يجتاح نفسه ويستبد به كلما دار الكلام على هذه الثلاثة آلاف روبل ، أن نجد تفسيراً أبسط كثيراً من هذا التفسير القائم على أن بالمتهم استعداداً للجنون . اننى ، من جهتى أشاطر الطبيب الشاب رأيه الذى يقول ان المتهم كان يملك وما يزال يملك جميع قواه العقلية ، وأنه طبيعى سليم من الناحية السيكولوجية ولكنه منفعل حانق حاقد . تلكم هى عقدة القضية : ليس مبلغ الثلاثة آلاف روبل ، ليس المال هو السبب فيما كان يعانيه المتهم من غضب متصل وحنق مستمر . ان هناك سبباً آخر كان يثير غضبه ، وهو سبب خاص : انه الغيرة !» .

أفاض ايبوليت كيريلوفتش بعد ذلك فى الكلام على الهوى المشئوم الذى شدَّ المتهم الى جروشنكا ، وذكر تاريخ هذا الهوى منذ اليوم الذى ذهب فيه المتهم الى «تلك المرأة الشابة» ، على نية أن «يضربها» — على حد تعبيره — فاذا هو بدلاً من أن يضربها يتهاوى على قدميها . قال وكيل النيابة : «تلك كانت بداية هذا الحب . وفى ذلك الأوان نفسه انما ألقى العجوز ، أبو المتهم عينيه على هذه المخلوقة . يا للمصادفة العجيبة المشئومة ! لقد اشتعل القلبان حباً فى آن واحد ،

فى ساعة واحدة تقريباً ، مع أن كلاً منهما قد أتيح له أن يراها قبل ذلك مراراً كثيرة . وكان الهوى الذى ألهب الرجلين هوى محموماً مسعوراً يتفق وطبيعة آل كارامازوف . ولدينا اعترافات هذه المرأة الشابة نفسها ، اذ قالت : «لقد ضحكت على الرجلين كليهما» . نعم . لقد اشتهت فجأة ان تضحك عليهما كليهما . لم تكن قد اشتهت ذلك من قبل ، ولكن هذه الفكرة استهوت نفسها على حين فجأة ، فاذا بالرجلين يزحفان وراء قدميها آخر الأمر . فالعجوز الذى كان حتى ذلك الحين لا يعبد شيئاً الا المال ، أعدَّ لها ظرفاً فيه ثلاثة آلاف روبل يهديها اليها متى ارتضت أن تمن عليه بزيارة فى منزله ، بزيارة لا أكثر ؛ ثم سرعان ما وصل به الهيام الى درجة انه اصبح يرى من دواعى سروره ان يلقى على قدميها اسمه وثروته منى قبلت ان تصبح زوجته الشرعية . ان أمامنا شهادات واضحة جداً فى هذا الموضوع . أما المتهم فان المأساة التى صار اليها وضعُه واضحة لنا مبسوطة أمامنا . وهى «لعبة» هذه الانسانة مع ذلك . ان المغوية الخطرة لم تهب لهذا الشاب حتى أملاً ، لأنه لم يعرف أملاً ، أعنى لم يعرف أملاً حقيقياً ، الا فى آخر لحظة ، حين جثا أمام المرأة التى سببت له تلك الآلام كلها ومدَّ نحوها يديه اللتين كانتا قد تلوثتا بدم أبيه ، غريمه ومنافسه . وقد قبض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فلما رأت أنه يعتقل ، استولت عليها ندامة صادقة ، فهتفت تقول : «اسجنونى معه ، أريد ان أتبعه ، لأننى أنا التى اوردته موارد الهلاك ، لأننى أنا المذنبة !» . ان السيد راكيتين ، الشاب الذى يملك حساً سيكولوجياً مرهفاً والذى تحدثت عنه منذ قليل ، قد تولى تحليل خفايا هذه القضية ، ووصف طبع

بطلتنا فى بضع جمل موجزة ، فقال : «خيبة الآمال وتبدد الأوهام فى ميعة الصبا ؛ والمقاساة من كذب البشر فى سن مبكرة ؛ ثم السقوط ؛ وخيانة خطيب أغواها ثم هجرها ؛ وأخيراً البؤس ولعنات أسرة محترمة ، والاحتماء بتاجر عجوز ما تزال تعده الى هذا اليوم محسناً اليها . هكذا تجمَّع الغضب من وقت مبكر فى قلبها الشاب الذى لعله عرف اندفاعات طيبة كريمة . فنشأ عن ذلك طبع ردىء ، وميل الى كنز المال ، كما نشأ عنه موقف من المجتمع تسيطر عليه روح المكر والخداع والاحتقار والثأر والانتقام .» ان هذا التقييم يتيح لنا أن ندرك كيف أمكن هذه المرأة أن تلعب بالرجلين كليهما فى آن واحد ، بدافع النزوة وحدها ، لتلهو بهما لهواً خبيثاً شريراً ولو أدى ذلك بهما الى الدمار . وفى أثناء ذلك الشهر الملىء بحب لا يعرف الأمل ، وبسقوط أخلاقى ، وبالخيانة للخطيبة ، وبالاستيلاء على مبلغ أؤتمن عليه وليس له ، فى أثناء ذلك الشهر لا بد أن يكون المتهم قد عرف ، عدا هذا ، حنقاً شديداً بسبب غيرة متصلة كانت تعذبه عذاباً قاسياً ؛ وممن كانت غيرته ؟ من أبيه نفسه ! وأخطر ما فى الأمر أن العجوز الطائش المجنون كان يحاول أن يفتن المرأة التى توله بحبها بواسطة ذلك المال نفسه الذى كان ابنه يعده حقاً آل اليه من ميراث أمه ، ويدأب أبوه على حرمانه منه وحجبه عنه . نعم ، اننى لأعترف بأن احتمال هذا كان عسيراً عليه ! حتى ليمكن أن يتصور المرء أن يُصاب الشاب من ذلك بمرض «المانيا» . فليست المسألة مسألة مال فى الواقع ، وانما هى مسألة أن هذا المال نفسه يُستخدم فى تحطيم سعادته باستهتار مقزز !» .

بعد ذلك وصف ايبوليت كيريلوفتش كيف أن رغبة المتهم في قتل أبيه قد استولت على نفسه شيئاً فشيئاً ، وذكر الوقائع التي تسمح بتتبع نشوء الجريمة خطوة بعد خطوة . قال :

— كان في أول الأمر يذم ويقدح في الحانات ، وظل شهراً بكامله لا يعمل شيئاً غير أن يذم ويقدح . انه يحب صحبة الناس ، ويحلو له أن يفضي ، الى جميع من يلقاهم ، حتى بأشد أفكاره خطراً وايذاء ، ويقتضيهم ، لا يدري أحد لماذا ، أن يشاركوه همومه ويشاطروه هواجسه ، وأن يؤيدوه تأييداً كاملاً ، فلا يعارضوه في شيء ، والا ثارت ثائرته وأخذ يقلب كل شيء في الحانة (هنا ذكر وكيل النيابة الحادثة التي وقعت للمتهم مع النقيب سنيجيريف) . وقد انتهى الأمر بالذين لاحظوه وسمعوا كلامه خلال هذا الشهر الى الشعور بأن ما يعلنه هذا الشاب ليس صرخات باطلة وتهديدات عقيمة ، وأن دمتري كارامازوف ، وهو على ما هو عليه من اندفاع أخرجه عن طوره ، قد يضع تهديداته موضع التنفيذ متى حان الحين (وهنا وصف وكيل النيابة الاجتماع العائلي الذي عُقد في الدير ، وذكر أحاديث المتهم مع أليوشا ، وصوَّر ذلك المشهد الكريه الذي وقع في منزل الأب بعد الغداء يومَ اقتحم ميتيا المنزل واستعمل مع أبيه العنف) ثم تابع وكيل النيابة كلامه : لست أمضي الى حد الادعاء أن المتهم كان ، قبل وقوع مشهد العنف هذا ، قد فكر في الجريمة ملياً ، وعزم عزماً جازماً قاطعاً على ارتكابها . ولكنني أقول ان فكرة القتل هذه قد راودته مراراً وأنه قد فكر فيها تفكيراً واعياً ، وهذا ما تثبته الوقائع ، وأقوال الشهود واعترافاته هو نفسه . انني اعترف لكم ، يا سادتي المحلَّفين ، أنني ظللت حتى هذا اليوم أتردد في اتهام الرجل بأنه ارتكب ،

عن سابق اصرار وتصميم ، جريمة القتل هذه التي كان يحس بأنه مدفوع اليها . صحيح أنني كنت مقتنعاً بأنه فكر مراراً في أن يقدم في المستقبل على انهاء القضية بهذه الخاتمة الفاجعة ، ولكنني كنت مقتنعاً بأنه لم يفكر في هذا الحل الا على أنه احتمال قد يتحقق ، دون أن يحدد لتنفيذه يوماً بعينه ، وطريقة بعينها . وقد زالت اليوم ترددات هذه حين اطلعت على تلك الوثيقة الحاسمة التي قدمتها الآنسة فرخوفتسيفا الى المحكمة . لقد سمعتم يا سادتي كيف صاحت تقول : «هذه خطة قتل !» بهذا وصفت تلك الرسالة المشئومة التي كتبها هذا الرجل العاثر الحظ وهو في حالة سكر . والحق أن هذه الرسالة تدل على أن هناك خطة ، وعلى أن الجريمة قد ارتكبت عن سابق اصرار وتصميم . لقد كتبت هذه الرسالة قبل وقوع الجريمة بيومين ، ومعنى هذا أن المتهم قد حلف ، قبل تنفيذه خطته الرهيبة بثماني واربعين ساعة ، أنه اذا لم يستطع أن يحصل على المال في الغد ، فليقتلن أباه ليستولي على المبلغ المخبأ تحت الوسادة في ظرف مربوط بشريط وردي اللون ، «شريطة أن يكون ايفان غائباً» . هل سمعتم ؟ «شريطة أن يكون ايفان غائباً» . كان اذن في تلك اللحظة قد عيَّن جميع تفاصيل التنفيذ ، ووزن جميع الاحتمالات . ونحن نعلم أن الجريمة قد تم تنفيذها بعد ذلك على هذا النحو نفسه الذي ورد وصفه في الرسالة ! ان الاصرار والتصميم واضحان : لقد ارتكبت الجريمة بقصد السرقة . المتهم نفسه أعلن هذا ، كتبه بخط يده وذيَّله بتوقيعه . ولم ينكر المتهم توقيعه . فاذا قيل انه كان في تلك اللحظة سكران ، قلت ان ذلك لا ينقص من خطورة الأمر شيئاً . بالعكس : لقد كتب وهو في

حالة السكر ما سبق أن فكّر فيه ملياً وهو فى حالة الصحو . فلولا أنه كان قد اتخذ هذا القرار قبل أن يسكر ، لما كشف عن نياته وفضح نفسه حين أثر فيه السكر . وقد يقال ايضاً : فلماذا أعلن عن نياته قبل ذلك جهاراً فى الحانات ؟ ان الذين يريدون ارتكاب جريمة من الجرائم عن سابق **اصرار وتصميم** حقاً ، يصمتون فى العادة ويخفون ما عقدوا العزم عليه ! هذا صحيح ، ولكن المتهم لم يكن يصبح ذلك الصياح الا حين لم يكن لديه خطة مبيتة وبرنامج مدبـر ، وانما كان يشعر بمجرد الرغبة فى القتل والميل الى القتل . ولقد اصبح بعد ذلك لا يتكلم عن هذا الأمر الا قليلاً . وفى المساء الذى كتب فيه تلك الرسالة ، بعد أن سكر فى حانة «العاصمة الكبرى» ، بدا صامتاً على غير عادته ، ولم يلعب البلياردو ، وظل منتحياً لا يقترب من أحد ، ولا يخاطب أحداً ، واكتفى بأن صفع مستخدماً صغيراً يعمل فى محـل تجارى . ثم انه قد فعل ذلك على غير شعور منه تقريباً ، لأنه كان يستحيل عليه أن لا يتشاجر مع أحد فى حانة . صحيح أن المتهم ، حين عزم عزماً حاسماً على ارتكاب الجريمة ، لا بد أن يكون قد ساوره خوف من أنه أسرف فى الكلام بالمدينة قبل ذلك ، لأن ما قاله يمكن أن يكون شهادة عليه بعد تنفيذ خطته ، ولكن لم يكن له فى الأمر حيلة ، فقد فات الأوان وليس فى وسعه أن يسترد الأقوال التى أفلتت من لسانه . وقد راعاه الحظ حتى ذلك الحين ، فما يزال يعوّل على الحظ . لقد كان يتكل على نجمه يا سادتى ! على أن من واجبى أن أعترف أنه قد بذل جهوداً كثيرة فى سبيل أن يؤخر اللحظة المشئومة ، آملاً أن يتجنب هذا الحل

الدموى . كتب يقول بتلك اللغة الخاصة به : «سأحاول فى الغد أن ألتمس هذا المبلغ لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف يسيل الدم» . هنا أيضاً يبوح وهو فى حالة السكر بما كان قد انتواه وهو فى حالة الصحو ، وسوف يتصرف فى حالة الصحو هذا التصرف نفسه الذى وصفه فى رسالته ! .

عرض ايبوليت كيريلوفتش بعد ذلك بالتفصيل المحاولات التى قام بها ميتيا فى سبيل الحصول على المال لتجنب الجريمة . روى مساعيه لدى سامسونوف ، والرحلة التى قادته الى عند لياجافى ، مستشهداً على ذلك بوقائع مستمدة من ملف القضية .

— عاد الى المدينة أخيراً وقد انهدت قواه ، وأرهقه التهكم عليه ، وأنهكه الجوع ، وباع ساعته ليدفع للحوذى أجره (مع أنه كان يحمل ألفاً وخمسمائة روبل ، فى زعمه ، فى زعمه !) ، ومزقته الغيرة لأنه ترك محبوبته التى تشعل نار قلبه ، ويخشى أن تذهب أثناء غيابه الى فيدور بافلوفتش . . . عاد الى المدينة أخيراً . الحمد لله ! لم تذهب حبيبته الى فيدور بافلوفتش . وها هو ذا يوصلها بنفسه الى منزل حاميها سامسونوف (الغريب أنه لم يكن يغار من سامسونوف . تلك سمة سيكولوجية خاصةٌ تتميز بها هذه القضية) . ثم يسارع الى المرابطة فى مرصده خلف الحديقة . وهناك يعلم بنبأ نوبة الصرع التى أصابت سمردياكوف ، ويعلم كذلك بمرض الخادم الآخر . الساحة اذن خالية . وهو يعرف «الاشارات السرية» . أليس فى هذا اغراءٌ قوى له ؟ ولكنه يقاوم نداء الجريمة رغم كل شىء ، ويذهب الى خوخلاكوفا ، السيدة الجليلة التى تقيم فى مدينتنا الى حين ، والتى نحمل لها جميعا هنا أعمق

الاحترام . ان هذه السيدة تشفق عليه وترثى لحاله وتهتم بمصيره منذ زمن ، فها هى ذى تسدى اليه بنصيحة حكيمة عاقلة ، وهى أن يعدل عن هذا الحب المخزى ، وأن ينقطع عن هذا التسكع فى الحانات وأن يعزف عن تبديد قوى شبابه فى هذه الترهات الباطلة ، فيسافر الى سيبيريا ، الى مناجم الذهب . وقالت له : «هنالك ستجد مصباً للقوى والطاقات التى تفور وتغلى فى نفسك ، وهنالك ستجد فرجاً لطبيعتك الرومانسية المولعة بالمغامرات» .

وبعد أن قصَّ وكيل النيابة كيف انتهى هذا الحديث ، وحين وصل الى اللحظة التى علم فيها المتهم فجأة أن جروشنكا لم تمكث عند سامسونوف ، وصف الغضب الذى استولى على المسكين ، والغيرة التى تأججت نيرانها فى قلبه حين تصور أن هذه المرأة قد كذبت عليه ، وأنها الآن عند فيدور بافلوفتش . واعتقد ايبوليت كيريلوفتش عندئذ أن عليه أن يلفت الانتباه هنا الى الدور الذى لعبته المصادفة ، فقال :

— لو قد اتسع وقت الخادمة لأن تقول له ان حبيبته موجودة فى موكرويه مع «الصديق القديم المشروع» ، لما حدث شىء البتة . ولكن الخادمة ، وقد ماتت من الخوف ، طفقت تحلف له أغلظ الأيمان على أنها لا علاقة لها بالأمر ولا دخل لها فيه ، ولئن لم يقتلها المتهم فوراً ، فما ذلك الا لأنه أسرع يلاحق الغادرة الخائنة فى الحال . ولكن لاحظوا هذه النقطة : ان المتهم ، رغم أنه قد جُن جنونه غضباً ، لم ينس أن يأخذ معه مدق الهاون النحاسى . فلماذا يأخذ هذا المدق بعينه ولا يأخذ سلاحاً آخر ؟ ما دام قد فكر فى ارتكاب الجريمة خلال شهر كامل ، فمن الطبيعى أن يتناول أول شىء

تقع عليه يداه مما يصلح أن يكون سلاحاً . لذلك أدرك عفو الخاطر أن هذا المدق يفى بالغرض ويحقق الهدف . معنى ذلك أنه لم يتناول المدق المشئوم على غير شعور منه ، على غير ارادة منه . وها هو ذا الآن فى حديقة أبيه : الساحة خالية ، لا شهود ، لا شىء الا الليل العميق ، والظلمات ، والغيرة . وتصوَّرَ أنها هناك ، قرب غريمه ، مع منافسه ، وربما كانت فى هذه اللحظة تسخر منه وتستهزئ به . استولت هذه الفكرة على المتهم . ليس الأمر فى هذه المرة أمر شكـــوك وشبهات . . ليس الأمر أمر خوف مبعثه الخيال ، وا أسفاه . قال لنفسه : «الخيانة واضحة !» هى هنا ، هنا ، فى هذه الغرفة التى يرى نافذتها مضاءة . . . انها مختبئة وراء الستائر . ويتسلل المسكين نحو النافذة . . . هل تريدون منه أن يكتفى بأن يلقى على الغرفة نظرة احترام ، ثم يهدأ على الفور ، وينصرف فى تعقل وحكمة ، تجنباً لبلية من البلايا وتحاشياً للاندفاع فى عمل خطر مجاف للأخلاق ؟ ذلكم هو مع ذلك ما يحاولون أن يقنعونا به نحن الذين نعرف طبع المتهم وندرك الحالة النفسية التى كان عليها فى تلك الدقيقة ! اننا نعرف الحالة النفسية التى كان عليها ، نعرفها من وقائع ثابتة ، ونعرف خاصة أنه كان على علم بالاشارات التى يستطيع بواسطتها أن يحمل أباه على أن يفتح له الباب ، فيدخل الى البيت ! .

حين جاء ايبوليت كيريلوفتش على ذكر الاشارات السرية ، اعتقد أن من اللازم أن يستطرد قليلاً ، وأن يقطع ، الى حين ، عرضَه للأدلة التى تدين المتهم ، وأن يندفع فى تحليلات تتناول شخص سمردياكوف . كان واضحاً أنه انما يريد أن يقضى على ذلك الافتراض الذى يذهب الى أن سمردياكوف

قد يكون هو الجانى ، وأن يستأصل هذه الفكرة من عقول المحلفين استئصالاً نهائياً . لم يهمل وكيل النيابة أى أمر من الأمور التفصيلية . وأدرك الجميع أنه ، وان كان يستبعد هذا الافتراض باحتقار وازدراء ، يرى أن التوقف عنده والتلبث عليه أمر هام جداً .

٨

مقالة عن سمردياكوف

بدأ ايبوليت كيريلوفتش كلامه عن سمردياكوف بهـذا السؤال : «أولاً ، كيف نشأ هذا الاتهام ؟» ثم قال «ان أول من اتهم سمردياكوف هو المتهم نفسه لحظة القبض عليه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم حتى الآن واقعة واحدة يمكن أن تؤيد مثل هذا الاتهام . واقعة ؟ بل ولا ظلّ واقعة يستطيع انسان أوتى ذرة من عقل أن يعدها مقبولة محتملة . وبعد المتهم ، لم يعبر عن هذا الاتهام الا ثلاثة أشخاص هم : أخوا المتهم والسيدة سفيتلوفا . ولكن ايفان فيدوروفتش لم يفصح عن شكوكه وشبهاته حول هذا الموضوع الا فى هذه الجلسة ، بينما هو مريض قد انتابته نوبة هذيان وحمى عصبية لا شك فيها . أما خلال الشهرين الماضيين ، فقد ظل مقتنعاً ، كما نعلم ذلك ، بأن أخاه هو الجانى ، ولم يحاول قط أن يدحض هذه الفكرة . وان لنا عودة الى تصريحاته على كل حال . ثم لقد أكد لنا الأخ الأصغر من أخوى المتهم ، أكد لنا منذ

قليل أنه لا يملك أى دليل يمكن أن يثبت أن سمردياكوف هو الجانى ؛ وانما هو يبنى اتهامه على هذيان المتهم ، وعلى «تعبير وجهه» . نعم أيها السادة ، ان هذا الشاهد قد قدَّم لنا هذا الدليل مرتين ! أما السيدة سفيتلوفا فقد قالت كلاماً أغرب من هذا الكلام أيضاً قالت : «ما عليكم الا أن تصدقوا المتهم ، فليس هو بالرجل الذى يكذب !» . تلكم هى جميع الأدلة المادية التى أمكن تقديمها ضد سمردياكوف حتى الآن ، وقد قدمها الينا ثلاثة أشخاص يعنيهم مصير المتهم ويهمهم كثيراً . ومع ذلك ، أيها السادة ، فان الشكوك والشبهات حول سمردياكوف قد انتشرت بين الناس وما تزال تنتشر ، رغم كل ما فى ذلك من غرابة ، ورغم أن هذا الاتهام لا يمكن أن يصدقه العقل .

وهنا اعتقد ايبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن يرسم صورة سريعة لشخصية المتوفى سمردياكوف ، الذى «أنهى حياته أثناء نوبة لوثة مرضية عقلية وجنون» ، فصوَّره على أنه امرؤ ضعيف العقل ، يملك مبادئ ثقافة مشوشة ، ولكن المفاهيم الفلسفية التى تتجاوز حدود ذكائه قد هزّت عقله ، كما أن بعض الآراء الحديثة فى الواجب والالتزامات الأخلاقية قد روَّعت قلبه . وقد تعلم هذه النظريات ، على الصعيد العملى ، من الحياة الفاسقة التى يعيشها مولاه فيدور بافلوفتش الذى ربما كان أباه أيضاً ، وتعلمها على الصعيد النظرى من الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين ايفان فيدوروفتش ، الابن الاكبر من أبناء مولاه . كان ايفان فيدوروفتش يتسلى هذه التسلية من حين الى حين بدافع الملل أو من قبيل التفكه والتندر ، وذلك حين لا يكون لديه شىء آخر يسرّى به عن نفسه .

وواصل ايبوليت كيريلوفتش كلامه قائلاً :

— لقد وصف لى هو نفسه الحالة النفسية التى كان عليها طوال الأيام الأخيرة التى قضاها فى منزل مولاه . وأيّد ذلك أشخاص آخرون : أيّده المتهم نفسه خاصةً ، وأيّده أخو المتهم ، بل وأيده جريجورى أيضاً ، أى أيده جميع أولئك الذين يعرفونه عن كثب . ثم ان سمردياكوف ، الذى هدَّه مرض الصرع ، «كان جباناً كدجاجة» . لقد أسرَّ الينا المتهم فى لحظة لم يكن يتصور فيها ، بعدُ ما قد يشتمل عليه هذا التصريح من ضرر له ، أسرَّ الينا قوله : «كان يرتمى على قدمىَّ ويقبلهما» ، وقال لنا فى يوم آخر ، بهذه اللغة الخاصة به المعهودة فيه : «هو دجاجة مصابة بداء الصرع» . ومع ذلك فان هذا الرجل الضعيف هو الذى يتخذه المتهم نجياً له يفضى اليه بأسراره (وذلك ما اعترف هو به) ، ويبلغ من ترويعه أن المسكين ارتضى آخر الأمر أن يكون له جاسوساً ومخبراً ، فلما ارتضى أن يكون مخبراً منزلياً ، خان مولاه وأطلع المتهم على وجود الظرف المودع فيه المال ، وعلَّمه فى الوقت نفسه الاشارات التى سيتسنى له بواسطتها أن يدخل المنزل . وهل كان فى وسعه أن لا يطلعه عليها ؟ لقد قال لنا سمردياكوف أثناء التحقيق وهو يرتعش أمامنا خوفاً ، رغم أن جلاَّده كان قد قُبض عليه فى ذلك الحين وأصبح لا يستطيع أن يقتصَّ منه ، قال لنا : «لو كتمت عنه تلك الأمور لقتلنى ، رأيت بعينيىَّ أنه سيقتلنى لو كتمتها عنه . كان لا ينفك يشتبه فىَّ ويشك فى صدقى ، فكنت حين يروِّعنى ويرهبنى ، أسارع فأكشف له عن جميع الأسرار التى أعرفها ، لأدفع عن نفسى غضبه ، مبرهناً له على براءتى وصدقى ، منقذاً بذلك حياتى» . تلكم هى الألفاظ التى

أستعملها المسكين فى كلامه بنصها ، وقد دوَّنتها . «كنت اذا أخذ يصرخ ، ارتمى جاثياً على ركبتىَّ أمامه» . وكان الخادم المسكين ، وهو بطبيعته أمين أمانة بالغة ، قد حظى بثقة مولاه الذى أيقن من صدقه وأمانته يوم ردَّ اليه الأوراق النقدية الضائعة . ولا بد أن يكون سمردياكوف قد عانى كثيراً من عذاب الضمير لأنه خان مولاه هذا الذى كان يحبه ويرى أنه محسن اليه منعم عليه . ان أطباء الأمراض العقلية البارزين يعرفون أن الأشخاص المصابين بداء الصرع ميالون الى اتهام أنفسهم بغير انقطاع ، وأنهم يقاسون عذاباً شديداً من شعورهم بأنهم «مذنبون» فى حق أحد أو فى حق شىء ، وأن تبكيت الضمير يرهقهم ارهاقاً مضنياً دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فى كثير من الأحيان ، وأنهم يضخمون أخطاءهم وربما اخترعوا جرائم خيالية يقع فى وهمهم أنهم ارتكبوها . فما بالكم بانسان من هذا النوع أصبح مذنباً أو جانياً بالفعل لأنه أكره على ذلك بالارهاب . يضاف الى ذلك أن سمردياكوف كان يحس سلفاً أن الأحوال التى يرى تطورها فى منزل مولاه قد تؤدى الى بلاء عظيم وشر مستطير . فحين أراد الابن الاكبر من أبناء فيدور بافلوفتش ايفان فيدورفتش أن يسافر الى موسكو قبيل وقوع الكارثة ، تضرع اليه سمردياكوف أن يبقى ، ولكنه بحكم ما تتصف به طبيعته من خوف ووجل ، لم يجرؤ أن يفصح له بوضوح وجلاء عن المخاوف التى تساوره ، واكتفى بالالماع اليها الماعاً ، ولكن ايفان لم يفهم عنه . يجب أن نلاحظ أن وجود ايفان فيدوروفتش فى المنزل كان يبدو لسمردياكوف نوعاً من الحماية له ، كأنه كان على يقين من أن شيئاً لن يحدث ما بقى حاضراً . تذكروا ما كتبه دمترى كارامازوف فى

«رسالة السكر» التى بعث بها الى كاترينا ايفانوفنا : «شريطة أن يكون ايفان غائباً» . كان حضور ايفان اذن ضمانة لأستتباب الأحوال وطمأنينة البال فى نظر الجميع . ولكنه سافر . فما أن انقضت على رحيله ساعة واحدة ، حتى انتابت سمردياكوف نوبة صرع . وذلك أمر مفهوم معقول . يجب أن لا ننسى أن سمردياكوف كان ، خلال الأيام الماضية ، وقد هدَّه الخوف واضناه نوع من اليأس النفسى ، كان يحس بدنوّ نوبة من نوبات الصرع هذه التى سبق أن انتابته مراراً فى ساعات التوتر العصبى والانهيار النفسى . صحيح أن من المستحيل على المصاب بهذا الداء أن يتنبأ بالساعة واليوم اللذين ستوافيه فيهما نوبة كهذه النوبة ، ولكن جميع المصابين بهذا الداء يستطيعون أن يحسوا مقدماً بوشك حدوثها . ما ان ابتعدت عربة ايفان فيدروفتش عن المنزل حتى نزل سمردياكوف الى القبو لشأن من شئون الخدمة . وكان فى تلك اللحظة يرزح تحت وطأة الشعور باليتم ، ويحس بأنه أعزل لا يملك عن نفسه دفاعاً ، وكان يتساءل وهو يهبط السلَّم : «هل ستوافينى نوبة ؟ ما عسى يحدث لو سقطت الان ؟» . وبسبب هذه الحالة النفسية ، بسبب هذا الخوف وهذا السؤال الذى ألقاه على نفسه ، انما حدث له على حين فجأة تقلص فى الحلق هو ذلك التقلص الذى يسبق موافاة النوبة دائماً ، ثم اذا هو يتدحرج الى القبو مغشياً عليه . ان هذا الحادث الطبيعى تماماً ، قد ولَّد شكوكاً وشبهات ، فأراد بعضهم أن يرى فيه دليلاً على نية مبيَّتة ، وادعى أن هذا الرجل قد اصطنع النوبة اصطناعاً وتظاهر بها تظاهراً . فلنفرض الآن أن هذا الادعاء صحيح . غير أن هناك سؤالاً ما يلبث أن يطرح نفسه علينا وهو : ما عسى يكون هدف هذا

الرجل من ذلك التظاهر المزعوم ؟ ما عسى يكون الحساب الذى أجراه ، وما عسى يكون الغرض الذى سعى الى تحقيقه باصطناع النوبة والتظاهر بها ؟ لنترك الطب جانباً . فانه يقال ان الطب يمكن أن يخطئ ، وكثيراً ما يؤدى الى ضلال الرأى وفساد الحكم ، وان الأطباء لا يستطيعون أن يميزوا دائماً بين مرض صادق ومرض مصطنع . لنسلم بأن هذا صحيح . ولكننى أطلب منكم أن تجيبوا عن هذا السؤال : ما هى الفائدة التى كان يمكن أن يجنيها من التظاهر بالصرع ؟ لو كان قد نوى ارتكاب الجريمة ، أفكان يتمنى مثلاً أن يلفت اليه انتباه جميع من فى المنزل سلفاً بنوبة صرع يفتعلها ؟ لاحظوا ، يا سادتى المحلفين ، أنه كان فى منزل فيدور بافلوفتش ، ليلةَ حدوث الدراما خمسة أشخاص لا أكثر : فأما الأول فهو فيدور بافلوفتش نفسه . ولكن من الواضح أن فيدور بافلوفتش ليس هو القاتل ، وأما الثانى فهو خادمه جريجورى ، ولكن جريجورى أوشك أن يكون قتيلاً هو نفسه ؛ وأما الثالث فهو زوجة جريجورى ، الخادمة مارفا اجناتفنا ، ولكن من المضحك أن نتخيل أن تكون هى التى قتلت مولاها . لم يبق هنالك اذن الا شخصان ، هما المتهم وسمردياكوف . ولما كان المتهم يدعى أنه برىء ، فلا يمكن اذن أن تكون جريمة القتل قد ارتكبها أحد الا سمردياكوف . ليس هناك حل آخر ، اذ يستحيل اكتشاف شخص يمكن اتهامه بهذه الجريمة غير هذين الرجلين . على هذا النحو انما نشأ اذن ذلك الاتهام «البارع» الرهيب الى أبله مسكين هو ذلك الشقى الذى انتحر بالأمس . لقد اتهموه لسبب واحد هو أنه ليس هناك شخص آخر يمكن أن يوجهوا اليه اتهامهم ! ولو كانوا يملكون ولو ظلَّ شبهة تسمح باتهام

شخص سادس ، لاستحى المتهم نفسه — وأنا من هذا على يقين — أن ينسب الجريمة الى سمردياكوف ، ولوجه التهمة عندئذ الى ذلك الشخص السادس . ان الاشتباه فى سمردياكوف سخف محض ! .

ولكن دعونا من السيكولوجيا أيها السادة ، ودعونا من الطب ، ودعونا حتى من المنطق ، ولنقتصر على النظر فى الوقائع وحدها ، وفى الظروف المادية . لنترك للوقائع أن تتكلم . لنفرض أن سمردياكوف قد قتل ، ولنتساءل كيف قتل ؟ أقتل وحده ، أم قتل بالتواطؤ مع المتهم . لننظر فى الافتراض الأول ، وهو أن يكون سمردياكوف قد قتل بمفرده . من البديهى أنه اذا قد قتل ، ففى سبيل أن يجنى نفعاً ما ، ولما كان لا يجيش فى نفسه أى باعث من البواعث التى يمكن أن تحض المتهم على القتل ، كالكره والغيرة وما الى ذلك ، فان سمردياكوف ما كان ليرتكب هذه الجريمة الا بدافع الطمع فى المال طبعاً ، وذلك ليستولى على تلك الثلاثة آلاف روبل التى رأى مولاه يودعها فى ظرف ؛ حتى اذا عقد النية على ارتكاب هذه الجريمة أسرع يفضى الى شخص آخر — الى شخص يعنيه الأمر كثيراً ، أعنى الى المتهم — بجميع التفاصيل المتصلة بالمال ، وبالاشارات السرية وبالمكان الذى خبئ فيه الظرف ، وبالكتابة التى كتبت على الظرف ، وبالطريقة التى تسمح بدخول منزل رب الدار . أفقال هذا الكلام ليفضح نفسه ؟ أقاله ليحرض على الاستيلاء على المال شخصاً يستطيع أن يستولى عليه ويحرمه منه ؟ رب قائل يقول انه انما تكلم من شدة خوفه ! عجيب ! هل يقبل رجلٌ لم يتردد لحظة واحدة عن ارتكاب جريمة فظيعة هذه الفظاعة كلها ، جريئة هذه الجرأة كلها ، أن يفضى —

عن خوف ! — بمعلومات لا يعرفها أحد فى العالم سواه ، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد اذا هو كتمها ؟ لا ، لا ، ان الرجل مهما يكن شديد الخوف ، ما كان له أن يبوح لأحد ، بعد أن انتوى ارتكاب مثل هذه الجريمة ، بالتفاصيل المتعلقة بالظرف والاشارات ، ولو فعل ذلك لكان يشى بنفسه سلفاً . ان هذا الرجل كان يمكن أن يتخيل شيئاً آخر ، أن يكذب وأن يخترع ويلفق اذا هو أجبر على الكلام ، أما أن يبوح بهذه التفاصيل فلا ! ولو لم يذكر شيئاً عن المال ، ثم قتل واستولى على الظرف لنفسه ، لما خطر ببال أحد فى العالم — أكرر هذا — أن يتهمه بالقتل ، طمعاً فى المال ، لأن أحداً غيره فى العالم لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المبلغ ، ولا رأى هذا المبلغ ، ولا يخطر بباله أن له وجوداً فى المنزل . واذا اتهم الرجل بعد ذلك بالقتل ، فلا بد عندئذ من تخيل سبب آخر دفعه الى ارتكاب الجريمة . ولكن أحداً لم يتصور حتى ذلك الحين أن هناك أى سبب يمكن أن يحضه على القتل ، بل لقد كان جميع الناس يعرفون أن مولاه يحبه ويكرمه بمحضه ثقته ، فما كان للشبهات والحالة هذه أن تحوم حوله ، ولكان آخر من يمكن أن تُوجَّه نحوه الشكوك ، ولفكّر الناس عندئذ فى اتهام ذلك الذى تجيش فى نفسه بواعث من هذا النوع سبق أن جاهر بها فى كل مكان ، ولم يكتمها عن أحد ، بل كان يصارح بها أول قادم ، أى لاتهم الناس عندئذ ابن المجنى عليه ، اعنى دمترى فيدوروفتش . أفلا يكون هذا فى مصلحة القاتل سمردياكوف ؟ فما قولكم اذا كان دمترى هذا نفسه هو بعينه الشخص الذى أفضى اليه سمردياكوف ، بعد أن عقد النية على القتل ، بالمعلومات التى تتصل بالمال والظرف والاشارات

السرية ؟ يا للمنطق الواضح !

ويجيء يوم ارتكاب الجريمة التى انتواها سمردياكوف ، ويتدحرج الى أرض الكهف **متظاهراً** بنوبة صرع . ولكن ما هو هدفه من ذلك ؟ أيكون هدفه من ذلك أن يعدل الخادم جريجورى ، الذى كان قد قرر أن يداوى مرضه ، أن يعدل عن هذه المداواة وأن يرجئها الى وقت آخر ، ليتولى بنفسه حراسة المنزل ، اذ يلاحِظ أن المنزل أصبح بغير حراسة ؟ أم يكون هدفه من ذلك أن يبادر رب الدار ، حين يلاحظ أنه لم يبق هناك أحد يحرسه من عدوان ابنه الذى يخشى أن يداهمه ولا يكتم خشيته هذه ، أن يبادر رب الدار الى مزيد من الحذر والاحتياط والتيقظ ؟ أكثر من ذلك : هل كان سمردياكوف يستهدف ، من التظاهر بنوبة الصرع ، أن يُنقل من المطبخ الذى كان ينام فيه عادةً والذى كان يستطيع أن يخرج منه دون أن يراه أحد ، هل كان يستهدف أن يُنقل الى الطرف الآخر من المبنى الملحق ، الى غرفة جريجورى ليُمدَّد هناك صريعاً وراء حاجز رقيق لا يبعد عن سرير الخادم العجوز وامرأته الا ثلاث خطوات ، كما كان يُفعل ذلك به كلما وافته نوبة من نوبات الصرع ، بأمر من رب الدار ومن مارفا اجناتفنا الرحيمة الشفوق ، حتى اذا أُضجع على حصيرة وراء ذلك الحاجز كان عليه أن يواصل التوجع والأنين طوال الليل ، ليحسن تمثيل دوره ، فاذا هو يوقظ الشخصين النائمين على بعد ثلاث خطوات منه (وذلك ما حدث فعلاً ، بشهادة جريجورى وامرأته) ؟ أيكون سمردياكوف قد تخيَّل هذا كله ، قد تخيل هذه التمثيلية كلها ، ليتسنى له أن ينهض فيمضى يقتل مولاه بمزيد من السهولة واليسر ؟

رب معترض يقول لى ان سمردياكوف انما تظاهر بنوبة الصرع ليدفع عن نفسه الشبهات بحجة مرضه ، وانه أطلع المتهم على المعلومات المتصلة بالظرف والاشارات السرية ، ليغرى المتهم بأن يجيء فيتولى القتل بنفسه ، حتى اذا فرغ المتهم من قتل أبيه وغادر المنزل حاملاً معه المال ، بعد أن يحدث ضجة وجلبة من شأنهما ان توقظا سكان الدار ، نهض سمردياكوف ، نعم ، نهض فمضى . . . مضى يفعل ماذا ؟ مضى ليقتل مولاه مرةً اخرى ، وليسرق مرة أخرى المال الذى سبقه اليه المتهم وذهب به . أتضحكون أيها السادة ؟ انى لأعترف لكم بأننى أشعر أنا نفسى بالخجل حين أرانى مضطراً الى النظر فى افتراضات من هذا النوع . ولكن هذا التفسير هو بعينه التفسير الذى يقدمه لنا المتهم . فتصورا وتأملوا ! ان المتهم يدعى أن سمردياكوف قد قام بقتل مولاه ويسلبه ماله ، فى الوقت الذى كان هو فيه غادر المنزل بعد أن جندل جريجورى واحدث ضجة . لن أطيل الكلام على هذا التساؤل : كيف تسنى لسمردياكوف أن يتنبأ بكل شىء هذا التنبؤ ، وأن يحسب حساباً دقيقاً ان الابن العنيف المندفع الخارج عن القانون سيجيء لا لغرضٍ آخر غير أن يلقى من خلال النافذة نظرة احترام ، وأنه على علمه بالاشارات السرية سينصرف فى الحال تاركاً الغنيمة له هو سمردياكوف ؟ أيها السادة ، اننى أسألكم جاداً : فى أية لحظة ارتكب سمردياكوف الجريمة ؟ دلُّونى على تلك اللحظة ، والا لم يمكن النظر فى هذا الافتراض أساساً .

قد يقال لعل نوبة الصرع كانت صادقة غير مصطنعة ، ولعل المريض صحا من غيبوبته فجأة ، فسمع صراخاً فخرج . وماذا بعد ذلك ؟ لعله نظر حواليه فعزم أمره على حين بغتة

قائلاً : «آ . . . عندى فكرة ! سأمضى أقتل مولاى !» .
ولكن أنَّى لسمردياكوف أن يكون قد حزر ما وقع وقد كان حتى ذلك الحين مغشياً عليه ؟ اننى أتوقف عن الاسترسال فى مثل هذا الكلام ، لأن للخيال حدوداً هو أيضاً . . .

وقد يقول نفر ممن أوتوا فكراً مرهفاً : ربما كان هذا كله صحيحاً ، ولكن أفلا يمكن أن يكون قد قام بين الرجلين تواطؤ على الجريمة ، فارتكباها معاً واقتسما المال ؟

ذلكم فى الواقع افتراض له وزنه ، افتراض يستند الى قرائن قوية جداً تؤكده ، كما سترون : أحد الشريكين يقتل ويتحمل كل العناء وحده ، بينما الثانى يستريح متظاهراً بنوبة صرع ، لا لشىء الا أن يجعل جميع من بالمنزل فى يقظة ، وأن يثير القلق فى نفس مولاه وفى نفس جريجورى ! ألا أنه لأمر شائق أن نعرف ما عسى تكون الأسباب التى دفعت الشريكين الى تخيل خطة حمقاء الى هذا الحد ! وقد يقول بعضهم ان مشاركة سمردياكوف فى الجريمة لم تكن مشاركة فعَّالة ، وانما كانت مشاركة سلبية لعله قبلها على مضض ، فلعل المسكين لم يزد على أن ارتضى أن لا يعارض صاحبه فى ارتكاب الجريمة ، وذلك من شدة ما شعر به من خوف ، وما كان يقاسيه من ارهاب صاحبه له ؛ واذ أدرك مع ذلك أنه سيتهم بأنه سهَّل مقتل مولاه لأنه لم ينبِّه ولم يسارع الى الدفاع عنه ، فلعله توسَّل الى دمترى فيدوروفتش كارامازوف سلفاً أن يأذن له بأن يصطنع أثناء ذلك نوبة صرع قائلاً له : «اقتل ما شاء لك هواك أن تقتل ، فذلك أمر لا شأن لى به» . ولكن لو صحَّ هنا لكان من شأن نوبة الصرع أن تنبِّه المنزل كله حتماً ، ولما قبل دمترى كارامازوف الذى لا بد أن يتنبأ بذلك ، لما قبل

تدبيراً من هذا النوع . ومع ذلك فلنسلم بأن دمترى قد ارتضى هذا التدبير . سوف ينتج عن ذلك فى هذه الحالة أن دمترى كارامازوف يكون هو القاتل ، هو المحرِّض والفاعل فى آن واحد ، أما سمردياكوف فلا يكون الا شريكاً مستتراً ، بل انه يكون أقلَّ من شريك ، يكون شاهداً كتم الجريمة رغم ارادته من شدة الخوف ؛ ولن يفوت المحكمةَ عندئذ أن تحدد درجة مسئولية كل من الرجلين . ولكن ما الذى رأيناه بالفعل ؟ رأينا المتهم ، ما ان قُبض عليه ، حتى ألقى الجرم كله على عاتق سمردياكوف ، واتهمه بأنه **وحده** الفاعل . انه لم يش به شريكاً له فى الجرم ، بل وشى به فاعلاً منفرداً بارتكاب جناية القتل . صاح يقول : «هو القاتل ، هو وحده القاتل ، هو الذى قتل وسرق ! . الجريمة من صنع يديه وحده !» فكيف نتصور أن يتهم كل من الشريكين صاحبه منذ أول لحظة ؟ ذلك أمر لم يسبق أن حدث حتى الآن . وانظروا أيضاً الى الخطر الذى يعرِّض له دمترى كارامازوف نفسه حين يتصرف هذا التصرف : انه هو القاتل الرئيسى ، على حين أن الآخر ليس له من المشاركة فى الأمر الا نصيب ضئيل وحصة تافهة ، فما هو الا شاهد لم يحرك ساكناً ، ولبث راقداً على حصيرته وراء الحاجز ؛ فحين يلقى دمترى كارامازوف الجرم كله على عاتق هذا الرجل ، فانما يعرِّض نفسه عندئذ لأن يستاء منه هذا الرجل وأن يثور عليه فيبادر الى الكشف عن الحقيقة كاملةً على الفور ولو بدافع غريزة حب البقاء وحدها . كان سمردياكوف سيروى عندئذ أنهما ارتكبا الجريمة معاً ، ولكنه لم يتولَّ هو تنفيذ القتل ، وانما اكتفى من شدة خوفه بأن يدع لصاحبه أن يفعل وأن لا يعارضه فيما عزم عليه من ارتكاب جريمة

القتل . ذلك أن سمردياكوف لا بد أن يدرك أن المحكمة كانت ستعترف بأن نصيبه من المشاركة فى الجريمة نصيب ضئيل ، ولا بد أن يأمل أن يكون عقابه ، اذا هو عوقب ، أخفَّ كثيراً من العقاب الذى ستنزله المحكمة فى الفاعل الرئيسى الذى يحاول أن يلقى الجرم كله على عاتقه . فلو كان الأمر كذلك ، اذن لأحس سمردياكوف بأنه مدفوع الى الاعتراف بكل شىء . ولكننا لم نر شيئاً من هذا . ان سمردياكوف لم يتفوه بكلمة واحدة عن هذا التواطؤ المزعوم ، رغم أن القاتل قد اتهمه اتهاماً قاطعاً صريحاً ، وكان يسميه دائماً على أنه الفاعل الوحيد الذى ارتكب الجريمة . وأكثر من ذلك أن سمردياكوف قد ذكر من تلقاء نفسه أثناء التحقيق أنه هو الذى زوَّد المتهم بالمعلومات التى تتعلق بالمبلغ ، وبالاشارات السرية ، فلولاه لما عرف المتهم من هذه المعلومات شيئاً . فهل كان يمكن أن يكشف لقاضى التحقيق عن هذه الحقائق كلها ، هل كان يمكن أن يعترف بأنه قد أطلع المتهم على هذه الأمور بنفسه ، لو كان شريكه فى الجرم فعلاً ؟ ألا انه لو كان شريكه حقاً لحاول استبعاد هذه التفاصيل ، ولأنكرها محاولاً أن يشوه الوقائع وأن يخففها . ولكنه لم يشوه شيئاً ولم يخفف شيئاً . ولا يمكن أن يتصرف هذا التصرف الا انسان برىء انسان لا يخشى أن يُتهم بالاشتراك فى الجريمة . وأمس شنق هذا الرجل نفسه وهو فى حالة انهيار مرضى مرده الى داء الصرع والى الكارثة التى ألمت بذويه ؛ وقبل موته كتب كلمة يقول فيها بأسلوبه الخاص : «أنهيت حياتى بارادتى حراً ، فلا تتهموا أحداً» . فلماذا لم يضف الى ذلك قوله : «أنا القاتل ، لا كارامازوف» ؟ انه لم يضف هذا الكلام . أيكون عنده من

شرف الذمة وعذاب الضمير ما يكفى لدفعه الى قتل نفسه ، ثم لا يكون عنده منهما ما يكفى لدفعه الى تبرئة برىء ؟

واليكم الآن شيئاً آخر : لقد أُتى الى هذه المحكمة منذ قريب بمبلغ من المال هو ثلاثة آلاف روبل على زعم أن هذا المبلغ هو الذى كان مودعاً فى الظرف الموجود الآن على منضدة أدلة الاتهام ، وقد ادعى الشاهد أنه أخذه أمس من سمردياكوف ولكن المشهد الأليم الذى جرى هنا منذ قليل ، ما يزال ماثلاً فى أذهانكم ، يا سادتى المحلفين . لن أذكر تفاصيل هذا المشهد ، وسأكتفى بأن أسوق بعض الملاحظات فى هذا الصدد وهى ملاحظات تافهة ، ولكنها لتفاهتها هذه نفسها قد تغيب عن البال وقد تُهمل ؛ فأقول أولاً : ان المفروض هو أن سمردياكوف قد انتحر أمس وردَّ المال لأنه شعر بعذاب الضمير . (فلو لا عذاب الضمير لما ردَّ المال) . وبالأمس اذن انما يكون سمردياكوف قد اعترف بجريمته لايفان كارامازوف لأول مرة ، كما ذكر لنا ايفان كارامازوف ذلك فى شهادته ؛ وبدون هذا لا يمكننا أن نفهم لماذا يكون سمردياكوف قد سكت عن الأمر حتى الآن . ولكن اذا كان سمردياكوف قد اعترف بجريمته ، فاننى أعود فأسأل : لماذا لم يعترف بالحقيقة كلها فى الكلمة التى كتبها قبل موته وهو يعلم أن بريئاً قد يصدر فى حقه غداً حكم فظيع ؟ ان المال وحده لا ينهض دليلاً على شىء . من ذلك مثلاً أننى علمت منذ أسبوع ، بطريق المصادفة وحدها ، كما علم ذلك شخصان آخران حاضران فى هذه القاعة أن ايفان كارامازوف قد صرف فى مركز المقاطعة سندين بفائدة خمسة فى المائة ، قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل فيكون المجموع عشرة آلاف روبل . واذا

كنت أذكر هذا فاننى لا أذكره الا لأبيِّن أن أى انسان يستطيع أن يحصل على مبلغ من المال فى لحظة معينة ، وان ابراز ثلاثة آلاف روبل يستحيل أن يبرهن برهاناً قاطعاً على أن هذا المبلغ هو بعينه المبلغ الذى كان مودعاً فى درج معين أو فى ظرف معيَّن . ثم اننى أتساءل أخيراً : لماذا لم يبادر ايفان كارامازوف ، حين حصل بالأمس من فم القاتل الحقيقى على اعترافات تبلغ هذا المبلغ من الخطورة ، أقول لماذا لم يبادر الى القيام بعملٍ من الأعمال على الفور ، لماذا لم يبادر الى ابلاغ القضاء فى الحال ؟ لماذا أرجأ تصريحه الى الصباح ؟ لماذا ؟ أحسب أننى أحزر : انه وهو مريض منذ ثمانية أيام ، انه وهو يعانى من هلوسات ويرى أشباحاً وتهجس فى نفسه أوهام فيتخيل أنه يرى فى الشارع أشخاصاً قد ماتوا منذ زمن طويل ، انه وهو فى عشية نوبة من نوبات حمى عصبية رأيتم كيف صرعته منذ قليل ، انه وهو فى تلك الحال قد علم فجأة بأن سمردياكوف مات ، فاذا هو يفكر التفكير التالى : «لقد مات هذا الرجل فيمكن اتهامه . أما أخى فسوف أنقذه . وعندى مال : سوف آخذ من هذا المال حزمة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل ، فأصرح للمحكمة بأن سمردياكوف أعطانيها قبل موته» . قد تقولون لى ان فى هذا مجافاةً للشرف والأمانة ، وان من واجب المرء أن لا يتجنى ولو على ميت ، وان من الواجب على المرء أن لا يفترى ولو لانقاذ أخيه . اننى أسلِّم بهذا . ولكن لعل ايفان فيدوروفتش قد كذب على غير شعور منه بأنه يكذب ، متخيلاً أن الأمور قد جرت فعلاً على هذا النحو ، لأن عقله قد اختل اختلالاً نهائياً حين علم بغتةً بنبأ موت ذلك الخادم . لقد شهدتم المشهد الذى جرى هنا ،

فرأيتم الحالة التى كان عليها هذا الشاهد . كان واقفاً على قدميه وكان يتكلم ، ولكن أين كان عقله ؟ وبعد الأقوال التى أوردها هذا الرجل المريض ، قدِّمت الينا وثيقة هى رسالة كتبها المتهم قبل وقوع الجريمة بيومين ، وأرسلها الى الآنسة فرخوفتسيفا ، مضمناً هذه الرسالة خطة مفصلة لتنفيذ الجريمة . فهل من الضرورى بعد هذا أن نطيل التفكير وأن نمعن فى التأمل من أجل أن نكتشف الفاعل ؟ لقد تم ارتكاب الجريمة على النحو الذى جاء وصفه فى هذه الرسالة تماماً ، فلا يمكن أن يكون الجانى الا ذلك الذى كتب الرسالة . نعم ، يا سادتى المحلفين «تمت الجريمة حسب المكتوب !» . ان المتهم لم يترك نافذة أبيه لائذاً بالفرار فى احترام ووجل ، بينما كان فوق ذلك مقتنعاً بأن حبيبته موجودة مع أبيه . هذا أمر غير معقول ويجافى الحقيقة . وانما الواقع أنه دخل البيت ، ونفذ خطته الى النهاية . جائزٌ أن يكون قد قتل وهو فى حالة اهتياج شديد وحنق مباغت سيطرت عليه واستبدت به منذ رأى غريمه المقيت . جائز أن يكون قد قتل فى لحظة واحدة ، جائز أن يكون قد قتل بضربة واحدة هوت بها ذراعه المسلحة بالمدق النحاسى ، ثم أدرك بعد ذلك ، حين فتش جميع أركان الغرفة ، أن تلك المرأة لم تكن هناك . ولكنه لم ينس ، بعد أن نفذ جريمة القتل ، لم ينس أن يدس يده تحت الوسادة ، فيسل الظرف الذى يحتوى على المال ، ذلك الظرف الممزق الذى يوجد الان على منضدة ادلة الاتهام . وانا أجىء الآن على ذكر هذا الظرف لأوجه انتباهكم الى أمر هو فى نظرى من الأمور الهامة جداً . لو كان الجانى مجرماً ذا خبرة ، لو كان قاتلاً يهدف الى سرقة مال ، أكان يترك هذا الظرف على أرض الغرفة ، قرب الجثة ،

50-1306

حيث عُثر عليه فيما بعد ؟ اذا فرضنا مثلاً أن جريمة القتل قد ارتكبها سمردياكوف بغية السطو على المال ، أفما كان يكتفى سمردياكوف عندئذ بأن يأخذ الظرف دون أن يخطر على باله أن يفضه ، لأنه موقن من أن المال مودع فيه ، فقد رأى مولاه يضع المال فى الظرف ويغلق الظرف على المال ؟ لو كان سمردياكوف هو القاتل اذن لأخذ الظرف قائلاً لنفسه : متى اختفى الظرف فلن يخطر ببال أحد أن هناك سرقة . اننى لأسألكم يا سادتى المحلَّفين : هل كان يمكن أن يتصرف سمردياكوف على النحو الذى تكشف عنه وقائع القضية ؟ هل كان يمكن أن يترك الظرف ملقى على أرض الغرفة ؟ لا ، ان هذا التصرف لا يمكن أن يكون الا تصرف قاتل خارج عن طوره ، قاتل أصبح لا يفكر تفكيراً واضحاً ، قاتل لم يجىء من أجل أن يسرق ولا سبق له أن سرق قبل ذلك فى يوم من الأيام ، قاتل لا يتصرف حتى فى تلك اللحظة ، حين دس يده فى السرير ليسل المال ، تصرفَ سارق يسطو على غنيمة ، وانما يتصرف تصرفَ رجل يسترد مالاً كان قد سُلب منه ؛ وتلك هى فى الواقع افكار دمترى كارامازوف فى هذا الشأن ، وهى أفكار كادت تصير فى ذهنه الى هوس يحاصره ولا يبارحه . لذلك فانه حين أمسك الظرف الذى لم يسبق أن رآه قبل ذلك ، سارع يمزقه ليتأكد من أن المال مودع فيه حقاً ، ثم وضع المال فى جيبه وولى هارباً دون أن يحمل نفسه عناء التفكير فى أنه يخلف وراءه دليلاً قاطعاً هو هذا الظرف الممزق الملقى على الأرض . ذلك كله من فعل كارامازوف ، لا من فعل سمردياكوف ، ذلك كله من فعل رجل لم يفكر ولم يتسع وقته لأن يفكر ! ويهرب دمترى كارامازوف ، ويسمع

صرخة الخادم العجوز الذى لحق به فأمسكه ، وكان سيقبض عليه ، فاذا بالعجوز يتهاوى على حين فجأة مجندلاً بضربة من المدق ؛ وعندئذ يثب المتهم من على السياج ، ويميل على العجوز . هل مال على العجوز من باب الشفقة والعطف ؟ ذلك ما يدعيه ، تخيلوا ! . . . انه يزعم أنه مال على الخادم العجوز شفقةً ورأفة ، ليرى هل فى وسعه أن يسعفه وينجده ! أتلك لحظة يشعر فيها المرء بالرحمة والحنان فعلاً ؟ لا ، وانما هو مال عليه ليرى هل الشاهد الوحيد الذى عرف جريمته ما يزال حياً ؟ ان كل باعث آخر ، وكل عاطفة أخرى ، لا يمكن أن يتصور العقل وجودهما فى مثل تلك اللحظة . لاحظوا أنه أخذ يتحرك ويضطرب قرب جريجورى ، وأنه مسح رأسه بمنديله ، فلما أيقن أن الخادم قد مات ، مضى ينصرف كمجنون ملطخاً بالدماء ، ليركض مرة أخرى الى منزل حبيبته . كيف لم يخطر بباله فى تلك الدقيقة أنه مغطى بالدماء وأنه سرعان ما سيُشتبه فيه ؟ ان المتهم يصرح لنا هو نفسه بأنه لم ينتبه الى الدم الذى كان ملطخاً به . ان فى وسعنا أن نصدق كلامه فى هذه النقطة . ذلك جائز جداً ، وذلك ما يحدث للمجرمين فى مثل تلك اللحظات على وجه العموم . انهم يجرون حسابات شيطانية فى بعض الأمور ، ثم هم ينسون التفكير فى أمور أخرى نسياناً تاماً . ثم ان سؤالاً واحداً كان يشغل باله فى تلك اللحظة ، فهو لا يفكر الا فى ذلك السؤال : أين هى ؟ كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين عساها تكون . وهرع الى منزلها ، فعلم هنالك بنبأ لم يدر فى خلده ولا كان فى حسبانه ، نبأ هز نفسه هزاً قوياً عنيفاً ، وهو : أنها سافرت الى موكرويه ، وأنها مع «صديقها القديم الذى لا يُجحد» .

٩

سيكولوجية مندفعة . عربة الترويكا تعدو . خاتمة مرافعة النيابة

واضح ان ايبوليت كيريلوفتش قد اختار لخطابه منهجاً في العرض هو المنهج التاريخي الصارم الذي يصطنعه جميع الخطباء العصبيين محاولين ان يلتزموا أطراً ذات حدود دقيقة في سبيل ان يضبطوا سيل اندفاعهم العارم . فلما وصل الى هذه النقطة من خطابه ، أفاض في الكلام على الحبيب الأول الذي «لا يُجحد» ، فساق في هذا الموضوع افكاراً شائقة . قال ان كارامازوف ، الذي يشعر بغيرة كاسرة من الجميع ، قد امحى فجأة وزال امام هذا الحبيب «القديم الذي لا يُجحد» ؛ وذلك امر يثير الاستغراب والدهشة لا سيما وانه لم يكد يفكر قبل الآن في الخطر الجديد الذي كان يهدده به هذا الغريم الذي لم يكن في حسبانه . كان يتصور هذا الخطر بعيداً ، فان رجلاً مثل كارامازوف لا يعيش الا في اللحظة الحاضرة . ولعل هذه الصفحة من الحياة الماضية التي عاشتها المرأة الشابة كانت قد اتخذت في ذهنه صورة وهم من الأوهام او خيال من الأخيلة لا يمت الى الواقع بصلة . ولكن ها هو ذا يدرك الآن ، محطّم القلب ، ان هذه المرأة ان اخفت عنه حتى ذلك الحين أمر وصول هذا الرجل في القريب ، وان كذبت عليه تلك الكذبة الأخيرة ، فما ذلك الا لأن لهذا الرجل وزناً كبيراً في حياتها بالفعل ، ولأنه يمثّل في الواقع كل آمال روحها ، واشواق قلبها . فلما ادرك هذه الحقيقة اذعن واستسلم .

«ليس في وسعي ، يا سادتي المحلفين ، ان اغفل هذه السمة من سمات طبع المتهم الذي كان يبدو عاجزاً عن القيام بتضحية كهذه التضحية حتى الآن . لقد استولت على نفسه فجأة حاجةٌ قوية الى الحقيقة ، واستولى عليه شعور بالاحترام لهذه المرأة ولحقها في ان تحب كما يشاء لها هواها حرةً طليقة ، وذلك في تلك اللحظة التي كان فيها قد صبغ يديه بدم أبيه من أجلها وفي سبيلها ولا شك ان هذا الدم كان يطالب بالثأر منذ ذلك الحين ، ولا بد ان المتهم كان يتساءل بعد ان ضيَّع نفسه وحطم وجوده على هذه الأرض : «ما أنا بالنسبة اليها **بعد اليوم** ، ما الذي استطيع ان أهبه الآن لهذه الانسانة التي احبها واعبدها اكثر من اي شيء في العالم ؟ ما أنا في نظرها بالقياس الى الصديق «القديم» الذي «لا يجحد» والذي عاد تائباً مليئاً بعذاب الضمير تجاه المرأة التي هجرها في الماضي ثم رجع يحمل اليها الآن حباً جديداً وآمالاً مشرقة في حياة شريفة سعيدة تبعثها بعثاً جديداً ؟» . نعم ، ما الذي يستطيع ان يقدمه اليها في هذه الساعة ، ما الذي يمكنه ان يهبه لها **الآن** ؟ لقد ادرك كارامازوف ذلك كله ، ادرك ان جريمته قد سدَّت أمامه جميع سبل الحياة ، وانه ليس بعد اليوم لا قاتلاً سينزل فيه العقاب ، وأنه اصبح لا ينتمي الى عالم الأحياء . أرهقته هذه الفكرة ودمّرته . وفي تلك اللحظة انما تصور ، على حين فجأة ، مشروعاً لا بد ان يكون بالنسبة الى طبع كطبعه المخرج الوحيد من وضع يائس . ذلك المخرج هو الانتحار . فها هو ذا يهرع الى الموظف برخوتين ليسترد مسدسيه المرهونين لديه ؛ وفيما هو في الشارع ، يسرع فيُخرج من جيبه الأوراق المالية التي من أجلها صبغ يديه بدم أبيه

منذ قليل . ذلك انه أصبح الآن فى حاجة الى المال اكثر من أى وقت مضى : فان كارامازوف سيموت ، ان كارامازوف سينتحر ، وينبغى ان يتذكر الناس هذا المشهد ! ليس عبثاً اننا شعراء ، ليس عبثاً اننا أفنينا حياتنا كشمعة أشعلناها من طرفيها . اليها ، اليها . . . وبعد ذلك . . . سأحتفل احتفالاً لم يُر له مثيل من قبل ، احتفالاً يظل يتحدث الناس عنه زمناً طويلاً بعدى . وفى وسط الصرخات الوحشية ، والأغانى الغجرية ، والرقصات المحمومة ، سأرفع كأسى ، فأشرب نخب السعادة الجديدة التى ستنعم بها المرأة المعبودة . وبعد ذلك ، فوراً بعد ذلك ، اهشم دماغى فأسقط على قدميها مكفراً عن ذنوبى وآثامى ! هكذا ستتذكر ميتيا كارامازوف ، وسترى كم كنت أحبها ، وسترثى عندئذ لحال ميتيا وتشفق عليه ! . ان فى هذا المشروع الذى عزم المتهم على انفاذه غير قليل من الخيال الحار والحماسة الروائية ، وان فيه كثيراً من ذلك الاندفاع العارم والحساسية الشديدة اللذين يتميز بهما آل كارامازوف ، وان فيه **شيئاً آخر** ، شيئاً آخر يا سادتى القضاة ، شيئاً كان يصرخ فى اعماق نفسه ويحاصر فكره ويسمم قلبه ، ألا وهو ضميره ، يا سادتى القضاة ، ضميره الذى أدانه وحكم عليه ، وأصبح يعذبه ويرهقه من أمره عسراً ! ولكن المسدس سيتيح له أن يضع حداً لكل شىء ، فهو الحل الوحيد ، ولا حلَّ سواه . أما عما **سيحدث بعد ذلك** ، فاننى لا أدرى هل تساءل كارامازوف فى ذلك الأوان عمّا سيصير اليه هناك . لا أدرى هل كان كارامازوف قادراً على ان يفكر فى حياته الآخرة كما فعل هاملت . لا يا سادتى القضاة ، هم عندهم امثال هاملت ؛ أما نحن فليس لدينا حتى الآن الا أمثال كارامازوف !»

وبعد ذلك وصف ايبوليت كيريلوفتش ما أعدَّه ميتيا بالتفصيل ، وصف زيارته للموظف برخوتين ، ومروره بمتجر البقالة ، ومناقشاته مع اصحاب العربات ؛ وذكر عدداً كبيراً من أقواله وصيحاته واشاراته وحركاته ، مستمداً ذلك كله من شهادات الشهود . فكان للوحة التى رسمها تأثير كبير فى الحضور ، وكان تكامل الوقائع التى سردها هو الذى خطف الانتباه وأسر العقول خاصةً ، وأصبح واضحاً للجميع ان هذا الرجل الذى كان يتخبط طائش العقل ولا يراعى نفسه هو الجانى فعلاً . وتابع ايبوليت كيريلوفتش كلامه فقال : «أصبح المتهم فى غير حاجة الى الحذر والتروى ، لذلك اتفق له مرتين او ثلاث مرات أن كاد يعترف بكل شىء ؛ فكان يُلمع الى جريمته بدون انقطاع ، ولكنه لم يمض الى حد التحدث عنها صراحةً (هنا ذكَّر وكيل النيابة بشهادات الشهود) ؛ حتى لقد صرخ يسأل الحوذى وهو فى طريقه الى موكرويه : «هل تعرف أنك تُقلُّ فى عربتك قاتلاً ؟» . ومع ذلك كان لا يملك ان يمضى فى اعترافاته الى آخرها . فانما المهم أن يصل أولاً الى موكرويه وأن يكمل القصيدة . ولكن اليكم ما كان ينتظر المسكينَ هناك : لقد لاحظ منذ الدقائق الأولى ، منذ ان وصل الى قرية موكرويه ، لاحظ أولاً ثم ادرك ادراكاً واضحاً بعد ذلك ان منافسه الذى كان يظن انه «لا يُجحد» ، ليس بالمنافس الذى «لا يُجحد» حقاً ، وان الحبيبة لا تريد ولا تقبل منه ، هو ميتيا ، ان يهنئها بالسعادة الجديدة . على انكم تعرفون الوقائع يا سادتى المحلَّفين ، تعرفونها من نتائج التحقيق . لقد انتصر كارامازوف على منافسه انتصاراً كاملاً . وعندئذ ، عندئذ يا سادتى ، انما بدأت مرحلة جديدة من مراحل عذابات

قلبه ، مرحلة هى أفظع المراحل التى عرفها والتى سيعرفها ايضاً .
آه يا سادتى القضاة ! الا اننا لنستطيع ان نؤكد ان الطبيعة المُساء اليها والقلب الآثم ينزلان عقاباً أشد هولاً من العقاب الذى تنزله فيه عدالتنا الأرضية . بل نستطيع ان نذهب الى أبعد من هذا فنؤكد ان العقاب الذى يمكن أن توقعه العدالة الانسانية يخفف العقاب الذى توقعه الطبيعة ، وهو فى هذه الأحوال ضرورى لنفس المجرم ، لأنه السبيل الوحيد الى نجاة روحه من اليأس . ليس فى وسعنا ان نتخيل انواع الهول وضروب العذاب التى لا بد ان يكون كارامازوف قد عاناها وقاسى منها حين علم ان هذه المرأة تحبه ، وأنها تعدل فى سبيله عن صديقها «القديم الذى لا يُجحد» ، وأنها تدعوه هو ، هو ميتيا ، الى ان يبدأ معها حياة جديدة ، وأنها تَعِده هو ، هو ميتيا ، بالسعادة ؛ وذلك فى اللحظة التى كان فيها كل شىء فى نظره قد انتهى ، فأصبح لا يستطيع أن يتعلق بأى امل ، وأن يتشبث بأى رجاء . أحب فى هذه المناسبة ان أثبت واقعةً أحسب انها هامة جداً لفهم الوضع الذى كان عليه المتهم فى تلك اللحظات : ان تلك المرأة التى كان يحبها ويشتهيها شهوة جياشة عارمة ، كانت قد ظلت الى آخر دقيقة ، الى حين القبض عليه ، بعيدة المنال لا يستطيع الظفر بها . ورب سائل يسأل : لماذا لم ينتحر اذن ، لماذا عدل عن نيته حتى لقد نسى مسدسه ؟ الجواب على هذا ان هواه المشبوب وأمله المفاجئ فى ارضاء هذا الهوى لم يلبثا ان صدّاه عن انفاذ ما عقد النية عليه . انه وهو فى سكرة اللهو والقصف قد التصق بحبيبته التى كانت تشاركه لهوه وقصفه ، والتى كانت تبدو له فى تلك اللحظات أجمل وأروع وأفتن وأحق

بالحب والعبادة منها فى أى وقت مضى ، فهو لا يحوِّل عنها بصره ، وهو لا ينفك يزداد اعجاباً بها وامحاءً أمامها . حتى ان هذا الهوى الحار وهذا الظمأ الشديد الى الحب قد خنقا فى نفسه ، أول الأمر ، لا الخوف من الاعتقال فحسب ، بل عذاب الضمير أيضاً . ولكنهما لم يخنقاهما الا لحظات قصارا ايها السادة ، لحظات ، لحظات لا اكثر ! اننى أتخيل الحالة النفسية التى كان عليها المتهم وقد استبدت به عناصر ثلاثة : أولها ابخرة الخمرة التى صعدت الى رأسه وضوضاء الرقصات والاغانى التى تدوى فى أذنيه وهذه المرأة التى تخضب وجهها بالحمرة من أثر الشراب واخذت تغنى وترقص سكرى هى أيضاً . وكانت تبتسم له ابتساماً فتاناً ؛ وثانيها أملٌ فى ان الخاتمة المحتومة ما تزال بعيدة ، او أنها ليست وشيكة على الأقل ، وأنها لن يحين حينها قبل الغداة ، وأنه لن يُقبض عليه قبل طلوع الفجر ، وأن أمامه اذن بضع ساعات وهذه الساعات انما هى كثيرة جداً ! وثالثها ان فى وسع المرء أن يضع خلال بضع ساعات خططاً كثيرة . اننى أتصور ان حالته النفسية حينذاك لا بد أن تكون شبيهة بحالة المحكوم عليه الذى يقاد الى الميدان الذى سيُشنق فيه ، فهو يقول لنفسه وهو راكب عربة التحقير والتشهير بينما الحصان يسير بخطى بطيئة أمام ألوف المشاهدين : «ما يزال هناك شارع ، شارع طويل طويل سأجتازه» ، ثم تنعطف العربة يمنة وتلج شارعاً آخر لا يظهر الميدان الذى نصبت فيه المشنقة الرهيبة الا فى نهايته . . . يُخيل الىَّ ان المحكوم عليه لا بد أن يشعر ، فى بداية هذه الرحلة ، أنه ما تزال أمامه ابدية حياة . ولكن المنازل تخطر أمام عينيه واحداً بعد آخر ، والعربة تتقدم بغير شفقة ولا رحمة ،

والرجل يقول لنفسه : «ما هذا بشيء ، ما يزال المنعطف بعيداً» . ويظل يتفرس ، رابطَ الجأش ، فى ألوف المستطلعين الذين يزدحمون على اليسار واليمين من ممره دون اكتراث ، والذين تحدق أبصارهم اليه . انه يتصور عندئذ أنه شبيه بجميع هؤلاء الخلق ، وأنه ما يزال ينتمى الى عالم الأحياء . وها هى ذى العربة تنعطف الى الشارع الآخر . اوه ! ما هذا بشيء ، ما هذا بشيء ، فما يزال هناك هذا الشارع كله . وتخطر المنازل واحداً بعد آخر ، ولكنه يظل يردد : «ما يزال هناك منازل كثيرة» ، ويستمر على ذلك حتى النهاية ، حتى لحظة الوصول الى الميدان المحتوم المشئوم . تلكم هى فى رأيى الحالة النفسية التى كان عليها كارامازوف اثناء تلك الساعات . كان يقول لنفسه : «لم يتسع وقتهم لاكتشاف الجريمة ، وفى وسعى ان أهتدى الى تعليل ما . أوه ! سوف أهتدى الى تعليل ما . أوه ! سوف اهتدى فى اثناء هذا الوقت الى خطة دفاع ، الى وسيلة أدرأ بها الخطر عن نفسى . . . أما الآن ، أما الآن ، فما أجملها وما أروعها !» . صحيح انه كان مضطرباً مهموماً ، ومع ذلك فقد ملك من حضور البديهة ما مكّنه من اقتطاع نصف المبلغ الذى جاء به ، واخفائه فى مكان ما — ذلك اننى لا أستطيع ان أفسر بغير هذا كيف امكن ان يخفى نصف تلك الثلاثة آلاف روبل التى استلها من تحت وسادة أبيه . كان قد جاء قبل ذلك الى موكرويه ، وظل يقصف فيها يومين فهو يعرف هذا المنزل الخشبى الكبير القديم ، يعرفه حق معرفته ، يعرف جميع أركانه وزواياه ، طاف فى أروقته ، وتجول فى حجراته . اننى افترض انه فى ذلك المنزل انما خبأ نصف المال قبل ان يُقبض عليه بلحظات ، دسّه فى شق من الشقوق

او تحت وتد من الأوتاد ، فى زاوية مظلمة ، او بين القرميد ، هل أدرى ؟ فاذا سألتمونى ماذا كان هدفه من اقتطاع نصف المبلغ واخفائه ، قلت ان الهدف واضح . فالمصيبة قد تسقط عليه من لحظة الى لحظة ، وهو لما يفكر بعد فى وسائل حماية نفسه منها ، وليس فى وقته متسع للتفكير فى ذلك ، ما دام رأسه يضج هذا الضجيج كله ، ولأن كل شيء خلال تلك الدقائق انما كان يدفعه نحو الحبيبة ! ولكن المرء يحتاج الى المال فى جميع الظروف . ومن ملك شيئاً من مال ، فقد ظل فى هذا العالم شيئاً مذكوراً . رب قائل يقول ان مثل هذا الحساب ليس طبيعياً فى ساعة كتلك الساعة . ولكننى أسألكم : ألم يقل لنا المتهم نفسه انه منذ شهر ، فى ساعة مضطربة درامية أيضاً من حياته ، قد اقتطع نصف الثلاثة آلاف روبل وخاط عليها كيساً ؟ ولئن كان زعمه هذا كاذباً ، كما سأبرهن على ذلك بعد قليل ، فان هذا لا ينفى ان هذه الفكرة كانت قد ساورته وأنه كان قد درسها ؛ حتى ليمكن ان نذهب الى أنه حين أعلن لقاضى التحقيق بعد ذلك أنه احتجز نصف المبلغ فى كيس (كيس لم يوجد فى يوم من الأيام على كل حال) ، انما وافته فكرة هذا الادعاء عفو الخاطر لهذا السبب عينه ، أعنى لأنه كان قد اقتطع نصف المبلغ فى موكرويه ، قبل ساعتين ، وخبأه من باب الاحتياط الى الفجر ، حتى لا يحتفظ به فى أحد جيوبه ، خاضعاً فى ذلك لوحى مباغت والهام مفاجئ . تذكروا الهوّتين ، يا سادتى القضاة ، تذكروا الهوّتين اللتين يمكن ان يتأملهما رجل مثل كارامازوف فى آن واحد معاً ! ولقد فتشنا المنزل مع ذلك فلم نعثر على شيء ؛ فمن الجائز أن يكون المال ما يزال موجوداً فيه ، ولكن من

الجائز أيضاً ان يكون المال قد أُخذ فى الغد وأنه الآن فى حوزة المتهم . مهما يكن من أمر ، فلقد كان المتهم قربَ هذه المرأة ، جاثياً على ركبتيه أمامها ، حين جاء رجال السلطة للقبض عليه . كانت هى مستلقية على السرير ، وكان هو ماداً ذراعيه نحوها ، وقد بلغ من نسيان كل ما عدا ذلك فى تلك اللحظة أنه لم يسمع حتى وقع أقدام الرجال الذين جاءوا للقبض عليه . لم يكن قد هيأ بعد شيئاً يجيب به عن أسئلتهم . لقد داهموه على غير توقع منه .

وها هو ذا يقف عندئذ أمام قضاته الذين سيقررون مصيره . سادتى المحلَّفين ، اننا ، أثناء ممارسة وظيفتنا نمر بلحظات يعترينا فيها ، على حين فجأة ، خوف ووجل أمام المتهم وأمام المصير الذى ينتظره ؛ وهى اللحظات التى نرى فيها لدى المجرم ذلك الهلع الغريزى الذى يستولى عليه حين يدرك أن كل شىء قد ضاع ، ولكنه يظل يناضل ، ويظل يحاول ان يقاومنا . ان غريزة البقاء تستيقظ فى نفسه عندئذ قويةً قوةً هائلة ، فاذا هو وقد تسلطت عليه رغبة محمومة فى الأفلات منا ، يتفرس فينا بنظرة نافذة ، نظرة مستفهمة أليمة فى آن واحد ، محاولاً أن يحزر أيسر تعبيرات وجوهنا وأن يعرف أخفى ما يجول فى خواطرنا ، متسائلاً ما هى الجهة التى سنأتيه منها ؛ وسرعان ما تقوم فى ذهنه المضطرب عندئذ ألوف الخطط الدفاعية ، ولكنه يخاف مع ذلك أن يتكلم ، يخاف أن تفلت منه كلمة متعجلة ليس فيها تروٍ أو تبصر . ان هذه اللحظات التى يذل فيها الانسان ، وهذه الشدائد التى تقاسى منها النفس ، وهذه الرغبة البهيمية فى الأفلات من العقاب ، ان هذا كله يبعث منظرُه أشدَّ الألم ، ويثير الشفقة والعطف حتى لدى قاضى

التحقيق . لقد شهدنا هذا المنظر حين القبض على كارامازوف . بدا فى أول الأمر مصعوقاً ، قد انهارت قواه وانهدت مقاومته ، فأفلتت من لسانه كلمات تعرضه للخطر . قال : «سفحت دماً ! استحق هذا المصير !» ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فماذا يقول ، بماذا يجيب ؟ هو لا يعرف بعدُ ماذا يقول لأنه لم يهيئ شيئاً ، فلجأ فى أول الأمر الى انكارات قاطعة هاتفاً : «أنا لم أقتل أبى !» . كان ذلك هو المتراس الوحيد الذى أقامه ارتجالاً ليحتمى به ، وفى نيته أن يقيم متاريس أخرى . وحاول بعد ذلك ان يصلح ما أفسده وأن يتدارك ما ورطته فيه صيحاته الطائشة التى لم يكن فيها شىء من التروى والتبصر ، فاستبق أسئلتنا وأعلن انه لا يعد نفسه مسئولاً الا عن موت الخادم جريجورى . قال : «صحيح أننى سفحت دمه هو ، ولكن من الذى قتل أبى ، من الذى قتله أيها السادة ؟ من ذا الذى قتله اذن ، ما دمت لست أنا القاتل ؟» هل سمعتم : انه يلقى علينا نحن هذا السؤال ، نحن الذين انما جئنا لنلقى هذا السؤال نفسه عليه ! لاحظوا هذه الطريقة التى يعمد اليها فى استباق الأمور وأخذ زمام المبادرة قائلاً : «ما دمت لست أنا القاتل» ، انظروا الى هذا المكر البهيمى ، والى هذه السذاجة أيضاً ، والى هذا التسرع الذى يدل على نفاد الصبر والذى هو شىء من طبيعة رجل مثله ! لست أنا القاتل ، وانى لأحظر عليكم حتى الوقوف عند هذه الفكرة والتلبث عليها . ثم لا يلبث ان يعترف قائلاً بعد قليل (انه يتعجل ، يتعجل تعجلاً رهيباً) : «كنت أريد أن أقتله أيها السادة ، كان فى نيتى ذلك ؛ ولكن لست أنا الذى قتله ، لست أنا المسئول عن مقتله !» . هو يسلِّم لنا بأنه

كان ينوى أن يقتله ، فكأنه يقول لنا : انظروا كم أنا صادق ، فعليكم ان تصدقونى متى أكدت لكم اننى لم أقتل . ان المجرمين يبرهنون فى لحظات من هذا النوع على خفة كبيرة وطيش شديد وسذاجة لا يتصورها العقل . وفى تلك اللحظة نفسها سُئل ، كأنما بمصادفة ، وكأن الأمر عادى طبيعى الى أبعد الحدود : «أليس من الجائز أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟» . فعمد الى طريقة هى بعينها الطريقة التى تنبأنا بها : غضب حين لاحظ أننا كشفنا خبيئة نفسه بغتةً بينما هو لم يتسع وقته بعدُ لاعداد متراسه واختيار أفضل لحظة لالقاء التهمة على سمردياكوف ؛ فبادر يندفع الى الطرف الأقصى الآخر ، خاضعاً فى ذلك لقوانين الطبيعة ، وطفق يحاول أن يبرهن لنا بحماسة وحرارة على ان سمردياكوف لا يمكن أن يكون القاتل ، وعلى أنه عاجز عن أن يقتل . ولكن لا تصدقوه ، فما كان هذا الا حيلة ومكراً ودهاء : انه لم يعدل أبداً عن فكرة استعمال سمردياكوف لتبرئة نفسه . بالعكس : سوف يقدم سمردياكوف متى آن الأوان ، وهل يوجد الا سمردياكوف شخصٌ يستطيع أن يحمله الجريمة ؟ ولكنه سيفعل ذلك فيما بعد ، أما الآن فقد ضاعت الفرصة وفسد الأمر . قد يُخرج سمردياكوف غداً أو بعد بضعة أيام . سوف ينتظر الفرصة المواتية ليصيح قائلاً : «انظروا ! ألا تتذكرون أننى استبعدت أن يكون سمردياكوف هو القاتل ؟ ألا تتذكرون أننى دافعت عنه أكثر مما دافعتم أنتم عنه ؟ ولكننى قد اقتنعت الآن بأنه هو الذى قتل ، وأنه الوحيد الذى يمكن أن يكون مرتكب هذه الجريمة !» أما فى تلك اللحظة فقد اصطنع أمامنا موقف الانكار القاطع والنفى الجازم ، متظاهراً بكثير من الغيظ والحنق . ومع ذلك

فان نفاد الصبر وشدة الغضب قد أوحيا اليه بتفسير لسلوكه هو بين جميع التفاسير الممكنة أقلها حذقاً وبراعة وأبعدها عن المعقول ، فأخذ يروى لنا كيف انه اقتصر — فى زعمه — على أن نظر من خلال نافذة أبيه ثم انصرف بعد ذلك باحترام . يجب أن لا ننسى خاصةً أن المتهم لم يكن على علم فى تلك اللحظة بخطورة الأقوال التى وردت فى شهادة جريجورى بعد أن صحا جريجورى من غيبوبته . وقمنا بتفتيشه على ما توجبه الأنظمة ، فأحنقه هذا الاجراء ، ولكنه شجعه فى الوقت نفسه ، فاننا لم نعثر على الثلاثة آلاف روبل كاملةً ، ولم نجد الا ألفاً وخمسمائة روبل . وواضح أنه فى اثناء تلك اللحظات من الصمت الغاضب والانكار المقهور انما خطرت بباله لأول مرة فكرة أن يحدثنا عن ذلك الكيس . لا شك فى أنه كان هو نفسه يحس بأن هذا الاختراع غير معقول ولا مقبول ، ولا شك فى أنه كان يُعمل فكره جاهداً من أجل ان يجعل هذا التلفيق جائزاً محتملاً ، دون ان يدرى ما الذى يجب عليه ان يتخيله حتى ينشئ رواية يصدقها العقل . ولكن أول واجب يقع على عاتق المحققين فى مثل تلك اللحظات هو ان يباغتوا المتهم فلا يدعوا له فسحة من الوقت لتحضير اجابته ، وان يقودوه بذلك الى الكشف عمَّا يضمره من حساب مع كل ما يشتمل عليه هذا الحساب من سذاجة ومن بعد عن الاحتمال ، ومع كل ما يحتويه من تناقضات . ولا يمكن اجبار المجرم على أن يفضح نفسه هذا الفضح الا اذا أطلع بغتةً ، بما يشبه المصادفة العابرة ، على واقعة لها دلالة بليغة وخطورة عظيمة ، ولكنه ما يزال يجهلها ولم يخطر على باله وجودها ولا استطاع اذن ان يستعد لها . وكنا نحن قد أعددنا هذه الواقعة . . .

كنا قد اعددناها منذ مدة طويلة . . . ألا وهى شهادة الخادم جريجورى الذى صرَّح حين صحا من غيبوبته أنه رأى الباب الذى هرب منه القاتل مفتوحاً . كان المتهم قد نسى نسياناً تاماً ان يفكر فى ذلك الباب ، ولم يخطر بباله أن من الممكن أن يكون جريجورى قد رآه . فلما فاجأناه بهذه الواقعة ، كان لها فيه أثر فظيع ، فها هو ذا يثب عن مكانه ويصرخ قائلاً لنا : «سمردياكوف هو الذى قتل ! انه سمردياكوف !» . هكذا كشف المتهم عن فكرته الخبيثة ، وفضح خطة دفاعه الأساسية ، ولكنه أسلمنا ذلك فى صورة هى أبعد الصور عن المعقول والمحتمل ، لأن سمردياكوف ما كان يمكن أن يقتل الا بعد أن جندل المتهمُ جريجورى وولَّى هارباً . فلما قلنا له بعد ذلك ان جريجورى رأى الباب مفتوحاً قبل أن يهوى على الأرض مضرجاً بدمائه وانه حين خرج من غرفته قد سمع سمردياكوف يئن ويتوجع وراء الحاجز ، حين قلنا له ذلك صُعق فعلاً . ان زميلى المحترم الذكى نيكولاى بارفينوفتش قد روى لى بعد ذلك أنه اشفق عندئذ على المتهم ، وتأثر تأثراً شديداً حتى كادت تفيض عيناه بالدموع . وفى تلك اللحظة انما سارع المتهم ، اصلاحاً للموقف ، فأفضى الينا بقصة الكيس العجيبة تلك ، فلا بد أنه قال لنفسه عندئذ : «طيب . . . اليكم الآن هذه الرواية فابلعوها !» . سبق أن ذكرت لكم رأيى فى هذه القصة يا سادتى المحلَّفين ، وسبق أن ذكرت لكم لماذا أعدُّ اختراع هذا الكلام عن مبلغ اقتطعه المتهم وخاط عليه كيساً قبل الحادث بشهر ، لماذا أعد اختراع هذا الكلام أسخف وأضعف تفسير من التفسيرات التى كان يمكن اختلاقها فى حالة من هذا النوع . ومهما يبحث المرء فلن يستطيع أن يتصور

شيئاً أبعد عن المعقول وأنأى عن الاحتمال من هذه القصة الملفقة . ان فى وسعنا فى هذه النقطة ان نربك قصَّاصنا المرتجل الواثق من نفسه ، وأن نفضح كذبه وندمِّر حجته ، بأن نجابهه ببعض التفاصيل ، أن نجابهه بتفاصيل من تلك التفاصيل التى ما أكثر ما يحفل بها الواقع ، ولكن هؤلاء المساكين الذين يلفقون القصص الوهمية على غير ارادة منهم يهملونها ويغفلونها على أنها تافهة زائدة لا قيمة لها ، بل ولا تخطر لهم على بال أصلاً ، فان وقتهم لا يتسع للاهتمام بهذه السفاسف ، وانما هم يتصورون حكاياتهم فى خطوطها العريضة وصورتها المجملة . . . ولكن ها هم أولاء يجابَهون بتلك التفاصيل الشقية ! وعندئذ انما نستطيع أن نضبطهم . ألقينا على المتهم هذا السؤال : «من أين جئت بقماش ذلك الكيس الصغير ، ومن الذى خاطه لك ؟» فأجابنا : «خطته بنفسى» . فألححنا نسأله : «والقماش ، من أين جئت به ؟» فشعر المتهم باستياء وضيق ، كأن الأمر أمر ترهات لا تليق به . ولقد كان عندئذ صادقاً كل الصدق ، نعم كل الصدق . فلا تعذِّبوه . انهم جميعاً على هذه الشاكلة ، هؤلاء المجرمون ! قال : «انتزعت قطعة قماش من قميصى» . قلنا : «عظيم . اذن سنعثر غداً على هذا القميص بين ملابسك ، سنعثر على هذا القميص الذى تنقصه قطعة» . انكم لتدركون يا سادتى المحلَّفين أننا لو كنا قد عثرنا فعلاً على ذلك القميص (وهل كان يمكن أن لا نعثر عليه فى حقيبته أو فى درج من الأدراج لو كان له وجود حقاً) ، لكان ذلك واقعة محسوسة ملموسة تشهد بصدق أقواله . ولكن ذلك لم يكن قد خطر على باله . واستأنف كلامه يقول : «لست اتذكر جيداً . أظن اننى لم انتزع قطعة القماش من

قميص ، بل قصصتها من طاقية لصاحبة المنزل الذى أسكن فيه» . سألناه : «أية طاقية ؟» فأجاب : «طاقية أخذتها من عندها وكانت ملقاةً فى غرفتها ، هى متاع من تلك الأمتعة العتيقة القطنية» . قلنا : «هل ذكرياتك دقيقة ؟» قال : «لا ، ليست دقيقة !» ، وأخذ يغضب ويثور علينا . ألا اننى لأسالكم : كيف يمكن أن ينسى هذا الأمر ؟ ان التفاصيل التى من هذا النوع هى التى تعود الى ذاكرة المرء فى أشقى ساعات الحياة ، فى لحظة الاعدام مثلاً ، فاذا بالمحكوم عليه ، الذى ربما يكون قد نسى كل ما عدا ذلك ، يتذكر السطح الأخضر من منزل أبصره اثناء الطريق ، أو يتذكر غراباً أسود رآه واقفاً على صليب ، لأن هذه التفاصيل تبقى محفورة فى الذاكرة الى الأبد . ولا بد أن المتهم قد اختبأ عن أعين الناس الذين يقيم عندهم حين أخذ يخيط ذلك الكيس ، ولا بد ان يتذكر ما كان يشعر به عندئذ من خشية مذلة وألم ممض حين كان ممسكاً بالابرة وهو يرتعش خوفاً من أن يدخل عليه أحد فيباغته متلبساً بالفعل ؛ ولا بد أنه كان ينتفض لدى سماعه أيسر ضجة فيهرع يختبئ وراء الستارة (لأن فى غرفته ستارة) . . . على اننى أتساءل ، يا سادتى المحلَّفين ، لماذا أذكر لكم هذا كله ، لماذا اذكر لكم جميع هذه التفاصيل ، وجميع هذه الترهات !

بهذا هتف ايبوليت كيريلوفتش على حين فجأة ، ثم واصل كلامه قائلاً :

— اننى مضطر الى أن افعل ذلك لأن المتهم ما يزال مصراً فى عناد ما بعده عناد على أن يورد مثل هذه المزاعم السخيفة الباطلة . انه خلال هذين الشهرين الماضيين ، منذ

تلك الليلة التى حملت اليه ذلك الشئوم كله ، لم يأتنا بتعليل واحد مقبول ، ولم يستطع ان يضيف أيسر واقعة مادية محسوسة الى ما سبق أن لفقه لنا خياله العجيب . هذه فى نظره تفاصيل لا قيمة لها ، وانما يجب علينا ان نصدق أقواله على عهد الشرف وحده . والحق أننا لا نتمنى الا أن نصدقه ، والحق أننا نحب كثيراً ان نثق به وأن نركن الى كلامه ولو على عهد الشرف وحده . فهل نحن أناس سفاكون سفاحون متعطشون الى دماء البشر ؟ ألا فاعطونا واقعة واحدة ، ألا فدلونا على واقعة صغيرة واحدة يمكن أن تساعدنا على تبرئة المتهم ، فنفرح بذلك أشد الفرح ، ونغتبط له أشد الاغتباط . ولكن لا بد لنا من عنصر محسوس ملموس ، لا بد لنا من عنصر واقعى ، لا بد لنا من شىء غير الاستنتاجات التى يستنتجها أخوه من تعبير وجهه ، ولا بد لنا من شىء غير قول القائل ان المتهم حين ضرب صدره انما كان يدل على الكيس المخبأ فيه ، انما كان يشير الى هذا الكيس ، وذلك فى ظلمة الليل أيضاً ! لسوف يسرنا أن نعرف أية واقعة جديدة ، ولسوف نكون عندئذ أول من يعدل عن الاتهام ويسارع الى الاعتراف ببراءة المتهم . ولكن حرصنا الشديد على العدالة يلزمنا بواجبنا فى هذه الساعة ، فلا بد لنا أن نلح على ذكر الأدلة التى تدين المتهم ، ولسنا نملك الا أن نظهركم عليها .

هنا وصل ايبوليت كيريلوفتش الى خاتمة مطالعته . كان يرتجف عندئذ كأنه فى الحمى ، فتحدث بصوت متهدج متألم عن الدم المسفوح ، دم الأب الذى قتله ابنه «بدافع حقير هو الطمع فى المال» ؛ وألحَّ الحاحاً شديداً على أن الأدلة القاطعة التى تدين المتهم متوافرة توافراً تاماً لا يدع مجالاً لشك

أو تردد . وختم كلامه قائلاً : «أياً كان الكلام الذى سيقوله لكم بعدى وكيل المتهم ، المحامى المعروف بموهبته (لم يملك ايبوليت كيريلوفتش الا أن يضيف هذه الكلمات) الذى ستترجع فى هذه القاعة أصداء خطابه البليغ المؤثر من أجل ان يهز عواطفكم ، فلا تنسوا يا سادتى المحلفين أنكم أمام هيكل العدالة المقدس . تذكروا أن رسالتكم هى أن تدافعوا عن الحقيقة ، وان مهمتكم هى ان تحموا وطننا المقدس روسيا ، وان تصونوا أسس حياتنا القومية ، وان تذودوا عن الأسرة وعن أرفع قيم الحياة الاجتماعية ! نعم يا سادتى المحلفين ، انكم تمثلون الآن روسيا كلها ، تمثلون روسيا التى تشخص بأبصارها اليكم فى هذه الساعة حماةً وقضاةً من حماتها وقضاتها ، فعلى قراركم يتوقف ان يشتد أزرها وتتشجع حميتها ، أو ان يخيب ظنها ويخور عزمها . فلا تعذبوا روسيا ، لا تخيبوا رجاءها ، لأن الترويكا الجامحة التى تحمل مصائرنا القومية تعدو عدواً سريعاً وربما هوى بهذه المصائر الى الضياع والهلاك . ان العقلاء من رجال بلادنا يمدون أذرعهم الى الخيول الهائجة ، منذ زمن طويل ، ضارعين مبتهلين أن يوقف اندفاعها العنيف العارم . واذا كانت الشعوب الأخرى تتنحى الآن عن طريق الترويكا الطائشة ، فربما كانت لا تتنحى الآن من باب الاحترام ، كما أراد الشاعر أن يقول ، وانما هى تتنحى من قبيل الخوف والذعر ، ولتلاحظوا ذلك من قبيل الخوف والذعر ، وربما من باب الاشمئزاز والتقزز أيضاً . . . ومن حسن الحظ أنها ما تزال تتنحى على كل حال وماذا لو انها كفت فى يوم من الأيام عن الخوف منها ، فاذا هى تنتصب سداً منيعاً أمام الاندفاع المسعور فتوقف ركبنا المجنون المتحلل صيانةً لنفسها ، وانقاذاً

للحضارة والثقافة . ان أصواتاً قلقة قد ارتفعت منذ الآن فى أوروبا ، ووصلت الى مسامعنا . ان احتجاجات قد أخذت تنطلق فى البلاد الأخرى . فلا تغروا بنا أعداءنا ، ولا تزيدوا كرههم لنا وحقدهم علينا باصدار حكم يسوِّغ أن يُقتل أبٌ بيد ابنه ! . . . »

جملة القول ان ايبوليت كيريلوفتش قد انقاد لفصاحته وانساق مع بلاغته ، ولكنه مع ذلك قد أنهى كلامه بنغمة مؤثرة فعلاً ، فكان الأثر الذى أحدثه فى نفوس الحضور كبيراً جداً . فلما انتهى من القاء مرافعته أسرع يخرج الى الغرفة المجاورة ، وكاد يُغمى عليه كما سبق أن ذكرت . ولم يصفق الجمهور ، غير أن الرصينين الوقورين من الحضور قد شعروا بالارتياح والرضى . وكانت السيدات أقل اغتباطاً وابتهاجاً بطبيعة الحال ، ولكنهن قد تذوقن ، هنَّ أيضاً ، فصاحة وكيل النيابة وأعجبن ببلاغته ، لا سيما وأن الشك فى نهاية المحاكمة لم يساورهن ، فهنَّ لا يخشين شيئاً من هذه الناحية ، لأنهن يعوِّلن كثيراً على فيتوكوفتش ، فانه «سيتكلم أخيراً ، وسينتصر لا محالة !» . واتجهت جميع الأعين نحو ميتيا : كان قد أصغى الى مرافعة النيابة صامتاً ، متشنج اليدين ، كزَّ الأسنان ، خافض البصر . وكان فى بعض الأحيان يرفع رأسه ، ويصيخ بسمعه . وهذا ما حدث خاصةً حين جاء ذكر جروشنكا . فحين أورد وكيل النيابة رأي راكيتين فيها ، ارتسمت على شفتى ميتيا ابتسامة شريرة محتقرة ، وقال بصوت مسموع : «هؤلاء اناس من أمثال برنار !» . وحين روى ايبوليت كيريلوفتش كيف استجوب المتهم وعذبه فى موكرويه ، رفع ميتيا رأسه من جديد ، وبدا عليه أنه يصغى بانتباه شديد . وفى لحظة من اللحظات ،

كاد يثب عن مكانه ، على نية أن يقول شيئاً ما بطبيعة الحال ، ولكنه لم يلبث أن كبح جماح نفسه واكتفى برفع كتفيه احتقاراً . وقد أثارت خاتمة المرافعة التى ألقاها وكيل النيابة ، ولا سيما حديثه عن المهارة التى قاد بها استجواب المتهم فى موكرويه ، أثارت مناقشات كثيرة ومحادثات طويلة بعد ذلك فى مجتمعنا ؛ ولم ينس الناس أن يسخروا من ايبوليت كيريلوفتش ، فكانوا يقولون : «انه لم يستطع مقاومة الاغراء الذى يحضه على الزهو بنفسه والاعجاب بمقدرته» .

ورُفعت الجلسة ، ولكنها لم تُرفع الا مدة قصيرة جداً هى ربع ساعة أو عشرون دقيقة فى أكثر تقدير ، سُمعت اثناءها بين الجمهور أحاديث شتى وصيحات تعجب كثيرة اليكم بعض ما حفظته منها :

قال سيد بين نفر من الناس وهو يقطب حاجبيه :

— خطاب جاد كل الجد ، خطير كل الخطورة !

فأجابه آخر :

— أسرف فى السيكولوجيا مع ذلك !

— ولكن ما قاله هو الحقيقة ، هو الحقيقة بعينها خالصة !

— نعم هو حجة فى هذا الميدان .

— قد أجمل النتائج .

وتدخل ثالث فقال :

— وقد نلنا نصيبنا نحن أيضاً ، فى بداية مرافعته ، هل تتذكرون ؟ حين أكد أننا جميعاً نشبه فيدور بافلوفتش .

— وفى نهاية المرافعة كذلك . ولكنه كذب !

— ثم لقد تضمنت مرافعته فقرات كثيرة غامضة .

— انقاد لدافع الفصاحة والبلاغة .

— كان ظالماً ، ظالماً جداً .

— لا أرى هذا الرأى . وقد كان بارعاً على كل حال .

طال انتظاره ساعته ، ولكنه عرف كيف يفصح عما بنفسه أخيراً ! هيه !

— اننى أتساءل عما سيقوله المحامى .

وفى جماعة أخرى ، دار الحديث التالى :

— أخطأ حين نال من هذا المحامى الآتى من سان بطرسبرج : «حتى يؤثر فى عواطفكم» . لا شك أنكم تتذكرون هذه العبارة .

— نعم ، لقد أخطأه التوفيق هنا !

— أسرف فى التعجل .

— هو رجل عصبى .

— نحن نضحك ، نحن ، أما بالنسبة الى المتهم فليس فى كلام وكيل النيابة ما يبعث على الضحك .

— أى والله . مسكين ميتيا !

— وددت لو أعرف ما سيقوله المحامى !

وفى جماعة ثالثة جرى هذا الحوار :

— من هى تلك السيدة السمينة الجالسة فى الركن ، الواضعة على عينيها نظارة صغيرة ؟

— هى زوجة جنرال . انها مطلقة . أنا أعرفها .

— آ . . . لهذا تضع نظارة .

— هى هول من الأهوال .

— لا ، بل مثيرة .

— على مقربة منها ، بعد كرسيين ، توجد صغيرة شقراء ، تلك أجمل .

— لقد عرفوا كيف يفحمونه بحذق وبراعة فى موكرويه ، ألا ترون هذا الرأى ؟

— لا أنكر انهم كانوا بارعين . لم يستطع وكيل النيابة مقاومة الاغراء الذى يحضه على سرد هذه الأمور مرة أخرى . لقد طالما سمعناه يقص هذه القصة مراراً قبل الآن ، فى بيوت بعض الأصدقاء !

— لا حيلة له فى دفع هذا الاغراء . غلبه حب الظهور على أمره .

— هو رجل ما ينفك يشعر أنه مغبون ! هه ! . . .

— وهو الى ذلك سريع التأذى . وقد أسرف فى اصطناع أساليب البلاغة ، وكانت عباراته مفرطة فى الطول .

— ثم لقد حاول أن يخيفنا ، حاول أن يروعنا باستمرار . هل تتذكرون ما قاله عن الترويكا ؟ «ان عند الشعوب الأخرى رجالاً من أمثال هاملت ، أما نحن فليس عندنا بعدُ الا أمثال كارامازوف !» تلك براعة منه .

— أراد أن يتملق اللبراليين . انه يخاف منهم .

— ويخاف من المحامى .

— حتماً ! انى لأتساءل ما الذى سيقوله السيد فيتوكوفتش .

— مهما يتكلم فلن ينتصر على فلاحينا !

— أتظن ذلك ؟

فى جماعة رابعة جرى هذا الحديث :

— أحببت كثيراً تلك الفقرة التى تكلم فيها عن الترويكا ، الفقرة التى تكلم فيها عن الأمم الأخرى .

— لقد قال الحقيقة بعينها — هل تتذكر ؟ — حين أكّد أن الشعوب الأخرى لن تنتظر طويلاً !

— لماذا ؟

— ظهرت بوادر ذلك منذ الآن . ففى الأسبوع الماضى قام أحد أعضاء البرلمان الانجليزى ، فقدم سؤالاً الى الوزارة عن العدميين ، وسأل : أما آن الأوان لردع هذا الشعب الهمجى وردّه الى الصواب من أجل تأديبه . الى هذا انما ألمع ايبوليت كيريلوفتش . أنا أعرف ذلك . لقد حدثنا عن هذه الواقعة منذ بضعة أيام .

— ان أيديهم أقصر من أن تستطيع أن تنالنا بشىء .

— كيف ؟

— الأمر بسيط . يكفى أن نغلق ميناء كرونشتات ، وأن ننقطع عن امدادهم بالقمح . فمن أين يجيئون بالقمح عندئذ ؟

— من أين ؟ أنسيت اذن أمريكا ؟ ان عندهم الآن قمحاً ، فى أمريكا !

— غير صحيح !

ولكن جرس رئيس المحكمة دوّى رنينه ، فأسرع الجميع الى أماكنهم . وتقدم فيتوكوفتش لالقاء مرافعته .

١٠

مرافعة الدفاع . سلاح ذو حدين

خيَّم على القاعة صمت كبير منذ الكلمات الأولى التى نطق بها الخطيب الشهير . وكانت جميع الأبصار متجهة اليه منصبة عليه . بدأ مرافعته بدون جمل طنانة ، ومضى الى

هدفه رأساً ، ببساطة تامة مقنعة ليس فيها شيء من ادعاء أو غرور . خلا كلامه من كل ما يمكن أن يدل على رغبة فى الفصاحة وميل الى البلاغة ، أو ايثار للالفاظ الرنانة التى تسهل التأثير فى العواطف . لكأنه رجل يتحدث فى حلقة ضيقة من الأصدقاء . وكان له صوت جميل قوى محبَّب ينم جرسه عن الصدق وطيب السريرة وحسن النية . غير أن جميع الناس قد أدركوا مع ذلك أن هذا المتحدث قادر على أن يرتفع الى مستوى الخطابة التى تؤثر فى السامعين تأثيراً قوياً حقاً ، وأن «يهزّ أوتار القلوب هزاً عنيفاً لا يجاريه فيه أحد» . لعله كان يتحدث بلغة تقل سلامةً عن لغة ايبوليت كيريلوفتش ، ولكنه لا يستعمل عبارات طويلة ، وهو أميل منه الى الوضوح وأقرب الى الدقة . ومع ذلك هناك أمر لم يعجب السيدات فيه : لقد كان يحنى ظهره دائماً ، ولا سيما فى بداية مرافعته ، لا كما يحنى المرء ظهره فى التحية ، وانما هو يحنى ظهره كمن يندفع نحو سامعيه . وأكثر من هذا أنه كان لا يحنى الا نصف ظهره الطويل الذى كان يبدو كأنه مزود بمفصّلة فى وسطه تتيح له أن يثنى زاويةً تكاد تكون قائمة .

وقد تكلم فى بداية خطابه على نحو مبعثر مشتت ، دون أن يلاحظ السامع وجود خيط ينظم الكلام أو خطة تربط أجزاءه بعضها ببعض ، وانما هو ينتقل من واقعة الى أخرى بما يشبه المصادفة ، غير أنه قد أخرج من ذلك فى النهاية مجموعة متسقة الأجزاء ملتحمة الترابط . وفى وسعنا أن نقسم مرافعته قسمين : فأما القسم الأول فهو يشتمل على نقد ودحض للاتهام ، وكان فى بعض مواضعه لاذع السخر كاوى التهكم . وأما القسم الثانى فقد غيَّر فيه الخطيب لهجته بل وغير موقفه

فجأة ، فاذا هو يرتقى دفعةً واحدةً الى نبرة مؤثرة تهزّ أوتار القلب . وكأن القاعة كانت تنتظر تلك اللحظة ، فأخذت ترتعش حماسة جياشة . وقد عمد المحامى الى مواجهة القضية رأساً ، فأعلن قبل كل شيء أنه وان كان يمارس المحاماة عادةً فى سان بطرسبرج فقد اتفق له مراراً أن ذهب الى مدن الأقاليم ليدافع عن بعض المتهمين ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك الا حين يقتنع ببراءة أولئك المتهمين أو يحسّها . وأضاف يقول شارحاً :

— وهذا ما حدث لى أيضاً فى القضية التى يُنظر فيها الآن . فاننى منذ قرأت أولى المقالات التى نشرتها الصحف عن هذه القضية قد خطفت انتباهى ظروفٌ تشهد ببراءة المتهم . على أن جانباً قانونياً محضاً هو الذى همنى فى أول الأمر . لقد رأيت عندئذ ، رغم أن الملاحظات التى من هذا النوع كثيرة فى ممارسة القضاء ، رأيت أن الأمور التى تشهد ببراءة المتهم لم تكن فى اية قضية من القضايا واضحة بقوة كقوة وضوحها فى هذه القضية ، ولم تشتمل على تفاصيل بارزة تبلغ هذه الكثرة التى تبلغها فى هذه القضية ، فيما يخيّل الىّ . وربما كان ينبغى لى أن أحتفظ بهذه الآراء الى آخر المرافعة ، حين أكون قد فرغت من تمحيص الوقائع ، ولكننى أوثر ان أعبّر عما يجول فى فكرى منذ البداية ، لأن من عيوبى أننى أمضى الى هدفى رأساً ، غيرَ مبال بما يكون لكلامى من تأثير ، وغيرَ مكترث بما يجب علىّ المحامى فى مثل هذه الظروف اصطناعه من تدرج فيما يريد أن يحمله الى نفوس السامعين . وقد أكون فى هذا متهوراً غير متروٍ ، ولكننى مخلص صادق على كل حال . اليكم الفكرة التى أريد أن أعبر عنها :

اننا نرى ، من جهة أولى ، قرائن قوية ثقيلة قاطعة تشهد بأن المتهم هو الجانى ، ونرى من جهة ثانية أنه ما من واقعة من الوقائع التى تُتخذ أساساً للاتهام يمكن ان تصمد وحدها لأى تفنيد جدى ! وقد عزَّز هذا الشعورَ فى نفسى كلُّ ما قاله الناس او نشرته الصحف عن هذه القضية . ثم هأناذا أتلقى من أهل المتهم ، على حين فجأة ، دعوة الى تولى الدفاع عنه . فقبلت على الفور ، حتى اذا وصلت الى هذه المدينة ، صار اقتناعى الى يقين . فمن أجل أن اهدِّم تلك القرائن المتراكمة التى تميل الى ادانة المتهم ، ومن أجل أن اكشف عن بطلانها واستحالتها ، ومن أجل أن أُظهر ضعف كل عنصر من عناصر الاتهام على حدة ، انما قبلت أن أتولى الدفاع عن المتهم .

بهذه الكلمات استهل المحامى مرافعته ، ثم هتف يقول :

— سادتى المحلَّفين ، أنا امرؤ جاء من مدينة أخرى لا يحمل أفكاراً مبيتة ، ولا أثَر فى مشاعره أى تحيز . ان هذا المتهم الذى يتصف بطبع عنيف جامح لم يسىء الىَّ فى الماضى كما لعله أساء فى هذه المدينة الى عدد من الأشخاص اساءات تفسِّر لنا ما يحمله له هذا العدد الكبير كله من الناس من شعور العداء . اننى اعترف طبعاً بأن الرأى العام ليس ثائراً عليه بغير سبب : فان المتهم رجل عنيف لا يلجم نفسه ولا يكبح جماحه . ومع ذلك كان يُستقبل فى المجتمع الراقى ، وكان يُدلَّل حتى فى أسرة السيد وكيل النيابة الذى أقدر موهبته العظيمة وأعجب بها كثيراً .

(ملاحظة : أثارت هذه الكلمات فى الجمهور ضحكات صغيرة لم تلبث أن خُنقت ، ولكن جميع الناس لاحظوها ،

لأنهم كانوا يعرفون أن وكيل النيابة استقبل ميتيا فى منزله على مضض ، لمجرد أن زوجته رأت فى ميتيا فتى شائقاً . ان زوجة وكيل النيابة امرأة محترمة ، وهى سيدة فاضلة الى أبعد الحدود ، ولكنها غريبة الطبع قليلاً ، تحب أن تعاكس زوجها احياناً ، ولا سيما فى الأمور التى ليس لها كبير شأن . على أن ميتيا لم يزرهما الا لماماً) .

تابع المحامى كلامه فقال :

— ولكننى أستطيع أن أؤكد مع ذلك أن موكِّلى العاثر الحظ قد خلَّف أثراً سيئاً حتى فى نفس خصمى الذى يتصف باستقلال الرأى ويتميز بالانصاف والعدل . اننى لأعرف أن هذا المسكين قد فعل كل ما من شأنه أن يحمل الناس على اساءة الظن فيه واساءة الحكم عليه ، وأن يحملهم على أن لا يضمروا له عاطفة طيبة . ان مخالفة الشعور الأخلاقى ، ومجافاة الحس الجمالى خاصة ، أمران لا يغتفران . لقد سمعنا فى المرافعة اللامعة التى ألقتها النيابة تحليلاً قاسياً لنفسية المتهم وأعماله ، وسمعنا عرضاً تناول وقائع القضية بنقد صارم ؛ وقد حاولت النيابة خاصةً ، فى سبيل أن تُفهمنا جوهر القضية ، أن تطل بنا على أغوار سيكولوجية ما كان للسيد وكيل النيابة ان يسبرها لولا أنه يضمر لشخص المتهم شيئاً من العداء او سوء الظن . على أن هناك ، فى مثل هذه الحالات ، أموراً أنكى وأشأم مما قد يحمله المرء للمتهم من عاطفة سيئة ، أو ما قد يتخذه منه من موقف معادٍ عن عمد وقصد . ذلك ما يحدث خاصةً حين ننقاد لنوعٍ من العبث الفنى ، لنوعٍ من الحاجة الى الخلق الشعرى ان صح التعبير ، لنوع من الرغبة فى انشاء رواية وتأليف قصة ، وهذا أمر مفهوم معقول حين

تكون العناية الالهية قد أعطتنا مواهب سيكولوجية . انني وانا في سان بطرسبرج بينما كنت أستعد للمجيء الى هذه المدينة قد نُبِّهت — وما كنت أجهل ذلك على كل حال — انني سأواجه في هذه القاعة خصماً أوتي احساساً سيكولوجياً خارقاً مرهفاً عميقاً ، وهو خصم اكتسب بفضل كفاءاته المرموقة في هذا الميدان قدراً من السمعة والمجد لدى الأوساط التي ليس لها خبرة واسعة من رجال هيئتنا القضائية الشابة . ولكن السيكولوجيا ، يا سادتي ، سلاح ذو حدين ، مهما تكن عميقة . (هنا سُمعت في الجمهور ضحكات صغيرة) . انني لعلى ثقة بأنكم ستغفرون لي هذا التشبيه العامي ، فأنا أمرؤ لا أملك ما يملكه غيري من جمال البيان وقوة البلاغة . لنأخذ مثالاً هو أول مثال يعرض لنا في مرافعة النيابة . ان المتهم ، حين هرب في جوف الليل من خلال الحديقة ، تسلق السور ، ثم هوى بضربة من مدق الهاون على رأس الخادم الذي تشبث بساقه . وعاد يثب الى الحديقة بعد ذلك من جديد ، فقضى قرب العجوز الذي جندله خمس دقائق طويلة محاولاً أن يعرف أهو قد قتله أم لا . ان النيابة ترفض رفضاً قاطعاً أن تسلِّم ، بحال من الأحوال ، أن المتهم قد قال الحقيقة حين أكّد أنه قد شغل بجريجوري شفقةً عليه ورأفةً به . يقول خصمي : «لا ، ان هذه العاطفة لا محل لها في مثل هذه الحالة ، ولا يمكن أن تكون طبيعية ، فانما قفز المتهم الى الحديقة من جديد لا لسبب الا أن يتأكد من ان الشاهد الوحيد قد مات ، فكأنه حين فعل ذلك قد وقّع اعترافاً بجريمته ، فما كان ليحضه على ذلك أي باعث آخر أو أن تحضه عليه أية عاطفة أخرى ، حين عاد يثب الى الحديقة» . انني أسلم بأن هذا الكلام

هو من السيكولوجيا . ولكن الا فلنأخذ هذه السيكولوجيا فنطبقها على الوقائع تطبيقاً جديداً من الجهة المعارضة ، فنرى أن النتائج التي نصل اليها عندئذ لا تقل اقناعاً عن النتائج التي وصلت اليها النيابة . ان القاتل الذي وثب الى الحديقة ليتأكد من أن الشاهد على جريمته قد مات ، كان قد ترك ، منذ لحظات ، في غرفة أبيه الذي قتله ، قرينةً يصفها السيد وكيل النيابة نفسه بأنها قرينة قاطعة ودليل حاسم ، ألا وهي الظرف الممزق الذي تثبت العبارة المكتوبة عليه أنه كان يضم مبلغ ثلاثة آلاف روبل . فلو أن المتهم قد أخذ هذا الظرف ، اذن لما خطر ببال أحد انه كان هنالك ظرف ، لا ولا خطر ببال أحد أنه كان هنالك مال ، ولما استطاع أحد أن ينسب الى المتهم فعل السرقة . ذلك ما قاله السيد وكيل النيابة . فمن جهة أولى اذن ، نرى رجلاً طاش صوابه وذهب عقله ، واستحوذ عليه الخوف فهرب تاركاً في أرض الغرفة برهاناً على ارتكابه الجريمة ؛ ومن جهة ثانية نرى هذا الرجل نفسه يسترد على حين فجأة كل صحو ذهنه وحضور بديهته ، ويبرهن على أنه يحسب الأمور حساباً يبلغ أبعد حدود الدهاء ، ويمضي الى أقصى آماد النأي عن العاطفة الانسانية . لنسلِّم مع ذلك بأن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، لنسلِّم بأن كل رهافة السيكولوجيا انما تكمن هنا : فرب فرد واحد بعينه يملك في بعض الظروف طبيعة دموية وبصراً حادا كنسر من نسور القفقاس ، ثم هو يصبح بعد لحظة واحدة أعمى هلوعاً كخلد مروَّع بائس . ولكن اذا كنا قد بلغنا من شدة القسوة ودقة الحساب حدَّ الوثوب مرة أخرى الى أسفل السور بعد ارتكابنا جريمة قتل ، لا لهدف الا أن نتأكد من أن الشاهد الذي قد يشهد علينا قد مات ،

فلماذا نشغل أنفسنا بعد ذلك خمس دقائق طويلة قرب هذه الضحية الجديدة متعرضين لأن يتنبه الينا شهود آخرون فى أغلب الظن ؟ لماذا نبلل منديلنا بالدم الذى يسيل من رأس الضحية ، مع أن هذا المنديل قد يُستخدم بعد ذلك دليلاً علينا ؟ ألم يكن من الأفضل لنا ، ونحن على هذا القدر من شدة التوحش وقسوة القلب ، أن نبادر بعد الوثوب عن السور الى الحديقة من جديد ، فنجهز على الخادم بضربات أخرى نهوى بها على رأسه بمدق الهاون لنصبح على يقين من موته ، ثم نهرب وقد فرغنا من هذا الهم وتخلصنا من هذا الخوف ! واليكم تناقضاً آخر : أأثب الى أسفل السور لأتأكد من موت شاهد مزعج ، ثم أترك على ممر فى الحديقة دليلاً قاطعاً علىَّ هو ذلك المدق الذى أخذته من عند امرأتين يمكن أن تتعرفاه وأن تشهدا بأننى الذى أخذته من عندهما ؟ ولا يمكن الادعاء بأننا نسينا هذا المدق فى الممر نسياناً او أنه سقط منا سهواً بسبب ما كنا فيه من انفعال واضطراب . لا ، فانما نحن رمينا ذلك السلاح رمياً عامدين ، فقد وُجد على مسافة خمس عشرة خطوة على الأقل من المكان الذى كان راقداً فيه جريجورى . فاذا سأل سائل لماذا فعلنا ذلك ، قلنا فانما نحن فعلناه لما شعرنا به من أسف شديد ومرارة عظيمة لصرعنا رجلاً هو خادم عجوز . فلما استولى علينا الغضب من أنفسنا ألقينا السلاح الذى استعملناه فى ارتكاب هذا الذنب ، ألقيناه بعيداً عنا . ذلكم هو التفسير الوحيد الممكن . وبدون هذا لا يمكن أن يفهم أحد لماذا رمى المتهم ذلك السلاح بمثل ذلك الاندفاع . ولكن اذا استطعنا أن نشعر بتلك المرارة كلها وتلك الشفقة كلها لأننا قتلنا ذلك الخادم العجوز ، فان معنى هذا

أننا لم نقتل أبانا : فلو قد ارتكبنا جريمة قتل الأب ، لما ملنا على الضحية الثانية مشفقين ، ولكان شعورنا عندئذ مختلفاً عن هذا الشعور كل الاختلاف ، ولما فكرنا عندئذ الا فى نجاتنا نحن وفى خلاصنا نحن ، ولما أشفقنا على غير أنفسنا البتة . ذلك أمر بديهى لا سبيل الى المماراة فيه . بالعكس : كنا سنجهز عندئذ على الضحية ، بدلاً من أن نُشغل بها خمس دقائق طويلة ! . . . ولئن شعرنا بالشفقة ، ولئن استيقظت فينا العواطف الخيِّرة فى تلك اللحظة ، فما ذلك الا لأننا كنا نحس حتى ذلك الحين ببراءة الذمة وطهارة الضمير . ان هذا من السيكولوجيا أيضاً ، ولكنه سيكولوجيا مختلفة بعض الاختلاف . وانما تعمدت ، يا سادتى المحلَّفين ، أن أعمد أنا أيضاً الى استدلالات سيكولوجية ، لأظهر لكم بوضوح وجلاء أن فى وسع المرء ان يخلص من أمثال هذه التحليلات الى ما يشاء الخلوص اليه من نتائج ، وأن يستخرج منها ما يحب له هواه أن يستخرجه من أحكام . والأمر كله يتوقف على الهدف من استعمال هذه التحليلات ، ويتوقف على الشخص الذى يقوم بهذه التحليلات . ان السيكولوجيا ، يا سادتى ، يمكن أن تغرى أحرص الناس على الجد وأكثرهم تمسكاً بالأنصاف ، بانشاء روايات وتأليف قصص ، وذلك على غير ارادة منهم . وطبيعى يا سادتى أن ما قلته الآن لا يتناول الا بعض مبالغات التحليل السيكولوجى ، وبعض اساءات استعماله .

هنا سُمعت ضحكات صغيرة أخرى يؤيد بها الجمهور سخرية المحامى من وكيل النيابة . ولكننى لن أنقل كل المرافعة التى ألقاها المحامى ، وانما أقتصر على مقتطفات منها هى أهم ما ورد فيها .

52-1306

١١

لم يكن ثمة مال ، لا ولاسرقة

ان ما لفت انتباه الجميع فى خطاب المحامى هو انه كان ينفى نفياً تاماً وجود هذه الثلاثة الأف روبل المشؤمة وبالتالى امكانية سرقتها .

استأنف المحامى كلامه فقال :

— سادتى المحلَّفين ، ان فى هذه القضية أمراً خاصاً يُذهل كل انسان غير متحيز . هذا الأمر الخاص هو اتهام موكلى بالسرقة مع انتفاء أى دليل قاطع على أن هناك مالاً قد سُرق . يُقال ان مبلغ ثلاثة آلاف روبل قد اختفى ، ولكن ما من أحد يعرف على وجه اليقين هل كان لهذا المبلغ وجود . فكروا قليلاً : من الذى أعلمنا بوجود هذه الثلاثة آلاف روبل ، من الذى رآها ؟ لا أحد الا الخادم سمردياكوف الذى زعم أن هذا المال كان مودعاً فى ظرف عليه الكتابة التى علمتم . وهذا الخادم سمردياكوف هو الذى نقل أيضاً هذا النبأ ، قبل وقوع الكارثة ، الى المتهم والى أخيه ايفان فيدوروفتش ، كما تحدث عنه كذلك الى السيدة سفيتلوفا . غير أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة لم يروا هذا المال بأعينهم . وما من أحد رآه الا سمردياكوف فيما زعم . ولكن لا بد أن نلقى على أنفسنا عندئذ هذا السؤال : لنفرض ان سمردياكوف كان صادقاً فيما قال ، فمتى رأى هذا المبلغ آخر مرة ؟ لنتخيل مثلاً ان مولاه قد أخرج المال بعد ذلك من تحت الفراش ووضعه فى صندوقه دون أن يبلغ الخادم ذلك . لاحظوا أن أقوال سمردياكوف تذهب الى أن

المال كان مخبأ فى السرير تحت الفراش . فلا بد اذن أن يكون المتهم قد نبش السرير . فهل رأيتم السرير منبوشاً ؟ كلاَّ . . . وتلك واقعة مسجلة فى محضر التحقيق . فكيف يمكن أن لا يكون المتهم قد جعَّد غطاء السرير ولو تجعيداً يسيراً ، بل كيف يمكن أن يكون قد دسَّ يديه الملطختين بالدماء تحت الفراش دون أن يلوِّث المفارش النظيفة المصنوعة من دقيق النسيج ، التى وُضعت على السرير فى ذلك المساء خصيصاً ؟ رب سائل يسأل : فما قولك بالظرف الملقى على الأرض ؟ ألا فلنتكلم اذن عن هذا الظرف قليلاً . لقد دُهشت بعض الدهشة منذ قليل حين رأيت السيد وكيل النيابة ، أثناء حديثه عن هذا الظرف نفسه ، فى مرافعته اللامعة الموهوبة ، حين رأيته هو نفسه — نعم هو نفسه أيها السادة — يقول من أجل أن يبرهن على بطلان اتهام سمردياكوف بارتكاب جريمة قتل : «لولا وجود ذلك الظرف ، لولا أن ذلك الظرف كان ملقى على الأرض دليلاً مادياً ، لولا أن السارق لم يأخذ هذا الظرف معه ، اذن لما خطر ببال أحد فى العالم شىء عن وجود هذا الظرف ووجود المال المودع فيه ، ولما أمكن ان يُنسب الى المتهم أنه سرق» . معنى ذلك أن هذه القطعة الحقيرة من الورق الممزق ، مع العبارة المكتوبة عليها ، هى وحدها الأساس الذى يقوم عليه اتهام المتهم بالسرقة . فلولا هذا الظرف لما عرفنا أن سرقة حدثت ، ولما كنا على يقين من وجود المال . فهل يمكن حقاً أن نزعم ان هذه المزقة الحقيرة من الورق الملقاة على الارض تنهض دليلاً كافياً على وجود المال وحدوث السرقة ؟ قد يُعترض على هذا بأن «سمردياكوف قد رأى المال فى الظرف» ، ولكننا نسأل عندئذ : متى ، متى رأى هذا

الظرف آخر مرة ؟ ذلكم هو السؤال الذى ألقيه عليكم . لقد تحدثت فى هذا الأمر مع سمرديا كوف ، فذكر لى أنه رآه قبل حدوث الدراما بيومين . فهل محظور علينا ان نفترض والحالة هذه ان العجوز فيدور بافلوفتش قد خطر بباله فجأة ، حين كان وحده فى الغرفة منتظراً حبيبته وهو فى حالة هستيرية نافدة الصبر ، أن يخرج الظرف من السرير وأن يفضه ، قائلاً لنفسه : «اذا كان المال مودعاً فى الظرف فقد يراودها شك ، أما اذا رأت فى يدى ثلاثين ورقة جميلة من فئة المائة روبل ، فسوف تقتنع رأساً ، وسوف يسيل لعابها طمعاً !» . ها هو ذا اذن يمزق الظرف ويخرج منه المال ، ثم يرميه على ارض الغرفة بحركة واثقة هى حركة رب الدار الذى لا يخشى طبعاً أن يكون فى ذلك شهادة عليه . هل هناك حقاً ، أيها السادة المحلفون ، افتراض أقرب الى المعقول وأدنى الى الجواز من هذا الافتراض الذى صورته لكم ؟ لماذا لا تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ؟ ولكن اذا جرت الأمور على هذا النحو ، أو على نحو قريب من ذلك ، فقد سقطت تهمة السرقة من تلقاء نفسها : فلا وجود لسرقة ما لم يوجد مال . اذا كانت النيابة العامة ترى أن وجود الظرف ملقى على أرض الغرفة دليل على وجود المال ، فلا شىء يمنعنى أنا من أن أؤكد نقيض ذلك . وهو أن الظرف لم يكن ملقى على الأرض الا لأنه قد أفرغ من المال ، أفرغه منه صاحبه نفسه سلفاً . رب سائل يسأل الآن : «ولكن اذا صحَّ هذا ، اذا صحَّ أن فيدور بافلوفتش هو الذى أخرج المال من الظرف ، فأين صار هذا المال ؟ اننا لم نجد المبلغ أثناء تفتيش المنزل» . ان جوابى عن هذا السؤال هو أولاً أن جزءاً من المال قد عُثر عليه فى صندوق

القتيل ، وثانياً أن من الممكن أن يكون العجوز قد أخرج المال فى صباح يوم الحادثة ، أو قبل ذلك بيوم ، ليتصرف فيه تصرفاً آخر ، كأن يدفعه لأحد أو أن يرسله الى أحد ؛ وثالثاً أن من الجائز ان يكون قد عدل عن رأيه فيما بعد ، فغيَّر خطة عمله تغييراً كاملاً ، دون أن يرى اطلاع سمرديا كوف على ذلك سلفاً . فاذا كان هناك أيسر امكان لتفسير الأمور على هذا النحو ، ففيم هذا الاصرار كله وهذا الاستمرار كله على تأكيد أن المتهم قد قتل ليسرق ، وأنه سرق بعد ان قتل ؟ ألا ان هذا لرواية مؤلفة تأليفاً ! حين يزعم أحد أن شيئاً ما قد سُرق ، فانما ينبغى له ، على الأقل ، ان يقول لنا بوضوح ما هو ذلك الشىء ، وأن يبرهن لنا على أنه وُجد فعلاً . أما فى هذه القضية فان الشىء المسروق لم يره أحد . لقد حدث فى بطرسبرج ، منذ وقت قصير ، أن شاباً يكاد يكون مراهقاً ، فى الثامنة عشرة من عمره ، يعمل بائعاً متجولاً ، قد داهم دكان صراف فى وضح النهار ، متسلحاً ببلطة ، فقتل الصراف بجرأة قصوى ، وسطا على ألف وخمسمائة روبل . قبض عليه بعد بضع ساعات ، فعثر على المبلغ معه كاملاً لم ينقص منه الا خمسة عشر روبلاً كان قد اتسع وقت الشاب لتبديدها . هذا الى أن أجير الصراف ، حين عاد الى الدكان بعد وقوع الجريمة ، استطاع ان يذكر للشرطة لا مقدار المال المسروق فحسب ، وانما ذكر للشرطة أيضاً ممَّ يتألف ذلك المال ، اى ذكر عدد الأوراق النقدية المسروقة وقيمة كل منها ، وعدد الدنانير الذهبية التى حملها القاتل . وقد عُثر مع القاتل على تلك الاوراق ذاتها وعلى تلك الدنانير نفسها . يضاف الى ذلك ان القاتل أدلى أخيراً باعترافات كاملة صادقة ، فقال انه قتل وسرق . ذلكم يا سادتى المحلَّفين

ما أستطيع أن أسميه أدلة قاطعة . ها هنا لا مجال للشك : فالمال أمامى ، أراه وألمسه ، ويستحيل علىَّ أن أزعم انه لم يوجد . فهل الأمر على هذا النحو فى القضية الراهنة ؟ والمسألة مع ذلك مسألة حياة او موت ، مسألة مصير انسان ! رب قائل يقول : «طيب . . . ولكن هذا لا ينفى ان المتهم قد قصف فى تلك الليلة نفسها ، وأنه بعثر المال يمنةً ويسرةً ، وأنه قد عُثر معه على ألف وخمسمائة روبل . فمن أين أتى بهذا المال ؟» ولكننى أقول ان هذه الواقعة ، وهى أنه لم يعثر معه الا على ألف وخمسمائة روبل وأنه استحال رغم جميع الجهود المبذولة أن يُكتشف النصف الثانى من المبلغ الذى يُزعم ان المتهم قد سرقه ، أقول ان هذه الواقعة نفسها تبرهن برهاناً كافياً على أن المال ليس مصدره السرقة وأنه لم يكن مودعاً فى ظرف . ان التدقيق فى أجزاء الزمن الذى قضاه المتهم بعد وقوع الجريمة (وقد حُسب هذا الزمن حساباً دقيقاً) قد أوضح وبين اثناء التحقيق أن المتهم لم يذهب الى بيته بعد أن خرج راكضاً من عند الخادمتين ليمضى الى منزل الموظف برخوتين ، وانه لم يذهب الى أى مكان آخر ، وأنه عدا ذلك كان فى صحبة أشخاص آخرين طول الوقت بعد ذلك ، فمن المستحيل والحالة هذه ان يكون قد اقتطع جزءاً من الثلاثة آلاف روبل ليخفيها فى مكان ما بالمدينة . وهذه الاعتبارات بعينها هى التى حملت السيد وكيل النيابة على أن يتصور أن المال لا بد أن يكون قد أُخفى فى شق من الشقوق فى قرية موكرويه . لماذا لا نقول انه مخبأ فى أقبية قصر أودولف ؟ أليس هذا الافتراض عجيباً غريباً فى الواقع ؟ لاحظوا يا سادتى المحلَّفين أنه متى سقط هذا الفرض ، أعنى متى سقط الفرض الذى

يذهب الى أن المتهم قد خبأ المال فى موكرويه ، فقد سقط الاتهام بالسرقة سقوطاً تاماً ، والا فأين ذهبت الألف وخمسمائة روبل الأخرى ؟ بأية معجزة اختفت ما دام قد ثبت أن المتهم لم يدخل الى أى مكان ؟ أبالاستناد الى روايات ينشئها الخيال على هذا النحو ، يجوز لنا أن ندمِّر مصير انسان ؟ فاذا قيل لى ان المتهم لم يستطع أن يدلنا على مصدر الألف وخمسمائة روبل التى عُثر عليها معه ، وانه كان معروفاً لدى جميع الناس أن المتهم لم يكن يملك قرشاً واحداً قبل تلك الليلة ، قلت : من يدرى ؟ ان المتهم قد قدم لنا ، من جهته ، تفسيراً واضحاً قوياً لمصدر ذلك المبلغ ؛ وما أحسب الا انكم تسمحون لى ، يا سادتى المحلَّفين ، بأن أنادى قائلاً انه لا يمكن أن يكون هناك ولا يتصور العقل أن يكون هناك أقوالٌ اقرب الى الصحة وأدنى الى الاحتمال من الاقوال التى أدلى بها المتهم حول هذه النقطة ، لا سيما وأن ما رواه المتهم يتفق كل الاتفاق مع طبعه وخصاله النفسية . لقد حلا للاتهام فى القصة التى ألفها ان يتخيل أن رجلاً ضعيف الارادة يأخذ ثلاثة آلاف روبل تقدمها اليه خطيبته فى ظروف مخزية الى ذلك الحد ، لا يمكن أن يملك من القوة ما يمكِّنه من ان يقتطع نصف ذلك المبلغ وأن يخيط عليه كيساً يخفيه فى صدره ؛ وهبه فعل ذلك فانه ما كان ليستطيع الا ان يفتح الكيس كل يومين فيسل منه مائة روبل بعد مائة روبل ، الى أن يتلف المبلغ كله فى غضون شهر . ذلك كله قد قاله لنا السيد وكيل النيابة ، كما تتذكرون ، بلهجة قاطعة لا تقبل الأخذ والرد . فماذا اذا كانت الأمور لم تجر على نحو ما صوَّرت قصتكم هذه التى حركتم فيها شخصية روائية من صنع الخيال والوهم ؟ ألا ان

البلاء هو انكم صورتم لنا شخصية روائية لا وجود لها فى الواقع ! رب معترض يقول ان هناك شهوداً رأوا المتهم يبدد مرةً واحدةً فى موكرويه ، قبل وقوع المأساة بشهر ، كل الثلاثة آلاف روبل التى أخذها من السيدة فرخوفتسيفا ، فلا يمكن أن يكون قد احتفظ من ذلك المبلغ بنصفه . ولكن من هم هؤلاء الشهود ؟ ان درجة الثقة التى يستحقون أن نوليهم اياها قد اتضحت لنا اتضاحاً كافياً اثناء المناقشات . ثم ان قطعة الخبز تبدو لنا دائماً أكبر مما هى فى الواقع حين نراها فى يد غيرنا . يضاف الى ذلك أن أحداً من أولئك الشهود لم يعدد المبلغ بنفسه ، ولم يتكلم أحد عن مقدار ذلك المبلغ الا على أساس رؤية العين . ألم يمض الشاهد ماكسيموف الى حد ادعاء انه رأى فى يدى المتهم عشرين ألف روبل ؟ هكذا ترون ، يا سادتى المحلفين ، ان السيكولوجيا سلاح ذو حدين ، فاسمحوا لى لذلك ان أواجهها من الطرف الآخر لنرى ما سيخرج منها .

قبل وقوع المأساة بشهر ، عهدت السيدة فرخوفتسيفا الى المتهم بثلاثة آلاف روبل ، وكلفته أن يرسلها بالبريد . اننى لأتساءل مع ذلك هل صحيح ان هذا المال قد سُلِّم اليه على النحو المذل المخزى الذى وُصف لنا منذ قليل ؟ ان الشهادة الأولى التى أدلت بها فرخوفتسيفا كانت مختلفة عن هذا ، كانت مختلفة عن هذا اختلافاً كبيراً . اما شهادتها الثانية فلم تكن الا خليطاً مشوشاً مضطرباً من صرخات غضب وانتقام ، والا انفجاراً لكره طال أمد كبته . ويكفى أن لا يكون هذا الشاهد قد قال لنا الحقيقة دقيقةً فى تصريحاته الأولى حتى نشك فى صدق التصريحات الأخرى التى أدلى بها بعد ذلك . ان وكيل النيابة «لم يشأ ولم يجرؤ» — وتلك كلماته نفسها —

ان يمسَّ هذا الجانب من المأساة . ليكن له ذلك ، وهأناذا أتنازل أنا أيضاً عن التوقف على هذا . غير اننى أسمح لنفسى مع ذلك بابداء هذه الملاحظة : حين نرى انسانة طاهرة فاضلة مثل السيدة فرخوفتسيفا التى نحترمها جميعاً أكبر الاحترام ، حين نراها تسمح لنفسها فجأة بأن تتراجع اثناء جلسة المحاكمة عن شهادتها الأولى على نية ان تضيِّع المتهم ، فانه يكون واضحاً عندئذ ان شهادتها لا تخلو من الهوى ولا تتصف بالموضوعية . فهل حرام علينا والحالة هذه أن نتصور ان امرأة تجيش فى نفسها روح الانتقام وتحركها عواطف الثأر ، هل حرام علينا أن نتصور ان هذه المرأة قد بالغت فى كثير من الأمور ، وضخمت كثيراً من الأشياء ؟ ان من الممكن خاصةً ان تكون قد ضخَّمت طابع الذل وصفة الخزى والعار فى تقديمها المال الى خطيبها . وانى لمقتنع بأن هذا المبلغ قد قُدِّم الى المتهم تقديماً يمكِّن من قبوله ، لا سيما بالنسبة الى رجل خفيف خفة صاحبنا المتهم هذا . ويجب أن لا ننسى خاصةً ان المتهم كان ينتظر ان يستلم من أبيه فى القريب مبلغ الثلاثة آلاف روبل الذى يدين أبوه له به تصفيةً لحساب الميراث . صحيح ان ذلك كان منه طيشاً وتسرعاً ، ولكن الخفة هى بعينها التى جعلته لا يشك فى ان أباه سيرد اليه هذا المبلغ ، فيكون فى وسعه فى كل وقت ان يعيد الى السيدة فرخوفتسيفا بالبريد المال الذى عهدت اليه به وائتمنته عليه ، فيسدد دينها عليه ويبرئ تجاهها ذمته . ولكن السيد وكيل النيابة يرفض رفضاً قاطعاً أن يصدِّق أن من الممكن أن يكون المتهم قد اقتطع ، فى ذلك اليوم نفسه ، نصف المبلغ الذى أخذه من خطيبته وأنه خاط عليه كيساً ؛ فالسيد وكيل النيابة يرى ان

ذلك «لا يتفق وطبع المتهم ، وان المتهم ما كان له ان يشعر بمثل هذه العواطف» . ولكن ألم تهتفوا أنتم أنفسكم قائلين ان لأمثال كارامازوف طبيعة عريضة ، ألم تتكلموا هنا عن الهوّتين اللتين يمكن ان يتأملهما فى آن واحد معاً رجلٌ مثل كارامازوف ؟ الا أن كارامازوف هو فعلاً ذلك الرجل الذى لا حدود لامكانياته فى الاتجاهين كليهما ، انه رجل الهوّتين الذى اذا انقاد لفرحة اتلاف المال واستسلم لظمأ الابتهاج واللهو والقصف كان يستطيع فى تلك اللحظة نفسها أن يتوقف فجأة متى راودته فكرة أخرى تريه الوجه الآخر للموقف . ولقد كان هذا الوجه الآخر قائماً : انه الحب الذى اشتعل فى نفسه ، وكان يحتاج من أجله الى المال احتياجاً أشد من احتياجه اليه فى سبيل اللهو والقصف مع حبيبته . فيومَ تقول له حبيبته : «أنا لك . اننى لا أريد فيدور بافلوفتش» ، سيرحل معها ، وسيكون عندئذ فى حاجة الى مال . وذلك أخطر شأناً من القصف واللهو ، ما فى ذلك ريب . ان رجلاً مثل كارامازوف لا يمكن الا أن يدرك هذا . وذلك بعينه هو ما كان يعذبه تعذيباً يوشك أن يصير الى مرض ، لأن هذه الفكرة كانت تحاصره محاصرة ولا تبرحه فى لحظة من اللحظات . فلماذا نستبعد أن يكون قد اقتطع ذلك المبلغ وادخره من باب الاحتياط ؟ ولكن الوقت كان يمضى وفيدور بافلوفتش لا يرد للمتهم الثلاثة آلاف روبل . والأدهى من ذلك ان المتهم قد علم أن فيدور بافلوفتش ينوى أن يستخدم هذا المبلغ نفسه لاغواء حبيبته ، لاغوائها بماله هو . فقال لنفسه عندئذ : «ان لم يردَّ الىَّ فيدور بافلوفتش هذا المبلغ فسوف تعدنى كاترينا ايفانوفنا لصاً» . عندئذ وُلدت فى ذهنه تلك الفكرة ، وهى أن يمضى فى يوم من الأيام

بالألف وخمسمائة روبل التى ما يزال يحملها فى عنقه ، أن يمضى بها الى فرخوفتسيفا فيقول لها : «انا وغد ولكننى لست لصاً» . أصبح هنالك اذن سببان يدفعانه الى الاحتفاظ بهذه الألف وخمسمائة روبل ، والى المحافظة عليها محافظة شديدة والى أن يصونها كما يصون بؤبؤ عينيه والى أن لا يفض الكيس ليسلّ مائة روبل بعد مائة روبل . لماذا تنكرون على المتهم أن يملك شيئاً من الشعور بالشرف ؟ لا يا سادتى ! ان هذا المتهم يملك الاحساس بالشرف ؛ قد يكون فى احساسه بالشرف شىء من البعد عن طريق الصواب ، وقد يظهر هذا الاحساس فى بعض الأحيان مقلوباً ، ولكنه يحس بالشرف احساساً قوياً ويتصوره تصوراً جياشاً بالهوى والاندفاع ، ولقد برهن على هذا ! ويتعقد الأمر مع ذلك ، فمشاعر الغيرة هذه تبلغ أوجها ، وهذان سؤالان ، سؤالان قديمان ، ما يزالان يلحان على نفسه المضطربة الحاحاً شديداً ، وما يزالان يؤلمانه مزيداً من الألم : «سأرد الى كاترينا ايفانوفنا مالها ، ولكن من اين أجىء بعد ذلك بما سأحتاج اليه من مال لأرحل مع جروشنكا ؟» . ولعل السبب فى أن سلوكه كان طوال هذا الشهر فاسداً ذلك الفساد وأنه كان يقبل على السكر بغير انقطاع ، لعل السبب فى هذا هو أن نفسه كانت تفيض مرارة ، وأنه لم يفلح فى السيطرة على ألمه ؛ وتفاقمت الخواطر التى كانت تثيرها هذه المسائل فى ذهنه ، تفاقمت حتى أودت به الى اليأس . وأوفد أخاه الصغير الى أبيه يرجوه مرة أخيرة أن يدفع له تلك الثلاثة آلاف روبل ، ولكنه داهم المنزل دون ان ينتظر جواباً ، وانتهى به الأمر الى ضرب العجوز على مرأى من شهود . وبعد ذلك فَقَدَ أى أمل فى الحصول على هذا المبلغ ، لانه

أيقن أن أباه سيرفض حتماً اعطاءه المال ، حقداً عليه وانتقاماً منه . وفى ذلك اليوم نفسه ، حين التقى بأخيه فى المساء ، لطم صدره ، لطم أعلى صدره ، فى الموضع الذى يوجد فيه الكيس ، وحلف ان فى امكانه ان لا يصبح وغداً حقيراً ، ولكنه سيصبح كذلك ، لأنه يتنبأ بأنه لن يستعمل هذا الامكان ، لافتقاده القوة النفسية التى تتيح له ذلك .

انى لأسألكم لماذا يرفض الاتهام أن يثق بأقوال ألكسى كارامازوف وأن يركن الى شهادته التى أدلى بها بريئاً تلك البراءة كلها ، صادقاً ذلك الصدق كله ، عفوياً تلك العفوية كلها ، والتى هى من جهة أخرى معقولة محتملة الى أبعد الحدود ؟ ولماذا يُراد لى ، فى مقابل ذلك ، أن أُقسر قسراً على الاعتقاد بأن هناك مبلغاً من المال قد خُبئ فى شق خفى من الشقوق أو فى قبو من أقبية قصر أودولف ؟ وفى ذلك المساء نفسه ، بعد حديثه مع أخيه ، كتب المتهم تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة التى هى أقوى قرينة ضده ، وأكبر دليل عليه ، والتى هى الأساس الرئيسى لاتهامه بالسرقة . «سأمضى ألتمس المال لدى جميع أنواع الناس ، فان لم أحصل عليه ، فسوف أقتل أبى ، وسوف استولى على المال المخبأ تحت الفراش فى ظرف مربوط بشريط وردى اللون ، شريطة أن يكون ايفان غائباً» . هذه خطة قتل . فكيف لا يكون هو القاتل والحالة هذه ، أليس كذلك ؟ «لقد تصرف المتهم وفقاً لما جاء فى الرسالة» بهذا صاح السيد وكيل النيابة . ولكننى أقول أولاً ان هذه الرسالة قد كتبت فى حالة سكر ، بينما كان يستحوذ على المتهم حنق شديد وغيظ كبير ؛ وأقول ثانياً ان المتهم لا يتكلم فى هذه الرسالة عن الظرف الا اعتماداً على أقوال

سمردياكوف ، لأنه لم ير الظرف بنفسه ؛ وأقول ثالثاً ان هذه الرسالة قد كُتبت فعلاً ، ولكن ما الذى يبرهن لنا على أن المتهم قد تصرف بعد ذلك وفقاً لما جاء فى تلك الرسالة ؟ هل أخرج الظرف من تحت الفراش ، هل وجد فيه المال ، بل أكان لهذا المال وجود ؟ تذكروا ان المتهم لم يهرع الى منزل أبيه بغرض الحصول على هذا المال ، تذكروا هذا أيها السادة ! وانما هو تسلل الى الحديقة كالمجنون ، لا ليسرق ، بل ليعرف أين توجد تلك المرأة ، تلك المرأة التى يحبها حب العبادة ، فهو اذن لم يذهب الى منزل أبيه لينفذ الخطة الموصوفة فى الرسالة ، انه لم يذهب الى منزل أبيه لارتكاب سرقة مدبرة ؛ وانما هو أسرع الى هناك بغير تدبير ولا تفكير ، وقد استبدت به وسيطرت عليه نوبة غيرة مسعورة . رب قائل يقول : «ولكن هذا لا ينفى انه قتل أباه بعد ذلك ، واستولى على المال» . هنا أسألكم أخيراً : «هل قتل ؟ هل قتل حقاً ؟» اننى ارفض تهمة السرقة مستنكراً مستهجناً : فليس يجوز لنا توجيه تهمة من هذا النوع حين لا نستطيع أن نحدد الشىء المسروق على وجه الدقة : تلك بديهية من البديهيات . ولكن هل قتل المتهم ، هل قتل دون أن يسرق ؟ هل جريمة القتل ثابتة ؟ ألسنا ، هنا أيضاً ، بصدد رواية مؤلفة ؟

١٢

لا ولا كان قتل

معذرة ، سادتى المحلَّفين ، ولكن الأمر يتوقف عليه مصير انسان ، فيجمل بالمرء ان يلتزم جانب الحكمة والحذر

والتروى . لقد سمعتم السيد وكيل النيابة يصرّح هو نفسه بأنه قد تردد حتى آخر يوم ، حتى انعقاد جلسة المحاكمة هذه ، فى أن ينسب الى المتهم جريمة قتل عن سابق اصرار وتصميم ، وأنه ظل يتردد فى ذلك حتى اللحظة التى قُدِّمت فيها الى المحكمة تلك الرسالة المشئومة ، تلك الرسالة «السكرى» . «لقدتصرف المتهم وفقا لما جاء فى الرسالة» . ولكننى أعود فأقول مكرراً ان المتهم قد تسلل الى الحديقة ليعثر على تلك المرأة ، وليس له من هدف الا أن يعرف أين هى . تلك واقعة ثابتة لا سبيل الى انكارها . فلو قد وجدها فى منزلها لما ذهب الى دار أبيه ، ولظلَّ الى جانب تلك المرأة ، ولما نفَّذ ما أعلن عنه فى رسالته . لقد هرع الى منزل أبيه بحركة مباغتة لم يكن يتوقعها ، ولعله كان فى تلك اللحظة قد نسى الرسالة التى كتبها وهو سكران . رب قائل يقول : «ولكنه أخذ مدق الهاون ، أليس كذلك ؟» ولا شك أنكم تتذكرون التحليلات السيكولوجية التى اتخذ هذا المدق الشقى ذريعة لها وحجة ، وكيف أريد اقناعنا بأن المتهم لا بد ان يكون قد عدَّ هذا المدق سلاحاً ، وأنه قد استولى عليه اداةً لارتكاب جريمة قتل الخ . ان فكرة بسيطة جداً تحضرنى فى هذه المناسبة : ترى ما الذى كان يمكن ان يحدث لو أن مدق الهاون هذا لم يكن موضوعا على رف فرآه المتهم فتناوله ، وانما كان مودعاً فى خزانة مثلا ؟ ما كان لهذا المدق عندئذ أن يخطف بصر المتهم ، ولانصرف المتهم عندئذ خالى اليدين ، لا يملك سلاحاً ، ولما أتيح له والحالة هذه أن يقتل احداً . فكيف نستطيع بعد هذا أن نعدَّ ذلك المدق دليلاً على سابق اصرار وتصميم ، وبرهاناً على نية التزود بسلاح ؟ رب قائل يقول : طيب . . . ولكن

المتهم قد صرخ يقول هو نفسه ، فى الحانات ، انه سيقتل أباه ؛ ومع ذلك فانه قبل الحادث بيومين ، فى المساء الذى كتب فيه رسالة السكران تلك ، كان هادئاً لم يزد على أن تشاجر قليلاً فى احدى الحانات مع بائع من باعة المتاجر : «لأن كارامازوف كان لا يستطيع الا أن يتشاجر مع أحد» . وأقول فى الرد على هذه الحجة أن رجلاً فكر فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وانتوى أن يقترفها وفق خطة مرسومة سلفاً ، ما كان له قطعاً أن يتشاجر مع أحد ، ولو مع بائع ؛ بل ولا كان له أن يدخل الى احدى الحانات أصلاً ، لأن الرجل الذى يفكر فى اقتراف جريمة من هذا النوع ، انما ينشد الهدوء والعزلة ويحاول أن لا يلاحظه أحد ، يحاول أن لا يراه أحد ولا أن يسمعه أحد ، وكأنه يتمنى فى قرارة نفسه أن يقول للناس : «انسوا وجودى ، اذا أمكن ذلك» ، لا عن حساب وتدبير ، بل بغريزته وحدها . ان السيكولوجيا سلاح ذو حدين يا سادتى المحلَّفين ، وانا لنحسن استعمالها نحن ايضاً . أما التهديدات التى اطلقها فى الحانات طوال ذلك الشهر فما هى الا زعيق شبيه بزعيق الأطفال ، وما هى الا أقوال حمقاء يطلقها سكارى يشتجرون فيأخذون يعولون قائلين : «لأصرعنك ، لأقتلنك !» ، ولكنهم لا يفعلون شيئاً . وأما تلك الرسالة المشئومة فليست الا صرخة سكر وغضب هى ايضاً ؛ ليست الا تبجح رجل يصيح وهو خارج من خمارة : «لأقتلنكم ، يميناً لأقتلنكم جميعاً !» . فيم البحث عن تعليل آخر غير هذا التعليل ، فيم الاصرار على رفض هذا التعليل ؟ ان هذه الرسالة توصف بأنها حجة دامغة ، أفليس الأولى أن توصف بأنها كلام مضحك ؟ انهم لا يريدون لها الا أن تكون دليلاً قاطعاً وحجة دامغة ،

لسبب واحد هو أن الأب قد وُجدت جثته قتيلاً ، وأن شاهداً قد رأى المتهم يهرب خلال الحديقة وفى يده سلاح ، وأن هذا الشاهد قد صُرع هو أيضاً بعد ذلك ؛ فرتبوا على هذا أن كل شيء قد تم وفقاً لما جاء فى الرسالة ، فلا يمكن اذن أن تكون تلك الرسالة كلاماً مضحكاً ، ولا يمكن الا أن تكون دليلاً قاطعاً ؛ وحمدوا الله على أنهم وصلوا الى النقطة الحاسمة فقالوا : «أما وأنه كان فى الحديقة فقد قتل» . ان هذه الكلمات الصغيرة الثلاث «**أما وأنه كان**» هى فى الواقع جوهر الأساس الذى تقوم عليه القضية ويستند اليه الاتهام . «**كان** فى الحديقة ، فهو **اذن** . . .» . ماذا لو أسقطنا كلمة **اذن** هذه دون أن ننكر مع ذلك أن المتهم كان فى الحديقة ؟ ألا اننى لأسلِّم بأن توافق الوقائع فى هذه القضية واجتماعها هما أمران بالغا الدلالة . ولكن هلاّ حملتم أنفسكم عناء تحميص كل واقعة من هذه الوقائع فى ذاتها على حدة ، دون ان تهتموا بتوافقها ؟ لماذا يرفض جانب الاتهام مثلاً أن يصدِّق أن المتهم ذكر الحقيقة حين قال أنه انصرف عن نافذة أبيه ؟ تذكروا الأسلوب الساخر المتهكم الذى استعمله السيد وكيل النيابة حين تكلم فى هذا الموضوع فاشار الى مشاعر الاحترام «وعواطف التقوى» التى اجتاحت نفس القاتل على حين فجأة . أى عجب فى أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً ، أى فى أن يكون المتهم قد استيقظت فى نفسه حينئذ مشاعر قد لا تكون مشاعر احترام بالضرورة ، ولكنها مشاعر تقوى . لماذا يكون هذا مستحيلاً ؟ لقد قال المتهم أثناء التحقيق : «لا بد أن تكون أمى قد تشفعت لى فى تلك اللحظة» . فالمتهم قد هرب اذن منذ أدرك أن سفيتلوفا ليست فى صحبة أبيه . فان

ردّت النيابة على هذا قائلة : «ما كان المتهم ليستطيع أن يدرك ذلك حين ينظر من النافذة» ، قلت لم لا ؟ لقد فُتحت النافذة بعد أن قرع المتهم النافذة بالاشارات المتفق عليها . ومن الجائز أن يكون فيدور بافلوفتش قد أفلتت منه فى تلك اللحظة كلمات أو صرخات استنتج منها المتهم أن سفيتلوفا ليست فى المنزل . لماذا هذا الاصرار على تأويل الوقائع تأويلاً يتفق وما تخيلته النيابة أو ما جهدت أن تتخيله ؟ ان الواقع يشتمل فى كثير من الأحيان على احتمالات لا حصر لها ، احتمالات تغيب عن أدق الروائيين ملاحظة وأنفذهم رؤية . رب معترض يقول : «طيب ، ولكن هذا لا ينفى أن جريجورى قد رأى الباب مفتوحاً ، وهذا دليل على أن المتهم قد دخل المنزل ، وعلى أنه اذن قد قتل» . ها نحن أولاء وصلنا الى حكاية الباب هذه ، يا سادتى المحلَّفين . تعلمون يا سادتى المحلَّفين أن هناك شخصاً واحداً يزعم أنه رأى الباب مفتوحاً ، وهذا الشاهد الوحيد كان عندئذ فى حالة خاصة ، كان فى حالة . . . ولكن لا داعى الى الالحاح . . . . لنسلِّم جدلاً ، اذا كنتم تحرصون على ذلك ، بأن الباب كان مفتوحاً ، وبأن المتهم قد كذب فى هذه النقطة أثناء التحقيق ، يدفعه الى الكذب حرصه على الدفاع عن نفسه ، وهو أمر مفهوم فى مثل وضعه . لنسلم جدلاً بأنه دخل البيت ، نعم ، لنسلِّم جدلاً بذلك . فهل يترتب على هذا بالضرورة أنه قتل ؟ ان من الممكن أن يكون قد اقتحم البيت ، وطاف بالغرف راكضاً ، ودفع أباه بل وربما ضربه ايضاً . فلما ثبت له بعد ذلك أن سفيتلوفا ليست فى الدار ولىّ هارباً وهو يشعر بسعادة لأنه لم يجدها ولأنه انصرف دون أن يقتل أباه . ولئن قفز الى الحديقة بعد ذلك

53-1306

بدقائق فمال على جريجورى الذى صرعه فى لحظة من غضب شديد ، فانه لم يفعل ذلك الا لأنه كان قادراً على أن يشعر بعواطف شفقة ورحمة بسبب أنه انتصر على اغراء قتل أبيه ، فكان قلبه يفيض فرحاً وصفاء وبراءة . ان وكيل النيابة قد وصف لنا ، ببلاغة مظلمة قاتمة ، الحالة النفسية التى لا بد أنها كانت حالة المتهم فى موكرويه ، حين أدرك أن السعادة والحب يعرضان له ، ويناديانه الى حياة جديدة بينما كان محظوراً عليه أن يحب ، لأنه خلّف وراءه جثة أبيه الدامية ، ولأنه كان يرى أمامه العقاب الذى لا مناص منه . ولكن وكيل النيابة قد سلّم مع ذلك بأن الحب قد تكلم فى قلب المتهم ، ثم راح يفسر لنا ذلك على طريقته الخاصة معتمداً على تحليلات سيكولوجية ، فقال : «هذه حالة تشبه السكر ، هذه حالة تشبه حالة مجرم يقاد الى ساحة الاعدام ، فيحدث نفسه قائلاً ان الطريق ما يزال طويلاً ، الخ» . ولكننى أتوجه الى السيد وكيل النيابة مرة أخرى بهذا السؤال : ألم تخلق هنا شخصية روائية من صنع الخيال ؟ هل طبيعة المتهم فعلاً طبيعةٌ تبلغ من قلة الاحساس وشدة الاستخفاف والاستهتار أنه يستطيع ، بعد أن سفك دم أبيه ، أن يفكر فى الحب وأن يبنى خططاً ماكرة للدفاع عن نفسه ؟ كلا ثم كلا ! انى لأحلف باغلظ الأيمان على أن المتهم ، حين اكتشف أن هذه المرأة تحبه ، وحين رآها تناديه الى حياة جديدة هانئة ، كان لا بد أن يشعر برغبة فى الانتحار لا تغالب ولا تقاوم ، وكان سينتحر حتماً ، لو أن ضميره كان مثقلاً بوزر قتل أبيه حقاً ! وما كان لينسى عندئذ أين وضع مسدسيه ! اننى أعرف المتهم : ان ما ينسبه اليه جانب الاتهام من قسوة القلب وقلة الاحساس

يناقض طبيعته . لو كان المتهم آثماً لانتحر حتماً ، هذا محقق ! واذا كان لم ينتحر فلأن «أمه قد تشفعت له» فلم يسفح دم أبيه ؛ واذا ظل يتعذب طوال تلك الليلة فى موكرويه ، واذا ظل يلوم نفسه ويؤاخذها ، فان ذلك لم يكن الا بسبب جريجورى الذى كان المتهم قد صرعه ، فكان المتهم لا ينفك يسأل الله صامتاً أن يعود ذلك العجوز الى الحياة ، وأن لا تكون ضربة المدق قد قضت عليه ، وأن ينجو هو نفسه من العقاب . لماذا نرفض تأويل الوقائع على هذا النحو ؟ ما الذى يبرهن لنا على أن المتهم يكذب ؟ رب سائل يسأل : «وجثة الأب ؟ اذا كان المتهم قد هرب دون أن يقتل فمن ذا الذى قتل اذن فيدور بافلوفتش ؟»

أعود فأقول : ان كل المنطق الذى يستند اليه الاتهام هو هذا . من ذا الذى قتل ، اذا لم يكن المتهم هـــو القاتل ؟ . . . يُقال لنا : انه من المستحيل علينا أن نعثر على قاتل آخر . فهل هذا صحيح يا سادتى المحلّفين ؟ هل يستحيل حقاً أن ننسب هذه الجريمة الى أشخاص آخرين ؟ لقد سمعنا وكيل النيابة يحصى جميع من كانوا فى المنزل ليلة وقوع الجريمة . انهم خمسة اشخاص ، منهم ثلاثة يجب استبعادهم من القضية فوراً : المجنى عليه ، وجريجورى ، وامرأته . لم يبق اذن الا اثنان يمكن اتهامهما بارتكاب جريمة القتل هما المتهم وسمردياكوف . وقد صاح السيد وكيل النيابة يقول بلهجة مؤثرة : لئن عمد المتهم الى تسمية سمردياكوف قاتلاً ، فلأنه لم يجد أحداً غير سمردياكوف يستطيع أن يشى به ؛ فلو كان هناك شخص سادس بل طيف شخص سادس يمكن اتهامه بالقتل ، اذن لأسرع يترك اتهامه لسمردياكوف بدافع الخجل ، ولمضى

يتهم ذلك الشخص السادس على الفور . ولكن ما الذى يمنعنى يا سادتى المحلَّفين من ان اقلب هذا الدليل ؟ هناك شخصان لا ثالث لهما : المتهم وسمردياكوف . أفلا يجوز لى أن أؤكد أنكم لا تتهمون موكلى الا لأنكم لا تجدون شخصاً آخر توجهون اليه التهمة ؟ ولكن لئن تجدوا شخصاً آخر توجهون اليه الاتهام فما ذلك الا لأنكم قد تحيزتم لسمردياكوف منذ البداية دفعةً واحدةً ، فاستبعدتم كل شبهة حوله ، ورفضتم كل شك فيه . صحيح أن أحداً لم يسمِّ سمردياكوف قاتلاً ، الا المتهم وأخويه وسفيتلوفا . غير أن هناك شيئاً آخر يحمل على الاشتباه فيه . ان شائعات غامضة تجرى عنه ، ان أسئلة وشبهات تساور الأنفس وتستحيل الى توقع عام وانتظار شامل . ثم ان هناك وقائع تشهد عليه رغم غموض دلالتها : من ذلك أولاً نوبة الصرع تلك التى وافته في يوم وقوع الكارثة نفسه ، بحيث رأى السيد وكيل النيابة أن من واجبه — لا أدرى لماذا — أن يهتم اهتماماً كبيراً بالالحاح على أنها نوبة طبيعية يمكن تعليلها . ومن ذلك ثانياً انتحار سمردياكوف ،عشية انعقاد جلسة المحاكمة انتحاراً لم يكن يتوقعه أحد . ومن ذلك أيضاً هذه الشهادة التى لم يكن يتوقعها أحد أيضاً ، أعنى شهادة أخى المتهم ، ايفان فيدوروفتش ، الذى ظل الى ذلك الحين مقتنعاً بأن أخاه هو القاتل ، فاذا هو يجىء اليوم الى المحكمة حاملاً المال المسروق قائلاً ان سمردياكوف هو القاتل ! صحيح أننى أشاطر المحكمة والنيابة العامة رأيها فى حالة الشاهد النفسية . فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأن ايفان كارامازوف مريض ، وأنه مصاب بنوبة حمى عصبية ، وأن أقواله قد تكون محاولة يائسة تصورها وهو فى حالة هذيان فى سبيل أن ينقذ أخاه بالقاء الجريمة

على عاتق رجل مات . ولكن هذا لا ينفى أن اسم سمردياكوف قد ذُكر فى هذه المناسبة مرة جديدة ، مع كل ما يرتبط بذكر اسمه هذا من أمور توشك أن تكون الغازاً ، فكأن هناك ، يا سادتى المحلَّفين ، أشياء لم تُذكر الى آخرها فيما يتعلق بهذا الرجل ، وكأن الملاحظات التى قيلت فى حقه لم تكمل بعد ، ولعلها تكمل فيما بعد . ولكن ما ينبغى أن نستبق الأمور . لقد قررت المحكمة منذ قليل متابعة المناقشات ، ففى وسعى ، ما دمنا الآن فى انتظار ذلك ، أن أبسط لكم بضع ملاحظات تتعلق بخصائص المرحوم سمردياكوف التى صوَّرها لنا وكيل النيابة بكثير من البراعة والرهافة والموهبة . اننى على اعجابى بما أظهره السيد وكيل النيابة من فن فى رسم تلك اللوحة النفسية ، لا أستطيع أن اشاطره رأيه فى هذا الرجل مشاطرة تامة . لقد ذهبت الى سمردياكوف ، رأيته وتحدثت معه ، فترك فى نفسى صورة تختلف عن الصورة التى رسمها لنا السيد وكيل النيابة . صحيح ان صحته كانت ضعيفة ولكن طبيعته ليست ضعيفة كما وصفها لنا الادعاء . اننى لم أجد فيه أثراً من ذلك الوجل الهلوع الذى تكلم عنه السيد وكيل النيابة بالحاح شديد . أما بساطة القلب وسذاجة الطبع فلا وجود لهما عنده البتة . بالعكس : لقد لاحظت فيه حذراً رهيباً ودهاءً خبيثاً ، وان تدثر هذا الحذر وهذا الدهاء بمظاهر سذاجة مصنوعة ، كما لاحظت فيه ذكاء قادراً على أن يفهم أموراً كثيرة . فى رأيى أن السيد وكيل النيابة قد تسرع قليلاً حين ظن أن هذا الرجل ضعيف العقل . لقد خلَّف سمردياكوف فى نفسى شعوراً واضحاً كل الوضوح : تركته مقتنعاً بانه انسان تفيض نفسه شراً وخبثاً ، وحقداً وحسداً ، وغروراً وميلاً الى الانتقام .

لقد جمعت بعض المعلومات عنه : كان يكره أصله ، ويحمر خجلاً منه ، ويكز أسنانه غضباً حين يذكر أنه ابن امرأة «نتنة» . وكان يسيء معاملة الخادم جريجورى وامرأته اللذين احسنا اليه وانعما عليه فى سنى طفولته . وكان يكره روسيا ويلعنها ويسخر منها ، وكان حلمه هو أن يسافر الى فرنسا وأن يصبح فرنسياً . وكثيراً ما كان يقول انه يحتاج الى مالٍ من أجل أن يرحل . وأعتقد أنه كان لا يحب الا نفسه ، وكان يقدر نفسه فوق قدرها كثيراً . كان يعد رجلاً مثقفاً لانه يعنى بهندامه ويلبس قمصاناً نظيفة وينتعل حذاءين لامعين . واذ كان يعد نفسه ابناً غير شرعى لفيدور بافلوفتش (ذلك أمر تثبته الوقائع أيضاً) ، فمن الجائز أن الفرق بين وضعه ووضع أبناء مولاه الشرعيين قد أورثه حقداً : كان هؤلاء يتمتعون بجميع المزايا ، وكان هو لا يتمتع باية مزية . كانوا يملكون جميع الحقوق وكانوا يستطيعون أن يرثوا أباهم ، أما هو فلم يكن الا طباخاً . لقد أسرَّ الىَّ أنه ساعد فيدور بافلوفتش فى ايداع المال فى الظرف . والهدف الذى نُذر له هذا المبلغ — وهو مبلغ كان يمكن أن يعينه فى تحقيق أغراضه — لا بد أن يكون قد أثار فى نفسه غيظاً شديداً . ثم انه رأى ثلاثة آلاف روبل أوراقاً مالية زاهية الألوان (سألته عن هذا عامداً) ، وأنتم تعلمون ، يا سادتى ، أنه ما ينبغى لنا أن نلألئ مبلغاً ضخماً أمام عينى انسان حسود مغرور ؛ وكانت تلك اول مرة يتاح له فيها أن يرى مالاً يبلغ هذا القدر من الضخامة فى يدى شخص واحد . فلا بد أن يكون منظر تلك الكدسة من الأوراق النقدية الزاهية قد أحدثت فى نفس هذا الرجل شعوراً مرضياً دون أن يترتب على ذلك شىء فى بداية الأمر . ان السيد وكيل النيابة الذى نعجب بموهبته

كل الاعجاب قد حلل برهافة عظيمة جميع الأدلة التى يمكن اللجوء اليها لتأييد أو دحض الافتراض القائل بأن سمردياكوف ربما كان هو القاتل ، وقد ألحَّ خاصةً على هذا السؤال : لأى سبب كان يمكن أن يصطنع سمردياكوف نوبة الصرع تظاهراً وكذباً ؟ ولكن سمردياكوف لم يكن فى حاجة الى ذلك التظاهر ، فمن الجائز أن تكون النوبة قد وافته طبيعيةً من تلقاء نفسها ، ومن الجائز أن تكون قد زايلته على ذلك النحو نفسه أيضاً . من الجائز أن يكون المريض قد صحا من غيبوبته وثاب الى وعيه . صحيح أنه لا يكون قد شفى عندئذ من مرضه ، ولكن كان لا بد أن يعود اليه شعوره عاجلاً أو آجلاً ، كما يحدث دائماً حين يُصاب المريض بنوبة من نوبات الصرع . ان الادعاء يسأل : فى أية لحظة يمكن أن يكون سمردياكوف قد ارتكب جريمة القتل ؟ الحق ان الجواب عن هذا السؤال يسير جداً ، فما أسهل أن تعيِّن تلك اللحظة . فمن الجائز أن يكون سمردياكوف قد ثاب الى وعيه وصحا من نومه العميق (ذلك أنه كان نائما فقط ، فان نوبات الصرع يعقبها دائماً نوم عميق) ، فى تلك اللحظة نفسها التى تشبث فيها العجوز جريجورى بساق المتهم (حين كان هذا يحاول أن يهرب من فوق السياج) فصرخ يقول معولاً بصوت حاد ملء حنجرته : «يا قاتل أبيه !» . فمن الجائز أن تكون هذه الصرخة الخارقة التى دوَّت فى صمت الليل المظلم قد أيقظت سمردياكوف من نومه الذى لعله لم يكن عندئذ عميقاً كل العمق ، لأن سمردياكوف لا بد أن يكون قد أخذ يفيق منذ ساعة ؛ فلما نهض اتجه على غير شعور منه ، وبدون أية نية معينة ، الى الجهة التى جاءت منها الصرخة . وكانت أفكاره ما تزال مبهمة ، وكان خياله ما يزال

وسنان . ولكن ها هو ذا يصل الى الحديقة ، وها هو ذا يقترب من النافذة المضاءة ، فاذا هو يعلم بالنبأ الرهيب من فم مولاه نفسه ، الذى اغتبط لرؤيته طبعاً ؛ واذا بفكرة الجريمة تنبت فى رأسه فجأة . لقد أطلعه مولاه المذعور على ما جرى . وها هى ذى الفكرة التى نبتت فى رأسه المريض المشوش تظهر الى النور واضحة المعالم بينة الحدود . انها فكرة رهيبة ولكنها مغرية يؤيدها منطق لا يرحم : وهى أن يقتل العجوز ويستولى على الثلاثة آلاف روبل ، ثم يلقى الجريمة بعد ذلك على عاتق ابن القتيل ! من ذا الذى يمكن أن يُشتبه فيه الآن ، من ذا الذى يمكن أن يُتّهم ، غير هذا الابن الذى تشهد عليه قرائن قوية وتدينه أدلة دامغة ؟ ألم يكن هذا الابن موجوداً هنا منذ لحظات ؟ من الجائز اذن أن تكون قد استبـــدت بسمردياكوف عندئذ شراهة رهيبة الى السطو على المال ، وظمأ شديد الى الاستيلاء على الغنيمة ، مع الشعور بأنه لن يناله عقاب . ألا اننا لنعرفها ، هذه الاندفاعات المفاجئة القاهرة التى تشب فجأة فى نفوس قتلة كانوا قبل دقيقة واحدة فى معظم الأحيان لا يخطر ببالهم ولا يدور فى خلدهم أنهـــم سيقتلون . من الجائز اذن ان يكون سمردياكوف قد دخل الى غرفة مولاه ، ونفذ خطته . فاذا سألتمونى ما هو السلاح الذى استعمله فى القتل ، قلت ان من الجائز أن يكون قد استعمل أول حجر عثر عليه فى الحديقة ؛ واذا سألتمونى ما هو الهدف الذى قتل من أجله قلت أنه تلك الثلاثة آلاف روبل التى يمكنها أن تؤمن مستقبله ! لا ، لا ، اننى لا أناقض نفسى : فمن الجائز أن يكون المال موجوداً . ومن يدرى ؟ لعـــل سمردياكوف هو الشخص الوحيد الذى كان يعرف المخبأ الذى

أخفى فيه مولاه المال . رب معترض يقول : «والظرف ؟ الظرف الممزق الملقى على أرض الغرفة ؟» فأجيب قائلاً : ان السيد وكيل النيابة قد أورد فى موضوع هذا الظرف نفسه فكرةً تبلغ غاية الدقة والرهافة ، وهى أن هذا الظرف لا يمكن أن يتركه على أرض الغرفة الا لص يقوم بفعل السرقة عرضاً ، وليس له خبرة سابقة أى لا يمكن أن يتركه الا لص مثل كارامازوف ، أما رجل مثل سمردياكوف فما كان له بحال من الأحوال أن يرتكب مثل هذه الغفلة فينسى على أرض الغرفة شيئاً سيكون قرينة قاطعة ودليلاً دامغاً على أنه هو الفاعل . سادتى المحلَّفين ، حين سمعت السيد وكيل النيابة يبدى هذه الملاحظة الدقيقة المرهفة أحسست أننى أسمع صوت جرس معروف عندى مألوف لى . تصوروا أن هذه الفكرة عن السلوك الذى يمكن أن يسلكه كارامازوف فيما يتصل بهذا الظرف ، تصوروا ان هذه الفكرة قد عرضها لى ، منذ يومين ، شخص ليس الا سمردياكوف نفسه . وعدا ذلك ، فان وضعه فى تلك اللحظة قد خطف انتباهى ، فشعرت شعوراً واضحاً بأن سذاجته متصنعة كاذبة ، وأنه انما كان فى حقيقة الأمر يسبقنى فيوحى الىَّ بهذه الفكرة بغية ان تتجسد فى نفسى بعد ذلك ، فأستخرج منها النتائج التى يريد أن يبثها بهذه الطريقة فى ذهنى . أفلا يمكن أن يكون سمردياكوف قد لَقَّن قاضى التحقيق هذه الفكرة أيضاً ؟ أفلا يمكن أن يكون قد انبتها عمداً فى فكر السيد وكيل النيابة الذى يمتاز بمواهب عظيمة ؟ رب قائل يقول : ولكن العجوز زوجة جريجورى قد ظلت تسمع أنين سمردياكوف على مسافة ثلاثة خطوات من سريرها طوال الليل ! لست أنكر انها سمعت أنينه ، ولكن هذه الحجة من أوهى الحجج . عرفتُ سيدة

شكت يوماً بكثير من المرارة من أن كلباً ظل ينبح طوال الليل فحرمها من النوم ، وأكدت هذه السيدة ان جفنها لم يغمض . وقد تبين مع ذلك أن الكلب المسكين لم ينبح فى الواقع الا مرتين او ثلاث مرات متباعدة جداً . ان أمثال هذه الاخطاء طبيعية : هذا انسان نائم يسمع أنيناً فيصحو خانقاً لأنه اوقظ من نومه ؛ ثم ما يلبث أن يعود ينام فوراً ؛ وتنقضى على ذلك ساعتان أو ثلاث ساعات ، فاذا بأنين جديد ينطلق ، فيستيقظ الرجل ثم يعود ينام كما فى المرة السابقة ؛ وبعد عدة ساعات اخرى يوقظه أنين ثالث ، فتكون مرات الأنين خلال الليلة كلها ثلاثا لا اكثر . ولكن صاحبنا ، حين يستيقظ فى الصباح ، سيشكو من أن أنيناً متصلاً غير منقطع قد حرمه من النوم طوال الليل . ولا بد أن يحس هذا الاحساس حتماً ، لانه لن يتذكر فترات الساعتين أو الثلاث ساعات التى كان أثناءها نائماً ، ولن يحتفظ الا بذكرى تلك الاستيقاظات المتكررة . لذلك سيتخيل أنه أوقظ ايقاظاً متصلاً غير منقطع . وقد هتف السيد وكيل النيابة سائلاً : «ولكن لماذا لم يعترف سمردياكوف بجريمته فى الكلمة التى كتبها قبل موته ؟ أيكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الانتحار ، ثم لا يكون عنده من الضمير ما يكفى لحمله على الاعتراف ؟» . هنا أستوقفكم لأقول : ان الضمير يتضمن الندم . ولعل سمردياكوف لم يكن يشعر بأى ندم حين انتحر ، ولعله لم يختر هذا المخرج الا يأساً وقنوطاً . ان الندم واليأس شيئان اثنان يختلف احدهما عن الآخر كل الاختلاف . فاليأس قد يكون زاخراً بكره وحقد لم يشف غليلهما ؛ وحين ينتحر سمردياكوف فانه يستطيع أن يكره مزيداً من الكره أولئك الذين ظل يحسدهم طوال حياته . سادتى

المحلَّفين ، اياكم والخطأ القضائى ! هل فى هذا التأويل الذى أضعه بين أيديكم شىء يخالف العقل ويجافى الاحتمال ؟ دلُّونى على خطأ واحد فيما عرضته لكم ، دلونى على استحالة واحدة ، أو بطلان واحد ! ولكن اذا كان هذا الافتراض الذى بسطته لكم يشتمل ولو على ظل احتمال ، ولو على ظل امكان أو جواز ، كان عليكم أن تمتنعوا عن اصدار حكم يدين المتهم . فما بالكم وفيما قلته لكم أكثر من ظل حقيقة ! ألا اننى لأحلف لكم بكل ما أقدسه فى هذا العالم على أننى ، من جهتى ، مقتنع اقتناعاً عميقاً بصدق تأويل الوقائع على النحو الذى وصفت . وانى لأشعر باضطراب شديد وقلق عظيم يخرجانى عن طورى حين تراودنى هذه الفكرة التى تلاحقنى وتطاردنى بغير انقطاع ، وهى أنه ليس بين مجموعة القرائن الكثيرة التى جمعها الادعاء قرينةٌ واحدة يمكن أن تعدَّ واضحة ، ويمكن أن تصمد للتفنيد والدحض . ان اجتماع هذه القرائن بعضها الى بعض هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يكون سبباً فى هلاك انسان مسكين . أنا أعلم أن اجتماع هذه القرائن رهيب : ذلك الدم السائل من يدى المتهم ، ذلك القميص الملوث بالدم ، تلك الصرخة التى دوَّت فى ظلام الليل قائلة : «يا قاتل أبيه !» ، وسقوط الرجل الذى أطلق تلك الصرخة ، سقوطه على الفور مهشَّم الجمجمة ، ثم جميع تلك الشهادات والأقوال ، وجميع تلك الحركات والصيحات . . . آه . . . ان ذلك كله يمكن أن يؤثر فى الفكر وأن يولد اقتناعاً خطأ . . . ولكن لا فى عقولكم أنتم يا سادتى المحلَّفين ، لا فى عقولكم أنتم ، فما أنتم بمن يمكن تضليلهم على هذا النحو . تذكروا أنكم تملكون سلطةً لا حدود لها ، وأنكم قد أُعطيتم حق

العقد والحل . وعلى قدر السلطة انما تكون المسئولية ! اننى لا أتراجع عن حرف واحد مما قلته ، ولكن فلنسلم جدلاً ، خلال دقيقة ، بالرأى الذى يذهب اليه الادعاء حين يزعم أن موكلى قد غمس يديه بدم أبيه . أكرر أن هذا افتراض ، فأنا لا أشك لحظة واحدة فى براءة موكلى . ولكننى اتنازل هذا التنازل ، فاسلم جدلاً بان المتهم قد ارتكب جريمة قتل الأب . ألا فاسمعوا اذن ما أحب أن أقوله لكم حين أسلّم جدلاً بهذا الافتراض . اننى أحرص على أن أكلمكم بصراحة فى هذه النقطة ، لأننى أحس وأقدِّر أن معركة تنشب الآن فى نفوسكم وعقولكم . . . سادتى المحلَّفين ، اغفروا لى هذا الدخول الذى لا حقَّ لى فيه ، الى مشاعركم الصميمة . فقد آليت على نفسى لابقينَّ مخلصاً وصادقاً الى النهاية . نعم ، يا سادتى المحلَّفين ، لنكن جميعاً مخلصين صادقين ! . . .

هنا قطع مرافعةَ الدفاع تصفيقٌ متصل . ذلك أن المحامى قد نطق هذه الكلمات الأخيرة بلهجة فيها من الصدق ما جعل جميع الناس يشعرون بأنه ربما كان عنده ما يقوله حقاً ، وان ما سيعبر عنه الآن هو جوهر القضية فعلاً . ولكن رئيس المحكمة ما ان سمع التصفيق حتى علا صوته مهدداً «باخلاء القاعة» اذا «تكرر شىء من هذا مرة اخرى !» . فعاد الجميع الى الصمت ، واستأنف فيتوكوفتش مرافعته بصوت تغيرت نبرته على حين فجأة وأصبح نافذاً يختلف اختلاف التعارض والتناقض عن اللهجة التى تحدث بها حتى ذلك الحين .

الزانى بالفكرة

ليس اجتماع الوقائع وحده هو الظرف المشئوم الذى يدين موكلى . لا يا سادتى المحلَّفين ، وانما تدينه فى الواقع جثة أبيه ! فلو كانت جريمة القتل هذه جريمة عادية ، لترددتم كثيراً امام هذه الوقائع التى تفقد قيمتها وتصبح غير معقولة ولا محتملة متى مُحصت كل واحدة منها على حدة بدلاً من النظر اليها فى مجموعها ، ولدحضتم الاتهام دفعة واحدة ؛ أو لرفضتم على الأقل أن تدمِّروا مصير انسان بسبب ما قام فى الأذهان من رأى سىء فيه ، وهو رأى يستحقه فى الحقيقة وا أسفاه ! ولكن الجريمة ليست جريمة عادية . وانما هى جريمة قتل ابن أباه ! فهذا الظرف يؤثر فى النفوس والعقول غير المتحيزة تأثيراً يبلغ من القوة أنه يضفى على أتفه الأدلة وأوهن القرائن خطورة خارقة ، ان الفكر يرفض أن يسلم بأن هذا المتهم يمكن أن يُبَرَّأ . كيف يرتكب جريمةً كهذه الجريمة ثم يخرج منها سليماً ؟ تلك فكرة تثير النفوس . هذا ما يحسه كل انسان فى قرارة نفسه ، على غير ارادة منه تقريباً . نعم ، انه لشىء رهيب أن نسفح دم أب ، دم انسان وهب لنا الحياة وأحاطنا بحبه ، دم رجل لم يدخر فى سبيلنا وسعاً ، وكان فى طفولتنا يتألم اذا مرضنا ، ولم يفكر طوال حياته الا فى سعادتنا ، ولم يغتذ طوال حياته الا بما نشعر به من أفراح وما نصيبه من نجاح ! أن يقتل امرؤ أباً كهذا الأب ، فذلك يا سادتى شىء لا يتصوره العقل ؛ ولعل الخيال يرفض أن يصدق وقوع

جريمة كهذه الجريمة . ما الأب يا سادتى المحلَّفين ؟ ما الأب الحق ؟ ماذا تضمه هذه الكلمة من معنى عظيم يهز قلوبنا ، ما هى الدلالة الهائلة التى تختفى فى اسم الأب ؟ لقد وصفنا منذ هنيهة ، ولو وصفاً ضعيفاً ما يمكن وما يجب أن يكونه أب حقيقى ، ما كان فيدور بافلوفتش كارامازوف فى هذه القضية التى تشغلنا وتدمى قلوبنا ينطبق على هذا المثل الأعلى الذى رسخ فى أعماق نفوسنا عن الأبوة . ذلك شقاء . ان بين الآباء من هم كارثة . فلننظر فى هذه المسألة من قرب ، لأننا يجب أن لا نخشى شيئاً وأن لا نتراجع أمام شىء ، يا سادتى المحلَّفين ، فان القرار الذى ينتظر الناس منكم أن تتخذوه قرار بالغ الخطورة . يجب علينا أن لا نهاب مجابهة الواقع وجهاً لوجه ، ويجب علينا أن لا نطرد بحركة من يدنا بعض الرؤى المؤلمة ، كما يفعل الأطفال أو كما تفعل نساء ضعيفات على حد التعبير الموفق الجميل الذى استعمله رجل القضاء اللامع الذى استمعتم الى خطابه منذ قليل . على أن خصمى المحترم (ولقد كان خصماً لى حتى قبل أن أنطق بكلمة واحدة) قد هتف عدة مرات يقول انه لن يترك لأحد عبء الدفاع عن المتهم ، وانه لن يتكل فى أمر الدفاع عنه على المحامى الوافد من بطرسبرج ، وانه سينهض بمهمتى المدعى والمدافع فى آن واحد . لقد نادى بذلك عدة مرات . ولكنه نسى أن يذكر أن هذا المتهم المقيت قد استطاع أن يحتفظ خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعاطفة الشكر وشعور الامتنان بسبب رطل من بندق أهداه اليه رجل كان هو الانسان الوحيد الذى دلَّله فى منزل أبيه . وفى مقابل ذلك لم يكن فى وسع المتهم خلال هذه الأعوام الثلاثة والعشرين أن ينسى أنه اضطر

أن يركض أثناء طفولته حافى القدمين «فى الفناء الخلفى من المنزل ، مرتدياً سروالاً لا يمسكه الا زر واحد» ، كما ذكر لكم الدكتور هرتسنشتوبه الطيب الشهم الرحيم . انى لأسألكم يا سادتى المحلَّفين هل من اللازم حقاً ان نتلبث طويلاً على الكلام عن هذه «الكارثة» ، وأن نلحَّ على أمور يعرفها جميع الناس قبل الآن ؟ أىَّ استقبال لقيه موكلى حين جاء الى هذه المدينة ليزور أباه ؟ لماذا ، نعم لماذا هذا الاصرار العنيد على تصوير موكلى فى صورة رجل عديم الاحساس ، أنانى الطبع ، شاذ الخلقة ؟ هو عنيف مندفع ، هو متوحش صخَّاب ، وبسبب هذا انما نحكم عليه اليوم . ولكن من المسئول عن مصيره ، وعلى من يقع الذنب اذا هو رُبِّى تربيةً يؤسف لها رغم حسن استعداده ونبل نفسه ورقة قلبه ؟ هل تولى أحد فى يوم من الأيام أن ينير فكره وأن يثقف عقله ، بأن يكشف له عن جمال العلم ؟ هل مال عليه أحد فى حب وحنان أثناء سنى طفولته ؟ لقد شبَّ موكلى فى رعاية الله وحده ، شبَّ كحيوان متوحش . لعله كان ظامئاً الى أن يرى أباه من جديد بعد فراق طال تلك المدة كلها ، ولا بد أنه طرد من خياله مائة مرة قبل ذلك ، الاشباحَ المقيتة التى ملأت أيام طفولته والتى كان كمن يراها أثناء تلك المدة من خلال حلم ثقيل ، أقول لا بد أنه طرد تلك الأشباح مائة مرة فى سبيل أن يغفر لأبيه بكل نفسه ويحتضن أباه بذراعيه . ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أن تلقاه بالسخريات والأمازيح المستهترة عجوزٌ شكاك رَّياب ، يجادله فى مال الميراث . ولا بد أن الشاب قد شهد كل يوم محادثات كان المتوفى يعرض فيها فلسفته فى الحياة وهى فلسفة تثير فى نفسه التقزز وكان العجوز

يبسطها وهو يشرب أقداحاً صغيرة من الكونياك . وزاد الطين بلةً فى آخر الأمر أن رأى أباه يحاول أن يسلبه حبيبته ، هو ابنه ، مستعملاً فى ذلك مالاً يعده الشاب ماله . آه ، يا سادتى المحلَّفين ، ذلك كله رهيب قاسٍ الى أبعد الحدود . وكان العجوز فوق ذلك هو الذى يجرؤ أن يشكو لجميع الناس أن ابنه خالٍ من الاحترام والعاطفة نحوه ، وكان لا يتردد عن التشهير به فى المجتمع ، والاساءة اليه بالنمائم والوشايات ، وشراء سندات ديونه لايداعه السجن ! سادتى المحلَّفين ، ان الرجال الذين هم من طينة موكلى ، ان هؤلاء الرجال الذين يدل ظاهرهم على العنف والقسوة والاندفاع ، يملكون فى أكثر الأحيان قلباً رقيقاً الى أبعد حدود الرقة ، ولكنهم لا يظهرون ذلك . لا تسخروا من هذا الشرح الذى أقدمه اليكم عن طبعه وخلقه ! ان السيد وكيل النيابة الذى أُعجبُ بموهبته الخطابية قد تهكم منذ قليل بغير شفقة ولا رحمة على المتهم وعلى ميله الى شيللر وحبه للأمور «الرفيعة» . ولو كنت فى مكان السيد وكيل النيابة لامتنعت عن الاستهزاء بما يجيش فى نفس المتهم من صبوات عليا وأشواق سامية . ان النفوس التى من هذا النوع — واسمحوا لى يا سادتى أن أدافع عن امثال هذه النفوس التى ما أكثر ما يجهلها الناس وينتقدونها ظلماً بغير حق ! — أقول ان النفوس التى من هذا النوع كثيراً ما تكون ظمأى الى الحنان والجمال والعدالة ، كأنما تبحث بذلك عن نقيض عنفها وقسوتها . قد تكون هذه الصبوات وهذه الأشواق لاشعورية ، ولكنها مع ذلك عارمة قوية . ان هؤلاء الأشخاص الذين يدل ظاهرهم على جموح الهوى وقسوة القلب ، قادرون على الحب الى درجة الألم ، قادرون على أن يحبوا امرأةً حباً روحياً سامياً

الى اقصى حدود الروحية والسمو . لا ، لا ، لا تضحكوا يا سادتى ! فذلك ما يحدث ، دائماً على وجه التقريب ، لدى الطبائع التى تشبه طبيعة هذا الرجل . والبلاء كله فى هذه الطبائع أنها لا تعرف كيف تكبح اندفاعاتها الجامحة التى تكون فى بعض الأحيان عنيفة فظة ؛ وما يخطف بصرَ الناس فيها هو ما يُلاحظ من ظاهر سلوكها ، أما حياتها النفسية الداخلية فتبقى خافية عن الأبصار لا يراها أحد . ومع ذلك فان أهواءها العنيفة تهدأ بسرعة ، فاذا الرجل الذى كان يُظن أنه عديم الاحساس ، وأنه فظ غليظ ، اذا هو يحاول أن يجدد نفسه قرب انسان نبيل طاهر متمنياً اصلاح حاله بالاتصال به ، آملاً أن يصبح انسانا افضل واكثر شرفاً وسمواً وطيبةً هو أيضاً . «الجمال والسمو» . . . آه . . . فيم الاستهزاء بهاتين الكلمتين ؟ لقد أعلنت منذ بضع لحظات أننى لن أجيز لنفسى أن أتحدث هنا عن قصة المتهم مع السيدة فرخوفتسيفا . ولكن يجب أن يباح لى مع ذلك أن أشير الى هذه القصة اشارة سريعة مقتضبة . ان ما سمعناه فى هذه القاعة لم يكن شهادة شاهد ، بل كان صرخة انتقام من امرأة استعر حنقها وجُنَّ جنونها ! لا ، ما هى بالتى كان يحق لها أن تتهم موكلى بالخيانة ، لأنها هى التى خانته فى الواقع ! ولو قد اتسع وقتها للتفكير قليلاً ، اذن لما قالت تلك الأقوال ولما أدلت بتلك الشهادة . لا تصدقوها يا سادتى . ليس موكلى بالرجل الذى وصفته فرخوفتسيفا بأنه «شيطان رجيم» . ان المصلوب الذى كان يحب بنى الانسان قد هتف يقول وهو يصعد التل الذى نصب عليه الصليب : «أنا الراعى الصالح الذى يبذل حياته فى سبيل خرافه . فلن يهلك واحد من الخراف» . ألا فلنحاذر نحن أيضاً أن نهلك

54-1306

نفساً انسانية ! لقد سألت منذ هنيهة : ما الأب ؟ وهتفت أقول : هذه كلمة كبيرة ، هذه تسمية تهز النفس وتؤثر فى القلب الى غير حد . ولكن يحسن بالمرء أن يكون صادقاً أميناً فيما يقول يا سادتى المحلَّفين ؛ ولهذا سأسمح لنفسى أن أسمى الأشياء بأسمائها فأقول : ان رجلاً مثل العجوز كارامازوف لم يكن له حق فى أن يسمى أباً ، لأنه غير جدير بهذا الاسم . ان حب الابن أباه يصبح سخفاً باطلاً حين لا يسوِّغه خُلُق الأب . ان مثل هذا الحب لا يمكن أن يقبله العقل . ما كان للحب أن يقوم على العدم ، لأن الله وحده يستطيع أن يخلق من عدم . ان الرسول بولس الذى كان قلبه يتأجج حباً قد كتب يقول : «وانتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم» . انى أبيح لنفسى أن أستشهد بهذه الآيات المقدسة لا لأننى أفكر فى موكلى فحسب ، وانما أنا استشهد بها متجهاً الى جميع الآباء . من الذى وهب لى حق أن أعظهم بما يقع على عاتقهم من واجب ؟ لا أحد ! ولكننى أقول [1] vivos voco بصفتى انساناً ومواطناً ! ان اقامتنا على هذه الأرض قصيرة ، ونحن نقوم على هذه الأرض بكثير من الأعمال الشريرة ، وننطق بكثير من الأقوال المؤسفة . فيحسن بنا لهذا السبب أن ننتهز دقيقة كهذه الدقيقة التى تجمعنا فى مكان واحد ، ليقول بعضنا لبعض بضع كلمات خيرة طيبة . وذلك ما أفعله الآن : انى أهتبل الفرصة لأخاطبكم جميعاً . ليس عبثاً أن السلطة العليا قد وهبت لنا هذا المنبر : ان الكلمات التى ننطق بها هنا تسمعها روسيا كلها . فالى جميع الآباء انما اتجه اذن بالكلام ،

[1] أنادى الأحياء ! (باللاتينية فى الأصل) .

لا الى الآباء الحاضرين فى هذه القاعة فحسب ، فأهتف قائلاً : «وأنتم ايها الآباء ، لا تغيظوا أولادكم !» . يجب علينا أن نطبق نحن اولاً تعاليم المسيح ، وبعد ذلك انما يحق لنا أن نطالب أبناءنا بتطبيقها . فاذا لم نفعل ذلك لم نكن آباء ابنائنا بل كنا أعداءهم ، وسيصبحون اعداءنا هم أيضاً ، سيصبحون اعداءنا بسبب خطئنا نحن . «بالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم» . لست أنا من يقول هذا الكلام ، وانما يقوله الانجيل : كيلوا بالكيل الذى يكال به لكم . فكيف نأخذ على أبنائنا أن يكيلوا لنا بالكيل الذى نكيل لهم به ؟ لقد وقع فى فنلندة ، فى الآونة الأخيرة ، ان اشتبه الناس فى امرأة خادمة واعتقدوا انها ولدت ولداً . فأخذوا يراقبونها فاكتشفوا فى علية المنزل صندوقاً لها كانوا يجهلون وجوده ، وقد أخفى الصندوق فى ركن من العلية وراء بعض القرميدات . فلما فتحوا وجدوا فيه جثة طفل وليد قتلته ، ووجدوا فى الصندوق ايضاً هيكلين عظميين لطفلين وليدين كانت قد ولدتهما من قبل فقتلتهما فور ولادتهما ، وذلك ما اعترفت به هى نفسها . فهل نستطيع يا سادتى المحلفين ان نسمى تلك المرأة أماً ؟ صحيح أنها قد ولدت هؤلاء الاولاد ، ولكن هل كانت أمهم حقاً ؟ هل يجرؤ أحد منا أن يسبغ عليها هذا اللقب المقدس ، لقب الأم ؟ ألا فلنتجمل بشجاعة الفكر يا سادتى المحلَّفين ! ألا فلنكن جسورين بل ومتهورين فى هذا الأمر ، لأن من واجبنا فى هذه اللحظة أن لا نتهيب بعض الالفاظ وأن لا نخاف بعض الأفكار ، وأن لا نكون شبيهين بزوجات التجار فى موسكو اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتى «معدن» و«كبريت» . بالعكس : يجب أن نبرهن على أن التقدم

الذى تحقق فى هذه السنين قد شمل تطورنا الروحى الأخلاقى . يجب أن نعلن بغير تردد أنه ليس يكفى المرء أن ينسل نسلاً حتى يكون أباً ، وانما ينبغى له أن يستحق شرف هذا الاسم . أنا أعلم أن هناك رأياً مختلفاً عن هذا الرأى ، أن هناك فهماً آخر لمعنى كلمة الأب ، هو أن أبى يظل أبى ولو كان شيطاناً رجيماً ومجرما عاتياً فى حق أولاده ، وذلك لمجرد أنه أوجدنى . ولكن هذا التصور تصور غيبى ان صح التعبير ، تصورٌ لا يستطيع أن يدركه العقل ، ولا يمكن قبوله الا على أنه عقيدة وايمان ، مثله كمثل كثير من الأمور التى لا يفهمها عقلنا ولكن الدين يأمرنا أن نؤمن بها . ومثل هذا التصور يبقى عندئذ فى خارج الحياة الواقعية . أما فى واقع الحياة الذى لا يشتمل على حقوق فحسب ، بل يفرض علينا واجبات كبيرة أيضاً ، فانه ينبغى لنا ، اذا أردنا أن نكون انسانيين واذا أردنا أن نتصرف تصرف مسيحيين ، أن نقتصر على أفكار يؤيدها العقل وتدعمها التجربة ، أفكار مرت ببوتقة التحليل المنطقى ؛ أى ينبغى لنا أن نتصرف تصرف بشر عقلاء ، لا تصرف اناس طاشت عقولهم فهم يغرقون فى حلم أو هذيان وذلك حتى لا نلحق أذى بأخينا الانسان وحتى لا نعذبه ولا نهلكه . ذلكم هو الموقف المسيحى حقاً ، الموقف الذى لا يكون عندئذ غيبياً فحسب ، بل يكون فى الوقت نفسه معقولاً مستوحى من حب صادق لأقراننا البشر . . .

هنا انطلقت الأكف بتصفيق حاد من جميع أرجاء القاعة ، ولكن فيتوكوفتش أوقف الحضور عن التصفيق بحركة من يده ، كأنه يضرع اليهم أن لا يقاطعوه وأن يأذنوا له باتمام كلامه . فسرعان ما ساد الصمت من جديد ، وواصل الخطيب حديثه فقال :

— أتراكم تظنون يا سادتى المحلَّفين أن المسائل التى من هذا النوع لا تطرح نفسها على فكر أبنائنا حين يبلغون سنَّ المراهقة مثلاً ، فيأخذون يفكرون ويبحثون ويناقشون ؟ ان ابناءنا لا يمكن الا أن يتساءلوا فى هذه الحالة ، وليس فى وسعنا أن نحول بينهم وبين ذلك ، والا كنا نطلب المستحيل . ان المراهق لا بد أن يطرح على نفسه اسئلة مؤلمة حين يرى أباه دنيئاً منحطاً ، ولا سيما حين يقارن سلوك أبيه بسلوك آباء أولاد آخرين هم رفاقه ، فيلاحظ ما بين السلوكين من تضاد وتناقض . قد يقال له عندئذ ، على ما جرت به العادة المألوفة المبتذلة : «لقد وهب لك الحياة ، وأنت دم دمه ، فعليك أن تحبه» . ولكن الفتى سيتساءل عندئذ على غير ارادة منه : «فهل كان يحبنى حين وهب لى الحياة ؟» ، وسيزداد اندهاش الفتى اثناء تأملاته ، وسيتابع تفكيره قائلاً لنفسه : «لا ، انه لم يهب لى الحياة حباً بى أنا ؛ انه لم يكن يعرفنى ، بل انه كان يجهل أذكر أنا أم أنثى فى لحظة الخلق تلك ، فى لحظات الهوى تلك التى لعل الخمرة هى التى كانت توقدها ، فلم يورثنى الا حب الشراب والميل الى السكر . تلك كانت كل نعمه وآلائه علىَّ . . . فلماذا يُراد منى أن أحبه لا لسبب غير أنه ولدنى ، مع أنه لم يكترث بى بعد ذلك فى يوم من الأيام ؟» . قد تجدون هذا التفكير فظاً قاسياً يا سادتى ، ولكن لا تطلبوا من عقل فتى مراهق أكثر مما يطيق : «اطردوا الأمور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة» . ولنحاذر خاصةً لنحاذر قبل كل شىء ، أن يسيطر علينا الخوف من «المعدن» و «الكبريت» ؛ ولنقض فى الأمر بما توجبه قوانين العقل الانسانية ، لا بما تفرضه التصورات

الغيبية . فما الذى نقرره عندئذ ؟ اليكم الأمر : ليتقدم الابن الى أبيه وليلقى عليه فى أناة وروية هذا السؤال «قل لى يا أبى لماذا يجب علىَّ أن أحبك وقدم لى البرهان على أننى يجب علىَّ أن أحبك» فاذا كان الأب قادراً على ان يجيب عن هذا السؤال ، وأن يبرهن على أن من واجب ابنه ان يحبه ، كنا بصدد أسرة طبيعية سوية سليمة حقاً ، أسرة قائمة لا على أوهام غيبية ، بل على وقائع معقولة واضحة التصور انسانية الحدود . اما فى غير هذه الحالة ، أى اذا عجز الأب عن الاتيان بالبرهان المطلوب ، فقد انتهت تلك الأسرة ، ولم يعد من حق الأب ان يتصرف تصرف أب ، وأصبح يجوز للابن ويحق له أن ينظر الى أبيه نظرته الى غريب ، بل والى عدو . ان على منبرنا هذا ، يا سادتى المحلَّفين ، أن يكون مدرسةً للحقيقة والمعانى السليمة .

هنا قاطعت الخطيبَ عاصفةٌ من تصفيق مسعور . ولئن لم تعرب القاعة كلها عن استحسانها وتأييدها على هذا النحو ، فاننا نستطيع أن نؤكد أن نصف الجمهور قد انطلقت أكفه بالتصفيق . صفق الآباء والامهات . كما أن صرخات حادة وصيحات اعجاب قد قامت فى الجزء الأعلى من القاعة ، وهو الجزء الذى توجد فيه السيدات ؛ وأخذت الأيدى تلوِّح بالمناديل ؛ واضطرب الرئيس وتحرك وأخذ يهز جرسه بغير انقطاع . كان واضحاً أنه غاضب من سلوك الحضور ، ولكنه لم يجرؤ أن يمضى الى حد «اخلاء القاعة» عملاً بتهديداته السابقة : ذلك أن التصفيق والتلويح بالمناديل قد نشب حتى فى صف الكراسى الموضوعة فى خلف ، الموقوفة على كبار الموظفين ، وأكثرهم شيوخ يرتدون ملابس رسمية تزينها الأوسمة

والنياشين . لذلك اكتفى الرئيس ، منذ هدأت الضجة وسكن الصخب ، أن كرر تهديده السابق بلهجة قاسية قائلاً أنه سيخلى القاعة اذا تكرر ما حدث مرة أخرى . وهذا فيتوكوفتش يستأنف مرافعته منفعلاً وكَمَنْ قد احرز انتصاراً ، فيقول :

— سادتى المحلَّفين ، انكم تتذكرون تلك الليلة الرهيبة التى طال الحديث عنها أثناء هذه الجلسة ، تلك الليلة التى دخل فيها المتهم الى منزل أبيه بعد أن تسلق السور ، فوجد نفسه وجهاً لوجه امام الرجل الذى ولده وأساء اليه وأهانه وكان عدوه . اننى أعود فأقول ملحاً : ان المتهم لم يجىء ليسطو على المال ، فاتهامه بالسرقة سخافة كما سبق أن بينت ذلك ؛ لا ولا اقتحم منزل أبيه ليقتل ! كلا ثم كلا . فلو قد كان ينوى ارتكاب جريمة ، اذن لاحتاط للأمر سلفا فتزود ، على الاقل ، بسلاح ، بسلاح حقيقى ، لا بمدق الهاون هذا الذى تناوله بغريزته حتى دون أن يعرف غرضه من ذلك حق المعرفة . لنسلِّم جدلاً اذن بأنه خادع يقظة أبيه باللجوء الى تلك الاشارات السرية ، فدخل البيت . لنسلِّم بهذا جدلاً ، لأننى لا أصدق هذه الأسطورة لحظة من اللحظات ، كما سبق أن قلت ذلك . ولكن فلنسلِّم جدلاً ، خلال بضع دقائق ، بأن الأمور جرت على هذا النحو فعلاً . انى لأقسم لكم بكل ما أقدسه فى هذه الحياة يا سادتى المحلَّفين ، أن المتهم ، بعد أن اجتاز جميع الغرف راكضاً فاقتنع بأن المرأة التى يبحث عنها ليست فى المنزل ، كان سينصرف مسرعاً دون ان يُلحق بمنافسه أى اذى لولا أن منافسه هذا هو أبوه . لعله كان سيضربه أو سيدفعه عابراً فى أكثر تقدير ، لأن هناك شيئاً آخر كان يشغل باله . لقد كان فى عجلة من

أمره ، كان يريد أن يعرف بأقصى سرعة أين توجد تلك المرأة . ولكنه رأى نفسه على حين فجأة أمام أبيه ، أمام أبيه ، وجهاً لوجه . . . ان رؤية ذلك الأب هى التى كانت سبب كل شىء ، ذلك الأب الذى كان عدوه منذ طفولته ، وكان يضطهده ويسومه سوء العذاب ، ثم أصبح الآن منافساً رهيباً له على حبه ! ان شعوراً بالكره لا يغالب قد استولى عليه حينذاك واستبد بروحه ، فأصبح لا يستطيع أن يفكر . ثار كل شىء فى نفسه حينذاك . كان ذلك انفجارَ جنون ، ولكنه جنون طبيعى ، جنون هو رد الطبيعة وقوانينها الانتقامية الأبدية التى تحكم الانسان بغير شعور وغير لجام ، شأن كل ما هو من الطبيعة . ولكن القاتل ، حتى فى تلك الدقيقة ، لم يقتل ! اننى أؤكد هذا وأصيح به هنا ! كلا ، وانما هو اكتفى بأن رفع مدقه بحركة استياء مشمئز ، دون أن يكون فى نيته أن يقتل ، ودون أن يتنبأ بأنه قد يقتل . ولولا أنه كان يمسك بيديه ذلك المدق المشئوم فى تلك اللحظة ، فلربما كان سيكتفى بأن يضرب أباه ، أما أن يقتله فلا . وحين هرب بعد ذلك كان لا يدرى أقتل العجوز الذى ضربه ام لا . ان قتلاً يحدث فى هذه الظروف ليس بقتل . وان قتلاً من هذا النوع ليس قتل ابن أباه أيضاً . لا ، ليس يمكن أن يوصف قتل مثل هذا الأب بأنه قتل أب . اننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن جريمة قتل أب الا بسبب وهم قائم فى الاذهان ! ولكننى أعود فأسألكم مرة أخرى صادقاً كل الصدق ، بكل نفسى : هل كان ثمة قتل فعلاً ؟ تخيلوا يا سادتى المحلَّفين أننا حكمنا على هذا الرجل فقال لنفسه بعد ذلك : «ان هؤلاء الناس لم يفعلوا فى سبيلى شيئاً من أجل أن يصلحوا أمرى

ويحسنوا مصيرى . لم يهتموا بتربيتى وتثقيفى ، ولم يحاولوا أن يجعلوا منى انساناً افضل . ان هؤلاء الناس لم يعطونى ما أشربه ولا ما آكله ، ولم يساعدونى يوماً فى حبسى المظلم ، وها هم اولاء يرسلوننى الآن الى الاشغال الشاقة ! ألا انى اذن اليوم براء حيالهم ، لا أدين لهم بشىء ، ولن أدين بشىء لأحد من الناس فى هذا العالم بعد هذه الساعة قط ! انهم جميعاً أشرار ، فسأكون شريراً مثلهم . انهم جميعاً قساة ، فسأكون قاسياً مثلهم» . ذلكم ما سيقوله يا سادتى المحلَّفين . احلف لكم أنكم اذا حكمتم عليه كنتم تريحونه بهذا الحكم الذى سيمنعه من أن يسمع صوت ضميره . صحيح أنه سيلعن الجريمة التى ارتكبها ، ولكنه لن يشعر بالندامة والتوبة . انكم اذا حكمتم عليه كنتم تحطمون الى الأبد ما فى نفسه من امكانيات اصلاح حاله ، لأنه سيظل شرير النفس أعمى البصر الى آخر عمره . فلماذا لا تؤثرون على ذلك أن تنزلوا فيه عقاباً رهيباً هائلاً هو أفظع عقاب يمكن تصوره ، مع انقاذكم نفسهَ ، ومنحه فرصة أن يُخلق خلقاً جديداً الى الأبد ؟ ألا فأرهقوه برحمتكم ، فتروا وتسمعوا كيف سينتفض مروَّع النفس عندئذ ، قائلاً : «هل أستطيع أن أحتمل هذه الرحمة ، هل انا جدير بهذا الحب كله ، هل أنا استحق هذا الحب فعلاً ؟» كذلك سيكون ردُّه على رحمتكم . اننى أعرف هذا الرجل يا سادتى المحلَّفين ، انه متوحش ، ولكنه نبيل القلب فى قرارة نفسه . لسوف يعجب عندئذ بعظمة موقفكم ، لأنه ظامئٌ الى الحب قبل أى شىء آخر ، وسيشتعل قلبه عندئذ اشتعالاً رائعاً ، وسيولد ولادة جديدة نهائية . ان هناك نفوساً تلعن العالم كله وتتهم كل انسان ما ظلت حبيسة وحدتها الضيقة وعزلتها الخانقة .

فاشملوا هذه النفوس برحمتكم وبرهنوا لها على حبكم ، فاذا هى تلعن وضعها السابق وموقفها الماضى ، لأن فيها قدراً كبيراً من الأشواق النبيلة المكبوتة . لسوف تتفتح روح هذا الانسان متى خطفت بصره رأفة الله وطيبة الانسان وعدالة البشر . لسوف تروعه عندئذ جريمته ، فيسحقه عذاب الضمير ، ويضنيه الشعور بالواجب الكبير الذى يقع على عاتقه بعد الآن . لن يقول بعدئذ : «انا الآن براء لا أدين لأحد بشىء» ، بل سيهتف قائلاً : «أنا آثم أمام جميع الناس ، لأننى أحط الناس قاطبةً» . ومن خلال دموع ندامته وتوبته ، سيصيح قائلاً وهو يشعر بعاطفة لاذعة كأنها حرق : «جميع الناس خير منى لأنهم أرادوا خلاصى لا ضياعى !» . سهلٌ عليكم يا سادتى المحلَّفين أن تحققوا فعل الكرم والرحمة هذا ، وسوف يعذبكم ضميركم كثيراً اذا أنتم أصدرتم حكمكم بادانته رغم عدم توفر الأدلة المقنعة حقا ! لأن نبرئ عشرة مجرمين خير من أن نجرم بريئاً — هل تسمعون هذا الصوت العظيم الذى انطلق فى قرن ماض من تاريخنا المجيد ؟ هل علىَّ أنا ، أنا المخلوق الضعيف ، أن أذكركم بأن القضاء الروسى لا يهدف الى العقاب فحسب ، وانما يهدف كذلك الى انقاذ الانسان الذى زلت قدمه فسقط ؟ للشعوب الأخرى أن تتمسك بحرفية النص ما شاءت ، ولها أن لا تفكر الا فى العقاب ما حلا لها ذلك ؛ أما نحن الروس فنبقى أوفياء لروح النص ومعنى القانون ، ونريد قبل كل شىء آخر أن نقيل عثرة الساقطين وأن نبعثهم بعثا جديداً . ما دام الأمر كذلك ما دام هذا هو الطابع الذى تتصف به بلادنا ويتميز به قضاؤنا ، فالى الامام يا روسيا ولا تخيفونا بترويكاكم المسعورة تتنحى الشعوب الاخرى من أمامها مشمئزة ! فانما روسيا مركبة

فخمة ذات عظمة وجلال تتقدم نحو هدفها هادئة متئدة مظفرة .

يا سادتى المحلَّفين ، ليس بين أيديكم مصير موكلى فحسب ، بل مصير العدالة الروسية أيضاً . فأنقذوا هذه الحقيقة الغالية التى عهد بها اليكم وأؤتمنتم عليها ، دافعوا عنها فتبرهنوا بذلك على أننا أوفياء لها وعلى أنها فى أيدٍ أمينة .

١٤

صمد فلاحونا

بهذه الكلمات ختم فيتوكوفتش مرافعته ، فاذا بالحماسة المحمومة الهاذية تنفجر فى الجمهور انفجارًا لا سبيل الى دفعه كأنها العاصفة . كان يستحيل وقف هذا الانفجار : فالنساء تنشج وتنتحب ، وعدد كبير من الرجال يبكون ، حتى لقد شوهدت دموع فى أعين اثنين من كبار الموظفين . وبدا على الرئيس أنه يذعن ، حتى أنه تأخر فى هز جرسه . «لو شاء أن يلجم حماسةً كتلك الحماسة لكان ذلك منه تدنيساً للمقدسات !» ، ذلك ما هتفت تقوله سيدات مدينتنا فيما بعد . وكان المحامى منفعلاً انفعالاً صادقاً هو أيضاً . وفى تلك الدقيقة انما اعتقد صاحبنا ايبوليت كيريلوفتش أن من واجبه أن ينهض «ليثير بعض الاعتراضات» . نظر اليه الناس نظرة توشك أن تكون كرهاً وبغضاً : «كيف ! ماذا يريد ؟ أهو من يجيز لنفسه أن يرد الآن ؟» . كذلك دمدمت السيدات . ولكن ما كان لجميع نساء الأرض ، وعلى رأسهن زوجة ايبوليت

كيريلوفتش ، أن يجدى احتجاجهن فى شىء ، لأنه كان يستحيل ، حتى فى هذه الحالة أن يُصدَّ وكيل النيابة عن الكلام فى تلك اللحظة . كان ايبوليت كيريلوفتش شاحب الوجه ممتقع اللون ، وكان يرتعش انفعالاً . ان الكلمات الأولى التى قالها كانت مضطربة غير مفهومة ، لأن الرجل كان يختنق بكلامه ، وكان ينطق بألفاظه نطقاً مبهماً غير متميز ، وكانت عباراته مختلطة مشوشة . ولكنه لم يلبث أن استرد سيطرته على نفسه . وسأقتصر هنا على نقل بضع جمل من ردّه :

. . . يعاب علينا اننا ألفنا رواية او أنشأنا قصة . ولكن ما الذى فعله الدفاع غيرَ تركيب أوهام وتلفيق خرافات لا يصدقها العقل ؟ ألا ان مرافعته لم يكن يعوزها الا الوزن والقافية حتى تكون قصيدة . هو يرى اذن ان فيدور بافلوفتش قد مزق الظرف ورماه على ارض الغرفة بانتظار وصول حبيبته ! . . . بل هو يذكر لنا أيضاً نص كلمات لا بد أن يكون فيدور بافلوفتش قد نطق بها فى تلك الظروف الغريبة ! أليس هذا رواية ؟ . . . كيف يمكن البرهان على أنه أخرج المال من الظرف ؟ من ذا الذى سمع الكلمات التى قالها حينذاك ؟ وهذا الانسان الضعيف العقل ، سمردياكوف ، الذى يصوره لنا الدفاع فى صورة بطل رومانسى يثأر من المجتمع لولادته غير الشرعية ، هل الكلام عنه على هذا النحو الا قصيدة من طراز قصائد بايرون ؟ أما ذلك الابن الذى اقتحم منزل أبيه وقتل أباه دون أن يقتله مع ذلك ، فان الكلام الذى قاله الدفاع عنه ليس شعراً ولا هو رواية أو قصة ، وانما هو أبو الهول يطرح الغازاً يعجز هو نفسه عن حلّها . من قتل فقد قتل . كيف يقتل انسان دون أن يقتل ، من ذا الذى يستطيع أن يفهم كلاماً كهذا الكلام ؟

ولقد نودى بعد ذلك بأن منبرنا يجب أن يكفل للحقيقة وللأفكار السليمة أن تدوّى فى الأرجاء ، ثم ها هم يعلموننا من على منبر «الأفكار السليمة» هذا ، كما يعلمون بديهية من البديهيات ، أن اطلاق اسم جريمة قتل الأب على مقتل أب بيد ابنه انما هو وهم من الأوهام ! ولكن اذا كان علينا أن نعد جريمة قتل الأب وهماً من الأوهام ، واذا اكتسب كل ابن حق سؤال أبيه عن الأسباب التى توجب عليه أن يحبه ، فما عسى تصير اليه بلادنا ، ما عسى تصير اليه الأسس التى يقوم عليها مجتمعنا ، ما عسى تصير اليه الأسرة ؟ وقد زعموا أن ما نشعر به من هول تجاه جريمة قتل الأب شبيه بخوف زوجات تجار فى موسكو من «الكبريت» ! ألا انهم ليشوهون ويفسدون أقدس قواعد العدالة الروسية ، ويعبثون بمصيرها ومستقبلها ، وذلك كله فى سبيل الوصول الى الهدف الحقيقى الذين يسعون اليه ، فى سبيل تسويغ ما لا يمكن تسويغه ، والعفو عما لا يمكن العفو عنه . لقد صاح المحامى يقول : «حطّموه برحمتكم !» . ألا ان هذا هو كل ما يتمناه المتهم ، ولترُوُنَّ غداً كيف سترهقه رحمتكم هذه ! يخيَّل اليَّ أن المحامى كان متواضعاً جداً وكان قنوعاً جداً حين اقتصر على المطالبة ببراءة المتهم . تُرى لماذا لم يطالب بانشاء جائزة تسمى باسم قاتل أبيه ، تخليداً لذكرى فعله فى نفوس الأعقاب والجيل الجديد ؟ ويريدون أن يصححوا الانجيل وتعاليم الدين ، فيقولون : «هذا من الأمور الغيبية !» . ألا أننا نحن الذين نطبق المسيحية الحقة التى يضبطها حكم العقل فى ضوء الأفكار السليمة ! ومضوا الى أبعد من هذا فرسموا لنا المسيح فى صورة باطلة ! **سيُكال لكم بالكيل الذى كلتم به** : بهذا هتف المحامى ، ثم أسرع

يستنتج من ذلك أن المسيح قد أمرنا أن نكيل للآخرين بالكيل الذى كالوا لنا به . فانظروا ما يجرؤون أن يعلنوه من على منبر الحقيقة والمعانى السليمة هذا ! واضح انهم من أولئك الناس الذين لا يتنازلون فيلقون نظرةً سريعة على الانجيل الا عشية القائهم مرافعاتهم أملاً فى أن يلمع نجمهم بالاستشهاد بكتاب عظيم يستطيعون استغلاله للتأثير فى النفوس ، ما احتاجوا الى ذلك طبعاً ! ألا ان المسيح لا يأمرنا بأن نسلك هذا السلوك الذى هو سلوك عالم خبيث فاسد شرير ؛ وانما هو يأمرنا ، على خلاف ذلك ، أن نغفر الاساءات التى أُلحقت بنا ، وأن نمد خدنا الأيسر ، بدلاً من ان نكيل للمسيئين الينا بالكيل الذى كالوا لنا به : ذلكم ما يعلمنا اياه الرب ؛ ان الرب لم يقل ان منع الأبناء من قتل آبائهم وهم من الأوهام الاجتماعية ! ألا فليمتنعوا عن استخدام هذا المنبر ، منبر الحق والمعانى السليمة ، فى تصحيح تعاليم ربنا الذى اقتصر المحامى فى مرافعته على أن يسميه باسم «المصلوب الذى كان يحب بنى الانسان» ، خلافاً لما تفعل روسيا الارثوذكسية كلها التى تبتهل الى الرب قائلةً : «انت الهنا !» .

عندئذ تدخل الرئيس ليذكر وكيل النيابة بالقصد والاعتدال ، راجياً منه أن لا يبالغ ويغلو ، وأن لا يبتعد عن الموضوع ، الى آخر ما هنالك ، مستعملاً اللغة المعهودة فى الرؤساء . وكانت القاعة تضطرب وتتحرك . لقد أصبح الجمهور عصبياً ، وأصبحت تُسمع صيحات استياء واستهجان هنا وهناك . وعدل فيتوكوفتش عن الرد ، ولم يزد على أن يصعد المنبر واضعاً يده على قلبه ، فقال بضع كلمات تفيض وقاراً ورصانة ، قالها بلهجة انسان أوذى شعوره وأسئ اليه ؛ وعاد يشير اشارة عابرة ساخرة الى

«الروايات» و «السيكولوجيا» ووجد السبيل الى أن يستشهد بالقول المأثور : «قد غضبت يا جوبتر ، فأنت اذن على خطأ» ، فأثار ذلك ضحكات استحسان وتأييد صغيرة ، لان ايبوليت كيريلوفتش لم يكن فيه شيء من جوبتر البتة ؛ ثم أعلن يقول بهيئة رصينة وقورة انه لن يرد حتى على اتهامه بأنه يأذن لأبناء الجيل بأن يقتلوا آباءهم ؛ اما فيما يتعلق «بالصورة الباطلة التى قال وكيل النيابة ان المحامى رسمها للمسيح» ، وفيما يتعلق بأن المحامى لم يتنزل فيسمى المسيح الهاً وانما اقتصر على تسميته باسم «المصلوب الذى يحب بنى الانسان» «مخالفاً بذلك الارثوذكسية مخالفةً ما ينبغى أن يسمح بها من على منبر الحقيقة والمعانى السليمة» ، فقد غمز فيتوكوفتش ان فى هذا «افتراء» وانه حين جاء الى مدينتنا كان يأمل على الأقل أن يؤذن له بالتحدث من على هذا المنبر بحرية ، دون ان يتعرض لاتهامات خطيرة تمس شخصه كمواطن شريف مستقيم . . . ولكن الرئيس قاطعه عندئذ ليذكره بالتزام النظام ، فما كان من فيتوكوفتش الا أن انحنى قائلاً انه أنهى كلامه ، ولم يبق لديه ما يضيفه ؛ وعاد الى مكانه تصحبه دمدمات الاستحسان والتأييد من الجمهور . اما ايبوليت كيريلوفتش فقد كان «منسحقاً انسحاقاً نهائياً» فيما أكدت سيداتنا من بعد .

وطُلب الى المتهم أن يتكلم ، فنهض ميتيا ، ولكنه لم يقل الا بضع كلمات . كان يبدو مهدود القوى روحاً وجسماً . ان هيئة الكبرياء والقوة التى كانت بادية فيه حين دخل قاعة المحكمة فى الصباح قد اختفت الآن أو كادت . كان يلوح عليه أنه قد عاش فى هذا النهار ساعات حاسمة تعلم فيها أشياء أساسية وفهم أموراً رئيسية كان يجهلها قبل ذلك . ان

صوته ضعيف واهن ، فهو لا يصرخ الآن كما كان يصرخ فى بداية الجلسة ؛ وفى كلامه الآن نبرة جديدة ، نغمةٌ فيها اذعان وانكسار ومذلة . قال :

— ماذا استطيع أن اقول لكم يا سادتى المحلَّفين ؟ لقد دقت ساعة حسابى ، ووضع الله يده علىَّ . ذلك تكفير عن حياتى المضطربة الفاسدة ! ولكننى أؤكد هنا ، أؤكد تأكيد من يعترف امام الله : «أننى لم أسفح دم أبى» ؛ لا ، لست أنا مرتكب هذه الجريمة ! أعود فأكرر لكم «أننى لست الذى قتله» . لقد عشت حياة فاسقة ، ولكننى كنت أحب الخير . كنت افكر دائما فى اصلاح نفسى ، ومع ذلك ظللت أعيش كما يعيش حيوان متوحش . أشكر للسيد وكيل النيابة أنه قال عنى أموراً كنت أجهلها أنا نفسى . ولكن قوله اننى قتلت أبى قول خطأ . لقد أخطأ السيد وكيل النيابة ! وأشكر للمحامى دفاعه عنى أيضاً . لقد بكيت وأنا أصغى الى كلامه . ولكن من الخطأ أن يُقال اننى قتلت أبى ؛ وما كان ينبغى حتى أن يُفترض افتراضاً أننى فعلت ذلك ! أما الأطباء فلا تصدقوهم ! اننى أملك عقلى كاملاً ، ولكن نفسى مرهقة . ان تسامحتم معى فاطلقتم سراحى دعوت لكم وصليت من أجلكم ؛ وانى لأعدكم بأن أصلح ما فسد من أمرى ، أحلف لكم على ذلك أمام الله ؛ وان حكمتم علىَّ توليت بنفسى تحطيم سيفى وقبلت حطامه . ولكن ترفقوا بى : لا تحرمونى من الهى . اننى أعرف نفسى ، فلو فعلتم لثرت وتمردت ! ان نفسى مرهقة أيها السادة . . . فترفقوا بى ! .

قال ميتيا هذا الكلام وعاد يجلس على كرسيه بما يشبه

السقوط . لقد تهدم صوته ، ولم يكد يستطيع ان ينطق جملته الأخيرة الا فى كثير من العناء . وانتقلت المحكمة بعد ذلك الى تحرير الاسئلة التى يجب أن تلقى على المحلفين ، ودُعيت الأطراف الى الادلاء بالنتائج التى انتهت اليها . لن أدخل فى وصف التفاصيل . ونهض المحلفون أخيراً للمداولة . وكان الرئيس مكدوداً فلم يوجه اليهم الا كلاما مقتضبا ، قال : «لا تتحيزوا ، لا تتأثروا بالأقوال البليغة الفصيحة التى تضمنها خطاب الدفاع ، بل زنوا قراركم ، وتذكروا الرسالة العظيمة الموكولة اليكم» ، الخ الخ . . . ورفعت الجلسة بعد خروج المحلفين . أصبح يحق للحضور أن ينهضوا ، وأن يسيروا ، وأن يتبادلوا الآراء والمشاعر ، وأن يمضوا الى البوفيه ليصيبوا شيئاً من طعام أو شراب . وكان الوقت متأخراً ، فالساعة هى الواحدة بعد منتصف الليل ، ولكن أحداً لم يخطر على باله أن ينصرف . كانت أعصاب الجميع مشدودة متوترة ، وقد بلغ فرط اهتياج النفوس أن أحداً لم يدر فى خلده أن ينصرف ليرتاح . كان الناس ينتظرون حكم المحكمة بما يشبه الحمى . على أن القلق لم يكن عاماً شاملاً ؛ ان السيدات خاصة هنَّ اللواتى سيطر عليهن نفاد الصبر الى حد الهستريا . ومع ذلك لم يساورهن أى خوف . كن وهن يتهيأن للحظة الحماسة العارمة المؤثرة ، كن يقلن : «لا شك أنه سيبرأ» . ويجب علىَّ أن أعترف من جهة أخرى أن عدداً كبيراً من الرجال أيضاً يشاطرهن هذا اليقين من أن المتهم سيبرأ ، فبعضهم مغتبط بذلك مبتهج له ، وبعضهم يقطب الجبين استياءً ، بل ان منهم من استطالت انوفهم امتعاضاً واستهجاناً : كان هؤلاء لا يريدون البراءة . اما فيتوكوفتش فكان واثقاً بالنصر موقناً منه . وكان الناس يحيطون

55-1306

به ، ويهنئونه ، ويتملقونه . فقال لجماعة منهم ، كما رُوى ذلك فيما بعد :

— هناك تيارات تعاطف تشد المحامى الى المحلفين كخيوط لا تُرى ، وهذه الخيوط تنعقد وتدرك أثناء المرافعة نفسها . لقد أحسست أنها موجودة لقد ربحنا القضية لا تخافوا . . .

— انى لأتساءل عما عسى يقرره فلاحونا الآن !

كذلك قال سيد ضخم الجسم مقطب الجبين مجدور الوجه وهو يقترب من جماعة حمى فيها وطيس المناقشة . انه أحد مالكى الأطيان فى ضواحى مدينتنا .

فأجابه آخر :

— ان هيئة المحلفين لا تضم فلاحين فحسب ، ففيها أربعة موظفين أيضاً .

فقال أحد أعضاء «مجلس الزيمستفو» مؤمناً وهو ينضم الى الجماعة :

— نعم ، نعم ، يوجد موظفون . . .

— هل تعرفون نازارييف ، بروخور ايفانوفتش نازارييف ؟ انه ذلك التاجر الموشح الصدر بوسام . هو عضو فى هيئة المحلفين .

— وماذا ؟

— هو واحد من أذكى أعضاء الهيئة .

— ولكنه يصمت طول الوقت .

— صحيح . يصمت . هذا أفضل . ليس أناس بطرسبرج هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يلقنوه دروساً . انه أقوى من جميع أهل العاصمة أولئك . ان له اثنى عشر ولداً ، تصوروا . . .

وفى جماعة اخرى هتف أحد الموظفين يقول :

— هه ! معقول انهم لا يبرئونه ؟

فقال صوت آخر بلهجة جازمة :

— سيبرئونه حتماً .

فعاد الموظف يقول :

— عار أن لا يبرئوه ، خزى أن لا يبرئوه . صحيح أنه قتل ، ولكن هناك أب وأب . ثم انه كان فى حالة اهتياج شديد . . . من الجائز حقاً أن يكون قد هوى بالمدق دون أن يكون فى نيته أن يقتل ، فاذا بالآخر يسقط على الأرض مجندلاً من الضربة . على أننى أرى أن اقحام ذلك الخادم فى القضية أمر مؤسف . كان ذلك من المحاكمة جزءاً مضحكاً لا أكثر . لو كنت فى مكان المحامى ، لصحت أقول صراحة : «نعم قتل ، ولكنه ليس مجرماً ؛ وليأخذكم الشيطان جميعاً !» .

— ولكن هذا بعينه هو ما قاله ، باستثناء حكاية الشيطان هذه .

فتدخل صوت ثالث يقول :

— بل كاد يقول لهم «فليأخذكم الشيطان» يا ميخائل سيميونتش .

— تصوروا يا سادة ! لقد برأوا عندنا ، أثناء الصيام ، ممثلةً ذبحت عنق زوجة عشيقها الشرعية .

— نعم ، ولكنها لم تقطعه الى آخره .

— أوشكت أن تقطعه على كل حال .

— هل سمعتم ما قاله عن الأبناء ؟ كان كلامه رائعاً ! .

— رائعاً !

— وقوله عن الغيبية ، هه ؟

— دعوكم من الغيبية . أولى بكم أن تفكروا فى ايبوليت وفى المصير الذى ينتظره . لسوف تفقأ امرأته عينيه بسبب ميتيا .

— أهى فى القاعة ؟

— ما هذا السوءال ؟ لو كانت فى القاعة لفقأت له عينيه منذ مدة . ولكنها فى الدار ، لأنها تشكو من أوجاع فى أسنانها ، هيء هيء !

— هأ — هأ — هأ .

وفى جماعة ثالثة دار الحديث التالى :

— من الجائز أن يُبرأ ميتيا !

— لا ينقصنا الا هذا ! لسوف يقلب غداً كل شىء فى حانة «العاصمة الكبرى» ، ثم لا يصحو من السكر عشرة أيام .

— انه لشيطان رجيم حقاً !

— الشيطان هو الشيطان ، ولم يمكن الاستغناء عن الشيطان هنا . أين عسى يوجد الشيطان ان لم يوجد فى هذه القاعة ؟

— لنسلّم أيها السادة ان للبلاغة وزنها ! ولكن تحطيم جمجمة أب غير جائز على كل حال . والا فالى أين المصير ؟

— وما قاله عن المركبة المظفرة ، هل تتذكرون ما قاله عن المركبة المظفرة ؟

— نعم ، جعل من العربة المبتذلة مركبة مظفرة !

— سيردها فى الغد عربة بسيطة «ما احتاج الى ذلك» ، على حد تعبير وكيل النيابة .

— لقد زادت براعة الناس . قل لى : ألا تزال توجد حقيقة فى روسيا ؟

ولكن جرس رئيس المحكمة أخذ يرن . لقد تشاورت هيئة المحلفين خلال ساعة كاملة . ساد صمت عميق منذ عاد الحضور الى أماكنهم . هأناذا أرى هيئة المحلفين تدخل القاعة . جاؤوا اخيرا ! لن أذكر ، بالترتيب ، الاسئلة التى كان عليها أن تجيب عنها ، لأننى نسيتها . كل ما أتذكره هو جوابها عن النقطة الأساسية كما صاغها الرئيس : «هل ارتكب المتهم جريمة القتل عن سابق اصرار وتصميم بقصد السرقة ؟» (نسيت النص الدقيق) . خيّم على القاعة صمت كصمت الموت . وقال رئيس هيئة المحلفين ، وهو أصغر الموظفين سناً ، قال بصوت قوى واضح دوّى فى أرجاء القاعة الصامتة صمت الموت .

— نعم ، مذنب .

وكان هذا الجواب نفسه جواباً عن سائر الأسئلة : نعم ، مذنب ، مذنب فى كل مرة ، دون وجود أى ظرف مخفّف . لم يكن أحد يتوقع ذلك . لأن جميع الناس كانوا يقدرون أن تكون هنالك أسباب مخففة على الأقل . استمر الصمت الذى يشبه أن يكون صمت الموت . وأصبح الجمهور كالمتجمد دهشةً ، يستوى فى ذلك الذين كانوا يتمنون أن يحكم على ميتيا ، والذين كانوا يتمنون أن يُبرأ . ولكن هذا السكون لم يدم الا بضع دقائق أعقبتها جلبة كبيرة . فأما الرجال فان عدداً كبيراً منهم قد شعر بالرضى ، حتى لقد أخذ بعضهم يفرك الأيدى غبطة وسروراً دون أن يحاول اخفاء فرحته وصُعق المستاءون منهم فأخذوا يرفعون أكتافهم ويتهامسون ، ولكنهم لا يبدو عليهم أنهم قد أدركوا الواقع بعد . وأما السيدات ، فيارب السماء ! لقد خيّل الىّ أنهن سيقمن بثورة ! انهن فى

أول الأمر لم يصدقن آذانهم ؛ ثم لم يلبثن أن انفجرن صائحات في جميع أرجاء القاعة : «ما معنى هذا ؟ ما هذه الحكاية ؟» ، وأخذن يثبن عن أماكهن . واضح أنهن كان يخيل اليهن أن كل شيء يمكن أن يتغير ، وأن يستبدل بالحكم حكم آخر . وفي تلك اللحظة نهض ميتيا عن مكانه فجأة ، وأعول يقول بصوت ممزّق ، مادًا ذراعيه الى أمام :

— انني أحلف أمام الله ، بانتظار عدالته الرهيبة ، انني بريء من دم أبي ! أما أنت يا كاتيا فانني أغفر لك . ويا اخوتي ، يا أصدقائي ، ترفقوا بالأخرى . . .

لم يكمل ميتيا كلامه ، وانفجر ينتحب . كان ينشج نشيجاً صاخباً ، بصوت ليس صوته ، صوت مخيف ، لا يدري المرء من أين يصدر . وفي أعلى القاعة ، من ركن مظلم بالشرفة ، انطلقت صرخة حادة : انها جروشنكا . كانت جروشنكا قد تضرعت كثيراً أن يؤذن لها أخيراً بالعودة الى القاعة ، قبل القاء مرافعة النيابة . واقتيد ميتيا . وأرجئ اعلان الحكم الى الغد . ونهض الجمهور في جلبة شديدة . ولكنني كنت قد أصبحت لا انتظر ولا اصغي الى شيء . كل ما وعته ذاكرتي لا يعدو بضع صيحات سمعتها على درجات مخرج القاعة :

— لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاما بالاشغال الشاقة في مناجم الاستخراج .

— لن يقل عن ذلك !

— نعم ، لقد صمد فلاحونا .

وقضوا على ميتيا .

خاتمة

١

مشاريع انقاذ ميتيا

بعد صدور الحكم على ميتيا بخمسة أيام ، ذهب أليوشا في الصباح المبكر الى كاترينا ايفانوفنا ليتخذ معها اجراءات أخيرة في أمر يهمهما كليهما كثيراً ، وليقوم عدا ذلك بمهمة كان قد كلف بالقيام بها . كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة قليلا . واستقبلته المرأة الشابة في تلك الغرفة نفسها التي سبق أن استقبلت فيها جروشنكا منذ بضعة أسابيع . وفي الغرفة المجاورة كان يرقد ايفان فيدوروفتش غائباً عن وعيه بتأثير الحمى العصبية . لقد نقلته كاترينا ايفانوفنا الى منزلها فور حدوث المشهد الذي وقع في جلسة المحاكمة ، دون أن تبالي بالأقاويل التي كان لا بد أن تثيرها هذه البادرة منها ، ودون أن تقلق لما سيصبه عليها المجتمع من ضروب اللوم . وقد سافرت احدى قريبتيها اللتين كانتا تعيشان معها ، الى موسكو منذ نهاية المحاكمة ، وبقيت الأخرى في منزل كاترينا ايفانوفنا . ولكن كاترينا ايفانوفنا ما كان لها أن تتراجع عن انقاذ ما عزمت أمرها عليه ولو كانت وحيدةً في منزلها ، وسهرت على المريض بنفسها نهاراً وليلاً . وكان الطبيبان فارفنسكي وهرتسنشتوبه يعالجان ايفان . أما الاخصائي الذي جاء من موسكو فقد سافر دون أن يرضى أن يفصح عن رأيه فيما عسى تصير اليه حالة المريض ، وفيما

عسى يكون من أمر تطور المرض . وكان الطبيبان يبذلان لكاترينا ايفانوفنا وأليوشا أنواع التشجيع ، ولكنهما لا يجازفان فيهبان لهما آمالا قاطعة . وكان أليوشا يزور أخاه المريض مرتين فى اليوم . على أنه انما جاء الآن لأمر محرج احراجاً خاصاً ، مربك ارباكاً شديداً ، وهو يشعر بمدى الصعوبة فى مواجهة الموضوع ، ولا يعرف من أين يأتيه . وكان عدا ذلك فى عجلة من أمره ، لأن عليه أن يقوم بواجب آخر وان ينهض بعبء ثان ، فى حى غير هذا الحى من المدينة ، فكان يحسن به اذن أن يسرع . انهما يتحدثان منذ ربع ساعة . وكاترينا ايفانوفنا شاحبة الوجه ممتقعة اللون ، تبدو مرهقة مهدودة القوى ، ولكنها فى الوقت نفسه مضطربة اضطراباً يشبه أن يكون مرضاً ، لأنها كانت فى الواقع تدرك الهدف الذى جاء من أجله أليوشا . قالت لأليوشا بلهجة تفيض ثقة :

— لا يقلقنك أمر القرار الذى سيتخذه ، فانه لا بد أن يتلبث على هذا الحل أخيراً : فليس أمامه من مخرج آخر غير الفرار ! ان هذا المسكين ، هذا البطل من أبطال الشرف والضمير — أوه ! لا ! لست أقصد دمترى فيدوروفتش ، وانما أقصد ذلك الراقد وراء هذا الباب ، ذلك الذى ضحى بنفسه فى سبيل أخيه — (كذلك أضافت تقول كاتيا وقد سطعت عيناها) قد أطلعنى منذ مدة طويلة على تفاصيل مشروع الفرار هذا . ولعلك تعلم أنه اتصل بأشخاص عدة من أجل انفاذ هذا المشروع . . . وقد ألمعت لك الى هذا من قبل على كل حال . . . سيتم الفرار فى المرحلة الثالثة من مراحل الطريق فى أغلب الظن ، أثناء ذهاب السجناء الى سيبيريا . أوه ! ما يزال الأمر بعيداً . وقد زار ايفان فيدوروفتش رئيس المحطة

الثالثة . ولكننا لا نعرف حتى الآن من الذى سيقود القافلة ، لان ذلك يستحيل ان يُعرف سلفاً . وقد أطلعك غداً على تفاصيل الخطة التى تركها لى ايفان فيدوروفتش قبل المحاكمة ، احتياطاً لما قد يحدث له . . . ثمَّ هذا فى ذلك اليوم نفسه الذى رأيتنا نتشاجر فيه . . . أنت تذكر هذا . . . لقد خرج من عندى فلما رأيتك أجبرته على أن يصعد ثانية . تتذكر هذا ، أليس كذلك ؟ فهل تعرف فيم كنا نتشاجر ؟

قال أليوشا :

— لا ، لا أعرف .

— أخفى عنك هذا طبعا ! فاعلم اذن أن المشاجرة كانت تدور على موضوع الفرار هذا نفسه . كان قد عرض لى ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، الأمور الأساسية من هذه الخطة ؛ وفى تلك اللحظة انما قام الشجار بيننا ثم استمر ثلاثة أيام . فحين أعلن لى أن دمترى فيدوروفتش سيهرب الى الخارج مع تلك المخلوقة اذا حُكم عليه ، شعرت فجأة بغضب شديد . لا أستطيع أن أقول لك لماذا غضبت ، لأننى أجهل أنا نفسى سبب غضبى . . . آه ! السبب هو تلك المخلوقة طبعا ! فبسببها انما ثارت ثائرتى ، لأن تلك المخلوقة تطمع فى أن تسافر الى الخارج مع دمترى !

بهذا صاحت كاترينا ايفانوفنا فجأة وقد أخذت شفتاها تختلجان من فرط الغضب . وواصلت كلامها تقول :

— فلما لاحظ ايفان فيدوروفتش أننى غضبت بسبب تلك المخلوقة تخيل فوراً أننى أغار منها ، وأننى اذن ما زلت أحب دمترى . هكذا نشبت مشاجرتنا الأولى فى ذلك اليوم . لم أشأ أن أقدم له شرحاً ، ولا كنت أستطيع أن أعتذر اليه

أيضا . ولكن كان يحز فى نفسى أن أتصور أن رجلاً له مثل قيمة ايفان فيدوروفتش يمكن أن يهجس فى نفسه أننى ما زلت أحب ذلك الـ . . . مع أننى كنت قد أكدت له أنا نفسى منذ مدة طويلة أننى أصبحت لا أحب دمترى ، وأننى لا أحب أحدا الا هو ايفان ! . . . فلما غضبت من تلك المخلوقة ، ثارت ثائرتى عليه . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، فى ذلك المساء نفسه الذى جئت فيه الىَّ ، جاءنى ايفان بظرف مختوم وطلب منى أن لا أفض الظرف الا اذا وقع له شىء . أوه ! لقد كان يتنبأ عندئذ بمرضه . وقال لى ان الظرف يتضمن عرضاً مفصلاً لمشروع الفرار ، وان علىَّ أن أتولى وحدى انقاذ ميتيا ، اذا مات هو أو مرض مرضاً خطيراً . وفى تلك المناسبة نفسها ترك مالا ، قرابة عشرة آلاف روبل — هو ذلك المبلغ نفسه الذى جاء على ذكره وكيل النيابة فى مطالعته بعد أن علم مصادفة أن ايفان قد كلف أحد الناس باحضاره من مركز الاقليم لقاء سندات يبدِّلها . وقد أدهشنى أشد الدهشة عندئذ أن ألاحظ أن ايفان فيدوروفتش ، رغم غيرته علىَّ ورغم اقتناعه بأننى ما زلت أحب ميتيا ، لم يعدل عن فكرة انقاذ أخيه ، وأنه يعهد الىَّ ، الىَّ أنا ، بالقيام بهذه المهمة . آه . . . ما كان أقوى روح التضحية فى سلوكه هذا ! لا يا ألكسى فيدوروفتش ! انك لا تستطيع أن تدرك ادراكاً كاملاً كل ما يشتمل عليه هذا السلوك من نكران الذات ! تمنيت لو اسقط على قدميه ، شعوراً باعجاب لا حدود له . ولكن هجس فى نفسى فجأة أنه قد يعزو هذه البادرة منى الى فرحتى بانقاذ ميتيا (كان سيؤول بادرتى هذا التأويل حتماً) ، فما ان تصورت أنه قد يفترض هذا الافتراض الظالم فى حقى حتى ثارت ثائرتى من جديد ،

واشتد حنقى ، فبدلاً من أن أقبل قدميه ، رحت أضايقه . آه . . . ما أشقانى ! ذلك هو طبعى . . . انه طبع رهيب . . . تعيس ! سوف ترى ، سوف ترى : سوف أعمل كل ما سيدفعه الى أن يهجرنى أخيرا الى امرأة أخرى يسهل عليه أن يتفاهم معها اكثر مما يسهل عليه أن يتفاهم معى ، تماماً كما فعل دمترى . ولكن فى هذه الحالة . . . لا . . . لن أحتمل فى هذه المرة . . . سوف أنتحر ! وحين دخلتَ علىَّ ، بعد أن أمرْته بالصعود ثانيةً ، جُنَّ جنونى غضباً من نظرة الكره والاحتقار التى لاحظت أنه رشقنى بها فى تلك اللحظة . وعندئذ — هل تتذكر ؟ — عندئذ انما صرخت أقول انه **هو وحده** الذى جعلنى أعتقد بأن ميتيا قاتل ! . . . لقد كذبت عندئذ عامدةً ، بغية أن أجرحه مرة أخرى . والحقيقة هى عكس ذلك : فانا التى كنت قد سعيت الى اقناعه بأن ميتيا قاتل . آه . . . ان طبعى اللعين هو سبب البلاء كله ! أنا ، أنا المسئولة عن ذلك المشهد الرهيب الذى حدث فى جلسة المحاكمة ! لقد أراد أن يبرهن لى على نبل نفسه ، أراد أن يبيِّن لى أنه ، رغم حبى أخاه ، لن يقبل أن يضيِّعه غيرةً وانتقاماً . لهذا انما تكلم على ذلك النحو أمام المحكمة . . . أنا سبب كل شىء ، أنا وحدى الآثمة !

لم يسبق لكاتيا أن اعترفت لأليوشا بمثل هذه الاعترافات فى يوم من الأيام ، فأحس أليوشا أنها كانت عندئذ تعانى من ذلك العذاب الذى لا يطاق ، ذلك العذاب الذى يجعل النفس العاتية المتكبرة تعدل فجأة عن صلفها وجبروتها فتنهار مغلوبة على أمرها قد هزمها الألم . ثم لقد كان أليوشا يدرك أن لتباريحها سبباً آخر أيضا ، سبباً رهيباً حاولت أن

تخفيه منذ صدور الحكم على ميتيا ، ومع ذلك كان سيؤلمه كثيراً أن يراها تذل نفسها أمامه الى حيث تبادئه الكلام عن سبب عذابها ، وأن تحدثه عن هذا السبب من تلقاء نفسها فى هذه اللحظة نفسها : الواقع ان كاتيا كانت تتألم من «الخيانة» التى قارفتها فى المحكمة . وأحس أليوشا أن ضميرها كان يدفعها الى أن تتهم نفسها أمامه صادقةً ، أن تتهم نفسها بدموع غزار وصرخات حادة ، وربما برطم جبينها بالأرض فى نوبة هسترية من نوبات عذاب الوجدان . وكان أليوشا يخشى هذا المشهد ، ويرفق بحال المرأة الشقية . وكان هذا يفاقم حرجه وارتباكه من القيام بالمهمة التى كُلِّف بها . وعاد يتكلم عن ميتيا .

فقاطعته بعناد جازم :

— لا تقلق له ! صدقنى أن معارضته لن تستمر طويلا . أنا أعرفه ، أعرف طبعه حق المعرفة . ثق أنه سيوافق على الفرار أخيرا . لا تنس خاصةً أن الأمر ليس بقريب ، وسيكون فى وقت ميتيا متسع لاتخاذ قراره . ومن الآن الى أن يحين الموعد ، يكون ايفان فيدوروفتش قد أبل من مرضه ، فيتولى القضية بنفسه ، ولن يكون علىَّ أنا أن اهتم بها . لا تخف ، سيوافق على الهرب . بل انه لموافق منذ الآن : فأنّى له أن يترك تلك المخلوقة ! ما داموا لن يسمحوا له بأن تتبعه هذه المرأة الى المعتقل ، فلم يبق له الا أن يهرب . هو يخاف منك خاصةً ، يخاف أن تلومه على الهرب لأسباب أخلاقية . فمتى جُدت عليه فأذنت له وافق ، ومن واجبك أن تأذن له ما دام هذا الأذن ضرورياً لا بد منه .

بهذه العبارة ختمت كاتيا كلامها بلهجة مسمومة . وصمتت

بضع لحظات ، وابتسمت ابتسامة ساخرة ، ثم أردفت تقول :

— انه يتحدث فى السجن عن نشيد ، عن صليب عليه أن يحمله ، عن واجب عليه أن يقوم به . . . اننى أتذكر هذا الكلام لأن ايفان فيدوروفتش قد روى لى تفاصيل كثيرة فى هذا الموضوع . ليتك تعلم بأى طريقة كان ايفان فيدوروفتش يتكلم ! (هكذا هتفت كاتيا تقول فجأة فى اندفاعة لا تقاوم) . ليتك تعلم كم كان يحب هذا الشقى حين كان يتكلم عنه ، وكم لعله كان يبغضه فى الوقت نفسه أيضا ! أما أنا ، فقد أصغيت عندئذ الى هذه القصة التى رواها لى باكياً ، أصغيت اليها وأنا اتفرس فيه متكبرة متعجرفة ساخرة ! ألا ما أحطنى من مخلوقة ! نعم أنا التى يجب أن أسمى مخلوقة ! بسببى انما أصيب بالحمى العصبية ! أما الآخر ، الذى حُكم عليه ، فانه غير مستعد لأن يتألم البتة . وهل فى وسع امرىء مثله ان يتألم ؟ . . . ان رجالاً من نوعه لا يتألمون أبداً .

هكذا ختمت كاتيا كلامها حانقة غاضبة . ان نبرة بغض واشمئزاز واحتقار قد طافت بصوتها حين نطقت هذه الكلمات الأخيرة . ومع ذلك فانها هى التى خانته . قال أليوشا لنفسه : «انما هى تكرهه فى بعض اللحظات لأنها تشعر بأنها أذنبت فى حقه» . كان أليوشا يتمنى أن لا تكرهه الا فى بعض اللحظات . وقد لاحظ أليوشا فى الكلمات الأخيرة التى قالتها كاتيا شيئاً من تحد — ولكنه لم يحفل بالأمر .

وأضافت كاتيا تقول بلهجة فيها مزيد من الاستفزاز :

— انما كان هدفى من استدعائك اليوم هو أن تعدنى بأن تمارس تأثيرك فيه لاقناعه ، اللهم الا أن تعد الفرار عملاً منافياً للشرف ، مناقضا للكرامة ، أو . . . ماذا أقول ؟ . . .

ربما كنت تعد الفرار مخالفاً للمسيحية ، هه ؟

فتمتم أليوشا يجيبها :

— لا . . . لماذا ؟ سأقول له كل شيء .

ثم قال لها فجأة وهو يحدق الى عينيها بحزم :

— هو يرجوك أن تجيئى اليه اليوم .

فارتعشت كاتيا بكل جسمها ، وتقهقرت قليلاً الى وراء ، ودمدمت تقول وقد اصفر وجهها اصفراراً شديداً :

— أنا ؟ . . . ولكن هل هذا ممكن ؟

فعاد أليوشا يقول بالحاح وقد انتعش فجأة :

— ليس هذا ممكناً فحسب ، بل هو ضرورى أيضا . لا بد أن يراك ، الآن خاصةً . ولولا أن ذلك واجب حتماً ، لما تعرضت لهذه المسألة مخافة أن أولمك فى غير طائل . انه مريض . انه يشبه أن يكون مجنوناً . انه لا يكف عن مناداتك . وهو لا يريد أن يراك من أجل أن يصالحك . كل ما يطلبه هو ان تذهبى اليه وتظهرى له عند باب غرفته . ان تحولاً كبيراً قد حدث فى نفسه منذ ذلك اليوم الحاسم . لقد أدرك مدى الاثم الذى اقترفه فى حقك . ليس يسألك أن تغفرى له . هو نفسه يقول : «أنا لا أستحق الغفران» . كل ما يرجوه هو أن تظهرى له عند باب غرفته . . .

تمتمت كاتيا تقول :

— أنت تحرجنى . . . كنت أتنبأ كل يوم أنك ستجيئنى طالباً منى ذلك . . . كنت واثقة بأنه سيدعونى . ولكن لا . . . مستحيل .

— مستحيل ، غير مستحيل . . . يجب عليك أن تفعلى .

تذكرى أنه لأول مرة فى حياته يدرك مدى الاساءة التى ألحقها بك . يدرك هذا لأول مرة فى حياته . انه لم يدركه فى يوم من الأيام ادراكاً كاملاً كما يدركه الآن . قال لى : «اذا رفضت أن تجيء فسأكون تعيسا بقية عمرى» . هل تفهمين ؟ رجل محكوم بالسجن عشرين عاماً ثم هو يريد أن يكون سعيدا ! أليس هذا مما يستحق الشفقة ؟ تذكرى أيضاً أنك تزورين انساناً بريئاً (هكذا هتف أليوشا يقول فجأة بلهجة فيها تحد) . ان يديه طاهرتان لم يلوثهما دم . فاذهبى اليه ، اذهبى اليه بسبب هذه الآلام التى تنتظره والتى لاحدود لها ! . . . اذهبى ، مدّى اليه يدك فى هذه الليلة . . . اظهرى له على الباب فحسب ، على الباب فحسب . . . هذا واجب عليك ، هذا **واجب** عليك . . .

هكذا ختم أليوشا كلامه ملحاً على كلمة «واجب» الحاحاً شديداً .

قالت كاتيا بصوت فيه أنين :

— هذا واجب علىّ ، ولكن . . . لا أستطيع . . . سينظر الىّ . . . لا ، لا ، لا أستطيع .

— يجب أن تلتقى نظراتكما . كيف يمكنك أن تعيشى فى المستقبل اذا لم تعزمى أمرك ؟

— أوثر أن أظل أتألم طول حياتى !

— يجب أن تذهبى اليه ، **يجب** .

كذلك قال أليوشا ملحاً لا ينثنى عن عزمه .

قالت كاتيا :

— ولكن لماذا اليوم ؟ لماذا حالاً ؟ يستحيل علىّ أن أترك المريض وحده .

— بل تستطيعين أن تتركيه بضع لحظات . لن يطول غيابك . ستصيبه الحمى العصبية اذا كنت ترفضين زيارته . ما كنت لأقول لك هذا لو لا أنه حق . ليكن فى قلبك شىء من شفقة .

أجابت كاتيا تقول بلهجة عتاب مر :

— أنا أولى بالشفقة .

وأخذت تبكى .

قال أليوشا بصوت جازم وقد رأى دموعها :

— معنى هذا أنك آتية . سأبلغه أنك ستجيئين .

هتفت كاتيا تقول مذعورة :

— بل لا تقل له شيئاً البتة . سأذهب اليـــــــه ، ولكن لا تبلغه ذلك . . وقد لا أدخل عليه . . . لا أدرى بعد . . .

قالت ذلك وتحطم صوتها . كانت تتنفس فى مشقة . ونهض أليوشا لينصرف . فسألته فجأة بصوت خافت وقد امتقع لونها من جديد :

— فماذا لو لقيت أحداً هناك ؟

فأجابها أليوشا وقد أدرك من تعنى :

— فانما أسألك أن تجيئى الآن لأنك لن تلقى أحداً . لن يكون هناك أحد . ثقى بذلك .

وختم كلامه يقول بالحاح :

— سننتظرك .

وخرج من الغرفة .

صار الكذب الى حقيقة لحظة

أسرع أليوشا الى المستشفى الذى كان فيه ميتيا الآن . لقد أصيب ميتيا بحمى بعد صدور الحكم بيومين ، فنُقل الى مستشفى مدينتنا ، وأودع القسم المخصص للسجناء . ولكن الدكتور فارفنسكى رضى أخيرا بعد شفاعات أشخاص كثيرين (السيدة خوخلاكوفا ، ليزا ، الخ) أن لا يترك ميتيا بين السجناء ، ونقله الى غرفة صغيرة مستقلة ، هى تلك الغرفة نفسها التى أقام بها سمردياكوف . ان على نافذة هذه الغرفة قضباناً حديدية ، وان حارساً كان يرابط فى آخر الدهليز ، فليس على فارفنسكى أن يخشى اذن شيئاً من هذه الميزة التى تفضل بها على السجين والتى تخالف القانون قليلاً . كان الطبيب شابا طيب القلب رحيم النفس ، فأدرك مدى ما يمكن أن يلقاه رجل مثل ميتيا من عناء وألم اذا هو وجد نفسه فجأة يعيش فى وسط قتلة ولصوص ، وأدرك أنه لا بد له من مرحلة انتقال تتهيأ له فيها أسباب التعود على الوضع الجديد . وقد أذن لاقرباء السجين وأصدقائه ضمناً بأن يزوروه ، أذن بذلك الطبيبُ والمراقب وحتى رئيس الشرطة . ولكن أليوشا وجروشنكا كانا هما الوحيدين اللذين يجيئان الى ميتيا أثناء تلك الأيام . وقد حاول راكيتين أن يدخل عليه مرةً أو مرتين ، ولكن ميتيا رجا الدكتور فارفنسكى ملحاً أن لا يسمح له بالدخول .

وجد أليوشا أخاه مضطجعاً على مضجعه بمعطف المستشفى . كان به شىء من حمى ، وكان رأسه ملفوفاً بفوطة مبتلة بخل .

56-1306

فلما أبصر ميتيا أخاه أليوشا حدّق اليه بنظرة غامضة يخالطها نوع من خوف .

وكان ميتيا قد أصبح منذ صدور الحكم عليه كثير الوجوم . وكان يتفق له أن يبقى صامتاً خلال نصف ساعة وكأنه يفكر فى أمر من الأمور تفكيراً أليماً ، وكان يبدو عليه فى مثل تلك اللحظات أنه نسى مَنْ حوله نسياناً تاماً . حتى اذا خرج بعد ذلك من تأمله وأخذ يتكلم ، استرسل فى حديث من الأحاديث ارتجالاً ، وعالج موضوعاً يختلف كل الاختلاف عما كان يهمه أن يقوله فى الواقع . وكان يثبت على أخيه فى بعض الأحيان نظرة مثقلة بالألم والعذاب . وكان يرتاح الى وجود جروشنكا اكثر من ارتياحه الى وجود أليوشا . صحيح أنه كان لا يكاد يكلمها ، ولكن وجهه كان يشرق فرحاً متى جاءت . جلس أليوشا على مضجع أخيه دون أن ينبس بكلمة . وكان أخوه ينتظره فى هذه المرة مهموماً قلقاً ، ولكنه يخشى أن يسأله . كان يقدّر أن من المستحيل أن توافق كاتيا على المجىء اليه ، وكان يحس فى الوقت نفسه أن رفضها المجىء سيورثه ألماً لا يطاق . وكان أليوشا يحزر عواطفه .

بدأ ميتيا الكلام فقال بعصبية :

— يُقال ان تريفون بوريستش كاد يخرب نزله . فهو يقتلع أخشاب الأرض ، وينتزع ألواح الجدران ، حتى لقد هدم الرواق هدماً تاماً . انه يبحث عن الكنز ، عن الألف وخمسمائة روبل التى اتهمنى وكيل النيابة باخفائها هناك . انه منذ أن عاد الى موكرويه قلب كل شىء عاليه سافله . يستحق هذا الوغد ذلك . علمت هذا من حارس هناك قصَّه علىَّ أمس .

قال أليوشا :

— اسمع . انها ستجىء . ولكننى لا أعرف بعدُ متى تجىء . ربما جاءت اليوم ، أو غداً ، أو فى يوم قريب ، لا أعرف على وجه الدقة . ولكنها ستجىء ، حتماً .

انتفض ميتيا ، وبدا عليه أنه أراد أن يقول شيئاً ، ولكنه صمت . لقد هزه هذا النبأ هزاً عميقاً . كان واضحاً أنه يتحرق شوقا الى معرفة تفاصيل الحديث الذى جرى بين أليوشا وكاتيا ، ولكنه لا يجرؤ أن يسأل أخاه فى ذلك : فان كلمة فيها قسوة أو احتقار تقولها كاتيا كفيلة فى هذه اللحظة بأن تطعنه كخنجر .

— اليك ما قالته فيما قالت من أمور أخرى : انها تطلب منى ملحةً أن أهدئ ضميرك فيما يتعلق بالفرار . وستتولى هى تدبير الأمر اذا لم يُشف ايفان من مرضه الى ذلك الحين .

قال ميتيا مفكراً :

— سبق أن ذكرتَ لى ذلك .

فأجابه أليوشا :

— ونقلتَ أنت هذا الكلام الى جروشنكا .

فقال ميتيا معترفاً :

— صحيح .

ثم أضاف وهو يلقى على أخيه نظرة خجلة وجلة :

— لن تأتى جروشنكا هذا الصباح . لن تأتى الا فى المساء . حين حكيت لها أمس أن كاتيا تهىء أمر فرارى ، سكتت فى أول الأمر وتقبضت شفتاها ، ثم دمدمت تقول : «لها ما تشاء» . لقد أدركت أن الأمر جد . لم أجرؤ أن أقول لها أكثر من ذلك . أحسب أنها تدرك الآن أن كاتيا لا تحبنى أنا ، وانما تحب ايفان .

فأفلت من أليوشا هذا السؤال :

— أأنت متأكد من هذا ؟

— ربما كنتُ مخطئاً فى ظنى .

ثم أسرع يضيف قوله :

— على كل حال ، لن تأتى هذا الصباح . لقد كلفتها بمهمة ستقوم بها . . . أما ايفان فانه خير منا جميعاً . هو الذى يستحق الحياة ، لا نحن . وسُيشفى .

قال أليوشا :

— تصور أن كاتيا رغم خوفها الشديد عليه تكاد تكون واثقة بأنه سيُشفى .

— هذا برهان على أنها واثقة بأنه سيموت . فمن الخوف انما تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيُشفى .

قال أليوشا فى قلق :

— ان أخانا ايفان قوى الجسم متين البنية . أنا أيضا أتمنى بحرارة وقوة أن يبل من مرضه .

— سوف يبل من مرضه . ولكنها ، هى ، واثقة بأنه سوف يموت . بليتها هائلة .

وصمت الأخوان بضع لحظات . كان واضحاً أن هناك هماً ثقيلاً يعذب ميتيا .

وانطلق ميتيا يقول فجأة بصوت راعش مثقل بالدموع :

— أليوشا ، اننى أحب جروشنكا حباً رهيباً .

فأسرع يقول له أليوشا :

— لن يسمحوا لها بان تتبعك الى **هناك** !

فاستأنف ميتيا كلامه يقول بصوت أصبح مهتزاً مختلجاً على حين فجأة :

— اليك ما كنت أريد أن أقوله لك أيضا . اذا ضربونى

أثناء الطريق ، أو **هناك** ، فلن أحتمل ذلك ولن أسمح به : سأقتل أحداً فيرمونى بالرصاص . أنى لى أن أحتمل هذا عشرين سنة ! لقد بدأوا يخاطبوننى منذ الآن بصيغة المفرد هنا . الحرس ينادوننى بقولهم **أنت** . لبثت أفكر وأتساءل طوال الليل . لا ، لست مستعداً ، لست قادراً على أن أحتمل هذا المصير ! لقد أردت أن أنشد «نشيدا» وهأنا ذا أعجز عن احتمال أن يخاطبنى حارس من الحرس بصيغة المفرد ! لو كانوا سيأذنون لجروشنكا بأن تصحبنى لاحتملت كل شىء فى سبيلها . . . الا الضرب طبعاً . . . ولكنهم لن يأذنوا لها بذلك .

ابتسم أليوشا ابتسامة رقيقة عذبة ، وبدأ الكلام فقال :

— اسمع يا أخى . اليك رأيى فى هذا الموضوع ، أعلنه لك مرة واحدة الى الأبد . أنت تعلم حق العلم أننى لن أكذب عليك . فاسمع : أنت غير مهيأ ، وذلك الصليب لم يُخلق لك . أكثر من ذلك : ليس من الضرورى البتة أن تقبل عذاباً شديداً يفوق طاقتك . لو كنت قد قتلت أباك لما ارتضيت لك أن ترفض المحنة . ولكنك برىء ، وهذه الكفارة فوق ما تطيق . كنت تريد أن تتألم لتخلق نفسك خلقاً جديداً ، ولتصبح انساناً آخر . فى رأيى أنه يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر فى هذا الانسان الآخر ، وأن يظل هذا الانسان الآخر ماثلاً أمامك حيثما وُجدت ، وأينما هربت . ذلك كاف من جهتك . وأن رفضك احتمال عذاب أشد لن يكون من شأنه الا أن يعزز شعورك بواجبك ، وهذه الفكرة الدائمة المستمرة التى ستتبعك حيثما تذهب قد تساهم مزيداً من المساهمة فى خلقك خلقاً جديداً لا يتحقق لك من وجودك **هناك** ؛ ذلك أنك لن تحتمل نظام الحياة هناك ، فاذا أنت تثور وتتمرد

وتقول لنفسك آخر الأمر فعلاً : «هأنا ذا الآن براء لا أدين لأحد بشيء» . لقد صدق المحامى حين قال هذا الرأى . ان من المحن القوية ما لا طاقة لكل انسان به . ان من الناس مَنْ لا يستطيعون احتمال مثل هذه المحن . تلك هى آرائى ما دمت حريصاً كل هذا الحرص على معرفتها .

ثم أضاف أليوشا يقول مبتسماً :

— لو كان سيعاقب على هربك أشخاص آخرون — كالضباط أو الجنود — لما «سمحتُ» لك بأن تهرب . ولكن يظهر أن فى امكاننا ، بشيء من الحذق والبراعة ، أن نجنبهم المتاعب ، وفى امكانهم أن يخرجوا من الأمر بغير كبير عناء (رئيس المحطة نفسه أكد هذا لايفان) . صحيح أن الرشوة عمل غير شريف ، حتى فى حالة من هذا النوع ، ولكننى أمتنع هنا عن ابداء رأى واصدار حكم . فلو كلفنى ايفان أو كلفتنى كاتيا بأن أتولى هذا الأمر من أجلك ، لما أحجمت عن استعمال الرشوة . أنا أعلم ذلك . ان من واجبى أن أقول لك الحقيقة كلها فى هذا الموضوع . ولذلك لا أصلح أن أكون قاضياً يحكم على ما قد تفعله . ولكن ثق على الأقل أننى لن ألومك ولن أدينك . وأنّى لى أن أكون قاضيك فى هذه المسألة ! هذا كل شيء . أحسب أننى قلت كل ما كان يجب علىَّ أن أقوله فى هذا الصدد .

هتف ميتيا يقول :

— ولكننى سأدين نفسى بنفسى . سوف أهرب ، هذا أمر مفروغ منه ، هذا أمر تقرر حتى قبل أن تكلمنى فيه . وهل يستطيع ميتكا كارامازوف الا أن يهرب ؟ هه ! . . . ولكننى سأدين نفسى بنفسى بعد ذلك ، وسأكفر عن هذا الذنب طوال

حياتى فى البلد الذى سألجأ اليه . قل لى : أليس يفكر اليسوعيون هكذا ؟ ألا يتكلمون كما نتكلم نحن الان ؟

— بلى . . . هكذا يفكرون .

بهذا أجاب أليوشا وهو يبتسم برفق وهدوء . فصاح ميتيا يقول وهو يضحك بفرح ومرح :

— أحب فيك أنك تقول الحقيقة دائماً ولا تخفى شيئاً . هأنا ذا اذن قد فاجأت أليوشا متلبساً بما يفعله يسوعى ! وددت لو أقبلك من أجل هذا ، هل تعلم ؟ اسمع اذن ما أريد أن أقوله لك أيضا ، لأننى أريد أن أفتح لك النصف الثانى من نفسى كذلك . اليك القرار الذى اتخذته بعد أن فكرت فيه ملياً وأنضجته طويلاً ووزنته من جميع النواحى : هبنى هربت ، بمال وجواز سفر ، فأقمت فى أمريكا . سوف يعزينى ويواسينى ويشد أزرى ويقوى عزيمتى أن أتصور اننى اذ أهرب لا أهرب لأفرح وأسعد ، وانما أهرب لألقى نفسى فى سجن آخر مختلف عن السجن الذى كنت سأودع فيه هنا ، ولكنه سجن على كل حال ، سجن يعدل السجن هنا أو هو أسوأ منه . أوه ! اننى أمقت أمريكا هذه منذ الآن . . . شيطان ياخذها ! . . . وستكون جروشنكا معى . . . طيب . . . ولكن فكّر قليلاً : ما الذى فى جروشنكا من امرأة أمريكية ؟ فيم تشبه جروشنكا امرأة أمريكية ؟ انها روسية ، روسية حتى النخاع من عظامها ، وستشعر هنالك بالحنين الأليم الى الارض التى ولدت فيها . وسوف أرى فى كل لحظة أنها من أجلى انما ارتضت عذاب النفس هذا ، وانها فى سبيلى انما حملت ذلك الصليب ، هى التى لم تقترف ذنباً ولم ترتكب اثماً ! وأنا ؟ هل تظن أننى سأستطيع أن اطيق معاشرة أولئك الجفاة من سكان تلك البلاد حتى

ولو كانوا كلهم خيراً منى ؟ أننى أكرهها منذ الآن ، أمريكا هذه ! شيطان يأخذ سكان تلك البلاد ولو كانوا جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، تكنيكيين من الطراز الأول ! ذلك أنهم ليسوا هم الناس الذين يحبهم قلبى ، ليسوا هم البشر الذين يستهوون فؤادى ! أنا أحب روسيا يا ألكسى ، أنا أحب الهنا الروسى ، رغم اننى لست أنا نفسى الا انساناً شقياً . ولكنى سأختنق هنالك ، سأختنق . . .

بهذا هتف ميتيا فجأة وقد سطعت عيناه واختلج صوته . ثم أردف يقول مسيطراً على انفعاله :

— فاليك ما عقدت عليه العزم يا ألكسى . اصغ الىَّ : سأذهب مع جروشا ، فمتى وصلنا الى هناك اندفعنا نعمل فوراً : نستصلح الأرض ونحييها فى مكان بعيد لا تجاورنا فيه الا الدببة ، مكان هو أنأى ما يكون عن المناطق الآهلة بالسكان . لا بد أن توجد هنالك أماكن نائية مقفرة ! يُقال أنه ما يزال يوجد فى أمريكا سكان حمر يعيشون فى أقاصى البلاد . فالى هناك سنذهب . . . الى آخر قبائل الموهيكان سنلجأ . . . وسنشرع ، أنا وجروشا ، فى دراسة قواعد اللغة على الفور ، لا نضيع يوماً واحداً . ونقضى فى ذلك ثلاث سنين : نزرع الأرض وندرس قواعد اللغة . وفى نهاية تلك السنين الثلاث ، نكون قد أتقنا اللغة الانجليزية ، وأصبحنا نجيد الكلام بها كبريطانيين أصليين . فمتى تم لنا اتقان اللغة الانجليزية اتقاناً كاملاً قلنا لامريكا وداعاً ، وعدنا الى روسيا كمواطنين أمريكيين . ولكن لا تخف : لن نرجع الى هذه المدينة . وانما سنختفى فى مكان ما ، بعيد عن هنا ، بالشمال ، وربما بالجنوب . والى أن نعود يكون قد تغير مظهرى ، وتبدلت هيئتى ، ويكون قد حدث

لها هى أيضا مثل ذلك . ثم ان أحد أولئك الاطباء الامريكيين سيستطيع أن يجرى تعديلاً فى ملامح وجهى ، كأن يزرع فى خدى شامة اصطناعية مثلا ! انهم هناك بارعون فى التكنيك ! وسأفقأ احدى عينى اذا اقتضى الأمر ذلك ، وسأرخى لحيتى طويلة جداً ، بيضاء كل البياض (ذلك أن لحيتى ستكون قد شابت بسبب ما أكون قد قاسيت من حنين الى الوطن) . وبذلك آمل أن لا أُعرف حين أعود . واذا افتضح أمرى رغم ذلك ، فلا ضير . . . سيرسلوننى عندئذ الى المعتقل فى سيبيريا . . . سيكون ذلك قدراً ولا شك ! . . . وهنا أيضا ، فى روسيا ، سنحرث الارض فى ركن ناءٍ بعيد ، وسأظل أتظاهر حتى الممات بأننى أمريكى . هكذا سيتاح لنا على الاقل أن نموت فى وطننا وأن نُدفن فى تراب بلدنا . تلك هى خطتى ، وذلك هو قرارى الذى لن أرجع عنه . هل تؤيدنى فى هذا ؟

— أؤيدك .

كذلك قال أليوشا الذى لم يشأ أن يعاكسه ويغيظه . وصمت ميتيا لحظة ثم هتف يقول :

— ما أشد ما شوَّهوا الوقائع فى المحاكمة ! يا لها من مسرحية !

فقال أليوشا وهو يتنهد :

— حتى بدون ذلك كانوا سيحكمون عليك .

فاستأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت فيه ألم :

— نعم ، لقد ضاقوا بى فى هذه المدينة ؛ سامحهم الله ، ولكن هذه قسوة فظيعة . . .

وساد الصمت مرة أخرى . ثم قال ميتيا فجأة :

— أليوشا ، يجب أن أعرف حتماً : أهى آتية أم لا ؟

أجب . . . ماذا قالت لك ؟ بماذا وعدتك ؟

قال أليوشا :

— وعدتنى بأن تجىء ، ولكننى لا أدرى هل تستطيع أن تجىء اليوم .

ثم أضاف وهو يلقى على أخيه نظرة خجلى :

— ليس هذا سهلاً عليها .

قال ميتيا :

— أقدِّر أن هذا ليس سهلاً عليها . وكيف يكون سهلا ! أليوشا ، اننى أكاد أجن . ان جروشا لا تكف عن التفرس فىَّ . يبدو أنها تدرك . آه . . . رباه ! اللهم ألهمنى الصبر ! أنظر ماذا أطلب الآن : اننى أطلب كاتيا ، لا بد لى من كاتيا . . . أأنا أدرك ما الذى أريده بهذا ؟ هذه حمى آل كارامازوف ! هذا هو اندفاعنا المخزى ! لا ، لست قادراً على أن أتالم ، وأسفاه ! ما أنا الا انسان شقى تافه . . . ذلك كل شىء ! . . .

فى تلك اللحظة صاح أليوشا :

— هى ذى !

كانت كاتيا قد ظهرت فى عتبة الباب . وتوقفت بضع لحظات تتأمل ميتيا بنظرة زائغة تائهة . وثب ميتيا واقفاً على قدميه ، وعبَّر وجهه عن ذعر ، وامتقع لونه ، ولكن سرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مذلة وضراعة ، ومدَّ ذراعيه فجأة نحو كاتيا بحركة لا تقاوَم . فاستجابت كاتيا لهذه البادرة ، واندفعت اليه ، فأمسكت يديه ، وأجلسته على مضجعه عنوةً ، وجلست الى جانبه وهى ما تزال ممسكة يديه ، وأخذت تضغط عليهما ضغطاً قوياً عنيفاً يشبه أن يكون تشنجاً . وأرادا أن يتكلما

عدة مرات ، ولكنهما امسكا عن الكلام فى كل مرة ، لينظر كل منهما فى الآخر صامتاً ، مبتسما ابتسامة غريبة ، وكأن كلاً منهما قد شُدَّ الى صاحبه والتصق به . هكذا مرّت دقيقتان .

دمدم ميتيا أخيرا :

— هل غفرت لى ؟

والتفت فى اللحظة نفسها نحو أليوشا ، وصرخ يسأله وقد التهب وجهه بفرح عظيم :

— هل تسمع ماذا أسألها ؟

وهتفت كاتيا تقول فجأة :

— لأن لك قلباً كريماً هذا الكرم انما أحببتك . ولكن لست أنا من يغفر لك ، لأننى أنا التى أحتاج الى غفرانك . ولكن ليس هذا بالأمر الهام . . . لأن هذا الجرح سيظل نازفاً فى قلبى طول حياتى سواء أغفرت أم لم تغفر . ستكون أنت عذابى ، وسأكون أنا عذابك . حسن هذا . . .

وتوقفت كاتيا عن الكلام لتسترد أنفاسها ؛ ثم استأنفت تقول متعجلةً بصوت أصبح شديد الحماسة والحرارة :

— هل تدرى لماذا أتيت اليك ؟ لأقبِّل قدميك ، لأشد على يديك ، هكذا ، الى حد ايلامك ، كما كنتُ أفعل فى موسكو ، أما زلت تتذكر ؟ نعم ، جئت لاقول لك مرةً أخرى أنك انت الهى ، أنك أنت فرحتى ، ولأصرخ أمامك ملء حنجرتى : انى أحبك حب الجنون .

صاحت تقول ذلك بصوت كأنه الأنين ، ثم أطبقت بشفتيها على يد ميتيا فجأةً ، وأخذت الدموع تتدفق من عينيها .

لبث أليوشا صامتاً متحيراً : انه ما كان له قط أن يتوقع مشهداً كهذا المشهد .

وتابعت كاتيا كلامها فقالت :

— الحب قد انقضى يا ميتيا ، غير أن ما انقضى يظل عزيزاً فى نفسى الى حد الألم . تذكر هذا الـــى الأبد .

ثم دمدمت تقول وهى تبتسم ابتسامة متشنجة ، وتحدق الى عينيه من جديد بنظرة فيها تعبير عن فرح :

— لنفرض ، خلال لحظة ، أن ما حلمنا به قد تحقق . أنت تحب الآن امرأة أخرى ، وأنا أحب رجلاً آخـــر . لا بأس . . . سأظل أحبك مع ذلك الى الأبد . . . وستظل تحبنى أنت أيضا . أكنت تعرف ذلك ؟ هل تسمع ؟ أريد أن تحبنى ، أريد أن تحبنى مدى الحياة !

كذلك صاحت بهذه الجملة الأخيرة وفى صوتها ارتعاش يشبه أن يكون تهديداً .

أجابها ميتيا وهو يتوقف بعد كل كلمة من كلماته ليسترد أنفاسه :

— سأحبك ، نعم . . . هل تعلمين أننى كنت أحبك أيضا منذ خمسة أيام ، فى ذلك المساء . . . حين أغمى عليك ونُقلت من قاعة المحكمة . . . سأحبك طول حياتى ! ذلك ما سيكون ، ذلك ما سيكون الى الأبد . . .

هكذا أخذا يتبادلان أقوالا طائشة تفيض حماسة وحميًا ، ولعلها تفيض كذباً . ولكن كل شىء قد أصبح فى تلك اللحظة صدقاً وحقيقة ، وكانا كلاهما مخلصين كل الاخلاص .

وصاح ميتيا يسألها فجأة :

— كاتيا ، أتعتقدين بأننى قتلت ؟ أنا أعلم أنك لا تعتقدين الآن بذلك . . . ولكن فى تلك المرة . . . أثناء ادلائك

بشهادتك أمام المحكمة . . . هل يمكن حقاً أن تكونى قد اعتقدت بأننى قتلت ؟

— لا ، لم أعتقد بذلك حتى حينذاك ! لم أعتقد بذلك فى وقت من الاوقات ! ولكننى كرهتك فى تلك الآونة ، فأقنعت نفسى خلال لحظات بأنك القاتل . . . أقنعت نفسى بذلك فى تلك الدقيقة ذاتها التى أدليت فيها بشهادتى . . . أقنعت نفسى بذلك ، فسرعان ما اقتنعت . . . ثم كففت عن الاقتناع منذ انتهيت من الادلاء بشهادتى . أريد أن تعرف هذا . لقد نسيت أننى انما جئت الى هنا لأعاقب نفسى .

أضافت كاتيا ذلك بلهجة مختلفة كل الاختلاف وأصبح صوتها لا يشبه فى شىء ذلك الصوت الذى كان يتمتم بكلمات الحب الرقيقة منذ قليل .

قال ميتيا فجأة وقد فقد كل تحفظ :

— روحك معذبة يا امرأة .

فدمدمت كاتيا :

— دعنى انصرف . سأعود اليك ، أما الآن فلا أطيق البقاء . اننى متألمة .

ونهضت لتنصرف . ولكنها سرعان ما أطلقت صرخة حادة وتراجعت الى وراء . كانت جروشنكا قد ظهرت فى الغرفة . لقد دخلت بغير ضجة ، ولم يكن يتوقع أحد أن يراها . اتجهت كاتيا نحو الباب مسرعة ، ولكنها ما ان وصلت الى مستوى جروشنكا حتى توقفت فجأة ، وهمست تقول لها بصوت فيه أنين وتوجع وقد صار وجهها كالشمع اصفراراً :

— اغفرى لى !

فحدقت اليها جروشنكا تحديقاً متفرساً ، حتى اذا انقضت

بضع ثوان أجابتها بصوت مسموم يفاقمه الكره :

— كلتانا شريرة . نحن متساويتان فى الشر . فعلام تغفر كل منا للأخرى . انقذيه ، فأدعو لك الله الى آخر أيامى !

صرخ ميتيا يقول لجروشنكا بلهجة عتاب شديد :

— لم تشائى أن تغفرى لها ؟

ودمدمت كاتيا تقول بسرعة :

— لا تخافى ! سأنقذه .

وأسرعت تفر من الغرفة .

وعاد ميتيا يهتف قائلاً بمرارة :

— كيف رفضت أن تغفرى لها بعد أن قالت لك : اغفرى لى ؟

فتدخل أليوشا يقول بحرارة :

— لا تلمها يا ميتيا ! ليس من حقك أن تلومها !

وأجابت جروشنكا تقول باشمئزاز :

— لم يصدر كلامها من أعماق نفسها ، وانما أوحاه اليها الكبر . ألا فلتنقذك فأغفر لها عندئذ كل شىء !

وصمتت كأنما لتكبت العواطف التى كانت تجتاح نفسها . لم تكن قد ثابت الى هدوئها ، وقد جاءت مصادفةً كما اتضح ذلك فيما بعد ، دون أن تتوقع لقاء كهذا اللقاء .

قال ميتيا وهو يلتفت بحركة قوية نحو أخيه :

— أليوشا ، حاول أن تلحق بها . . . واشرح لها . . . قل لها . . . لا أدرى ماذا . . . ولكن لا تدعها تنصرف على هذه الحال !

فصرخ أليوشا يقول وقد اندفع فى اثرها :

— سأعود اليك هذا المساء !

وأدركها فى الشارع . كانت تسير بخطى سريعة ، وتبدو مستعجلة ، ولكنها حين أبصرت أليوشا قالت له بلهجة قوية :

— لا ، يستحيل علىَّ أن أذل نفسى أمام تلك المرأة ! وانما سألتها أن تغفر لى ، لأننى أردت أن أمضى فى التضحية الى نهايتها ، أن أشرب الكأس حتى الثمالة . وقد منعت عنى غفرانها . فمرحى لها . . . اننى أحبها لموقفها هذا ! . . .

أضافت كاتيا عبارتها الأخيرة هذه بصوت متشنج ، وطاف بعينها لهيب من كره وحشى !

دمدم أليوشا يقول :

— لم يكن يتوقع أخى حضورها . كان واثقاً بأنها لن تجىء !

فقالت تحسم الحديث :

— لا أشك فى ذلك . ودعنا من هذا . اسمع : يستحيل علىَّ أن أذهب معك الآن الى الجنازة . لقد بعثت اليهم بازهار للنعش . أظن أنهم ما يزال معهم بقية من مال . قل لهم ، اذا لزم الأمر ، أننى لن أتركهم فى المستقبل أبداً . . . والآن دعنى ، دعنى ، أرجوك . . . هأنت ذا قد تأخرت منذ الآن ، فلن تدرك الا القداس الثانى . . . اتركنى ، أضرع اليك !

٣

جنازة ايليوشا . التأبين قرب الصخرة

وصل أليوشا متأخراً بالفعل . كانوا ينتظرونه ، وقد هموا أن يذهبوا الى الكنيسة بدونه ، حاملين النعش الصغير المزيَّن

بالازهار تزييناً جميلاً . انه نعش ايليوشا ، الصبى المسكين . لقد مات بعد الحكم على ميتيا بيومين . استُقبل أليوشا أمام باب المنزل بصرخات الأطفال رفاق الصبى الراحل . كانوا جميعا ينتظرونه بصبر نافد ، وابتهجوا بوصوله . ان عددهم اثنا عشر صبياً يحملون حقائب المدرسة على ظهورهم . كان ايليوشا قد قال لهم قبل موته : «سيبكى بابا ، فابقوا الى جانبه» ، وتذكر الاطفال وصيته . وكان على رأسهم كوليا كراسوتكين .

هتف كوليا وهو يمد يده الى أليوشا :

— ما أسعدنى برؤيتك يا كارامازوف ! ان ما يجرى هنا رهيب . ان ما يجرى هنا تمزق رؤيته القلب . ليس سنيجريف سكران . نحن نعلم أنه لم يشرب اليوم شيئاً البتة ، ولكنه كالسكران . اننى قوى القلب رابط الجأش ، ولكن هذا المنظر رهيب . لا أريد أن أؤخرك يا كارامازوف ، ولكن هل يمكننى أن ألقى عليك سؤالاً واحداً قبل ان تدخل ؟

سأله أليوشا وقد توقف عن السير :

— ماذا يا كوليا ؟

— هل أخوك مذنب ام هو برىء ؟ أهو الذى قتل أباك ، أم القاتل هو ذلك الخادم ؟ سوف أؤمن برأيك . ان هذا السؤال قد حرمنى النوم أربع ليال .

أجابه أليوشا :

— الخادم هو الذى قتل . أخى برئ .

فهتف الفتى سموروف يقول فجأة :

— ذلك هو رأيى أنا أيضا .

صاح كوليا يقول :

— اذن سيهلك بريئاً ، سيهلك شهيداً من شهداء

الحقيقة . لقد هوى ، ومع ذلك لا بد أن يكون سعيداً ! ألا اننى ، من جهتى ، لمستعد أن أغبطه وأحسده !

قال أليوشا مدهوشا :

— كيف ؟ كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام ؟

فأجابه كوليا بحماسة :

— أوه ! لشد ما أتمنى أن أضحى بنفسى يوماً فى سبيل الحقيقة .

قال أليوشا :

— ولكن لا فى قضية من هذا النوع ، فيما أتخيل . . . لا فى مثل هذا الجو من الخزى والهول !

— طبعاً . . . أنا أتمنى أن أموت فى سبيل الانسانية كلها . أما هذا الخزى الذى تشير اليه فلا قيمة له ! ألا سحقاً لاسمائنا ! اننى احترم أخاك .

— وأنا أيضا أحترمه .

كذلك قال صوت آخر فى جماعة التلاميذ ، على نحو لم يكن متوقعاً . انه صوت ذلك الصبى الذى أكد فى الماضى انه يعرف أسماء بناة طروادة ، وكما حدث فى المرة السابقة اصطبغ وجهه بحمرة شديدة .

دخل أليوشا الغرفة . كان إيليوشا مسجًى فى نعش صغير ازرق مزدان بتخريم أبيض ، وقد أُغمضت عيناه وضُمت يداه . ان ملامح وجهه الناحل لم تكد تتغيَّر . والأمر الغريب أنه ما من رائحة تعفن تفوح من جثته . وكان وجهه يعبِّر عن الجد ، وكأنه يعبر عن تفكير . وكانت يداه جميلتين جمالاً خاصاً . انهما متصالبتان على صدره ، يحس المرء حين يراهما أنهما مقدودتان من مرمر . وقد وضعت بين أصابعه أزهار . وكان

57-1306

النعش كله مزدانا فى الباطن والظاهر بأزهار أرسلتها ليزا خوخلاكوفا ، منذ الصباح . وقد وصلت الآن أزهار أخرى أرسلتها كاترينا ايفانوفنا ، ففى اللحظة التى فتح فيها أليوشا الباب كان النقيب ينثر تلك الأزهار الجديدة على جسد ابنه الحبيب بيد مرتعشة . لم يكد ينظر الى أليوشا . وكان غير عابئ بأحد على كل حال ، حتى ولا بامرأته الخرقة التى كانت تبكى وتحاول أن تنهض على ساقيها المريضتين لتتأمل طفلها الميت من قرب . أما نينا فكان التلاميذ قد نقلوها على كرسيها وجعلوها قرب النعش . فهى الآن مسندةً رأسها الى النعش ، ولا شك أنها تبكى هى أيضا فى صمت . وكان وجه سنيجيريف يعبر عن حركة ونشاط ، غير أن فيه ارتباكاً على شىء من قسوة . كان فى اشاراته وحركاته جنون ، وكذلك فى الاقوال التى تنطلق من لسانه . كان يصيح فى كل لحظة قائلاً : «بنىَّ الصغير الشهم ، بنىَّ الصغير الشجاع !» . لقد كان يحب ، حتى أثناء حياة ابنه ، أن يناديه بقوله : «بنىَّ الشهم الشجاع !» .

قالت الأم الخرقة وهى تنتحب :

— بابا ، اعطنى بضعة أزهار أنا أيضا . خذ منه هذه الزهرة البيضاء التى يمسكها بيده ، واعطنى اياها !

أكانت تلك الوردة الصغيرة البيضاء هى التى أعجبتها ذلك الاعجاب كله ، أم هى كانت تود أن تحتفظ بالزهرة التى يمسكها ابنها بيده ، ذكرى منه ؟ لا أحد يعلم ، ولكن الأم كانت تضطرب اضطرابا رهيبا وهى تمد يديها نحو الزهرة المشتهاة .

صرخ سنيجيريف يقول بلهجة قاسية :

— لن أعطيها أحداً ، لن أعطى شيئاً . هذه الأزهار

له هو ، لا لك انت ! كل شىء له هو ، وليس لك شىء البتة !

قالت نينا فجأة وهى ترفع وجهها المبلل بالدموع :

— بابا ، اعط ماما زهرة !

— لن أعطى شيئاً ، لن أعطيها هى خاصةً ، لانها لم تكن تحبه ! لقد أخذت منه هذا المدفع الصغير من قبل ، وارتضى هو أن يهديه اليها .

كذلك قال النقيب وهو ينفجر باكياً من ذكرى اليوم الذى تنازل فيه ايليوشا عن لعبته لأمه من تلقاء نفسه . غطت المجنونة المسكينة وجهها بيديها ، وأخذت دموعها تسيل . واذ لاحظ الصبية ان الأب لا يترك ابنه ، مع أنه آن أوان نقله ، فقد تحلقوا حول النعش حلقة كثيفة ، وأخذوا ينهضونه .

زأر سنيجيريف يقول فجأة :

— لا أريد دفنه فى المقبرة . سوف أدفنه قرب الصخرة ، قرب صخرتنا . هذا ما أراده ايليوشا . لن اسمح بنقله .

الواقع أن سنيجيريف كان يؤكد منذ ثلاثة أيام أنه سيدفنه قرب الصخرة . احتج الحاضرون . وأخذ أليوشا وكراسوتكين وصاحبة البيت واختها وسائر الصبية ، أخذوا يحاولون اقناعه .

قالت صاحبة البيت العجوز بصرامة :

— يا للفكرة العجيبة ! كيف يُدفن قرب صخرة حقيرة كأنه شنق نفسه . المقبرة فيها صلبان وأرضها مباركة مقدسة . والناس يجيئون اليها فيصلون على روحه . وأناشيد الكنيسة تصل الى هناك ، وللشماس صوت يبلغ من قوة الرنين والوضوح أن أقواله يمكن أن يسمعها الصبى كأنها تتلى على قبره .

وأخيرا حرَّك النقيب يده باشارة تنم عن الاذعان والرضوخ

وكأنه يقول : «خذوه حيث شئتم !» . أنهض الصبية النعش وساروا به ، حتى اذا مروا بالأم توقفوا لحظةً وأحنوه لتستطيع أن تودع إيليوشا الوداع الأخير . فلما رأت الأم فجأة ، من قرب ، ذلك الوجه الصغير الغالى الذى كانت تتأمله منذ ثلاثة أيام من بعد ، أخذت ترتعش وهى ترجح رأسها الأشيب ترجيحاً هستيرياً من أمام الى وراء ، فوق النعش .

صرخت نينا تقول للأم :

— ماما ، ارسمى عليه اشارة الصليب وباركيه وقبّليه !

ولكن المجنونة ظلت تهز رأسها صامتةً كأنها آلة تتحرك بغير ارادة ، وقد تشنج وجهها على ألم شديد ؛ وفجأةً أخذت تلطم صدرها بقبضة يدها . وابتعد الصبية بالنعش . فلما مروا باخته نينا ألصقت الفتاة شفتيها بشفتى أخيها المتوفى مرة أخيرة . وحين خرجوا من الدار اتجه أليوشا الى صاحبة البيت فرجاها أن تهتم بأمر الباقين ، ولكن صاحبة البيت لم تتح له أن يتم كلامه فقالت :

— أعرف واجبى . لن أتركهم . نحن أيضا مسيحيون !

وكانت العجوز تبكى أثناء كلامها .

لم تكن الكنيسة بعيدة . انها على مسافة ثلاثمائة خطوة فى أكثر تقدير . وكان النهار مضيئاً هادئاً ، على شىء من صقيع . وكانت أصوات النواقيس تُسمع مؤذنةً بالصلاة . ان سنيجيريف يركض وراء النعش مضطرب الحركة ، تائه الهيئة ، مرتدياً معطفه العتيق القصير الذى يشبه أن يكون كساءً من أكسية الصيف ، حاسرَ الرأس يمسك بيده قبعته البالية الطويلة الحواف ، المصنوعة من لباد . كان كمن تملأ ذهنه مشاغلُ لا سبيل لحلها ؛ هو تارةً يمد ذراعه على حين فجأة ليساعد فى حمل

النعش فلا يزيد على أن يعوق أولئك الذين يحملونه ، وهو تارةً أخرى يهرع الى جانب محاولاً أن يصطف فى الموكب . وسقطت زهرة على الثلج ، فأسرع يلتقطها كأن سقوطها هذا يمكن أن يؤدى الى عواقب خطيرة لا يعلم الا الله ما هى !

وصرخ يقول مذعورا على حين فجأة :

— رغيف الخبز ! نسينا الرغيف !

ولكن الصبية نبهوه الى انه قد أخذ الرغيف ، وأن الرغيف هو الآن فى جيبه . فأسرع يخرجه ، حتى اذا تأكد من وجوده اطمأن باله . وقال لأليوشا شارحاً :

— ان ايليوشا هو الذى أمر بهذا . كان لا ينام الليل ، وكنت أجلس قربه . وفجأة أمرنى قائلاً : «بابا ، حين يهيلون على قبرى التراب ، فانثر فوقه فتات خبز فتتهافت عليه العصافير ، فأسمع صوتها ، فلا أشعر بأننى وحيد» .

قال اليوشا :

— فكرة حسنة . يجب فعل ذلك أحياناً كثيرة .

— كل يوم . سأفعل هذا كل يوم !

بهذا أجاب الأب متحمساً .

ووصل الموكب أخيراً الى الكنيسة ، ووضع النعش فى وسطها ، وأحاط به الصبية يحرسونه بأبهة وجلال الى آخر القداس . انها كنيسة قديمة فقيرة ، وان عدداً كبيراً من ايقوناتها معلق بغير أطر . وفى كنائس من هذا النوع انما يُصلى أحسن الصلاة فى أكثر الأحيان . بدا على سنيجيريف أثناء القداس أنه هدأ قليلا ، غير أن قلقاً لا شعوريا ، قلقاً ليس له سبب ظاهر ، كان يجتاح نفسه من حين الى حين . واقترب من النعش مرةً ليرتب الغطاء وليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت .

وفي مرة أخرى سقطت احدى الشموع فأسرع يعيدها الى موضعها فشغل بهذا العمل مدة طويلة . وعاد اليه الهدوء بعد ذلك من جديد ، فوقف عند رأس التابوت مذعناً ، على شيء من بلادة وقلق وحيرة فى تعبير وجهه . حتى اذا انتهت قراءة ما قرئ من الانجيل ، قال سنيجيريف لأليوشا هامساً فى أذنه (وكان أليوشا الى جانبه) : لم تكن القراءة «كما يجب أن تكون» . ولكنه لم يشرح جوهر فكرته . وحين أنشد نشيد الكروبيين . صاحب الأب الانشاد بصوت خافت ، ولكنه لم يلبث ان توقف عن الانشاد فجأة وارتمى جاثياً على ركبتيه ، ثم سجد حتى التصق جبينه بالبلاط ، ولبث على هذا الوضع مدة طويلة . وأخيرا تُليت صلاة الجنازة ، ووزعت الشموع ، فاضطرب الأب عندئذ من جديد ، ولكن مهابة الغناء الجنائزى المؤثر لم تلبث أن نفذت الى قلبه فهزته ، وتجمع على نفسه ، وأخذ يبكى بنشيج قصير سريع ، خانقاً صوته فى أول الأمر ، تاركاً لألمه بعد ذلك أن ينفجر صاخبا غير مكظوم ، حتى اذا آن أوان التوديع وأريد اغلاق التابوت ، أسرع يحيطه بذراعيه كأنما ليحول دون اغلاقه ، وألصق شفتيه بوجه صغيره الميت ، وراح يغمره بالقبل فى ظمأ لا يرتوى ، وطفق يقبله على الفم مزيداً ومزيداً من التقبيل لا يريد أن يتوقف . وردّوه أخيرا الى الصواب واستطاعوا أن ينحّوه . وفيما هو ينزل على الدرجات ، غيَّر رأيه فجأة ، فأغار بذراعه على التابوت فاختطف منه بضع زهرات ، وأخذ يتأملها . ان فكرة جديدة قد نبتت فى نفسه عندئذ ، حتى لكأنه نسى ، خلال لحظات ، الامرَ الذى هو فيه . وهوى ، شيئا فشيئا ، الى نوع من تأمل عميق ، فلم يُظهر بعد ذلك مقاومة ولا معارضة حين أنهض التابوت الصغير لنقله

الى القبر . كان القبر قريبا كل القرب ، فهو فى الحوش الى جانب الكنيسة . وقد تكلف ثمناً باهظاً تولت دفعه كاترينا ايفانوفنا . وقام الحفارون بانزال التابوت فى القبر بعد اجراء الطقوس المألوفة ؛ فبلغ سنيجيريف (وكان يحمل الأزهار بيده) بلغ من شدة ميله على القبر المحفور أن الصبية أمسكوه من معطفه مذعورين وشدوه الى وراء . غير أن من يراه فى تلك اللحظة يخَّيل اليه أنه أصبح لا يفهم ما يجرى حوله فهماً واضحاً . حتى اذا أهيلت على القبر أولى مجارف التراب ، خرج من خدره فجأة ، فأشار بيده الى التراب الذى كان يتكوم ، ودمدم بعبارات غامضة لم يفهمها أحد . على أنه لم يلبث أن صمت فوراً . وذُكّر عندئذ بأن عليه أن ينثر فتات الخبز ، فاضطرب فجأة ، وأخرج الرغيف من جيبه ، وأخذ يفتته ، مبعثراً فتاته على القبر ، مدمدماً فى تشفع قلق : «هيَّا اسرعى ياعصافيرى الصغيرة !» . وقال له أحد الصبية أن الازهار التى يمسكها بيده تعوق حركته ، واقترح عليه ان يحملها عنه لحظات ، ولكنه أبى أن يعطيها ، حتى لقد بدا عليه ذعرٌ من تصور أن أحداً يريد انتزاعها منه . حتى اذا ألقى نظرة على القبر ، فاطمأن الى أن كل شيء قد تم على ما يُرام ، وان فتات الخبز قد نثر ، استدار فجأة ومضى متجهاً الى البيت وقد هدأ هدوءًا كبيراً على حين بغتة . ولكن خطواته اخذت تسرع شيئا بعد شيء ، وأخذ يتعجل المشى مزيداً من التعجل حتى صار كمن يركض ركضاً . ولم يتركه أليوشا والصبية .

بدأ يهتف :

— أزهار للأم . لابد من أزهار للأم . لقد أوذيت الأم وأولمت .

ولفت أحدهم انتباهه الى أن عليه أن يضع قبعته على رأسه مخافة البرد ، فاذا بهذه الملاحظة تغضبه ، واذا هو يرمى قبعته على الثلج بعنف قائلاً :

— لا أريد قبعة ، لا أريد قبعة !

فمال الفتى سموروف على الثلج ، فتناول قبعة اللباد وتولى حملها . وكان جميع الصبية يبكون ، ولا سيما كوليا والصبى الذى اكتشف بناة طروادة . أما سموروف فكان يبكى بكاءً غزيراً هو أيضا ، ممسكا قبعة النقيب بيده ، ومع ذلك أمكنه أثناء الطريق أن يتناول من الأرض قطعة قرميد كان يتلألأ احمرارها فى الثلج ، فرماها فى الهواء على سرب من العصافير ؛ فلم يصبها طبعاً ، فعاد ينضم الى جماعته وهو يبكى . وفى منتصف الطريق توقف سنيجيريف فجأة ، وشرد فكره نصف دقيقة ، ثم اذا هو يستدير كأن فكرة مباغتة قد انبجست فى ذهنه ، واندفع يركض نحو الكنيسة ، نحو القبر الصغير المهجور . ولكن الصبية لحقوا به وأدركوه فى مثل لمح البصر وأحاطوا به من جميع الجهات ليصدوه ، فتهاوى عندئذ على الثلج محطماً مهدم القوى ، وأخذ يئن منتحباً صائحاً :

— بنىَّ الشهم الشجاع إيليوشا ، بنىَّ الشهم الشجاع !

أنهضه أليوشا وكوليا محاولين أن يواسياه ويهدئاه .

دمدم كوليا يقول له :

— ما هذا يا نقيب ؟ ان على الرجل الشجاع أن يعرف كيف يحتمل الألم !

وقال له أليوشا :

— سوف تُفسد الازهار ، بينما الأم تنتظرها . هى الآن فى البيت تنتحب لانك رفضت أن تعطيها بعض أزهار ايليوشا .

وفى البيت أيضا السريرُ الصغير الذى كان يرقد عليه ايليوشا .

فصاح سنيجيريف يقول وكأنه ذاكرته قد عادت اليه فجأة :

— نعم نعم ، لنركض الى الأم .

وأضاف يقول مذعوراً من تصور أنهم قد يُبعدون سرير ابنه :

— سوف يرفعون السرير ، سوف ينقلون السرير !

نهض واخذ يركض نحو البيت . ولم تكن المسافة الباقية طويلة . ووصل الجميع فى وقت واحد . وفتح سنيجيريف الباب بسرعة ، وصاح يقول لامرأته التى خاشنها تلك المخاشنة كلها منذ قليل :

— ماما ، ماما العزيزة ، ان إيليوشا يرسل اليك هذه الأزهار . ان ساقيك مريضتان ! . . .

هكذا صاح وهو يمد اليها الازهار التى تجلدت وتكسرت بعض التكسر حين كان يتخبط فى الثلج . ولكنه فى تلك اللحظة نفسها أبصر فى ركن من الاركان أمام سرير ايليوشا ، حذاءى ابنه اللذين رتبتهما صاحبة البيت هناك منذ هنيهة — وهما حذاءان عتيقان حال لونهما واهترأت أطرافهما ورقّعتا فى كل موضع ؛ فلما رآهما رفع ذراعيه وركع أمامهما ، فتناول أحدهما ، وأطبق عليه بشفتيه يقبله تقبيلاً نهماً ، ويئن قائلاً :

— بنىَّ الشهم الشجاع ايليوشا ، بنىَّ الشهم الشجاع ، أين هما الآن قدماك الصغيرتان الحلوتان ؟

فأعولت المجنونة تسأل بصوت ممزّق :

— الى أين أخذته ؟ الى أين أخذته ؟

وأجهشت نينا تبكى وتنتحب أيضا . فخرج كوليا من الغرفة مسرعاً وتبعه الصبية الآخرون ، ولحق بهم أليوشا الى

الخارج ، وقال يخاطب كوليا : «لندعهم يبكون . ليس هناك ما نعمله الآن ، فلسنا نستطيع أن نعزيهم . لننتظر هنا بضع لحظات ، ثم نعود ندخل الغرفة» .

قال كوليا مؤيدا :

— نعم ، لا نستطيع أن نفعل الآن شيئاً . فظيع ، فظيع !

ثم اضاف يقول خافضا صوته على حين فجأة حتى لا يسمعه أحد غير أليوشا :

— هل تعلم يا كارامازوف ! اننى أشعر بحزن رهيب ، واني لمستعد أن أهب كل شيء فى العالم من أجل يُبعث حياً ، لو كان ذلك فى الامكان .

قال أليوشا :

— وأنا أيضا .

— هل يجب علينا ان نعود اليهم فى هذا المساء ؟ ما رأيك يا كارامازوف ؟ ان من الجائز أن يكب على الشراب ويسكر !

— من الجائز فعلاً أن يسكر . ولكننا سنجيء وحدنا نحن الاثنين . هذا كاف . وسنقضي فى صحبتهم ساعتين ، مع الأم ونينا . أما اذا جئنا جميعاً فقد نوقظ آلامهم .

كذلك اقترح أليوشا .

قال كوليا :

— ان صاحبة البيت تهيىء المائدة الآن . اغلب الظن أنها تفعل ذلك اعداداً لوجبة احياء ذكرى الميت . وسيجيء القس . هل علينا أن نعود الى الغرفة يا كارامازوف ؟

أجابه أليوشا :

— حتما !

— ما أغرب هذا كله يا كارامازوف ؟ أيكون الناس فى مثل هذا الألم ثم يأكلون الفطائر ؟ ما اكثر ما هنالك من أمور غريبة فى ديانتنا !

قال الفتى الذى اكتشف بناة طروادة ، قال فجأة بصوت عالٍ :

— هناك أيضا سمك سلمون .

فقال له كوليا بصوت حانق :

— أرجوك ملحاً يا كارتاشوف أن لا تتدخل فى حديثنا بسخافاتك ، لا سيما وأن أحدا لم يسألك عن شيء ، وأننا نؤثر أن نجهل وجودك !

فاحمر وجه الفتى احمراراً شديداً ولكنه لم يجرؤ أن يجيب .

وكان الصبية يسيرون فى الطريق على مهل ، فصاح سموروف يقول فجأة :

— تلكم هى صخرة ايليوشا ، الصخرة التى كان يُراد أن يدفن تحتها .

توقف الجميع أمام الصخرة الكبيرة ولبثوا صامتين ، فنظر اليهم أليوشا ، ورأى بخياله المشهد الذى قصه عليه سنيجيريف ، ورأى ايليوشا باكياً معانقاً أباه قائلاً له : «بابا ! حبيبى بابا ! ما أشد ما أذلك !» . وتحرك شيء ما فى نفس أليوشا عندئذ ، فطاف بنظرة رصينة ثابتة على هذه الوجوه الفتية النضرة الزاهية ، وجوه التلاميذ ، رفاق ايليوشا ، وقال لهم :

— يا سادتى ، أحب أن أوجه اليكم بضع كلمات هنا ، فى هذا المكان بعينه .

فأحاط به الصبية وحدقوا اليه بأعينهم المنتبهة .

قال أليوشا :

— يا سادتى ، سنفترق عما قريب . أنا الآن مقيم فى هذه المدينة قربَ أخوىَّ اللذين سيُرسل أحدهما بعد مدة قصيرة الى الاشغال الشاقة ، أما الثانى فيُحتضر . ولكننى سأبارح هذه الديار قريبا ، وربما غبت عنها سنين طويلة . سنفترق اذن يا سادتى . لذلك اقترح عليكم ان نتعاهد هنا ، قرب هذه الصخرة التى كان ايليوشا يحب ان يقف عندها ، على أن لا ننسى الراحل الصغير أبداً . هذا أولا ؛ وأن نتعاهد ثانياً على أن يتذكر بعضنا بعضاً على الدوام . يجب علينا ، مهما يقع لنا فى هذه الحياة ، ولو طال فراقنا عشرين عاماً ، أن نتذكر دائماً هذا اليوم الذى دفنّا فيه الصبى المسكين الذى كنا نرميه بالحجارة قبل ذلك — قرب الجسر الصغير ، هل تتذكرون ؟ — ثم أصبحنا نحبه جميعاً كل هذا الحب . لقد كان فتى شهماً ، طيب القلب ، شجاعاً ، قوى الشعور بالشرف ، عميق الاحساس بالمرارة من الاهانة التى أُلحقت بأبيه ، تلك الاهانة التى تمرد بسببها وثار . يجب أن نظل نتذكره طوال حياتنا . مهما يكن مصيرنا المقبل ، وأيةً كانت الأمور الخطيرة التى ستشغل فكرنا ، وسواء أأصبحنا نحتل مناصب عليا أم نزل بنا شقاء لم يكن فى الحساب ، يجب أن لا ننسى أبدا هذا العهد الذى أسعدنا فيه شعورُنا بالاتحاد على عاطفة طيبة بريئة طاهرة نحو الصبى الراحل ، وأسعدنا فيه هذا الحب الذى حملناه له والذى لعله جعلنا خلال هذه الفترة أحسن مما نحن فى الواقع . يا طيورى الصغار — اسمحوا لى أن أناديكم هكذا لأنكم جميعاً تشبهون طيور الحمام الجميلة — اننى أتامل الآن وجوهكم التى تفيض طيبة ولطفاً ورقة ، فأقول ،

يا ابنائى الأعزة ، أنكم قد لا تدركون أقوالى الآن لأننى فى كثير من الأحيان أعبّر تعبيراً غامضاً ، ولكنكم ستحتفظون بذكراها على الاقل ، ثم يأتى يوم تقرونى فيه على رأيى . ألا فاعلموا اذن أنه ليس فى حياتنا شىء أقوى ولا أطهر ولا أكثر سمواً وأنفع لحياتكم المقبلة من ذكرى طيبة ، ولا سيما اذا نفذت الى نفوسنا أثناء طفولتنا تحت سقوف منازل الآباء . ما أكثر ما يحدثكم الناس عن تربيتكم وتهذيبكم . الا فاعلموا أن ذكرى مشرقة مقدسة يحملها المرء فى نفسه منذ طفولته هى خير تربية وأفضل تهذيب . سيجد المرء خلاصه اذا كانت نفسه تحتفظ بذكريات كثيرة من هذا النوع . ورب ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافيةً لخلاصنا ولو لم يبق فى قلوبنا أى شىء سواها . قد نصبح أشرارا فيما بعد ، قد نعجز فى المستقبل عن مقاومة فعل سيئ ، قد نسخر من ألم الانسان ومن الناس الذين يحترقون شوقاً الى «التألم فى سبيل الانسانية» ، كما قال كوليا منذ قليل ، قد نستهزىء بمثل هؤلاء الناس فى خبث وشر ، ولكن مهما نصبح أشراراً ، لا سمح الله ، فما ان نتذكر اليوم الذى دفنا فيه ايليوشا ، والحبَ الذى حملناه له فى الآونة الأخيرة ، وهذه المودة والصداقة والمحبة التى ترين على حديثنا فى هذه الدقيقة قرب هذه الصخرة حتى أن أشدنا ميلاً الى القسوة وحباً بالتهكم — هذا اذا أصبحنا قساة متهكمين فى يوم من الأيام — لن يجرؤ ، متى استيقظت فى خياله هذه الذكرى ، لن يجرؤ ، فى قرارة نفسه ، أن يسخر من العواطف الطيبة والمشاعر الكريمة النبيلة التى هزته أثناء هذه اللحظات . ومن يدرى ؟ ربما استطاعت هذه الذكرى أن تصده فى اللحظة المناسبة عن ارتكاب عمل سيئ ، فمتى

تذكرها ثاب الى ذاته وحدث نفسه قائلاً : «نعم ، لقد كنت في ذلك الوقت طيباً شجاعاً شريفاً» . قد يبتسم قليلا حين يتذكر هذا العهد . . . لا ضير . . . انه لأمر طبيعي أن يتندر الانسان على ما هو خير وطيب وبراءة . تلك خفة وطيش لا أكثر . ولكن أؤكد لكم يا سادتي ان أحدنا ما ان يبتسم قليلا حينذاك حتى يبادر الى لوم نفسه في قرارة قلبه قائلاً : «لا ، لقد أخطأت حين ابتسمت ، فلا مزاح في هذه الأمور» .

هتف كوليا يقول وقد سطعت عيناه :

— ذلك ما سيكون يا كارامازوف ! انني أفهمك يا كارامازوف !

واضطرب الصبية الآخرون أيضا ، وتمنوا أن يصيحوا قائلين شيئاً ما ، ولكنهم كبحوا جماح أنفسهم ، وحدّقوا الى الخطيب تحديقاً شديداً يفيض بالانفعال والحنان . وتابع أليوشا كلامه فقال :

— انما أقول لكم الآن هذا الكلام مخافة أن نصبح أشراراً . ولكن لماذا نتصور هذا الامكان ، علام نقدّر أن من الجائز أن نصبح أشراراً ؟ أليس كذلك يا أصدقائي ؟ الا فلنكن ولنصبح أخيارا قبل كل شيء ، ولنكن شرفاء بعد ذلك ، ثم فليتذكر بعضنا بعضاً الى الأبد . انني الح على هذا ، وأعاهدكم ، من جهتي ، على أنني لن أنسى أي واحد منكم ! سأظل أتذكر ، ولو بعد ثلاثين عاماً ، كل وجه من وجوهكم هذه التي تنظر اليّ الآن . منذ قليل زعم كوليا للفتى كارتاشوف أننا نؤثر «أن نجهل وجوده بيننا» . ولكن أنّى لي أن أنسى وجود كارتاشوف الذي أصبح لا يحمر في هذه اللحظة كما احمر حين ظن انه اكتشف طروادة ، والذي ينظر اليّ الآن بعينيه الطيبتين

الباشتين الفرحتين . يا أصدقائي ، يا أصدقائي الأعزة ، لنكن جميعاً كراماً شجعاناً كما كان الصغير ايليوشا ، لنكن جميعاً جسورين نبلاء أذكياء مثل كوليا (الذي سيتوهج ذكاؤه . مزيدا من التوهج حين يكبر) ، ولنكن جميعاً خجولين على ذكاء وحلاوة مثل كارتاشوف ! ولكن لماذا أتكلم عن هذين الاثنين فحسب ؟ انني من اليوم أحبكم جميعاً يا أصدقائي ، فستحيون جميعاً في قلبي ، وأرجو أن أحيا في قلوبكم أيضا ! من ذا الذي وحّدنا الآن على هذه العاطفة النبيلة الطيبة التي سنظل نتذكرها بغير انقطاع ، والتي سيظل يجب علينا وسنظل نريد أن نتذكرها بقية العمر ؟ من ذا الذي وحّدنا على هذه العاطفة الا ايليوشا ، ذلك الفتى الطيب الرائع ، ذلك الفتى الذي سنظل نحمل ذكراه الغالية الى الأبد ؟ نعم ، يجب أن نتذكر ايليوشا مدى الحياة ، يجب أن لا ننساه قط . ألا فلتعش في أرواحنا ، ألا فلتعش في قلوبنا ذكرى هذا الفتى الطيبة الأبدية ، الآن والى آخر الزمان !

— نعم نعم ، ذكراه الطيبة الأبدية !

كذلك ردّد جميع الصبية بأصواتهم الرنانة بينما كانت تُقرأ على قسمات وجوههم عاطفة قوية عارمة .

— ألا فلتتذكر وجهه ، فلتتذكر ثيابه ، وحذاءيه الصغيرين الفقيرين ، ونعشه ، ألا فلتتذكر أيضاً أباه الشقي الخاطئ ، ولتتذكر تلك الجرأة التي أظهرها ايليوشا في دفاعه عنه ضد جميع تلاميذ الصف !

— نعم نعم ، فلنتذكر هذا كله ! لقد كان شجاعا ، وكان طيباً !

بهذا راح يهتف الصبية من جديد .

وصاح كوليا قائلاً :

— آه . . . كم كنت أحبه !

— يا أصدقائى الأحبة ، يا أبنائى ، لا تخافوا الحياة ! ما أجمل الحياة حين يحقق المرء فى هذا العالم شيئاً من خير وعدل !

— نعم نعم ، صحيح . . .

كذلك ردَّد الصبية فى حماسة .

وقال صوت ، هو صوت كارتاشوف فيما يبدو :

— نحن نحبك يا كارامازوف !

فكرر جميع الصبية قوله :

— نحن نحبك ، نحبك !

وسالت دمعة من أعين عدد كبير منهم .

وصاح كوليا يهتف بلهجة فيها حماسة :

— مرحى كارامازوف !

فأضاف أليوشا يقول بانفعال :

— وعاشت أبدية ذكرى الميت الصغير !

فردد الصبية بصوت واحد :

— عاشت أبدية !

وقال كوليا سائلاً :

— كارامازوف ، هل صحيح ما يعلمنا اياه الدين من أننا سنُبعث أحياء بعد الموت فى يوم من الأيام ، فيرى بعضنا بعضاً ، ونرى إيليوشا ؟

— هذه حقيقة مطلقة . لا شك فى أننا سنبعث أحياء بعد الموت ، فنلتقى جميعاً ، ويقص بعضنا على بعض ما وقع له بفرح ومرح .

بهذا أجاب أليوشا بين هزل وحماسة . فقال كوليا صائحاً :

— آه . . . ما أروع هذا !

— كفانا الآن كلاما ، وهَّيا بنا الى وجبة احياء ذكرى الميت . ولا تقلقنكم الفطائر التى سنأكلها . هذه عادة قديمة لها جانبها الجميل أيضا . هيَّا بنا الى الطعام يداً بيد .

كذلك قال أليوشا ضاحكا . فصاح كوليا يقول من جديد بصوت يفيض حماسة :

— نعم ، يداً بيد ، وليكن الأمر كذلك على مدى حياتنا كلها . مرحى كارامازوف .

وردَّد سائر الصبية هتاف كوليا بصوت واحد .

١٨٧٩ — ١٨٨٠

58-1306

حواش

ص ٢٥

• «كانت حياته هادئة وادعة» : يضيف دوستويفسكى هنا حاشية الشرح التالية : «حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الصومعة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية كانت حياته هادئة وادعة ، اما اذا كان الراحل راهبا كاهنا ، فانه يرتل له النشيد «ربنا هب لنا من لدنك عونا واحمنا» .

ص ٤٤

• «فينيا» : تصغير اسم فيودسيا .

ص ٥٦

• كتب دوستويفسكى يقول بصدد اسطورة «البصلة» «لقد اخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة ، ولا شك أنه يسجل الآن **أول مرة** . أنا على الاقل ، لم يسبق لى ان رأيته» . اسطورة «أخو المسيح» ذات الموضوع المشابه قد وردت فى «مجموعة الأساطير الروسية الشعبية» التى جمعها المؤرخ والباحث الادبى والمتخصص فى الآداب الشعبية الكسندر افاناسيف (١٨٢٦ — ١٨٧١) وقد صدرت عام ١٨٥٩ فى طبعتين فى لندن وموسكو . ويبدو ان دوستويفسكى لم يطلع على هذه المجموعة .

ص ٧٢

• «وفى اليوم الثالث كان عرس قانا الجليل . . .» : من انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ — ٩ .

ص ٧٣

• «يؤكد المؤرخون ان الاهالى . . . كانوا أفقر الناس . . .»

الاقرب الى الظن ان دوستويفسكى يتحدث هنا عن الاديب الفرنسى جوزيف ارنست رينار (١٨٢٣ — ١٨٩٢ Renan) وعن كتابه «حياة المسيح» «Vie de Jesus» الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦٣ ، ويتضمن اشارات كثيرة الى الفقر الذى كان يعيش فيه الناس الذين خاطبهم المسيح بدعوته .

ص ١٢٢

• «كفى !» اشارة الى قصة تورجنيف التى تحمل هذا العنوان والتى ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراءه .

ص ١٢٢

• «ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمنى من النوم» .

دأبت الصحافة خلال ستينات وسبعينات القرن الماضى على مناقشة الاوضاع المالية الروسية . ونشرت مجلة «المواطن» التى كان يرأس تحريرها دوستويفسكى آنذاك عدة مقالات حول هذا الموضوع .

ص ١٢٥

• «لقد كتبت فى هذا الى شيدرين»

ميخائيل سالطيكوف — شيدرين (الاسم الحقيقى : سالطيكوف ، والاسم المستعار : شيدرين) (١٨٢٦ — ١٨٨٩) هو كاتب هجائى . وقد بدأ الجدل بينه وبين دوستويفسكى منذ الستينات . وكان دوستويفسكى قد اشار اليه اشارة ساخرة فى روايته «الاخوة كارامازوف» فرد عليه سالطيكوف — شيدرين فى مجلة «المذكرات الوطنية» التى كان يرأس تحريرها . والرسالة التى كتبتها السيدة خوخلاكوفا الى شيدرين تشبه الرسالة التى تلقاها دوستويفسكى من سيدة مجهولة من بطرسبرج فى اول مارس ١٨٧٦ والتى جاء فيها : «لو كان من الممكن أن اصبح الى جوارك فى هذه اللحظة ، لعانقتك يا فيدور ميخايلوفتش بكل سرور على «يومياتك» عن شهر فبراير . فكم بكيت وأنا اقرأها ، وعندما فرغت منها استولى على روحى احساس بالعيد يجعلنى اقول شكرا لكم . ام» . وكان عدد فبراير ١٨٧٦ من «يوميات الكاتب» مخصصا كله تقريبا لقضية التنكيل بفتاة صغيرة ، وهى القضية المعروفة بـ«قضية كرونبرج» (راجع المجلد الاول من هذه الطبعة) .

ص ١٢٥

• «ان كلمة «عصرية» كان يمكن ان تذكره بمجلته «المعاصر» وان توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن» «سوفريمينيك» («المعاصر») مجلة أدبية واجتماعية — سياسية اسسها الشاعر الكسندر بوشكين عام ١٨٣٦ . وفى خلال سنوات ١٨٤٠ — ١٨٦٠ أصبحت لسان حال القوى الديمقراطية الثورية الروسية . ولهذا السبب تعرضت «المعاصر» لمضايقات شديدة من جانب الرقابة . وهذه الغمزة من جانب دوستويفسكى ضد شيدرين ومجلة «المعاصر» التى رأس شيدرين تحريرها

فترة من الزمن هى بمثابة صدى متأخر لذلك الجدل العنيف بين «المعاصر» ومجلتى الاخوين دوستويفسكى «الزمن» (١٨٦١ — ١٨٦٣) و«المعاصر» (١٨٦٤ — ١٨٦٥) .

ص ١٣٢

• «الصمت وحده يهمهم» . . .

استشهاد محور بيت من قصيدة «روسلان ولودميلا» (١٨٢٠) للشاعر الكسندر بوشكين : وربما ظننت . . يهمس السكون . . .

ص ١٤٧

• «متجر آل بلوتنيكوف» : ذكرت ارملة دوستويفسكى ان زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية بلوتنيكوف ، فى مدينة ستارايا روسا ، ليشترى منها مقبلات وحلاوى .

ص ١٥٣

• بيتان من الشعر يقولهما اوليس فى المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها «عيد النصر» ، وهى تصور معسكر اليونان بعد اخذ طروادة وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة الروسية تيوتشيف سنة ١٨٥١ .

ص ١٦١

• شطران الفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ووردهما فى الصفحة ٢٢٥ من الجزء الاول من هذه الرواية .

ص ١٦٣

• «اشعر بحزن شديد . . وأسفاه ! مسكين يوريك ذلك» .

هنا يستشهد ميتيا استشهادا غير دقيق بعبارات هملت من مسرحية «هملت» للشاعر والمسرحى البريطانى ويليام شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) ، حيث نجد هملت فى المشهد الاول من الفصل الخامس الختامى ممسكا بجمجمة يوريك ، مهرج البلاط السابق ، ومتحدثا عن فناء كل الاحياء .

ص ١٦٥

• «بضعة اسطر اخرى واتم القصيدة»

استشهاد محرف بمونولوج الراهب المؤرخ بيمن فى مسرحية «بوريس جودونوف» للشاعر الكسندر بوشكين (١٨٢٤ — ١٨٢٥) :

مازال ثمة قول أخير
وأفرغ من تدوين الاحداث . . .

ص ١٧٨

• كان موظفو دوائر الدولة فى روسيا يرتدون زيا رسميا .

ص ١٨١

• «بارين» : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم فى روسيا قبل الثورة (١٩١٧) .

ص ١٩٥

• «النفوس الميتة» هى رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التى كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكى . اما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية .

ص ١٩٧

• «نوزدريف كان اسمه الحقيقى نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظى بكلمتى nozdri ومعناها «المنخران» و noss ومعناها «الانف» .

ص ١٩٨

• «اهذا أنت . . . الشاعر.بوالو ؟ . . .» : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى . آ . كريلوف تستهزئ ترجمة قصيدة «L'art poetique» نشرت لاول مرة سنة ١٨١٤ .

ص ١٩٨

• أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها «قصيدة الى سافو جديدة» ، وفيها يتهكم بالشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا ، آسفا على أنها لم تغرق كما غرقت الاديبة اليونانية الشهيرة سافو .

ص ٢٠١

• «انتى اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ !» : فى عام ١٧٧٢ ، وعند التقسيم الأول لبولندا فيما بين روسيا وبروسيا والنمسا ، ضُمَّ الى روسيا الجزء الشرقى من بيلوروسيا والقسم الكاثوليكى من لاتفيا الحالية (لاتغاليا) . اما الأراضى البولندية الأصلية فضمت الى النمسا وبروسيا .

ص ٢٠٥

• «لا شك ان النقيب يعرف قصة البان بودفيسوتسكى ؟» : كتب دوستويفسكى فى رسالة بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٧٩ : «أدخلت نادرة البان بودفيسوتسكى ، تلك النادرة الاسطورية لدى جميع لاعبى الورق الغشاشين البولنديين الصغار الشأن . وقد سمعت هذه النادرة ثلاث مرات فى حياتى ، فى اوقات مختلفة ومن بولنديين مختلفين . فهم لا يجلسون الى اللعب دون أن يروا هذه النادرة» .

ص ٢٢٣

• «انهم يلعبون ألعابهم الربيعية منتظرين طلوع الشمس فى الليل الصيفى» : سلسلة من الاعياد الربيعية الشعبية مرتبطة بالتقاليد الوثنية . انتظار طلوع الشمس من العناصر المألوفة لهذه الالعاب .

ص ٢٢٣

• كتب دوستويفسكى يقول فى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبـــر) ١٨٧٩ : «هذه الاغنية ، التقطتها بنفسى ، وهى مثال على الفن القروى الحالى» .

ص ٢٣٣

• «وفى قلبه تضطرم . . . عاطفة كاوية ثابتة» : تحوير لبيتين من قصيدة «النبى» (١٨٢٦) للشاعر الكسندر بوشكين) .

ص ٢٣٩

• سأظل احبك «فى سيبريا ايضا» : فى سيبريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة .

ص ٢٤١

• كانت السلطات التى ينتخبها الفلاحون فى قرية من القرى تحمل على صدورها صفائح معدنية تشير الى رتبها أثناء ممارستها عملها ، وهى تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائى .

ص ٢٥٥

• «معنى بعض الاصلاحات» : اشارة الى اصلاحات الكسندر الثانى فى سنوات ١٨٦١ — ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائى ، الخ) .

ص ٢٧٥

• «كنت ابحث عن نبل الطبيعة الانسانية بحث ديوجين عنه ان صح التعبير حاملا مصباحا . . .» : ديوجين سينوبسكى (حوالى ٤٠٤ — ٣٢٣ قبل الميلاد) فيلسوف يونانى قديم . وقالت الاسطورة ان ديوجين كان يحمل مصباحا فى النهار لانه ، حسب قوله «كان يبحث عن الانسان» .

ص ٢٨٩

• «يا قلب ، صمتاً واذعاناً وتسليماً» : استشهاد غير دقيق من قصيدة «الصمت» للشاعر الروسى تيوتشيف (١٨٣٠)

ص ٣٧٣

• استشهاد من قصيدة «قبيل المطر» (١٨٤٦) للشاعر الروسى نيكولاى نيكراسوف :

ويقبل البرد
تياراً جافاً وحاداً .

ص ٣٧٣

• «كان سكرتيرا حكوميا» : السكرتير الحكومى موظف من الدرجة الثانية عشرة وهى رتبة تقابل فى الجيش رتبة ملازم ثان .

ص ٣٧٩

• «كتاب سماراجدوف» : فى الكتاب المدرسى «المرشد فى معرفة التاريخ القديم لدور التعليم المتوسط» من وضع س . سماراجدوف ، بطرسبرج ، ١٨٤٠ ذكر ان مؤسسى طروادة (ايليون) هما طرواد وابنه ايل . وطروادة مدينة قديمة فى شمال غرب آسيا الصغرى وترجع شهرتها الى ملحمة «الالياذة» الاغريقية . وقد اكتشفت طروادة فى الحفريات التى جرت سبعينات القرن الماضى .

ص ٣٨٤

• «ناستيا» : تصغير آناستاسيا .

ص ٣٨٥

• «كوستيا» : تصغير كونستانتين .

ص ٤٣٦

• «قريب محمد او الجنون النافع» : رواية فرنسية ماجنة من تأليف فروماجيه (١٧٤٢) وقد ترجمت الى الروسية سنة ١٧٨٥ فى عهد «حرية الطباعة» . ويتحدث بطل هذا الكتاب ، وهو فرنسى وصل الى القسطنطينية ، عن مغامراته الغرامية المتنوعة .

ص ٤٤٧

• «اللغات المندثرة» : المقصود بها هنا اللاتينية واليونانية القديمة ، او ما يسمونه فى الغرب اللغات الكلاسيكية . ومن المعروف ان وزير التعليم ، الكونت دمترى تولستوى قد زاد زيادة كبيرة عدد ساعات تدريس اللاتينية واليونانية القديمة فى المدارس الثانوية . وذلك اجراء كانت الاوساط الليبرالية تعده رجعياً .

ص ٤٥١

• «صحيح ان فكرة الله ليست الا افتراضاً . . . اذا كان الله غير موجود ، فيجب ان نخترعه . . .» : يردد كوليا هنا عبارة الكاتب والفيلسوف الفرنسى مارى فرانسوا فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) «s'il n'existait pas Dieu il faudrait l'inventer»

ص ٤٥١

• «ألا يمكن ان يحب المرء الانسانية دون ان يؤمن بالله ؟ لقد كان فولتير مثلاً لا يؤمن بالله ، ومع ذلك كان يحب الانسانية» .

هذا الكلام هو تحوير لعبارات الناقد الروسى والثورى الديمقراطى فيساريون بيلينسكى (١٨١١ — ١٨٤٨) التى وردت فى رسالة بيلينسكى الى جوجول (١٨٤٧) . وقد قرأ دوستويفسكى «رسالة بيلينسكى الى جوجول» فى حلقة الاشتراكى الطوباوى الروسى ميخائيل بتراشيفسكى (١٨٢١ — ١٨٦٦) . وقد وجهت لجنة التحقيق فى قضية حلقة البتراشيفسكيين اتهامها الى دوستويفسكى بصدد هذه الواقعة بصفة خاصة . وفيما بعد ، أثر عودة دوستويفسكى من الاشغال الشاقة فى سيبيريا ، كثيراً ما كان يجادل فى افكار بيلينسكى الواردة فى الرسالة ، وذلك انطلاقاً من قناعته هو ، دوستويفسكى .

ص ٤٥٢

• . . قرأت «كانديد» فى ترجمة روسية ، ترجمة قديمة ، كريهة ، فظيعة .» : كانديد او «التفاؤل» رواية فلسفية لفولتير (١٧٥٩) ، تسخر من فلسفة التفاؤل للفيلسوف والرياضى الالمانى غ . ف . ليبنتس (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

ص ٤٥٣

• «واعلم بالمناسبة انى لا آخذ على المسيح شيئاً . . . ولو عاش فى عصرنا لانضم الى الحركة الثورية . . .» : كتب بيلينسكى فى رسالته الى جوجول : «. . . ولماذا اقحمت المسيح هنا ؟ وما الذى رأيته يجمع بينه وبين أى كنيسة ، ومن باب اولى الكنيسة الارثوذكسية ؟ لقد كان اول من اعلن فى الناس تعاليم الحرية والمساواة والاخوة وأكد باستشهاده صدق تعاليمه» . ثم كتب ايضاً : «ان من يقدر على المعاناة لدى رؤية الآخرين ، ومن يثقل عليه مشهد اضطهاد الغرباء . . فهذا يحمل المسيح فى قلبه . . .» .

ص ٤٥٤

• «قرأت كلامه عن تاتيانا . . .» : المقصود هنا بطلة رواية بوشكين الشعرية «يفجينى اونيجين» (١٨٢٣ — ١٨٣١) :

«انى اهواك (فما الداعى للكذب ؟)
لكننى زُوجت من آخر
ولَهُ ابقى وفيةً ما حييت .

وفى احدى مقالاته عن بوشكين كتب بيلينسكى فى غضب معلقاً على رد تاتيانا السابق على اونيجين : «يا له من اباء حقيقى للفضيلة النسائية ! الوفاء الابدى . لمن وفيم ؟ الوفاء لعلاقات تعد امتهانا للمشاعر ولطهارة الانوثة ، لان بعض العلاقات التى لا يكتنفها الحب هى لااخلاقية الى اقصى حد» . اما دوستويفسكى فقد اعتبر فى خطابه الذى القاه فى حفل افتتاح تمثال بوشكين (١٨٨٠) متناولاً شخصية تاتيانا واسباب رفضها هجر زوجها واللحاق بأونيجين ، اعتبر تصرفها ، خلافاً لتقدير بيلينسكى ، مظهراً للاحساس الاخلاقى السامى الذى لا يسمح لها بأن تبنى سعادتها الشخصية على آلام الآخرين .

ص ٤٥٥

• «الشعبة الثالثة» : هى ادارة الشرطة السياسية التى كان مقرها قرب «جسر الجنازير» على نهر فونتانكا . والشطران التاليان مستمدان من قصيدة هجائية ساخرة نظمها الشاعر الفكاهى د . مينايف بمناسبة حفلات يلقى فيها الشعر على الشعب وتنظمها جمعية خيرية فى مبنى قريب ، ولكن ما لبث هذان البيتان ان اصبحا يقصدان «الشعبة الثالثة» .

ص ٤٥٥

• «الناقوس» : «الناقوس» جريدة ثورية حررها الكاتب الثورى الروسى الكسندر هرتسين (١٨١٢ — ١٨٧٠) والشاعر الروسى نيكولاى اوجاريوف (١٨١٣ — ١٨٧٧) . وقد صدرت فى لندن من عام ١٨٥٧ حتى ١٨٦٧ وكانت توزع فى روسيا سراً . وقد لعبت «الناقوس» دوراً هاماً فى تربية الطليعة المثقفة فى روسيا .

ص ٤٦٩

• «الا فليعقل لسانى اذا نسيتك يا ورشليم . . .» : المزمور المائة والسابع والثلاثون ، ٥ — ٦ .

ص ٤٩٢

• «الشائعات» : لعل الاشارة هنا الى مجلة «الصوت» ، التى اصدرها آ . آ . كرايفسكى من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٨٣ ، وكانت ذات اتجاه ليبرالى معتدل .

ص ٤٩٨

• «ان فى النية اقامة نصب تذكارى لبوشكين . . .» : كان الناس منذ سنة ١٨٦٢ يتكلمون عن اقامة نصب تذكارى للشاعر الكبير بوشكين ، وفى سنة ١٨٧١ اعلن فى الجرائد عن اكتتاب تبرعات . وجرى افتتاح النصب التذكارى لبوشكين فى ٦ حزيران ١٨٨٠ ، فى موسكو .

ص ٥٢٣

• «الايطيقا» : هى كلمة يونانية معناها علم الاخلاق .

ص ٥٢٤

• «كلود برنار» (١٨١٣ — ١٨٧٨) : هو عالم الفزيولوجيا الفرنسى المشهور ، مؤسس علم الامراض التجريبى . وقد نشرت عنه فى الآونة التى بدأ فيها دوستويفسكى كتابة روايته طائفة كبيرة من المقالات . وان ميتيا يطلق اسم برنار على الماديين الملحدين .

ص ٥٢٥

• «لا جدال فى الآراء» : قالها كوليا بالغة اللاتينية (de opinionibus non est disputandum) وهى تحريف للمثل اللاتينى القائل : «لا جدال فى الاذواق» (de gustibus non est disputandum)

ص ٥٩١

• «بيتر» : هو اسم التحبب المألوف الذى كان سكان بطرسبرج يطلقونه فى الماضى على مدينتهم .

ص ٥٩٦

• «لم أكن الا خادمك لتشاردا» : ليتشاردا خادم الملك جويدون فى الرواية المترجمة «قصة بوفا ابن الملك» التى صدرت فى روسيا فى القرن السادس عشر وذاعت شهرتها . وفى الجزء الاول من هذه الطبعة سمى سمردياكوف نفسه «خادم ليتشاردا» بالنسبة الى ميتيا . والسخرية هنا تتجلى فى ان ليتشاردا — الصورة الادبية لشخصية سمردياكوف — كان يخدم بنفس الدرجة من «الوفاء» سيده الملك وزجته الشريرة التى فكرت فى اغتيال زوجها .

ص ٦٠٠

• «مواعظ أبينا المقدس اسحق السورى» : اسحق السورى ناسك من القرن السابع قرأ دوستويفسكى خطبه ومواعظه مترجمة الى الروسية .

ص ٦٢٣

• «ان القديس توما لم يؤمن لانه رأى المسيح يبعث» : ابى توما ، تلميذ المسيح ، ان يؤمن بقصة بعث المسيح . وعندما ظهر المسيح للتلاميذ مرة اخرى هتف توما : «ربى والهى» فقال المسيح موضحاً : «لأنك رأيتنى آمنت . طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (انجيل يوحنا ، الاصحاح ٢٠ ، الآيات ١٩ — ٢٩) .

ص ٦٣٣

• «وسيدون جاتسوك ذلك فى التقاويم» : هو الكسندر جاتسوك (١٨٣٢ — ١٨٩١) ، ناشر حولية «تقويم الصليب» ، التى كانت رائجة جدا فى ذلك الحين .

ص ٦٣٦

• «كتبت ايضا مسرحيات هزلية» : أقوال المتفاخر خليستاكوف ، شخصية مسرحية جوجول «المفتش العام» .

ص ٦٣٨

• «انا افكر فانا اذن موجود» : هى القاعدة الشهيرة التى تقوم عليها فلسفة

الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) والتى وردت فى كتابه «مقالة فى المنهج» (الجزء الرابع) .

ص ٦٤٠

• «ينكر كل شىء ، ينكر القوانين والشعر والايمان» : جملة مستمدة من المسرحية المشهورة التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : «وذو العقل يشقى» (الفصل الرابع ، المشهد الرابع) .

ص ٦٤٦

• «وارجلهم فى الفضاء ، على حد تعبير الممثل جوربوتوف» : هو ايفان جوربوتوف (١٨٣١ — ١٨٩٠) ، الفنان الهزلى الذى اشتهر كثيرا بقصصه المضحكة ونوادره التى كان يلقيها فى الجمهور .

ص ٦٤٩

• «. . . ان ارتدى ثياب مستشار دولة محال على التقاعد سبق له ان خدم فى القفقاس ، فهو يضع على ردائه وسام «الاسد» و«الشمس» . . .» : اى موظف من الدرجة الخامسة نال فى القفقاس هذا الوسام من شاه ايران (فالأسد والشمس هما شعارا تلك البلاد) .

ص ٦٤٩

• «حين جاء مفستوفيليس الى فاوست قال انه يريد الشر ثم هو لا يستطيع ان يفعل الا الخير» : هذه هى الكلمات التى قالها الشيطان فى الفصل الاول من «فاوست» جوته (المشهد الثالث) .

ص ٦٤٩

• «لص اليمين» : لص اليمين ولص الشمال هما فيما تقول الاناجيل السارقان اللذان صلبا مع المسيح وآمن اولهما قبل موته .

ص ٦٥٤

• «تذكر محبرة لوثر» : ان المصلح الدينى مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) زعيم حركة الاصلاح الدينى فى المانيا (حركة معادية للاقطاع اتخذت صبغة النضال ضد الكنيسة الكاثوليكية) ، كان يؤمن بوجود الشيطان . وثمة رواية تقول ان «الشيطان

تمثل امام لوثر ليغويه عندما كان جالسا يترجم التوراة فرماه بمحبرته . وما يزال الناس يرون بقعة الحبر على جدار غرفة النسك التى كان يقيم فيها لوثر . وان هلوسات ايفان كارامازوف تذكر بعض الشىء بذلك «الحوار مع الشيطان» الذى تحدث عنه المصلح الدينى .

ص ٦٩٥

• «انهما خدما التاج» : اى خدما العرش ، اى خدما المملكة ، اى خدما الدولة . كان تعبير «خدمة التاج» شائعا جدا فى بولندا حيث كان تستعمل كلمة التاج وحدها دلالة على المملكة ، ولم يكن هذا التعبير شائعا فى روسيا مثل هذا الشيوع .

ص ٦٩٧

• «الاخوان الموافيين» : ملة بروتستانتية ظهرت فى موافيا فى القرن السادس عشر . الهيرنجوتية — حركة دينية اجتماعية ظهرت فى القرن الثامن عشر فى سكسونيا فى منطقة هيرنجوت ، وانتشرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكانت تعاليم الهيرنجوتية فى روسيا تستهدف اعادة التربية الاخلاقية للبشر . وترجع جذور هذه الدعوة الى تعاليم «الاخوان الموافيين» ، تلك الطائفة الدينية التشيكية التى ظهرت فى القرن الخامس عشر . وفى البداية كانت تعاليم «الاخوان الموافيين» تنكر الدولة وانقسام المجتمع الى فئات واللامساواة فى الملكية ، كما تعارض دعوة «عدم مقاومة الشر» ، ولكنها بالتدريج تحولت الى دعوة الى الاذعان وعدم المقاومة .

ص ٧٢٨

• «خبزا وعروضاً !» : ذلك ما كان يطلبه الشعب فى روما القديمة .

ص ٧٤٤

• «فى قاعات المحاكم الجديدة العلنية التى منحنا اياها فى عهد القيصر الحالى» ادخل نظام قضاء المحلفين العلنى المفتوح الى روسيا فى الاصلاح القضائى لعام ١٨٦٤ . وخلال الستينات والسبعينات نشرت الصحف والمجلات تقارير من المحاكم ونصوص المرافعات التى كانت تتلى فى القضايا التى تمثل اهمية ما .

ص ٧٤٥

• «فهو ضابط شاب لامع ينتمى الى الأوساط الارستقراطية» المقصود هنا قضية صف الضابط المحال الى التقاعد لانسبرج الذى اتهم بقتل احد معارفه ويدعى فلاسوف

والمواطنة الحضرية سيميتيدوفا . وقد كتبت جريدة «الصوت» عن هذه القضية بالتفصيل فى ٧ — ١٠ يوليو ١٨٧٩ .

ص ٧٤٧

• «ان كاتبا كبيرا من كتاب عهد قريب ، قد شبه روسيا بعربة ترويكا تعدو عدوا سريعا نحو غاية مجهولة . . .» : هو الكاتب الروسى الكبير جوجول فى كتابه «النفوس الميتة» (الجزء الاول ، الفصل ١٠) . والترويكا عربة تجرها ثلاثة احصنة .

ص ٨٤٩

• «انا الراعى الصالح . . .» : من اقوال المسيح فى انجيل القديس يوحنا (الاصحاح العاشر ، ١١) .

ص ٨٥٠

• «وانتم ايها الآباء لا تغيظوا أولادكم» : رسالة بولس الرسول الى اهل افسس (الاصحاح السادس ، ٤) .

ص ٨٥١

• «بالكيل الذى به تكيلون يكال لكم» : من اقوال المسيح فى انجيل متى (الاصحاح السابع ، ٢) وانجيل مرقس (الاصحاح الرابع ، ٢٤) .

ص ٨٥١

• «ان لا نكون شبيهين بزوجات التجارفى موسكو اللواتى يؤمن بالخرافات ، فيخشين كلمتى «معدن» و«كبريت» : ان الخشية الخرافية من هاتين الكلمتين الاجنبيتين قد ابرزها آ . ن . اوستروفسكى فى مسرحيته الهزلية «الايام المشئومة» (الفصل الثانى ، المشهد الثانى) التى مثلت سنة ١٨٦٣ .

ص ٨٥٣

• «اطردوا الامور الطبيعية من الباب ترجع اليكم من النافذة» : تعبير شائع مستمد من مقالة للكاتب ن . م . كارامزين ، وقد اصبح هذا التعبير من الامثال السائرة فى روسيا .

ص ٨٧٠

• «لن يقل الحكم عليه عن عشرين عاما بالاشغال الشاقة» : كانت عقوبة جريمة قتل الاب فى قانون العقوبات الروسى لعام ١٨٤٥ هى الاشغال الشاقة المؤبدة . ولكن الملازم ايلنسكى ، الذى تشبه حالته حالة ميتيا ، لم يحكم عليه الا بعشرين عاما ، بسبب الشك فى ارتكابه الجريمة .

ص ٩٠١

• «ليعدل العصابة التى تعصب جبين الميت» : هى عصابة من قماش الساتان او من الورق يمثل عليها يسوع المسيح ومريم العذراء والقديس يوحنا ويحاط بها جبين الميت .

ص ٩٠٢

• «راح يغرقه بالقبل فى ظمأ لا يرتوى» : فى روسيا يبقى التابوت مفتوحا اثناء قداس الجنازة ، حتى اذا انتهى القداس جاء الاهل وغيرهم يقبلون الميت قبلة أخيرة . وبعد ذلك يغلق التابوت .

فهرس

الجزء الثالث

الباب السابع . أليوشا ٧
الباب الثامن . ميتيا ٧٩
الباب التاسع . التحقيق التمهيدى ٢٤٣

الجزء الرابع

الباب العاشر . الصبيان ٣٧٣
الباب الحادى عشر . الاخ ايفان فيدوروفتش . . ٤٧١
الباب الثانى عشر . خطأ قضائى ٦٦٧
خاتمة ٨٧١
حواش ٩١٤

ИБ № 4164. Редактор русского текста *Л. Чеботкевич*. Контрольный редактор *В. Комарова*. Художники *Марон Хусейн, Ю. Пименов*. Художественный редактор *С. Барабаш*. Технический редактор *Н. Должикова*. Корректор *А. Хусейн*. Сдано в набор 26.11.87. Подписано в печать 12.10.88. Формат 84×108¹/₃₂. Бумага офсетная. Гарнитура арабская. Печать офсетная. Усл. печ. л. 48,72. Усл. кр.-отт. 97,76. Уч.-изд. л. 53,59. Тираж 10000 экз. Заказ № 1306. Цена 7 р. 20 к. Изд. № 4109. Издательство „Радуга" В/О „Совэкспорткнига" Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 119859, Москва, ГСП-3, Зубовский бульвар, 17. Можайский полиграфкомбинат В/О „Совэкспорткнига" Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 143200, Можайск, ул. Мира, 93.